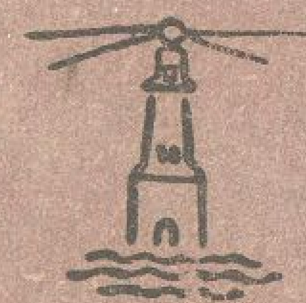
فتحى رضوان

مع الإنسان
فى الحرب والسلام

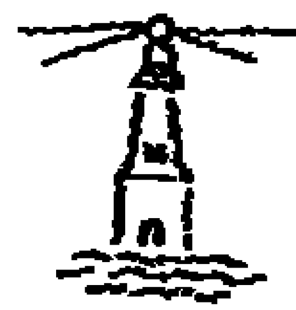


دار المعارف بمصر

مع الإنسان
فى الحرب والسلام

فتحى رضوان

مع الإنسان
فى الحرب والسلام



دار المعارف بمصر
١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

الكِتابُ الأول

تاريخ قديم

الفصل الأول

المسيحية :

الفصل الثانى

الإسلام :

تاريخ قديم

الفصل الأول

المسيحية

« سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم » .

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، أما أنا فأقول لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخرك ميلا فاذهب معه اثنين ، ومن سألك فأعطه » .

« سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم ، أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ؟ »

« فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى هو فى السموات كامل » .

قيل هذا القول منذ ألف وتسعمائة وأربع وستين سنة .

آلاف السنين مضت على البشرية قبله ، وألفا سنة ، أو نحو ذلك — مضت بعده ، وهو بين ما مضى قبله ، وما مضى بعده ، نور متألق ، فى تاريخ الإنسانية .

وقد قاله السيد المسيح ، على جبل أو تل فى أرض فلسطين لجماعة صغيرة من الناس ، كلهم ضعيف لا شأن له ، بين قومه ، وجاهل لم ينل حظًّا من التعليم ، وفقير لا يكاد يجد قوت يومه ، فقد كانوا بين صياد ونجار ، وفلسطين نفسها لم تكن دولة ، فى تاريخ هذا الكلام ، ولم يكن شعبها شعباً يؤبه له أو يحسب له حساب ؛

بل كانت مستعمرة من مستعمرات الرومان ، وكان شعبها فقيراً ومحطماً لكثرة ما عانى من العذاب والاضطهاد والتمزق .

وحياة المسيح كلها لم تزد عن ثلاثين عاماً ، وحياة رسالته منذ بدايتها حتى أتمها لم تزد عن ثلاث سنوات ، ومع ذلك فإن هذه الجمل القصار السريعة التى كانت كأجمل ما نظم الناس من شعر ، وأعذب ما سمعوا من موسيقى ، وأبسط ما نطقوا به من قول ، كانت فى الوقت نفسه أهم وأخطر ما قال السيد المسيح وما فعل . . .

وجاء القرآن ، وجاء رسول الله محمد عليه السلام ، مصدقاً لما بين يديه ، أى للإنجيل وما قبل الإنجيل ، فأكد هذه المعانى . ووضحها ، وطبقها ، وكانت المرحلة الأولى من دعوته ، إظهاراً كاملا لمعانيها ، وتجلية شاملة لمراميها .

فهذه الجمل فى واقع الأمر ، خلاصة الحياة الإنسانية ، وهدفها الأسمى ، وغايتها الكبرى . ولن يكون فى وسع الناس : علمائهم ومفكريهم ، أن يقترحوا للحياة أساساً أفضل ، فقد توالت العصور والحقب وقامت الدول ، ودالت ، ونبتت الحضارات وبادت ، فلم يهتد الإنسان إلى سبيل للسعادة ، غير هذا السبيل ، مع تعدد السبل التى اختارها ، والدروب التى سار فيها ، وأساليب الفكر التى تنقل بينها .

والذى يستمع إلى هذه الآيات لأول مرة إما أن يعتبرها ساذجة لا تنطلى إلا على عقول الأطفال ، أو البلهاء ، وإما بعيدة عن مفهوم الحياة العملية ، وأعلى من طاقة البشر ، بحيث لا يستطيع الالتزام بها أو السير عليها إلا واحد من اثنين : زاهد يقبل من الدنيا أقل القليل ، ويحتمل منها الخسف والشظف وسوء الحال ، بلا تململ أو مقاومة ، أو ضعيف ، خانع ، تعوزه القدرة على الدفع عن نفسه ، ورد الأذى الذى يلحقه .

والحق أننا سمعنا كثيراً سخرية بالغة ، بالمبدأ القائل من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر ، والحق أيضاً أننا لم نر أحداً يطبقه ، أو يقبل تطبيقه ، فالمجادلة فى أنه مبدأ شاق ، وأن أيدى البشر لا تطوله حالا ، لا معنى ولا مبرر لها . ولكنه ، مع ذلك ، وبعد ذلك ، هو المبدأ الذى يمكن أن تقوم عليه حياة الناس

إن أرادوا أن يكونوا بشراً لا وحوشاً ، وأن يضعوا حداً لهذا الصراع العقيم المخزى ، الذى يمزق أواصرهم ، ويعكر حياتهم ، وينشر على وجودهم ظلا رهيباً كئيباً من الخوف والتوجس ، والحقد والكراهية .

ولا يسوغ لنا أن ننتظر من الناس أن يسلموا لتوهم بهذا المبدأ ، وأن يطبقوه ، أو يحاولوا على الأقل أن يطبقوه ، إذ أن حضارات الإنسان المتعاقبة ، قامت على الأساس الفطرى الغريزى : أساس القوة ، والإعلاء من شأن الأقوياء المعتدين واستغلال الضعفاء والاستعلاء عليهم ، والتنافس على أسباب السيادة ، والمباهاة بالنصر فى المعارك ، وتحريك غرائز المقاتلة والحرب فى نفوس الناس ، فى فترات الحرب والسلم على السواء .

وعلى الرغم من أن الإنسان لم يظفر فى ظل هذه الحضارات بغير الشقاء ، ولم يكابد إلا الخوف المقيم ، وعلى الرغم من أنه رأى بعينى رأسه خراب المدن العامرة ، وتحطم الدول القوية وانحسار نفوذ المباهين بالقوة ، وتعرضهم آخر الأمر للمهانة والمذلة ، وانتشار البؤس بسبب الحروب ، وخلالها ، وفى أعقابها ، مع تجدد أسباب الغليان فى المجتمعات الإنسانية ، وانقسام الناس فيها إلى معسكرات تضمر كل منها للأخرى الكراهية ، وتتحفز للقضاء عليها ... على الرغم من هذا كله لم يفكر الإنسان جدياً فى معنى هذه الآيات الباهرات :

« سمعتم أنه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » .

والأمر هنا ليس أمر موعظة دينية نوجهها إلى الناس ، مرتدين مسوح الزهاد ، بل نحن فى نطاق بحث سياسى بحت ، يلتزم الحدود العملية ، بقصد إنشاء نظام عالمى ، يمنع الحروب ، ويضمن للناس أن يعيشوا متآخين ليزدادوا قدرة على أن يستخلصوا من الحياة نصيباً أكبر من السعادة ، وليقضوا على أكبر عدد من أسباب التعاسة .

ولكى يقبل رجال السياسة والحكم وحملة الأقلام ، وأهل الفكر ، أن يناقشوا هذه الآيات ، يجب أن يفهموا ، فى حدود عملية ، ولأهداف عملية ، وبمقاييس

دنيوية ، معنى ما دعا إليه السيد المسيح ، وما نعتبره نحن الأساس العملى الذى يمكن للناس أن يحققوا عليه إنسانيتهم وأن يخلقوا فى ظله نظاماً يحقق لهم الخير ويمنع عنهم شرور الحرب . وأول خصائص الدعوة المسيحية ، فى نطاق الألفاظ التى نطق بها السيد المسيح ، أنها دعوة إنسانية ، أى أنها موجهة للناس كافة ، باعتبار أن الناس كافة ، إخوة متساوون ، ومتشابهون ، وأبناء لأب واحد .

وهو الأمر الذى يحسه كل منا ، مع الآخرين ، من الأجناس والأوطان الأخرى ، حينما نختلط بهم ، وتسقط بيننا أسباب الجفوة أو الشك ، وننطلق على سجيتنا بلا تكلف أو تصنع .

ولم يكن خطاب المسيح إلى الناس ، باعتبارهم إخوة ، وتذكيرهم ببنوتهم لأبيهم الذى فى السموات بالنقلة القليلة الشأن فى تاريخ البشرية ، ولا بالأمر الهين فى تطورها .

فالدين الذى ينظر إلى الناس كأمة واحدة ، أو ككل لا يتجزأ ، لم يتحقق قبل المسيحية .

فقد كان الدين اليهودى ، فى مراحله الأولى ديناً قبلياً ، أى عقيدة قبيلة ، جاءت لتحقق مصالح هذه القبيلة . وكان الإله فى هذا الدين ، مقاتلا لأن القبيلة كانت تقاتل ، وكان قاسياً ، لأن القبيلة كانت فى حاجة إلى قائد قاس .

بل إن روح القبيلة لم تكتمل لبنى إسرائيل فقد كانوا ، بطوناً أو فروعاً من القبيلة الكبيرة ، وقد ظهر هذا واضحاً فى سفر الخروج فى التوراة ، وفى القرآن الكريم ، فقد كانت أسباط يعقوب اثنى عشر فانقسم اليهود بقدر عددهم .

وقد جاء فى القرآن « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم » .

وجاء فى شرح هذه الآية :

« يذكر الله بنى إسرائيل بأن آباءهم لما عطشوا فى التية ، أمر الله موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه الحجر فتفجرت منه عيون بقدر عدد أسباطهم (أى قبائلهم) وكانوا اثنى عشر سبطاً فجرى منه لكل سبط جدول يشربون منه لا يشركهم فيه أحد » .

فقد كانت روح الأثرة شديدة بين تلك القبائل أو الأسباط حتى إنه لم يكن يكفى أن يفجر لهم موسى الماء ليشربوه فى البرية التى هددهم فيها خطر الموت عطشاً ، ولم يكن كافياً أن تزودهم عيون الماء بالقدر الذى يحتاجون إليه من ذلك الماء ، بل كان لازماً أن يخصص لكل قبيلة عين تشرب منها وحدها ، فى وقت تذهل فيه النفوس عن الفوارق القبلية ، والاجتماعية .

ولما صعد موسى إلى الجبل ، وغاب عن قومه أربعين ليلة ، فضللهم السامرى خلالها ، لم يكن الجزاء الذى حل بهم سوى أن تشيع العداوة بينهم ، وأن يقتلوا بعضهم بعضاً ، ذلك لأنهم كانوا مستعدين أصلا ، لهذا الشقاق ، ولأن تضرب القبيلة الأخرى ، وتؤذيها .

جاء فى التثنية ٢٦ فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج :

« وقف موسى فى باب المحلة ، وقال من للرب فالىّ ، فاجتمع إليه جميع بنى لاوى . فقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل ، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ، ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه — وكل واحد صاحبه — وكل واحد قريبه . ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى . ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل » .

ولذلك كان طبيعياً أن يكون الآله عند الإسرائيليين فى هذه المرحلة من حياتهم الروحية والفكرية ، إله للعبرانيين وحدهم فقد جاء فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج :

« فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى ملك مصر ، وتقول له : الرب إله العبرانيين التقانا »

وجاء فى الإصحاح الخامس :

« وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعيّدوا فى البرية ، فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب ، وإسرائيل لا أطلقه ، فقالا له إله العبرانيين قد التقانا .. »

ويذكر إله الإسرائيليين فى الإصحاح السادس ، وهو يعرض على الإسرائيليين أن يعينهم بتحررهم من العبودية لملك مصر ، ثم يتخذهم شعباً له ، ويكون لهم إلهاً .

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم ، وأخلصكم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعباً ، وأكون لكم إلهاً »

وقد وردت نفس القصة فى القرآن فى مواضع كثيرة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يوصف فى هذه الآيات بأنه رب العالمين ، فمثلا جاء فى سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين » .

وليس هذا إلا أمراً طبيعياً فقد كانت الفكرة الدينية عند بنى إسرائيل ، لا تزال فى بدايتها ، وبداوتها ، ولم يكن فى وسع قبيلة ، تائهة فى البرية ، ومهددة بالمخاطر من كل جانب ، ولا وطن لها تقيم فيه ، ولا وحدة تجمعها ، ولا ثقافة تضىء طرقها ، أن تسمو إلى معنى دينى أكبر من هذا المعنى الذى كان الإله فى ظله ، رباً خاصاً يخدم أغراض القبيلة ويضمن لها متطلبات حياتها الدنيا . ومن هنا لا يجوز لنا آن نصدم حينما نقرأ فى سفر الخروج تحريضاً من رب العبرانيين لهم على سرقة المصريين فقد جاء فى الإصحاح الثالث :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين »

كما جاء فى سفر التثنية : .

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسألك ، وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها ، بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتضمها لنفسك ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

كما جاء فى سفر يشوع الإصحاح السادس عن فتح مدينة أريحا كل يد اليهود بقيادة خليفة موسى عليه السلام .

« وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

فقد كان هذا كله من أثر فهم العلاقة بين الله والبشر فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الناس ، ولذلك كان من الإسراف أن نتوقع من رب العبرانيين نصائح ووصايا ذات طابع إنسانى شامل، فقد كان كل من حول العبرانيين خصومالهم ، إذ أصبحوا آخر الأمر كالكرة تتقاذفها أقدام الدولة المصرية ، والدولة الأشورية، وفى هذا المعنى يقول (ويلز) فى كتابه تاريخ العالم :

« ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل — وملوك يهوذا — تاريخ ولايتين صغيرتين ؛ بين شقى الرحى ، تعركهما على التوالى سوريا ثم بابل من الشمال ، ومصر من الجنوب . وهى قصة نكبات وتحررات لا تعود عليهم إلا بأرجاء نزول النكبة القاضية. هى قصة ملوك همج ، يحكمون شعباً من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ قبل الميلاد محت يد الأسر الأشورى مملكة إسرائيل من الوجود وزال شعبها من التاريخ زوالا تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها فى سنة ٦٠٤ ق.م. ما حل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فما تلاها موضع الشك والنقد — ولكنها بوجه الإجمال قصة واضحة الصدق تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التى تمت فى مصر وآشور وبابل إبان القرن المنصرم » .

فقبيلة هذه حالها لا يمكن أن يوصى أبناؤها بأكثر من :

« لا تشهد على قريبك بالزور .

« ولا تشته بيت قريبك ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره

« ولا شىء مما لقريبك »

ولم يكن غريباً أن يكون إله هذه القبيلة إلهاً غيوراً ، كما وصف فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج :

« فإنك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور ، إله غيور هو »

ولكنه على كل حال ، إله واحد :

« أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر ، ومن بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » .

وكونه إلهاً واحداً ليس بالشىء القليل، فالتوحيد مرحلة ذات خطر، فى تطور الإنسان

العقلى والروحى – وهى السبيل الذى سلكته الإنسانية إلى مراحل تالية من الرقى والتسامى .

ولا يغض من شأن هذه المرحلة ، وقيمتها ، أن تكون صورة الإله الواحد ، أقرب ما تكون من صورة رب الأسرة الكبير ، وأن تصدر عن عباده ، فى خطابهم معه ، مالا يتفق مع صورة الألوهية المجردة المنزهة عن كل تصور مادى لها وهى الصورة التى وصلت إليها الإنسانية على يد المسيحية والإسلام .

ومن قبيل ذلك ما جاء أيضاً فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج حكاية لما دار بين موسى عليه السلام والرب :

« فتضرع موسى أمام الرب إلهه ، وقال لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من مصر بقوة عظيمة ويد شديدة لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ، ويفنيهم عن وجه الأرض . أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك ... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »

* * *

جملة القول أن فكرة الإله الذى يشمل الناس جميعاً بربوبيته ، ويظلهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم بهدايته ، ويرسم لهم بغير استثناء ، طريق حياتهم ، لم تكن واضحة فى المرحلة الأولى من حياة العبرانيين ، ولكن النكبة الساحقة التى أصابت اليهود ، نكبة أسرهم ، وطردهم بالجملة من بلادهم إلى بابل سنة ٧٢١ قبل الميلاد ، حيث رسفوا فى ظل الأسر والنفى حتى سنة ٥٣٨ عندما سقطت بابل فى يد (قورش) الفارسى ، إذ أطلق سراحهم ، كانت تحولا روحياً فى حياتهم ، فقد تشتتوا ولم تعد لهم أرض واحدة تضمهم ، فكان منهم من عاش فى بابل ، ومنهم من بقى فى مملكة يهوذا التى بادت بدورها فى سنة ٦٠٤ ق.م فالإله المحلى ، لم تعد فكرته تتفق مع انتشار اليهود فى أكثر من بقعة فى الأرض ، فارتقت فكرة الألوهية ، وتجردت عن خصائصها البشرية ، شيئاً ما . وقد أعان على ذلك أن وجود الإسرائيليين بين ظهرانى الأشوريين ، قد أتاح لهم فرص التحضر والتمدين ، الذى خلت بفضله عقيدتهم مما كان يشوبها فى مراحلها الأولى ، وفى هذا المعنى يقول ويلز أيضاً :

« ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ، ولا متحداً ،

وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا فى عهد يوشع .

« ولكن الأسر البابلى مدنهم ووحدهم ، فعادوا من الأسر ، شديدى اليقظة ، إلى أدبهم . . .

« ولو تأملت قصص خلق آدم وحواء ، والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة لوجدتها شديدة الشبه بأساطير بابلية ، والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون ، فإن لها نظائر سومرية وبابلية » .

فاختفاء الرب المحلى ، والإله الخاص ، الغضوب الغيور جاءت فى أعقابه فكرة أسمى هى فكرة الألوهية المجردة عن الزمان والمكان ، فكرة رب العالمين . ولذلك قرأنا فى هذه المرحلة المتأخرة فى التوراة مثل نبوءة أشعيا التى تقول :

« يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .

* * *

لعلك متبين بعد هذا كله كيف كانت موعظة السيد المسيح على الجبل ، نقلة إنسانية واسعة المدى بعد هذا التاريخ المتسم بالنظرة المحلية ، والفكرة القبيلة ، والعصبية الإقليمية ، فقد عادت الشمس تشرق فعلا .

وهى تشرق على الأبرار والأشرار ، كما أن السماء تمطر على أرض الأحياء والأعداء .

وقد تجسد هذا المعنى ، على نحو تفهمه عقول البشرية حينما قال السيد المسيح »

« فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى هو فى السموات كامل »

ومنذ هذه اللحظة لم يعد الإله ، نصيراً لشعب ، ضد شعب ، ولا خادماً لقبيلة ضد قبيلة ، ولا متحيزاً لجنس على حساب جنس ، إنه إله الجميع ، ورب العالمين ، وخالق البشر أجمعين .

فالبشر إذن إخوة ، وما داموا إخوة ، فوحدتهم ممكنة ، أو على الأقل واجبة ،

وكل سدود العصبية وكل عيوب الاستعلاء ، والتميز ، هى بقية من وهم قديم ، يجب أن تزول . . .

وهذا هو حجر الزاوية فى بناء السلام .

ولكن كيف تكون هذه الدعوة دعوة إلى السلام ، وهى دعوة سامية ، سمواً ، يكلف النفس البشرية أكثر من طاقتها واحتمالها .

وهى فى الواقع سامية سمواً تبدو معه خيالا جميلا، ومثلاً أعلى ، يؤنس الإنسان فى رحلة حياته الشاقة ، ونموذجاً رفيعاً ، يتولى تنفيذه ، والسعى إليه ، الهداة ، الذين يستطيعون أن يتحرروا من كل غرائز الإنسان ، الضاغطة والحافزة ، ليصبحوا ملائكة أو أشبه شىء بالملائكة ، ولكن التاريخ أثبت المرة بعد المرة أن السبيل الذى رسمته هذه الدعوة ، هو السبيل الذى سلكته كل جماعة ، غيرت الواقع الكريه . الذى كان الناس يعيشون فيه ، وتحدت قوى التأخر والجمود .

فقد حقق المسيحيون الأوائل هذه الدعوة بحذافيرها ، وخاضوا معركة رهيبة دامية ، مع أقوى قوى الأرض ، المدججة بالسلاح ، والمؤيدة بالسلطان ، والمرتكزة على عقائد وأوهام الأغلبية الكبرى من البشر .

انتشر رسل المسيحية ، وحواريو المسيح ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، بلا عدة ولاسلاح ولا مال ، فتصدى السلطان القائم لهم ، ولدعوتهم ، يطاردهم ، ويحبسهم ، ويلقيهم إلى السباع ، ويسد فى وجههم المنافذ ، ويخيف أنصارهم ، فماذا كانت النتيجة ؟ انتشرت المسيحية ، وانتصرت ، وخلقت مجتمعاً جديداً ، تربطه أواصر الفكرة الجديدة ، وتدعمه ، وتجعله أقوى من الإمبراطورية البزينطية ، ودولة الرومان .

ولقد تذبذب موقف الحكام من المسيحية فى أوائل عهدها ، من اضطهادها إلى إهمالها ، والإغضاء عنها ، استهانة بها ، وإصغاراً لشأنها ، ثم العودة إلى مزيد من الاضطهاد ، حتى قاد الإمبراطور دقلديانوس حرباً شعواء عليها فصودرت فى سنة ٣٠٣ أملاك الكنيسة ، وجميع الكتب المسيحية ، وكتاباتها الدينية ثم أهدر دم المسيحيين ، فأصبح قتل المسيحى مباحاً لا يعاقب عليه القانون ، بل يستحث الناس على الإقدام عليه ومقارفته .

ولكن ما كادت سنة ٣٢٤ توافى ، حتى أصبح قسطنطين الحاكم الوحيد للعالم الرومانى ، صديقاً للمسيحية ، فلما حضره الموت ، اعتنقها وعمد ، ثم وضعت بعد ذلك شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم .

فما معنى ذلك ؟

معنى ذلك أن السبيل الذى تدعو إليه موعظة الجبل ، هو سبيل مضمون النجاح ، عملياً ، وأن سبيل القوة الباطشة ، والسلاح الأحمق ، والعنف الضارى ، هو سبيل قصار النظر ، الذين يستهلكون أنفسهم ، فيما لا يجدى فى واقع الأمر وحقيقته .

فالفكرة إما أن تكون صالحة ، قادرة على أن تبعث فى نفوس الذين يتلقونها ، عقيدة كاملة ، وإما ألا تكون . فإن كانت ، فقد ضمنت الفوز ، وكتب لها النصر ، ولم تعد فى حاجة إلى قوى ، إلا قوة إيمان أصحابها ، وحسن تنظيمهم لها ، ومثابرتهم على الدعوة ، وتصديهم للنظام الفاسد ، فى كل مكان ، والثبات فى وجه عسفه وبطشه .

أما إن كانت فكرة فجة ، أو فاسدة ، أو كان أصحابها غير أكفاء لتحمل أعباء الدعوة لها ، فليست فى حاجة إلى سلاح ليبطش بها ، فهى ستبطش بنفسها ، أو ستزول كما يزول الزبد ، من فوق سطح الماء .

* * *

ومن هنا ، وجب أن نفهم أن دعوة السيد المسيح إلى نبذ العنف ، هى دعوة عملية ، وليست كلاماً خيالياً ، يسمع ويتلذذ السامعون بجماله ، بل إنه دعوة شاقة ، تحتاج إلى كثير من الإرادة ، والعزم ، واتساع الخيال ، وقوة هائلة من ضبط النفس ، وإيمان عميق بالإنسان ، وقدرته على التطور .

فانتصار المسيحية على القوى التى كانت تعاصرها ، كان انتصاراً روحياً وسياسياً ، أدبياً ومادياً سببه فى المقام الأول إفلاس المجتمع الرومانى — اللاتينى الإغريقى وفساده ، وخلو حضارته من المعنى القديم الذى كان يكسبها رواء ، ويمنحها قوة ، ويمدها بالحياة .

وقد وصف كثير من الكتاب والمؤرخين حالة الإمبراطورية الرومانية ، عند بدء

الدعوة المسيحية ، فعللوا كيف سقطت هذه الدولة الضخمة ، أمام الزحف السلمى الذى قاده المسيحيون الأوائل ، ولكنا نكتفى بلمحات سريعة وموجزة ، ننقلها من كتاب (ويلز) لكيلا يخرجنا الاستطراد عن سياق الحديث الأصيل قال :

« أصيبت روح الإنسان فى عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القسوة والإكراه ، على كل ربوعها . كان هناك لا جرم الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معهما إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محتقرين ، تعسين ، بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين متلهفين على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز فى عدد عظيم من المدن حول انفعالات حلبة المصارعة المضرجة بالدماء ، حيث يصطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون . . والمدرجات هى أبرز عناصر الخرائب الرومانية ، وتمضى الحياة على هذا المنهج ، والقلق الذى يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق » .

ثم قال :

« وكانت رعاية المراسم والخوف من مخالفة القواعد المتبعة والتقاليد والقرابين والخفايا ، تطغى على أذهانهم وتبدو آلهتهم فظيعة ، وغير منطقيه فى نظر عقولنا العصرية » .

ثم تحدث عن أثر دعوة المسيح فى العالم الذى ولدت فيه هذه الدعوة فقال :

« لا شك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور ، فلا عجب إذن إن فات العالم أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكص على عقبيه فزعاً من أى فهم — مهما دق — لتحدياتها الهائلة ، لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السماء ، كما يلوح أن يسوع كان يعلمه للناس ، لم يكن إلا طلباً جريئا لا تسامح فيه يطالب بتغيير كامل ، وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح ، تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء » ثم عقد المقارنة بين العقيدة المسيحية ، والعقيدة اليهودية ، التى ألمعنا إلى شىء منها فيما سبق فقال :

وكان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم أجمع ، كان رب بر وصلاح

ولكنهم كانوا يقولون أيضاً إنه رب تاجر ، أتم فى شأنهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جداً لصالحهم والحق يقال ، يتعهد بها أن يرتفع بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض !!! فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع ، وهو يحطم أمامهم نفيس ضماناتهم ، ذلك أنه راح يعلم أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ، ولا قوم ينالون حظوة ، فى مملكة السموات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماماً لا يستطيع أن يحبو أحداً دون غيره بحظوة ، وأن الناس جميعاً إخوة — كلهم خاطئ مذنب ، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهى . وأن يسوع ليصب فى قصة السامرى الطيب جام سخريته على ذلك الميل الطبيعى الذى نخضع له جميعاً وهو تمجيدنا لقومنا ، والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى ثم قال :

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة وهم كما هو معلوم شعب ذو ولاء قبلى قوى — بل راح يسوع يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة تنطوى على التحديد من ذلك الفيضان العظيم — فيضان حب الله .

ثم قال :

« كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتنتقص كل ثروة خاصة ، وكل منفعة شخصية ، ذلك أن الناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ، وأن ممتلكاتهم جميعاً تنتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرة للناس جميعاً ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أفئدتنا ، وظل يذم الثروة الخاصة المرة بعد الحرة ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة » .

فهذه إذن هى عناصر القوة فى الدعوة المسيحية ، وهذا هو إذن سر انتصارها على المجتمع الرومانى الذى لم يجده مطلقاً ، أن يذهب فى تعذيب المسيحية كل مذهب ، بل إن هذا التعذيب يبدو لنا الآن صبيانياً مضحكاً ، رغم هوله وبشاعته .

فقد روى مثلا المؤرخ الرومانى تاسيتوس : أن نيرون كان يضع بعض المسيحيين وهم أحياء فى جلود الحيوانات ، ويطرحهم للكلاب لتنهشهم ، ويطلى بعضهم الآخر

بالقار ، ويعلقهم على مشانق ثم يضرم فيهم النار ، ليجعل منهم مشاعل يستضىء بها ، وهو يمر بالليل .

أما تراجان فقد أصدر فى سنة ١٠٦ ميلادية إلى الولاة أمراً بأن يقضوا على المسيحيين ، وأن يتعقبوا اجتماعاتهم السرية ، فيفضوها ، ويقبضوا عليهم ، ويرسلوهم إليه ، ليلقى بهم فى ساحة الكوليزيوم إلى الوحوش ، لتفترسهم ، وهو يضحك ، كطفل .

واستمر الأباطرة الرومان أمثال أدريانوس ، ومركوس أوريليوس ، وكراكلا ، وديسيوس ودقلديانوس الذى أقسم ألا يكف عن اضطهاد المسيحيين وتذبيحهم حتى تصل دماؤهم إلى ركبة جواده ، وقد وصف أوسابيوس المؤرخ ، صوراً من اضطهاد المسيحيين فقال : إنهم كانوا يأتون بالمسيحيين فيشقون بالخناجر أجسادهم ثم يأخذون فى نزع الجلد عنها عضواً عضواً حتى تزهق الروح أما النساء فقد كانت تربط الواحدة منهن من إحدى قدميها وترفع فى الهواء بآله مخصصة لذلك وتظل معلقة كذلك حتى تلفظ أنفاسها . وكانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة جعلت لهذا الغرض ثم يجيئون بالمسيحى ويربطونه بهذين الغصنين ثم يتركونهما ليعودا إلى وضعهما الأول ، والمسيحى بينهما فتتمزق أضلاعه وتسحق عظامه سحقاً وتتطاير أشلاء جسمه فى الفضاء .

والحق أننا فى غير حاجة إلى نقل شىء عن المؤرخين ، إذ حسب الإنسان أن يتصور أى لون من ألوان التعذيب التى تخطر على باله من حرق ، وتحطيم الأجساد ، وتمزيقها بالكلابات الحديدية ، وإلقاء الأحياء فى الماء مكتوفى الأيدى والأرجل ، وشد أثداء النساء بآلات من الصلب ، وقتل الأطفال أمام الأمهات ، وهتك أعراض الزوجات أمام الأزواج ، وقتل المئات دفعةواحدة ، والإلقاء بهم من فوق الأسوار العالية ، فقد حدث شىء من هذا وأكثر منه مع المسيحيين الأوائل طوال قرنين ، فما الذى حدث ، آمنت الإمبراطورية بالمسيحية ، ولم يقض على المسيحيين . فهل تريد دليلا مادياً ، على أن دعوة المسيح على الجبل ، هى دعوة عملية ؟

ولكن يجب أن ننبه إلى شىء هام ، هو أن هذه الدعوة ، ليست دعوة للاستسلام ، ولا للضعف ، ولا للتواكل .

يعنى أنه ليس يكفى أن يقبل الإنسان ما يهال عليه من عذاب لينتصر . وليس المقصود هو الإذعان لإرادة القوى . وإنما هى دعوة عمل ، ومقاومة روحية هائلة ، هى إرهاف للإرادة وتصميم على الفكرة ، وترويج لها ، وبث لفكرتها ، وجمع للأنصار ، وتنظيم لصفوفهم ، وتثبيت لعقائدهم .

* * *

ولقد كان أكبر تطور حدث بعد انتهاء حياة السيد المسيح على الأرض ، هو اعتناق القديس بولس للمسيحية ، ونحن نفضل أن ندع أيضاً للكاتب الإنجليزى هـ . ج . ويلز وصف هذا الحدث وتقدير أثره ، قال :

« كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحى ، وهو لم ير المسيح قط ، ولاسمعه يبشر الناس به . وكان اسم بولس فى الأصل شاءول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط من سلطوا الاضطهاد على فئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ؛ وغير اسمه فجعله بولس . أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية ، فتراه على علم عظيم باليهودية ، والمثرائية ، ديانة ذلك الزمان التى تعتنقها الإسكندرية ، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا القليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة ملكوت السموات ، لكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود فقط ، بل إن موته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية »

ولا شك أن هذا التطور أقام منافساً للفكرة البسيطة الواضحة ، التى هزت المجتمع الوثنى واليهودى معاً هزاً شديداً ، فكرة ملكوت السموات ، إخوة البشر ، وبساطة العبادة ، وخلوها من التعقيد ، والمراسيم والطقوس ، ونبذ العنف ، والحب ، فى أشمل صورة ، وأنقاها ، وأسماها ، ولما كان الناس أميل إلى التجسيد من التجريد ، وكانت بنفوسهم آثار من الوثنية لا تمحى ، فقد كادت تختنى فى بعض الأحايين الفكرة الأولى ، بقدر بروز الفكرة الثانية .

وقد كان التطور الثانى ، هو اعتناق الإمبراطور الرومانى للديانة المسيحية . ولو أخذنا الأمر على ظاهره ، لعددنا ذلك كسباً للمسيحية ، ولكنه فى الحقيقة

لم يكن من ذلك فى شىء .

حقيقة كان دخول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، دليلا على صحة الدعوة التى تضمنتها موعظة الجبل ، من أن العنف لا يجدى ، وأن سبيل « أحبوا أعداءكم » هو أقصر الطرق ، وأنجعها ، فى هزيمة الشر ، والشرير » ، إلا أن للدولة دائماً من الاعتبارات ما يعلو فوق اعتبارات العقيدة . فإذا تعارضت اعتبارات الدولة ومصالحها ، مع اعتبارات العقيدة ومقتضياتها لم يتردد الحاكم ، فى إهدار الأولى ، ولو من حيث لا يدرى ، والانسياق مع الثانية ، والخضوع لها . ومع مرور الزمن ، تقوى الدولة ، وتضعف العقيدة ، حتى تصبح الثانية ، ذيلا للأولى وتبعاً لها . وقد تضعف الدولة ، فلا يكون لها إلا أن تتمسح فى العقيدة ، وتتخذ منها سبيلا بلجمع الناس حولها ، والحصول على مصدر جديد من مصادر القوة ، وفى جميع الأحوال ، لا تكسب العقيدة ، لأنها لا تعدو أن تكون وسيلة لا غاية .

وقد حدث هذا كله بين الدولة الإمبراطورية ، وبين المسيحية .

وقد أشار إليه الأستاذ حلمى بطرس فى كتابه أحكام الأحوال الشخصية لغير المسلمين فقال :

« إن الكنائس الشرقية — وعلى رأسها الكنيسة اليونانية — نشأت فى ظل الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وخضعت لنفوذ ملوكها حين اعتنقوا الديانة المسيحية ، فقد تابع هؤلاء الملوك سياسة أسلافهم ، فى إخضاع الهيئات الدينية لسلطانهم ، وإدماجها فى أداة الحكم الرسمية حتى لتبدو كأنها جزء منها .

« وإذا كان إمبراطوريو الدولة الرومانية الشرقية — منذ اعتنقوا المسيحية — قد أسبغوا رعايتهم على الكنيسة واعتبروا أنفسهم حماة معتقداتها ، فإنما فعلوا ذلك ، لأنهم رؤساء الكنيسة الفعليين وأصحاب الكلمة العليا فيها .

« وحين منح إمبراطوريو بيزنطة سلطة القضاء فى مسائل الزواج للكنيسة إنما منحوها لها ، بوصفها أداة الحكم فى البلاد لا بوصفها هيئة مستقلة عن الدولة ، ولم يجعلوا لها هذا الاختصاص خالصاً ، وإنما أشركوا معها قضاة من المدنيين ، ومن أجل هذا كان خضوع الكنيسة الشرقية للدولة كاملا ، ولم يكن يتصور أن يقوم كفاح بينها وبين الدولة من أجل تغليب مبادئ كنسية . بل لقد كانت

الكنيسة تحاول حين يقع التضارب بين مبادئها الدينية والقوانين الوضعية ، التوفيق بين مبادئها وتلك القوانين ، وإذا اقتضى الأمر تجعل من القوانين الوضعية مبادئ دينية ... » .

أما الكنيسة الغربية فقد نقل بشأنها الأستاذ حلمى بطرس عن العلامة الفرنسى أسمان ما ترجمه على النحو التالى :

« حين سقطت الإمبراطورية الغربية ، وتقطعت أوصالها إرباً نتيجة هذا الانهيار الجسيم ، لم يبق قائماً من أنظمتها شىء لم يمسه الضر ، بل أعظم قوة مما كان فى أى وقت مضى ، غير الكنيسة ، فلم يكن باستطاعة الملوك الجدد ، أن يحكموا بدونها ولا ضدها ، وإنما كان عليهم أن يحكموا معها ، وهذا ماحدث فى عهد ملوك الفرنجة الذين قامت عروشهم على محالفة رجال الكنيسة ، فأصبح للكنيسة اشتراك فى السلطان الزمنى ، وأصبح للسلطان الزمنى أيضاً نفوذ قوى فى الكنيسة .

ونقل عن أسمان أيضاً قوله :

« إن الكنيسة الغربية لم تلبث أن استأثرت بالسلطان التشريعى والاختصاص القضائى جميعه ، وعلى الأخص فى مسائل الزواج ، ولم يكن ذلك بسبب انتشار المبادئ المسيحية ، وتغلغلها فى النفوس ، وإنما كان أيضاً بسبب ضعف السلطة الملكية إزاء نفوذ الكنيسة المتزايد . ومما يؤيد ذلك ما حدث فى الكنيسة الشرقية فهناك كان الاتحاد تاماً بين الإمبراطورية والكنيسة معاً ، فقد كان الإمبراطور البيزنطى هو رئيس الكنيسة والدولة معاً » .

لقد كانت المبادئ التى بشر بها المسيح ، بغير شك ، سبيل الإنسانية إلى السلام . وكان توجيهها إلى جميع البشر باعتبارهم إخوة ، وأبناء أب واحد ، هو العلاج الذى يستأصل أسباب الفرقة بين الأجناس والألوان ، وكان انتشار المسيحية البطىء ، المستمر ، بغير عنف ولا سلاح ولا جيوش ، يضع الأساس الراسخ الثابت لمجتمع الإنسانية الفسيح الشامل القائم على الحب . وكان إلحاح السيد المسيح على تنقية العبادة من كل المظاهر والمراسم والطقوس ، وإحالتها إلى صلة قلبية بين الإنسان والخالق ، سداً منيعاً فى وجه تحجير الدين ، واتخاذه وسيلة

للاتجار ، وأداة للنفوذ ، ومجالا للجدل ، وسبباً للفرقة .

ولكن حدث — لسوء حظ الإنسانية — هذا التطور الذى جعل من الإمبراطورية سلطة مهيمنة على الدين ، عن طريق هيمنتها على الكنيسة ، أو جعل الكنيسة ، نداً للإمبراطور ، وشريكاً له فى الحكم ، أو منافساً له على السلطان . وفى وسط هذا التنافس الدنيوى ، ضاع صوت الناصرى ، وحجب عن القلوب ضياؤه ، وفقد السلام أملا من أعز الأمانى وأغلاها .

لقد كانت الكنيسة تزداد غنى ونفوذاً لأكثر من سبب ، وقد كان من أهم أسباب هذا التزايد ، دخول القبائل المتبربرة فى شمال أوربا ، بعد غزوها ، لروما ، ولغرب أوربا ، فقد كان هؤلاء الحكام ، مدركين أنهم فى حاجة إلى من يصقلهم ويهذبهم . ويجعلهم أليق بكرسى السلطان ، وأقدر على كسب احترام رعاياهم وقد جاء فى كتاب أصول العالم الحديث :

« لم يحل دون زوال البقية الباقية من حضارة روما إلا بقاء نظام الكنيسة المسيحية من غير أن تمسه يد المغيرين ، فكان رجال الكنيسة دعاة الصلح بين المتبربرين والشعوب المحكومة ، فتعلم المتبربرون احترامهم وتبجيلهم ، ورأوا فى الدين المسيحى ومدنيته المتمثلة فى القسس تفوقاً ورقياً حببا إليهم اعتناق الديانة المسيحية وسرعان ما صاروا مسيحيين مدينين للكنيسة بتهذيبهم ، وبخضوع الشعوب لهم عن طيب خاطر ، وزادت بذلك سلطة الكنيسة عما كانت عليه أيام الدولة الرومانية ، وذلك لخضوع الحكام الجدد لها لفرط تعلقهم بالدين الجديد ، وما لبثت الكنيسة أن زادت ثروتها فأصبحت أكبر وأقوى وأغنى نظم العصور الوسطى » .

فهاذا أنت ترى أننا لا نسمع ولا نقرأ إلا كل ما يتصل بازدياد نفوذ الكنيسة السياسى ، وغناها المادى ، فلم يعد ثمة ما يذكرنا بهذا الكلام الذى تنتشى له الأرواح ، وتطيب له النفوس ، وتحيا له آمال البشرية فى القلوب من مثل :

أنتم جميعاً إخوة ، ولا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات

ومثل :

« طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون .

« طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض . طوبى للجياع العطاش لأنهم يشبعون
« طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله .
« طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون . طوبى للمطرودين من أجل
« البر لأن لهم ملكوت السموات » .

ومن مثل :

« متى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع
« وزوايا الشوارع لكى يظهروا للناس . الحق أقول لكم قد استوفوا أجرهم .
« وأما أنت فتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى
« فى الخفاء ، فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » .

ولكنا ما دمنا قد بعدنا عن هذه الأصول ، وأصبحت المسيحية أداة من أدوات الحاكم ، أو سبيلا إلى الحكم والاستزادة من السلطان ، فلا غرابة ، أن تنقسم الكنيسة إلى كنيستين لأن الإمبراطورية انقسمت من قبل إلى إمبراطورتين ، وأن يقوم التنافس بين الكنيستين ويشتد الخلاف بسبب أبعد ما يكون عن كل ما قاله السيد المسيح ، أعنى الخلاف على تقديس الأيقونات والصور المقدسة .

وما دمنا قد درجنا فى هذا السبيل ، فلا غرابة أن تقع الحروب الصليبية ، وأن تدور رحاها على الأرض التى سمعت السيد المسيح ، وهو يقول .. لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ... أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » .

ولما كانت الحرب الصليبية ، حدثاً ضخماً فى حياة المسيحية والبشرية معاً ، فإننا لا بد أن نسجله ، ونستخلص معانيه وندع ذلك للبانديت نهرو فى كتابه لمحات من تاريخ الإنسانية قال :

« إن البابا ومجلس الكنيسة أعلنا الحرب المقدسة على المسلمين لاستخلاص بيت المقدس. لقد أخافت قوة الأتراك السلاجقة المتزايدة دول أوربا ، وخصوصاً القسطنطينية ، لأنها كانت أقرب من غيرها إلى هذا الخطر ، وقد أثارت القصص

التى أشاعها المسيحيون عن معاملة الأتراك السيئة للحجاج المسيحيين فى القدس غضب الأوربيين وحماسهم ، فأصدر البابا ومجلس الكنيسة نداء إلى جميع نصارى أوربا ناشدهم فيه أن يهبوا لإنقاذ بيت المقدس »

ثم قال :

« لقد وحدت الحرب الصليبية شعوب أوربا فى غاية واحدة ، وهى استرجاع بيت المقدس من يد من سموهم بالكفار . وقد طغى الحماس على كثير من الأوربيين فتركوا أوطانهم وممتلكاتهم وساروا إلى الشرق معتقدين أنهم ماضون إلى هدف نبيل ، بعد أن أقنعهم البابا أن ذهابهم هذا يكتب لهم الغفران ، ويمحو الخطايا والذنوب ، غير أن هناك سبباً آخر للحملات الصليبية ، وهى أن بابا روما أراد إخضاع القسطنطينية لأن كنيستها كانت أرثوذكسية ومستقلة عن كنيسة روما ، ولا تعترف بالبابا ، بل تدعوه محدث نعمة .

« وقد ولد هذا الموقف حقد البابا على القسطنطينية وصمم على إخضاعها ، ووضعها تحت نفوذه . ولم يجد البابا ما يتذرع به خيراً من إقامة حرب صليبية والادعاء بمقاتلة الكفار ، وهذا المثل هو أحد الأمثلة على دهاء السياسيين وأساليبهم المعوجة . وعليك أن تتذكر هذا التنافس بين روما والقسطنطينية لأنه برز فى مناسبات عديدة إبان الحروب الصليبية .

« ولا تنس أبداً أن هناك سبباً آخر للحروب الصليبية وهو العامل الاقتصادى ؛ لقد كان أصحاب التجارة والمصالح فى البندقية وجنوه يقاسون من كساد تجارتهم بسبب إغلاق السلاجقة لكثير من طرقهم التجارية المؤدية إلى الشرق ، ولم يكن الرجل العادى يعرف هذه الأسباب الحقيقية الخفية ، ولم يكن يعلم أن الزعماء — كزعماء الحروب الصليبية — إنما يلجأون إلى الخطب الرنانة ، والتظاهر بالحرص على الدين ومبادئ العدالة لإخفاء أهدافهم الحقيقية ، لقد ضلت الشعوب آنئذ وما زالت تخدع حتى اليوم .

« حوت الحروب الصليبية ما هب ، ودب ، كان بعض القادة مخلصا فى سعيه ، ولكن الكثيرين كانوا يسعون وراء الغنائم والأسلاب . كان فى الحملات المتدينون ، وإلى جانبهم المجرمون العريقون فى دنيا الإجرام . . يشهد التاريخ أن كثيراً من رجالات

الحملات الصليبية قد ارتكبوا أبشع الجرائم وأشنعها ، وشغلوا بإجرامهم هذا حتى إنهم لم يصلوا إلى بيت المقدس ، وقد انشغل البعض بقتل اليهود فى طريقهم ، أو ذبح إخوانهم من المسيحيين . وقد أثار تصرفهم هذا نقمة المسيحيين فى البلدان التى كانوا يمرون بها مما جعل هؤلاء يهبون لقتل الصليبيين الغزاة وطردهم . وأخيراً وصل الصليبيون إلى القدس بقيادة جودفرى النورماندى بعد سبعين سنة من الاحتلال فاستولى على المدينة وأقام فيها مذبحة استمرت أسبوعاً وقد وصف هذا المذبحة شاهد عيان فرنسى بقوله : وصل الدم إلى رواق المسجد وإلى الركبة ، وإلى سروج الخيل »

لقد كانت الحرب الصليبية ، فاجعة ، لا لأنها أشهرت من أهل أوربا ضد أهل آسيا ، ولا لأنها أعلنت من المسيحيين ضد المسلمين ، ولا لأن السياسة اتخذت من أنقى المبادئ ، وأعلاها ، سبيلا لأحط الأغراض وأدناها ، ولا لأن المذابح فيها كانت مجزرة لا يغضب من أجلها المسيح ، وحده ، بل كل إنسان آخر لم يسمح بالسيد المسيح ، مجرد سماع . بل لأن الهدف الذى أعلن كان وحده تحدياً للمسيحية وإعلاناً لإفلاس مسيحية أوربا ، وخروج أكبر أحبارها عليها . فالسياسى الذى يتذرع بالوسائل الدينية ، ويخوض فى أوحال الدنيا ، ستراه حلبة التاريخ دائما ، وسيلعب فوق مسرح الأحداث إلى أمد بعيد ، ولكن أن تعلن الحرب من الأمناء على هذه العقيدة الرفيعة ، بحجة استخلاص بيت المقدس حيث قبر المسيح وصليبه ، فهو الذى يتمزق له قلب من آمن بحق بدعوة المسيح . فقد نهت شريعته من استعمال العنف ، حتى مع الشرير ، فكيف يستعمل أقبح أنواع العنف وأبشعه ، من أجل بيت المقدس ، لأن به قبر ، داعى دعاة السلام . إنه الإثم الذى يكاد يكفر معه الإنسان بالإنسانية كلها ، لولا أن جملة تاريخها ، تعيد إلينا الثقة بأنفسنا ، وتؤكد أن السقطات فى الطريق ، ليس معناها أن الضلال عن السبيل الصحيح قضاء لا مفر منه ، كما أنه ليس معناه أن الطريق الأصيل قد اختفى عن أعين الناس إلى الأبد .

ولكن البابوية استمرت فى القرون الوسطى وما بعدها تبعد عن مسيحية المسيح ، وتخوض فى حروب الدنيا تحارب الملوك وتنافسهم ، وتحاول إخضاعهم ، حتى كبرت مادياً ، وضمرت روحياً ، ووصلت إلى ما يقول عنه هـ. ج. ويلز :

« لاجدال فى أن المصدر الأول للقوة الكبرى التى استمتعت بها الكنيسة فى الحادى عشر هو إرادة الناس وضمائرهم على أنها أخفقت فى الاحتفاظ بالمكانة الأدبية التى قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا استهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذى قضى على ثقة العوام الساذجة فى عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستجيبون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها

« إن أول مصدر لمتاعب الكنيسة هو على التحقيق تكوينها للثروة واستكثارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، لذلك كثيرا ما جنح من لا عقب له من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة . كما أن المذنبين التائبين كانوا ينعمون بفعل ذلك . لذا أصبح ما يقارب من ربع الأراضى ممتلكات للكنيسة فى كثير من أقطار أوربا . ومن البديهيات التى لاجدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال. وتسامع الناس ، وتناقلوا فى كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا الأخيار الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات .

« قد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد البابا وية الأجنبية فإن أراضيهم التى كان ينبغى أن تمول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكرى للملك أو الأمير ، كانت تحول الأديرة والرهبان والراهبات . وقد نشب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة التعيينات أعنى من هو صاحب الحق فى تعيين الأساقفة ، وذلك قبيل زمن البابا جريجورى السابع نفسه . فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضمائر رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته . وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق فى الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما . وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً « الحق فى جمع مكس (ضريبة) قيمتها العشر من ممتلكات الرجل العلمانى فوق الضرائب التى كان يدفعها لأميره » .

ويستطرد ويلز فيقول :

« لم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضمائر الناس . فكانت تحارب الحماسة الدينية التى كان يجب أن تتخذ منها

حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك البرىء ، وعلى المارق المنحرف فى الرأى دون تفريق بينهما .

« وعندما كانت الكنيسة تتدخل فى الشئون الخلقية كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون المذهبية . وعندما أخذ (والدو) يبشر فى جنوب فرنسا إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا أنو سنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من تبعوه ، وأذن لجنده بقمعهم بالنار والسيف . وهتك الأعراض وبأشد أنواع القساوات بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ — ١٢٢٦) إلى حياة المسيح وإلى حياة التقشف ، والفقر والعبادة . اضطهد أتباع الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وشتتوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسيليا وهم أحياء . وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينكيين التى أسسها القديس دومينك ١١٧٠ — ١٢٢١ والقائمه على تمسكها العنيف بصحه الاعتقاد المذهبي كانت موضع التعضيد القوى من أنوسنت الثالث الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هى محاكم التفتيش بقصد تصيد الزنادقة وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر » .

« وهكذا دمرت الكنيسة بمدعياتها المسرفة وامتيازاتها الأثيمة ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكم وعقل ، تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ولو اطلعت على قصة تدهورها لم تحدثك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الانحلال الذى ينخر فيها من الداخل »

والحق أنه ليس لدينا أى ميل للتورط فى الأمور المذهبية داخل العقيدة المسيحية ، فهذا لا صلة له فى قليل أو كثير ، بغايتنا من هذا الكتاب ، إنما الذى نريده هو أن سرد كيف حلت الخسارة بالإنسانية ، كيف انطفأ الأمل الذى كان جديراً بأن يضيء حياتها ، بالابتعاد عن دعوة المسيح فى جوهرها : دعوة الأخوة الإنسانية الكاملة ، فى ظل أبوة شاملة ، لا تفرق ولا تميز ، ولا تقرب واحداً ، ولا تبعد آخر . ولا تناصر طائفة على طائفة ، ولا تبيح لإنسان أن يرفع يده فى وجه أخيه ، ولا تنصح بمقاومة الشر ، بشر مثله ، حتى لا نروح فى دائرة

مغلقة لا ندرى أين بدايتها ولا أين نهايتها .

ولقد توالت الحقب على نفس المنوال الذى رأينا طرفاً منه فى الحروب الصليبية ، وما تلاها ، وأسباب الفرقة بين البشر تزداد وتتأصل ، والتنافس على المستعمرات بين الإمبراطوريات والدول ، يتفاقم وتتسع دائرته ، والشعوب المضطهدة ، تحاول رفع رأسها ، فتهوى عليها مطارق الحاكم المستغل القوى ، المدجج بالسلاح الحديث ، وحملة لواء المسيحية، يرون هذا ، ولا يقدمون للإنسانية الشقية التعسة ، شيئاً من ترياق هذه المبادئ المتلألئة الوضاءة ، نعم ، لم يرتفع صوت يقول أبداً : أحبوا أعداءكم ! باركوا لاعنيكم !

لم يقل أحد للمسيحى الذى يقتل المسيحى : لا تقاوموا الشر . !

وسرنا نتعثر ، ونتخبط ، ونشقى ، حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، التى كانت حصيلة هذه السنوات الطويلة، من تحدى المسيح ، وتجاهل مبادئه، مع أن كنائسه تملأ كل مكان فى أوربا ، وأجراسها تدق دقاً طويلا وعالياً فى كل مناسبة، واسمه يتردد على كل لسان ، والجميع فى أوروبا وأمريكا ، وكثير من بلاد العالم فى القارات الأخرى ، يعلنون أنهم مسيحيون يؤمنون بدعوة صاحب الدعوة .

وإذا كنا قد قرأنا لمفكر تحليلا لانحلال سلطة الكنيسة الأدبية ، فلنسمع لصاحب أكبر عرش فى أوربا ، بعد أن خاض أول مجزرة دولية هى حرب سنة ١٩١٤ ، وكلامه يكشف جانباً آخر من المأساة ، قال الإمبراطور غليوم إمبراطور الألمان فى مذكراته بعد هزيمته فى سنه ١٩١٨ :

« كانت صلاتى بالكنيسة موضوع بحث طويل استنفد مقادير من الحبر لقد أدركت وأنا فى مدينه بون — لما كنت أمير بروسيا — ما للخلاف الدينى بين الكاثوليك والبروتستانت من التأثير السيئ فى البلاد ؛ فإن شقة الخلاف بين المذهبين بلغت حدها الأقصى من الاتساع حتى إن أشراف الراين ووستفاليا عمدوا إلى مقاطعتى عندما كنت فى الصيد والقنص وقد بدأت منذ ذلك الحين أفكر فى إيجاد وسيلة تمكن أنصار المذهبين من أن يعيشوا معاً بسلام لمصلحة الوطن فجعلت أحسن صلاتى بالأساقفة ورؤساء الدين ولا سيما الكردينال (كوب) رئيس أساقفة (فيمار) والدكتور (شولت) والبرنس (برترام) أسقف تيال والمونسنير (فولهابر)

والكردينال (فون هرتمان) . وكان هؤلاء الرؤساء كلهم من عظماء الرجال ازادنت بهم الكنيسة الألمانية التى أظهرت فى إبان الحرب العظمى أعظم إخلاص للإمبراطور والوطن . وذلك مما يدل على أن الخطة التى انتهجتها أزالت سوء التأثير الذى أحدثته جماعة أعداء الدين ولا سيما لأنى وعدت الكاثوليك بأن أمهد لهم سبل الحياة الطيبة الهنيئة فى الإمبراطورية »

ثم يتحدث الإمبراطور عن زيارته للبابا فقال :

سرنى جداً أن أسمع البابا يعرب عن شكره وارتياحه إلى حالة الكثلكة والكاثوليك فى ألمانيا وقد أكد لى أنه سيفرغ قصارى جهده ليحمل الكاثوليك الألمان على أن يتباروا مع إخوانهم فى حب الوطن والإخلاص له ، وختم كلامه عن هذه الزيارة بقوله :

« ومما أعلنه لى البابا فى تلك الزيارة أنه لا يستطيع أن يكتم إعجابه الشديد بالمبادئ التى أسير عليها فى إدارة بلادى ، وقال إنه رآنى وأنا أعمل وراقب بعين الاهتمام عملى فأدرك بكل سرور أن سلطتى كانت قائمة على أسمى المبادئ المسيحية ، وزاد على ذلك أن هذه السلطة مستمدة من المبادئ الدينية وأنه سيمطر بركات السماء علىّ ، وعلى أسرتى ، وعلى الإمبراطورية الألمانية جمعاء ، ثم منحنى البركة الرسولية ، وسمعت بسرور عظيم قول البابا إن ألمانيا يجب إن تكون سيف الكاثوليكية»

وعلى القارئ ألا يضيع وقته فى البحث عن المبادئ الدينية التى يمكن أن تكون أساساً لسلطة إمبراطور ، وكيف يمكن أن تكون أية دولة مسيحية سيفاً ، للمسيحية التى تدعو البشر أجمعين والمسيحيين قبل غيرهم ، ألا يشهروا سلاحاً ، ولا يمتشقوا سيفاً . فالأمر كله يتم بعيداً عن السيد المسيح ومبادئه ، وعن المسيحية وحقيقتها وجوهرها : وهو آخر أمر سياسة محضة ، لا تهدف إلا لتحقيق أغراض دنيوية ، يضحى على مذبحها ، أغلى ما تضمنه موعظة الجبل ، وهى السلام والأخوة ، على أن أهم ما جاء فى مذكرات الإمبراطور غليوم ، هو ما جاء فى الفصل الحادى عشر منها تحت عنوان البابا والصلح :

« التقارير العسكرية العديدة التى وضعت فى إبان الحرب أثبتت أن كهنة وقسساً ، ومطارنة كثيرين وقعوا فى قبضة يدنا وهم حاملو السلاح . ثم

وضعت دسائس الكردينال (مرسيه) وأعمال الأكليروس البلجيكى الذى دخل كثيرون من أفراده فى سلك الجاسوسية . وأشرت بعد ذلك إلى الخطبة التى ألقاها أسقف لندن البروتستانتى ومجد فيها قتلة (بارلوانج) من أعلى المنبر الكنسى . فإذا تمكن البابا من حمل الأكليروس الرومانى على الاقتداء بالأكليروس الألمانى فى مقاومة البغض والحقد ، سواء بواسطة الخطب والمواعظ أو بالمنشورات ، الأسقفية والبيانات الكنسية فإن الخطوة التى نخطوها إلى السلم ستكون واسعة جداً »

« ووجد باتشيللى مندوب الفاتيكان إن هذه الفكرة حسنة جداً وجديرة بالبحث ولكنه قال ليس من السهل أن يقبل بها بعض الأساقفة . فقلت إنى أعرف النظام الشديد وسلسلة المراتب السائدة فى الكنيسة الرومانية ، ولذلك كنت أفهم بصعوبة كيف أن بعض الأساقفة يأبى أن يعظ الناس بالصفح عن العدو واحترامه إذا أصدر البابا بذلك أمراً رسمياً حازماً إلى أمراء الكنيسة أليست الكنيسة بصفتها الدينية فوق الأحزاب ؟ أو ليس حب الغير والصفح عن الإهانة من أصول الديانة المسيحية ؟ أفلا ينبغى التشديد بمراعاة هذه الأصول والعمل بها ؟ وقد سلم باتشيللى معى بذلك ووعد بفحص هذه الفكرة فحصاً دقيقاً وعرضها على الفاتيكان ، ثم سألنى القاصد الرسولى عن رأيى فى خير الأساليب التى يمكن أن يلجأ إليها البابا للتوسط فى إبرام الصلح من غير أن يكون لها صلة بالمساعى السياسية المباشرة ؟ »

والعبارة التى كتبها غليوم بعد الهزيمة ، عن المسيحية ودورها ، وعن واجب الأساقفة والبابا فى نشر روح الصفح عن الإهانة ، وعن أن المسيحية فوق الأحزاب ، عبارات تقطر مسيحية ، وفهماً صحيحاً لروح الدين ، ولكنها للأسف الشديد ، جاءت متأخرة كثيراً ، فهو لم يدرك هذه المعانى إلا بعد أن حلت به الهزيمة ، وأوشك سلطانه على الهلاك ، ولكنه تلمس حين كان فى عنفوان قوته ، السبيل إلى إرضاء الفاتيكان سياسياً ، ليعينه على جمع الرعايا الكاثوليك ، تحت لواء إمبراطورية ، وفرح لأنه قيل له ، إن ألمانيا ستصبح سيف الكاثوليكية ، فهو فى ذلك الحين ، لم يخطر على باله أن البابوية يجب أن تكون فوق الأحزاب وألا تشارك فى شىء مما يتصل بالسياسة .

على أن هذا الذى كتبه غليوم ليس إلا مجرد مثل لما يجرى عليه تفكير الحكام — من

أى نوع كانوا وفى أى قطر — من اتخاذ الدين ذريعة من ذرائع الحكم وسبيلا من سبل دعم السلطان ، وسلاحاً من أسلحة القتال الدنيوى ، وقد أورد جيلاس نائب رئيس الدولة اليوغسلافية فى كتابه محادثات مع ستالين :

« كنت قد علمت من قبل الرسميين السوفيت أن البطريرك الروسى أخذ عند نشوب الحرب ، يوزع منشورات ضد الغزاة الألمان ، دون الرجوع إلى الحكومة . وقد كانت هذه النداءات مغرية فى الظاهر ؛ إذ ساعدت بلغة الدعاية السوفيتية على استعادة الوطنية الروسية الدينية ، وقد سارعت الحكومة السوفيتية إلى تبنى هذه الحركة فبدأت بطلب مناصرة الكنيسة على الرغم من أنها كانت تعتبر الكنيسة آخر ما بقى من النظام القديم ، وخلال ويلات الحرب ، بعث الدين من جديد ووضع فى الطليعة . وكان الجنرال كورنيف رئيس البعثة السوفياتية فى يوغسلافيا يقص علينا دائماً كيف إن كثيرين وبينهم مسئولون اعتبروا أن العودة إلى الأرثوذكسية خلال خطر داهم من الألمان كان عملا روحياً ضرورياً ، وكان الجنرال كورنيف يقول إنه لا يمانع فى إنقاذ روسيا بواسطة الأرثوذكسية إذا كان لا مفر من ذلك » .

فالدين موضوع دائما فى المخزن ، فإن لم تجد الأسلحة الأخرى فى الحرب أو إن لم تجد هذه الأسلحة وحدها ، فلا بأس من إخراج هذا السلاح ، لعله يفيد لا فى إعادة السلام ، ورد الناس إلى أصل الدين الأصيل بل لكسب المعركة ، وإنزال الهزيمة بالأعداء ، ثم إعادة الدين بعد ذلك إلى موضعه القديم .

إن رجال الحكم والسياسة يأبون أن يحاربوا وحدهم ، فلا بد من أن يديروا حروبهم باسم الله ، وفى ظله ، وتحقيقاً لرغبته ، وسحقاً لأعدائه . . فالله الذى يملأ الإيمان به قلوب أكثر الناس ، لا زال هو الرب القديم ، الذى يتحيز ، لقبيلة ، ويبارك سلاح جيش ، ويعد بالنصر ، فريقاً دون فريق .

أما الرب الذى يقول : « أحبوا أعداءكم ... وباركوا لاعنيكم ... » ، فلا تزال الإنسانية فى حاجة إلى جهد كبير للوصول إلى الايمان به ...

الفصل الثانى

الإسلام

وجاء الإسلام بعد فترة من المسيح ، كادت تكمل ستة قرون . فهل كان الإسلام خطوة إلى الأمام فى الدعوة إلى السلام ، والإيمان به ، كغاية كبرى ونهائية للإنسانية ، أم كان نكسة فى هذه الدعوة ، وردة إلى الوراء ، وإيمانا بالقوة والسيف ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال لابد أن نستحضر جملة من نصوص القرآن ، وجملة من أحاديث الرسول ، وأن نستعيد صوراً من تاريخ الدعوة الإسلامية منذ بعث الرسول عليه السلام ، حتى كمل للإسلام النصر فى شبه الجزيرة العربية ، ودانت له العرب . وفى ضوء هذا كله ، يمكن أن ندرك الجواب الصحيح لهذا السؤال .

أما الشىء الذى لا جدال فيه ، ولا يختلف فى شأنه أحد من مؤرخى الدعوة الإسلامية ، مسلماً كان أو مسيحياً ، شرقياً أو غربياً ، فهو أن محمداً عليه السلام حينما دعا الناس إلى الإسلام لم يكن يملك شيئاً يغرى به العرب على تقبل الإيمان الجديد . فلم يكن صاحب سلطان ولا جاه ، ولا صاحب مال أو ثروة ، بل إن ما كان يقوله ويدعو إليه ، أغضب أصحاب السلطان والجاه والمال ، وأخرجهم عن طورهم ، فاستشاط غضبهم ، وتوعدوه بالشر ، واعتدوا عليه بالفعل ، بقدر ما أغضبت دعوة السيد المسيح فى المجتمع اليهودى ، أصحاب النفوذ المادى والروحى معاً .

فسند رسول الإسلام إذن لم يكن سوى قوى روحية ، لا تملك سلاحاً ، ولا تقوى على قتال . وكان سبيل هذه الدعوة بغير شك ، هو (الحكمة والموعظة الحسنة) أى الدعوة القولية : الكلمة الملفوظة ، تقال وتكرر ، ثم محاجة أصحاب النظام القديم ، ودعاة أفكاره وسدنة سلطانه ، ومقارعة الدليل بالدليل .

وقد كان سبيل الدعوة الإسلامية ، أكثر وعورة من الدعوتين السابقتين ، اليهودية والمسيحية ، فموسى عليه السلام ، كان زعيماً قومياً ، يحرر قومه من سلطان

أجنبي عنهم ، فدعوته خليقة بأن يتقبلها أبناء جنسه ، وأن يشكروه أن تصدى للشر ، وأن احتمل تكاليف الزعامة من أجلهم ، ولم يكن يدعوهم لشىء يكرهونه ، بل كانوا يتمنون ما دعاهم إليه ، ولكنهم لا يجدون من يستحث نفوسهم ، ومن ينظم صفوفهم ، ومن يبعث فيهم الشجاعة ، ويقوى عندهم العزم . وقد جاء فى الكتب المقدسة أن موسى عليه السلام ، كان معززاً بقدرة خارقة مذهلة ، هى قدرة إتيان المعجزة بعد المعجزة ، مما كان يفحم العالم والجاهل معاً ، ويلجم السمح والمكابر سوياً ، لولا أن فرعون مصر ، كان يرى فى استبقاء اليهود فى مصر ، ما تقتضيه مصلحة الدولة ، فرفض أن يأذن لليهود أن يهاجروا من مصر ، وأن يذعن لدعوة موسى عليه السلام .

أما السيد المسيح ، فقد لقى مجتمعاً متحجراً ، فرأى فى الدعوة الجديدة مايهدر سلطانه الروحى والمادى معاً ؛ فالدعوة المسيحية ألحت إلحاحاً شديداً فى التنديد بالثروة والأثرياء ، ودعت فى إصرار باهر ، إلى أن يعيش الناس معاً — أولا يستأثر أحدهم بشىء ، وأن يبادروا فيعطوا ما فى أيديهم لمن يقترض أو يسأل بلا تردد ولا تحفظ ولا احتياط . وهو مجتمع أشبه ما يكون بالمجتمع الذى نشأت فيه الدعوة الإسلامية ، ولكن الدعوة المسيحية آثرت أن تبذر بذورها ، وأن تقيم بناءها فى الجانب الروحى البحت ، وأن تهادن السلطة ، فقد قال السيد المسيح صراحة « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ذلك لأن السيد المسيح ، كان موقناً ، أنه إذ تغيرت النفوس ، ودانت للدعوة الجديدة ، زال القيصر ، وزال سلطانه ، ووافت مملكة السماء ، وكان ذلك صحيحاً بلا جدال .

أما الإسلام ، فقد وضح منذ البداية ، أنه يقيم للدين الجديد ، مجتمعا جديدا ، وأن الغاية من الدعوة الجديدة أن يخضع العرب ثم الناس جمعاً ، لنظام هذا المجتمع ، فى كل أمور معاشهم ، وأن العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، والفرد والجماعة ، والغنى والفقير ، والسادة والعبيد ، ستتغير من الأساس ، فحق لسادة المجتمع القديم ، أن يستبسلوا فى مقاومة الدعوة المحمدية ، وأن يشتدوا فى التضييق عليها ، وفرض الحصار حولها .

وقد زاد من العقبات فى طريق دعوة الإسلام ، أن رسول الدين الجديد واجه المجتمع الجديد منذ البداية ، بشراً لم يدعم دعوته العقلية والروحية إلى العقيدة

الجديدة بمعجزة واحدة من المعجزات التى روتها التوراة ، ورواها القرآن والتى أيد بها كل من موسى وعيسى عليهما السلام ،الدعوة .

وقد جاء فى القرآن الكريم فى سورة الإسراء :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

وقد قال السيد رشيد رضا :

« إن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . . . »

فمحمد عليه السلام ، نازل المجتمع الجديد ، وهو أعزل من السلاح ، ومن الخوارق التى تشده العقول وتحملها حملا على الاقتناع أو التصديق أو الإعجاب ، دون تفكير أو تأمل ، فهو بشر يخاطب بشراً ، وهذه خطوة فسيحة وجوهرية فى بناء السلام ، فصاحب الدعوة الروحية ، الذى ينسب نفسه إلى البشر ، ويؤكد هذه النسبة ، يؤكد فى واقع الأمر ، الوحدة البشرية . وما إن تتأكد هذه الوحدة ، حتى تزول أسباب كثيرة للحروب بين الشعوب المكونة لهذه العائلة الضخمة ، أو تقوم دواع جديدة للوئام الإنسانى ، الذى نسميه السلام .

فلنر كيف تدرج هذا الرسول (الإنسان) من الضعف إلى القوة ، مطبقاً المبدأ القائل لا تقاوموا الشر ، بالقوة ، وأحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وصلوا للذين يؤذونكم .

لقد علمنا أن أول من آمن بالرسول السيدة خديجة زوجه ، ثم تبعها صبى هو على بن أبى طالب ، وجاء بعدهما عبد رقيق هو (زيد بن حارثة) وهذه الأسماء الثلاثة فى الواقع عناوين طوائف هى أضعف الطوائف فى المجتمع العربى المكى القريشى . فالمرأة كانت عورة أو بلاء يصاب به أبوها حينما يرزق بها ، وكان الرقيق متاعاً ، وكانت الكلمة كلها للرجال الأقوياء القادرين على القتال ، وعلى جمع المال .

وإن كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قد آمن بالرسول كما آمن هؤلاء الثلاثة ، فإن أبا بكر كان رجلا سهلا محبباً إلى النفوس ، لم يشتهر بشدة فى الطبع ، ولا بجهارة فى الصوت ،ولا بميل إلى إخضاع الناس. وبعد ثلاث سنين من الدعوة السرية المستخفية ، بدأ الرسول يجهر بالدعوة فقد طلب منه «أنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون» فالدعوة توجه أولا إلى الأقارب التى تربطهم بالرسول وشائج المودة والمحبة ، وهى تقترن بأجمل ما يطلب إلى الإنسان أن يعمله : خفض الجناح الذى ترتسم له فى ذهن الإنسان صورة طائر وديع يزداد وداعة وحناناً ورحمة. أما من ينصرف عن الدعوة ،ويسد آذانه ، فلا تقل له يا أحمق. ولا تغضب منه ، ولكن « قل إنى برىء مما تعملون» .

وثارت عصبية الجاهلية عند أبى لهب ، حينما جمعهم محمد فى بيته على طعام ، فلما فرغوا منه ، قال لهم : ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قوماً بأفضل مما جئتكم به ، إلى أن قال : فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ فأعرضوا عنه ، ولكن صوتاً رن ، رنين ناقوس صغير جميل « أنا يا رسول الله عونك » فا بتسم هاشم ، وتبعه بعضهم سخرية .

وكانت سخرية قريش منه ، وهزءهم به وثباته هو على دعوته ، صورة لهاتين القوتين اللتين رسم السيد المسيح ميدان القتال بينهما ، وأسلوب المعركة ، وسلاحها ؛ قوة الروح السمحة التى لا تغضب لأنها تدرك ضعف الإنسان ، وكرهه للجديد ، وحبه للقديم ، وإعجابه بالقوى ، وإصغاره من شأن الضعيف ، وهى لهذا لا تقاوم الشر ، بسلاح الشر ، أى لا تقاوم الشرير ، ولكن تدعوه إلى الخير وتحببه فيه وتلح عليه ، حتى يتزلزل إيمانه بالشر ،وإطمئنانه إليه ، فإن عاند وكابر رأى المجتمع يتحول من حوله ، حتى يدرك أنه سيترك فى وحشة تدعوه إلى اللحاق بمآثر زملائه ، إلى تمثل الفكر الجديد ، والتأمل فيه . هذا كله فى جانب ، وفى الجانب الآخر قوة السلاح والمادة المؤمنه بأن البطش أقصر الطرق ، وأكثرها ضماناً .

ولسنا نود هنا أن نروى تاريخ البعثة المحمدية كلها ، وإنما نريد أن نؤكد

فقط أن سند المسلمين الأوائل لم يكن سلاحاً يشهر ، ولا سيفاً يمتشق ، وأنه لم يكن فى وسع أحدهم ، ولا فى وسعهم جميعًا أن يقاتلوا ولو قاتلوا بكل ماعند هم من عتاد ، لما هزوا فى صرح المجتمع القريشى المكى ، حجراً من مكانه ، ولكنا نريد أن نسوق أمثلة قليلة على أن أسلحة الروح وحدها ، هى التى شقت الطريق للدين الجديد ، كما شقته تماماً ، لدين المسيح من قبل .

أشفق عم الرسول مما قد يصيب ابن أخيه من الأذى ، لو أصر على دعوته ، فحاول أن يثنيه عن عزمه فكان جواب الرسول : « يا عم ، والله ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

يقول الرسول هذا ، بينما كان بلال ، وهو عبد حبشى ، يطرح على الرمل فى لظى الشمس المحرقة ، عارياً ، ويوضع فوق صدره حجر ، فيحتمل كل هذا العذاب ، ويردد « أحد ، أحد » ويضرب عمر بن الخطاب ، وهو رجل طويل ، ذو بأس ، وقوة ، جاريته ، حتى يسأم ضربها فيتركها وهو يقول : أنا أتركك ملالة . . والجارية ، تتأوه ، وتتألم ، وتشقى بهذا العذاب ، ولكنها لا تدع دينها ، ولا تغير عقيدتها .

أما محمد نفسه عليه السلام ، فكان يلقى عليه روث البهائم ، ويضع جاره اليهودى فى طريقه ، الشوك ، فلما أصبح ذات يوم ، فلم ير أمام داره ، ما كان يجده دائماً من أقذار ، أيقن أن جاره اليهودى ، قد أصابته علة منعته من ذلك ، فذهب يعوده ، ولم يكن جار الرسول وحده ، هو الذى يؤذيه ، بل إن ذوى قرابته ورحمه من الرجال والنساء يتبارون فى إلحاق الأذى به ، مما سجلته كتب السيرة فى تفصيل وإفاضة . فقد كانت أم جميل زوجة أبى لهب تلقى النجس أمام بيته فيكتفى بإزالته ، وكان أبو جهل يلقى عليه أثناء صلواته أمعاء شاة مذبوحة ضحية للأصنام ، فلا ينبث ببنت شفة ويذهب إلى ابنته ، لتزيل عنه القذر . أما ما كان القرشيون وأتباعهم ، يجرحون به أذن الرسول والمؤمنين ، فى غدوهم ورواحهم من قبيح القول وهجره ، فقد كان أكثر مما يحصى ، وقد استوحى شعراء الكفر والشرك من هذا السباب والشتائم ، قصائد . وقد كانت هذه القصائد ، وهذا السباب ، أوجع وآلم لنفس محمد وصحابته ، من رجم بيته بالحجارة ، ومن الاعتداء

عليه بتلويث ثيابه ، وملأ طريقه بالشوك ؛ فقد كان محمد عليه السلام من مجتمع شديد الغضب لما يمس العرض ، وقد كانت الحروب تقوم ، لا للإهانة وحدها بل لتوهم الإهانة أيضاً . فصبر محمد وهو من قبيلة تبلغ عندها الأنفة الارستقراطية أعلى درجاتها ، على هذه الإهانات المذلة ، وصبر المؤمنين برسالته عليها كذلك أمر مخالف لطبيعة أخلاق هذا المجتمع وتقاليده ، وأسلوبه ، ونظره إلى الأشياء والأشخاص .

وقد انتهى الأمر بقريش إلى أنها تواصت على مقاطعة المسلمين ، ونفيهم من المجتمع القريشي ، وتحريم التعامل معهم ، والاتصال بهم ، والإصهار إليهم ، فأصبح المسلمون أشبه شيء بالمجزومين ، لا يخالطهم أحد خشية أن تنتقل إليه عدوى الأفكار الجديدة ، ومع ذلك استبسل المسلمون و بقوا على دينهم .

وقد يذكر الذين درسوا شيئاً من تاريخ الدعوة الإسلامية ، أن المسلمين ضاقوا بالحياة فى مكة ، فى ظل الاضطهاد والمقاطعة ، ففروا بدينهم إلى الحبشة ، فى هجرتين ، ثم هاجر الرسول نفسه إلى المدينة ، بعد ثلاثة عشر عاماً من التضييق عليه والحصار المضروب حول فكرته . وليس ثمة شيء أبلغ فى إظهار ما عاناه المسلمون الأوائل من هذه الهجرة بعد تلك المقاطعة .

ولكن لا بد لنا من أن نسلم بأن الإسلام قاتل خصومه ، حينما اجتمعت له القوة التى تمكنه من رد العدوان وفى القرآن مواضع كثيرة يدعو فيها المؤمنين للقتال ، والاستعداد له ، والصبر على مكارهه ، وفى القرآن الآية التى يعرفها الكثيرون : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وفى القرآن الآية الكريمة القائلة « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » ، وفيه « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » .

فماذا يكون الإسلام فى تاريخ السلام ، وهل يكفى أن يكون رد القوة بمثلها ، نصًّا صريحاً فى أحكامه، وقاعدة أصيلة من قواعده ، لكيلا يحسب الإسلام كدين وعقيدة ، من دعامات السلام ، أو أن الدعوة إلى السلام ، أصيلة فى الإسلام ، وأنه يقوم عليها ، ويرتكز بنيانه فوقها ؟

إن الإسلام هو المذهب الذى أقام دولة القانون ، أى الدولة التى يخضع كل

من فيها ، وما فيها لقانون، لا يجوز الخروج عليه، يتساوى فى ذلك رئيس الدولة ، وأصغر صغير من رعاياه . وهذا القانون لا يتناول الجانب الروحي وحده ، ولا يعنى بالجانب الدنيوى وحده ، ولا يؤمن بانفصال الواحد منهما عن الآخر ، فنفس الإنسان وبدنه ، ومعاملاته وعقائده ، وصلاته بالناس ، وصلاته بالله ، بناء واحد ، متكامل ومتماسك . فكما يكون العمل الدنيوى ، كالدرس والعدل بين الناس ، والسعى من أجل الرزق عبادة ، تعلو كل عبادة غيرها ، يكون السعى فى الدنيا عملا غير صالح لا يؤتى ثماره ، إلا إذا تم فى ظل العقيدة بالله الواحد الشامل، الذى لا يفرق بين ضعيف وقوى ، وفقير وغنى ، وأسود وأبيض ، لأن الناس يتفاضلون عنده ، بالعمل الصالح .

ومن هنا كان السلام — ككل شىء آخر — فى الإسلام مقننا ، أى محكوما بضوابط وقواعد قانونية . فالدعوة المطلقة إلى السلام ، وتحريم العنف ، لا نجدها فى الإسلام ، كما وجدناها فى المسيحية . ولكنا نجد السلام المضبوط المقيد ، الذى لا يكلف النفس البشرية ،ماتكلفه المسيحية إياها ، من تحريم العنف إطلاقاً ، وعدم رد الأذى بمثله ، ولكن الإسلام مع ذلك لا يسد الباب فى وجه الإنسانية إلى هذا التسامى ، ولا يهزأ به ، ولا يعتبره خيالا ، ولا يعد الذين يؤمنون به ضعافا بل إنه يستحث الخطى إلى هذا السبيل ، ولا يمكن أن يفعل غير ذلك وقد سار الإسلام فى هذا الدرب ، ونجح فى الوصول عن طريقة إلى غايته .

والخصائص التى تجعل من الإسلام، دين سلام، كثيرة، ولكن من أهمها .

أولا : الإيمان بالله واحد ، متجرد من جميع الحدود التى تجعله (إله) قبيلة ، أو أمة ، أو جنس ، أو دين . فهو فوق الزمان والمكان ، وهو أزلى وأبدى ، وهو خالق كل شىء ، وكل شخص .

ثانياً : الإيمان بالبشرية ككل لا يتجزأ . والإعلاء من شأن الإنسانية ، وتكريمها ، والإعلاء من قدر جهادها فى سبيل التسامى ، والعلم ، والتحرر من ضعفها ، وذلها ، وخوفها .

ثالثاً : احترام الأديان الأخرى ، وتمجيد الرسل الذين سبقوا رسول الإسلام ، واعتبار اليهودية والمسيحية والإسلام ، ديناً واحداً ، تتسلسل حلقاته ، وتتابع خطواته

ويتعدد أنبياؤه ، ولكنه فى نهاية الأمر عقيدة واحدة ، وبعبارة أخرى يدعو الإسلام إلى التعايش بين العقائد ، ويطبقه .

رابعاً : ينظم الإسلام كل عام ، مؤتمراً ضخماً يضم أشتاتاً من البشر ، من كل فج فى العالم ، من آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا ، وأمريكا . من البيض والسود ، والحمر ، والصفر ، من الفقراء والأغنياء ، والحكام والمحكومين ، ويجردهم جميعاً من ثيابهم ، ومظاهر عظمتهم ، وشارات ومميزات شعوبهم . فيؤكد الجامعة الإنسانية ويبذر بذورها كل عام .

خامساً : يحرم إكراه الغير على الدين ويحدد استعمال القوة ، وينظمها بما يضيق من نطاق شرها .

سادساً : يدعو دائماً ، إلى مقاومة الأذى بالصفح ، والعنف بالرحمة ، ويعتبر ذلك خيراً وأبقى وسنفصل هذه الأسس فيما يلى .

* * *

أما الإيمان باله واحد ، خالق لجميع البشر ، فيستتبع — كما قلنا — أن يكون البشر إخوة ، متساويين . ذلك لأن التفكير القبلى ، جعل الإله قبل المسيحية ، حامياً للقبيلة ، ومدافعاً عنها ، وجعله إلهاً متحيزاً لهذه القبيلة ضد بقية البشر ، مما أدى إلى تقسيم البشر إلى طائفة متمتعة بحماية الإله ، والانتساب إليه ، وطائفة محرومة من هذه الحماية ، ومن شرف هذا الانتساب . وترتب على هذا التفكير أن اعتبر ما عدا الشعب المختار ، عدواً تستباح أرضه ، وماله ، وعرضه .

ولكن حينما يعلو الإله عن هذه الحدود المكانية والزمانية ، ويصبح إله الجميع ، يتساوى الناس جميعاً أمامه ، وينقطع الحق فى أن يستأثر بعضهم بالانتساب إليه ، والاحتماء به دون الآخرين ، وهذا هو الأساس الذى يمكن أن يقام عليه بناء بشرى أو إنسانى كامل وشامل .

وقد بدأت المسيحية بوضع هذا الأساس ، حينما قال المسيح : « فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات كامل » ، وحينما قال إن الله يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين وقد قام الإسلام على نفس الأساس ، وقد نص عليه القرآن فى الآية الكريمة :

« يأيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد جاء فى تفسير القرآن فى شرح هذه الآية ما ننقله هنا :

« لما كان يوم فتح مكة ، أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بلالا أن يعلو على ظهر الكعبة ، ويؤذن فى الناس ، فصعد بلال على ظهر الكعبة وأذن ، فساء ذلك بعض سادة قريش ، فتكلموا وكان ممن تكلم عتاب بن أسيد قال : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . والحارث بن هشام قال : ماوجد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً . وسهيل بن عمرو قال : أن يرد الله شيئاً يغيره . وأبو سفيان قال : أنى لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر رب السماء . فأتى جبريل النبى وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله : يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وزجرهم الرسول عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ، وفيها يؤكد الله للناس ، أنهم جميعاً عند الله سواء ، لا فرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم ، ولا فرق بين السامى والآرى والحامى ، فكلهم من أب واحد وأم واحدة ، ثم تناسلوا وتكاثروا فصاروا على الأجيال أمماً كبيرة والأمم الكبيرة – تنقسم إلى فروع صغيرة ، ليعرف بعض الناس بعضاً ، ويأنس بعضهم لبعض ولا فضل لعربى على عجمى ، إلا بالتقوى ، فلا تفاخر بالأحساب والأنساب ، ولا تكاثر بالأموال ويوم القيامة يقول الله تعالى : إنى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبى ، وأضع أنسابكم : أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ »

ولقد انعكس هذا الأصل من أصول الإسلام ، على نظر المسلمين إلى كل أمور الدنيا والدين ، فلم يعد الله ، فى خدمة حروب القبيلة ، ولا الوطن ، بل إنه ليس فى خدمة حروب المسلمين أنفسهم لمجرد كونهم مسلمين ، ولعل الخطاب الذى وجهه الخليفة عمر بن الخطاب إلى قائد جيوش المسلمين ، سعد بن أبى وقاص ، بطل واقعة القادسية ، يعد صدى لفهم المسلمين لهذا الأصل من أصول الإسلام وجاء فى الكتاب المذكور :

« أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن

تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى العدة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله . اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، اسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » :

هذا والمأثور عن رسول الله أنه كان يدعو عند بدء القتال هذا الدعاء .

« اللهم إنا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم أهزمهم وانصرنا عليهم » .

ولا يمكن أن يفوت على أحد ما هذا الدعاء ، من معنى ، ينبعث من الأصل الأصيل فى الإسلام ، من أن الناس جميعاً لآدم ، وأنهم بهذا النسب ، إخوة وأقرباء وإن تخاصموا . فالمسلمون ، وهم يضطرون إلى القتال ، ويحملون إليه ، لا ينسون أن أعداءهم من عباد الله ، وليسوا من طينة أخرى ، وتذكر هذه الوشائج عند خوض المعركة ، تجنب المقاتل المسلم ، ما يتورط فيه غيره ، من الميل إلى المبالغة فى البطش ،والإسراف فى القتل . وكان رسول الله يقول لجنودالمسلمين : أياكم والمثلة .

كما أوصى رسول الله معاذ بن جبل بقوله : لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل ؟ » .

* * *

وإذا كان هناك من كرمه الله،وخصه برعاية خاصة،فذلك هو (الإنسان) ،وفى القرآن الكريم فى أكثر من موضع آيات من قبيل قول الله تعالى « وكرمنا بنى آدم » .

وقد بلغ من تكريم الإسلام ، للإنسانية ، أن اعتبر قتل إنسان واحد ، بمثابة قتل الناس جميعاً ، ومن أحيا نفساً ، فقد أحيا الإنسانية جمعاء ،وهو فى الوقت نفسه ، تأكيد لوحدة البشر ، جاء فى القرآن الكريم :

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »

فالإنسان الواحد ، عند الإسلام ، كالإنسانية كلها ، لأن من يستبيح دم أحد أعضاء هذه الأسرة الكبيرة ، أسرة بنى آدم ، فقد استباح حرمة الدم الإنسانى كله ، وهانت عليه حياتها ، ومن دفع الأذى عن حياة الإنسان ، سواء أتى هذا الأذى من الغير ، ومن الشخص نفسه ، فقد أعلن بهذا أن الإنسان عنده جدير بالاحترام ، وأنه لا يملك أن يقتله . والإنسان الواحد ، إذا نجا من الموت ، يضيف إلى الإنسانية قوى ، لا ندريها ، ولا يمكننا التكهن بها سلفاً .

وهذه المعانى ، ليست من قبيل المواعظ والنصائح التى يسوقها لأتباعه ، بل هى أساس لأحكامه التى إن اجترأ على مخالفتها أحد ، نزل به العقاب فى الدنيا من الحاكم ، والعقاب فى الآخرة من الله . فالقاتل عند الإسلام يقتل سواء كان القتيل أميراً أو عبداً أو امرأة . فقد قال الرسول عايه السلام «من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه » وقد طبق المسلمون ذلك فى أشد الحالات حروجة ، فقد ثار فريق من المسلمين وغضبوا لأن الخليفة عثمان بن عفان ، لم ينفذ حد القتل فى ابن الخليفة عمر بن الخطاب ، حينما قتل قاتل أبيه ومن حرضه على القتل .

كما ثار المسلمون على زياد بن ابن أبيه حاكم العراق فى عهد معاوية بن ابن أبى سفيان ، لما تباطأ فى تنفيذ حكم الموت على مسلم قتل كتابياً ، وقد تزعم هذه الحملة ضد زياد حجر الكندى الذى لم يهدأ له بال حتى نفذ حكم الإسلام الذى لا يفرق بين دم مسفوك ، ودم مسفوك .

وكما أن القرآن نص على هذا الأصل الأصيل ، الذى يقضى بأن الإنسانية ، أسرة واحدة ، فإن السنة ، أى أقوال الرسول ، وأعماله أكدت هذا الأصل ، ونكتفى هنا ، بالخطبة التى ختم بها محمد عليه السلام خطبته ، والتى تسمى بخطبة الوداع ، فقد قال فيها :

« أيها الناس .

« إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . إن

أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى . ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ، فضل إلا بالتقوى » .

وكون هذا المعنى أكبر المعانى التى جاءت فى خطبة الوداع ، ذا دلالة خاصة ، فكان الرسول يريد أن يذكر به المسلمين ، فى آخر خطاب يوجهه إليهم ، لأنه يستحق أن تنبه إليه الأذهان والقلوب .

ولما كانت الإنسانية عند القرآن ، وعند الرسول ، جماعة واحدة ، وكان أبوها واحداً ، فمقتضى هذا ، أن يكون الرسول ، رسولا إلى البشرية كلها ، لا إلى طائفة منها ، وهو فى الوقت نفسه بشر أى واحد منها ، وفى القرآن الآيات الكثيرة الدالة على ذلك ففى سورة سبأ الآية الكريمة : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . وفى سورة الأعراف « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »

وقد بدت طبيعة الإسلام العالمية من المراحل الأولى للإسلام ، فقد جاء فى كتب السيرة ، أن الرسول عليه السلام ، خرج يوماً على أصحابه فقال : أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة ، ثم ذكر لهم إنه مرسل إلى هرقل إمبراطور الرومان ، وكسرى ملك الفرس ، ونجاشى الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر من قبل القسطنطينية والحارث الغسانى ملك الحيرة ، وا لحارث الحميرى ملك اليمن ، وقد أرسل مع رسل من عنده إلى هؤلاء الملوك والأمراء كتباً ، تنقل منها على سبيل المثال ، ما جاء فى خطابه إلى هرقل إمبراطور الرومان :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ومثل هذا الكتاب ، يعتبر فى حينه تحدياً هائلا لكل الأوضاع الثابتة ، ذات البنيان الراسخ فى عالم متأله ، يعتبر كل شبه الجزيرة العربية ، كمًّا مهملا إلى جانب العالم الغنى القوى الذى يبسط سلطانه على إمبراطوريتى الفرس والرومان . ولكن الإيمان البسيط الهادئ ، بأن الإنسانية كل لا يتجزأ ، وأنها يجب أن

تدين بعقيدة تؤمن بأن كل البشر لآدم ، هو الذى جعل توجيه هذه الكتب ، حتماً لا مفر منه ، ولا بديل عنه .

ولم يكف القرآن عن ضرب الأمثلة ، فى موضع منه ، بعد موضع ، عن تكريم الإنسان ، وأنه صاحب رسالة ، وقد أورد القرآن الكريم الحوار الذى دار بين الله ، والملائكة من جهة وبين إبليس ، من جهة وبين الله سبحانه وتعالى ، بعد خلق آدم ، ليكون بياناً لوحدة البشر من جهة ، ولرسالة الإنسان من جهة أخرى ، فى أكثر من سورة ، ونحن ننقل هنا ما جاء فى سورة البقرة :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا ، إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ثم ما جاء فى سورة الحجر :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ، قال فاخرج منها فإنك رجيم »

وما دام البشر ، على هذا القدر من الرفعة ، وكانت رسالتهم ، أعلى من أن يدركها الملائكة ، والشياطين ، أى أعلى من أن يضطلع بها الذين لا يخطئون أبداً ، والذين لا يكفون عن الخطأ ، فلا بد أن يكون منهم رسول ، فيه كل خصائص البشر ، ليتم التكريم للإنسان ، ولتتأكد وحدة الإنسانية ، فى شخص الرسول الذى يوجه إليها جميعاً الخطاب ، ويقودها إلى عالم ، غايته — كما سنرى — السلام .

فى سورة الإسراء : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

وفى القرآن ظهر كيف يأبى الناس أن يصدقوا لبشر مثلهم فتأكيد بشرية الرسول ، تأكيد لكرامة البشرية ذاتها : فى سورة المؤمنون : « ما هذا إلا بشر مثلكم

يريد أن يتفضل عليكم » وفيها أيضاً : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه » وفى سورة الشعراء : « ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » « وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين » وفى سورة التغابن « أبشر يهدوننا فكفروا ، وتولوا ، واستغنى الله » .

وفى سورة الإسراء « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا »

فالقضية إذن قضية البشر ، أيستقلون بالخلافة فى الأرض دون الملائكة ، ويكون منهم الرسل ، أم أنهم أصغر من ذلك ، وأقل شأناً ، يقول الإسلام ويقول القرآن ، إن البشر ، جديرون بأن يكونوا خلفاء الله فى الأرض ، وإن اعترض على ذلك الملائكة ، وأن يكون منهم الرسل ، وأن اعترض على ذلك البشر أنفسهم ، فالإنسان إذن عظيم ، وجدير بالاحترام . والإنسان هنا ، هو الإنسان المجرد ، فليس هو الإنسان الذى ينتمى لقبيلة أو لجنس أو للون أو لإقليم أو للغة أو لزمان . . . وما دمنا كلنا منتسبين لهذا الإنسان ، وممثلين فيه ، فكل تكريم أسبغ عليه ، أو منح له ، تكريم لنا ، وكل تكريم لنا ، داع إلى أن نتعامل ، ونتعاون ، كما يتعاون الأنداد والأشباه ، لا كما يتعامل الذين يتفاضلون فيما بينهم .

ونبى الإسلام بالذات ، بشر ، يجرى عليه ما يجرى على البشر ، بتأكيد القرآن ، وقول الرسول نفسه ، وما تواتر عن أسلوب حياته :

فى القرآن(١) « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ، إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

وفيه أيضاً(٢) : «قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى » .

وفى سورة الإسراء : « قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل ، وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله ، والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »

---

(١) سورة الأعراف . (٢) سورة الأنعام .

أما ما رواه صحابة الرسول عنه ، من أحاديث ، فى إنكار أى شىء يخرجه عن بشريته ، أو يرفعه فوق الناس ، مما يرتفع به الناس بعضهم على بعض من وسائل السلطان ، أو مظاهر الصولة والجاه ، فقد روى عنه عليه السلام قوله — وهو يخاطب رجلا دخل عليه فأخذته ، رعدة « لست ملكاً ولا جباراً وإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد فى مكة » .

كما روى أنه حينما اشتد عليه عدوان قريش الذى ألجأه إلى الطائف وأخرجه من مكة قبل هجرته إلى المدينة قال : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس » أما أسلوبه فى حياته ، فقوامه ألا يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة وكان قد خرج يوماً على جماعة متوكئاً على عصا فقاموا له ، فقال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، وكان إذا بلغ فى مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس .

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر ، والعبد ، والأمة والمسكين . وكان فى بيته فى مهنة أهله ، يطهر ثوبه ، ويرقعه ، ويحلب شاته ، ويخصف نعله . وكان يقول أنا ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

أما طعامه فحسبك أن تعلم أنه كان يمر هلال إلى هلال لا يوقد فى بيت من بيوت رسول الله نار لخبز أو لطبخ ، وقيل كان آل رسول الله يعيشون على الأسودين : الماء والتمر .

وقد ذكرت عائشة ، أن أباها أبا بكر أهدى إلى رسول الله عليه السلام شاة فقالت إنى لأقطعها على رسول الله فى ظلمة البيت فقال لها قائل : أما لكم سراج »؟ فقالت لو كان لنا ما نسرج به أكلناه .

وحياة الإنسان المرآة الصافية التى تنعكس فيها عقائده ، وكم من مدع للخير ، وداع إلى السلام ، وهو يخب فى ثياب السلطان ، ويعيش مدججاً بالسلاح ، بعيداً عن الناس ، إلهاً ، أو كإله .

* * *

فإذا كانت الإنسانية عند الإسلام ، وحدة ، لا تتجزأ ، وأصلا ترد إليه

الفروع جميعاً ، أى القبائل والشعوب والأوطان ، وكان البشر جديرين بالتكريم ، وقادرين على أداء رسالة السماء ، فالناس إذن إخوة ، وقد نص الإسلام على ذلك ، ونص على أنه لا فضل لأحد من الناس على غيره ، إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ولكن لكى يستطيع أن يعيشوا فعلا كما يعيش الإخوة ، بلا بغضاء ولا تحاسد فلا بد أن يحترموا آراء بعضهم ومعتقداتهم . وقد وضع الإسلام أساس هذا ، كأوضح ما يكون ، حينما آخى بين الأديان السماوية الثلاثة ، وجعلها كلا لا يتجزأ، وأطلق عليها جميعاً اسم الإسلام . والمشاهد أن العقيدة الجديدة تخشى من العقائد القديمة المتأصلة،على نفوس أبنائها ، فتبالغ فى تسفيهها ، وتسرف فى الحملة عليها ، وتظهر زعماءها وقادتها فى أقبح صورة . ولكن الإسلام على العكس من ذلك تحدث أحسن حديث عن موسى وعيسى ، بل تحدث عن آباء موسى ، بوصفهم آباء نبى الإسلام ، كما أنه تحدث عن جميع الأنبياء ، بوصفهم إخواناً لمحمد عليه السلام .

أما أن القرآن يعتبر جميع الأنبياء أنبياء مسلمين فشاهده فى القرآن كثير ، نضرب منه على سبيل المثال ما جاء فى سورة آل عمران ، عن إبراهيم الخليل :

« ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً » وفى سورة يوسف جاء على لسان يوسف الصديق : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا ، والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »

أما أن الإسلام لا يفرق بين الأنبياء جميعاً ، ويوقرهم ، على سواء فشاهده الآية الكريمة :

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

والآية الكريمة :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

فما نسمع عنه هذه الأيام باسم التعايش السلمى ، وضع الإسلام أساسه منذ أربعة عشر قرناً ، طبقه ما وسعه التطبيق فى ظروف ذلك الزمان .

* * *

على أن العمل على المؤاخاة بين الشعوب ، والتقريب بينها ، ليس مجرد أساس من الأسس العقلية أو الروحية التى يقوم عليها الإسلام ، بل هو عبادة من عباداته ، التى يدعو المؤمنين بها إلى ممارستها ، فالحج ، فى حقيقته ، تجسيد للوحدة الإنسانية يجمع الناس فى صعيد واحد ، وتحت ظروف واحدة ، ويجردهم من كل ما يميز بعضهم عن بعض ، بسبب نصيبهم من السلطان ، أو الثروة ، أو العلم ، أو انتمائهم إلى طبقة ، أو إلى جنس أو إلى لغة . فالحجيج ملزمون فى هذه العبادة أن يتخلصوا من كل ما يميز بين الواحد منهم والآخر ، وأول ما يفرق بين الناس فى المجتمع هو ثيابهم وما يتعلق بهذه الثياب من شارات الجاه والغنى . والحجيج لا تصح لهم عبادة ، إلا إذا تخلصوا من كل ثوب مخيط ، وقنعوا بثياب الإحرام، وهى لا تزيد عن قطعتين صغيرتين من القماش الأبيض . وعلى مر الأزمان أصبح يجتمع للحج فى مكة ألوف من كل فج من فجاج العالم : من جميع القارات ، ومن جميع الأجناس ، ومن الناطقين بجميع اللغات ، ومن المنتسبين إلى جميع الطبقات : الأغنياء والفقراء ، والملوك ، والأمراء ، والحكام والمحكومين ، والعلماء والجهال ، ومن الشباب والشيوخ ، ومن النساء والرجال وهو يجتمعون على مدار السنين فى كل جو ، البارد والقائظ ، وهم يختلطون فى الليل والنهار ، فالحج فى الحقيقة مهرجان الإنسانية جمعاء ، وفى مقدوره أن يثمر لها ، وللسلام الكثير .

وإذا كان كل ما فى هذا المهرجان الإنسانى ، جميلا ، وسامياً ، فإن ما يتوج جماله ، هو ما يردده الناس عندما يدخلون إلى الكعبة ، فإنهم يهتفون .

اللهم أنت السلام .

ومنك السلام .

فحينا ربنا بالسلام .

فالله ، هو السلام ، والتحية له السلام ، والتحية منه السلام .

فالسلام هو من الإسلام غايته وجوهره . وهو يريد أن يقيم هذا السلام بين

الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وغيره ، وبين الإنسان وربه . وإذا انتهت حياة الإنسان فى هذه الدنيا ، فالحياة الأخرى ، هى حياة سلام وأمن ودعة .

وليس هذا غريباً فى دين ، هو من بين الأديان والعقائد جميعاً ، يجعل تحية المؤمنين به بعضهم لبعض السلام عليكم ، ويفرض عليهم فى صلواتهم الخمس أن يكرروا لفظ السلام فى اليوم نحو عشرين مرة أو يزيد .

* * *

ولكن آخر الأمر ، نرى الإسلام يبيح استعمال القوة ، ويحرض على القتال ، ويعتبر الجهاد واجباً على المسلم ، وفريضة يؤديها . فهل يخرج الإسلام بهذا ، من دعامات السلام العالمى ، ومن العقائد المؤيدة له ، والداعية إلى إن الإسلام أباح استعمال القوة ، وحرض على القتال ، وفرض الجهاد ، المحافظة عليه ؟

ذلك لأنه أقام نظاماً كاملا يتناول شئون الحياة جميعاً ، وجعل للحكم ، نصيباً من أحكامه ، وقد كان الرسول عليه السلام رأس هذا النظام، وجاء من بعده الخلفاء الراشدون يتأسون خطاه فى الحكم ، ويفتون فى شئون الدين ، ويفصلون فى أقضية الدنيا .

ولا يستقيم أمر نظام كهذا ، أى أمر دولة ، إذا قنعت بالدعوة إلى السلام المطلق ، وتحريم العنف . فإن هذا من شأن الدعاة الذين يدعون الناس إلى المثل الأعلى، ويرسمون به الطريق إلىالغاية البعيدة المرموقة. أما النظام الذى لا يقنع برسم المثل الأعلى ، وإنما يفرض على نفسه مسئولية حث خطى أبناء المجتمع كله ، نحو هذا المثل، فىحركة بينالسرعة والاتئاد ، بحيث لاتشق علىالضعيف البطىء ، ولا تثقل على القوى السريع ، فإنه لا يستطيع أن يفترض فى الناس جميعاً ، القدرة على ضبط النفس الذى يمكنهم منالامتناع عن استعمال العنف والرد عليه، كما لا يحق له أن يبيح استعمال القوة لمقاومة الشر إطلاقاً ، وللوهلة الأولى ، لأنه إن فعل الأولى انتهى إلى أن يصبح دعوة ينهض بها الخاصة أولو العزم ، فيحلقوا فى سماء تساميهم ، ومن خلفهم قلة من الأتباع الذين يتاسون بهم ، وينشرون مع الزمن الطويل فى المدى البعيد ، أفكارهم، وعقائدهم ، والمجتمع من حولهم باق

فى مجموعه على عبادته للعنف والإيمان به ، أما إن فعل الثانية ، وسلم للعنف بالصدارة ، اعترف بأن القوة وحدها صاحبة الكلمة فى حل المشكلات ، وتغيير الأفكار ، وإصلاح حال الناس ، فقد ارتد بالإنسان إلى عهد الغابة ، واطفأ نور الأمل فى إنسانية ، تهتدى إلى القانون الأمثل ، والأسمى : قانون الحب .

وقد اختار الإسلام لذلك ، هذا الطريق الوسط ، فنشر دعوته بالرفق ، وبالحكمة والموعظة الحسنة . واحتمل فى سبيلها ، مالم تحتمله دعوة من قبل ، ولم يرد على العنف بمثله ، ولم يصلح الشرير ، بلى ذراعه ، أو بجدع أنفه ، حتى تزلزل تحت أقدام السادة القدامى ، أساس سلطانهم ، وهرع الناس إلى الدين الجديد . فلما أحس ذوو السلطان فى العالم ، الأباطرة والأكاسرة بخطر الدعوة الجديدة ، وجيشوا للقضاء عليها الجيوش ، رأت هذه الدعوة ، أنها لا بد أن تقابل القوة بالقوة ، ولكن بعد أن وضعت لاستعمال القوة ضوابط ومعايير ، حتى لا يفلت منها القياد ، فتصبح القوة عنوان حياة الناس ، وقانون وجودهم .

فالعلاقة بين المسلمين ومن حولهم هى أصلا علاقة سلم ، فلا يلجأون إلى الحرب ، إلا إذا اضطروا إليها دفاعاً عن أنفسهم أو اتقاء لهجوم يدبر ، تظهر كل الأمارات ، على أن السكوت عليه ، من قبيل السكوت على العدوان الواقع فعلا . وفى هاتين الحالتين يدعو الإسلام المسلمين إلى الحرب باعتبارها واجباً لا فرار منه ، ولا تريث فى أدائه ، ومع ذلك ، فليس من حق المسلم أن يذهب فى هذه الحرب كل مذهب ، فاستعمال القوة لابد أن يكون من قبيل استعمال الجراح للمبضع ، فلا يباح البتر إلا عند اليأس من العلاج ، ولا يستساغ القطع إلا مع الاحتياط الذى يخفف الألم ، ويقلل الخسارة ، ويأذن بإعادة الأمر إلى ما كان عليه بقدر الامكان .

وتتدرج فى القرآن القواعد الموضوعة للحرب تدرجاً يظهر منه أن الحرب شر ، اتقاؤه واجب .

ففى سورة النحل الآية الكريمة :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن

ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

وفى سورة الأنفال :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

وفى سورة النساء : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

فى الآيات الثلاثة السابقة يدعو القرآن إلى الرفق ، وإلى السلم ، ما دام الأعداء قد جنحوا لها ، لذلك إذا لم يكن للنجاة من الحرب سبيل ، فالضابط كما ورد فى سورة النحل :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

وفى هذه الآية البيان الشامل لقانون الحرب عند المسلمين ، فالسبيل المفتوح للمسلمين لنشر دعوتهم هى الحكمة والموعظة الحسنة ، ثم المجادلة اللينة الرقيقة ، فإن اعتدى على المسلم معتد ، فلا يحق له إلا أن يرد بقدر عدوان المعتدين ، ولا يتجاوزه ، وواضح هنا أن استعمال القوة مشروط بأن يكون غير المسلم هو الذى ابتدأ به ، ومع ذلك فإن وقوع العدوان من الأخرين ، ليس إذناً مطلقاً للمسلم بسرعة اللجوء إلى القوة ، بل إنه مطالب بأن يصبر ، فإن صبر فى ذلك الصبر خير له . ويحسن أن نذكر هنا حديث الرسول الذى نهى فيه المسلمين أن يقاتلوا حتى يبدأهم العدو وقد أردف القرآن ذلك وهو يخاطب الرسول عليه السلام بإصدار الأمر له « اصبر » .

ومن القواعد المكملة لهذه الأسس الأصيلة ، أنه لا يكفى أن تكون الجماعة على غير دين المسلمين ليؤذن لهم أن يحاربوها ، ويتصدوا لها ، بل على النقيض أن هذه الجماعات التى لم تشهر على المسلمين سلاحاً ، ولم تلحق بهم أذى ، جديرة بأن تظفر بود المسلمين ، فى سورة الممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

والقاعدة الثانية أن العهود التى يبرمها المسلمون مع غير المسلمين ، واجبة الرعاية، فنى سورة التوبة .

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

ولقد طبق المسلمون فى أيام البعثة ، وأثناء وجود الرسول بين المسلمين ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم، هذه المبادئ ما وسعهم الأمر ، وقد مر بنا ما جاء فى كتاب الخليفة الثانى عمر بن الخطاب إلى قائده سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ، ونثبت هنا شيئاً من خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى جيش المسلمين الذى أنفذه بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة قال :

« أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم . . . »

والحق أن الذين نصبوا أنفسهم خصوماً لتاريخ المسلمين ، لم ينسبوا إلى المسلمين فى أية حقبة من حقبهم الأولى ، أنهم خرجوا عن هذه القواعد ، فحاربوا بغتة بلا إعلان ، أو خانوا عهداً ، أو نقضوا ميثاقاً ، أو مثلوا بقتيل ، أو حرقوا أو ذبحوا، أو هتكوا الأعراض ، يعنى أنهم التزموا بما يطمع فيه عبثاً أهل القرن العشرين من وضع قانون للحرب يخفف ويلاتها ، ويحصر شرورها فى أضيق نطاق .

ويعد ما حدث فى صلح الحديبية ، أسلوباً إسلامياً ، فى اتقاء الحرب ، ما وسع المسلم الإتقاء، فإن النبى عليه السلام قصد مكة ومعه جماعة من المسلمين معتمرين بقصد زيارة الحرم، فتصدى له زعماء قريش فقال لهم: «إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين » فأنفذت قريش رسولها سهيل بن عمرو فاقترح رسول أهل مكة أن يعود النبى والمسلمون ذلك العام ، دون أن يزوروا الحرم على أن يأتوا فى السنة القادمة ، ويهادنوا عشر سنين، لا تقوم فيها بينهما حرب . ومن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده إلى قريش ، ومن أتى قريشاً من المسلمين لم

يردوه ، واستكثر المسلمون ذلك ولكن النبى عليه السلام قبله ، ولما أريد كتابة المعاهدة ، واقترح الرسول أن تستفتح باسم الله الرحمن الرحيم رفض مندوب قريش ذلك لأن فيه تسليما منه بشيء من عقيدة المسلمين ، فقبل الرسول أن تبدأ المعاهدة (باسمك اللهم) ، ولما جاء ذكر الأسماء واقترح الرسول أن يكتب أن المعاهدة بين رسول الله رفض مندوب قريش ذلك ، فقبله منه الرسول أيضاً . . وقد غضب المسلمون من هذه المسايرة وكادوا يعلنون عن غضبهم ، ولكن الرسول عليه السلام استمسك بموقفه ، وعاد من حيث أتى ، ولم يمض على هذه المعاهدة إلا القليل حتى نقضتها قريش وحاربت المسلمين وهزمت .

* * *

ولكن كان الأهم من هذا كله أن الإسلام لم يقفل قط باب التسامى إلى ما هو أعلى وأرفع . بل إنه نص على المبادئ التى احتوتها موعظة الجبل ، لتبقى غاية يسعى إليها المجتمع الإسلامى والمجتمع الإنسانى ، فى ظل القواعد والضوابط ، التى فرضها للحرب والمتحاربين فى سورة فصلت :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن؛ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »

وقد نص على هذا المبدأ كذلك القرآن وهو يروى ما وقع بين الأخوين قابيل وهابيل ، حينما قتل أولهما الثانى فقد جاء فى القرآن الكريم :

« قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين »

على أن الإسلام لم يتوسل بالقوة قط لغرض دينه على المهزومين ، فقد بقى معتصماً بقاعدة (لا إكراه فى الدين) ، وقد شهد بذلك كارليل فى كتابه الأبطال وعبادة البطولة إذ قال : «إن اتهام محمد بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم »

كما شهد به غوستاف لوبون إذ قال : « سيرى القارئ حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون أهل الأمم المفتوحة أحراراً فى أديانهم »

ولكن كان لابد لأن يتم التطور المرموق ، نحو عالم ينبذ القوة أو على الأقل يضيق من نطاقها ، ويقلل من شرها ، ولا يفكر فيها إلا مضطراً ، حينما ينفد صبره الإنسانى ، أن يبقى على رأس الدولة الإسلامية رجل من طراز خلفائه الراشدين ، الذين فرضوا على أنفسهم أسلوباً من العيش لحمته وسداه الشظف والزهد فى المال والنفوذ والمظهر . والفناء فى العقيدة والرسالة ، والانقطاع لخير الناس، وردع النفس عن محاباة الأهل ، أو تأويل أحكام الشرع . لتحقيق لبانات وأهواء لا يقرها الدين ، ولا تتفق مع مصلحة الجماعة ، وقد كان اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، ودخول الأجناس المختلفة فيه ، وكثرة الثروات، وسعة الأرزاق ، عبئاً ضخماً على نفوس الذين ولوا أمر المسلمين بعد الخلفاء ، فقد كان لهم فى ذلك كله ، ما يضعف جلد النفس ، ويغرى بالأعلاء من شأن الدولة على حساب العقيدة ، والفناء فى الملك، دون الدين ، والحرص على النفوذ ، لا إقامة حكم القرآن .

وقد حدث بالفعل فى الدولة الإسلامية ، وهى لا تزال فى مطالع شبابها ، ما نترك للأستاذ سيد قطب أن يعبر عنه ، قال فى ص ١٨٠ من كتابه « العدالة الاجتماعية » .

« فلما جاء الأمويون ، وصارت الخلافة ملكاً عضوضا فى بنى أمية ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية الذى أطفأ إشراقة الروح الإسلامى . ويكفى أن نتبين هنا صورة البيعة ليزيد ، لنعلم على أى أساس قامت :

« دعا معاوية الوفود ليتكلموا فى اجتماع عقده لأخذ البيعة ليزيد فتقدم يزيد ابن المقفع فقال :

« أمير المؤمنين هذا ، وأشار إلى معاوية

« ثم قال : فإن هلك فهذا ، وأشار إلى يزيد

« ثم قال : فمن أبى فهذا ، وأشار إلى السشف

« قال معاوية ، اجلس فإنك سيد الخطباء »

ثم قال :

« وفى سبيل تبرئة الإسلام ، روحه ومبادئه ، من ذلك النظام الوراثى ، الذى

ابتدع ابتداعاً فى الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة فى تصور الحكم الإسلامى على حقيقته .

« ومما ضاعف الكارثة أن هذا الانحراف باكر الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سنته الرفيعة ، فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار وتكوين التقاليد العميقة ، والأوضاع النظامية التى يصعب فيما بعد الخروج عليها »

ثم قال :

« وإذا أراد أحد أن يقارن بين أبى بكر وعمر وعلى كحكام ، وبين غيرهم من الخلفاء والسلاطين والولاة فى ظل الإسلام أو فى ظل غيره من الأديان والعقائد فإنه لا شك واجد الفرق واضحاً بين أسلوب هؤلاء الثلاثة العظام ، وبين من عداهم من رجال الدولة والسلطة فى كل عهد . فقد ألزم هؤلاء الثلاثة أنفسهم أسلوباً مؤداه أن الحاكم أولاً فرد من أفراد الرعية ، فقد قال أبو بكر عندما ولى الخلافة : أما بعد أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى وقال عمر : ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

وقال على : أيها الناس أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم ، وإنى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به .

فلم يكن فى الحكم عند الثلاثة ، ما يسمح لواحد منهم أو لذويهم ، أن يمتاز على أحد من الرعية فى رزق أو مكانة ، ولم يكن واحد منهم راغباً فى أن يستمتع بالدنيا أو يفكر فى شأن له منذراً نفسه ، واقفاً جهده ، باذلاً فكره لصالح الرعية ، أو لتنفيذ الشريعة ، والتأسى بالرسول عليه السلام .

فكانوا بين الحكام قديسين يبلغون من النبوة أقرب مكان لها »

لقد كان هؤلاء الخلفاء بهذه البساطة الموغلة فى الفرار من لذائذ الحياة ومتعها ، هم القادرون على أن يقيموا دولة القانون التى أقامها الإسلام ، والتى يخضع فيها الكبير ، كما يخضع له أى صغير من أفراد الرعية ، وكانت هذه الدولة ، هى التى تستطيع أن تبسط رداء السلام ، على العالم الذى تمتد إليه ، فترد الولاة عن أن يبطشوا بالناس ، أو يميزوا بينهم ، أو يطمعوا فى أن يوسعوا ملك الدولة بالحديد

والنار ، ادعاء بأن هذا هو الجهاد ، وهو فى حقيقة الأمر ، جهاد من أجل الدولة لا من أجل العقيدة . وقد ثبت ذلك فى تاريخ الإسلام مرتين ، مرة حينما نشر الأتراك الذين سقطت فى أيديهم الخلافة الإسلامية الدولة الإسلامية فى شرق أوربا ، ودن لهم البحر الأبيض المتوسط ، فقد علا شأن دولتهم ، ولم يكسب الإسلام شيئاً ، من ذلك فإنهم لم يكونوا إلا غزاة فاتحين ، ليس لديهم ما يعطونه للشعوب التى يفتحون أمصارها من عقيدة أو ثقافة أو علم أو حضارة .

وثبت مرة ، حينما انتشر الإسلام فى جنوب شرقى أسيا ، وفى شرقى ، وغربى أفريقيا ، فإن الذين نقلوا الإسلام فى هذه البقاع ، لم يكونوا غزاة ولا فاتحين ، وإنما كانوا من عامة المسلمين الذين يصلون إلى هذه البقاع ، تجاراً ، فيأخذ الناس عنهم طواعية واختياراً الإسلام ويدخلون فيه ذرافات . وقد بلغت عدة المسلمين فى هذه البقاع نحو ثلثى المسلمين فى العالم كله ، مما يقطع بأن الإسلام كعقيدة ليس فى حاجة إلى قوة تظله لينتشر ويستنصر الأنصار .

ولكن دولة القانون التى أقامها الإسلام دالت ، وفشا بين المسلمين الضعف ، كما فشا بين المسيحيين الضعف ، وأصبح على الإنسانية أن تواصل سعيها من أجل السلام . . .

الكتاب الثانى

تاريخ حديث

١ — تولستوى
٢ — الحرب العالمية الأولى وما بعدها :
٣ — الحرب العالمية الأولى وعصبة الأمم
٤ — غاندى
٥ — الحرب العالمية الثانية وما بعدها
٦ — مواثيق الحرب

تاريخ حديث

الفصل الأول

تولستوى

من القرن السادس الميلادى إلى القرن التاسع عشر مرة واحدة .

ألا تبدو القفزة بعيدة ، وغير مفهومة .

ألا يوجد فى صحف التاريخ الطويلة والعديدة ـ من يستحق أن نقف أمامه ، ونتحدث عنه ، ونحن نروى قصة السلام الإنسانى ـ سوى تولستوى .

والأمر ، فى الحقيقة ، فى حاجة إلى تفسير .

فنحن لم نسقط من حسابنا ثلاثة عشر قرناً دفعة واحدة ، لأن هذه القرون كلها خالية من جهد يستحق الذكر ، فى سبيل إقامة السلام ودعمه ، فالإنسان — والحق يقال — لم يكف أبداً عن محاولة كبح جماح نفسه وضبط غريزة التدمير فيها . مئات بل ألوف من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفنانين ، كتبوا ونظموا وأبدعوا لوحات ، تدعو إلى السلام .

وفى مجال الأديان كثيرون من اللمعاء والقساوسة والأحبار والكهان ، دعوا إلى عقائد ومبادئ وأنظمة داخل أديانهم ، لتجدد الدعوة إلى السلام ، ونبذ العصبية الدينية والطائفية والجنسية الإقليمية ، فأنكرهم إخوانهم وزملاؤهم فى الدين ، ورؤساؤهم من بابوات وأحبار ، واتهموهم بالمرق والزندقة ولكن أكثر هذا كله كان فى نطاق ضيق زماناً أو مكاناً ، بمعنى أنه لم يتجاوز العهد الذى وقعت فيه المحاولة ، أو البلد أو الوطن ، الذى يشهد تلك المحاولة .

أما الجهد الذى بذله تولستوى فيمتاز بخصائص جعلت له أهمية خاصة . وأولى هذه الخصائص ، مقام تولستوى الذى ارتفع إلى الحد الذى اعتبر معه من العبقريات الفريدة التى لا نظير لها فى تاريخ أدب القصة ، فقد اعتبرت قصة « الحرب والسلام » ، أعظم القصص طرًّا . فكان لكتاباته وأفكاره وما يتصل

بشخصه من الأثر والأهمية ، ما ليس لأعمال غيره من رجال الفكر أو الدين .

وقد كف تولستوى فترة عن الكتابة الأدبية ، وانصرف بكل نفسه ، إلى التأمل فى الدين ، وعد كبار الكتاب فى العالم بأسره ، أن ذلك مصاب للأدب ، وخسارة فادحة له لا تعوض ، حتى إن تورجنيف الكاتب القصصى المعاصر لتولستوى ، أرسل من فراش مرضه خطاباً إليه ، يتوسل فيه ليعاود كتابة قصصه ، وليكف عن تبديد مواهبه وقواه ، فى بحوثه الدينية التى لا طائل تحتها .

ومن هنا كانت آثار تولستوى الدينية ، ذات دوى ضخم ، ضاعف من أثرها ، ولم تنل هذه الآثار ، رضا القيصر ، ودوائر قصره ، ولم تظفر كذلك برضا الكنيسة وأمرائها ، فبقدر ما اعتبرتها (الأوستقراطية) الروسية ، تحريضاً على الثورة ، وتهديداً للنظام ، ومشاركة فى أعمال الهيئات غير المشروعة ، اعتبرتها الكنيسة تجديفاً ، وخروجاً على المسيحية . وكالعهد بالأفكار والآراء الجديدة اكتسبت أفكار تولستوى بسبب هذه المعارضة الرسمية الساخطة ، أهمية فوق أهميتها ، فلفتت إليها الأنظار ، وحركت نحوها القلوب والعقول .

ولم يقنع تولستوى بالكلام المكتوب ، ولا بالكلام المنطوق ، بل إنه تجاوز منطقة القول والدعوة إلى العمل فأصبح زعيم فكرة ، إلى جانب كونه داعياً لها ، ومحرضاً عليها .

على أن الذى جعل لتولستوى ودعوته ، مكاناً خاصاً ، فى تاريخ الدعوة إلى السلام ، أن البذور التى ألقاها ، فى روسيا ، وظن الناس أنها لن تلبث حتى تطمر تحت ركام الأيام والسنين ، أثمرت ثمراً باهراً على يدى تلميذ من أخلص تلاميذ تولستوى وأعلاهم شأناً بين الزعماء والقادة ، ونعنى به المهاتما غاندى ، زعيم الهند الأكبر .

فقد حول غاندى ، مبادئ تولستوى إلى تجربتين ضخمتين أولاهما تمت فى جنوب أفريقيا وكانت بمثابة التمهيد والتوطئة ، للتجربة الثانية ، التى كانت أول تطبيق كامل لموعظة المسيح على الجبل: «لا تقاوموا الشر . أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم ، صلوا للذين يسيئون إليكم »

ونحن لا نعتقد أننا نتجاوز حد الاعتدال ، إذ نؤكد أن مبادئ المسيح هذه ،

لم تجد طوال عشرين قرناً ، من عقد النية على تنفيذها ، وإقامة حياة كاملة على أساسها الحرفى ، دون تغيير ، أو إضافة ، أو تأويل ، قبل غاندى .

فالذين ذهبوا إلى أن غاندى هو التجسيد الحى ، للمسيح ، لم يخطئوا من الناحية العقلية والفكرية . فقد كان كلام غاندى ، كالصدى ، لكلام المسيح ، فوق الجبل . . .

ولقد اتصل تولستوى بنفسه ، كما اتصل عن طريق تلميذه وتابعه غاندى بالأحداث الكبرى التى وقعت فى الفترة الحديثة من حياة العالم اتصالا وثيقاً ، هذا كله مع بقاء صلته بالإنسانية كافة عن طريق قصصه التى لا تزال فى القمة بين الكتب التى يعاد طبعها وترجمتها بكل اللغات .

* * *

ولقد كانت حركة تولستوى الفكرية ، ومحاولاته الاجتماعية والسياسية ، صدى للفراغ الذى كانت تعيش فيه أوربا عموماً ، وروسيا خصوصاً .

كانت رد فعل للعنف الذى غرقت فيه روسيا ، فلم يعد أحد يستطيع من أبنائها أن يفكر تفكيراً هادئاً . كانت القيصرية تعيش بالعنف ، وتستزيد منه ، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية فى خدمة النظام القيصرى ، تكبل له عقول الناس ، وتبرر أخطاءه ، وتصرفهم عن التفكير فى الإصلاح أو المقاومة . وكان المتململون والساخطون والمصلحون والمتمردون والثائرون ، لا يستطيعون أن يجدوا مخرجاً للأزمة إلا بالتحطيم والتدمير ، والاغتيال . .

فالحالة فى روسيا ، إبان تحول تولستوى من الأدب والفن ، إلى الدين والاجتماع والسياسة ، كحالة العالم فى عهد بعثة المسيح ، وكحالته فى عهد بعثة محمد عليهما السلام .

فراغ وجدب ، وتقاليد صلبة شديدة ، ومجتمع معتز بنفسه ، مزهو بثروته ، وفقراء لا يجدون قوت يومهم ، وجموع لا تجد فى الدين السائد ، والعقائد المرعية شيئاً يتصل بقلوبهم ، أو وجدانهم .

وكان تولستوى ، فى هذا المجتمع ، ضميره القلق .

فقد كان من المجتمع الذى عاش فيه، على القمة[1]. كان غنياً له ضياع ، وبيت كبير فى موسكو ، وكان من أصحاب الألقاب الكبيرة وكانت له صلات بالقيصر ودوائر قصره ، بفضل قريباته وأقربائه ، وكانت زوجته ابنة طبيب خاص فى الحاشية الملكية . وكان ذائع الصيت ، نجحت كتبه فى وضع اسمه على كل لسان . ولكنه أحس أنه لا حق له فيما يتمتع به من راحة و رخاء ونعيم . إن الطعام الذى يأكله ملوث لأنه مخلوط بدم الذين بذروا حبه ، وحصدوه ، ثم طحنوه وعجنوه وخبزوه ، دون أن ينالوا منه إلا الفتات . أحس بأنه يركب ظهر رجل ، تكاد تنقطع أنفاسه ، وأنه راح يؤكد لهذا الرجل المسكين ، وللناس أنه مشفق عليه ، وأنه آسف لما يلاقيه من عناء ونصب ، وأنه يود أن يخفف عنه وعن أمثاله ، ممن يمتطى ظهورهم آخرون من الأغنياء القادرين على السير ، بكل وسيلة ، دون أن يفكر فى النزول عن ظهر هذا الرجل . وكلما فكر تولستوى فى وسيلة للخروج من هذا المأزق الذى وضع فيه المجتمع نفسه ، وجد الدولة ، أمامه فى كل جهة . رآها سداً عالياً يحيط بالشعب ، أغنيائه وفقرائه ، فلا يدع لهم سبيلا للفرار ، فأحس أن الدولة هى المجرم الأكبر لأنها قادرة على إخضاع كل الناس ، للنظام الذى يشكون منه . وأنها تستعمل كل وسيلة فى سبيل إخضاع الناس لهذا النظام الفاسد ، والذى تستطيع بفضله قلة أن تستمتع وتأكل أكثر مما تحتاج ، وتقتنى من الثياب والجياد والأراضى والمبانى ، والتحف ، والطرائف ، والنقود ، أكثر مما يلزمها ويلزم أولادها ، طوال حياتهم وحياة الأجيال التالية منهم .

ولكن لم يكن ممكناً لتولستوى أن يجد لهذا كله حلاً . فإن ما كان يشكو منه ، وما كان مبعث شكوى الآخرين ، هو نتيجة لتراكم أخطاء متعاقبة ، ومعتقدات موروثة فاسدة ، ومخاوف عند الحاكمين والمحكومين باطلة ، وجزع وفزع ، وعجز عن التفكير أو الإصلاح ، شل الحكومة ، وشل الرعية . ومن هنا ، مر بالمرحلة التى يمر بها الأنبياء والرسل ، والهداة والمصلحون . مرحلة الكفر بكل ما هو موجود ، والعجز عن تبين غده ، وإحلال شىء سواه .

---

(١) كان تولستوى يملك ثلاث مزارع واحدة فى ياسنايا بوليانا وواحدة اسمها نيكلسكو ، ومزرعة فى سمار كانت تقدر جميعاً بـ ٦٠٠ ألف روبل أى نحو ٥٠ ألف جنيه فى ذلك الحين .

ولقد سجل كتاب السيرة ، أن محمداً رسول الله ، عند انقطاع الوحى عنه ، هم بقتل نفسه .

ولم يكن تولستوى نبياً يوحى إليه ، ولكنه كان إنساناً رفيعاً ، يؤرقه ما يرى ، وتعذبه الآم غيره من إخوته فى البشرية . وقد ضاقت به الدنيا ، إذ لم يجد فى السدود التى أقامها المجتمع حوله ، فرجة يخرج منها إلى فسحة أمل ، أو إلى عالم أقل ظلاماً .

انقضت على تولستوى الأيام ثم الأسابيع والشهور ، وهو لا يستطيع أن ينام وكان فى بعض الأحيان ، يجهش بالبكاء ، وهو فى وحدته المطبقة ، وفى أحيان أخرى كان يثب من فراشه ، ويروح فى حجرته ، لا يطيق الفراش، ولا يطيق السكون ، ولا يدرى أين يذهب . ثم يذهب إلى مكتبه ، فلا يقوى على لمس قلمه وورقه . وينظر إلى الكتب فى رفوفها فلا تمتد يده إلى واحد منها . وكثيراً ما شوهد ، شارد الخاطر ، أو منكفئاً ،أو واضعاً وجهه بين كفيه . وقد خشى أن يقتل نفسه ببندقية ، فربطها بسلسلة من حديد ، حتى لا يستطيع أن ينتزعها فى لحظة من لحظات يأسه . إن حياته لم تعد تنطوى على معنى .

لماذا يعيش ؟ ما جدوى هذا الذى يعمله ؟ لماذا يولد الناس ولماذا يموتون ؟ ماذا وراء الموت ؟ فيم هذا الصراع الذى يحتدم بين الناس ، أغنيائهم وفقرائهم ، متعلميهم وجهالهم ؟ لماذا تقتل الشعوب ؟ أكل شىء إلى فناء . . . ؟

وبدا له أنه لابد أن يكون قد وقع منه خطأ جعل حياته هكذا بلا معنى ، كمن يجرى عملية حساب، فيسهو عن رقم ، يضيفه أو يحذفه، فتختل العملية من أولها إلى آخرها ولا تصل إلى نتيجة ، فيعيدها من أولها ثانية ، فلا يصل إلى حل ، وهكذا يروح ، يكررها ويكررها ، ولا تتغير النتيجة، بينما يصل الآخرون إلى حلها ، ويرضون عن عملهم .

فقرر أن يقرأ ، وراح يقرأ بنهم ، محاولا أن يستدرك ما فاته ، أو يصحح ما أخطأ فيه فقرأ كتب الأدب والفلسفة ، والعلوم التطبيقية ، وقرأ الفلاسفة القدامى والمعاصرين ، سقراط وأفلاطون، وأرسطو وبوذا ونيتشه وشوبنهاور . وكان يجد عند أكثرهم ، ما يبهر وما يمتع ، وما يفتح آفاقاً واسعة للتفكير ، ولكن التفكير فى

أى شىء ؟ فى لا شىء ، فالمتفائلون يقبلون الحياة كما هى ، ويفسرونها ، ويعللون متناقضاتها ، والمتشائمون يقولون إنها شر ، وأن حياة الجسد أمل ، وإن كل شىء — كما قال — سليمان عبث فى عبث ، وباطل فى باطل . ولكن السؤال الأول : ماذا أنا ، ولماذا أعيش ؟ فلا جواب له .

وخيل إليه ، أنه لن يجد الحل فى الكتب ، سواء كانت قديمة أو حديثة ، وسواء تحدثت فى العلم أو الأدب أو الفلسفة ، فالحل لا بد أن يكون عند الناس ، فذهب إلى عامة الناس : الفلاحين والفقراء . ثم ذهب إلى الكنائس ، والأديرة ، ورأى أفواجاً من البشر ، أغنياء ، وأصحاب مكانة ، وصغاراً ومجهولين ، يحنون رءوسهم ، ويركعون على ركبهم ، ويلمسون الصليب ويقبلونه ، ويرسمونه على صدورهم . رآهم يتمسحون فى الأضرحة ، ويتشبثون بأطراف ثياب القساوسة ، رآهم يبكون ويتضرعون، رأى وثنية تحت رداء المسيحية التى جاءت لتنقذ الناس من الوثنية فأدرك أن هذا العالم الفسيح ، عالم العقيدة الدينية ، هو العالم الذى يجب أن يجوس خلاله ، فلم يدع ديراً مشهوراً إلا وقصده ، فزار مدينة كييف ، فهى مدينة الكنائس والأديرة .

ولما لم ير وراء هذا المظهر شيئا ، عكف على قراءة العقيدة الأرثوذكسية ، مبتدئاً بالأناجيل ، ثم تاريخ القديسين ، ولما أدرك أن ترجمة الكتاب المقدس ، لا تغنى عن قراءه الأصل العبرى ، تعلم اللغة العبرية ، وقرأ الأناجيل فى هذه اللغة .

ولسنا نود هنا أن نروى قصة حياة تولستوى ، وإنما اضطررنا إلى هذا ، لنضع بين يدى القارئ ، صورة هذا العقل ، وهذا القلب ، وهو يبحث عن غاية الحياة ، قبل أن يؤمن بالحب ، أى بعدم العنف ، فى كل صوره ، أى بالسلام .

* * *

اصطدم تولستوى وهو بسبيل دراسة العقيدة الأرثوذكسية ، بالحقيقة الكبرى الأولى التى كانت أول معالم طريقه إلى عهده الجديد .

فقد رأى فيما قرأه فى المسيحية شيئين ، حسبهما متناقضين . رأى أشياء جميلة ومقنعة وباهرة ، ورأى إلى جانبها ، أشياء عدها زائفة ، ودخيلة على المسيحية ، بل ومعارضة لها .

وندع لصديقه ورفيق حياته إيلمرمود يتحدث عن هذه المرحلة من حياة تولستوى قال :

« إن المشكلة التى واجهت تولستوى ، هى فصل ما هو حقيقى ، عما هو
« زائف فى تعاليم الكنيسة والكتب المقدسة .

« وكان يعلم – بالتجربة – أن الإنسان فى حاجة إلى من يأخذ بيده ،
« وإلى ميثاق يعينه على شق طريقه فى الحياة ، ولكن تولستوى كان أصدق من أن يرتضى أيه عقيدة لمجرد أنه فى حاجة إلى إيمان ، أو أن يقبل أى شىء لا يرى له دليلا مقنعاً يحمله على التسليم به . ولقد أحس كغيره بالحاجة إلى الدين ، بمثل عمق إحساسه هو بهذه الحاجة ، ولكن القلة منهم شاركته فى شجاعته وحبه للحقيقة فهو وحده فى الفترة الحديثة الذى جمع فى نفسه الشجاعة فى البحث عن هذه الحقيقة مع عبقرية التعبير الأدبى التى ظفرت لكلماته بانتباه العالم بأسره .

ولقد أصبحت كلماته هذه بفضل ماجرته عليه من مخاطر ، أعمال بطولة ، التهبت لها دماء الذين سمعوها »

« ولقد درس أول الأمر بإمعان نصوص مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الروسية كما وردت فى معتقدات ونصوص اللاهوت المرقصى ، بابا موسكو . وهذه تتضمن مبدأ التثليث ، وميلاد المسيح المعجز ، وفكرة الخلاص والتكفير ، وهى مبادئ لا تختلف فى الكنائس الأرثوذكسية عنها فى الكاثوليكية أو البروتستنية .

« والنتيجة التى وصل إليها تولستوى كارهاً ، وببطء ، أن هذه المبادئ وكل اللاهوت التى تولدت فيه ، زائفة زيفاً مطلقاً . وكلما أنعم النظر فى الأمر ، كلما زادت صدمته بسبب الخفة التى قبلت بها الكنائس ، نتائج ، أقيمت على براهين لا تصمد لأبسط تجربة من تجارب المنطق . لقد صعب عليه فهم مبرر قول اللاهوتيين هذه الأشياء الغريبة ، ولماذا دعموها بحجج هى فى ذاتها إهانة للعقل الإنسانى . ولكن تولستوى أخبرنا كيف استطاع أن يرجع إلى أصل الحيل اللفظية التى توصل بها اللاهوتيون إلى جمع هذه الأقوال بعضها إلى بعض ، ورأى نفسه محمولاً على استخلاص أن النصوص اللاهوتية هى احتيال ودجل ، وقد استطاع هذا الاحتيال أن يصمد للزمن ، لأن السلطات أسبغت عليه حمايتها إذ أبقته سراً .

ولما أوغل تولستوى فى البحث ، وانتهى إلى القول ، بأن الكنيسة نفسها ليست سوى (قوة فى أيدى رجال بعينهم)

« فتولستوى يتهم الكنيسة بأن الأمانة الفعلية تعوزها ، وابتداء من ختام العقد السابع (من القرن الثامن عشر) أى من الوقت الذى فصل فيه نهائياً بين الكنيسة وتعاليم المسيح (باعتبار كل منهما شيئاً يخالف الآخر) ، لم يكف تولستوى عن النظر إلى الكنيسة كعقبة كأداء ورهيبة فى طريق تقدم الإنسان الروحى وانتشار أى إدراك سليم للدين .

« وقد قرر أنه ، و إن كان الكثيرون يقبلون عن اقتناع مذاهب الكنيسة ، « ويكررون نصوصها ، إلا أنه ليس فيهم من يؤمن بها ، لأنها لا تعنى شيئاً على « الإطلاق ، والنص أو القول يجب أن يحتوى على معنى قبل أن يؤمن به أحد . « أو حتى يكون محلاً للاعتقاد . فمثلا القول بأن إنساناً ما صعد إلى تل ، ومن ثم صعد إلى السماء ، حيث بقى هناك ، يمكن أن يكون ذا معنى ، لو أن الناس تعيش على أرض مسطحة ، تقع تحتها جهنم التى تتلظى ، و تقام فوقها سماء صلبة ؛ ولكن ما نعرفه من علم الفلك ، يؤدى إلى أن الإنسان إذا بدأ فى التصعيد فى السماء من قمة تل ، فإنه لن يقف أبداً ، وأنه إذا حاول الجلوس فإنه لن يجد ما يجلس عليه ، فيقع من حيث ارتفع ، فالذين يؤمنون بالنظام الشمسى ، يعتبرون القول بصعود المسيح ، ضرباً من الهذيان » .

إن الإيمان فضيلة كبرى ، ولكن قبل أن تخلص لعقيدة ما ، يجب أن يكون هناك ما تؤمن به ، وليس مجرد التسليم (وهو فى ذاته رذيلة) السبيل إلى الإيمان ، إذ أن سبيله هو الجهد العقلى المثابر الممتلىء حيوية .

ولقد صدر كتاب تولستوى المعنون « نقد اللاهوت المذهبى » فى سنة ١٩٠٢ ، فكان أقل كتبه رواجاً ، ولكنه فى هذا الكتاب ، وضع أسس فكرته فى تعاليم المسيح ، وموقف الكنيسة منها ، وخلاصة هذه الفكرة أن تعاليم الكنيسة ليست مخالفة لتعاليم المسيح فحسب ، بل إنها وضعت خصيصاً لتصرف عقول الناس عما احتفل به السيد المسيح وشغل باله ، وتحدث به إلى الناس

ويقول تولستوى إن أول ما يستوقف نظر الإنسان الذى يقرأ الأناجيل بعقل

مفتوح ، ثم يقارن بينها وبين تعاليم الكنيسة ومعتقداتها ، إن هذه التعاليم تود إن تقول إن السيد المسيح كان لا بد أن يعلم أن الله قرر أن يعاقب البشر لخطيئة أبيهم آدم ، كما قرر أن يواصل إنزال العقاب بهم حتى يتم التكفير ، وأن المسيح وافق على هذا القرار ، وجعل هدف حياته الأساسى ، أن يهدئ من غضب هذا الإله ، وأنه فوق ذلك كان يعلم أن خلاص الناس معلق على إيمانهم بهذا الأمور ، أى يغضب الله عليهم لخطأ أبيهم ، وباستمرار هذا الغضب حتى يتم التكفير . ومع ذلك فإن السيد المسيح نسى أن يقول لنا شيئاً من هذا كله ، أليس ذلك داعياً إلى غاية الأسف ، لا سيما أنه ترك لنا أن نستنتج ذلك من تلميحات وإشارات غامضة وردت فى كلام رجل لم يقابل أبداً السيد المسيح ، وهو فى الوقت نفسه يختلف عن السيد عقلا ومزاجاً وعملا ونعنى به القديس بولس ؟

إنه يشير إلى هذا الذى تقول الكنيسة إنه غاية حياة المسيح ، ومبرر نزوله إلى الأرض ثم صعوده منها .

وقد لخص إيملر مود ، نظرات تولستوى فى حياة المسيح، وتعاليمها ، وتفاسيرها فأقر تولستوى هذه التلخيص .

وقوام هذا التخليص ، أن فى كل منا عقلا وضميراً . هذا العقل وذاك الضمير يأتيان لكل واحد منا ، من مكان ما ، لا نعرفه . فنحن لا نصنع ضمائرنا ، كما لا نصنع عقولنا . فعقولنا وضمائرنا ، تصاغ لنا ، وبهما نميز بين الخير والشر ، وبأمر منهما نحن نقر أموراً ، ونستنكر أموراً أخرى . والناس جميعاً فى هذا متشابهون . ففى أعماق كل منهم وازع يقول لهم هذا حسن ، وهذا قبيح . فهم فى ذلك كأبناء أسرة واحدة .

وفى نفس كل منا قوى تدفعه إلى الشر ، وإلى إشباع غرائزه . وغاية حياتنا هو خدمة الجانب الأرقى منها . لا النزول على أوامر الجانب السفلى .

والمسيح طابق بين نفسه ، وبين الجانب الأسمى ، وتحدث عن نفسه وعنا بوصفنا أبناء لوالد واحد ، وأمرنا أن نكون كاملين ، لكى نكون مثل أبينا الكامل فى السماء .

وهذا إذن هو الجواب على السؤال : ما هى غاية الحياة ؟

والأناجيل لاتدعنا دون أن تقدم لنا تطبيقاً لهذا المبدأ على حياتنا العملية . ومن هنا كان سر انجذاب تولستوى إلى موعظة الجبل ، ولو أن فيها أجزاء ، أو قعته فى الحيرة وأربكته لاسيما الآية التى تقول : « لا تقاوم الشر بل إن من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر »

فقد بدا له أول الأمر هذا الكلام غير معقول، إذ أثار فى نفسه كل نعرة الأرستقراطية الكامنة بقدر ما أثارت نوازع الكرامة الشخصية وعزة العائلة ، ولكنه حينما حاول استبعاد هذا المبدأ ، مبدأ لا تقاوم الشر ، وجد أن بقية الموعظة فوق الجبل ، أصبحت بلا معنى ، وأنها لم تنتظمها فكرة واحدة منسقة، تضمها إلى سياق مترابط .

ولم يكد يلوح له احتمال أن المسيح لم يقصد إلى المعنى الحرفى من كلامه ، وإنما قصد من ورائه رمزاً ، حتى خيل إليه أنه وجد مفتاح هذا اللغز الذى حيره . فقد تبين أن تعاليم المسيح وحياته ، متطابقتان ومتكاملتان ، وأنهما يخلقان معاً كلاً منسجماً .

ورأى تولستوى كذلك أن السيد المسيح فى هذه الآيات ، لخص نصائحه العملية ، مشيراً خمس مرات أو يزيد ، إلى ما كان يقول به الأقدمون ، متبعاً بذلك ما يقول به هو : أما أنا فأقول لكم كاشفاً عن مناقضته لهذا القديم .

والوصايا الخمس التى تضمنتها هذه الموعظة ، جديدة ، فى رأى تولستوى — إذا قبلها الناس ، بل إذا فهموها وأدركوا معناها فحسب ، ثم حاولوا مجرد محاولة ، أن يطبقوها — أن تقلب حياة الناس رأساً على عقب . أما هذه الوصايا الخمس فهى :

١ — سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه يكون مستوجب الحكم .

٢ — سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .

٣ — أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة .

٤ — سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر؛ بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .

٥ — سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات . فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم .

ونحن سنناقش رأى تولستوى فى الوصايا الأربعة التى تتصل بالعنف والسلام ، ونبدأ بالوصية الأولى: لا تغضب، أو أن من قتل يكون مستحقًا للعقاب فى رأى القدماء، بينما يرى السيد المسيح، أن من غضب على أخيه، يكون مستحقًا للعقاب، فكأنه قتله .

ويبدأ تولستوى بمناقشة هذه الوصية ، باستهجان لفظ « باطلا » الذى يرد فى بعض الترجمات لإنجيل متى إلى الروسية بعد كلمة يغضب ، وهو لفظ وارد فى الترجمة العربية لهذا الإنجيل؛ إذ أن هذه الآية واردة فى النسخة العربية هكذا : « أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم » .

ويقول إن كلمة (باطلا) تسربت إلى بعض الترجمات ، فأحالت هذه الوصية إلى كلام فارغ . إذ أن الناس لا يغضب بعضهم من بعض بلا سبب ، إلا إذا كانوا مجانين فلكل إنسان سبب يدفعه إلى الغضب من أخيه ، وإذا اعتبر المقصود من كلمة (باطلا) تحريم الغضب بغير سبب مشروع ، فقد انفتح باب لا يقفل ، إذ أن الناس لا تنتهى من تبرير أسباب غضبها ، وقد تكون صادقة ومخلصة فى هذا التبرير .

وقد ثبت لتولستوى من مراجعة النسخة الروسية على النسخ اليونانية ، أن كلمة « باطلا » أو (بغير سبب) ، هى حشو تسرب إليها، وقد حذفت كلمة (باطلا) أيضاً من النسخ الإنجليزية المنقحة . ويروى تولستوى قصة فتاة امتحنها قسيس فى درس الديانة فسألها عن وصية المسيح عن الغضب ، فقالت على البداهة وبالفطرة السليمة إنه عليه السلام ، نهانا عن الغضب ، فاعترض القسيس على

إجابتها متسائلا : أنهانا المسيح عن الغضب كلية ؟ فقالت الفتاة فى هدوء وبلا تردد : نعم ! فصاح القسيس ؛ أفعل ذلك السيد المسيح ؟ فارتبكت الفتاة واحمر وجهها ، ولم تدر بماذا تجيب على هذا الصراخ إلا بالثبات على جوابها الأول ، بينما احتدم غضب القسيس الذى انتهى آخر الأمر إلى إسقاط الفتاة المسكينة فى الامتحان ، بينما هى فى رأى تولستوى ، على حق ، وممتحنها على خطأ .

ونحن نرى أن هذه الوصية ، هى ركن الزاوية فى بناء مجتمع السلام . فالغضب هو أول الطريق إلى الحرب . ولا شك أن الإنسان الذى يغضب يفقد نصف عقله ، وأن الحكم الذى يصدره فى حالة الغضب ، هو أقرب القرارات إلى الشر ، وأبعدها عن الحكمة .

ولما كان مجتمع السلام ، مجتمعاً أساسه التربية والتدريب والمران الروحى ، فإن أول ما يجب أن يتعلمه الناس فى البيوت والمدارس ، أن يضبطوا أنفسهم ، وأن يتأملوا فى تصرفات الغير ، قبل أن يحكموا عليها . وأن يلتمسوا لهم المعاذير ، قبل أن يدينوهم . عليهم أن يتسع صدرهم لأسلوب غيرهم فى الحياة ، وطريقتهم فى التفكير ، وذوقهم وأدبهم . عليهم أن يتذكروا كم ظلموا أناساً لأنهم حكموا عليهم من ظاهر الأمر ، فاستثقلوا ظلهم ، أو عدوهم متكبرين ، أو سخفاء أو متظرفين ، فلما اقتربوا منهم وعاشوا معهم ، كشفوا فيهم صفات جميلة ، وأدركوا أن كبرياءهم ليس سوى خجل ، أو احتياط درجوا عليه .

لا تغضب ، هى مساوية فعلا للا تقتل ؛ فما من إنسان قتل — فى الأغلب الأعم من الأحوال — إلا وكانت بداية الجريمة ، لحظة غضب ، وقد يكون غضباً جامحاً ، وقد يكون غضباً طويلا لا تذهب عن الإنسان حدته. ولكنه غضب فى الحالين.

ولقد رأينا كيف يتقاتل اثنان ، ثم إذا ذهب عنهم الغضب أحس كلاهما بسخف ما فعلا .

بل لقد رأينا كيف يتقاتل شعبان — كفرنسا وألمانيا مثلا — ثم إذا بهما بعد الحرب يتقاربان ويتصالحان ويصبحان معسكراً واحداً .

كم من أمة اتخذت لها حليفاً ، ثم غيرته ، ثم عادت إلى محالفته فليس ثمة عداوة باقية ولا صداقة خالدة ، إنما هى عواطف تبعتها الظروف والمصالح ، وتبدى

لنا الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، وتدعونا إلى سخف كثير .

ولكن ليس هذا الذى نصحت به الموعظة على الجبل ، وما تقول به ، الأمر الهين ، إذ لا جدال أن ضبط النفس من أشق الأمور ، وحمل الإنسان نفسه على أن تتريث وتتئد ، قد يكون أصعب من ترويضها وتدريبها على حمل الأثقال ، وقطع الأحجار ، ومعاشرة الوحوش .

ولكن لا بد من أن نضع هذا الأساس، وأن نلتزمه ، وأن نتعود عليه ، ونصبر ، إن أردنا أن نقيم مجتمع السلام ، وأن يبقى . . .

أما الوصيتان : الرابعة ، والخامسة؛ فهما جوهر الموضوع الذى نعالجه . فالرابعة تقول : «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر » الخامسة تقول : «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم » ويقول تولستوى فى تفسير الوصية الرابعة إنها تعنى تحريم استعمال القوى المادية مع الأشخاص الذين لا نقر تصرفاتهم . ولكنها تعنى شيئاً أكثر بكثير من ذلك إذا أخذت مع غيرها من الوصايا .

إذ أن هناك أسلوبين فى تحقيق الخير أو الشر . أولاهما الأسلوب الذى سلكه خيار الناس وحكماؤهم من بوذا إلى المسيح إلى وقتنا هذا . وهو أسلوب تحرى الحق ، ثم الجهر به بغير خوف ، ثم محاولة العمل بمقتضاه ، ليتولى هو بنفسه التأثير على الناس ، كما تؤثر الشمس والمطر على الكائنات جميعاً . والذين يتبعون هذا السبيل ، لا ينتهى أثرهم ، بل إنه يمتد من جيل إلى جيل .

ولكن إلى جانب هذا الأسلوب، يوجد أسلوب أحاب، وأتيلا، وقيصر، ونابليون والحكومات والعسكريين . أى أسلوب التأثير على من يستطيع أن يطولهم نفوذنا أو إلى أبعد ذلك ، ولكن أثر هؤلاء سيئ ، لأنه يلهب قلوب الناس بالغضب والكراهية

وهذان المنهجان متعارضان ، لأنك لا تستطيع أن تحاول أن تقنع إنساناً ما وأن تقهره وترغمه فى الوقت نفسه .

وختام هذه الوصية «من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين » وتولستوى يفسر هذه الفقرة من تلك الوصية بأنها تحرم كل أنواع المخاصمة وما يترتب عليها . فالمحاكمات القضائية

حرام فى نظر هذه الفقرة ، لأن هذه المحاكمات هى استعمال للقوة إما صراحة ، وإما ضمنا . وتحريمها لا يقتصر على الاشتراك فيها كقاض ، بل يمتد إلى أى مشاركة ، فالشهود يذنبون إذا أدوا الشهادة أمام المحكمة ، لأنهم يعينون بطريق غير مباشر على صدور حكم مآله إلى التنفيذ بالقوة الجبرية . بل إن مجرد حضور هذه المحاكمات ذنب . فإن مبدأ الحكم يتعارض مع كل تشريع يفرض أحكامه على الناس بالقوة ، وبالتالى مع المحاكم والشرطة والسجون ، وكل قيد ، يفرضه الإنسان على الإنسان .

أما الوصية الخامسة ، التى تقول سمعتم : « إنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينيكم صلوا لمن يسيئون إليكم » .

ويقول تولستوى : إن هذه الوصايا ، مضمومة بعضها إلى بعض ، ومعززة بالمثل الذى ضربه المسيح ، وبمنحى حياته ، والاتجاه المؤكد لتعاليمه ، تبرز لنا نظاماً روحياً بلغ من الوضوح إلى الحد الذى لا يمكن أن يخطئ الإنسان فهمه وإدراكه ، وكلما تقدم الزمن على هذا النظام ، فإنه يصعب على المعلقين على الأناجيل والشارحين لها ، أن يسدلوا ستار الخفاء عليه حتى على هذا الفريق من من المفسرين الذى ينطبق عليهم قول المسيح : لقد أفرغتم كلمة الله من معناها .

ويقول أيملر مود ، إنه أياً كان نصيب شروح تولستوى لموعظه الجبل من الصحة ، فإن سر تفوقه على الآخرين ، أنه يعرض لنا تعاليم المسيحية ، أو ما اعتقد أنه جال بخاطر المسيح ، فى صورة من الوضوح الكامل ، وهى فى الوقت نفسه صورة وثيقة الاتصال بالحياة اليومية لأفراد الناس . ولقد وصل إلى هذه الصورة ، ونقاها من الشوائب ، بفضل جهاد روحى ، ومعاناة قاسية ، ثم ألقى بها صراحة فى وجوه الذين اعتبروه مهرطقاً وملحداً ، وفى وجوه الذين اعتبروه مخرفاً .

والحق ، أننا بغير أدنى رغبة فى الخوض فى البحوث اللاهوتية التى خاضها تولستوى بشجاعة ، باعتبار أن هذه المباحث خارجة عن نطاق بحثنا تماماً — نستطيع أن نؤكد مع تولستوى أن النظام الروحى الذى أرست قواعده موعظة الجبل هو نظام واضح جلى ، منير ، لا يحتمل التأويل والفروض المتعارضة ، وأنه فى مثل وضوح قولك واحداً زائداً واحداً يساوى اثنين .

أما إن هذا النظام أعلى من أن يصل إليه الناس، فهذا أمرثان . ولكن لكونه عالياً ، وكون البشر بطبائعهم وغرائزهم ، أعجز من أن يلتزموه ، فشيء لا يسمح لنا بأن نتهم المسيح ، بأن كلامه كان رمزاً ، أو أنه وجهه للقديسين والحواريين ، أو أنه قال شيئاً وقصد غيره . فأنت إذا قلت لابد أن نصل إلى القمر ، فلا يجوز لأحد أن يزعم أنك قيصدت أن الوصول إلى القمر مستحب، أو أن القمر ، هو رمز على شيء آخر . أو أن الوصول هو كناية عن التأمل فى القمر ، أو نظم الشعر فيه ، أو دراسة ما يمكن أن يصل إلينا من المعلومات عنه ، خصوصاً إذا جاء فى العبارات التالية ، أن القمر المشار إليه ، فى العبارة هو الكوكب الذى نراه فى السماء يضيء فى الليل ، وأن الوصول المقصود ، هو الوصول المادى الأمر الذى حدث فى موعظة الجبل إذ أن تأكيدات السيد المسيح ومقارناته بين تعاليم القدماء وتعاليمه هو ، فضلا عن المثل الذى ضربه ، وأسلوب حياته ومنحاها من البداية حتى النهاية ، قاطعة فى أنه قصد ما دعا إليه فوق الجبل حرفا بحرف.

والحق أن الإلحاح فى الدعوة إلى تعاليم المسيح ، وتأكيدها وتهيئة النفوس لها ، والإصرار على أنها موجهة لنا جميعاً لا لفريق منا ، وأن الغاية من خطابنا بها ، هو تطبيقها فى حياتنا اليومية ، كان أجدى على البشرية ، من كل شيء آخر مما شغل به الناس عموماً والمؤمنون بالمسيحية خصوصاً .

لا بد لنا ، هنا أن نعترف ، بأن عقل الإنسان — وإن كان ينمو مع الزمن ، ويسعى سعيه الدائب الحثيث لتحرير نفسه من كل قيود الماضى ، إلا أنه يطيب له أمران : أولهما التنظيم — وثانيهما التجسيد .

والتنظيم هو الذى خلق للمسيحية النقية ، نظامها الكنسى ، وقواعدها الكهنوتية . التى هاجمها تولستوى، مما جعله عدواً للأرثوذكسية الروسية ، فاعتبرته كافراً ، وكادت تحرمه من الصلاة على جثمانه بسببه ، لولا أن قدر تولستوى عظم عند الناس فى روسيا فى العالم، فلم تستطع أن تواجه تيار الإعجاب به ، والإقرار بفضله ، فأعلنت أنه تاب وأناب قبل أن يذهب فى غيبوبة الموت .

وقد عبر عن هذا فى مسرحية قوى الظلام ، فقد أجرى على لسان أحد أبطالها فى حديث موجه إلى قسيس .

« عوضاً عن أن يشغل كل منا بإنقاذ نفسه ، وأن يؤدى رسالة الله ، فى نفسه قبل كل شيء . عوضاً عن ذلك نشغل أنفسنا بهداية الآخرين . وما الذى نعمله لنحقق هذا الهدف ؟ إننا نعلمهم الآن ، فى نهاية (القرن التاسع عشر) أن المسيح فرض على الناس أن يعمدوا بالماء، وإلا فلن يصبحوا مسيحيين . ونحملهم على الاعتناء بهذا الخليط من الطقوس السخيفة العقيمة التى تزعم أن الغفران والتكفير اللازمين لخلاص البشر لايتّمان إلا بها ، ثم هذا الاعتقاد بأن المسيح قام من الأموات وصعد إلى السماء التى لا وجود لها حقيقة ، وهناك جلس إلى يمين الأب . لقد ألفنا هذه العبارات والأقوال، ولكنها فى الحقيقة شيء فظيع جداً . . . إنها لجريمة ، جريمة منكرة كأبشع ما يمكن لإنسان أن يرتكب من جرائم ، ونحن أو بالأحرى كنيستك ، تفعلون ذلك . سامحنى » .

* * *

ولم يطل الوقت على تولستوى، قبل أن تتاح له فرصة تطبيق مذهبه القائم على عدم العنف وكراهيته حتى للمحاكم . وللشرطة وللسجون ، باعتبارها أنظمة قائمة على فرض الأحكام على الناس كرهاً ، فقد حدث أن قتل الإمبراطور إسكندر الثانى فى أول مارس سنة ١٨٨١ على يد جماعة تنتمى إلى الحزب الثورى ، وتنفيذاً لأوامر اللجنة التنفيذية لهذا الحزب وعلى الرغم أن اغتيال القيصر ذاته ، أثار حنق واشمئزاز تولستوى ، فإن ما كان يكتب ويذاع من أن التدبيرات تعد ، لتنفيذ حكم الإعدام فى خمسة من الذين اشتركوا فى الاغتيال منهم سيدة هى صوفى بروتسكى ، ثقل على نفس تولستوى ، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يوجه خطاباً إلى القيصر ، يعتبر عملا من أعمال الشجاعة من الطراز الأول .

وقد يحسن أن نثبت فيما يلى بضعة سطور من مسودة الخطاب الذى أرسل إلى القيصر إسكندر الثالث ، الذى ولى العرش بعد مقتل أبيه ، قال تولستوى :

« أنا ، الحقير ، الذى لا يؤبه به ، الضعيف ، الذى لا شأن له ، أكتب إلى القيصر الروسى ، ناصحاً له بما يجب عليه فى أشد الظروف تعقيداً وحرجاً !

« إنى أنا نفسى أرى غرابة عملى، وبعده عن اللياقة ، واجترّاءه على المألوف ، ولكن مع هذا أكتب . . .

« وإنى لأكتب من عزلة فى الريف ، حيث تعوزنى مصادر الأخبار الموثوق بها . فما اتصل بعلمى ، إنما كان عن طريق ما تنشره الصحف ، وما تتداوله الألسن، ومن ثم قد يكون ما أكتبه، تفاهات لا لزوم لها ، عن أمر يخالف تماماً ما فهمته فإذا كان هذا هو الواقع ، فتفضلوا بالعفو عما تورطت فيه من ثقة بالنفس زائدة عن الحد ، كما أرجو أن تتفضلوا بالتأكد من أنى لم أوجه إليكم هذا الكتاب ، لأنى أعلى من قدر نفسى ، وأحسن الظن بها . ولكن نحن ننحى كثيراً باللوم على الناس ، وأخشى أن أكون مستحقًّا للوم نفسى ، لو أنى قعدت عن القيام بعمل ينبغى على أداؤه .

« ولست أقوى على أن أستعمل فى خطابى الأسلوب الذى يستعمل عادة عند توجيه الكلام إلى قيصر ، أسلوب العبودية المنمق بالبلاغة الزائفة ، التى تحجب كلا من عاطفة الكاتب ، وفكرته .

« بل سأكتب إليك كما يكتب رجل إلى رجل . ولكن شعورى الحق باحترامك كرجل وكقيصر ، لن يخفى ، وإن لم أستعمل عبارات العبودية .

لقد كان والدك ، قيصر روسيا ، رجلا رحيماً ، أسدى خيراً كثيراً لشعبه ، وكان يضمر له دائماً الخير . وقد مزق وذبح ، بلا إنسانية ، على يد أناس لا يطوون صدورهم على عداوة شخصية له ، بل كانوا يطوون هذه الصدور على عداوة للنظام القائم ، فالنظام القائم ، هو الذى أدى إلى التضحية بأبيك فى سبيل ما يعترض هذا النظام أنه الخير للجنس الإنسانى .

« ولقد وليت من بعده عرشه، فوجدت بين يديك هؤلاء الأعداء الذين سمموا حياة أبيك ، وحطموه ، فهم أعداؤك ، لأنك حللت محل والدك ، وقد يقدمون على قتلك ، مثلما أقدموا على قتل أبيك ، ليحققوا الخير الذى تخيلوه »

ثم مضى تولستوى يقول إنه لابد أن تكون الرغبة فى الانتقام ، قوية فى نفس القيصر ، وإن ذلك يضعه فى موضع يجعله هدفاً لإغراء لا يقاوم ولكن واجبه الأساسى ، كإنسان يسبق واجبه كقيصر . وكإنسان يستطيع أن يتحرر من

الإغراء، لو نفذ ما جاء فى إنجيل (متى) إنكم سمعتم أحب قريبك ، واكره عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، ثم استدرك تولستوى فقال إنه مقر بأن الدنيا جد بعيدة عن تعاليم المسيح ، وإن هذا يجعل طلبه — وهو الضعيف الذى استسلم لإغراء أضعف من الإغراء الذى يتعرض له القيصر ، وهو يحس بالميل إلى الانتقام — يجعل طلبه من القيصر أن يقاوم هذا الإغراء ، جريئاً ومتسماً بالمبالغة . ثم مضى تولستوى يقول إنه تكونت منذ عشرين عاماً أو يزيد جماعة ، معظم أعضائها من الشبان ، — وهى جماعة تكره النظام الحاضر والحكومة . وقد تخيلوا نظاماً آخر أو لعلهم تخيلوا مجتمعاً بلا نظام إطلاقاً ، ثم راحوا يقوضون الحكومة الحاضرة بكل وسيلة غير إنسانية، من حرائق وسرقات، واغتيالات. وطوال العشرين السنة الماضية استمرت مقاومة هذه الجماعة ، وكلما اجتث منها عضو ، خرج بدله أعضاء .

ولقد انقسم الذين حاولوا القضاء على هذا الوباء إلى فريقين ، فريق يؤمن باستعمال غاية القسوة ضد هذه الجماعة ، فيطاردها، ويلقى القبض على أعضائها، ويشنقهم أو ينفيهم ، لتستأصل الجذور الفاسدة .

والفريق الثانى، كان يدعو إلى استعمال طرق أكثر لينا، أو أقل شدة، ولم يفلح الأسلوبان ، فقد بقيت هذه الجماعة ، واستمر نشاطها . وانتهى تولستوى إلى القول بأنه لم يبق إلا الأسلوب الثالث ، هو الأسلوب الذى تنصح به المسيحية ، وحاول أن يقنع القيصر بتفضيل هذا الأسلوب فقال إن مثل روسيا ، والقيصر ، مثل رجل مريض ، يجتاز أزمة ، فأية خطوة خاطئة فى علاجه قد تودى بحياته . فسواء اختار القيصر الانتقام من القتلة ، بتنفيذ حكم الإعدام ، أو دعى نواب الأمة إلى الاجتماع ، فإن لأى من الخطوتين أبلغ الأثر على مستقبل الأمة . ففى الأسابيع القادمة ستجرى محاكمة المتهمين ثم الحكم عليهم ولابد أن يختار القيصر واحداً من الطرق الثلاثة: إما الإعدام ، وإما استعمال الرأفة وإما مقابلة الشر بالخير .

ثم عاد تولستوى يرد المأساة إلى أصلها فقال :

يا أيها الملك !

« بسبب خطأ فادح ، نشأت كراهية مفزعة فى قلوب الثوريين ضد أبيك ، وقد قادت هذه الكراهية خطاهم حتى اغتالوه . هذه الكراهية يمكن أن تطوى مع الثرى مع جثمان والدك ، فإن الثوريين ، قد يجدون المسوغ للوم والدك ، فى أن أحكام إعدام نفذت فى عدد منهم . ولكن يديك أنت نظيفتان طاهرتان لم تلوثهما قطرة دم . أنت ضحية مركزك، على أنك برىء وطاهر ، أمام نفسك وأمام الله ، إنك لتقف على مفترق طرق . فإذا انتصر الذين يعتبرون الحقيقة المسيحية مجرد كلام ، وأن السياسة تقتضى سفك الدماء ، وسيادة حكم الإرهاب ، فإنك ستجتاز هذه المرحلة المباركة ، مرحلة البراءة إلى مرحلة مظلمة ، تسود فيها اعتبارات ضرورات الدولة ، التى ستقر كل إجراء حتى لو كان فى هذا الإجراء ، الخروج على قانون الله ، وقانون الإنسان .

وخلص تولستوى من كل هذا إلى النصح للملك ، بأن يفرج عن هؤلاء القتلة ، ويعطيهم مالا ، ويرسلهم إلى أمريكا ، ووعده بأنه إن فعل ذلك فسيبقى خادمه وكلبه الأمين ، وتنبأ له بأن مثل هذه الكلمة كلمة الصفح ، ومواجهة الشر بالخير ، ستعم روسيا بفيض من الرحمة والحب. أما قتل هؤلاء الثوريين فليس علاجاً لحركتهم ، فهم يدعون إلى مثل أعلى ، يعد الناس بالمساواة والحرية ، وبكفاية تسد حاجات الجميع ، ولا يقضى على مثلهم هذا إلا مثل أعلى آخر ، أكثر سمواً يبشرون به . مثل أعلى جديد يطوى هذا المثل فى باطنه. وقال تولستوى إن لهؤلاء الثوريين زملاء فى إنجلترا وفرنسا ، وإن حكومات تلك البلاد حاولت أن تقضى عليهم بالحديد والنار فأفلست وكان تولستوى قد أرسل خطابه هذا إلى بوب دونوستيسف رئيس المجمع الدينى فى روسيا المسمى «سينود »، وقد كان من أكثر الشخصيات الدينية والروسية رجعية ، ولذلك لم يكن متصوراً أن يبلغ هذا الخطاب إلى القيصر ، وقد لاذ بالصمت فلم يرد على تولستوى حتى تم تنفيذ حكم الإعدام فى الثوار ، ثم انتحل لنفسه عذراً فى عدم توصيله الخطاب ، بسبب مشاغله الكثيرة ، منذ وقع حادث اغتيال القيصر إسكندر الثانى ، ثم لأنه حينما قرأ الخطاب ، وجد أن ما فيه يخالف عقيدته .

* * *

ودعوة تولستوى إلى عدم العنف أو عدم المقاومة أو الحب ، لم تنج أبداً من النقد ، حتى من أقرب الناس إليه ، وكلهم من المسيحيين .

وقد كان فى مقدمة الذين عارضوا تولستوى فى هذه الدعوى ، رفيق حياته ، ومؤرخ هذه الحياة فى اللغة الإنجليزية أيملر مود . وقد كان من معارضيه ، الأب آدين باللو وهو من دعاة عدم العنف مثل تولستوى وكانت تقوم بينهما مناقشات ، فى خطابات يتبادلونها .

وكان موطن الخلاف بين تولستوى وبين معارضيه ، أن تولستوى كان يحرم استعمال العنف أياً كانت صورته ، وأياً كان باعثه ، وأياً كانت ظروفه . وأحياناً كان يفهم من كلامه ، أنه يحرم استعمال العنف حتى مع الحيوانات الضارية . وكان يؤكد ويكرر أنه لا يحق لأحد أن يحمل أحدا آخر على عمل أو الامتناع عن العمل ، أو السير فى طريق ، أو المناداة برأى ، أو استنكار رأى آخر بالقوة أو التهديد بها . ولذلك كان الاعتراض الأول على دعوة تولستوى ، إطلاق الدعوة ؛ فتحريم استعمال القوة مع الطفل الذى لا يعقل ، والمجنون الذى لا يعى ، والحيوان الذى لا يمكن التفاهم معه ، لا مبرر له من نظرية الحب وتحريم العنف . إذ أن مبرر تحريم استعمال القوة ، هو استنكار إخضاع إرادة إنسان لإنسان آخر ، أو لجماعة من للناس كرهاً عنه . مع ما يجره هذا الإكراه من مساوئ لا حصر لها . وفى مقدمتها إشاعة الخوف فى المجتمع ، التى تتولد عنها الكراهية التى تؤدى بدورها إلى التفكير فى الانتقام الذى يؤدى إلى مضاعفة الكراهية ، التى تنبعث منها أفكار جرائم أشد هولاً ، وهكذا تستمر الحلقة المفرغة ولا تنتهى . ولا يمكن أن تقطع هذه الحلقة إلا بتحريم الرد على الشر بالشر . فإذا ضربنى إنسان وضبطت نفسى فلم أرد على ذلك توقفت هذه النتائج التى يمسك بعضها برقاب بعض ، فلم تعد هناك حاجة لأن يبقى هذا الإنسان حذراً ، خائفاً يترقب منى عدواناً ، ولم تعد حاجة لأن يبرر عدوانه علىّ ، بخلق جو من الارتياب فى ، وعدم الثقة بى ، بما يذيعه من قول باطل فى حقى ، ولن يشغل عقلى ونفسى بالتفكير فى الانتقام منه ، ولن أشغل بتسوىء رأى الناس فيه ، وبتشويه سمعته ، لأجرده من العطف ، ولأستأثر بعطفهم على .

فاستعمال العنف معناه إطلاق الخوف كغاز أسود ، خانق للفضائل كلها فى المجتمع ، والخوف هو الأب الشرعى للكراهية ، والكراهية هى الأم الطبيعية للجريمة ، والجريمة تلد جرائم والجرائم فى الداخل تقود إلى الحرب مع الخارج .

وناقدو تولستوى يقولون أين يوجد الإكراه ، فى حالة استعمال القوة مع المجنون. إن المجنون الذى يروح يضرب ويحطم ويؤذى ويخيف لا عقل عنده حتى نطالب بالتأثير عليه بمخاطبة عقله وإقناعه بالحسنى . ونحن حينما نمنعه من إيذاء نفسه وإيذاء الناس ، لا نفرض عليه رأياً معيناً ، ولا نسوقه إلى عقيدة ما . فالتفاهم معه عقلياً ممتنع ، وفرض إرغام إرادته ، منتف .

كذلك الحال فى السكير الذى يهذى ، ويعتدى على الناس بلا إرادة . إن الخمر التى شربها وهى العنف الذى استعمله ضد نفسه فأفقده عقله وعطل إرادته ، فلسنا نطلب منه ، إلا أن يعود إلى عقله ، وأن يثوب إلى إرادته ، ويفعل ما يشاء ، بلا توجيه منا ، أو إكراه .

وقس على ذلك جميع الأحوال التى لا يتصور فيها أن القصد من استعمال القوة ، هو إخضاع إرادة شخص ، أو التأثير عليه عن غير طريق العقل والوجدان.

وتولستوى يستشكل على معارضيه فيقول أى مقياس ستقيس به عقل الناس وتحكم – وأنت قانع ومطمئن – بأن هذا مجنون وذاك عاقل . هل المجنون هو الذى يختلف أسلوبه أو تختلف ثيابه ، أو طريقة كلامه ، عن بقية الناس ؟ إن فتح الباب فى هذه الناحية سيؤدى إلى فتح الباب لاستعمال القوة مع أفراد ممتازين فى المجتمع ، أحرار ، يقولون مالا يقوله الناس . لأنهم يرون أفضل وأبعد ، وأوضح مما يرى الناس .

ومما يقال ضد نظرية تولستوى ، أن عدم استعمال القوة مع القتلة وقاطعى الطريق ، واللصوص ، ليس له إلا نتيجة واحدة ، هو مكافأة أسوأ عناصر المجتمع ، عن الجرائم التى يرتكبونها ، هو أمر نتيجته محتومة ، هو أن الذين يؤمنون بقانون الحب ، سيدفعون حياتهم ثمناً لهذا الإيمان ، بغير مقتض ، إذ أن المفهوم الطبيعى والمعقول لهذا القانون ألا أستعمل القوة لإكراه خصمى ، أو ألا أستعملها فى حماية نفسى وحماية المجتمع ، إلا فى أضيق الحدود ، وبأقل الوسائل أذى ، وبغير حقد ،

أى بنفس الروح التى يعالج بها الطبيب مرضاً ، والتى قد يقطع معها رجلاً أو أو ذراعاً ، وقلبه يفيض عطفاً على المريض الذى ينزل به هذه الخسارة الفادحة إذ يفقده عضواً من أعضاء جسمه ويشوهه .

ويقول ناقدو نظرية تولستوى إنه لو سمح ببعض التحفظات التى لا مفر منها ، مراعاة للحالات الشاذة والتى لا يمكن تطبيق قانون عدم العنف عليها ، لسلمت نظريته من العيوب ، ولأفاد منها المجتمع ، ولما قضى عليها بسبب تسليمه لخصوم النظرية من الأصل ، بأسلحة يشهرونها فى وجه دعاتها ليقضوا عليها وليتخلصوا منها .

ويقول تولستوى إن التحفظات والاستثناءات قد يسمح بها فى التطبيق ، وعند مواجهة أمور ليست فى الحسبان ، أما التحفظات التى تقترن بالنظرية فإنها تقضى عليها . فالنظرية توضع لتقرر المبدأ ولتبين وجه الحق خالصا . فإذا كان الطريق الذى ترسمه إلى الحق شاقًا ، أو كان الناس على حالهم الراهن غير مستعدين للسير فيه فإنه يكون من الخيانة ، أن أعدل فى النظرية ، لا لتكون أكثر انطباقاً على الحق ، وأكثر استكمالا لعناصر الصحة ، بل لتكون أقرب إلى الناس وأسهل فى التطبيق .

ثم يقول تولستوى إننى إذا لم أدفع بالقوة القاتل الذى يهدد حياتى ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ يمكن أن يقضى على ؛ حسناً ! ألسنا مطالبين بأن ندفع حياتنا ثمناً لما نؤمن به ؟

ونظرية تولستوى تقوم على أساس أن العنف الذى يسود المجتمع ، سيستمر . ما لم نواجهه بالصفح والحب ، فما لم ندفع ثمن هذا الهدف العظيم ، ألا وهو انتزاع العنف من جذوره وتطهير الحياة الإنسانية منه ، فإننا سنبقى ضحايا هذا الوباء ، وباء العنف ، والإكراه . فلا بد من تضحيات ، وتضحيات جسيمة ، كى يصبح الناس بشراً . لا بد أن نطبق المبدأ كاملا ، وأن ندعو إليه على إطلاقه بلا تحفظ ولا احتياط ولا استثناء ، فإن مبدأ العنف رسخ وتأصل ، واتسع نطاقه حتى شمل كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا ، والحملة التى تنظم لمواجهته يجب أن تكون من الاتساع والشمول والقوة بحيث تماثل اتساع وشمول وقوة مبدأ العنف فى حياتنا الراهنة .

ويعترض إيلمر مود على كراهية تولستوى لكل صور الحكومة من عسكرى الشرطة

إلى القاضى . ومن المحكمة إلى السجن . ومن القانون إلى التجنيد ، وإنشاء الجيوش . ويقول إيملر مود إن تولستوى متأثر فى تكوين عقيدته هذه بما حدث فى المجتمع الروسى الذى خضع لسلسلة من القياصرة ، حكموه بأشد أنواع الحكم عسفاً ، وبأكثرها ظلماً وقسوة ، حتى ألف الشعب مع توالى الحقب، هذا اللون من الحكم ومن ثم اعتبر تولستوى الحكومة فى مظاهرها ونواحى نشاطها كافة ، تجسيداً للعنف ، وتطبيقاً له . بينما الحكومة هى صورة من صور التعاون بين الناس ، ووسيلة معقولة ومشروعة ، لتيسير أمورهم بأقل قدر ممكن من العنف ، وبأكبر قدر ممكن من التفاهم ومحاولة الوصول إلى حل للمشكلات يرضى المجتمع أو أكثريته على الأقل . ويضرب (مود) الحكومة الديمقراطية فى الغرب مثلا لهذه الحكومة . ويرى أن التشريع فى الحكومات الديمقراطية ، ليس إكراهاً من السلطات الحاكمة للشعب، بل هو تعبير عما يريده ويرضاه الشعب ممثلا فى نوابه الذين اختارهم فى انتخابات حرة . فالشعب لا يحمل حملا على تطبيق القانون وتنفيذ أحكامه ، بل إنه هو الذى يطالب بهذا القانون ، ويسعى إلى استصداره، ويرى فى احترامه حماية لحقوقه ، وصيانة لمصالحه ، وإقامة للحواجز والسدود فى وجه المهددين لراحته وأمنه ، والواقفين فى طريق رخائه ونمائه .

وتولستوى لا يقنعه هذا التحليل ، ولا يعتبره تصويراً للحقيقة . فهو يرى فى الحكومة، الوسيلة التى نظمها الأقوياء فى المجتمع لاستدامة سلطانهم، ولمنع الضعفاء من أبعاد الأقوياء عن مراكز السلطة . وما الجيش والشرطة، والسجون والمحاكم، إلا فروعاً لهذه القوة ، وأدوات ، لإخضاع الناس وإكراههم على الإذعان لإرادة الدولة ، أى الطبقة القوية فى المجتمع ، وتهديدهم بالعقاب والعذاب كلما سولت لهم أنفسهم التفكير فى خلع نير هذه الطبقة والتحرر منها .

ويؤخذ على نظرية تولستوى أيضاً ، أنها تشغل بالقوة أو العنف الماديين وحدهما ، وينسى تماماً ألوان الإكراه ، ودروب القهر المعنوية التى لا تختلف فى نتيجتها ، عن القوه والعنف الماديين ، فالاحتيال ، والتزوير ، والتهديد بالفضيحة الموهومة أو الحقيقية ، والإغراء بإثارة الغرائز والآمال الخادعة . والحق أن هذا الاعتراض غير مفهوم ، فتولستوى لم يبح الرذائل الخلقية ، ولم يرد أن يضع ،

عنه حديثه عن قانون الحب ، وتحريم العنف ، أن يضع دستوراً خلقياً لمواجهة النقائص والعاهات البشرية بأسرها ، إنما قصد أن يرسى القاعدة الأساسية لحياة الناس ، وهى قاعدة الحب ، وتحريم العنف ، باعتبار العنف ، هو أصل كل بلاء يصيب كل الناس ، وفى كل العهود . فإذا زال العنف كوسيلة لتنفيذ الرغبات والإرادات البشرية سواء أكانت رغبات وإرادات فردية أم رغبات وإردات جماعات وسلطات وهيئات ، وإذا انتفى تبرير العنف كقاعدة لحياة الناس ، تغير تماماً وجه الحياة الإنسانية ، وتغيرت بالتالى معتقداتهم وأذواقهم واختفت من المجتمع الإنسانى كثير من الرذائل والجرائم والعيوب .

إن إيملر مود ، بعد أن يفرغ من نقد تولستوى ، يعلن فى غير تحفظ أن مزية هذه النظرية المطلقة أنها تضع مقياساً بسيطاً وواضحاً يعين على تبين ما هو مشروع وما هومحرم فى موضوع العنف ، لأنه يقنع بالظاهر المادى ، كلما كان هناك استعمال للقوة .

فالأخذ بنظرية تولستوى ينفى أسباب الخلاف ، ويضع حداً للتذبذب والاضطراب ، ويجعل أمام الناس سبيلا واحداً للحياة ، هوسبيل التفاهم والإقناع ، وتحريم القوة فى جميع صورها ، وفى جميع الأوقات ، وعلى جميع الأشخاص والهيئات . فالقوة محرمة على الأب مع ابنه ، ورب العمل مع العامل ، والحاكم مع المحكوم ، والدولة مع الشعب ، والدولة مع الدول . فالقانون محرم إذا افترض أن تنفيذه سيكون باستعمال القوة الجبرية ، والمحكمة محرمة ، إذا كان حكمها سينفذ بالقوة الجبرية ، وحفظ الأمن محرم إذا كانت وسيلته السلاح والإخافة ...

إن إيملر مود يأسى إذ يسجل هذه النظرية لصديقه وأستاذه ، ويقول إنه من المؤسف حقاً أن رجلا كتولستوى يتورط فى مثل هذا الكلام ليحجب عن الناس عظمته الفكرية بل ليشككهم فى قدرته العقلية ، ويقول إن هذه النظرية لم تطبق إلا فى مجتمعات تولستوى التى قامت من أفراد متطوعين للقيام بتجربة حياة ، أما تولستوى نفسه ، فإن كان لم يستعمل العنف ، فذلك لأنه يعيش فى مجتمع ، فيه آخرون قبلوا أن يقوموا بالنيابة عنه بتحمل خطيئه العنف ، بما مكنه أن

أن يعيش ، ولولا هؤلاء ، لما استطاع هو أن يعيش ، ولما استطاع أن ينجو من التورط فى هذه الخطيئة . . .

* * *

وقد واصل تولستوى حياته على أساس الدعوة لمذهبه ، ذاهباً فى هذه الدعوة إلى الحدود التى كان يراها نقاده ، غاية فى التطرف .

فقد كان يرى مثلا أن كلا من الوطنية والديموقراطية الاشتراكية ، مناقضة لمذهبه القائم على الحب والحب وحده ، وبعبارة أخرى كان يرى فى الوطنية ، والاشتراكية ، تجاهلا لسبب العلة الأصيلة فى شقاء الناس ، وما يتورطون فيه من خصومات ، وأحقاد ، ومعارك ثم حروب ، وقد سجل أحد زوار تولستوى من الأرمن إبان خضوع عدد غير قليل من الشعب الأرمنى للحكم التركى ، ما دار بينه وبين تولستوى من حديث على النحو التالى .

شكا الزائر لتولستوى مما يعانيه الأرمن من اضطهاد الأتراك لهم ، فانبرى له تولستوى قائلا : « رويدك . . . رويدك ! فإنى لأتساءل أصحيح أن حالة الأرمن إلى الحد الذى تصفه من السوء الباعث على اليأس ، ألا تبالغون أنتم أيها الأرمن ؟ ومع ذلك إذا سلمنا بكل ما تصفون ، أفلا يشارك بعض الأرمن فى إنزال المصائب التى تحل على رأس أبناء جلدتهم ؟ أعنى ألا يطحن أغنياء الأرمن وأصحاب النفوذ منهم ، إخوانهم بمثل ما يطحنهم ويعتصرهم الأتراك والأكراد .

فالمسألة ليست مسألة الوطنية . فإن الأرمن إذا تحرروا من ربقة الأتراك ، فإن حكومة ما ستقوم ، وستضطهد بدورها الفقراء والضعفاء ، بمثل ما تصنع بهم حكومة الأتراك ، فالأمر لن يتغير سواء أقامت فى بلاد الأرمن حكومة أرمنية أم روسية أم فرنسية »

فعقب على هذا القول الزائر الأرمنى : « إنه قد يسرك أن تعلم ، أن حركة أخرى تقوم الآن بين الأرمن ، وهى حركة لا تقنع بالأهداف السياسية ، ولكنها تهدف أيضاً إلى تحقيق غايات اقتصادية ، وهى تحتضن أساساً ، مصالح الطبقة العاملة ، على المبادئ الديموقراطية الاشتراكية » .

ولم يغير هذا الكلام ، من موقف تولستوى ، ولا من لهجة حديثه ، فقد بقى

مصمماً على أن المشكلة ليست مشكلة اسم النظام الحاكم ، ولا لونه السياسى ، ولا أهدافه الاقتصادية وأن حكومة ، لا تختلف عن حكومة ، ما دامت الحكومتان ، لم تتخذ الحب أساساً لفلسفتهما ، وقاعدة لحياتهما ثم قال لمحدثه ، وقد قطب جبينه قائلا :

« كف عن الحديث هكذا . . فإنى لا أستيطع أن أتحدث عن الديموقراطية الاشتراكية إلا والضحك يغلبنى على أمرى . . »

فقاطعه محدثه قائلاً : « إنى لا أستطيع أن أتصور أن فكرة الاشتراكية يمكن أن تكون مرفوضة عندك . فإنه على أساس من الأخوة والمساواة بين الناس . . »

فعاد تولستوى يسأل :

« اسمح لى . . من أين تأتى المساواة فى ظل الديموقراطية الاشتراكية ؟ كيف يمكن أن تتحقق . فإن الثروة التى تستأثر بها الآن أقلية فى المجتمع ، ستؤول إلى جماعة أخرى ، وهذه الجماعة بطبيعة الحال ، من البشر ، فهى إذن تنطوى على عيوب ونقائص ، مثلما ينطوى أى إنسان على العيوب والنقائص . إن الذين سينتزعون الثروة من أيدى القلة الغنية ، لن يدعوا الملائكة من الناس ليقوموا على توزيعها أم تراهم سيفعلون هذا ؟

وما دام أن هذا الأمر سيتولاه فريق ما من الناس ، ودعنا نقول فريق ممتاز من الناس — فإن هذا الفريق هو الذى سيؤذينا ، ومن هنا لن تتحقق المساواة » .

وتولى الانفعال تولستوى عندما وصل إلى هذه النقطة وراح يقول لمحدثه إن الذى يحتاج إليه الأرمن الخاضعون الأتراك ، ليس التفكير فى الثورة ، والتحضير لها ، فإن ذلك لن يحل المشكلة ولن يحلها الاستيلاء على الثروة ومنابعها ، وتأميمها أى إخضاعها لحكومة من الشعب ، أو توازيعها على الناس ، الحل ، الحل الخالد ، هو الحب ، هو المسيحية . ولكنه لم يلبث أن استدرك ، فقال لمحدثه إنه لا يعنى بالمسيحية ، أمراً غيبياً ، ولا حديثاً عما وراء الطبيعة ، إنه يعنى ببساطة تامة بهذه اللفظة حب الناس بعضهم لبعض ، ومحاولة أحدهم إسعاد الآخرين ، والتخفيف عن ويلاتهم ، بتحمل المشاق ، وإنكار الذات ، والتعرض للأذى . وقد يبدو هذا الهدف بعيداً ولكن ، لو وجه الوطنيون جهدهم ، إلى التبشير بالحب ، والدعوة

له ، لحققوا من الخير ، أكثر مما يمكن أن يحققوا بكفاحهم الوطني . وقد اعترض بعض الحاضرين على كلام تولستوى بأن مثل هذه الدعوة جديرة بأن تلقى نجاحاً فى الظروف العادية ، فرد فى الحال تولستوى بأن الكردى والتركى إنسان مثلى ومثلك ، وهو أهل لفهم الدعوة المسيحية .

وقال : صدقنى أن بين الأكراد من يستطيع أ ن يفهم الدعوة المسيحية ، أكثر مما يستطيع بعض أعضاء الإدارة الروسية ، مثل قالسوفسكى ، مدير الشرطة الروسى . وإنى أكثر استعداداً لتلقين دعوة الحب لأى كردى ، منى لتلقينها لقالسوفسكى. وإنى لأكرر أن الوطنية الأرمنية ، كأى وطنية غيرها ، لون من الوثنية يجب على كل المفكرين من البشر ، أن يكافحوا ضده » .

فالسلام عند تولستوى — لا بين الأفراد ولا بين الأمم — لا يتحقق بانتصار الوطنية ، لأن الوطنية ، ستنقل الحكم من يد الأجنبي إلى يد الوطنى ، وفى الحالين ، سيحكم الناس ويسودهم ، حاكم من البشر ، به عيوب البشر ، وآفاتهم ، وليس ما يمنع أن يكون الحاكم الوطنى ، مستبداً جائراً ، جشعاً ، سيىء الرأى ، مثلما يكون الحاكم الأجنبى. ولن يسود السلام كذلك ، بحكومة الديموقراطية الاشتراكية ، لأن نقل الثروة من فرد إلى حكومة ، سيجعل هذه الحكومة أكثر تسلطاً على أقدار الناس ، وأرزاقهم ، وأقدر على البطش بحرياتهم ، والهيمنة على أفكارهم وعقائدهم . وليس ما يمنع أن يكون الحكام الاشتراكيون الديموقراطيون طغاة وسيئى الرأى ، وأن تتاح لهم الظروف التى يخمدوا فيها الرأى ويفسدوا العقيدة ، ويسوموا الناس الخسف .

ولكن هذا الموقف من تولستوى لم يمنعه من أن يكون أعلى الأصوات المعارضة فى وجه قيصر روسيا وأعوانه والكنيسه الأرذثوكسية وتعاليمها ، وقد كانت سنداً قوياً لنظام القيصرية ، ولبطشها بالناس ، وتكميمها الأفواه ، وإشاعة الرعب من ناحية ، وتحسين وتحبيذ الاستسلام والإذعان للقيصر من ناحية أخرى .

وقد وجه فى ٩ يولية سنة ١٩٠٨ بياناً ضمنه خلاصة أفكاره فى فلسفة الحب وتطبيقها ، وفى الحالة التى وصلت إليها روسيا فى تلك الحقبة ، وقد عنون هذا البيان : « لا أستطيع أن أبقى صامتاً » ؛ ثم بدأ بقوله :

« سبعة أحكام بالموت ، اثنان منها صدرا فى بطرسبرج ، وواحد فى موسكو ،

واثنان فى بنزا ، واثنان فى ريجا . أربعة منها نفذت فى خيرسون ، وواحد فى ڤيلنا ، وواحد فى أدوسا »

ثم قال : « أنتم تقارفون كل هذه الفظائع لتعيدوا السلام والنظام . أنتم تعيدون السلام والنظام !

بأية وسيلة تعيدونهما ؟ أبسحق آخر مظهر من مظاهر الإيمان والأخلاق عند الناس ، أنتم ممثلو سلطة تزعم أنها مسيحية ، أنتم القادة والمعلمون الذين تضفى عليهم الكنيسة تأييدها وتشجيعها . أتعيدون السلام والنظام بارتكاب أفظع الجرائم : تكذبون وتجدفون ، وتوقعون من العذاب ألواناً ، وآخر الأمر تقارفون أشد الجرائم نكراً ، الجريمة التى يستبشعها كل إنسان فى أعماق نفسه ، ما دام على بقية ما من إنسانيته . أنتم لا ترتكبون جريمة قتل ، بل جرائم قتل لا حصر لها ، تحسبون أنكم قادرون على تبريرها بالاستعانة بهذه القوانين التى تضعونها أنتم أنفسكم وتضمنونها فى تشريعاتكم المضللة البلهاء ، وتسمونها قانوناً .

« وأنتم تقولون إن هذا هو السبيل الوحيد لتهدئة الناس ، ولقمع الثورة ، ولكن هذا كذب صراح . فإنه لجلى أنكم لا تستطيعون أن تهدئوا الناس إلا إذا حققتم لهم مطلباً تقتضيه أدنى درجات العدالة التى يطلبها كل أفراد الطبقة الزراعية فى روسيا ، أعنى القضاء على الملكية الزراعية الخاصة ، والامتناع عن تأييد تلك الملكية بطرق شتى تثير حنق الفلاحين ، وحنق هذه الطبقة غير المتزنة المسممة التى بدأت تثير حرباً ضدكم . أنتم لا تستطيعون أن تهدئوا الناس بتعذيبهم ، وبإزعاج ونفى وسجن وشنق النساء والأطفال . وعبثاً تحاولون أن تخنقوا داخل نفوسكم العقل الذى أودعته الطبيعة فى نفوس البشر جميعاً ، فإن العقل والحب لا يزالان داخل جوانحكم ولستم تحتاجون أكثر من أن تثوبوا إلى رشدكم ، وتتفكروا ، لتتبينوا أنكم بتصرفكم هذا ، أى بمشاركتكم فى تلك الجرائم البشعة ، لا تعالجون المرض ، بل تزيدونه وبالا ، بدفعه داخل جسم المريض ، بدلا من ظهور أعراضه للعيان . »

« إن سبب سوء الحال ، ليس ما يقع من أحداث ، بل تغير نفوس الناس ، وتبدل مزاجهم ، ولا سبيل إلى إيقاف هذا التغيير ، ولا إلى رد الناس إلى ما كانوا عليه — تماماً كما أنه لا سبيل إلى رد الرجل الناضج ، إلى طفل . إن القلق والتفزز

الاجتماعى ، ليس مرده أن بطرس شنق ، أو أن يوحنا يعيش فى بلدته تامبرسف ، أو أنه أبعد إلى معسكر الاعتقال فى نيرشنسك ، بل أن مرده نظره الأغلبية العظمى إلى حالهم وأوضاعهم ، وإلى علاقة هذه الأغلبية العظمى بالملكية الزراعية ، والدين الذى يلقن لهم ، وما تعده هذه الأغلبية خيراً أو شراً . فإنكم « أيها الحكام ، لعاجزون عن أن تصبح حالة الناس كما تحبون ، ولو قتلتم وعذبتم عشر سكان روسيا » .

« ولذلك فإن الناس لم يتحولوا التحول الذى تصبون إليه على الرغم من كل ما تقومون به من تحريات ، وتجسس ، ونفى ، وسجن ، وإيداع فى معسكرات الاعتقال ، ومشانق بل إنكم على العكس تزيدونهم تقززاً وحنقاً ، تحطمون فى الوقت نفسه كل احتمال للسلام والنظام .

« وإنكم لتتساءلون فى دهشة ، ماذا يمكن أن يفعل ؟ كيف يمكن أن تتوقف هذه المساءات والجواب توقفوا عما تعملون » ؟

وقال تولستوى فى عبارة صريحة وموجزة أن ما يطلبه الناس هو القضاء على الملكية الزراعية الخاصة ، وإنهم يطلبون هذا ويلحون فيه ، كما كانوا يطلبون منذ عهد مضى ، إلغاء نظام رقيق الأرض . وقال لنظام الحكم الروسى ، ابتداء من القيصر ، وانتهاء بأصغر جلاد بأن ما يرتكبونه من جرائم ، وما يخوضون خلاله من بحور الدم، لا يقصدون منه إقامة نظام أو سلام ينعم فى ظله الناس، بل إنهم يفعلون ذلك ، ليحموا المكانة التى وصلوا إليها فى المجتمع ، ويحسبونها مكانة رفيعة وقال لهم إن الجلادين الذين يستعملونهم ، أصدق منهم حساً ، لأن بعضهم ينكر ، وظيفته هذه ، ويتوارى من الناس ، لأنهم يدركون أنها وظيفة منكرة، ولكنهم، من القيصر إلى أعوانه الكبار من وزراء ورجال شرطة ورؤساء محاكم ومشرعين نجحوا فى أن يوزعوا على أنفسهم أنصبة مختلفة ، فى هذه الجرائم ، بحيث يستطيع كل منهم أن يدعى أن ما يقع ليس من فعله هو ، وأنه يقوم بواجب كريه ، ولكنه واجب على أى حال ، ولا سبيل إلى الإفلات منه . وقال إن الحكام يبررون التعذيب والاضطهاد والقمع وخنق الآراء ، بأن الثوار يرتكبون جرائم قتل ، وسطو ، وأنهم لا يستطيعون السكوت على الإخلال بالنظام الذى يبلغ حد الجرائم ، ونسى هؤلاء الحكام أنهم يفعلون

مثلما يفعله هؤلاء الثوار ، فكلا الفريقين يحسب نفسه أهلاً لأن يضع للناس نظاماً لحياتهم ، ومستقبل معاشهم ، ثم يفرضه عليهم بالقوة ، ويتوسل إلى إقراره وتثبيته بالجريمة أيًّا كانت ، والفريقان مخطئان لأن العنف لا يؤدى إلى إحقاق حق ولا إلى دفع ظلم ، ولا إلى تحسين حال . فالتغيير يحصل داخل النفوس ، وهذا التغيير وحده هو ضمان التحول المطلوب ، وليس ثمة قوة قادرة على إيقاف عجلته ، وليس ثمة قوى أيضاً ، قادرة على التعجيل به ، فاللجوء إلى العنف واقع من جانب الفريقين الحكومة والثوار ، إلا أنه يلتمس للثوار أكثر من عذر فهم أولاً شبان قليلو التجربة ثم أنهم لا يدعون أنهم يؤمنون بالمسيحية التى تأمر بالحب وتنهى عن استعمال العنف ، وهم يباشرون نشاطهم فى ظل مخاطر ، لا سبيل إلى وصفها ، والعمل فى ظروف كهذه خليق بأن يفقد الإنسان اتزانه ، فضلا عن أنهم لا يرتكبون جرائمهم بهذا الهدوء والاقتناع الذى ترتكب به الحكومة جرائم القتل ، والتى تعد لها نظاماً يكررها ، متجرداً من كل شعور . وأنهى تولستوى خطابه بقوله ، إنه ينتمى بحسب مركزه الاجتماعى إلى الطبقة التى تضع القوانين التى تسوغ جرائم القتل الحكومى ، وتضفى عليها شرف الواجب ، وأنه لذلك لابد أن يعلن تحديه لهذا النظام عسى أن ينفى من المجتمع الذى ينتفع من هذه الجرائم ويثرى ، أو أن يقاد إلى المشنقة ، كما يقاد ألوف الفلاحين ، فيغطى وجهه بنقاب ، ويوضع حول رقبته حبل ، يتولى جلاد سكب صابون مذاب عليه ، ليكون أشد على عنق المحكوم عليه ، فينهى حياته بثقله ، وينجو من شعوره الممض المؤلم بالإثم إذ يبقى صامتاً على ما يجرى حوله من جرائم . . .

الفصل الثانى

مقدمات الحرب العالمية الأولى

مضت السنون ، حتى أكملت القرون ، وأبناء الدينين اللذين ينظران إلى البشر كأسرة واحدة ، وإلى العالم كبيت يضم عائلة واحدة ، يتقاتلون فيما بينهم ، كأن القرآن لم يقل: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وكأن محمداً رسول هذا الدين ، لم يقل: «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والعمل الصالح ، وكلكم لآدم ، وآدم من تراب» . وكأن الإنجيل لم يثبت فى آياته لا تقاوموا الشر ، وإن شمس الله تشرق على الأشرار والأبرار ، وإن سماءه تمطر على الظالمين والمظلومين .

ولم يكن ذلك الاقتتال والبعد عن روح الدين ، وجوهره ، لنقص فى الدين ، أو لعيب فى أحكامه ، أو لعجز تلك الأحكام عن الإحاطة بالحقيقه الكبرى التى تضمنها أحكامها العالمية ، ذات الروح الإنسانية ، أو لقصور فى البيان عن تلك الحقيقة .

وإنما كان مرد ذلك كله ، إلى أن الدين فى الحالتين سقط فى يد حكام ، فلم يعد ، عقيدة ، وإنما أصبح أداة أوسيلة ، وكف عن الإيحاء ، والتأثير ، والتوجيه ، فى جموع الناس ، وجماهير الشعوب ، إلا عن طريق دولة أولئك الحكام وأجهزتها ووسائلها ، وبإشراف قادتها وأمراء جيوشها ، وشيوخ مساجدها وكنائسها . والدولة ، هى أرقى ما وصل إليه الناس فى تنظيم أمور دنياهم ، وفى حماية المصالح الكبرى لهم ، وفى ضمان سلامتهم ، ولكن هذا النظام الراقى ، ذا الكفاية التنظيمية الإدارية الرفيعة فى الأغلب الأعم من الأحوال ، نظام مناقض للعقيدة ، بل عدولها ، ما لم تكن العقيدة إحدى مطاياه لتحقيق أغراضه ، وإخضاع أتباعه ، وسحق أعدائه .

فالذى كان يحارب ويقتل طوال أثنى عشر قرناً أو يزيد ، أى منذ استتباب الأمر للإسلام فى شبه الجزيرة العربية فى أخريات القرن السادس الميلادى ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) لم يكن الإسلام والمسيحية ، أى لم تكن الحرب بين عقيدتى الإسلام والمسيحية ، وإنما كانت الحرب بين أمراء الدولة

الإسلامية وأمراء الدولة المسيحية . وكان الحاكم فى كلتا الدولتين ، يخشى العقيدة الأخرى ، لا بوصفها عقيدة ، بل بوصفها الأداة التى يتذرع بها الحاكم ليبسط سلطانه ، وليوفر أسباب نجاحه وبقائه فى رقعة الأرض التى يمتد إليها حكمه ، ويرفرف عليها علمه .

ولم يكن النجاح الذى تظفر به إحدى الدولتين فى معارك السياسة والحرب ، مرده قوة إحدى العقيدتين ، وضعف الأخرى ، أو قدرة إحداهما على الحياة ، وعجز الثانية عنها . وإنما كان مرد ذلك إلى مقدار ما يتمتع به الحاكم فى الدولتين معاً من البراعة الإدارية ، والقدرة السياسية فإن ظفرت الدولة الإسلامية ، بحاكم كفء يحسن إدارة الدولة ، وقيادة جيوشها ، وضبط أمورها المالية والاقتصادية كتب لها الفوز على جيوش الدولة أو الدول المسيحية ، وإن كتب للدول المسيحية ، أو لإحدى كبريات تلك الدولة ، بإمبراطور أو ملك أو قائد عظيم الصفات ، جليل المناقب ، كتب الفوز للمسيحيين عن المسلمين .

وقد أحسن ارازمس التعبير عن تذرع الحاكم المسيحى بالقعيدة ليحارب المسلمين بقوله :

« إذا كنا نرمى إلى التوسع أو نبغى الجرى وراء ثروة سلطان تركيا ، فلماذا نخفى أطماعنا ، وراء اسم المسيح » ؟

ولقد انتهى المطاف بالدينين معاً ، بعد أدوار من المد والجزر ، والغلبة والهزيمة إلى أن استقرت الحدود بين العالم المسيحى ، والعالم الإسلامى ، ثم جاءت الثورة الصناعية فمكنت للدول المسيحية ، من إخضاع الشرق كله ، بما فيه من مسلمين ، ومسيحيين ، وبوذيين وبراهمة ووثنيين . فقد استطاع الغرب المسيحى ، بالمدفع والباخرة والبارجة ، وبما تنتجه مصانعه على نطاق واسع من منسوجات ومصنوعات حديدية ومعدنية ، ووسائط للنقل السريع كالطيارة والسيارة ، وما تبتدعه من وسائل لتجميل الحياة ، ووسائط لزيادة الاستمتاع بها ، استطاع الغرب بكل هذا ، من تثبيت سلطانه على أهل الشرق كله ، ومن دفعهم إلى الضعف واليأس والاستسلام لحكمه ، والإقرار له بالسيادة والغلبة ، روحياً وعقلياً ومادياً

وقد نجمت من جراء هذا أمور عديدة من أهمها ، أن الدين فى الشرق لم يعد

قادراً على أن يبدو فى صورته الواضحة للمؤمنين به . فالدين بطبيعته تكليف للناس ، لا يرتفعون إلى مستواه ، إلا بالتنبيه واليقظة ، والنشاط والحركة ، ولا يستطيعون أداء تكاليفه ، والسير فى طريقه ، إلا بمزيد من اليقظة والهمة والحركة والنشاط . وقد كان أهل الشرق ، قبل أن يذعنوا لسلطان الغرب ، قد وصلوا إلى درك رهيب من الانحطاط والتحلل ، فلما كملت الغلبة عليهم ، زادوا إنحطاطاً وتحللا ، ومالوا إلى أرخص ألوان الحياة ، وأبعدها عن تكاليف الروح والعقل فكان الاستسلام أحب الأساليب إلى قلوبهم . والاستسلام يؤدى إلى التقليد والمحاكاة من وجه وإلى إيثار الخرافات ، لأنها راحة للعقل ، وحل سهل لمشكلات الحياة التى لا يقوون على حلها من وجه آخر . ودستور التقليدوالمحاكاة ، قادالشرقيين من ناحية إلى تقليد الذين سبقوهم من أهلهم بغير مناقشة ولا فهم ، ففتح الباب للدجاجلة والمهرجين على مصاريعه . كما قادهم من ناحية أخرى إلى محاكاة وتقليد الغربيين ، فيما يستطيعون محاكاتهم فيه ، وهم بطبيعة الحال مع فقرهم ، وضعفهم ، وجهلهم ، لا يستطيعون أن يحاكوهم ويتشبهوا بهم ، فى غير الظاهر المادى من أمورهم ، فقلدوهم فى الملبس والمأكل ، وفى ألوان العبث واللهو .

ونجم عن غلبة الغرب المادية على الشرق ، وتفوق صناعاته ، وضخامة كشوفه العلمية ، أن زاد إيمان الناس فى الغرب بالقوة المادية ، فبدا لهم إن الوقت أثمن من أن يضيع فى الاستماع إلى المسيح ، وبدا لهم أن المسيحية كلها ، ليست إلا صرخة عجز وحيرة ، من رجل شرقى ، لم يكن يعرف عن العالم الذى يعيش فيه الناس ، وأحكامه وقوانينه ، ما عرفه علماء الغرب الذين استعملوا قوى البخار ، ثم قوى الكهرباء ، مما زاد سلطان الناس على هذا الكون ، وعلمه بأسراره ، وفهمه لقوانينه وأن السير فى هذا الدرب الذى فتح ، سيزيد الناس ثروة ، مما سينهى خلافاتهم وصراعهم على الرزق ، فتنعدم الحاجة إلى الدين .

صحيح أن الكنائس فى أوربا الغربية لم تقفل أبوابها ، بل إن زحام الناس فيها ، فى الأعياد وأيام الآحاد لم يخف ، بل لعله زاد . وصحيح أن الناس لم تنصرف عن قراءة الأناجيل والكتب المقدسة ، بل لعل الكتاب المقدس لم يزل أكثر الكتب رواجاً . ولكن الصحيح أيضاً أن ما كان يشعر الناس به ، فى ظل حكومات أوربا

الغربية ، بقى مقصوراً على الناس أنفسهم ، أما الدولة ، فقد قررت أن تعمل بغير روح المسيحية ، أو على الأقل ، بحيث لا تعرقل تعاليم المسيح سعيها ، وتعطل سياستها ، بل بحيث تستعمل هذه الروح ، وتستغل تلك التعاليم ، فى تبرير سياستها، وتغطية جرائمها ، فالله ، بقى أحسن ستار لجرائم الفتح والغزو والإذلال ، واسمه خير ما ينطق به ، عند تدشين بوارج البحر ، وغواصاته ، ودبابات البر ومصفحاته ، ومناطيد الجو وطائراته ...

حدث إذن انفصال هائل فى الشرق والغرب ، بين الناس والدين . ففى الشرق أصبح الدين صنواً للخرافات والخزعبلات ، وعنواناً على الجمود ، والسطحية ، وفى الغرب ، أصبح الدين قوة مقيدة مكبلة ، لكيلا تعترض سبيل الدولة ، أو تعطل كفاحها من أجل القوة ، والاستزادة منها .

وهكذا سارت حياة الشعوب فى الغرب والشرق ، بعيداً عن تعاليم الإسلام والمسيحية معاً . لم تعد فى العالم عقيدة ذات سلطان تذكر الناس بأنهم أبناء أب واحد ، وبأن فوارقهم اللونية ، والجنسية ، واللغوية ، هى ظاهر زائف ، لا يخفى الحقيقة الأصيلة ، حقيقة أنهم فى واقع الأمر ، متشابهون ، بل متطابقون ، وأن الدين الذى ينتسبون إليه ، ويتمسكون به ، يدعوهم فى إلحاح شديد ، لأن ينبذوا العنف لأنه علاج عقيم ، لكل مشكلات الحياة الفردية ، والوطنية معاً .

ولكن هذا لم يمنع من ظهور رجال هنا وهناك ، جعلوا يبحثون عن الحل الأمثل لمشكلات الإنسانية ، والدستور الأعلى لحياتها ، وهو قانون عدم العنف ، أو قانون عالمية الحياة الإنسانية . ويلمع بين هؤلاء الرجال ، اسم (دانتى) الذى ألف كتابه باسم دى مونوركيا De monorckia وقد قال فيه :

« إن الله والطبيعة لم يخلقا شيئاً عبثاً وما الطبيعة إلا يد الصانع القدير . وإن الإنسان لم يخلق ليعيش منفرداً وفى عزلة ، لأنه حيوان اجتماعى . وبعد ذلك يتساءل : وما غاية الإنسانية جمعاء ؟ ولماذا وجد المجتمع الإنسانى ؟ وبعبارة أخرى : ما هدف المدنية والحضارة ؟

ثم يقول « إن الله قد ميز الإنسان بموهبة العقل والتفكير وإنها موهبة لازمة للتامل

« والعمل حتى يتمتع الفرد برغد العيش ، ولكن الجنس البشرى لن يستطيع
« الاستفادة من هذه القوى الكامنة إلا فى ظل السلام العالمى . تدبر مغزى الآية
« المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام) فالمسيح لم يوص أتباعه بالجرى وراء
« الثروة والسعى إلى اجتناء اللذة والتمتع بالجمال ولكن رسالته الوحيدة هى البحث
« عن السلام . وإذا كنا نبغى هذا فلا بد من توافر الوحدة فى الهدف الذى نضعه
« انصب أعيننا وفى الإرادة المسيطرة على مجال نشاطنا لأن الفرد يحصل على أكبر
« قسط من السعادة حين تخضع جميع قوانا وأغراضنا وجهودنا للعقل الذى
« يهيمن عليها ، ويوفق فيما بينها . وإذا كانت مصلحة الأسرة الواحدة تقتضى وجود
« إرادة عليا ترفع إليها الخلافات فأحرى بالجنس البشرى أن تكون له قوة مسيطرة
« تتجه أرادتها نحو تحقيق السلام » هذه القوى العليا هى التى يعنى بها دانتى .
« أما الأشخاص فلا أهمية لهم فى نظره فكأن دانتى حين يتكلم عن الحاكم أو
« الإمبراطور يقصد شخصاً مثالياً بل لعله لم يفكر إلا فى أمر معنوى سام ، هو
« القانون » .

ويقول دانتى « العالم كله وحدة ينم عليها مفهوم الاسم نفسه . والله واحد وقد خلق الإنسان على صورته ، وعلى الإنسان إن شاء إدراك الكمال أن يتشبه بخالقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولن يتم هذا إلا إذا اعتمدت جميع العروش والإمارات على قوة واحدة . وثمة أمر آخر أليس العالم مليئاً بالنقائص ؟ ألا تنشب فيه الحروب من وقت إلى آخر ؟ أليس الغرض من الحروب إقرار السلام ؟ ولكن من الذى يعين ذلك ويقرره ؟ إذن لا بد لنا من محكمة عليا أو أمير فوق الجميع ، يقبض بكلتا يديه على الميزان ، والعالم فى حاجة إلى القانون الأسمى الذى يكبح جماح الميول والأهواء ، والأحقاد القومية ، وما ذلك القانون إلا العدالة التى تعطى كل ذى حق حقه ، فمن هو الإنسان الذى يمثل القانون ، ويحكم الجميع ولا يميل مع الهوى ، ولا تحركه الأطماع أو يؤثر فيه الأهواء والأحقاد ؟ أليس هو الإمبراطور الذى إذا ملكت يداه كل شىء لم تعد له رغبة فى شىء ؟ »

ولما أراد دانتى أن يحدد شخص هذا الإمبراطور ، استعان بالتاريخ ، وما يمكن أن يهدينا إليه ، وانتهى إلى القول بأن هذا الإمبراطور ، هو الإمبراطور الرومانى ،

و بالتالى أن الدولة التى يريدها هى الدولة الرومانية، لتضم العالم كله . والعالم كله عند دانتى ، هو العالم المسيحى . فدانتى دعا إلى إمبراطورية مسيحية ، وقد رأى أنه لا بد أن يترك لكل ولاية أو مدينة ، وللشعوب والممالك التى تضمهم هذه الإمبراطورية الفسيحة ، أمر تدبير شؤونهم الخاصة « لأن الذين يعيشون فى أجواء مختلفة يتطلبون قواعد الحياة مختلفة ولكن على أن يخضعوا فى المسائل المشتركة بالنسبة إلى الجنس البشرى ، والكامنة فى نفسه ، إلى حاكم واحد ، وأن مرشدهم فى شأنها إلى قاعدة واحدة تحدو خطواتهم نحو السلام . . »

ويقول برايسى أن مولف دانتى ، هو مرثية أكثر منها نبوءة ، إذا أنه كان يتحدث عن إمبراطورية انتهى عهدها ، إذ بدأت القوميات ترفع رأسها ، وتجاهد فى سبيل وجودها .

والحق إن كتاب دانتى جدير بكل تقدير ، فقد رد الأمور إلى أصلها الأول ، إلا وهو السلام العالمى ، وحدد فى غير غموض ، أن الإنسان وهب التقدير والعقل ، ليزيد نصيبه من رغد العيش ، وأن هذا الهدف ، لا يتحقق إلا إذا تعاون الناس جميعاً ، لأنه هدف أكبر من أى فرد من الأفراد ، وفوق طاقة أى جماعة بشرية .

وكان دانتى فوق ذلك موفقاً حينما أعلن أنه لا سلام بين الناس إلا إذا سادتهم سلطة واحدة ، وحكمهم قانون واحد عام . فالحروب كما قلنا فى أكثر من موضع ، تقوم بين الوحدات السياسة المختلفة التى تخضع لأكثر من حاكم ، سواء أكانت هذه الوحدة قبيلة أم مدينة أم إمارة أم دولة ، وحيث يسود سلطان حاكم واحد ، تنتفى بواعث الحروب ، فى الرقعة التى يسودها هذا السلطان . وقد ساد السلام داخل الإمبراطورية الرومانية نحو قرنين (٣٠ ق — ١٨٠م) فلما تدهور سلطان الإمبراطورية ودب إليها الانحلال عادت أجزاؤها ، إلى ما كانت عليه من اقتتال وصراع .

ولكن ما لبثت نظرة دانتى أن ضاقت ، حينما قصر كلامه على العالم المسيحى ، وحينما فكر فى أمير ليكون رأس هذا العالم ، فالسلام لا يكون عالمياً إذا كان سلام الدول الكاثوليكية دون سائر المسيحية ، أو كان سلام المسيحيين ، دون باقى الأديان ، أو سلام أوربا دون القارات الأخرى .

ولكن دانتى كان يعيش فى فترة لم يكن التفكير فيها فى العالم كله ، ممكناً ، ولو تكلم عن البشر بطوائفهم المختلفة ، وأديانهم المتباينة ، لبدا كلامه ، خيالياً ، لا يمت إلى الواقع الذى يعيش فى ظله الناس وقتذاك بسبب .

وقد ترددت بعد ذلك دعوات ، وعرضت مشروعات للصلح ، أضيق أفقاً ، وأقل شمولا ، وأبعد عن فكرة السلام ، كما وضع أسسها المسيح والإسلام ، غير أننا لا نملك أنفسنا من الوقوف أمام أرزمس ، الذى أنكر قانونية الحرب ، كما أنكر على الحاكم ، حقه فى أن يعلنها ، وأنكر على الدول حقها فى الغزو والفتح ، ودعا إلى أن تلجأ الدول إلى التحكيم .

وقد انتقل التفكير فى السلام ، ووضع القواعد المؤدية إليه من الأدباء والمفكرين إلى بعض رجال الساسة ، وكان فى مقدمة هؤلاء (سلى) وزير هنرى الرابع ملك فرنسا . وقد وضع سلى كتابه ، وهو فى عزلته ، بعد أن اغتيل الملك هنرى الرابع وأحسن ما فى المشروع استنكار واضعه الحروب ، وتقريره بأنها لاتعود بالخير لا على الغالب ولا على المغلوب ، وأن بلاده فرنسا لم تخرج من جميع الحروب التى خاضتها ، سواء كانت حروب فتح ، أو حروب دفاع ، إلا بالآلام والخسارة . وكان مشروعه بحكم عقلية واضعه ، عمليًّا ذا طابع سياسى ، فهو يدعو إلى إنشاء جامعة للشعوب المسيحية ، وإلى مجلس يفض الخلافات بينها ، وليقلل من أسباب النزاع بين دول أوربا ، اقترح تقسيم هذه الدول إلى ثلاث مجموعات ، مجموعة تضم الملكيات الوراثية التى كانت موجودة إذ ذاك ، هى فرنسا وأسبانيا وبريطانيا والدانمرك والسويد ، ومجموعة تضم ملكيات انتخابية وتضم الولايات البابوية ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة وبولندة ، وبوهيميا والمجر .

وجمهوريات تضم سويسرا ، والأراضى الواطئة ، والبندقية والولايات الشمالية بإيطاليا .

وكان أحسن ما دعا إليه سلى ، هو حرية التجارة بين جامعة الدول التى اقترح إنشاءها ، على أن تكون حرية شاملة للتجارة براً وبحراً .

ولا نرى من بين دعاة السلام المحدود ، من يستحق أن يذكر هنا سوى اثنين

هما جروشيوس الهولندى ووليام بين الأمريكى .

أما جروشيوس فقد قال ، فى كتابه « قانون الحرب والسلم » الذى نشر عام ١٦٤٥ : إن فى العالم المسيحى استهاراً فى شأن الحرب ينبغى أن تخجل منه حتى الشعوب المتوحشة ، وتسابقاً إلى امتشاق الحسام لأتفه الأسباب ، وأحياناً لغير سبب . فإذا ما جرد السلاح ، زال كل احترام للحق سواء كان قدسياً أو بشرياً ، كأنما خيل للناس أو قام فى يقينهم أن الحرب تبيح لهم كل نوع من الجرائم بلا حسيب أو رقيب .

ويبدو أن جروشيوس يئس مقدماً من إنهاء الحروب فقنع بالدعوة إلى وضع قواعد تلتزمها الدول فى الحرب ، فتخفف من ويلاتها ، وتضيق من نطاق خسائرها ، وقرن هذا بالدعوة لعقد مؤتمر يمثل الدول المسيحية بأوربا لفض خلافاتها عن طريق تحكيم الدول التى لا شأن لها بالنزاع الذى يمكن أن يؤدى إلى الحرب . كما دعا إلى دراسة الوسائل الكفيلة بإرغام الطرفين المتنازعين على قبول شروط الصلح المعقولة .

وبهذه الآراء الثلاثة :

أولا : التقنين للحرب ، ووضع قواعد للمتحاربين .

ثانياً : اقتراح التحكيم لفض المنازعات الدولية .

ثالثاً : دراسة إلزام الدول المتنازعة بحكم المحكمين .

وبهذه الآراء ، استحق جروشيوس لقب أبى القانون الدولى .

أما وليم بنى الأمريكى ، فقد نشر كتيباً بعنوان « رساله عن سلام أوربا الآن وفى المستقبل بإنشاء برلمان أوروبى »

ويتلخص هذا المشروع فى :

١ — إنشاء برلمان من الدول الأوربية يضع قواعد عادلة يرعاها الحكام .

٢ — تعرض على هذا البرلمان جميع المنازعات التى لا يمكن حلها بالطرق الدبلوماسية .

٣ — على الأعضاء أن يلزموا الدولة التى تأبى الرضوخ لقرارات البرلمان أو تتلكأ فى تنفيذه .

٤ — البرلمان لا يملك التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء أو أن يمس بسيادتها أو مواردها .

ولا يجدر بنا أن نناقش هذه المشروعات جميعاً مناقشة من يريد أن يقيسها بمقياس التطبيق أو الواقع أو حتى بالمقياس النظرى البحت ، فهى لم تعد أن تكون تعبيراً عما يساور النفوس من الجزع من الحرب ، والاشفاق من تردى الإنسانية فى حماقتها ، والتطلع إلى إنسانية تستحق هذا الاسم ، وتعمل على الارتفاع إلى مستواه فهى إذن أشبه شىء بالمصابيح الصغيرة ، فى طريق شديد الحلوكة .

على أننا لو تأملنا هذه المشروعات جميعاً ، وما يشبهها من آراء ، لتبينا أنها بذور المشروعات التى ظفرت فى المستقبل بمكانة أكبر ، واحتلت فى صفحات التاريخ فصلا قائماً بذاته ، بوصفها أملا ضخماً من آمال أوربا سيدة القارات آنذاك ، فميثاق عصبة الأمم ، ثم ميثاق الأمم المتحدة ، لم يخرج فى جملته وجوهره عن هذه الآراء من الدعوة إلى نبذ الحروب ، والتحكيم ، والنزول على قرار التحكيم ، وإلزام المتخاصمين باحترام هذا القرار وتنفيذه .

ولكن كل هذه المحاولات ، قديمها وحديثها ، ليس سوى تلطيف لمظاهر الداء ، دون معالجة لأسبابه ، الداعية له ، الذى أشرنا إليه فيما سلف والذى سنفصله فيما يلى .

* * *

كنا قد قلنا إن أوربا رأت نفسها وقد تملكت فجأة قوة حرم منها الأجداد وأجداد الأجداد ، فبهرت بها ، وشغلت بالتفكير فى كل ما تعد به هذه القوة ، من ألوان السيطرة والسيادة على الكون ، وما فيه . وزادتها هذه السيطرة التى تحققت ، شغفاً بالقوة ، وإيماناً بها ، وخضوعاً لسحرها . فازداد الصوت الضعيف المنبعث من النفوس البشرية جميعاً ، على اختلاف ألوانها وعقائدها ضعفاً ، فكاد يختنق هذا الصوت وهو صوت الضمير ، الداعى إلى الحب .

والحق ، إننا لنلتمس للإنسان عذراً ، إذ عقله طاش ، وصوابه طار عندما

رأى ما رد العلم الهائل يخرج من قمقم صغير ، وينحنى له قائلا على نحو ما تروى الأساطير : لبيك . . . إنى بين يديك ، وطوع أمر من شفتيك . .

فقد أعطى العلم الإنسانية أكثر مما طمعت فيه فى أحلامها ، خذ مثلا ما يقوله هـ . ج . ويلز فى كتابه تاريخ العالم .

« حدث تغير فجائى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابته مستقرة وهى أقصى سرعة يستطيع التنقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى الروسيا فى مدة ٣١٢ ساعة قطع فيها ما يدانى ١٤٠٠ ميل . وكان تحت خدمته كل ما يستطاع تقديمه لملك من ميزات فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الراكب العادى ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى ضعف تلك المدة مهما تعجل . وكانت هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد الغال (فرنسا) فى القرن الأول الميلادى (إبان عهد الرومان) ثم ظهر التغير الفجائى على حين بغتة ، وبفضل السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما دون ثمانية وأربعين ساعة . ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوربا إلى نحو عشر ما كانت عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم فى مساحات أكبر عشر مرات من التى كان فى الإمكان إدارتها فى الماضى على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن المغزى التام لذلك التطور . ذلك أن أوربا تقطع أوصالها حدود وتخوم رسمت فى عصر الحصان والطريق . على أن السكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فعال ، فقد كان معناها بالولايات المتحدة التى تزحف فى بطء غرباً ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع التخوم الجديدة التى تتقدم فى كل آن بأرض القارة . بل كان معناها الوحدة التى تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبداً لولا القطار »

وقد توالت ثمار العلم : فبعد أن ولد القطار البخارى الذى يقطع المسافات فى عشر المدة كان يقطعها الحصان ، ولد الزورق البخارى فى سنة ١٨٠٢ ، ثم لم تلبث السفينة الشراعية التى زودت بمحرك يدور بالبخار أن قطعت المحيط الأطلسى

فى سنة ١٨١٩ وكان اسمها (السافانا) ، ولكن هذه الباخرة أو السفينة الشراعية المزودة بالمحرك البخارى لم تكن تستعمل سوى العجلة الرفاصة المكونة من عجلة ضخمة مثبتة على محيطها عمودياً ألواح تدفع الماء عندما تدار هذه العجلة ، ولكن مجاديف هذه العجلة لا تتحمل ضغط ودفع الماء ، فتتحطم ، فتصبح السفينة عاجزة عن شق موج البحر ، فجاء دور السفينة ذات الدافعة اللولبية . ولم تزد حمولة الباخرة عن حمولة السفينة الشراعية إلا بعد أن انتصف القرن التاسع عشر ، ثم أخذت سرعة الباخرة تزداد حتى أصبح قطع المحيط الأطلسى رحلة مأمونة يمكن التنبؤ مقدماً بموعد ختامها ، ويمكن قطعها فى أقل من خمسة أيام ، بعد أن كانت ضرباً من المجازفة غير مأمونة العواقب .

ويقول ويلز :

« وفى الوقت الذى تطور فيه النقل البخارى براً وبحراً نشأت وسيلة أخرى جديدة أخاذة أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث (فولتا) و (جالفانى) و (فاراداى) فى مختلف أنواع الظواهر الكهربية فظهر التلغراف الكهربى على مسرح الوجود فى سنة ١٨٣٥ . ومد أول سلك بحرى (كابل) برقى تحت البحر فى ١٨٥١ بين فرنسا وإنجلترا . وما هى إلا بضع سنين حتى عم نطاق البرق العالم المتمدن بأكمله ، وحتى أمست الأخبار التى كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ ، تعرف فى كل أرجاء الأرض فى وقت واحد تقريباً »

على أن ويلز ، يرى — وبحق — أن هذه المكتشفات والمخترعات ، وإن بهرت عيون الناس وعقولهم ، إلا أنها كانت فى حقيقتها ، أقل بكثير من تقدم آخر ، لم يكن بطبيعته ليستوقف أذهان الناس ، ولا يتبدى لهم على حقيقته ، ولا تظهر لعقولهم آثاره البعيدة المدى فى المستقبل القريب والبعيد ، معاً ومساهمته الهائلة فى بناء الحضارة الحديثة ، ووضع أساسها الآلى ، وتوسعها ، ونعنى به التقدم فى استخراج المعادن وصناعتها ، ويقرر فى هذا الصدد :

« وثمة شىء كان يبدو فى البداية أقل بروزاً بكثير من أى شىء آخر ، هو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية ومنوعة ومكونة لمواد أخرى . مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بوساطة الفحم المصنوع من

الحشب وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرق ويعطى الشكل المطلوب ، فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فنى ، وبذلك كانت جودة الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من حديد يمكن معالجتها فى مثل تلك الظروف لتزيد فى أقصى الحالات حجماً (فى القرن السادس عشر) على طنين أو ثلاثة . فمن الطبيعى . إذن أن يكون لحجم المدافع حد أقصى لا يتعداه ، وجاء تنور الصهر الهوائى فى القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال الكوك . على أنه لم توجد ألواح الحديد المسحوبة بين الأسطوانات الضاغطة (الدرافيل) إلا فى القرن الثامن عشر (١٧٢٨) كما لم توجد أسياخه وقضبانه المسحوبة بين تلك الأسطوانات نفسها إلا فى سنة ١٧٨٣ . كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخترع إلا أخيراً فى سنة ١٨٣٨ .

« وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لانحطاطه فى كل ما يتصل باستخراج المعادن وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمضخة البدائية إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين العصرية وتلك الآلات الأولى لرأت فيها قطعاً من الخردة قبيحة الصورة مستوجبة للرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة سنة ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذى كان فى إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد ، وتنقيتها وصبها على شاكلة ونطاق لم يسمع الناس بمثلها أبداً ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربى لرأيت أطناناً من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة وهى تغلى وتهدر غليان اللبن فى إنائه ، وليس فى الإمكان أن تقاس ثمار شىء مما أحرز الإنسان فى الماضى من تقدم ، بما ترى من تحكمه المطلق ، فى كتل ضخمة من الفولاذ والحديد ، بل وعلى قوامها وتكوينها . وفى الحق إن السكك الحديدية والآلات القديمة بمختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة فى معالجة المعادن ، وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكبارى الفولاذية الضخمة ، فضلاً عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل وأدرك الناس فى وقت متأخر جداً أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تجلى

فى المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان فى إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعباً وأحفل بالراحة والسرور ، لو أنهم زادوا كثيراً من المعايير ، وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حمولتها كثيراً على ألفى طن ، أما اليوم فليس هناك أى عجب فى باخرة حمولتها خمسون ألفا . »

ثم قال :

« ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان فى دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على سبيل التمثيل والإيضاح ، ولو شئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه عن تسلط العلم على معدنى النحاس والقصدير ، بل على طائفة ضخمة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر ، ولا نذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم . وهكذا لم يحظ الانقلاب الميكانيكى بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة إلا بفضل هيمنة الإنسان العظيمة المتزايدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور ، والجبس والمصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها . ومع ذلك فما زلنا فى هذه الميادين عند مرحلة الثمار الأولى والتباشير لم نتجاوزها »

واطرد نمو الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير فى القدرات الميكانيكية ولم يشرع هذا من خلال الأبحاث أن يؤتى ثماراً كان لها فى عقول الناس أثر عميق إلا فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر (أى بين ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩) ، وإذ بالعالم يفاجأ بالنور الكهربى ، والجرس الكهربى كما بدأ يتسرب للأذهان كافة أن فى الإمكان نقل القوة, أى إرسال قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك من النحاس ، كما ينقل الماء فى الأنابيب »

ثم انتقل ويلز إلى نقطة ذات أهمية خاصة فى الصراع بين الدول الأوربية الذى أفضى إلى حروب أوربا الضخمة فقال :

« كان البريطانيون والفرنسيون فى بادئ الأمر هما الشعبان اللذان سبقا غيرهما فى مضمار تكاثر المعرفة إذ ذاك ، ولكن ما نشب الألمان بعد أن تلقوا درساً فى الذلة على يد نابليون أن أبدوا من الحمية والمثابرة فى الأبحاث العلمية ما جعلهم يدركون هؤلاء الرواد ويسبقونهم ، وكان العلم فى بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال

الإنجليز والإسكتلنديين الذين يعملون من خارج نطاق اللوزعية .

« وكانت جامعات بريطانيا فى ذلك الحين فى حالة تدهور تربوى ، وقد صرفت كل عملها فى إظهار الحذلقة والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة وكذلك شأن التعليم فى فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين ربما كانت صغيرة بالقياس إلى ما فى الأمر من قدراته ، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفئة من المخترعين والمجربين فى بريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبى فيهما »

على أن هذا الانقلاب العلمى ، وما صحبه من حلول الآلة محل العامل الضعيف الذليل الذى كان يقوم مع الحيوان ، بما يستلزمه الإنتاج الزراعى والصناعى من جر الأثقال وحملها ، وتسيير السفن ، وتمهيد الأرض ، وبذر البذور ، وحصاد ثمارها ، واستخراج المعادن من أعماق المناجم ، كان له نتائجه الروحية والفكرية وكان لهذه النتائج ، وما تفرع عليها ، من الظواهر الاجتماعية المتعددة ، ما تواضع المؤرخون والكتاب على تسميته بالانقلاب الصناعى ، وكان من أهم ظواهر هذا الانقلاب أن العامل لم يعد مصدراً للقوة العضلية الدافعة أو المحركة ، بل أصبحت الآلة هذا المصدر ، وأصبح العامل المطلوب هو العامل المدرب الذى يمكن أن يدير الآلة ويتسلط عليها ، وأصبح من الممكن فى الوقت نفسه إنتاج كميات من السلع لم يخطر ببال أحد إنتاجها فى العقد القصير الذى نجحت الآلة فى إنتاجه ، كما نجحت الباخرة والقطار الحديدى فى نقل هذه السلع إلى آفاق بعيدة ، وفى وقت جد قصير ، وبأسعار زهيدة ، فكثرت الثروات وتضخمت ، واجتمع عدد هائل من العمال فى صعيد واحد ، وشعر الناس جميعاً بهذه التطورات وبمعناها ، بفضل آلة الطباعة التى كان روتنبرج قد اخترعها فى أوائل القرن السابع عشر فانتشر بين الناس إدراك مشترك لكل ما يتصل بهم داخل أوطانهم وخارجها ، وكان لانتشار الإسلام والمسيحية ، فى آسيا وأوربا معاً ، فضل فى نشر التعليم ، فقد كان كل من الدينين يفرض على أتباعه أن يقرأ الكتاب المقدس لهذا الدين ، ثم جاءت الحروب والمنافسات المذهبية بين الكنائس المسيحية ، وتسابق كل منها فى كسب الأنصار والأتباع ، فأنشأ عدداً من المدارس ، لتنشئة الجيل الجديد على المذهب

الذى يدعو إليه ، فكثر عدد الذين يقرأون ويكتبون . وأصبح التعلم فى الشئون العامة ، أمراً متاحاً للطبقات الصغيرة والمتوسطة » .

ولقد سبق هذا كله ، ومهد له ، الانفجار الهائل الذى شمل دويه العالم كله ، وبقيت آثاره ، مصدراً ملهماً لكثير من الحركات والأفكار الجديدة ، ونعنى به ، الثورة الفرنسية التى وقعت فى سنة ١٧٨٩ ، بعد أن قامت الثورة الأمريكية على حكم بريطانيا فى أمريكا الشمالية ، فى سنة ١٧٦٦ ، وهى الثورة التى انتهت بتحرر الولايات الثلاثة عشرة التى كانت تابعة للتاج البريطانى فى أمريكا وقد كانت فرنسا ، قبل الثورة ، أكبر ملكية فى أوربا ، وأقواها ، وأكثرها نجاحاً؛ وقد بلغ من نجاحها وتفوقها ، وازدهار فرنسا فى ظلها الحد الذى أصبحت فيه فرنسا ببلاطها وتقاليدها ، نموذجا يحاول أن يحتذ به كل ملك آخر فى أوربا . ولكن هذه الملكية كانت تقوم على حكم استبدادى ، تتركز فيه السلطة فى يد الملك ، ويعيش فى ظله النبلاء ، وكبار رجال الكنيسة فى رغد لا نظير له . فقد كان هؤلاء وأولئك طبقة ممتازة بكل ما فى كلمة الامتياز من معنى ، فهم معفون من الضرائب ، وهم أصحاب الثروة ، ومنهم يختار الوزراء والسفراء ، وأمراء الجيش والأسطول ، بل وكبار القساوسة والمطارنة ، هذا كله فى الوقت الذى كان فيه أبناء الطبقتين التاليتين ، ونعنى بهما الطبقة المتوسطة والصغيرة ، من عمال وفلاحين ، وأصحاب حرف ، وصغار الموظفين ، وصغار الكهنة ، فى فقر مدقع ، ينوءون تحت عبء لا يطاق من الضرائب والرسوم والمكوس . ولم يكن لهم فوق هذا كله ، رأى فيما يجرى فى بلادهم . فقد كان هناك مجلس ، يمكن أن يسمى تجوزاً مجلساً نيابياً ، ولكنه لم يدع للانعقاد منذ سنة ١٦١٠ . ولم يفكر ملك فرنسا لويس السادس عشر فى عقده إلا لما أفلست خزانة الدولة ، وبلغت الضرائب المبلغ الذى لم يعد أحد قادراً على السكوت معه على سوء الحال . ولما اجتمع المجلس ، كان صورة صادقة لما وصلت إليه فرنسا من انفصام عرى طبقاتها فقد كان المجلس مكوناً من ثلاث طبقات هى النبلاء ورجال الدين والطبقة العاملة . وكان التصويت يتم على أساس أن لكل طبقة صوتاً واحداً ، ولما كان النبلاء وكبار رجال الكنيسة ، طبقة واحدة فى واقع الأمر ، إذ أن مصلحتيهما واحدة ، باعتبار أنها قمة المجتمع الفرنسى ،

فقد كان رأى الطبقة الثالثة مهدراً ولا حساب له . ولكن هذه الطبقة كانت قد أصبحت أكثر إدراكاً لقيمتها بعد أن تدهورت الملكية وفقدت هيبتها القديمة ، فتدهور معها ما كان باقياً من نظام الإقطاع الذى كان السند الحقيقى للنظام القديم فى أوربا ، وإن كانت أظافره قد قلمت على يدى ملك فرنسا ، الذى لم يرد أن ينافسه أمراء الإقطاع داخل حصونهم ، وأن يتقاسموا معه سلطانه المطلق .

كان انهيار الملكية مروعاً فقد سقط هذا الصرح الضخم فى دوى أصم آذان العالم وكأنه حقاً الطوفان الذى كان يتحدث عنه ملك فرنسا من جيل مضى فى غير اكتراث قائلا : بعدى الطوفان .

لقد انطلقت فى عنف مدمر طبقات الشعب ، الفقيرة المجردة من كل شىء حتى صح تسمية أبنائها بالذين لا يجدون ما يسترون به العورة (سان كيلوت) . لقد انفتحت أبواب قصور النبلاء ، فنهب ما فيها ، من رياش ونفائس ، وأحرق وقتل عدد غير قليل من هؤلاء ، واختفى الكثيرون منهم عن الأنظار ، وهرب بعضهم إلى الخارج ، وقد اتخذ هؤلاء الذين ثاروا ضد الحكم القديم ومظالمه ، وضد الملكية واستبدادها ، شعاراً لهم « الحرية . والمساواة . والإخاء » .

وقد خيل لهم ، وللناس ، أن القضاء على المظالم القديمة ، يمكن أن يتم بلا دماء تسفك ، أو أرواح تزهق ، أو فظائع ترتكب ، ولكن الثورة الفرنسية ، كانت رد فعل للاستبداد الملكى ، والاستبداد الملكى كان عنفاً تعفن ؛ وفقد كل مبرر لبقائه فجاءت الثورة ، عنفاً شاباً يدعو إلى مستقبل جديد ، وإلى عالم يعيش فيه الناس أحراراً متساوين . ويختفى فيه الملك الوراثى الذى يحكم الجماهير استناداً إلى حقه الإلهى ، أى إلى اختيار العناية الإلهية له اختياراً لا يجوز للمحكومين أن يناقشوه وبالتالى لا يحق لهم معه أن يناقشوا قوانين الملك وآراءه ، أو أن يتمردوا عليها . وقد انحازت الكنيسة آخر الأمر — بعد صراع طويل — إلى الملك — وعاشت فى ظله ، تبرر للناس ، الخضوع له ، والانصياع لأوامره ، لأنها وجدت فى هذه المصالحة ، سبيلا ممهداً لنفوذ ها هى ، ولثروة طائلة ، استأثرت بها ، فعاش أمراء الكنيسة ، فى بذخ ، وأحياناً كثيرة فى فساد ومجون وفسق ، تنافس فيه الأساقفة والمطارنة ، مع الملوك والأمراء .

كان الأساس الفلسفى للثورة الفرنسية ، أنه لا يحق لأحد من الناس أن يحكم غيره من الناس إلا بموافقته ورضاه ، ولذلك فالحاكم يجب أن يختار ، بانتخاب حر ، وأن يبقى فى منصبه ، ما دام متمتعاً برضا الناخبين . وأن الحكم يجب أن يجرى على أساس من قواعد ، يضعها نواب الشعب المنتخبين ، تضمن مساواة الناس فى الحقوق والواجبات بغير نظر إلى طبقاتهم أو درجة ثرائهم . وقد كانت هذه المبادئ فى جملتها وتفصيلها ، عودة إلى الأديان فى نقائها ، وأصلها الأصيل . وكانت فى الوقت نفسه بمثابة خطوة طويلة إلى تحقيق السلام ، لولا أنها كانت رد فعل — كما قلنا — لعنف النظام القديم ، فكانت — كما قلنا أيضاً — عنفاً ذا هدف أسمى والعنف مهما كان هدفه ، لا يؤدى إلا إلى دورة من العنف . فالنظام الجديد ، يتوسل بالعنف للقضاء على النظام القديم ، فيرد عليه هذا الأخير ، فيرد النظام الجديد على الرد ، وهكذا دواليك ، ثم يصبح العنف أساساً للنظام الجديد ، و بذلك تخطو الإنسانية نسبيا خطوات إلى الأمام ، والعنف يصاحبها ، فيفسد تقدمها ، و يجعله مهدداً لضروب مختلفة من العدوان ، تجعل هذا التقدم هدفاً مستمراً للهجوم .

لقد خيل للثوار أنهم يستطيعون أن يضعوا دستوراً يكون رأس الدولة فيه الملك على أن يقيد سلطته بقواعد وقوانين ، تحمى الشعب من طغيانه ، وتحفظ له حقوقه فى الاستمتاع بحريات منصوص عليها فى الدستور . ولكن الملكيات فى أوربا ، اعتبرت الثورة ، انتقاضاً عليها هى ، وأن السكوت عليها ، سيؤدى حالاً أو مآلاً ، إلى التخلص منها ، فتحالفت النمسا و بروسيا ، ضد الثورة الفرنسية ، ثم اتسعت المحالفة فشملت دولاً أخرى ، ضمت آخر الأمر روسيا وبريطانيا ، وخيل للويس السادس عشر ملك فرنسا ، ولزوجه مارى أنطوانيت ، وكانت نمساوية ، أنهما يستطيعان النجاة من قبضة الثوار ، لو تجاوزا حدود فرنسا ، ولكن محاولة الفرار أخفقت فى يونية سنة ١٧٩١ ، فأعيدا إلى باريس ومعهما ولدهما ولى العهد ، وابنتهما وأخت الملك ، وبدأت الهواجس تساور الثوار فأعدموا الملك فى يناير سنة ١٧٩٣ ثم لحقت به الملكة بعد بضعة شهور فطاش صواب ملوك أوربا وقرروا أن يقضوا على الثورة فى داخل حدود فرنسا ، واتقدت حماسة الثوار ، وزدات الوحدة القومية ، وتلاقى النظام القديم متحالفاً متحداً تحت لواء الملوك مع

النظام الجديد ممثلا فى شعب فرنسا الفقير الأعزل من السلاح ، وبذلك تلاقت القوتان التقليدتان : السلاح والقوة المادية ، والفكرة والإيمان والأمل فى مستقبل أحسن . فكان النصر حتماً للفكرة والحرية ، وكانت الهزيمة للعنف المطلق ، فلما ثبتت جيوش الثورة الفرنسية فى موقعة فالمى . وردت جيوش القياصرة والأباطرة ، قال الشاعر الألمانى جيته بحق ، لقد انقضى عهد . وبدأ عهد . .

على أن جيوش الثورة الفرنسية العزلاء ، لم تقف عند حد الثبات أمام الغزو الإمبراطورى ، بل أنها انتقلت من الدفاع إلى الهجوم ، وراحت تطارد جيوش النظام القديم وتغلبها على أمرها ، فطردت النمسويين من بلجيكا إلى الأبد . ثم حولت هولندة إلى جمهورية ، بعد أن سلم الأسطول الهولندى لحفنة من الفرسان الفرنسيين ، وعندما أسندت قيادة الثورة رياسة جيوشها فى إيطاليا إلى ضابط شاب ، كان إلى ذلك الوقت مغموراً ، لا يعرفه أحد ، استطاعت جيوش الثورة فى سنة ١٧٩٦ أن توقع بجيوش النمسا هزيمة منكرة فى ريڤولى ، وأن تلزم النمسا نفسها بتوقيع معاهدة كامبو فورميو فى أكتوبر سنة ١٧٩٧ ، ولم يغن النمسا عن هذه الهزائم عبقرياتها العسكرية الممثلة فى قواد طالما عقد النصر بلوائهم .

على أن جيوش الثورة الفرنسية ، لم تلبث حتى أصبحت تؤمن بأنها تحارب من أجل عقيدة،وأن مبادئ الثورة الفرنسية التى يعبر عنها شعارها المثلث: الحرية ، والمساواة، والإخاء،هى الأساس السليم للحياة فى كل بلد ، وأن على أبناء فرنسا أن ينقلوا هذه المبادئ إلى الشعوب ، وأن يبشروا بها ، مقوضين فى سبيل ذلك ، العروش .

ويقول فى هذا الصدد فيشر :

« ما فتئ الجنود الشبان الذين تبعوا بونابرت إلى ما وراء جبال الألب يؤمنون « بأن لفرنسا رسالة ، هى تعميم الحرية فى أرجاء العالم ، فكانوا ينظرون إلى الإيطاليين نظرة إشفاق وعطف ، كشعب حرم حرماناً تامًّا بين التقدم والرقى ، ولكنه شعب قادر بإرشاد فرنسا وحمايتها على تعلم طرق الحياة الجديدة التى هى رائدتها .

« وقد عبر هذا القائد الشاب عن تلك الأفكار التى ربما أحس هو أيضاً بعض

الشيء فى نفسه بفتنتها — فى أحد منشوراته الأولى إلى الشعب الإيطالى قال :

« أيها الشعب الإيطالى ! لقد جاء الجيش الفرنسى ليحطم أغلالكم . وأن الجيوش الفرنسية لصديقة الشعوب كافة . فقابلونا فى ثقة ، تكن لكم أملاككم ودينكم وتقاليدكم محل التبجيل ، فإننا نشن الحرب كخصوم شرفاء . وليس نزاعنا ونضالنا إلا مع الطغاة المستبدين الذين يستعبدونكم »

ولا جدال فى أن هذه الجيوش ، كانت تمثل إيماناً جديداً ، برسالة جديدة ، وأن ما كسبته من نصر ، كان مرده هذا الإيمان الجديد ، وتلك الرسالة الجليلة ، وقد أدخلت هذه الجيوش تغييراً ثورياً فى خطط الحرب وتجهيز الجيوش ، لأن العقلية الثورية التى ترسم الخطط ، تستهدف أهدافاً غير ما تستهدف جيوش الإمبراطوريات التقليدية ، وجنودها المحترفون ، وقادتها الذين يعتمدون فى تحقيق النصر ، على كفاية الجنود المدربين ، وفى هذا الصدد يقول ش . ف . أتكنسون فى مقاله المنشور بالموسوعة البريطانية تحت عنون : حروب الثورة الفرنسية :

« إن أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم ذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتجالا لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يعوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من نقود ، ولو وجدت لما كان من الممكن نقلها لا حتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات التى ربما لزمت كما كانت فى الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن المتاعب التى كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية فى الجيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا فى عام ١٧٩٣ — ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع نقل مؤن لجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التى يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية ، وعسكرة الجنود بلا خيام فى العراء ، وعيشهم على حساب الأهالى ، واعتمادهم على القوة بدلا من المداورات الحذرة ، والجيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والجرايات الكاملة والتلاعب والخداع . فالجيوش الأولى تمثل الروح التى تستلزم حسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل فى سبيل القليل » .

ويقول فيشر عن حروب الثورة ، وما أنجزته فى ظل اليعاقبة بزعامة روبسبير :

« فلمدة عام واحد مدهش — عام خالد بأمجاده الحربية ، وعاره الداخلى — كان هذا الرجل العجيب « روبسبير » حاكم فرنسا الحقيقى ، وروح أوروبا المسيطرة ، فى أكثر الانتصارات التى أحرزها اليعاقبة فى أيامه ؛ فقد أخمدوا الثورة فى ليون ، واسترجعوا طولون ، وكسروا الدوق يوق فى هوندشوته Hondshoote وهزموا النمساويين فى واقعتى فلورى ، وأعادوا فتح البلجيك ، وغزوا هولندة ، وحرروا كل بقعة من أرض الوطن من الغزاة ، كما كان ذلك العام عام التعبئة العسكرية الأولى للأمة ، والعام (ولو أنه ليس العام الأصلى الرسمى) الذى وضع فيه ذلك النظام للتجنيد الإجبارى الذى ما زال يسود بظله القاتم حياة كل فرنسى ، والعام الذى شرع فيه كارنو فى تنظيم الجيوش التى صارت فى يد نابليون أداة فتوحه وانتصاراته » .

ولم يكن ما حدث فى حروب الثورة الفرنسية ، بأول شىء من هذا القبيل فى التاريخ ، ففى حروب الإسلام ، وفى حروب كل ثورة ، وكل عقيدة جديدة ، كان أصحاب السلطان القائم ، يفاجئون بقوة لا قبل لهم بها ، لا سند لها من السلاح ، ولا من المال ، وإنما سندها إيمان المقاتلين بالمثل الجديدة ، واستهانتهم بالدنيا ، فى سبيل المبدأ الجديد ، وهذا يؤيد ما نذهب إليه دائماً من أن أفضل ما فى الإنسان ، قدرته على التغيير ، وأن ما يقوم بالتغيير والتقدم فعلا ، هو نفس الإنسان ، ومعتقداته ، وما يخالج روحه ، وما تتطلع إليه نفسه. وأن كل تغيير يحصل بالقوة ، إنما يحصل ناقصاً ، ومحتوياً على الشر ، أو على الأقل ، محتوياً على ما يهدده بالنقض والإلغاء.

وقد كانت الثورة الفرنسية أكبر مثل على هذا الذى نقوله ، فإن الثوار ، وقد انطلقوا من عقال النظام القديم ، راحوا فيما يشبه نوبة جنون فى القتل والضرب والتدمير والإبادى ، وهم يحسبون أن ذلك هو سبيل القضاء على النظام القديم ، واقتلاع جذوره ، وسد الأبواب فى وجهه ، ولم يلبثوا ، حتى راحوا يقتلون بعضهم بعضاً ، فمضت المقصلة تعمل ليل نهار ، فى قتل زعماء الثورة ، وأشياعهم ، وأبناء الشعب ، بدعوى حماية الثورة ، والقضاء على أعدائها ، حتى غرقت الثورة نفسها ومبادؤها فى بحر من الدماء ، ولم يعد الأمر أمر مبادئ ، وإنما استحال إلى صراع

على السلطان ، لا يسفر عن انتصار جماعة أو فرد ، حتى تتبعه حلقة جديدة من الصراع ذاته ، تسفر عن جماعة جديدة ، أو رجل جديد ، حتى انتهت هذه الحلقات إلى الزعيم الذى كان يسمى بالمعصوم ، ذلك المحامى الريفى القادم من أراس ، روبسبير ، الذى أراد أن ينشئ للفرنسيين دنياً جديدةً يعبن فيها الكائن الأعظم ، ولكن هذا الديكتاتور نفسه ، استنفد طاقة الفرنسيين وجرهم إلى إسالة الدماء ، وإطاحة الرءوس ، وإشاعة الإرهاب ، وحكم الناس بالحديد والنار ، فشرع فى قتله هو فى المجلس التشريعى بباريس فى صيف سنة ١٧٩٤ ، ثم قيد إلى المقصلة وهو يئن من رصاصة استقرت فى فكه ، فلما نزع الجلاد الرباط حول جرح فكه ، صرخ صرخة مدوية لم تنجه من أن تحز المقصلة رأسه .

على أن شيئاً أدهى من ذلك وقع ، ذلك هو سقوط الثورة الفرنسية كلها فى يد حفنة من الوصوليين ، الذين لا يمتون إلى المبادئ التى أعلنتها الثورة بكثير ، إذ تكونت لتصفية منهم حكومة عرفت فى التاريخ بحكومة الإدارة ، وقد مهدت هذه الحكومة الثورة ، فانفتح الطريق واسعاً لمجازف آخر هو نابليون .

ولما كانت الثورة رد فعل للنظام السابق عليها ، وكان هذا النظام قائماً على العنف كما قلنا ؛ فقد كانت هى أيضاً عنفاً ، ولما كان نابليون وليد الثورة ، فقد كان امتداداً لصفتها ، حمل كثيراً من خصائصها الطيبة ، وقدراً أكبر من عيوبها ونقائصها .

فلقد كانت خططه وأساليبه فى الحرب ، ثورة على النظام العسكرى وأساليب الحرب التقليدية ، ولذلك أربك قواد الملكيات ، وقضى على جيوشهم فى معارك تعتبر فى صفحات التاريخ العسكرى ، معالم فى تاريخ فنون القتال .

ولسنا نريد أن نتعقب تاريخ نابليون وانتصاراته وهزائمه ، وإنما نريد أن نرسم صورة لأثره فى تكوين أوربا كعنصر من العناصر التى شاركت فى الإلقاء بأوروبا إلى المجزرة البشرية التى بدأت فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، وانتهت فى نوفمبر سنة ١٩١٨ أى الحرب العالمية الأولى .

* * *

لعل مما ساعد نابليون على القفز إلى سدة الحكم ، وجمع السلطة كلها فى

يده ، أن المعتدلين الذين تخلصوا من زعيم الإرهاب روبسبير فى ٢٨ يولية سنة ١٧٩٤ ، كانوا قد مالوا إلى التقليل من ديموقراطية الحكم ، وزيادة السلطة التنفيذية ، فقد أخافتهم الديموقراطية التى غرقت فى الدم ، فأغرقت فيه معها فرنسا كلها . وحينما تعلو فكرة الحاجة إلى حكم حازم يكبح جماح الجماهير ويصد عن البلاد نزوات غضبها ، تصبح الفرصة كاملة ، لرجل إدارة ، قوى الشكيمة يعرف كيف يصدر الأوامر ، وكيف يقوم على تنفيذها ، وكيف يرسم خطط الحكم ، وكيف يختار أعوانه من ذوى الكفاية ، والقدرة على الانصياع للأوامر معاً .

والحق إن نابليون نجح فى هذا الصدد تماماً ، فقد تسلم فرنسا تسودها الفوضى ، فأقام فيها نظاماً ، وكانت ممزقة بين الأحزاب والأندية والأفكار ، قلقة لا تستقر ، جزعة لا تصيب من الاطمئنان ولا من الثقة والأمل ، إلا القدر الذى يعينها على تحمل المفاجآت المتتالية ، والحكومات المتعاقبة ، والزعامات التى تبزغ نجومها ثم تأفل .

ولا شك أن شكل أوربا ، قد تغير تماماً بعد الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، كما تغيرت عقليتها ، فالحق الإلهى للملوك ، لم يتزعزع فقط من الناحية الفلسفية أو المذهبية ، بل إن مقام الملوك ومكانتهم ، قد تزلزلت أيضاً ، فى حروب الثورة ونابليون . فإن إمبراطور النمسا ، ومعه إمبراطور الروسيا والنمسا ، وكل الملكيات العتيدة والعريقة فى أوربا ، لم يستطيعوا أن ينقذوا رأس الملكة ، أو رأس الملك ، مع أنهم حشدوا جيوشهم ، وعبأوا قواتهم ، وجمعوا أكبر قوادهم فى صعيد واحد ، فلم يعد لهم حق التعالى على الشعوب ممثلة فى شعب فرنسا الفقير الذى قاده إلى النصر ، قواد من أبناء الشعب ، عرفوا معنى الجوع ، أو على الأقل ، لم يتشرفوا بالانتساب إلى العائلات العريقة . وقد أذلت الملوك حروب نابليون كما لم تذلهم حروب من قبل فقد استطاع هذا القائد الشاب الذى كان سليل أسرة فقيرة فى جزيرة قاحلة فى البحر الأبيض ، والذى عرف هو نفسه الجوع ، أن ينزل بهم فى موقعة أوسترلتز هزيمة منكرة ، أذعنوا بعدها لأوامره ، وطأطأوا أمامه الرءوس .

وقد خرجت من هذه الحروب الروح القومية ظافرة ، فاشتد ساعدها فى ألمانيا ،

وفى إيطاليا ، واستقلت بلجيكا عن هولنده ، وعصفت ثوارت التحرر ، وثورات الديموقراطية ، فى وجه الرجعيات القديمة ،ممثلة فى أقوى شخصياتها بعد حروب نابليون ، ألا وهومترينخ رئيس وزراء النمسا ، الذى استمر الثوار ، يهاجمونه ، حتى اضطر إلى الهرب فى عربة لغسيل الملابس من وجه ثورة شعبية .

ويمكن أن نقول إن العناصر الرئيسة فى صورة أوربا فى هذه المرحلة من تاريخها . هى :

أولا : نشوء قوميات جديدة وقوية على رأسها ألمانيا . التى وحدت أخيراً على يد بسمارك المستشار الدائم الألمانى .

ثانياً : الفتوح العلمية ، التى أدت إلى الانقلاب الصناعى الذى زاد ثروة أوربا وقدرتها على الإنتاج حتى فاض عن حاجتها فاستلزم أسواقاً ، واستلزم مناطق للمواد الخام الزراعية والمعدنية .

ثالثاً : قدرة أوربا على إخضاع الدول الآسيوية والأفريقية ، بفضل التقدم الهائل فى وسائل المواصلات ، والتطور الثورى فى استنباط المعادن وتشكيلها ، مما زاد من ضخامة المدافع وبعد مرماها .

رابعاً : التنافس بين الدول الأوربية على استعمار آسيا وأفريقيا ثم إلى تقسيم مناطق الاستعمار بين الدولتين الكبيرتين إنجلترا وفرنسا .

خامساً : دخول ألمانيا إلى حلبة المنافسة الاستعمارية متأخرة بعد أن تم الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على مناطق الاستعمار والنفوذ فى آسيا وأفريقيا ، وتأزم الأمور بينها ، ومما جعل حل الأزمة مقصوراً على أحد أمرين : إرضاء ألمانيا أو مواجهة قوتها العسكرية والصناعية الفائقة

سادساً : كانت روسيا قارة منعزلة عن أوربا ، منطوية على نفسها ، وكان إتساعها ، يقتضى حكماً مركزياً ، وكانت مركزية الحكم مؤدية إلى زيادة سلطات القيصر وميل حكوماته إلى القمع وإلى المحافظة على القديم فنجم عن هذا رد

فعل من الشعب مساو للضغط الواقع عليه . وقد ترتب على مقاومة الشعب ، فزع السلطات الحاكمة القيصرية ، فإسرافها فى القتل والنفى والسجن ، وتوهم التآمر ، وتوقع الانقلاب ، فزاد ذلك من ثورية الأفكار المعارضة ، وتطرفها ، والمجازفة بكل ما لديها .

ومع بروز هذه الظواهر السياسية الداعية إلى وقوع الخلافات ، وربما اندلاع الحروب ، بين الدول القوية الناشئة فى أوربا ، والمتنافسة على الأسواق ، فإن هناك ظواهر أخرى ، كانت تبشر بأن العالم كاد يكون بيتاً واحداً أو أسرة واحدة ، فإلى وقبل سنة ١٩١٤ بقليل كان أكثر من نصف مليون كيلو متر من أسلاك التلغراف والتليفون قد مدت فوق قاع البحار والمحيطات وكان أكثر من ٣٠ ألف سفينه تقرب حمولتها الكلية من ٥٠ مليون طن تحمل تجارة العالم . وبافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وقناة بناما فى سنة ١٩١٤ نشأت خطوط بحرية دائمة وقصيرة منتظمة بين البحر المتوسط والمحيط الهندى ، وبين المحيطين الأطلسى والهادى ، كما ربط بحر الشمال والبلطيق بقناة كيل سنة ١٨٩٥ ، وبالجملة أنه لم يحدث من قبل أن كان نقل الأشخاص أو البضائع من مكان فى الكرة الأرضية إلى مكان آخر يتم بهذه السهولة أو الرخص أو السرعة .

وكانت الهجرة تبعاً لذلك على أشدها فهاجر إلى أمريكا فى الأعوام الأربع والعشرين السابقة على سنة ١٩٤٠ ثلاثة ملايين ونصف مليون ، بينما هاجر مثل هذا العدد خلال مائة سنة كاملة ، أى خلال القرن التاسع عشر .

وقد ترتب على هذه الهجرة نشوء قوة جديدة فى أقصى الغرب ، فى الأمريكتين ، وعلى وجه أخص ، فى أمريكا الشمالية ، وقد وجدت هذه القوة الجديدة فى مساحات القارة البكر ، ذات المواد غير المتأهبة من أرض خصبة شاسعة ، وخامات معدنية هائلة ، وشعب غنى ، ملىء الأمل بالمستقبل ، وجد فى فتوحات علم ، والتقدم الآلى ، والانقلاب الصناعى ، وسائل سحرية لاستنباط موارد كادت تتحدى الخيال الإنسانى .

* * *

وإذا أردنا أن نتناول بالتحليل ، عناصر صورة أوربا بعد حروب الثورة ، وحروب نابليون ، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فإن الوحدة الألمانية ، وما ترتب عليها ، من نشوء دولة ألمانيا القوية ، هو أولى تلك العناصر بالتأمل .

لقد قلنا إن الثورة الفرنسية ، أوقدت شعلة العاطفة القومية ، وأججت نيرانها . فالثورة الفرنسية ، كانت تحدياً للإمبراطوريات ، والحكم الملكى الأتوقراطى ، والإمبراطوريات ، قائمة على أساس سيطرة دولة على عدد عظيم من الأجناس ، والشعوب ، لا تربط بعضها ببعض رابطة من لغة أو مذهب أو جنس . فإذا تحررت تلك الأجناس والشعوب ، وتحول كل منها ، إلى قومية خاصة به ، انهت الإمبراطورية .

وقد كانت هزيمة الجنس الألمانى على يد نابليون، داعياً إلى زيادة الإحساس بالقومية الألمانية،واثارة رغبة الجنس الجرمانى،فى أن يضم شتات نفسه فى دولة . وقد تولى تنفيذ هذا البرنامج القومى الواضح، بسمارك وقد اضطر لتحقيق هذا الهدف ، للدخول فى حربين واحدة مع النمسا ، انتهت بهزيمتها فى سادوة سنة ١٨٦٦ إذ أن النمسا ، وهى أيضاً ، من الشعوب الجرمانية ، كانت تطمع فى زعامة الدولة الألمانية ولكنها كانت فى الوقت نفسه ، رأس إمبراطورية تضم شعوباً أخرى ، فنافستها على هذه الزعامة بروسيا أكبر الولايات الألمانيه وأقواها ، وهزمتها كما قلنا . وكانت فرنسا تضم إقليمى الإلزاس واللورين الواقعين فى شرق الراين ، وهما من الأقاليم التى تغلب على سكانها ، الصبغة الألمانية ، فوقع الصدام بين ألمانيا وفرنسا فى سنة ١٨٧٠ ، وانتهت بهزيمة فرنسا فى موقعة (سيدان) وبعد هاتين الحربين الكبيرتين آلى بسمارك،رئيس وزراء دولة ألمانيا الكبرى على نفسه ،ألا يقحم بلاده فى حرب أخرى . ولما كانت النمسا قد خرجت بعد هزيمتها فى (سادوه) ونفسها تشوبها مرارة عميقة، فقد قرر بسمارك أن يذهب هذه المرارة عنها ، بإغرائها بتزعم دول شرق أوربا ، بعد أن آلت زعامة وسط أوربا ، إلى ألمانيا . ولما كان طموح النمسا إلى زعامة أوربا الشرقية ، سيؤدى إلى تصادمها مع الروسيا التى كانت تعتقد أن بينها وبين دول شرق أوربا وشائج قوية أولاها تشابه المذهب المسيحى فى روسيا ، وتلك الدول الواقعة فى أوربا الشرقية . والثانية غلبة الدم السلافى على

هذه الناحية من أوربا . وترتب على ذلك أن زعامة أوربا الشرقية حق طبيعي لها . فقد وعد بسمارك النمسا بأنه سيقف معها، وسيدعم زعامتها. وقد كانت فرنسا من ناحية أخرى ، شديدة الرغبة ، فى أن تثأر لهزيمتها فى (سيدان) ولكنها كانت تعلم فى الوقت نفسه ، أنها لا تستطيع أن تواجه وحدها الجيش الألمانى الضخم مما يقتضيها أن تبحث لها عن حلفاء، فى انتظار يوم الانتقام المنتظر . لذلك عمل بسمارك على أن يبقى فرنسا فى عزلة ، وأن يفقدها الحلفاء والأصدقاء .

ومن كل هذا يمكن لنا أن نتبين خطوط سياسة بسمارك الأساسية التى كانت هى فى نفس الوقت، معالم سياسة أوربا الأساسية . وأول هذه الخطوط أن تحافظ ألمانيا ، على صداقة الروسيا ، فى أقصى الشرق ، وبريطانيا فى أقصى الغرب ، باعتبارهما القوتين الكبيرتين فى أوروبا ، وأن يفرض على فرنسا عزلة تحرمها من الحلفاء ، وأن يبتعد بألمانيا عن الصراع من أجل المستعمرات قانعاً بالمكانة التى وصلت إليها بلاده فى وسط أوربا ، وباحترام الجميع للجيش الألمانى الذى استطاع أن يضرب دولتين عظيمتين كالنمسا ، وفرنسا ، وهما ما هما من النفوذ والغنى .

والحق أن ألمانيا كان لديها الكثير لتعمله داخل حدودها ، فإن طاقاتها قد تفتحت فى ظل الوحدة و بسببها ، فحدث فيها من التطور والتقدم ما لم يشهده التاريخ فى بلد آخر ويقول فيشر فى هذا المعنى :

« وفى هذه الأثناء أخذ يطل على ألمانيا تغير فى حياتها الاقتصادية شبيه — ما عدا
« فى شدة سرعته — بذلك التغير الذى خبرته إنجلترا فى ثورتها الصناعية؛ فقد امتازت
« عقود السنين التى قفت الحرب البروسية الفرنسية ، بتقدم عجيب فى الصناعة
« والتجارة الألمانيتين . اغتنت فجأة تلك البلاد بعد فاقه — وهرع الأهلون الذين
« كانت كثرتهم الكبرى تقطن الريف — هرعوا إلى المدن فى أعداد متزايدة ،
« حيث توالدوا وتكاثروا ، حتى صارت كفة الألمان الحضريين ترجح رجحاناً ظاهراً
« كفة الإلمان الريفيين .

« وأتت لألمانيا الزعامة فى أهم فرعين من فروع الصناعة الجديدة ، وهما
« الصناعات الكيماوية ، والصناعات الكهربية ، كثمرتين طبيعتين لتفوق الشعب

« الألمانى فى شئون التعليم ، فزادت الكمية المستخرجة من الفحم الحجرى أضعافاً
« مضاعفة ، إذ ارتفعت من ثلاثين مليون طن فى سنة ١٨٧١ إلى مائة وتسعين مليون
« طن فى سنة ١٩١٣ . ومكنت عملية اخترعت فى إنجلترا ، ونسبت إلى توماس
« وجلكرايست العالمين الإنجليزيين، فمكنت عمليتهما الألمان من الانتفاع اقتصادياً
« بالحديد الخام المستخرج من مناجم لكمسبرج ، واللورين . وقاد هذا الاختراع
« إلى تطورات اقتصادية واسعة النطاق فتحولت منطقة الفحم فى وستفاليا إلى إقليم
« يضارع فى نشاطه وتركيز الصناعة فيه أغنى مقاطعات إنجلترا الصناعية . فى
« عشر سنين وهى العشرة الأخيرة فى القرن الماضى (١٨٩٠ - ١٩٠٠) ضاعفت
« الإمبراطورية الألمانية نتاجها من الصلب ، وضاعفت تقريباً ما تخرجه من
« الحديد .

« وبينما كانت الصناعة تتقدم على هذا المنوال ، وتبدل من أخلاق الأمة
« الألمانية ، وأنواع حرف أبنائها ، وجهت عناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية ،
« فشرعت المراكب الألمانية ، فى أعداد سريعة الزيادة تشق عباب المحيط
« الأطلنطى واستيقظت الروح المنسيه، روح شمال ألمانيا التى اتحدت فى القرن
« الثالث عشر ، لتبادل حماية التجارة فيما بينها ، وترقية شئونها . استيقظت هذه
«الروح من رقادها فى العشرين سنة التى تخللت سنة ١٨٧٠ و ١٨٩٠ فتضاعفت
« حمولة سفن الإمبراطورية الألمانية سبعة أمثال ، ورفع الصوت عالياً ، مطالباً
« بمستعمرات وبوضع حماية ضد القمح الأمريكى ، والمصنوعات الإنجليزية ،
« وبنهج سياسة نشيطة فى كل صقع من أصقاع العالم .

« وبلغ ضغط الرأى العام فى هذه النواحى من الشدة بحيث لم يكن فى مقدور
« أى سياسى ، مهما علا مقامه ، فى أعين مواطنيه ، أن يصمد أمامه طويلا
« فأكره بسمارك على التسليم بمطالبه ، فأقر سنة ١٨٧٩ مبدأ حماية الصناعة
« الألمانية كأساس لسياسته الجمركية ، ثم أسرع بعد ثلاث سنين يوجه ألمانيا
« فى طريق الاستعمار ، محتجاً بأن للضرورة أحكاماً .

« ومن الصدف الطريفة التى لاحظها البعض أن تكوين الشعبة الاستعمارية
« فى مجلس الريستشاغ حدث فى سنة ١٨٨٣ الذى شاهد تأسيس الشركة الكهربائية

« الألمانية ، التى يرمز لها بالحروف A· E·G . وهى الاتحاد الكهربى الفخم الذى « أقام على أساس وطيد أعظم صناعة من الصناعات العالمية الألمانية » .

إذن كان أمام ألمانيا الكثير جداً لتبنيه فى الداخل ، ولكنها حينما فاضت خيراتها عن حاجة بنيها ، شعرت بالحاجة إلى تجاوز حدودها ، وعرض نتاجها على بلاد العالم الأخرى ، فاصطدمت بكل من بريطانيا وفرنسا اللتين سبقتاها الأسواق والمستعمرات، وقد كان (بسمارك) راغباً عن منازعتهما فى هذا الصدد ، ولكن رءوس الأموال، وأصحاب الشركات الذين كونوا العصبة الاستعمارية ،قد ضغطوا عليه ، وليس فى وسع حاكم ، أن يقاوم ذوى السلطان فى بلده . وليس أقوى فى بلد من الأغنياء الذين يستطيعون أن يوجهوا الرأى العام ، بفضل الصحافة التى تعبر عن وجهة نظرهم ، مدعية أنها تخدم الصالح القومى ، وتهيئ مكاناً رفيعاً للوطن تحت الشمس.

ولكن بسمارك ، راح يفرق بين خصومه — تطبيقاً لسياسته — فشجع فرنسا على امتلاك تونس ، كى تتشاجر مع إيطاليا ، وشجع إنجلترا على امتلاك مصر ، لتتشاجر مع فرنسا .

أما فى شرق أوربا فقد قلنا إن بسمارك صرف النمسا عن وسط أوربا ، فاتجهت إلى فرض زعامتها على دول البلقان وعلى الدانوب ، فاصطدمت مع روسيا فلم يسمح بسمارك لحليفته النمسا أن تذهب فى منافستها للروسيا إلى حد الاصطدام المسلح معا ، ولم يتخل عنها فى الوقت نفسه، فاستطاع بذلك أن يكون صديقاً للنقيضين : الروسيا والنمسا ، وأن يكون معهما فى سنة ١٨٧٢ الحلف الإمبراطورى الثلاثى ، وقد طال عمر هذا الحلف إلى ما بعد سنة ١٨٧٨

وقد اعتبر المؤرخون أن هذا الوضع فى أوربا ، كان مفضياً حتماً إلى الحرب. ولو تأملنا هذا الموقف ، ونظرنا إلى عناصره كلها ، لما وجدنا فيها ما يدعو إلى تحتيم الحرب . فالحرب لم تكن بسبب ما كان واقعاً على المسرح الأوربى ، بل إن العقلية المادية العسكرية ، المؤمنة بالقوة ، هى التى أوجدت العناصر التى أدت إلى الحرب .

خذ مثلا نمو ألمانيا الصناعى وتقدمها العلمى ، واطراد قوتها البحرية . لقد اعتبر كل التطور النافع المفيد ، سبباً مباشراً للحرب . وهو فى واقع الأمر ، كان

يجب أن يكون سبباً داعياً لسعادة البشر ولاستتباب الأمن إذ أن وجود قوة إلى جانب إنجلترا قادرة على أن تنتج للعالم، الكثير من الأدوات والسلع التي تزيد سعادة الناس وقدرتهم على الاستمتاع بالحياة ، بلا شك شيء يدعو إلى السرور ، لا يؤدى إلى المجزرة الرهيبة التي وقعت فى سنة ١٩١٤ ، واستمرت حتى سنة ١٩١٨ ، لولا أن بريطانيا ، وهى تجنى ثمار الانقلاب الصناعى ، وهى تمد سلطانها على نحو ربع سكان العالم ، وربع مساحته ، مع تسرب نفوذها إلى كل بقعة أخرى من بقع العالم ، كانت تفكر طول الوقت ، فى دفع أية دولة سواها من مشاركتها فى النفوذ أو السيادة ، أو الاتجار مع الدول الخاضعة لها ، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض كانت ترسم سياستها ، وتتحالف ، وتتخاصم[١]. وكان لا بد لهذه السياسة، من رد فعل عند غيرها من الدول . فلم يكن من العدل فى شيء أن يرى الرأسماليون الألمان أنفسهم قادرين على منافسة الرأسماليين البريطانيين ، بل وعلى التفوق عليهم فى الصناعة والتجارة وإنشاء قطع البحرية القوية ، ويقفون مكتوفى الأيدى . وقد فعلت ألمانيا — جرياً على نفس الخطة البريطانية — على طرد النمسا من الزعامة على وسط أوربا ، فاضطرت إلى الاتجاه إلى شرقها ، وتنافست كل من روسيا والنمسا على زعامة هذا الجانب من أوربا ، فأخذت روسيا تتبنى وتؤيد وتمول جميع الأحزاب والقوميات الراغبة فى التحرر من النير النمساوى ، وقد كانت إمبراطورية النمسا والمجر ، خليطاً غير متجانس من الجنسيات المتباغضة المتنافرة ، فكان فيها اثنا عشر مليوناً من الألمان، وعشرة ملايين مجرى ، وثمانية ملايين ونصف مليون تشيكى ، وخمسة ملايين صربى وكرواتى وخمسة ملايين بولندى، وأربعه ملايين روتينى ، وثلاثة ملايين وثلثمائة ألف رومانى ، ومليون وثلاثة آلاف سلوفينى . وكان لكل جنس من هذه الأجناس حلم قومى ، يساوره ، وكان من أشد هذه الأحلام إلحاحاً على خاطر السلاف والصرب فى جنوب الإمبراطورية ، حلم إنشاء إتحاد تعاهدى

---

(١) يقول فيشر «كان هناك مبدأ عام تسترشد به البحرية البريطانية كجزء من السياسة القومية ، وهو يرمى إلى جعل قوة الأسطول الإنجليزى مماثلة تقريباً لمجموع قوات أقوى دولتين بحريتين فى العالم تليان بريطانيا ، كى يتسنى له أن يكون ذا أثر فعال . ولكن نهوض البحرية الألمانية غير الموقف على الفور ولم يكن رجال البحرية الإنجليزية يميلون إلى التقليل من قيمة المزايا البحرية لسفن الحرب الألمانية أو براعة المدفعية الألمانية أو جرأة البحارة الألمان ومناقبهم البحرية » .

يضم ولايات البوسنه والهرسك ودالماشيا . وقد تألف من هذه الولايات فعلا ومن ولاية سلوفينا وغيرها ، بعد ذلك بسنوات عديدة، دولة يوغسلافيا .

ولذلك كانت النمسا تنظر إلى إمارة الصرب ، نظرة ملؤها الخوف والكراهية ؛ وكانت بلغراد مركزاً للدعاية للجنس السلافى ضد إمبراطورية النمسا والمجر . وقد تألفت فى الجيش الصربى جمعية عرفت بجمعية اليد السوداء، وأخذت ترتكب جرائم سياسية مروعة ، منها هجومها فى سنة ١٩٠٣ على قصر الأمير ، وذبح زوجته، لأنه كان ذا ميول نمساوية . وقد أراد إمبراطور النمسا أن يقوم بحملة تأديب لهذه الولاية، ولقمع العناصر المعادية له ولعرشه وللنمسا ، لولا أن ألمانيا منعته من ذلك لعملها بما ستجره هذه الحملة التى كانت تنتظرها روسيا بفارغ الصبر .

وكانت أجزاء من أوربا الشرقية خاضعة لتركيا ، كبلغاريا ورومانيا واليونان ، فعملت على تحرير نفسها بمساعدة روسيا حيناً ، ومساعدة إنجلترا وفرنسا والنمسا حيناً ، وقد أنشأت هذه الدول فيما بينها العصبة البلقانية (١٩١٢) ، ثم أعلنت الحرب على تركيا فى نفس السنة ، وكانت تركيا فى ذلك الحين قد تدهورت أمورها ، وعجزت عن أن تتألف قلوب العرب ، الذين كانوا أكبر العناصر فى الإمبراطورية التركية ، فلم تقو على مقاومة العصبة البلقانية فتوالت هزائمها ، فضاعت منها (أسكوب) عاصمة صربيا القديمة، و (موناستير) مفتاح ولاية مقدونيا اليونانية ، ثم فقدت سنة ١٩١٣ (أدرنه) فقد استولى عليها البلغار، و (يانينا) التى استولى عليها اليونانيون ، ولم يبق بعد هذه الهزائم لتركيا فى أوربا سوى القسطنطينية أى استانبول .

ولكن ما لبث الخلاف أن دب بين أعضاء العصبة البلقانية ذاتها ، وقد كانت كل من بلغاريا وصربيا تطمعان فى زعامة هذه العصبة ، وكان المظنون أن كفة بلغاريا أرجح ولكن حينما تنافست بلغاريا مع اليونانيين على الاستئثار بمقدونيا، التى كان يسكنها عدد غير قليل من البلغار ، تحالفت صربيا مع اليونان ، ضد بلغاريا ، فأنزلتا بها هزيمة منكرة ، خرجت منها صربيا ، زعيمة للبلقان ، مما زاد من خوف النمسا ، ومن رغبة قوادها ، فى إنزال ضربة بها ، لكيلا تمضى فى عداوتها للنمسا إلى غير حد ؛

وفى هذا الجو المشحون بالمخاوف والمنافسات انتشرت إشاعة مؤداها أن الارشيدوق فرانتز فردينند ولى عهد النمسا، يفكر فى أن يستبدل بإمبراطورية النمسا والمجر القائمة أساساً على جنسى الألمان والمجر ، إمبراطورية تقوم على ثلاثة أجناس هم الألمان والمجر والصرب . وكان من شأن تحقق هذه الإشاعة ، أن يقضى على حلم الصرب فى إنشاء دولة لهم قائمة بذاتها تضمهم ، وتكون زعيمة دول البلقان الأخرى .

فزاد ذلك من توجس الصرب وحذرهم ، ومن رغبتهم فى العمل السريع ضد النمسا . فالأمر اذن لم يكن محتاجاً إلا لرصاصة واحدة لينفجر العالم المتمدين ، وتستحيل أوربا بالذات ، إلى حلبة للصراع بين ملايين الوحوش الآدمية ، ليقتلوا على أديمها، بعضهم بعضاً كما لم يفعل الناس من قبل، على طول ما اقتتلوا وحاربوا، وذبحوا وخربوا . .

ثم أطلقت أخيرا هذه الرصاصة التى طال ارتقابها بين جميع المعسكرات، والقوميات، والأحزاب ، ورؤساء هيئات أركان الحرب فى الدول الكبرى والصغرى فاندلعت نيران الحرب . وقد ظن كل واحد أن هذه الحرب ستحقق له ما يطلبه . ظن الإنجليز أنهم سيقضون على ألمانيا وأسطولها ويزيحوها عن طريقهم ، وظن الألمان أنهم سيخضعون إنجلترا وسيبسطون نفوذهم بدلا عنها على عالم الصناعة والتجارة والمال ، وظنت الإمبراطورية النمساوية، أنها سترأب ما تصدع من بناء إمبراطوريتها، وظنت تركيا أنها ستستعيد ما ضاع من شبابها ومن ممتلكاتها فى أوربا، وظنت روسيا أنها ستصل إلى البحار الجنوبية الدافئة، إلى البحر الأبيض المتوسط، وإلى القسطنطينية..

أطلق الطالب الصربى جفريلو برنسيب فى ٢٨ يونية ١٩١٤ على الأرشيدوق فرانتز فردينند رصاصة ، فأرداه قتيلا ، إبان قيامه بزيارة لسراجيفو عاصمة البوسنة، ضمن زيارة رسمية لتلك الولاية ، وقد أصاب القاتل برصاصة ثانية ، زوجة ولى العهد . وعلى الرغم من أن البوسنة كانت هذا الحين ولاية نمساوية خاضعة لحكم الإمبراطورية ، إلا أن حكومة النمسا كانت تعتقد أن الجريمة من تدبير جمعية اليد السوداء التى كانت بلغراد عاصمة الصرب مقراً لها ، فضلا عن أنها كانت تلقى التأييد والمعونة والتوجيه من حكومة إمارة الصرب ، ولذلك فقد وجهت حكومة النمسا

إلى حكومة الصرب فى ٢٣ من يوليو بلاغاً نهائياً، قصد به أن ينطوى على أبلغ ضروب الإهانة حتى ترفضه الصرب ، فيتيح لحكومة النمسا ، فرصة طال إنتظار ثينا لها ، ألا وهى فرصة التأديب والإخضاع .

وتلقفت حكومة الروسيا هذا الإنذار، فوقفت إلى جانب الصرب ، لأنها لم تكف يوماً عن التحدث عن زعامتها للدول السلافية فى أوروبا الشرقية، ولأنها كانت ترى نفوذ ألمانيا يمتد فى كل أوروبا ، وكان الروس يعدون هذا النفوذ حائلا دون تحقق أحلامهم فى الحصول على القسطنطينية فأصدر سازونوف وزير خارجية الروسيا ، أمراً بالتعبئة الجزئية فى بلاده، ثم لما بلغه ضرب الطائرات النمساوية لبلغراد، جعل هذه التعبئة عامة .

وكانت فرنسا بدورها ، تواقه إلى فرصة لتستعيد فيها الإلزاس واللورين اللذين فقدتهما فى حرب سنة ١٨٧٠ وإلى الانتقام لهزيمتها المرة فى سيدان .

من المسئول عن اندلاع هذه الحرب ؟

البريطانيون يقولون عاهل الألمان غليوم الثانى ، هو المسئول الأول (فإن خيلاءه الحائرة غير المستقرة ، وخياناته السياسية ، وولعه بالأبهة ، المسرحية ، وفوراته العنيفة الهستيرية ، أبقت أوروبا فى حالة شديدة من التوتر ؛ ثم كانت تصريحاته العامة فى بعض الأحيان كانت تصريحات رجل مفتون، فإنه عندما أقلعت مثلا بعض السفن الحربية الألمانية قاصدة الصين فى سنة ١٩٠٠ على أثر ثورة الملاكمين ، أذكى حمية القوة الألمانية بالعبارات الآتية التى دوت فى آفاق الأرض قال : إنكم توشكون أن تقابلوا عدواً محتالا قاسياً حسن التسلح ، قابلوه ، واهزموه ، ولا تمنحوه رحمة ولا صفحاً . لا تأخذوا أسرى ، بل اقتلوا كل عدو يقع فى قبضتكم . وكما خلد الهن ، تحت قيادة ملكهم أتيلا منذ ألف سنة خلت صيتاً فى الأساطير والخرافات لا يزال يدخل الرعب والهلع ، هكذا اجعلوا اسم ألمانيا يرن رنيناً مدوياً فى صفحات التاريخ الصينى بعد ألف عام من الآن) .

وقد دافع بعض المؤرخين عن غليوم أو وليام الثانى قيصر ألمانيا بقولهم إنه كان ثمرة النظام الألمانى ، لا مؤسسه . والنظام الألمانى ، قام على تجنيد كل شاب ألمانى قادر على حمل السلاح ، فأصبح كل ألمانى سليم البدن إما جندياً فعلاً فى

الجيش ، أو جندياً قضى مدة تجنيده، أو شاباً فى انتظار دعوته للانخراط فى سلك الجيش ، فشملت ألمانيا من أقصاها إلى أقصاها روح عسكرية ، كانت تتحرق شوقاً إلى معركة ضخمة لتخوضها،مع إيمان الشعب كله بأن الحرب ليست جريمة ضد الحضارة ، بل تجربة روحية ، تتطهر لها النفس ، وتزكو الروح ، وتخرج ألمانيا منها ، سيدة ظافرة .

وقال آخرون أن التبعة ملقاة على عاتق السياسة البريطانية التى سعت سعيها ، لتبسط سلطانها فى كل مكان ، والتى استأثرت بخير الأقاليم فى الشرق والجنوب ، فى آسيا وأفريقيا ، والتى بذلت كل ما تملك من جهد وحيلة ، لتمنع غيرها من أن يصل إلى مرتبتها وقوتها فى البحر استبقاء لسلطانها المتفرد على البر والبحر معاً .

ويقول فريق ثالث ، إن الحرب لم تكن لتقع لولا الإمبراطوريات التى كانت كالبنيان الضخم المنهار ، فقد ضمت شعوباً غير متجانسة ، وأخضعها بالقوة ، وحالت بينها وبين التقدم ، فاستنفدت حروبها ضد الشعوب الخاضعة لها ما فيها من قدرة على الحياة والتطور ، وقد آل الحكم فى هذه الإمبراطوريات إما إلى عاهل ضعيف عاجز عن كبح جماح الدوائر العسكرية فى بلاده ، وإما إلى عاهل متعجرف طائش ، يزيد من غرور تلك الدوائر ، وينافسها فى غطرستها وتباهيها الكاذب .

ويذهب فريق رابع إلى أن العهد السابق على حرب سنة ١٩١٤ ، كان ختاماً لمرحلة فى حياة الإنسانية ، وكان لابد أن يطلع فجر عهد جديد ، يتحقق فى ظله للشعوب نصيب أكبر من الحرية ، وللعمال والفلاحين نصيب أكبر من الرخاء والاحترام والمشاركة فى حكم بلادهم ، وللعقل الإنسانى ، نصيب أكبر من الانطلاق من قيود الماضى ، وأن انهيار النظام القديم بأسسه وقواعده ، ومنطقه وأقيسته ، هو الذى أحدث هذا الانفجار ، الذى نسميه حرب سنة ١٩١٤ . فالمسئولية عند هؤلاء ، وهؤلاء ، ليست مسئولية رجل ولا دولة ولا نظام إنما هى حتمية تاريخية ، ينتهى لها عهد ويبدأ عهد ، فى فرقعة نسميها نحن حرباً .

* * *

ويطيب لى أن أنقل هنا صورة لما كان عليه الناس فى أوربا ، حينما أذيع

نبأ اغتيال ولى العهد فرانتز فردیننڈ وقرينته في مساء يوم ٢٨ من يونيه ١٩١٤ ، وقد كتب هذه الصورة الكاتب النمساوى ستيفان زفايج، هو من أبناء ڤيينا ، وأقدر الكتاب على وصف مشاعر أهل وطنه وأهل بلدته . قال :

« لقد كان صيف سنة ١٩١٤ خليقاً بأن نذكره نحن ، حتى لو لم يقع فيه ، ما حدد قدر أوربا كلها . إنى لا أذكر أنى عشت صيفاً أعظم رخاء ، ولا أبهى جمالا ، ولا أغنى بروح الصيف من صيف تلك السنة . فلقد كانت السماء ، على تتابع الأيام والليالى وكأنها حرير أزرق ، بينما كان الهواء رقيقاً ، خالياً من الرطوبة والزمتة ، فى حين كانت المراعى ، فواحة بالعطر حارة ، والغابات غنية بخضرتها الريانة ، وحتى اليوم، لا أستعمل لفظ « الصيف » ، وإلاوقفزت لذهنى فى التو ، ذكرى تلك الأيام من يوليو ، التى قضيتها فى بادن،على مقربة من ڤيينا، ولقد التمست العزلة فى هذه المدينة الصغيرة الشعرية ، حيث كان بتهوفن يقضى إجازته الصيفية ، ولكى يتيسر لى الانصراف إلى عملى ، وقد كنت معتزما أن أقضى باقى الفصل مع صديقى المحترم (ڤيرهيرن) فى منزله الريفى الصغير فى بلجيكا. فى بادن لا يلزم الإنسان بترك المدينة ليستمتع بالريف . فإن الغابة الجميلة النابتة فوق التل، تتخلل المنازل التى لم تزل تحتفظ ببساطة عهد بيتهوفن . وفى كل المقاهى والمطاعم ، يجلس الناس ، فى الهواء الطلق ، مختلطين بالضيوف المرحين الذين يتريضون فى حديقة (كوربارك) ، إلا إذا فضلوا أن يسيروا وحدهم ، فى طريق خال من الناس .

وفى عشية اليوم التاسع والعشرين من شهر يونية ، الذى يحتفل به كاثوليك النمسا كعيد القديسين بطرس وبول ، وصل إلى بادن عدد كبير من الزائرين من ڤيينا ، ثم راحت جموعهم فى ثياب الصيف الخفيفة تتجه فى مرح وخلو بال حيث تعزف الموسيقى فى الحديقة العامة . كان الجو لطيفاً ، وأظلت سماء مصحية، أشجار القسطل، العريضة . إنه كان يوماً موعوداً بالسعادة ثم لا يلبث بعد هذا اليوم ، حتى يبدأ موسم العطلات سريعاً للناس وللأطفال ، الذين يرتقبون الصيف بأكمله ، بجوه المنعش، وخضرته الغضة ، وبنسيان كل متاعب الحياة اليومية .

« وقد كنت جالساً ، غير بعيد من الجمهور فى الحديقة أطالع فى كتاب لا زلت أذكر أنه كان كتاب ميجورسكى عن تولستوى ودوستيفسكى ، وكنت أقرأ فى شغف واهتمام ، ومع ذلك كنت شاعراً فى الوقت نفسه ، بصوت الريح خلال الأشجار ، وزقزقة العصافير والموسيقى التى كانت تفد إلىّ من الحديقة العامة . لقد كنت أتبين الألحان المعزوفة بوضوح ، دون أن تعكر على هذه الألحان وحدتى ، لأن لآذاننا قدرة على التكيف بحيث يألف وعينا طنيناً مستمراً ، أو ضوضاء الطريق ، أو خرير جدول ، فإذا توقف واحد من هذه الأصوات الرتيبة ، تنبهنا فقط بسبب هذا التوقف . وهذا ما حدث ، فقد توقفت فجأة عن القراءة حينما توقفت الموسيقى بلا سابق تمهيد . ولم أكن قد تبينت المعزوفة التى كانت تؤدى ، ولكنى لاحظت فقط أن الموسيقى انقطعت ، وبإيحاء من الغريزة ، رفعت عينى عن الكتاب . وقد أصاب الجمهور الذى كان يتريض ، كجماعة لطيفة وحيدة تغيير مماثل ، فقد ثبت فجأة فى مكانه بلا حراك . وأدركت أنه لا بد أن يكون قد حدث شىء ما ، فوقفت لأتبين أن العازفين قد تركوا جوسقهم وقد كان ذلك أمراً غير مألوف ، لأن حفلات الموسيقى فى الحديقة العامة ، كانت تستمر ساعة أو أكثر . فماذا يكون ياترى السبب لهذا التوقف المفاجئ ؟ ولما اقتربت لاحظت أن الناس قد تجمعت حول منصة العازفين ليسمعوا إعلاناً كان يوضع فى لوحة الإعلانات ، وما لبثت حتى تبينت ، نص برقية ، أعلنت أن صاحب السمو الإمبراطورى وارث العرش ، فرانز فرديناند ، وقرينته ، اللذين ذهبا لحضور المناورات العسكرية فى البوسنة قد اغتيلا هناك .

« وتدافع أناس فى أثر أناس بأعداد متزايدة نحو لوحة الإعلانات ، وانتقل الخبر من فم إلى فم ، ولكن الإنصاف يقتضى أن أقول ، إنى لم ألحظ صدمة أو انزعاجاً على وجوه الناس ، ذلك لأن وارث العرش لم يكن يظفر من القلوب بحب عظيم . وأنى ، لأذكر يوماً آخر ، منذ الأيام المكبرة لشبابى هو اليوم الذى وجد فيه ابن الإمبراطور الوحيد قتيلا برصاصة فى مايرلنج . فقد كانت المدينة بأسرها ، تضج بالحزن والانفعال ، وتزاحمت جماهير غفيرة لتودع جثمانه المسجى ، وقد كان التعبير عن الصدمة وشعور المواساة والمشاركة نحو الإمبراطور شعوراً غامراً

« ذلك لأن الموت دهم ابن الإمبراطور الوحيد ، ووارثه وهو فى ميعة العمر ، فى حين أنه باعتباره عضواً من أسرة هابسبرج ، يتسم على وجه غير مألوف بميول تقدمية وإنسانية ، وكان يرجى على يديه الكثير ، أما فرانز فردينند فكان يعوزه كل عنصر هام من عناصر الشعبية فى النمسا ، فلم يكن ودوداً ، ولا متمتعاً بالجاذبية الشخصية ،وكان مصاباً بالتكلف . ولقد رأيته مراراً فى المسرح ، جالساً فى مقصورته ، عريض الأكتاف ، غليظاً يرمق الناس بنظرة باردة ، ثابتة ، لا تصدر عنه قط لفتة مقرونة باللطف نحو الجمهور ، أو تصفيق حاد لتشجيع الممثلين . ولم يره أحد وهو يبتسم ، ولم تنشر له صورة واحدة ، تظهره ، وقد تخفف من هذا الجمود . ولم يعرف عنه ميل إلى الموسيقى ، ولا فهم للدعابة ، وقد كانت زوجته فى مثل بروده وقد كان يحيطهما جو بارد مثلهما ، فقد عرفنا أنه لا أصدقاء لهم وأن الإمبراطور نفسه ، كان يضمر له الكره من كل قلبه ، وذلك بسبب ما كان يظهره الأمير من قلة اللياقة وهو يبدى تلهفه على سرعة ارتقاء العرش .

« وقد كان يساورنى شعور خفى غامض ، بأن كارثة ما ، ستقع بسبب هذا الرجل الذى كانت عنقه كعنق كلب (البولدوج) والذى تصدر عنه نظرات تائهة ، ولم يكن هذا شعوراً شخصياً فإن الشعب كله ساوره مثل هذا الشعور ، ومن هنا لم يثر اغتياله حزناً عميقاً .

« وبعد ساعتين من إعلان النبأ ، لم نشهد مظهراً واحداً من مظاهر الحداد الحقيقى ، فإن الجمهور راح يضحك ، ويثرثر ، ولما تقدم المساء ، عزفت الموسيقى فى الأماكن العامة . بل إن الكثيرين تنفسوا الصعداء فى النمسا ، بإزاحة هذا الوارث للإمبراطور العجوز من طريق أمير كان يتمتع بحب أكبر هو الأرشيدوق شارل .

« ولكن الصحف نشرت بطبيعة الحال ، تأبيناً ، مستفيضاً فى اليوم التالى ، وعبرت التعبير اللائق عن غضبها من وقوع الاغتيال . ولكن لم تبد بوادر على أن الحادث ، سيستغل سياسياً ضد (صربيا) .

« وكانت ڤيينا قد بدأت تعتقد أن الإمبراطور سيعمر بعد كل أفراد أسرته ، ليعيش فى وحدة مطبقة ، فقد توالت النكبات عليه ، فبعد وفاة زوجته الملكة

الفاجع وتوفى ولى عهده ، ثم وقع فرار أمراء البيت الفاضح مع عشيقات من كل طراز .

« وبعد أسابيع من وفاة فرانز فردينند سيختفى شخصه من التاريخ إلى الأبد، وفى أقل من أسبوع ، بدأت تظهر هجمات فى الصحف ، وتصاعد صوتها تصاعداً على صورة لا تدل مطلقاً على أنه كان طبيعياً . لقد أتهمت حكومة الصرب بأنها كانت مشاركة فى الاغتيال ، وتخللت المقالات تلميحات بأن حكومة النمسا لن تدع حادث اغتيال ولى عهدها المحبوب يمر من غير أن تنتقم له ولم يكن يصعب علينا أن نفطن إلى أن فى أقوال الصحف تدل على أن عملاً ما يدبر. ولكن لم يخطر ببالنا أن هذا العمل يمكن أن يكون الحرب . فلم تغير المصارف ، ولا دوائر الأعمال ، ولا عامة الناس خططهم باعتبار أن الحرب متوقعة .

« وكيف لنا أن نهتم بهذه المشاحنات مع الصرب ،ونحن نعلم أن سببها معاهدات تجارية خاصة بتصدير الخنازير الجرية ؟

« ولقد كانت حقائبى معدة فى انتظار السفر إلى (ڤيرهيرن) فى بلجيكا، فقد كان عملى فى أعلى درجاته ، فأنى للأرشيدوق القتيل ، أن يتدخل فى حياتى.

« الصيف كان ممتعاً، كما لم يكن من قبل ، ولم يكن من المأمول أن يأتى صيف فى مثل إمتاعه ، وكنا جميعاً نتطلع للدنيا بلا هموم ، وإنى لأذكر أن آخر يوم لى فى (بادن) كنت أتجول فى بساتين العنب مع صديق ، فوسَّه إلى زارع من زراع العنب قوله: لم نشهد صيفاً كهذا من زمن طويل فإذا استمر الصيف هكذا ، فسنجنى عنباً لم نجن مثله من قبل . وسيذكر الناس هذا الصيف » .

« ولم يكن هذا الزارع فى ثوبه الأزرق يدرى أن كمته صادقة إلى حد مروع

الفصل الثالث

نشوب الحرب العالمية الأولى

تحققت نبوءة الفلاح النمساوى فقد اندلعت ألسنة الحرب ، بطلقة نارية واحدة أو اثنتين ، فى مدينة سراچيڤو ، وأصبح صيف سنة ١٩١٤ مذكوراً عند الجميع .

فلم تكن هذه الطلقة ، إلا مجرد الإيذان لقوى الشر التى بقيت متحفزة ، بالانطلاق فانطلقت .

ولو أن أحداً من كوكب آخر ، كالمريخ مثلا ، هبط كوكبنا فى أول يوليه سنة ١٩١٤ ، ورآنا نقتتل ، كما اقتتلنا فعلا فى الحرب العالمية الأولى ابتداء من اليوم الأخير من هذا الشهر ذاته ، لما استطاع أن يصدق عينيه ، ولا أن يفهم شيئاً مما يدور أمامه.

فإن العالم قد وصل إلى درجة من التشابك الحضارى ، والرقى الثقافى ، والرقة الفنية ، كانت توحى بأن فكرة الحرب قد قضى عليها تماماً، وأن الناس بعدوا عن العهد الذى كانوا يحلون فيه مشكلاتهم بالسيف والمدفع بعداً ساحقاً . ولقد حرصت على أن أصور بقلم أديب الحالة التى كان عليها شعب«ڤيينا»عاصمة الإمبراطورية التى امتشقت حسامها ، وقادت غيرها من الدول ، إلى هاوية المجزرة البشرية التى دامت أربع سنين بعد ذلك . ليلمس القارى كيف كان الناس يتنزهون فى الحدائق الجميلة ، ويسمعون الموسيقى ويقرأون الكتب ، ثم يتوقفون لحظة ، عند سماع نبأ الاغتيال السياسى ، ثم لا يلبثون حتى يعودوا إلى سابق مرحهم وثرثرتهم ، كأن شيئاً لم يحدث . . وكان هذا هو حال أفراد الناس العاديين ، ولكن كان يدبر دائماً من خلف ظهورهم ، ما يدعوهم إلى أن يقتل بعضهم بعضاً بحماسة ، ولعل أحسن ما يمكن أن يوصف به المجتمع الذى كان يعيش فيه الناس ما كتبه فيشر قال :

« وبدا للناس كأن رجال السياسة قد تعلموا أخيراً درس أن « السياسة هى فن السعادة البشرية » فقد أجازت جميع البرلمانات القوانين لحماية الضعفاء من أعضاء المجتمع ، وأمحت جميع الامتيازات الجائرة من ميزانيات الدول ، وأزيلت المظاهر الوحشية للعصر الوسيط من قوانين العقوبات ، وعم التعليم ، وازدهر فى أكثر الأقطار الأوربية . وأطال كثيراً الطب الوقائى من أعمار البشر . واختفى الموت جوعاً من بين قائمة الشرور الاجتماعية فى جميع الأقطار الراقية »

« خيل للناس أن المجتمع الأوروبى تخلص إلى مدى بعيد من شر واحد بنوع خاص . فإنه بازدياد القوات المادية الموضوعة تحت إمرة الحكومات ازدياداً كبيراً بتقدم العلم ، اختفى كل مظهر من مظاهر الركود الذهنى ،واستيقظت القرائح ، وتفتحت الأذهان فى جميع أمصار القارة الأوربية .

« لم يقبل المجتمع على كتاب أكثر من إقباله على أولئك الذين هاجموا النظم القائمة ، وحاولوا إعادة تقدير القيم السائدة فى العصر الفكتورى وجه ماتيو أرنولد موهبته المرهفة المتأنقة إلى السخرية من التقاليد الجامدة للطبقة الوسطى . بل وظهر فى عالم الأدب فى أواخر القرن المنصرم ناقدون ألمع وأقوى من أرنلد . فقد خاطب إبسن وتولستوى ونيتشه وأناطول فرانس وبرنارد شو ، خاطبوا عدداً أكبر من القراء والمستمعين ، وألفوا فى نطاق واسع فى موضوعات أجرأ وأجسر مما تناولته أقلام الكتاب السابقين . فلم يمر زمن على أوربا كانت فيه أكثر يقظة لإدراك عيوبها ونقائصها ، أو أحكم مشورة لتدبير وسائل إزالة هذه العيوب ، والنقائص ، مما كانت عليه فى مطلع القرن العشرين .

« وأغدقت العلوم الكهربية خيراتها على الجنس البشرى ، فأمطرت بركات الحرارة ، والآلات الحرارة ، والتلغراف ، والتليفون، والبخار ، واستكملت الدراجة والسيارة والطيارة ، وما فى السكك الحديدية من مواضع نقص ، وتوفرت أسباب الاطلاع على الأدب النفيس والأدب الغث بناء المكتبات العامة ، وتنافس الناشرين ، وتقدم آلات الطباعة . وأشبعت إلى حد الا رتواء صحافة رخيصة غريزة حب الاستطلاع فى جماهير العامة الذين ينتهى تعليمهم المدرسى بانتهاء مرحلة التعليم الأولى .

« ولكن لعل أبرز مظهر من مظاهر العصر الذى سبق توًّا الحرب العظمى ، هو نمو الاعتقاد بأن للعمال والعاملات الحق فى أن توفر لهم أسباب التسلية والتمتع ، وأن تجعل فى متناول طاقتهم ، عن طريق دفع إعانات مالية من خزائن الحكومات . ومنذ سقوط الإمبراطورية الرومانية ، لم تكن السلطات العامة أحرص على إعداد تسليات عامة لشعوبها ، وإشباع شهوة الجماهير للملذات وتوفير أسبابها لها ، منها فى ذلك الحين . كما أن الأعمال الذهنية لم تكن أسرع فى الانتقال من أمة إلى الأمم الأخرى ، منها فى تلك الآونة .

« فموسيقى برامز ، ومسرحيات إبسن ، وروايات تولستوى ، وأناطول فرانس ، وأوبرات جلبرت وساليفان ، وأغانى قاعات الموسيقى الشعبية ، كونت كلها جزء من الثروة الأدبية العامة لأوربا . صحيح أن اختلاف اللغات كان عائقاً جديًّا وخطيراً ، ولولاه ، لكان هناك من الدواعى ، ما يحفز الإنسان إلى الأمل بأن أوروبا قد تصبح بانتشار الثقافة المشتركة وحدة متحضرة واحدة . كتلك التى صورها أرسطاطاليس الفيلسوف الإغريقى العظيم »[1]

والفكرة التى عبرت عنها هذه السطور صحيحة ، ولكنها ليست كاملة الصحة . صحيح أن الشعوب الأوربية وصلت إلى درجة عظيمة من الرقى العلمى ، وأن عامة الناس ، فى أوربا استمتعوا ، بما لم تستمتع به الشعوب فى عهد سابق بثمار الحضارة، والثقافة ، وأن الطب الوقائى ، حمى جموعهم من الأوبئة ، فطال عمرهم ، وارتقت درجة نظافة أجسامهم ، كما ارتقت درجة النظافة فى بيوتهم ، وتأنقت مدنهم ، فأعيد بناؤها ، واتسعت شوارعها ، وتجملت ميادينها ، وازدانت فى الظاهر بالأنوار والحدائق والبساتين ، وفى الباطن بمجار تجعل الحياة فى تلك المدن نظيفة حقًّا . هذا كله فضلا عن انتشار دور التمثيل ، والسينما ، والمتاحف والمعارض ، والمكتبات العامة والخاصة ، التى أتخمت مخازنها ورفوفها بالكتب والدوريات والموسوعات ، المطبوعة على أحسن وأغلى ورق حيناً ، ثم على أرخصه

---

(١) يقول دافيد طومسن فى وصف العالم فى هذه الحقبة ذاتها : كان منظر العالم ، بأوسع معانى الكلمة ، منظر عالم فيه درجة أوثق من التداخل الاقتصادى ، مقترناً بفرقة سياسية أشد قسوة ، وفيه تقدم اجتماعى واقتصادى بمعنى رفع مستوى الحياة والراحة مرتبطاً بتوترات فى داخل المجتمع بين رأسى المال والعمل وفيه تقدم مادى عظيم مرتبط بفقر وفوضى .

حيناً آخر ، والتى ازدانت بصور بلغت غاية الجودة والإتقان والجمال .

ولكن أوربا ليست الدنيا ، ولا أكبر القارات مساحة ، ولا عدد سكان . ففى العالم كانت آسيا بجموعها الكثيفة ، ومدنها المكتظة بالسكان ، وكانت أفريقيا ، بغاباتها وأدغالها ، وخيراتها الوفيرة المهملة عمداً ، وفى العالم كانت أمريكا الجنوبية . فكيف كانت تعيش كثرة العالم وأغلبيته الساحقة . هل تحررت من مظاهر الوحشية التى كانت سائدة فى العصر الوسيط ؟ هل تمتعت بمعاملة جديرة بالإنسان ، وسمع صوتها ، وترك لها مكان بين الدول ذات النفوذ ؟ هل تمت وقايتها من الأوبئة العاصفة التى كانت تكتسح أرواح الآلاف ؟ هل حميت من الموت جوعاً ؟ هل عرفت شيئاً مما استمتع به الفقراء والعمال فى مدن أوربا من ثمار الثقافة والفنون والعلوم ؟

الواقع أن ثلاثة أرباع العالم ، كان يعيش فى العصر الوسيط ، وفيما هو أظلم من العصر الوسيط . كان الناس فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، فقراء محكومين بإرادة سواهم ، جهالاً لا يعرفون كيف يقرأون حرفاً فى كتاب ، بعيدين عن العمران ، وعن النور ، وعن كل متعة من متع الفن والحضارة ؟

ومجتمع هذه حاله ، لا يمكن أن يكون مجتمعاً طبيعياً . هذه التفرقة الهائلة والقاسية فى معاملة أجزائه المختلفة ، دليل على أن به عيباً أصيلا ، وأن هذا العيب الأصيل ، لابد أن يودى به وقد كان .

* * *

ففى ٣٠ من يوليه ، أقنع الكونت برشتولد وزير خارجية النمسا ، الإمبراطور العجوز فرانسوا جوزيف بوجوب إعلان الحرب ، على الصرب ، فأعلنت الحرب ، على الرغم من أن الصرب كانت قد قبلت من شروط إنذار النمسا لها — سبعة شروط من عشرة . ولكن كانت الرغبة فى الحرب ، والتهيؤ لها ، والاندفاع نحوها ، أقوى من النمسا والصرب وألمانيا ، وكل دول أوربا ، كانت روحاً شريرة مسيطرة ، ركبت دول كل القارة وكانت هى الروح التى أهملت مبادئ الإسلام والمسيحية ، فانتهت بها إلى أن تأتى من الأعمال ما يكاد يكون جنوناً ، فبعض المؤرخين يؤكد أن كلا من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والروسيا لم يكن راغباً فى الحرب ، بل كان

يخشاها ، بل إن قيصر ألمانيا الذى اعتبر أكبر مساهم فى إشعال هذه الحرب ، يؤكد فى مذكراته التى نشرها بعد انتهاء الحرب ، بأنها فرضت عليه . ومع أنه منذ أعلنت الحرب ، أصبح كل إنسان فى الدول الكبرى ، مشغولا ومهتاجاً ، ونشطاً ، وظمئاً إلى بذل الجهود للسعى فى خدمة بلاده ، وتوارت فجأة المنازعات الداخلية التى كانت تلوح قبل الحرب بأيام قليلة خطيرة الشأن ، إزاء الخطر الكبير الذى صار يهدد حياة كل أمة ، فعاد المضربون إلى أعمالهم فى بطرسبرج ، وتوقفت المطالبات بحقوق النساء عن عنفهن فى لندن ، وفى إيطاليا حض بنيتو موسولينى الذى كان قبيل الحرب يتزعم إضراباً ثورياً هائلا — حض حكومته على التدخل فى الحرب ، وآمنت كل أمة بعدل قضيتها ، وأنها تناضل عدواً أثيماً يتوق إلى تدميرها . وأن بقاء نظام أدبى فى العالم غدا يتوقف على إحراز هذا النصر[١] » .

وقد يكون من الطريف أن نسمع كلام قيصر ألمانيا ، وهو يدافع عن نفسه تهمة إشعال الحرب ، والعمل عليها ، ذلك لأن ذلك القيصر بالذات ، كان المتهم الأول ، أمام الرأى العام العالمى ، بأنه مجرم الحرب رقم (١) ، وأنه لولا طيشه وتهوره ، ورغبته الجامحه فى الزهو والظهور بمظهر البطل ، وتعطشه للدماء ، لما كانت الحرب ، وأن النمسا التى أشعلت أول عود ثقاب فى حطب الحرب الهائلة ، لم تكن لتستطيع أن تشنها وحدها ، فلولا ما لقيته من تأييد القيصر ، لما نشبت هذه المجزرة البشرية المروعة ، يقول القيصر فى مذكراته[٢] :

« لما علمت بمقتل صديقى الأرشيدوق (فرانسوا فرديناند) تركت أسبوع كيال ، وعدت إلى البيت وفى نيتى الذهاب إلى (فيينا) لأشترك فى تشييع نعشه ، ولكن بعضهم رجا منى العدول عن هذه الفكرة لأسباب علمت منها فيما بعد أن سلامتى الشخصية أيضاً كانت موضوع البحث . على أن هذا السبب لم أكن لأعبأ به بطبيعة الحال .

« وقد اشتد قلقى من سير الأحوال وتقلباتها ، فعقدت النية على العدول عن سياحتى فى الشمال والبقاء فى برلين . ولم يكن المستشار ووزير الخارجية على هذا

---

(١) فيشر .

(٢) ص ١٧٥ من المذكرات المترجمة .

الرأى ، بل رغبا إلى فى القيام بهذه السياحة لتهدئة أعصاب أوربا ، والتأثير فيها تأثيراً حسناً فقاومت فكرتهما مقاومة طويلة ورفضت أن أترك بلادى وأنا على شك مما يعده المستقبل .

«ولكن المستشار (أى رئيس الوزراء الألمانى) (فون بتمان) قال لى حينئذ إن عدولى عن سياحة أعلن خبرها ، يجعل الناس يعتقدون بأن الحالة أسوأ مما هى فى الحقيقة . ومن المحتمل أن يؤدى عدولى عن هذه السياحة إلى إضرام نار الحرب وإلقاء تبعتها علىّ . فالعالم كله ينتظر الخبر السار الذى يزيل قلقه فيقول إنى عمدت إلى السياحة بقلب مطمئن رغم اشتداد الأزمة .

« وقد بحثت فى هذا الموضوع مع رئيس هيئة أركان الحرب الذى كان ينظر إلى الموقف بعين الثقة والاطمئنان ، حتى إنه طلب أن يذهب إلى (كارلسباد) ليقضى إجازة الصيف . فلما رأيت ذلك قررت السفر وأنا فى حالة شديدة من القلق والاضطراب، ثم قال :

« وعلمت وأنا على أهبة السفر — من مصدر نروجى — أن قوة من الأسطول الإنجليزى أبحرت سراً إلى المياه النروجية بمهمة القبض على ، مع أننا كنا حينئذ فى حالة سلم » .

ثم قال :

« إن هذا كله يثبت بوضوح تام أننا لم نكن مستعدين للقتال فى يوليه سنة ١٩١٤ ، فليعدل الناس إذن عن القول بأننا نحن الذين مهدنا للحرب ، وأعددنا العدة لها » .

« وقد سأل رئيس حجاب القيصر (قيصر روسيا) جلالته فى ربيع سنة ١٩١٤، عن برنامج سياحته فى الربيع والصيف فأجابه نقولا الثانى : سأبقى حيث أنا فى هذا العام ، لأن الحرب ستقع حتماً .

« وكان هذا القيصر عينه هو الذى وعدنى بالشرف الملكى مرتين فى (بيوركه) ومرفأ البلطيق بألا يمتشق حسامه فى وجه ألمانيا إذا وقعت الحرب فى أوربا ، وأنه لا يخوض غمار الحرب فى جانب الإنجليز خاصة وقد عزز جلالته هذا الوعد بهز يدى وتقبيلى . . . ! »

ثم قال :

« إن وثائق لا يحصيها العد تدل على أن الحرب كانت تنظم فى روسيا وفرنسا وبلجيكا وإنجلترا فى صيف سنة ١٩١٤ ، فى حين أنه لم يكن فى بلادنا رجل واحد يفكر فى مهاجمة الحلفاء » .

فالجميع كما ترى ، يبرأون من تهمة إشعال الحرب والجميع يلقون التهمة على الآخرين ، من المسئول مرة أخرى إذن عن هذه الحرب ؟

مرة أخرى نقول إن الجميع مدانون ، وإن الجميع أبرياء . الجميع مدانون مذنبون ، لأنهم خلقوا الروح التى تجعل الحرب أمراً لا مناص منه ، ولا يهم متى تقع الحرب بعد ذلك ، ولا لأى سبب تقع ، ولا فى أى مكان تقع ، فمثلهم كمثل من يضع زجاجة سم مفتوحة فى المنزل ثم يخرج ، إذ أن الصدفة وحدها هى التى يمكن أن تنقذ أهل المنزل من مد أيديهم إلى الزجاجة خطأ لأخذها وقد تشملهم الصدفة بحمايتها يوماً أو أسبوعاً أوشهراً ، ولكنها لا يمكن أن توفر لهم هذه الحماية إلى الأبد . فلابد أن يأتى اليوم الذى تمتد فيه يد إلى الزجاجة وقد يشربها وحده ، وقد يضعها فى الطعام ، فيشربها مع جميع أهل المنزل .

إن الحرب روح ، فإن لم يعتبر الجميع أنها روح خبيثة ، وأن يعمل على إقناع الغير بهذا ، وإقناع نفسه بها ، فستأتى الساعة التى يرى فيها هذه الروح ، وقد اقتحمت عليه داره ، أو ركبته وقادته، وهو لا يدرى كيف خضع لها وكيف طاب له أن تلهمه ، وتلهبه فى الوقت نفسه . .

* * *

بدأت الحرب على هذا المنوال .

النمسا هاجمت الصرب ، لأن الصرب تريد أن تتمرد على زعامة النمسا وسيطرتها على دول البلقان والدول السلافية الأخرى .

غضبت روسيا لأن هذه الدول سلافية مثلها وتحت حمايتها .

أيدت ألمانيا النمسا .

وقفت فرنسا فى صف حليفتها الروسيا .

دخلت ألمانيا بلجيكا ، لتتصل فى حركة تطويق سريعة ، إلى شمال فرنسا ،

ثم تدخل باريس ، فتضرب فرنسا ضربة قاصمة ، قبل أن تتهيأ جحافل الروسيا للهجوم على ألمانيا ، وضربها من الشرق .

بريطانيا ، مرتبطة مع بلجيكا بمعاهدة تعهدت فيها بحماية حياد بلجيكا، وكانت ألمانيا نفسها طرفاً فى هذه المعاهدة .

اليابان انتهزت الفرصة، وانضمت إلى الحلفاء (إنجلترا وفرنسا) لتأخذ ما كان لألمانيا فى الصين من امتيازات ولتستولى على ما كان لألمانيا من جزر فى البحر الهادى .

واشتعلت النار . . .

وأصبح فى مقدور كل دولة أن تلقى فيها حطباً ، حسبما يطيب لها ، ويتفق مع مصلحتها ، فانضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا والمجر ، لأن روسيا كانت طامعة فى استانبول ، وفى إخضاع المضايق من البحر الأبيض والبحر الأسود (الدردنيل والبسفور) لها ..

وانضمت بلغاريا إلى ألمانيا ، لأن بلغاريا كانت تنافس دول الصرب ، على زعامة الدول السلافية فهزمتها صربيا بالتعاون مع اليونان .

وانضمت إيطاليا ، إلى معسكر إنجلترا وفرنسا ، بعد أن كانت مرتبطة فى أول الحرب ، بألمانيا والنمسا ، لأن بريطانيا وعدتها بمغانم استعمارية . .

وكانت أمريكا تنظر إلى الأسطول البريطانى باعتباره الخط الدفاعى الأول عنها ، ولم يكن فى مقدورها أن ترى بريطانيا تهزم ، دون أن تحس بالخوف على أمنها الخاص ، لذلك دخلت مرحلة متأخرة فى الحرب ، إلى جانب إنجلترا وفرنسا وحلفائهما .

وعلى الرغم من كل ما يقال من تبرير لوقوع تلك الحرب العظمى ، فإنها لم تكن سوى عمل جنونى لا يفسر بشىء .

فلو قيل إن الحرب أعلنت من أجل مذهب سياسى ما ، لما استطعت أن تتبين هذا المذهب ، فبريطانيا وفرنسا ، وهما دولتان ديموقراطيتان ، حاربتا مع

الروسيا ، وهى أشد الإمبراطوريات الوراثية رجعية .

ولو قيل إن الحرب أعلنت ضد ألمانيا التى كانت قوة عسكرية ذات نزعة استعمارية ، فإن فرنسا على حد قول دافيد طومسن — كانت واحدة من أعظم الأمم الحربية ، وكانت بريطانيا صاحبة أكبر أسطول فى العالم ، ولكليهما مستعمرات فى الخارج ، وإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس .

وإذا كانت المصلحة التجارية ، فإن ألمانيا — كما يقول اللورد كينز — كانت ترسل صادرات إلى بريطانيا ، أكثر مما ترسل إلى بريطانيا ، أية دولة أخرى عدا الولايات المتحدة ، كما أن ألمانيا كانت تتلقى واردات من بريطانيا ، أكثر مما تتلقى أية دولة عدا الهند . وكانت ألمانيا أفضل عميل لروسيا والعميل الثالث لفرنسا . .

لماذا يحارب هؤلاء إذن ؟

نفس السؤال ، ونفس الإجابة .

* * *

وقد دامت الحرب اثنين وخمسين شهراً ، فهى من حيث الطول ، لم تكن أعظم من سواها من الحروب الأوربية فقد طالت بعض حروب أوربا إلى نحو سبع سنوات ، وقد طالت حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، إلى ما يقرب من عشرين عاماً ، ولكن حرب سنة ١٤ كانت حرباً عنيفة مركزة ، استطاعت فيها الدول الصناعية العظمى تحريك جيوش ومؤن ونقلها مئات الأميال ، وقد تساوى المعسكران فى هذه القدرة ، بحيث استحالت الحرب فى أدوارها المتأخرة ، إلى ركود ، إذ وقف كل معسكر فى وجه الآخر ينظر إليه ، ولا يستطيع أن يزحزحه من مكانه ، بعد تضحيات وخسائر فى الأرواح والأموال هائلة .

وليس فى نيتنا أن نخوض فى تفاصيل المعارك ، ولا بيان الخطط ، فليس فى هذا شىء مما يتصل بغرض هذا الكتاب . وإنما نريد أن نسجل هنا ، الخصائص العامة للقتال ، منظوراً إليه من الناحية الإنسانية ، وبقصد حصر الخسائر ، والقيم الروحية المهدرة ، والجهد البشرى الضائع ، وبحار الدماء المسفوكة ، وما اقترن بهذا كله من الكذب ، والتضليل ، والإخافة ، ثم ما انتهى إليه آخر الأمر

من خيبة أمل للجميع .

كانت حرب سنة ١٩١٤ ، حرب بر ، أكثر منها حرب بحر . وكانت حرب جنود ، مسلحين بالبندقية والمدفع ، أكثر منها حرب سيارات مصفحة ، ودبابات ، وطائرات .

كانت حرب بر ، لأن المعارك الحربية بعد موقعة جتلند البحرية فى سنة ١٩١٨ ، ضؤلت وقلت بين الوحدات البحرية الرئيسية . فى هذه المعركة التى وقعت فى ٣١ مايو سنة ١٩١٦ ، خسر فيها الإنجليز ضعف ما خسره الألمان ، وتمكن الأسطول الألمانى على المجازفة بمنازلة الأسطول البريطانى فى معركة عامة .

واقتصر سلاح الطيران على الاستطلاع ومراقبة أعمال المدفعية ، وضرب المدن أحياناً . ولم يضرب سلاح الطيران المواقع الخلفية للجنود إلا فى المرحلة الأخيرة للحرب .

وكان العبء — فى الأغلب الأعم — ملقى على جنود الجبهة . فلم يصب المدنيون فى هذه الحرب ، ما أصابهم فى الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت جبهات الجنود ، قد اعتمدت اعتماداً أكبر على جهد الصناع والعمال ، والنساء والرجال ، فى المدن ، لتزويد ملايين الجنود ، بزيهم الموحد ، وبالمعدات ، وتجنيدهم ، وتدريبهم ، ونقلهم .

وقد شهدت هذه الحرب ، ميلاد سلاحين ، أولهما ثبت عجزه ، فقل استعماله وثانيهما ثبت واستعمل فى الحرب العالمية الثانية .

أما أول هذين السلاحين فهو الغازات السامة التى بدأ استعمالها فى معركة السوم فى صيف سنة ١٩١٦ ، وكان لاستعمالها أول الأمر ، هزة فزع هائلة ، ولكن لم يلبث الحلفاء ، أن اتخذوا لها أسباب الوقاية ، ثم استعملوها هم أنفسهم حتى آخر الحرب ، دون اقتناع بأن لها أثراً حاسماً .

أما السلاح الثانى فهو هذه القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات التى تسير على سلاسل جنزيرية وتستطيع أن تشق طريقها خلال الأسلاك الشائكة والخنادق والعوائق الأخرى .

وقد ظهرت لأول مرة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٦ ، ولكن هذا السلاح لم يستخدم سوى استخدام جزئى حتى سنة ١٩١٨ ؛ فكان نصيبه فى تحقيق النصر للحلفاء عظيماً .

أما سلاح الغواصات ، فلم يكن استعماله مفاجئاً لأحد ، فقد كانت الغواصة معروفة قبل حرب سنة ١٩١٤ ، وقد أتقنت البحرية الألمانية استعمالها إلى الحد الذى أصبحت بريطانيا لا تملك معه فى آخر إبريل سنة ١٩١٧ سوى مقادير من الحنطة تكفيها ستة أسابيع فقط ، واستحث هذا الإنجليز ، على استحداث نظام القوافل الذى تسير بمقتضاه السفن البريطانية متجمعة ، وعلى استخدام قنابل الأعماق التى تنفجر تحت سطح البحر ، وبتحسين آلات التسمع فقلت خسائر بريطانيا من هجمات الغواصات .

هكذا لم يصنع سلاح ، حتى وجد له ، ما يرد به عليه ، لتواصل الجموع البشرية حصد بعضها بعض .

لم يستطع أحد المعسكرين ، كما قلنا ، آخر الأمر أن يزحزح الآخر من مكانه ، فقد كانت الكفتان متعادلتين ، وبرع كل منهما فى نقل جنوده بسرعة ، وفى حشد الألوف منهم على خط قتال طويل ، وتزويدهم بما يلزمهم من سلاح وطعام وثياب . وانكشف فى هذه المجزرة الرهيبة ، جانب من النفس الإنسانية ، خليق بأن يدعونا إلى التأمل والتفكر هو أن رد الفعل الناجم من الفزع والارتباك ، اللذين شملا الدول المقاتلة جميعاً ، بسبب غارات الغازات ، وخسائر الغواصات ، وفواجع المعارك الكبرى ، لم يكن الاستسلام للخوف والهلع من ويلات الحرب ، بل كان مزيداً من التصميم على مواصلة القتال وإصراراً على سحق العدو ، أو على الأقل عدم التسليم له ، فى انتظار النتيجة النهائية للقتال . وهو جانب ، قد يدعو إلى التشاؤم لدى الوهلة الأولى ، ولكنه فى واقع الأمر ، جدير بأن يؤيد المتفائلين فى مستقبل الإنسان . فإن عدم تحطم مقاومة الإنسان أمام الخسائر المادية ، واستهانته بالمخاطر ، واستخفافه بالخسائر ، يرى كيف أن الجانب الروحى منه ، أعظم من كل القوى المادية المثبطة له ، والمهاجمة

لوجوده ، والمهددة لأمنه .

وقد تبين المعسكران استحالة سحق أحدهما للآخر بعد معارك هائلة ، بلغت فيها الخسائر أكبر ما عرفه حتى ذلك اليوم ، من خسائر فى الحروب ، ففى موقعة السوم مثلا — وقد وقعت فى صيف ١٩١٦ — خسر البريطانيون فى هجمة واحدة — هى هجمة اليوم الأول ، ٦٠ ألف رجل ، وبعد شهر لم يتقدموا سوى ميلين ونصف ميل ، وخسر الألمان فى الموقعة كلها ٥٠٠ ألف رجل ، وخسر الإنجليز والفرنسيون ٦٠٠ ألف رجل .

ولم تقع معركة واحدة ، يمكن تسميتها حاسمة لأن التقدم والغنيمة فى أية معركة هائلة ، لم يكن يتناسب مع الخسائر فيها .

ففى سنة ١٩١٦ أيضاً أوقف الفرنسيون هجوم الألمان عند فردان بثمن قدره ٣٣٠ ألف رجل من كل من الجانبين . وفى سنة ١٩١٧ تقدم البريطانيون فى معركة باشنديل خمسة أميال قرب إيبرس ، ودفعوا ثمناً لهذه الأميال الخمسة ٤٠٠ ألف رجل. وقد قدر الفرنسيون أنه فى كل دقيقة بين أغسطس ١٩١٤ ، وفبراير سنة ١٩١٧ كان واحد منهم يقتل .

وفى الجبهة الشرقية ، حيث دارت الحرب بين روسيا وألمانيا ، كانت الخسائر بنفس المعدل ، بل لعلها كانت أفدح وأعظم . هناك استطاع الألمان ، بأسلحتهم الأرقى وتنظيمهم الأفضل أن يقوموا بزحفات مثيرة ، ولكن لما كان أعظم ما لدى روسيا ، هو سعة المكان وضخامة الموارد البشرية ، كان فى وسعها أن تبذر فى كليهما بسخاء أكثر مما كان برسع غيرها ، دون أن تلحقها الهزيمة وقد فقدت فى سنة ١٩١٥ وحدها مليونى رجل بين قتيل أو جريح أو أسير، وفقدت فى سنة١٩١٦ مليوناً آخر ، ولكن الجيوش الروسية ظلت مع ذلك ثابتة فى ميدان القتال ورفضت عقد الهدنة .

على أن الخسائر الإجمالية فى الحرب لكلا المعسكرين تقدر فى رأى بحوالى عشرة ملايين كلهم تقريباً دون سن الأربعين ، وثمة رأى يقول بأن أقل من نصف هؤلاء القتلى ، لاقوا حتفهم فى المعارك الفعلية ، بينما توفى الباقون بسبب المرض ،

وقد تفشت فى المراحل الأخيرة للحرب الأوبئة ومنها وباء الانفلونزا وقد وزعت الخسائر فى الأرواح بين الدول ، فخص بريطانيا ٧٧٤ ألفاً ، بينما خص دول الكومنولث البريطانى ٢٠٢ ألفاً ، وخسرت فرنسا ومستعمراتها مليوناً و ٤٠٠ ألف ، وألمانيا حوالى مليون و ٨٥٥ ألف ، والنمسا والمجر مليوناً وخمسمائة ألف ، أما خسائر روسيا فقد تجاوزت ثلاثة ملايين وكادت تبلغ الأربعة .

على أنه إلى جانب هذه الخسائر فى الأرواح ، كانت الخسائر فى المبانى والجسور والمصانع والطرق ، فضلا عن توقف الإنتاج المدنى وتحوله إلى الإنتاج العسكرى ، مما أدى إلى ما كابده الناس من قيود على حرياتهم بأنواعها ، فالتنقل والاجتماع والتعبير المكتوب أو المنطوق ، كان كله خاضعاً لرقابة وإشراف السلطات العسكرية ، وكان الطعام والكساء ، مقيدين كذلك ، فلما قاربت الحرب نهايتها كان معظم دول أوربا تعيش فى حالة من المجاعة المخففة والمنظمة . وقد بلغت هذه الحالة فى بعض الدول حد الايطاق ؛ ففى بولندا كانو يقتاتون بالحشائش وجذوع الأشجار ، وفى ألمانيا كان عدد المواليد سنة ١٩١٨ أقل من عدد الوفيات وفى سيبيريا كان نصف سكانها قـد هلك ، و٣٥ ٪ منهم كان مصاباً بالسـل .

أما الخسائر المعنوية والأدبية فتفوق كل حصر ، فمآسى التيتم والترمل والتشرد ، واضطراب النفوس وفزعها ، ويأس الجماعات وكفرها بالإنسانية ، وخوفها من المستقبل ، وإطلاق الدعوة المدمرة المكتسحة العنيفة لكره الآخرين ، واحتقارهم ، والشك فى نواياهم ، والتربص بهم . وما صحب هذا كله من حقد المنهزمين ، وخيبة أمل المنتصرين ، وقد احتاجت الشعوب ، لتحتمل كوارث هذه الحرب ، والصبر على فداحة مصائبها ، أن تقوى وتثبت ، بأجهزة دعاية عالية الكفاية ، غير متقيدة بمعيار واحد من معايير الشرف أو الأمانة ويقول فيشر فى هـذا الصدد : ولم يكن مستطاعاً مواصلة هذه الحرب الطويلة القاسية فى أقطار كانت على جانب كبير نسبياً من الحضارة إلا بالقيام بمجهود هائل من الدعاية المتلاحقة المؤثرة فى نفسية عامة الشعب — فكانت إثارة الهمم للتطوع تذكى بخطب الحرب ، وكانت هذه الخطب طافحة بالأساطير والخرافات . وحتى إنجلترا ارتكبت ضروباً

من الإرهاق والجور ضد رعايا الأعداء القاطنين بها ، فقد اعتقلوا وصودرت أملاكهم ، وفى مراحل الحرب الأخيرة رحلوا إلى ألمانيا .

« وصار توزيع النشرات من الجو فى أطوار الحرب الختامية بغية إضعاف الروح المعنوية فى جيش العدو مظهراً من مظاهر الحرب ، ذا أهمية متزايدة ، فقد جهد الألمان فى بث العصيان فى نفوس الجند الروس ، وقادت الدعاية الإنجليزية عدداً كبيراً من الألمان إلى التشكك فى عدالة قضية بلادهم ، والارتياب فى صدق زعمائهم ، وعجل انحلال جيش الإمبراطورية النمساوية ، السيئ التنظيم والانسجام بنداءات بارعة أعدت فى لندن ، ووزعت بالطيارات على أجناس الإمبراطورية التى كانت تتذمر منذ دهر طويل تحت الحكم النمساوى » .

استباحت الحرب استغلال المبادئ ، والترويج لها كذباً ، بقصد تحقيق مآرب تناقض هذه المبادئ ، فالدعوة إلى تحرير الشعوب ، وتأييد القوميات ، ومنع المظالم ، والحيلولة دون الحروب ، كانت تسير جنبا إلى جنب ، مع المعاهدات السرية التى تعقدها نفس هذه الدول التى تتسمح بهذه المبادئ بعضها مع بعض لتوزيع أسلاب المعركة ومغانمها مقدماً .

ولعلنا نحن فى الشرق العربى ، أقل الإنسان احتياجاً لضرب الأمثلة على ذلك ، فقد كان الشرق العربى ، مجالا واسعاً للعبث بالمبادئ والتخفى وراءها ، والاتجار بها ، والدوس عليها ، وإثارة المطامع ، وتحريك الشهوات ، وتحرك كل هذا ، يضرب بعضه بعضاً .

فى الوقت الذى كانت تمنى فيه بريطانيا بعض أمراء العرب بتحرير الدول العربية ، من ربقة الاستعمار العثمانى التركى وإسناد عرش هذه الدول ، إلى هؤلاء الأمراء كانت تقطع الصهيونية ، جزءًا من ذلك الوطن العربى ، باسم إنشاء وطن قومى لليهود ، وكانت فى نفس الوقت تعقد معاهدة سايكس بيكو لتوزيع الشرق العربى بينها وبين فرنسا والروسيا .

فالقومية والحرية والاستعمار والصهيونية تعاونت جميعاً ، فى خدمة أغراض الحرب البريطانية ، وفى خدمة سياستها فيما بعد الحرب . .

وكما استغلت بريطانيا النزعة القومية فى الوطن العربى ، واستغلت فى الوقت

نفسه المطامع الصهيونية الاستعمارية العالمية فى ذلك الوطن ذاته ، استغل الحلفاء النزعات القومية السائدة فى القوميات المكونة للإمبراطورية النمساوية ، فوعدوها بالاستقلال ، استغلت ألمانيا النزعة القومية عند القوميات المقيمة داخل الحدود الروسية الغربية فشجعت فنلنده وبولنده الروسية وأكرانيا ، ومناطق لتوانيا ولتفيا واستوانيا الواقعة على شواطئ البلطيق ، على طلب الاستقلال

وكان ذلك كله مجرد اتجار بالمبادئ . . .

الفصل الرابع

صحوة الموت ، مبادئ ولسن

شهد عام سنة ١٩١٧ ، وهو العام السابق ، على عام نهاية الحرب ، حدثين هامين . أولهما قيام الثورة الشيوعية فى أبريل سنة ١٩١٧ ، بعد إرغام قيصر فى ١٥ من مارس سنة ١٩١٧ على النزول عن العرش مما أدى إلى انسحاب روسيا ، من الحرب .

وثانيهما دخول الولايات المتحدة فى صف بريطانيا وعلمائها ، وذلك فى ٦ من أبريل سنة ١٩١٧ . وقد هيأ طريق انضمام الولايات المتحدة إلى الحرب ، حرب الغواصات الألمانية التى مضى فيها أبو البحرية الألمانية (تربتز) إلى المدى الذى مال بعطف أهل الولايات المتحدة على بريطانيا ، وفى الوقت الذى أنهكته فيه الجيوش الألمانية ، وموارد الشعب الألمانى إلى أقصى الغاية ، بدأت الولايات المتحدة ترسل إلى الجبهة الأوروبية جنوداً ، لم يحاربوا ، ولم يصبهم وهن ، بمعدل ٢٥٠ ألف جندى كل شهر . وبذلك مالت كفة النصر ، إلى جانب الحلفاء ، وضمنت هزيمة ألمانيا وحلفائها .

وبخروج روسيا من الحرب ، أمكن أن يقال إن الحرب كانت تدور بين معسكرين أحدهما معسكر الإمبراطوريات الوراثية التقليدية ، والآخر معسكر الديموقراطيات البرلمانية .

فقد كان معسكر ألمانيا ، مكوناً من الإمبراطورية القيصرية ، على رأسها القيصر ولهلم ، والإمبراطورية النمساوية ، وعلى رأسها الإمبراطور فرانسوا جوزيف ، والإمبراطورية العثمانية وعلى رأسها سلطان بنى عثمان ؛ بينما كان فى الجانب الآخر بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ، وكلها دول تؤمن بالنظام الديموقراطى ، وبالحرية البرلمانية .

وقد دعا هذا إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن الحرب أثبتت أن الدول

الديموقراطية أقدر على الحياة ، وأجدر بالبقاء ، بدليل أن الهزيمة لحقت القيصريات والإمبراطوريات الحربية : روسيا وألمانيا ، والنمسا ، وتركيا ، وإن النصر كان من حظ الديموقراطيات .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن انسحاب الروسيا من المعسكر الغربى ، جعل هذا المعسكر ، أقدر على الادعاء بأنه يحارب من أجل مبادئ ، وأن هذه المبادئ فى جملتها تؤيد حق الأمم فى تقرير مصيرها .

ولما دخلت الولايات المتحدة المعركة ، زاد نصيب المثالية ، من دعاوى الحلفاء — بريطانيا وحلفائها . ولما أعلن ولسن مبادئه الأربعة عشر ، خيل إلى الناس ، أن حروب المطامع انتهت ، وأن المرحلة الأخيرة ، هى جهاد مقدس ، لا يستهدف فقط إعادة الإلزاس واللورين إلى فرنسا ، كما كانتا قبل حرب سنة ١٨٧٠ ، ولا إعادة توحيد بولندا بعد تمزيقها بين الروسيا وبروسيا والنمسا فى القرن الثامن عشر ولا تحرير القوميات المنطوية عليها إمبراطورية النمسا والمجر ، وقيصرية روسيا ، بل وإعادة تخطيط حدود أوروبا على أساس من الجنس والوحدات القومية ، بحيث لا يحكم شعب ، إلا بحكومة منه ، ينتخبها هو فى حرية .

تجاوزت المثالية الولسنية — كما يقولون — إلى مبادئ بدت للناس ، وكأنها استوحيت من مبادئ السيد المسيح نفسه ، وأن عهداً من العدالة الدولية ، والإخاء الإنسانى ، سيشرق فجره على العالمين ، بحيث تصبح الضحايا التى قدمت على مذبح الحرب ، والخسائر التى تحملتها الشعوب ، والآلام التى تجرعها اليتامى والأرامل ، ثمناً ، عادلا ، فى صفقة رابحة .

فقد أعلن ولسن الدعوة إلى تحريم المعاهدات السرية ، واحترام حرية البحار فى السلم والحرب على السواء وإزالة الحواجز والفروق فى التجارة الدولية ، وإنقاص السلاح ، وقبل كل شىء ، إنشاء منظمة دولية لمنع الحرب .

وراح الرئيس دورو ولسن ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، يذرع بلاده ، يخطب فى شرح مبادئه الأربعة عشر ، فتقبلتها النفوس ، فى سرور لاسبيل إلى وصفه .

ولما انعقد مؤتمر الصلح ، وجاء ولسون إلى باريس ، ليشهد هذا المؤتمر ، لم ينظر إليه الناس بوصفه أحد رؤساء الدول الذين وضع القدر على أكتافهم ، مسئولية صياغة مستقبل العالم ، بل تطلعت إليه الأعين ، وتعلقت به القلوب ، كمنقذ للإنسانية ، سيأخذ بيدها ، من تحت أنقاض هذا العالم الذى ساده الخراب ، وحلقت فوق رءوس أهله ، الغربان والبوم ، التى اتخذت من الدور المحطمة ، والمدن المدمرة ، أعشاشاً لها ، تأوى فيها وتفرخ وتبيض .

وكانت باريس قد أصبحت محط رجال الساسة ، ورجال دول ، ووزراء خارجية ، وصحفيين ورجال مال وصناعة ، ومغامرين وأفاقين ، وزعماء شعوب ، وممثلى طوائف ، جاءوا من كل حدب وصوب ، يمثلون كل جنس ودين ولغة ومذهب ، فكان منهم من يلبس قبعات الحفلات الرسمية الأوربية العالية ، ومنهم من يلبس العمائم أو العقالات أو غيرها من أطرزة ألبسة الرأس ، وفى وسط هذا الجمع ، تألق نجم رئيس الجمهورية الأمريكية فى أوائل أيام المؤتمر[1] بسناء لامع ونور فياض ، وكأنه مسيح نزل على الأرض ليهدى البشر إلى طريق الخير والسلام . صحيح أنه مرت على ولسن فترة أثناء الحرب كان فيها مبغوضاً أشد البغض بين الدول المتحاربة ، فقد أوصاها أن تتجمل بالإنصاف والعقل المحايد ، وحضها على عقد صلح من غير انتصار .

وهو الذى حدد النقط الأربعة عشرة ، وهو الذى تفاوض مع الحكومة الألمانية قبيل عقد الهدنة بخصوص التسليم ، وهو الذى أصر على وجوب قبولها شروط الهدنة الحربية ، ولم تكن بلاده راغبة فى تملك أرض ، أو فرض غرامة حربية ، بل إنه عد حتى فى كثير من الأوساط الألمانية مبعوثاً حكيماً تزينه مناقب الإنصاف والحكمة والبعد عن الهوى ، ونبياً بعثه العالم الجديد ليطهر العالم القديم من أدرانه وأوضاره ، ولكنه نبى وسيد دولة قوية ، وحامل لوائها ، على حين كان غيره من الأنبياء أصواتاً صارخة فى البرية . ذلك أن الحلفاء كانوا يعتمدون فى مواردهم الغذائية والمالية على بلاده . وكان مليونان من الجند الأمريكيين الذين لم تضعف المعامع قناتهم يعسكرون فى أرض فرنسا ، على حين كان مليونان من زهرة شباب فرنسا وإنجلترا يرقدون تحت أطباق الثرى .

وقد نقل ويلز عن الدكتور ديلون ، كما نقل فيشر عنه ، فى كتابه مؤتمر

---

(١) فيشر .

السلام العبارة التالية فى وصف ولسن واستقباله :

« كانت أوربا عند ما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماهر . إذا لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كموسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التى طال انتظارها والتى تمنع الحروب وتجهل الحصار البحرى وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه فى فرنسا بدافع الرهبة والمحبة . وأخبرنى زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لخوض بلجج الماء وألسنة النيران لمعاونته ، على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقاً ، يدوى صوته فى أفلاك السماوات فتهتز جنبات الأرض له ، وتعود جديدة مطهرة ، واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذهم الأكبر . وقال الهر مهلن الشجاع الباسل . لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ، لتقبلوه بصدر رحب ، ودون أدنى تذمر ولبدأوا فى تنفيذه على الفور . فأما بلاد النمسا الألمانية ، فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص ، وكان مجرد ذكر اسمه بلسماً للمتألمين وترياقاً للمنكوبين »

أما فى مصر فلا نجد تصويراً أحسن للآمال التى بعثها ولسن فى الصدور مما جاء فى مذكرات المرحوم الأستاذ محمد حسين هيكل ، رئيس مجلس الشيوخ قال [١] .

« فلما كنا فى أوائل الصيف من سنة ١٩١٨ ، نشر الدكتور ودرو ولسن رئيس الولايات ، شروطاً أربعة عشر ، اعتبرها أساساً لهدنة الحرب ، إذ قبلتها ألمانيا ، وكان من بين هذه الشروط حق الأمم فى تقرير مصيرها .

« مساء اليوم الذى نشرت فيه صحف مصر ، شروط الدكتور ولسن ، قابلنى صديقى عبد الرحمن الرافعى ، مغتبطاً متهللا ، وقال : (انتهينا يا سيدى ! لنا حق تقرير المصير ، وعلى ذلك سيخرج الإنجليز من مصر ، ويتم الجلاء) .

وأجبته : وهل تصدق يا صديقى أقوال الساسة ؟ ! ألست تتحدث ، أنت وزملاؤك رجال الحزب الوطنى ، عن وعود إنجلترا الرسمية بالجلاء ، وعوداً لم يتحقق منها إلى اليوم قليل ولا كثير ..! فما بالك ترى اليوم أن شروط الدكتور ولسن يجب

---

(١) مذكرات سياسية ص ٧٧ .

أن تتحقق ؟ أولا يقتضينا الحذر النظر إليها كأنها بعض وعود إنجلترا بالجلاء ؟ »
وكان رد عبد الرحمن أن قال فى حماسة : (كلا فالولايات المتحدة هى التى انتصرت فى الحرب . وهى ليست دولة استعمارية . وهى تريد صادقة ألا تقوم حرب ثانية . وهى لذلك ستفرض حق تقرير المصير وتفرض الجلاء) .

« وعبثاً حاولت أن أقنعه بأن يخفف من غلوائه ومن حماسته، وعبثاً حاولت أن أؤكد له أن الساسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشرة شتى التأويلات والتفسيرات . وقد كانت آخر كلمة له : لقد أصبحت لنا قضية يمكن أن نترافع فيها ، ونجد الحجة القاطعة . وكان آخر ردلى على كلمته هذه أن قلت : إنك حين تترافع فى قضية أمام قاض تجد الصيغة التنفيذية التى تلزم البوليس والجند ورجال الضبطية القضائية ، أن ينفذوا الحكم . ولست أصدق أن الولايات المتحدة تحارب إنجلترا لتحملها على الجلاء عن مصر» .

والتأمل فيما أثارته شروط ولسن من آمال فى كل مكان ، وتصور الناس ، أن تحقق هذه الشروط ممكن ، وأن المنادى بها والداعى إليها ، هو المسيح ، يكشف عن مدى ما فى النفوس من حب صادق للسلام ، وحرص حقيقى عليه ، وتطلع متلهف إليه . وهذا الحب ، قوة ، يمكن أن تواجه القوى الأخرى التى تجيش بها النفوس ، قوى الحقد ، والرغبة فى الاستعلاء ، والميل إلى التحطيم والتدمير والتلذذ برؤية الأعداء ، يتعذبون ، والبحث عن أسباب العداوة ، وتضخيمها وتهويلها .

ولكن القوى الإنسانية الدافعة إلى السلام ، لا تجد من يدعمها ، ويكشف عنها ، ويغذيها ، بل بالعكس تجد دائماً ، وفى جميع الأوطان والمعسكرات ، النكاية بها ، والهزء بالداعين إليها ، ونعتهم إما بالخيال وإما بالضعف ، وإما بسلامة النية والسذاجة ، وعلى أحسن الفروض بسبق الأمور قبل أوانها .

كانت إذن مبادئ ولسن ، أملا عظيماً ، سعد به الناس زمناً لم يطل ، كما سعدوا بفكرة إنشاء عصبة للأمم .

ولكن هل تحقق هذا الأمل ؟ ، وهل كسب الناس من عصبة الأمم شيئاً ؟ .

أما أن الأمل تحقق ، فلا ، ولقد ذكر الناس لتحطم هذا الأمل الجميل أكثر من سبب .

فمن قائل إن نقطة الضعف الوحيدة فى مركز الرئيس ولسن ، هى أنه لم يكن يمثل جميع مواطنيه . فقد كان من الحزب الديموقراطى فى الولايات المتحدة ، بينما كانت الأغلبية فى مجلس الشيوخ للحزب المعارض ، وهو الحزب الجمهورى . ومجلس الشيوخ ، هو المجلس الحاكم فى الولايات المتحدة .

ويقولون إنه أخطأ إذ أنه حينما سافر إلى باريس ، ليحضر مؤتمر الصلح ، وليدعو إلى شروطه ولينفذها لم يصحب معه أحداً من زعماء الحزب المعارض ، ولم يشركهم معه فى تلك المفاوضات ، فقد كان مثل هذا العمل كفيلا بأن يخفف من حدة المعارضة التى قامت فى وجه معاهدة الصلح التى أبرمت ، والتى كان ميثاق عصبة الأمم التى اقترح كوسيلة لمنع الحروب فى المستقبل جزءاً منها .

ويقول آخرون إن الرئيس ولسن كان هو فى ذاته نقطة الضعف فى مبادئه ، فقد كان رجلا مثالياً حالماً ، وكانت بلاده قد عاشت حقباً طويلة من الزمن فى عزلة رفيعة ، لا تعرف شيئاً من مشكلات السياسة ولا تخوض كثيراً ، فيما تخوض فيه دول أوربا ، من مؤامرات ، ودسائس . ولذلك فقد وقع فى براثن رجلين ، حنكتهما صروف السياسة ، ومرنوا على المناورة ، واللاعب السياسى البارع ، هما لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، المحامى البارع والخطيب الساحر ، والسياسى الحاذق ، وجورج كليمنسو رئيس وزراء فرنسا الذى عرف (بالنمر) ، لشدة بطشه بخصومه ، ولم يكن فى وسع ، ودرو ولسون ، المثالى المتحفظ ، أن يبطل سحر هذين الساحرين ، ولا أن يغلب حججهما ، وقد أخذا يستعجلانه فى إبرام معاهدة فرساى ، مدخلين الخوف إلى قلبه من أن الإبطاء فى توقيعها ، إفساح للفرصة للشيوعية والفوضى ، فى أنحاء مختلفة من العالم ، بسبب ما تعانيه جموع الناس فى مختلف الدول ، من فقر وسوء حال . والحق أن أول من خان مبادئ ولسن الأربعة عشر كان ولسن نفسه ، وعندنا نحن المصريين الدليل الذى لا ينتقض فقد اعترف ولسن بالحماية البريطانية على مصر ، وكان هذا الاعتراف ، دوساً بالأقدام على أكبر مبادئ ولسن ، وهو مبدأ تقرير المصير .

والحق أننا لا نرى فيما فعله ولسن ، من التبشير بمبادئ جديدة ، ثم تصور القدرة على الوقوف إلى جانبها ، ثم خيانة هذه المبادئ ، شيئاً غريبا . فولسن لم يكن زعيماً ولا مبشراً ، ولا نبيًّا ، وإنما كان فى مكان ، هو أسوأ الأماكن جميعاً ، للدعوة إلى مبادئ والتبشير بها . قد كان على رأس دولة من أكبر الدول وأغناها . ويكفى أن يكون الداعى إلى المبادئ الجديدة ، رئيس دولة كبيرة ، حتى يمكن التنبؤ ، بأنه سيلقى من اعتبارات السياسة ، ومصالح دولته ، ما يلجؤه إلى الانحراف عن المبادئ التى يدعو هو إليها . وقد كررنا هذا القول فى هذا الكتاب ، فى أكثر من موضع .

وقد كان الوقت الذى أذيعت فيه المبادئ الولسنية أسوأ الأوقات ، وأبعدها عن أن يصلح لبذر بذور هذه المبادئ ، فقد أذيعت هذه المبادئ ونيران الحرب تتلظى وتتأجج ، فلما أعلنت الهدنة ، كانت الأحقاد ، والكراهية ، على أشدها ، وكان من أفادوا من هذه الهدنة ، واعتبروا بعدها ظافرين ، متلهفين على شفاء حقدهم ، والانتقام لما أصابهم من خسائر وكوارث .

ولم يكن هؤلاء ملومين ، فهم أناس فيهم ضعف البشر ، كانوا قد خرجوا توًّا من أتون الحرب ، ولم يكن يطرق أسماعهم لسنين طويلة ، سوى الدعوة إلى الكراهية ، والنداء إلى القتل ، فانتقالهم فى الحال ، وهم بين جريح ، أو كسيح ، أو مصاب فى ابنه أو أبيه أو زوجته أو بيته أو صحته ، إلى جو التسامى والتسامح ، بلا تمهيد مساو على الأقل ، للتمهيد الذى سبق الحرب ، وسبق كل معركة من معاركها أمر مستحيل .

وأكثر استحالة من هذا الانتقال ، أن يبدى رؤساء الوفود من الدول المختلفة ، تسامحاً مع الأعداء أو تساهلا فى طلب الأسلاب والمغانم للحكومات التى يمثلونها ، فإن هؤلاء الرؤساء ، لم يكونوا سوى زعماء أحزاب ، وكانت الأحزاب المعارضة ، واقفة لهم بالمرصاد ، تريد أن تقع على مظهر واحد من مظاهر التراخى أو التفريط أو التساهل لتنقض عليهم ، فإذا لم تجد شيئاً من هذا ، ادعته وأقامت الدليل على حصوله .

فالخروج بالإنسانية ، من غابة الحرب ، إلى واحة المودة والإخاء الإنسانى فى

أعقاب هذه المجزرة ، كان خيالا فى خيال . وكان الساسة الذين اجتمعوا فى قرساى ، على مقربة من باريس لائقين لكل شىء ، إلا أن يضعوا أساساً لسلام دائم ، أو لسلام طويل العمر ؛ لذلك كانت عصبة الأمم ، وهى وليد هذا المؤتمر ، وما صاحبه من مفاوضات ، وما سبقه من مناورات ، ومداورات ، صورة طبق الأصل للمؤتمر ذاته وبجوه .

* * *

ولم تكن عصبة الأمم ابتكاراً من الرئيس ولسن ، بل كانت فكرة ساورت غيره من الساسة . وقد كانت وحدها ، أهم ما تمخضت عنه اتفاقيات الصلح التى تلت حرب سنة ١٩١٤ التى انتهت بإبرام الهدنة فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ .

فمبدأ تقرير المصير ، لم يحترم إلا حيث اتفق مع مصلحة الحلفاء الغالبين ، وكانت مصلحة هؤلاء المنتصرين ، فى تفكيك أوصال الإمبراطورية النمساوية ، وفى إهاضة أجنحة الإمبراطورية الألمانية ، وفى تطويق روسيا التى أصبحت شيوعية ، وفى تمزيق الإمبراطورية العثمانية .

أما حيث اعترض تقرير المصير مصلحة هؤلاء المستعمرين الظافرين ، فقد ديس بالأقدام ، فلم تظفر دولة خارج أوربا ، فى آسيا أو فى أفريقيا بحريتها ، بل إن ما عانته هذه الأمم التى أعانت الحلفاء بدماء أبنائها وثروات بلادها ، زاد بعد الحرب ، واشتد ؛ فثبت أن الحديث عن الحرية ، وعن منع أسباب الحروب ، كان وسيلة من وسائل الحرب ، لا هدفاً من أهدافها ، ولا غاية من غاياتها .

فالذين اكتووا بنار الحرب وعذبوا فيها من أهل أوربا ، لم يتعلموا درساً واحداً من دروسها ، فكان لابد أن تقوم حرب أخرى ، أوسع نطاقاً ، وأشد ضراوة ، وأفدح ضرراً ، وأطول عمراً ، وهو ما وقع بعد ذلك .

على أن الذى يهمنا نحن الآن هو الحديث عن عصبة الأمم باعتبارها تجربة من تجارب البشر ، فى خلق أداة تحافظ على السلام ، وترسى قواعده ، مبقين الحديث عن تسوية ما بعد الحرب ، إلى موضع آخر من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

عصبة الأمم

كلما طحنت الحرب الناس ، والأمم ، وهدمت ، وأحرقت ، وخربت ، تساءل المفكرون والساسة ، أيمكن أن يتكرر هذا مرة أخرى ، ولذلك كان من الطبيعى ، أن تساور الناس ، فكرة خلق نظام مانع من نشوب الحروب ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وقد عرف تاريخ القانون الدولى عدداً من المشروعات المختلفة لخلق هذه الأداة ، ولكن الأمل فى إمكان إيجادها ، قد زاد حينما وجه ولسن إلى مجلس الشيوخ الأمريكى خطاباً فى ٢٢ من يناير سنة ١٩١٧ قال فيه إنه بات من المحتم خلق أداة تضمن دوام السلام بحيث تكون أقوى من أى شعب ، أو من أية مجموعة من الشعوب متحالفة ، ذلك لأن السلام الدائم ، لا تحميه إلا قوى البشر المنظمة ، والحق أن فكرة ولسن ، كانت تخالف المشروعات الأخرى الإنجليزية والأمريكية والهولندية والفرنسية ، ومشروع الجنرال سمطس ، فهذا الآخير لم يفكر فى خلق أداة للوساطة والتحكيم أو التوفيق ، بل أراد العصبة كحارسة وحامية لسلام دائم ، يقوم على إرادة الدول وقواتها .

أما المشروع الأمريكى — وهو غير مشروع ولسن — فكان يهدف إلى إنشاء هيئة قضائية تسمع وتحكم ، إذا كان موضوع الخلاف قابلاً لحكم القضاء ، فكل نزاع لا تتم تسويته بالطرق الدبلوماسية يرفع إلى هذه الهيئة القضائية ، أما إذا أعلنت إحدى الدول الحرب على دولة أخرى قبل رفع النزاع إلى الهيئة ، فالدول الأخرى تتبادل الرأى فيما تتخذ من إجراءات حربية أو اقتصادية ضد ذلك العضو .

أما المشروع الهولندى فقد هدف إلى جعل مؤتمر لاهاى هيئة تحكيم دائمة ، وكان هذا المؤتمر قد بدأ انعقاده فى سنة ١٨٩٨ ، بناء على دعوة من وزير خارجية

روسيا إلى الدول لبحث الوسائل التى يجب اتخاذها للمحافظة على السلام وخفض السلاح ، ولم تسفر مداولات هذا المؤتمر عن شىء ذى قيمة ، إلا بإقرار مبدأ التحكيم وإنشاء هيئة تحكيم دائمة ، يختار كل عضو من الأعضاء المتنازعين اثنين من قائمة تعد مقدماً بأسماء أشخاص صالحين للتحكيم من رجال القانون الدولى ذوى السمعة الطيبة ، ويجوز لهؤلاء الأعضاء الأربعة أن يختاروا معهم عضواً خامساً . وقد نجح هذا المؤتمر كذلك فى إنشاء لجان تحقيق ، تتولى فحص الحقائق والبيانات الخاصة بما يثور بين الدول من منازعات ، وهذه الهيئات سواء كانت للتحكيم أو للتحقيق ، وإن كان اللجوء إليها ، اختيارياً ، إلا أنها كانت بداية لفكرة فض المنازعات بين الدول بالتحكيم عند العجز عن تسويتها بالوسائل السياسية .

ولما كانت لاهاى فى هولندا ، فقد تأثرت العقلية الهولندية ، بمؤتمر لاهاى وقراراته ، ومالت إلى تعزيز هذا المؤتمر ، بجعل اجتماعاته دورية ، والارتفاع به إلى مستوى منظمة دائمة تضم هيئة تحكيم دولية ولجان تحقيق ، ومجلساً دولياً للتوفيق والوساطة ، مع تقرير مبدأ إلغاء المعاهدات السرية ، وإخضاع السياسة الخارجية فى كل دولة لمجالسها النيابية إخضاعاً حقيقياً تحريراً لها من نزوات رؤساء الدول ، وأطماعهم الشخصية ، وتخويل هذه المنظمة حق فرض جزاءات على الدول المخالفة .

وفى سنة ١٩١٨ نشر الجنرال سمطس كتيباً دعا فيه إلى إنشاء هيئة ، تتكون من مؤتمر عام يضم الدول المتعاقدة على أساس المساواة بين أعضائها ومجلس وهيئة تحكيم . على أن يكون مجلس تلك الهيئة بمثابة الإدارة التنفيذية للمنظمة الدولية ، ويختص بإدارة الأملاك العامة كالبحار والأنهار والمضايق والبلدان المختلفة ، اقتصادياً ، وسياسياً ، واجتماعياً . وتقتصر العضوية فيه على الدول العظمى ، مع ممثلين للدول الأخرى يختارون بالتناوب ، وفق نظام دورى . وقد جاء فى هذا الكتيب : الدعوة إلى منع التجنيد الإجبارى ، وتأميم مصانع السلاح والذخيرة . كما دعا إلى التحكيم بين الدول ، وجعله إجبارياً فى كل الخلافات السياسية . كما اقترح أن يكون من اختصاصات المجلس تطبيق العقوبات على المعتدين ، وهى عقوبات ذات طبيعة اقتصادية كالحصار البحرى والمقاطعة المالية .

وفى نفس السنة تشكلت لجنة فى إنجلترا برياسة أحد قضاتها وهو السير والتر فيليمور الفقيه المشهور فى القانون الدولى وعضوية بعض فقهاء القانون الدولى والدستورى والقانون الدولى البحرى وثلاثة من كبار موظفى وزارة الخارجية البريطانية ، وقد قدمت هذه اللجنة تقريرها فى ٢٠ من مارس سنة ١٩١٨ وقد رفض هذا التقرير فكرة إلزامية التحكيم بين الدول ، كما رفض فكرة إنشاء هيئة دولية دائمة ، مكتفياً بإنشاء هيئة تدعى عند حالة التهديد بالحرب . مع تعهد الدول المتعاقدة على إنشاء هذه الهيئة بعدم اللجوء إلى الحرب إلا بعد عرض النزاع عليها ، كما تتعهد كل دولة بألا تحارب الدولة التى يقع منها نزاع إذا رضخت الأخيرة لتوصيات لجنة التحكيم . وخلا هذا التقرير من أى مقترحات بشأن تخفيض التسليح ؛ فقد كانت الغاية من هذه المنظمة عند مقترحيها هو إقامة مؤتمر علنى ، تناقش فيه المنازعات الدولية بصراحة ووضوح فيستنير الرأى العام ويعرف أصل المشكلة ، ويتبين من المخطئ ، ومن صاحب الحق . وبذا يتكون رأى عام عالمى ، يصعب تحديه .

وقد أسندت الحكومة الفرنسية بدورها ، موضوع دراسة الأداة الدولية لمنع الحروب ، إلى لجنة برياسة المسيو ليون بورجوا ، فوضعت مشروعاً وقدمته للحكومة فى يونيه ١٩١٨ .

وقد أوصى مشروع بورجوا بأن تقتصر الهيئة الدولية المقترحة على الحلفاء : حلفاء بريطانيا وفرنسا وحدهم ، ثم يسمح بدخول المحايدين الذين لم ينضموا إلى أحد المعسكرين ، كسويسرا والسويد وأسبانيا والبرتغال ، أما دول المعسكر المعادى المكون من ألمانيا وحليفاتها ، فلا يسمح لأحد منها بالدخول فى المنظمة الدولية إلا بعد أن تقدم الدليل على حسن سلوكه الدولى ، وشعوره بالندم الصادق على ما فرط منه فى حق السلام ودول الحلفاء .

وقد فرق التقرير بين منازعات ذات صبغة قضائية ،فهذه تعرض على محكمة دولية ، ومنازعات ذات الصبغة السياسية ، تعرض على المنظمة لتقضى فيها بقرارات ، فإذا لم تحترم قراراتها ، نفذت جمعية الأمم ، هذه القرارات بإكراه العضو الممتنع على تنفيذها وذلك ، بتوقيع العقوبات السياسية والاقتصادية والعسكرية . ومن ثم ، فقد أوصى التقرير بإنشاء قوة دولية تابعة للجمعية .

ولكن المشروع الذى كتب له النجاح ، كان مشروع ولسن[١] الذى تكون من ست وعشرين مادة ، وقد صمم ولسن على أن تصدر كل معاهدة من معاهدات الصلح بهذا المشروع ، بحيث يكون جزءاً لا يتجزأ من تلك المعاهدات ، وبفضل نفوذه أنجز العمل فى الميثاق فى مدة لا تتجاوز شهرين سبقتا العمل فى معاهدات الصلح ذاتها . وقد أعلن هذا المشروع أن أغراض العصبة هى توثيق التعاون الدولى بضمان السلم والأمن الدولى ، وأن السبيل إلى تحقيق هذه الغاية هو قيام العلاقات بين الدول ، بعيداً عن السرية ، وفى جو من الوضوح والعلانية ، وعلى أساس من العدل والشرف ، مع احترام كل منها لأحكام القانون الدولى وقواعده ، والتزامها لتلك الأحكام والقواعد فى مسلكها . مع توخى تحقيق العدل ، واحترام التعهدات التى تبرم فى المعاهدات ، هذا كله مع التزام الدول التزامات معينة حتى يصبح اللجوء إلى الحرب مستحيلا .

وقد رفض هذا المشروع ، قصر عضوية البعض على الحلفاء المنتصرين وحدهم ، فقد ترك للدول حرية الانضمام إليها ، فلم تكن تلك العضوية إلزامية . ولكن هذه العضوية كانت من ثلاثة أنواع : فالدول المكونة للعصبة إما أن تكون مؤسسة وهى التى وقعت على ميثاق العصبة ، وإما دول ذكرت فى ملحق ميثاق العصبة سمح لها بالانضمام خلال شهرين . وإما منضمة وهى دول مستقلة (دول ، أو ممتلكات ، ومستعمرات ذات حكم ذاتى) على أن عضويتها معلقة على موافقة ثلثى الأعضاء على قبولها . مع تقديم ضمانات على احترامها لجميع الالتزامات التى يرتبها الميثاق .

وقد نص الميثاق على أنه يجوز للأعضاء (أصليين ، ومنضمين) أن ينسحبوا من العصبة ، إذا أخطروا الأمانة العامة بهذه الرغبة ، قبل موعد الانسحاب بسنتين . أما إذا أخلت الدولة بالتزاماتها ، وخرجت على الميثاق نصاً أو روحاً ، جاز طردها .

وقد كانت الأجزاء الإدارية ، للعصبة ثلاثة : جمعية عامة ، ومجلس ، وأمانة عامة .

---

(١) فى ١٢ يناير سنة ١٩١٩ اجتمع مؤتمر الصلح لأول مرة وتألفت لجنة لصياغة مشروع الهيئة الدولية المقترحة وبناء على ما تقدم به لورد روبرت سيسل أقر مجلس العشرة فى ٢ ديسمبر والمؤتمر بهيئته الكاملة فى ٢٥ منه إنشاء العصبة .

وتتألف الجمعية العامة من جميع مندوبى الدول ، ويمكن أن يكون لكل دولة ثلاثة مندوبين ، ولكن لا يزيد صوت الدولة — بالغاً ما بلغ قدرها — عن صوت واحد — وتنعقد الجمعية العامة مرة كل عام ، ولكن يجوز عند الضرورة ، أن تجتمع اجتماعات أخرى ، وتصدر قرارات الجمعية العامة بالإجماع فى المسائل الموضوعية ، أما فى المسائل الإجرائية ، فتصدر بالأغلبية .

أما مجلس العصبة ، أو هيئته التنفيذية ، فيتكون من طائفتين من الأعضاء : طائفة الأعضاء الدائمين وقد كانوا أول الأمر خمسة هم بريطانيا (المملكة المتحدة) وفرنسا وإيطاليا و روسيا واليابان ، ثم زيد إلى ستة حينما انضمت ألمانيا إلى عضوية العصبة سنة ١٩٢٦ . وقد كان عدد الأعضاء غير الدائمين أربعة ثم أصبحوا تسعة تنتخبهم الجمعية العمومية بالتناوب . ويمثل العضو الدائم فى المجلس مندوب واحد ، وللدول غير الممثلة فى المجلس ، أن توفد من يتحدث باسمها إذا عرض عليه أمر يخصها . ويصدر المجلس قراراته — كالجمعية العامة — بالإجماع فى المسائل الموضوعية ، وبالأغلبية فى المسائل الإجرائية . ولا تحسب أصوات الدول المتنازعة ، عند التصويت ، إذا كانت عضواً فى مجلس العصبة عند طرح النزاع عليه .

والهيئة الثالثة من هيئات العصبة ، هى الأمانة العامة ، ويتولى رياسة هذه الأمانة ، أمين عام يعينه المجلس بالإجماع ، وتقر تعيينه الجمعية العامة ، ويعاون هذا الأمين عدد من المساعدين والموظفين ، يعينهم الأمين بنفسه ، ولكن تحت موافقة المجلس .

والأمين العام — كما يدل عليه اسمه — هو الذى يقوم بتحضير أعمال الجمعية والمجلس وينفذ قراراتهما ويقوم بحفظ أوراق وسجلات الجمعية ، ويتصل بالدول الأعضاء ، وينشر المعاهدات .

ولم تخرج أغراض العصبة ، عما تردد فى المشروعات المختلفة ، فقد نص ميثاق العصبة على تخفيض السلاح ، وتسوية الخلافات الدولية ، بطريقة سلمية ، وعلى احترام الدول لسلامة أقاليم الدول الأخرى ، وضمان هذه الدول والاستقلال ، السياسى لتلك الأقاليم . ونص على تحريم سرية المعاهدات بوجوب نشرها وتسجيلها فى أمانة العصبة ، فإذا لم يتم النشر والتسجيل ، فقدت المعاهدة قوتها الإلزامية .

كما نص على حق الجمعية العامة ، فى دعوة الدول ، من حين إلى حين ، لإعادة النظر فى المعاهدات التى أصبحت غير صالحة للتطبيق لتغيير الظروف التى أبرمت فى ظلها ، بحيث يصبح الاستمرار فى التزامها مع تغير ظروف الملابسة لتوقيعها سبباً للحرب ، أو لإثارة المنازعات . كما نص الميثاق على أن الدول الموقعة عليه تتعهد بإلغاء المعاهدات المنافية لأحكامه ، وتتعهد بعدم إبرام مثلها فى المستقبل .

وقد نص قانون العصبة على جزاءات ، تتوسل بها لإرغام الأعضاء المخالفين لقراراتها والخارجين على ميثاقها ، وهذه الجزاءات اقتصادية وعسكرية . فالاقتصادية هى قطع العلاقات مع الدول المذنبة ، سواء كانت علاقات تجارية أو مالية ، وسواء كانت العلاقات بين الدول والدولة المعتدية ، أو بين رعايا الدول الأعضاء ، ورعايا تلك الدولة .

فإذا لم تجد هذه الإجراءات جاز للمجلس أن يوقع عقوبات عسكرية ، أو يتخذ إجراءات حربية ، على أن يحدد المجلس نصيب كل دولة فى هذه الإجراءات الحربية .

ولدت العصبة ، بعد أن عقد أول اجتماع لها بباريس فى ١٥ من يناير سنة ١٩٢٠ ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل نهاية ١٩٢٠ ، وكانت أملاً يساور الناس ، وحلماً يشاغل عقولهم ، فهل حققت شيئاً مما عقدته الشعوب عليها من آمال ؟

لقد أجاب التاريخ على هذا السؤال بما لا يدع مجالا للشك

فالدول لم تكف عن التسلح ، والتنافس فيه ، والحروب لم تنقطع أسبابها ودواعيها ، بل وقعت أكثر من حرب وميثاق العصبة ، بعد ، ونشبت حروب أخرى ، وحبر الميثاق لم يجف . فقد قامت الحرب التركية — اليونانية [1] (١٩١٢ — ١٩٢٢) وقامت الحرب اليابانية — الصينية [2] (١٩٣١) وقامت الحرب الحبشية — الإيطالية (١٩٣٥) وقامت الحرب الأهلية — الأسبانية التى تحولت

---

(١) نزلت الجيوش اليونانية فى أزمير فى ١٥ إبريل سنة ١٩١٩ .

(٢) انتهزت الحكومة اليابانية فرصة انفجار قنبلة على سكة حديد منشوريا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ فزحف اليابانيون فى ١٨ سبتمبر من كوريا إلى منشوريا .

إلى حرب دولية (١٩٣٦) . . ثم استولت إيطاليا على ألبانيا (أبريل سنة ١٩٣٩) وضمت ألمانيا السوديت والنمسا ، واستولت على تشيكوسلوفاكيا كلها قبل أن تعلن الحرب العالمية الثانية فاستولت على النمسا فى ١٢ من مارس سنة ١٩٣٨ واستولت على السوديت فى أول أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، وتدفقت الجيوش الألمانية على تشيكوسلوفاكيا حتى وصلت براغ فى مارس سنة ١٩٣٩ وفى ٧ من أبريل من نفس السنة استولى موسولينى على ألبانيا .

لم يكن أحد فى حاجة إلى من يدله على مصير عصبة الأمم ، فلو لم يقل نيفل تشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٣٨ : « إن عصبة الأمم ، كما تتألف اليوم ، عاجزة عن تدبير الضمان الجماعى لأى عضو من أعضائها ، لذلك لا ينبغى أن نخدع الأمم الصغيرة الضعيفة فى الاعتقاد بأن عصبة الأمم تستطيع أن تحميها من الاعتداء » .

ويتبارى رجال القانون الدولى ، والساسة ، ومؤرخو التاريخ السياسى لأوربا والعالم ، فى بيان أسباب فشل عصبة الأمم ، والحق أن الأمر لا يحتاج إلى هذه المباراة فعصبة الأمم ، لم يكن فى مقدورها أن تغير شيئاً فى العالم ، لأنها ليست شيئاً منفصلا عن الظروف السائدة فى أوربا ، منذ بدء ميلادها ، حتى توفاها الله ، بل إنها كانت ثمرة الحرب العالمية الأولى ، ثم ثمرة ما أسفرت عنه هذه الحرب ، وبقيت فى مهب الريح الدولية ، كريشة ضعيفة ، ترتفع وتنخفض ، وتتقلص وتتلوى ، بفعل الأطماع والمؤامرات ، والخطط المرسومة .

ولكن قد يحسن — من قبيل التسجيل التاريخى — أن نورد ما اعتاد الكتاب أن يوردوه من أسباب فشل عصبة الأمم .

وأول ما درجوا على ذكره فى هذا الصدد أن عصبة الأمم ، لم تكن قط عصبة أمم ، بل كانت عصبة دول . فلم يكن ثمة سبيل لسماع رأى الأمم ، والشعوب فيها . فالكلمة فيها للدول ، والدول خاضعة لسياستها التقليدية القائمة على تأمين أسباب الأمن القومى ، وتحقيق الأطماع الوطنية . فالعصبة كانت ندوة للساسة الخاضعين بدورهم ، لما تقتضيه المناورات الحزبية فى بلادهم ، والمعارك البرلمانية ، والعاملين على ترضى الشعور الوطنى المتطرف ، بغية المكاسب الشخصية واستبقاء الحكم .

وقد كان البعض يتوقون إلى تأليف عصبة من علماء الدول ومفكريها وأساتذة جامعاتها ورجال القانون وفلاسفتها إلى جانب رجال السياسة والخبراء العسكريين والاقتصاديين ، وهو خيال جميل ، ولكنه من قبيل وضع الحصان خلف العربة ، إذ أن الدول لن تسمح بتمثيلها بمفكريها وعلماء القانون والحكماء ، إلا بعد أن تبرأ من الأطماع التوسعية والخوف على مكانتها وممتلكاتها الخاصة . فتغير نظرتها للحرب والسياسة هو الأساس ، وإذا تغيرت نظرتها هذه ، فلن يختلف الأمر ، سواء مثلها الساسة أو العلماء ، لأن العيب لا يقع فى ممثلى الدول ، وإنما يقع فى سياسة هذه الدول ذاتها .

ومن العيوب المتعارف عليها فى الكتب التى أرخت للعصبة ، أن عصبة الأمم ، لم تكن عصبة أمم عالمية ؛ فلم يكن ممثلا بها غير أربع وأربعين دولة ، فكانت عصبة أمم أوروبية ، فإن الولايات المتحدة ، التى صمم ممثلها ودرو ولسن على وجوب إعداد ميثاق هذه العصبة قبل أن يباشر مؤتمر السلام فى فرساى ، أى عمل آخر ، والذى صمم كذلك على أن يتصدر الميثاق جميع معاهدات السلام ، وأن يكون جزءاً منها لا يتجزأ عنها ، كانت هى أول دولة ، ضربت هذه العصبة ، وهى لا تزال فى المهد ، فقد رفضت الولايات المتحدة التوقيع على معاهدات الصلح ، وعلى إقرار ميثاق العصبة ، ورفضت أن تشترك فى عضويتها .

وبسبب الحرب اليابانية الصينية التى نشبت فى سنة ١٩٣١ ، خرجت اليابان من العصبة فى سنة ١٩٣٣ ، وخرجت إيطاليا من العصبة فى الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٩٣٧ . وكان وجود اليابان ، المظهر الوحيد الذى يضفى على العصبة صفتها الدولية وباعتبارها دولة آسيوية ذات نفوذ حقيقى وقوة عسكرية يحسب لها حساب ، وقد مر بنا أن مجلس العصبة كان مكوناً من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والروسيا واليابان .

وقد بقيت الروسيا بعيدة عن العصبة بعد نشوب الثورة السوفيتية فيها فى أكتوبر سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٣٤ ، مع أن جميع الدول الكبرى ، كانت تتبادل التمثيل مع الاتحاد السوفيتى .

كذلك بقيت ألمانيا خارج صفوف العصبة حتى انضمت إليها فى سنة ١٩٢٦ ،

ولكنها ما كادت المانيا تدخل إلى العصبة من باب ، حتى خرجت أسبانيا[1] والبرازيل من باب آخر ، إذ كان كل منهما طامعاً فى مقعد دائم فى المجلس فلما لم ؛ تظفرا بما طلبتا خرجتا احتجاجاً ، وكانت بولندا موشكة على الخروج لأنها طلبت ما طلبتاه ، ولولا أنها منحت عضوية دائمة لما بقيت .

وهذا ما يعتبر عند الكثير من المؤرخين العيب الثالث فى العصبة ، ذلك لأنهم قالوا إن العصبة بهذا التشكيل كانت عصبة الدول المنتصرة ؛ فهى التى أعدت ميثاقها ، وهى التى أبرمته وهى التى احتلت مقاعد الرياسة فى العصبة ، أى احتلت مقاعد مجلس العصبة ، الذى كان يديرها ويوجه سياستها .

ويقولون إن هذا العيب كان أسبق العيوب ، وأخطرها ، إذ لم تدع ألمانيا ، والنمسا ، وتركيا ، وغيرها من الدول التى هزمت ، إلى إبداء رأيها فى ميثاق العصبة ، مع أن العصبة لم تولد — على الأقل على رأى الذين دعوا لإنشائها — لاستبقاء الأحوال السائدة قبل حرب سنة ١٩١٤ ، ولا لتكون امتداداً للحرب نفسها ونتائجها ، بل لتحول دون نشوب حرب أخرى ، ولتعفى على آثار الحرب ، وتعمل على أن تندمل الجروح ، وتزول الندوب وتبرأ النفوس من آثار الحقد والكراهية التى خلفتها الحرب ، ونتائجها .

وقد انقلب ما ظنه ولسن ضماناً لفرض ميثاق عصبة الأمم ، على الدول الموقعة لمعاهدات الصلح فى أعقاب حرب سنة ١٩١٤ ، إلى عكس الغاية منه ، فقد كان إدماج ميثاق العصبة فى هذه المعاهدة سبباً فى جعل الميثاق كريهاً إلى الأمم المغلوبة ، كراهية تلك المعاهدات التى قررت هزيمتها وإلزامها بضرائب المهزوم ، والعقوبات التى فرضها الغالب . وبدلا من أن يقف الميثاق وحده عالياً فوق ذكريات الحرب ، وعواقبها ، أصبح جزءاً من هذه الحرب ، ومعركة من معاركها ، بل عقوبة من عقوباتها ، وقد زاد شعور الدول المهزومة بذلك ، لا لأنها لم تدع فقط إلى المشاركة فى وضع الميثاق ، بل ولم يسمح لها بالدخول إلى العصبة ، مع أن الأنظمة السياسية

---

(١) شق الجنرال فرانكو عصا الطاعة على الحكومة الجمهورية (الشيوعية) فى ١٨ من يوليو سنة ١٩٣٦ على رأس القوات الأسبانية المرابطة فى مراكش وقد استمرت الحرب الأسبانية الأهلية حتى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٩ .

التى خاضت الحرب فى ألمانيا والنمسا وتركيا ، زالت بهزيمتها فى الحرب ، وحلت محلها أنظمة حاولت جهدها فى أن تشيع روح المسالمة فى أبنائها محل روح العنف .

ولكننا لا نرى أن الأمر كان سيتغير لو أن ألمانيا والنمسا وكل الدول المهزومة شاركت فى وضع الميثاق ، أو لو كان لميثاق العصبة ، وجود مستقل عن معاهدات الصلح ، أو لو دعيت الدول المهزومة إلى دخول العصبة والانتظام فى صفوفها . صحيح أنه لو حدث شيء من هذا لكان دليلا على أن روح التعصب والرغبة فى الاستئثار بالقوة ، خفت عند الدول المنتصرة ، فمالت إلى مناقشة المشكلات بروح الإنصاف ، وسمحت للمغلوبين أن يجلسوا معها على منصة واحدة للنظر فى المستقبل ، والتعاون على خلق عالم جديد ، ولكن حتى هذه الروح لم تكتمل عند الدول المنتصرة.

ولا نجادل فى أن اشتراك الولايات المتحدة ، وروسيا ، منذ الأيام الأولى للعصبة ، كان كفيلا بأن يضفى على العصبة قوة أكثر مما كان لها ، وكان ذلك بدوره خليقاً بأن يمكن العصبة من حل كثير من المشكلات وربما أدى ذلك إلى أن يؤجل الحرب التى وقعت فى سنة ١٩٣٩ ، ولكن لم يكن ثمة شيء واحد من هذا كله كفيل بأن يمنع نشوب الحرب كلية ، إذ أن التغيير الذى كان مطلوباً هو تغيير فى العقلية ، لا فى الأساليب وفى الاعماق ، لا فى المظاهر . كانت الإنسانية فى حاجة إلى الإيمان بالوساطة ، والكفر بالعنف ، كوسيلة من وسائل البشر فى معالجة مشكلاتهم وحلها ، ولكن الإنسانية كانت بعيدة كل البعد عن الوصول إلى هذا المستوى العالى ، وهى لا تزال إلى اليوم بعيدة عنه ، وإن كان فى وسعها أن تصل إليه فى وثبة واحدة ، لأن هذا الإيمان مستقر فى ضميرها ، ولأنه متفق مع طبيعتها ، ولأنه الحل العملى الوحيد ، الذى لا ينفع حل سواه ، فى معالجة أزمة الإنسان التى تبدو أحياناً وكأنها بلا حل .

ولقد أحسن ويلز فى وصف إخفاق عصبة الأمم إذ قال :

« كانت عصبة الأمم منذ بدايتها الأولى عصبة محار بين منتصرين ، كما أن
« غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التى أقامتها معاهدة فرساى — وهى
« الحدود التى تحكمت فى رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل العواقب
« الاقتصادية التى تنجم عنها . ففرضت على المنهزمين كما أسلفنا مبالغ فادحة

« يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتى الخارجية « البريطانية والفرنسية قد اتشحت بغشاء شفاف من العبارات الرشيقة . حقاً إنه « لم تضم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من « الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت انتداب المنتصرين — وهى لفظة « مباركة — أنتجتها قريحتهم الوقادة ! فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها « لأصحاب الشأن . وحتى الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أى سماحة نفس فى اقتسام الغنائم « فيما بينهم . فنالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأشبعت مطامع إيطاليا واليونان « واليابان على أسوأ صورة ، ونكص الأحرار والاشتراكيون ببريطانيا العظمى والدول « الديموقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، « فأصيبت السياسة التقدمية فى العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاماً تقريباً .

« وكان الأطفال يعلمون فى بريطانيا العظمى مثلا ، أن العصبة تمثل العدالة « الدولية ، وتضمن السلام العالمى ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب « لتثبيت هذه الفكرة فى الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التى لم تحصل على نصيب « مرضٍ من الغنائم والطيبات التى وزعت بفرساى ، كانوا يتلقون غذاء عقلياً أقل « تهدئة للنفس . ولم تكد تنقضى عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج « حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نصفهم باسم المنتصرين الحمقى ، حتى أخذ « ملايين وملايين من الألمان والمجر والطليان واليابانيين بين أطفال وشبان يلقنون « دروساً توحى بضرورة إجراء تعديل عنيف فى تسوية جنيف . لقد شب هؤلاء « الأطفال فى عالم من الاضطراب الاقتصادى ، ذلك أن فيضاً متدفقاً من الاستياء ، « يسير كل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع « سنة بعد أخرى ، ولم يكن يفوت أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك « أن يتحقق أنه لا مفر من حدوث انفجار دولى جديد . ولكن وزارات الخارجية « المختلفة استمسكت بعناد بالمزايا الظاهرية التى اعتصرتها من الحرب العظمى » .

ولكن مما يقطع بأن أفراد البشر ، حتى ولو كانوا منتسبين لأمم مختلفة ، وكانوا يمثلون دولاً متنافسة ، توجهها سياسات متضاربة ، إذا اجتمعوا ، ولم يشعروا

بضغط السياسة عليهم ، استطاعوا أن يحققوا أخيراً كثيراً ، يقطع بهذا ما حققته عصبة الأمم فى مجالات الاقتصاد والاجتماع . وقد كان من أحسن ما حققته عصبة الأمم ، هو إنشاء مكتب العمل فى سنة ١٩١٩ ، بغرض المساهمة فى قضية السلام بإزالة الشرور والظلم والحرمان التى يتعرض لها فريق كبير من الناس مما يحدث قلقاً جسيما يتعرض معه السلام والوفاق فى العالم للخطر ، وقد كان هذا المكتب عملاً نموذجياً من الناحية الدولة ، من حيث تكوينه ، فإنه لم ينطو على العيوب التى انطوت عليها تنظيمات العصبة ذاتها ، فضم مثلا جميع الدول الراغبة فى الانضمام إليه حتى ولو لم تكن من أعضاء العصبة ، فقد كانت ألمانيا مثلا عضواً فى المكتب الدولى للعمل ، ولما خرجت البرازيل احتجاجاً على عدم منحها عضوية دائمة بمجلس العصبة ، لم تترك المكتب . وقد كان للمكتب الدولى خاصية أخرى ، أحق بلفت النظر ، وهى كونه غير قاصر على المنظمات الحكومية ، فإنه كان يضم ممثلين للعمال ولأصحاب الأعمال ، واللجنة الإدارية التى تدير المكتب تتكون من ٢٤ عضواً منهم اثنا عشر عضواً تعينهم الحكومات ، والباقون يمثلون العمال وأصحاب الأعمال .

ولو استطاع ممثلو الهيئات غير الرسمية ، أن يجلسوا فى عصبة الأمم ، كما استطاع ممثلو العمال ، وأرباب الأعمال ، أن يجلسوا فى مكتب العمل ، لسمع صوت فى هذه الحلبة الدولية ، أكثر براءة ، وأشد استقامة ، وأميل إلى الاعتراف بالحقيقة ، وأقدر على تسديد خطى الساسة ذوى المطامع ، ولكن تمنى مثل هذا ، كان تجاهلاً منا لطبيعة الأمور التى خلقت العصبة ، كأداة للمحافظة على النظام القائم ، لا نقضه ، وستر عيوب العلاقات الدولية ، لا فضحها .

وكما كان مكتب العمل الدائم ، عملا طيباً ، وإن لم يحقق شيئاً ذابال للعمال ، خصوصاً فى الدول الأفريقية والآسيوية وفى المستعمرات والمحميات الخاضعة لحكم الدول الكبرى ، كذلك كانت محاولات عصبة الأمم فى مكافحة المخدرات ، والرقيق الأبيض ، ولكن هذه الجهود أياً كانت ، فقد بلغت من تفاهتها ، إذا قيست بمقدار ما منيت به العصبة وأهدافها الأساسية من فشل وخيبة ، بحيث لا تستأهل الإشارة إليها ، إلا من حيث تحرى الأمانة فى تسجيل تاريخ العصبة . . .

فالعصبة — فى جملتها — لم تزد عن أن تكون أملا مخفقاً من آمال الإنسانية ،

وعلامة من علامات طريق الفشل فى الوصول إلى السلام ، لأن الطريق نفسه ، لم يكن قد شق للوصول إلى هذا الهدف ، وإنما شق الأقوياء طريقاً آخر ، ليقودوا منه ومن ورائهم الضعفاء ، وهم أكثر استسلاماً ، وأقل تمرداً ، إلى ما يحقق للسادة استمرار السيادة .

العصبة كانت وسيلة خداع ، وتمويه ، وتنويم . . خداع الأقوياء بعضهم لبعض ، وتمويه للحقيقة أمام الضمير الإنسانى المتطلع دائماً إلى السلام ، وتنويم وتخدير لأبناء الشعوب التى نفد صبرها ، وعزموا على القتال من أجل حقوقهم . .

الفصل السادس

المهاتما غاندى

خرج العالم من الحرب العالمية الأولى ، مثخناً بالجراح ، محطم النفس ، ينظر إلى مستقبله ، فى شك من أنه سينجح فى قابل أيامه ، فيما فشل فيه فى ماضيها ، وتساوى فى ذلك الفائزون والمهزومون ، فالمشكلات التى كانت فى انتظار أمم أوربا جميعاً ، بعد الحرب تشابهت فى طبيعتها وإن اختلفت فى درجتها : مشكلات البطالة ، والإسكان ، والاضطراب الاقتصادى المصحوب بالتمرد والسخط والقلق .

وفى وسط هذا الظلام الحالك ، كانت هناك نقطة واحدة منيرة ، لم يلتفت الناس إلى معناها تماماً إلا بعد أن مرت سنون كثيرة . ولم تكن هذه البقعة المضيئة ، وسط هذا السواد المطبق ، سوى حركة المهاتما غاندى فى الهند .

كان كل شىء قاطع الدلالة فى أن الناس لم يتعظوا بمجزرة سنة ١٩١٤ التى دامت أربع سنين كاملة وبضعة شهور ، بل إن أسباب الحرب العالمية الثانية ، ولدت مع الهدنة والصلح اللذين ختما الحرب العالمية الأولى . إذ لم يكد يلقى المتحاربون أسلحتهم ، حتى انهمك جيل جديد من الساسة والمفكرين ، فى إعداد شعوبهم ، لجولة جديدة من القتال . وكان وزر ذلك واقعاً بلا شك على عاتق الذين انتصروا : على بريطانيا وفرنسا وأمريكا . فقد عملوا جميعاً على أن يبيت المهزومون ، ولا شاغل لهم ، إلا الثأر للهزيمة .

وإذا كان هؤلاء المنتصرون قد أساءوا معاملة الذين غلبوهم على أمرهم ، فقد أساءوا إلى أمم أخرى كثيرة ، ساعدتهم وأعانتهم ، وبذلت لهم من دماء أبنائها ، ومن ثرواتها ، ومن سعادتها ، ما جعل هذا النصر ، أيسر وأقل كلفة . فالغلظة والقسوة والغطرسة وقصر النظر لم تكن طابع السياسة الفرنسية الإنجليزية مع ألمانيا والنمسا فحسب ، بل كانت طابع هذه السياسة الخرقاء والحمقاء ، مع شعوب آسيا وأفريقيا .

وقد كان كثير من هذه الشعوب محروماً من كل ما تعطيه الحياة من مقومات الوجود ، أو متع العيش ، أو أسباب الكرامة . كانوا محرومين من حريتهم ،

وفقراء وجوعى ، ومحتقرين ، ومحكوماً عليهم بالنبذ والمهانة . وقد كان ممكناً أن تبقى هذه الشعوب على هذا الوضع الذى يدنو بأهلها إلى مراتب الحيوانية لولا ظروف خارجة على إرادة حكومات أوربا التى تحكمهم . من هذه الظروف أن الحكومات الأوربية الحاكمة فى حاجة إلى موظفين صغار يقومون بالأعمال التى لا يمكن أن يقوم بها أهل أوروبا المتعالون ، فيصبح واجباً تهيئة هؤلاء الصغار للقيام بهذه الوظائف فى دواوين ومكاتب الحكام المستعمرين ، ولاسبيل إلى ذلك إلا ببعض التعليم تجود به الدول الحاكمة على بعض أبناء الشعوب المحكومة ، مما يضع فى أيدى الآسيويين والأفريقيين كتباً تصلهم بالعالم الفسيح ، وتحرك فى نفوسهم الكامن من نزعات التقدم والتحرر . وبسط نفوذ أوربا على المستعمرات ، يقتضى الحكام المستعمرين ، أن ينشروا لغتهم ، ونشر اللغة ، يؤدى إلى مزيد من اليقظة والتنبه . ونشر المسحية ، يضيف عدداً آخر من التواقين إلى الحرية والرقى[1] . ثم التنافس بين الدول الاستعمارية يقتضيهم ، أن يؤيد كل منهم حركة التحرر فى مستعمرات الآخرين ، وظروف الحرب ، تفرض على أهل أوربا ، أن يرسلوا فريقاً من أهل المستعمرات خارج بلادهم ، فيشاهدوا ، ويتأملوا ، ويتأثروا . وينتج من هذا كله ، تجمع بطىء لعناصر قادرة على مقاومة أهوال الحكم الاستعمارى وجرائمه ، وعلى الرغم من ضعف هذه العناصر ، وقلتها ، وانعدام خبرتها ، وإعجابها بثقافة المستعمرين ، وبنظامهم ، وقوتهم ، فإنها كانت كفيلة دائمة ، بإطارة صواب الحكام الأوربيين ، وبإهاجة غضبهم ، وبدفعهم إلى عمليات قمع جنونية توسع من دائرة الساخطين ، وتزيد من حركات التقدم والتحرر .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، وأصبح ممكناً أن ينكشف ظهر الدول الاستعمارية أمام شعوب أفريقيا ، وآسيا ، واضطرت تلك الدول إلى أن ترسل

---

(١) يقول سردار بانيكار فى كتابه « آسيا والسيطرة الغربية ص ٣٤٨ : إن (الإنجليز) كانوا يرون أن المجتمع الهندى كان فى طريقه إلى الانحلال وكانوا يرجون أن يزول من الوجود نتيجة لنشر هذه الأفكار الجديدة بين العامة فينجو سكان الهند جميعاً ويسلموا أنفسهم للمسيح. تلك هى الخطة العظمى التى جعلت المبشرين يتحمسون فى الدفاع عنها ،لكن ذلك الرجاء لم يتحقق . بل الواقع أنه بدلا من أن يؤدى تقدم التعليم بالإنجليزية إلى اعتناق الهند النصرانية ، فإنه لم يؤد إلا إلى إصلاح شامل الهندوكية وإلى عمل تفسير لمذاهبها الاعتقادية ؛ وأدى إلى تقوية مذهب الهندوكية على جمهرة الشعب تقوية عجيبة . وبذلك تكون نظرية التغلغل الفكرى إلى الطبقات الدنيا من الشعب قد انتهت إلى النقيض تماما .

إلى ميادين القتال ، عدداً لا يستهان به من أهل آسيا وأفريقيا واضطرت فى الوقت نفسه ، إلى بذل وعود سخية ، لتلك الشعوب بأن حالها ستتغير عند ما تضع الحرب أوزارها ،وأن نصيبهم فى المشاركة فى الحكم سيزيد ، وأن كثيراً من ألوان التضييق ، وضروب القمع سترفع . . وصدقت تلك الشعوب هذه الوعود ، وبذلت أغلى ما تملك — أرواح شبابها — عربوناً للمستقبل المأمول ، ثم وضعت الحرب أوزارها وبعد شبح الحرب ، وانتظر أهل آسيا وأفريقيا ، أن يتحقق الوعد ، فلم يجدوا إلا نسياناً له ، وإنكاراً ، ثم وجدوا تصلباً وتجهماً ، عندما طالبوا به ، ثم انقلب التصلب والتجهم ، إلى جحيم ، يفتح أبوابه ، لكل أفريقى أو آسيوى ، تسول له نفسه أن يذكر حكام أوربا ، بما قطعوه على أنفسهم من عهود . .

ولم يكن ينتظر أحد أن يقع فى أفريقيا وآسيا رداً على هذا الجحود المذهل ، سوى حركات عنف تستعين بما عساه يكون لدى الأفريقيين الآسيويين الفقراء ، من سلاح ضعيف ، مثلوم ، وقد وقعت تلك الحركات فعلا ، فقمعت بشدة ولم يكن هذا كله ، سوى تكثيف للظلام الذى يحيط بالإنسانية كلها ، ويحيق بمستقبلها الذى لم يكن وقتذاك ، يبشر بخير ، أى خير . . ولو اطردت خطوات أفريقيا وآسيا ، نحو الحرية على هذا المنوال ، لما كان ذلك شاذاً ، ولا خارجاً عن الطبيعى ، ولكنه كان يمثل خسارة فادحة للإنسانية ، ذلك لأن تشبه الشرق بالغرب ، ونقل أساليبه ، ومحاكاتها ، إهدار لنصف الإنسانية ، بل إهدار للإنسانية كلها ، باعتبار الإيمان بالضعف ، هو كفر بالعناصر الرفيعة فى الإنسان ، وتجديف بحقيقة رسالته .

ولكن النور لم يلبث حتى أضاء فى الظلام .

وقد أشعل مصباحه الوهاج ، رجل ، اجتمعت فيه وقتذاك ، كل خصائص الإنسان الذى ينتسب إلى هذا الوطن الفسيح : العالم .

فقد كان هندياً ، هندوكياً ، نشأ فى بيئة غارقة فى الماضى بتقاليده وتصوراته ومعتقداته وأساليبه ، ولكنه كان ثائراً ، خرج على دستور عائلته ومجتمعه ، والذى كان يقضى عليه ، بألا يخرج من قريته ، فضلا عن إقليمه كله ، ووطنه بأسره ، ثم يركب البحر ، ليمعن فى البعد عن الهند إلى حيث يقوم عالم آخر ، يتحدى كل ما يقوم عليه ، ويؤمن به ، المجتمع الهندى . .

ولم يكن سفر هذا الهندى الهندوكى ، من الهند إلى إنجلترا بأوروبا ، تحدياً للعائلة ، باعثه احتقاره لها أو كرهه إياها ، بل لأن نفسه ، كانت وعاء لحيوية تتفجر ، وتفور ، تدفعه ، إلى التطلع والتعلم ، والتغيير . ولما سافر إلى إنجلترا ، فتح نوافذ عقله ونفسه لكل ما رآه هناك ، وسمعه ، فقرأ ، كثيراً ، وتجول عقله جولات بعيدة المدى، فأصبح تلميذاً نشيطاً للثقافة الأوروبية عموماً وللثقافة الإنجليزية خصوصاً ، ولما حصل على إجازة القانون من جامعة كمبردج ، عاد وقد أصبح عالماً بما عند أوروبا ، بقدر ما أحب أن يعرف عن درس وتأمل ، ما عنته بلاده . .

ذلك هو موهانداس كرمشاند غاندى .

ولد فى سنة ١٨٦٩ ، وأتم تعليمه فى كلية ساملداس ، بمستوى دون المتوسط ، ثم اقترح أحد أصدقاء عائلته أن يسافر إلى لندن ليتعلم ، فوقع هذا الاقتراح منها ، أسوأ وقع ، ولكن غاندى ، تشبث بالاقتراح ، فاستعانت العائلة على غاندى بعمه الذى أعلنه بأن السفر خارج حدود الوطن مما ينهى عنه الدين ، ولكن هذه الحجة لم تخفه ، وكان سفر غاندى ، سبباً لمداولات كثيرة فى الأسرة ، اشترك فيها آخرون من حكماء القرية ، وعلماء الدين ، وقد كلل الله آخر الأمر ، إيمان غاندى الشاب ، وإصراره بالنجاح فسافر إلى إنجلترا فى الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٨ .

وقد لقى الأمرين من الثياب الأوروبية التى لم يكن قد ألفها ، وخصوصاً ربطة الرقبة التى أنهكه عقد عقدتها ولما وصل إلى لندن ، عذبته قواعد المجتمع وآدابه ، ولكنه صبر للمحنة ، حتى مرت ، ولكنه لم يكن يخرج من عذاب ، إلا ليواجه لوناً آخر منه ، فقد كان جزعاً أشد الجزع لمخالفته لدين بلاده ، فأكل اللحم ، تحرم الهندوكية تناوله ، ولكنه وفق إلى مطعم نباتى ، فأخذ يتناول طعامه فيه ، وهو مرتاح النفس ، والمعدة معاً .

وعاد غاندى إلى بلاده فى ١٨ من يوليه سنة ١٨٩١ ، وكان أمله أن يرى أمه التى تجلدت لآلام فراقه ، والتى كان يحبها ، حباً ملك عليه نفسه ، ولكنه فجع إذ علم أنها فارقت دنيانا ، فقال إن حزنه عليها كان أعظم من حزنه حتى على أبيه ، وإن أحلامه الجديدة تبددت ، ولكنه صمد للمصاب ، وراح يواجه حياته

الجديدة ، فى صبر وعزم .

ولكن ، ما سرعان انهار هذا العزم حينما طالعه الحكم البريطانى فى الهند ، بوجهه الحقيقى سافراً غير مقنع . فقد عرف فى لندن ، شاباً ، ثم توطدت بينهما أواصر الصداقة ، فلما عاد إلى إقليمه ، كان يطير سروراً حينما علم بأن هذا الشاب هو الضابط السياسى فى مقاطعة راجكوت حيث يقيم غاندى مع أهله ، وقد ظهرت لشقيق غاندى الذى يكبره حاجة ، فألح عليه ليقابل فى شأنها صديقه الضابط الإنجليزى ، واضطر غاندى أن يذهب إليه ، وكان يحسب أن صديقه ، سيفرح بلقائه ، وسيحسن الاستماع إليه ، ولكنه فوجئ بصديقه هذا وقد استحال إنساناً آخر ، فقد رفض أن يصافحه ، كما رفض أن يستمع إليه ، ولما هم غاندى بالاحتجاج رأى نفسه ملقى به فى الطريق . .

وعرف غاندى لأول مرة هذه الحقيقة . . أنه غريب فى بلاده ، وأن الأوروبى المهذب الرقيق ، فى لندن ، يصبح فى الهند ، وحشاً ضارياً ، يفتك بالناس . .

أدرك غاندى أنه لا مستقبل له فى ولايته بعد الإهانة التى لحقت به ، ثم أدرك بعد حين ، أنه لا أمل له فى حياة سعيدة ، فى الهند كلها ، فسافر إلى جنوب أفريقيا ، حينما دعاه تاجر هندى مسلم ، يدير تجارة كبيرة هناك ، ويحتاج إلى محام هندى يستطيع أن يتفاهم معه من ناحية ، ويستطيع أن يترافع أمام القضاة الإنجليز بلغتهم من ناحية أخرى . .

وذهب غاندى إلى جنوب أفريقيا فى سنة ١٨٩١ ، وكأنه وصل إلى جحيم جديد . .

فقد رأى أن الهنود ، وجميع من لا ينتسب إلى الجنس الأوربى ، يعاملون كما تعامل البهائم تماماً . فالأفريقيون والآسيويون على السواء ، لا يسمح لهم بالسير الأرصفة بل يؤمرون أن يسيروا فى الشارع نفسه ، كما تسير الخيول والبغال والعربات وهم ممنوعون من أن يركبوا فى الدرجة الأولى فى السيارات العمومية وفى عربات القطارات ، حتى لو استطاعوا أن يدفعوا الأجر المطلوب ، وهم محرومون من دخول الفنادق والمسارح ، ودور السينما الخاصة بالجنس الأبيض ، وبدأ غاندى يدفع ثمن جلده الأسمر ، وضريبة انتسابه إلى أمة قسم لها الحظ أن تكون فى آسيا . .

ولكنه كان مصمماً أن يتحدى هذا الكفر المجنون ، وأن يرد أوربا إلى صوابها ،

وذهب إلى المحكمة وفوق رأسه عمامته ، وكان الواجب المتعارف عليه يقتضيه أن يرفع العمامة عن رأسه ، ولكنه لم يسلم بأن هذا واجب ، واصطدم بالقاضى الإنجليزى ، وبدأ السير فى طريق طويل محفوف بالمكاره من كل جانب ، وكشف هناك ، الطريق الذى دعا إلى السير فيه أستاذه الكبير ليوتولستوى الكاتب الروسى العظيم ، طريق عدم العنف ، والمقاومة السلمية . . .

وبهذا استحق أن نفرد له فصلا خاصًّا فى هذا الكتاب ، كما أفردنا فصلا خاصًّا لتولستوى نفسه . فغاندى عندنا ، ليس زعيم حركة وطنية ، من أكبر الحركات الوطنية ، بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكنه زعيم هذه المحاولة الضخمة ، محاولة مواجهة العنف الأحمق المتعصب الراغب فى الإيذاء ، بالثبات على الفكرة المعارضة له ، والتصميم عليها ، وتزويدها ، والدعوة لها ، مع عقد العزم ، على عدم الرد على العنف بالعنف ، وإغماد السيوف فى قرابها ، وتنكيس الحراب ، وبالجملة ، خوض حرب من نوع جديد ، هى الحرب التى خاض غمارها المسيحيون والمسلمون ، فى الصدر الأول للدعوتين ، الحرب التى كان فيها المسلمون والمسيحيون هدفاً لتعذيب وتنكيل ومطاردة وقمع الأقوياء ، والتى أسفرت آخر الأمر ، عن هزيمة القوة المادية ، المعززة بالسلاح والمال والنفوذ ، وانتصار القوة الروحية ، القائمة على الإيمان من جهة ، والفكرة السليمة من جهة ثانية ، والحق الخالص من الغرض والهوى من جهة ثالثة . . هذا الثالوث الذى لم يقهر على طول التاريخ ، ثالوث الإيمان المستمد من الفكرة والحق .

ولقد كان فضل تولستوى عظيماً لأنه دعا إلى هذه الفكرة ، وأكدها ، وقضى القسم الأخير من حياته يدعو إليها ، ويلح فى الدعوة ، ويصل إلى أبعد حدود التطرف ، فى التشبث بها ، رافضاً أن يدخل عليها تحفظاً أيا كان نوعه ، أو يستثنى منها حالة واحدة ، أيا كانت الظروف الداعية إلى هذا الاستثناء . .

وقد كان بعض المعجبين بأدب وفن تولستوى يعتقدون كما قلنا أن تولستوى أضاع الحقبة الأخيرة من حياته ، فى شىء يشبه الهذيان والتخليط ، ولكن حينما خرج غاندى من صفوف الهنود ، الذى تراكمت فوق رءوسهم ، أكوام بل تلال المهانة والإذلال ، ليقاوم الإمبراطورية البريطانية ، بهذا السلاح القديم ، المرهف القاطع ، سلاح

الحب ، الذى يثير كوامن القوة الفاضلة فى الإنسان ، ويرتفع به إلى مستواه الحقيقى ، خليفة الله فى أرضه ، الإنسان الذى خلق على صورة الله ، أدرك الكثيرون الذين اتهموا تولستوى بما اتهموه به ، أنهم كانوا مخطئين ، أو على الأقل ، مسرفين . .

* * *

ولقد شرح رومان رولان ، عقيدة غاندى فقال : إن هذه العقيدة ، أشبه شىء بالبناء الذى يقوم من دورين ، أحدهما هو الأسفل ، غائب فى الأرض ، لا تراه الأعين ، ولكنه أكثر الدورين متانة ، وأعظمها أهمية ، ذلك هو إيمانه أو عقيدته . والدور الظاهر ، هو جهاد غاندى السياسى ، ودعوته الاجتماعية ، ولكنه مع ظهوره ، ولفته للنظر ، إلا أنه قابل للتغيير ، والتبديل ، أما الجزء الثابت الدائم ، فهو الذى لا نراه . وغاندى ، كلما احتاج إلى القوة ، هبط إلى الدور الأسفل ، حيث يجد دائماً المدد والعون .

وهذا القسم الثابت الدائم ، هو دين غاندى .

فغاندى كتولستوى ، وجد الخلاص لنفسه ، ولأمته ، وللإنسانية جمعاء فى الدين الذى ولد عليه ، ونشأ فى ظله . ولكن كلا منهما ، لم يأخذ الدين ، على الوجه الذى انتهى إليه ، على يدى التقاليد ، وانحرافات وأكاذيب المنتسبين إلى الدين ، والمتجرين به . ولذلك وجد كل منهما عنتاً وشقاء ، على يد رجال الدين التقليديين .

فغاندى يؤمن بقداسة الكتب الهندوكية القداس ، والأوبانشادس والبوراناس ولكنه يؤمن بأن هذه الكتب ليست وحدها المقدسة ، فالقرآن والإنجيل والتوراة مقدسة كذلك ، ويؤمن بنظام الطبقات الذى يقسم الدينُ الهندوكى ثم الناسُ بمقتضاه إلى براهمة ، أى أهــل الحكمة والمعرفة ، والقانون والفقه ، والكاشتريا ، هم رجال الأمن والحكم والإدارة ، والفيشيا رجال الزراعة والتجارة والمال ، ولكنه لا يؤمن بوجود الطبقة الرابعة التى خلقتها الرجعية الدنية ، والإقطاع ، طبقة المنبوذين أى الناشادورا ، ويرى نظام الطبقات سبيلا للتعاون بينهما ، ولوناً من توزيع العمل ، لا للمخاصمة أو الاستعلاء ، ويؤمن غاندى بحماية البقرة ، التى تحولت مع الجهل والفقر ، إلى عبادة البقرة ، وحماية البقرة عند غاندى هى هدية الهندوكية للعالم ، لأن البقرة عند هذا الدين رمز على عالم الحيوان الأعجم ، الذى يخدم الإنسان ، وهى تجربة روحية للآدميين ليعيشوا متحابين

مع سائر المخلوقات التى تعيش معهم .

ولكن غاندى ، كان يرى أن هذا التنظيم كله ، لا يساوى شيئاً ، ما لم يستند أصلا إلى ثلاثة أسس : الحب (أهمسا) .

والصدق (ساتيا)

وضبط النفس براهما شاريا .

ولقد سمع خلاصة هذه المبادئ فى أغنية ، كانت أول ما سمعه وهو بعد صبى صغير ، فأصبح يترنم بها ، ويدعو أتباعه ، للتغنى لترتيلها وهى :

« إذا أعطيت جرعة ماء ، لقاء جرعة ماء ، فإنك لم تعط شيئاً .

« الجمال الحق ، أن تقدم الخير ، إذا نزل بك شر .

« وأن تقدم لمن أعطاك كأس ماء ، طعاماً جيداً والغذاء .

« وللتحية الخفيفة ، انحن فى احترام .

« ورد الدرهم الحقير ، ديناراً من ذهب .

« وإذا أنقذت حياتك ، فلا تبخل أنت بالحياة .

* * *

وقد شرح غاندى — كما فعل تولستوى من قبل — دعوته ، بأكثر من أسلوب ، فقال مثلا :

« استعمال قوة الحب ، تستوجب العيش فى فقر ، بمعنى أنه لا يجب أن نحفل بما إذا كنا سنجد ما نلبس أولم نجد . ولاحتمال الفقر يجب أن يربى الإنسان نفسه ويعودها احتمال المشاق فى سبيل الفكرة السامية والعقيدة التى تملأ على الإنسان حياته ووجوده ، وهذه التربية ضرورية إذا أردت النجاح ، ويقول :

«هذه التربية الطويلة ، لابد منها . لأن المجاهد فى معركة عدم العنف ، يجب أن يكون أقرب ما يكون من الإنسان الكامل ، ولسنا قادرين أن نصل إلى الإنسان الكامل فى وثبة واحدة ، ولكن كلما طهرنا أنفسنا من العنف ، كلما زدنا فضلا ، وعندها لن يتردد أحد فى الإيمان بقوة الحب ، وإذا عمت الدنيا ، هذه القوة ، لأحدثت ثورة فى مثلنا العليا ، ولمحت الاستبداد ، ولقضت على الروح الحربية النامية أبداً ، والتى تئن تحت نيرها الأمم الغربية إلى حد الموت . . »

ثم قال :

« يجب إذن أن نربى أنفسنا لنحتمل العذاب ونستسيغه ونهش له ، فى سبيل الفكرة . على أن العذاب هو سمة حياة القبيلة البشرية ، فهو قانونها الخالد . فإن الأم لتتعذب لتلد ابنها ، فالحياة تنبعث من الموت . والقمح إذا نما ، دل على أن البذرة التى أودعت فى الأرض قد تحللت ، وليس ثمة أمة نهضت إلا بعد أن صهرتها نار العذاب ، فلا سبيل إلى الفرار من قانون العذاب ، فهو شرط وجودنا . ونجاحنا يقاس بمقدار ما احتملنا من عذاب ، فكلما كان عذاباً مطهراً كان نجاحاً عظيماً . فعدم العنف يعنى احتمال العذاب ، ولقد جرؤت أن أرفع أمام الهند القانون القديم ، قانون إنكار الذات ، قانون العذاب » .

هذه السطور يكشف غاندى عن أسلوبه ، فى التهيؤ لمعركة الحب ، ونضال المقاومة السلمية . فهو يعلن أن أساس هذه المقاومة هو التربية الروحية التى تسبقها . فالذى يدعو إلى هذه المقاومة ، يجب أن يبين للناس أن طريقها محفوف بالمكاره ، وأن النجاح فيها ، يشترط الاستعداد لتقبل هذه المكاره ، ولا سبيل بطبيعة الحال ، لكل هذا إلا التربية والإعداد الروحيان ، اللذان يناظران تدريب الجنود على استعمال السلاح ، وعلى الحياة العسكرية .

ولما كان الناس قد ألفوا فى ظل نظام التربية القائم أن يحرضوا على استعمال القوة ، وأن يدربوا عليها ، منذ يولدون ، فلابد من أن نبدأ فى تدريب الأطفال على أسس مبادئ الحب منذ أيامهم الأولى ، فنعلمهم أنه يمكن أن يغزو الحب الحقد ، وأن يغزو الحق الباطل ، وأن نغلب العنف بتحمل العذاب . ولما كان احتمال العذاب يشبه كثيراً الاستسلام والخضوع ، وقد يقوى جبن الجبناء ، لذلك قال غاندى :

« مستحيل على هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم ضعافاً ، أن يستعملوا قوة النفس . فالذين يدركون أن فى الإنسان شيئاً أسمى من طبيعته الحيوانية ، وأن هذه القوة الحيوانية ، قابلة للخضوع لهم ، هم وحدهم الذين يمكنهم أن يعمدوا إلى المقاومة السلمية » .

ولو أن غاندى قال كل هذا الكلام دون أن ينفذه ويضرب المثل لأتباعه لما آمنوا به ، ولما ساروا وراءه ، ولما كان لحركته فى جنوب أفريقيا ، أثر يذكر .

وقد ذكر الذين كتبوا عن حركة غاندى هناك أمثلة كثيرة ، منها ما أورده المستر (بولاك) فى كتابه (غاندى الرجل) ، فقال إن غاندى فرغ يوماً من إلقاء خطبة فى قاعة كبيرة بمدينة جوهانسبرج ؛ فالتف حوله عدد كبير من المستمعين ، ثم راح يجيب على أسئلهم وتعليقاتهم ، وهو فى طريقه إلى باب القاعة ، فلما وصلوا إليه ، لاحظ مستر بولاك أن رجلا وقف فى ظل الباب ، على صورة تثير الريبة ، كما لاحظ أن غاندى انتبه إلى الرجل نفسه ، لأنه لم يلبث حتى اتجه نحوه ، ووضع يده فى ذراعه ، كأنه صديق قديم ، ثم أخذ يحدثه همساً ، وبدا على الرجل شىء من الارتباك . ثم سار مع غاندى فى الطريق ، وغاندى منهمك فى حديثه ، ومستر بولاك يراقبهما ولا يدرى ماذا يقولان ، ثم تصافحا ، وأعطى الرجل لغاندى شيئاً ثم انصرف وعاد غاندى إلى صديقه بولاك الذى سأله عن الأمر ، فقال له ، إن الرجل كان يود أن يطعننى بهذه المدية ، وأخرج غاندى مدية من جيبه ، ولكنى أقنعته بفساد ظنونه السيئة فى ، فخجل وأعطانى السلاح الذى أعده ليطعننى به فى الظلام . وصرخ بولاك كيف تتركه ، دون أن تسلمه للشرطة ؟ فكان جواب غاندى : لن نشغل بهذا الرجل بعد الآن . لقد كان يظن أنه قادر على الإقدام على قتلى ، والحقيقة أن هذه الشجاعة تعوزه ، ولو أبلغت عنه الحكومة ، لضمنت عداوته ، أما الآن فهو صديقى » .

ويقول رينيه فيلوب فى كتابه « غاندى الرجل المقدس » إن مسلماً اعتدى على غاندى اعتداء قاسياً ، حتى سقط فى الشارع ، بين الموت والحياة ، ثم نقل إلى البيت مغشياً عليه ، فلما أفاق وجه إلى أتباعه نداء رجاهم فيه ، ألايتخذوا ضد المعتدى إجراء قانونياً ، وألا يمسوه بأذى .

وذكر المستر أندرو — وكان الهنود يسمونه بشقيق المهاتما — أن غاندى هوجم من بعض أتباعه الذين ظنوا فيه الظنون ، واتهموه لفرط دعوته إلى نبذ العنف والمسالمة ، أنه يخون قضية الهنود ، ويتآمر مع الحكومة ضدهم ، وكان رجل أوربى يدعى « روك » ، يسير يوماً ، فى الطريق العام فألفى غاندى ملقى على وجهه ، يسيل دمه من جراح عديدة فيه ، فحمله إلى بيته ، فلما أفاق طلب من أوليف ابنة المستر دوك ، أن تغنيه نشيداً دينياً إنجليزياً كان يحبه ، مطلعه :

. قدنى برفق أيها الضوء !

وقد كانت مدة العقد الذى ارتبط بمقتضاه غاندى بالعمل فى جنوبى أفريقيا ، كمحام للمؤسسة التجارية الهندية التى كان يملكها التاجر المسلم عبد الكريم وإخوته ، سنة ، وقد لقى غاندى خلال هذه السنة من المهانات ، والتحقير ، من أهل جنوبى أفريقيا الأوربيين ، ما كان نصيب كل هندى ، وكل زنجى ، يقيم فى أرض حكومة اتحاد جنوبى أفريقيا ، وقد ألف الهنود والزنوج هذا اللون من المعاملة ، فلم يعودوا يرون فيها ما يدعو إلى الشكوى أو التبرم ، أو حتى محاولة التفكير فى وضع حد لها ، أو تخفيفه . فأخذ غاندى يعد الأيام والساعات ، ليعود إلى وطنه ، فى نهاية مدة العقد ، ولكنه رأى يوماً بعد يوم من سوء حال مواطنيه ، ومن قسوة الأوربيين ، ما جعله فى أخريات أيامه هناك . يعدل عن الرجوع إلى وطنه ، واعتبر ذلك جبناً وفراراً من المسئولية الملقاة على عاتقه كهندى بل كإنسان ، ومن ثم فقد صمم على البقاء . ولما كان الفارق بين ضعف الهنود ، وفقرهم ، وجهلهم ، وبين قوة الأوربيين ، وغناهم ، واعتمادهم على نظام ثابت راسخ ، تحميه الحكومة ، فقد كان التفكير فى منازلة هذا النظام الذى يسحق مواطنيه والزنوج معاً لوناً من الجنون ، ولكن أضاء له فكرة المقاومة السلمية ، القائمة على قوة النفس (الساتياجراها) الطريق ، فصمم على أن يخوض المعركة ، تحت لواء قوة الحب ، وأن يهيئ مواطنيه للمقاومة والنضال ، تحت هذا اللواء ، وقد قال وصف الكاتب السويسرى رومان رولان ، هذا النضال بقوله :

« ومن ثم بدأت ملحمة شعرية بين الروح فى جهة ، والسلطة الزمنية والقوة الوحشية فى جهة أخرى »

ولا يتسع المجال لنا ، لسرد وقائع هذا النضال ، واقعة بعد واقعة ، فقد كان نضالاً طويلا ومريراً ، ولكنا سنخلص من هذا التاريخ معانيه الكبرى المتصلة بفكرة هذا الكتاب .

كان الهنود المهاجرون من وطنهم إلى جنوبى أفريقيا فى أحط دركات الفقر . فقد تركوا بلادهم سعياً إلى الرزق . وكان الرزق الذى يحصلون عليه فى هذا الجانب من افريقيا قليلاً ، ولكنه كان على كل حال أكثر مما كان يمكن أن يجدوه فى بلادهم التى ضربتها لعنة المجاعة ومع ذلك كان العمل الذى يباشره هؤلاء التعساء ، قاسياً . فهو لا يعدو حمل الأثقال ، أو العمل فى المناجم ، أو الكنس .

ومع ذلك كانت الحكومة وأرباب الأعمال ، لا تكف عن اعتصار العمال الأفريقيين والأسيويين وعن جعل حياتهم الشاقة ، أكثر صعوبة وشظفاً ، جرياً على ميل الإنسان القوى مادياً ، إلى زيادة قوته ، واستغلال ضعف غيره .

وقد حدث أن أصدرت حكومة ولاية الناتال قانوناً يحرم انتقال الآسيويين إليها من أية ولاية أخرى إلا إذا دفع الواحد منهم ضريبة قدرها ثلاثة جنيهات ، فإذا كانت عائلة الهندى مكونة منه ومن زوجته وولد واحد ، لوجب أن يدفع تسعة جنيهات . وهو مبلغ لا يملك الهندى ادخاره فى عام طويل . وقرر غاندى أن يتحدى هذا القانون فأرسل جماعات من النساء الهنديات ، ليتجاوزن حدود ولاية الترنسفال إلى الناتال ، كبداية لمعركة المقاومة السلمية ، وأغضت الحكومة عنهن ، فتدفق عدد من الهنود والهنديات إليها ، فتجاهلت هذا الغزو ، وذهبت جموعهم إلى منطقة المناجم ، وحرضوا الهنود على الإضراب ، فتجمع من ذلك حشد تجاوز عدده خمسة آلاف ، وراح يذرع الأرض بين الولايتين كمظاهرة احتجاج على هذا العمل ، وتعلم الهنود وغيرهم من الآسيويين فى هذه المظاهرة ، مبادئ العمل الجماعى ، وأحسوا بقوة ناجمة عن الوحدة فى الرأى ، والتعاون من أجل هدف مشترك ، فضلا عن الشعور بالكرامة ، النابعة عن مقاومة العدوان ، ورفض الإذلال . وقد قبضت الحكومة على الهنود ، فتدفق سيل منهم ، إلى السجون فرحين ، وألقى القبض على غاندى نفسه .

وأبدت النساء الهنديات مثلا عالياً فى احتمال العذاب ، وفى التسابق إلى التضحية ، وسجل تاريخ هذه الحركة ، لأم هندية صبرها الأسطورى ، على فقد ابنها ، إذ سقط من ذراعها ، إلى الماء ، وهى تعبر فى الزحف ، جسراً فوق نهر . فقالت وقد غصت بالدمع : «نحن نعمل للباقين ، أما الذين ماتوا فيتولاهم الله » ودخلت (ڤاليامَا) الفتاة المسكينة المريضة إلى السجن ، وصممت على أن تواصل عملها مع زميلاتها ، فسألها غاندى ، أندمت على الاشتراك فى الزحف الذى قادك إلى السجن ، فقالت : فى لهجة المستنكرة ندمت ! إنى مستعدة إلى الذهاب إلى السجن ، فقال لها غاندى : ولو كان فى طول السجن موتك ؟ فقالت ولو كان فيه موتى ، فمن منا ، لا يريد أن يموت من أجل وطنه ؟ »

ولقد أدرك غاندى أن التهيؤ لخوض هذا النضال ، لابد له من مكان ، للتدريب ، فأنشأ مزرعتين ، اشتهرتا فى تاريخ الحركة الغاندية ، عرفت إحداهما بمزرعة تولستوى ، إذ أطلق غاندى اسم أستاذه تولستوى عليها ، لأن نظامها كان مستوحى من فلسفة هذا المفكر العظيم ، وقد ضمت هاتان المزرعتان الهندوكيين ، والمسلمين والمسيحيين ، والبارسيين كما ضمت النساء والرجال والشيوخ والأطفال والشبان ، وقد تعلم سكان المزرعة ، أن يعيشوا متحابين ، وأن يتعلم كل منهم النظر إلى عقيدة زميله فى المزرعة بالاحترام والتقدير ، ولو كانت تخالف عقيدته ، أو لا تتفق مع نظره إلى الحياة ، ومن الأمثلة التى تذكر فى تاريخ هذه المزرعة أن الهندوكيين ، امتنعوا عن تناول الطعام ، خلال شهر رمضان ، احتراماً لعقيدة المسلمين ، كما أن المسلمين ، كفوا عن تناول اللحوم ، احتراماً لعقيدة الهندوكيين ؛ وكان الجميع يرتلون آيات الأديان بغير تفرقة ، ويحاولون فهمها وتذوقها .

وكان العمل موزعاً فى المزرعتين ، على أعضائها من النساء والرجال ، فهم الذين يزرعون ما يأكلون ، وهم الذين يعدون طعامهم ، وينظفون بيوتهم ، ويصلحون أرض المزرعة ، ويمهدون طرقها ، ويحملون من بئرين بها ، ماءهم . . وكان من أكثر أعمالهم أهمية إصدار جريدة ، كانوهم الذين يحررونها ، وهم الذين يصفون حروفها ، ويطبعونها .

وقد كان قانون المزرعتين ، عدم العنف ، مع حتى الحيوانات ، الضارية ، والحيوانات السامة ، وقد روى أحد أعضاء إحدى المزرعتين فى ذكريات نشرها عن مدة إقامته بها وقد كان صياداً اعتاد أن تمتد يده إلى بندقيته ، كلما رأى خطراً يتهدده ، أنه ذهب يوماً إلى مظلة كانت تودع تحتها دراجات الأعضاء ، فوجد فى ركن من أركانها ، ثعبانين خطرين سامين من نوع (الممبا) ، يرفعان رأسيهما ، ويقتربان نحوه ، ولما كان ما تعلمه فى المزرعة ، يؤكد أن الحيوانات لا تؤذى ، إلا من يهم بأذاها ، أو يبدو عليه الخوف منها ، فقد ثبت فى مكانه ، وحاول ما استطاع أن يبدو هادئاً ، وكم كانت دهشته ، حينما رأى الثعبانين ، يقتربان منه ، ثم يبعدان عنه . وقد روى نفس الصياد أنه رأى غاندى جالساً هادئاً ، وقد التف حول أحد ساقيه ، ثعبان ضخم سام .

ولسنا نزعم أن هذه المحاولة استطاعت أن تردع العنف الأوروبى ، أو أن تضع حداً لمظالم الحكم فى ظل حكومة اتحاد جنوبى أفريقيا ، فقد كانت الحركة قصيرة العمر من جهة ، ضيقة النطاق من جهة أخرى ، ولكن محاولات غاندى الأولى لفتت الأنظار إلى ما كان يجرى فى هذا الجانب من العالم الذى لم يكن أحد يعرف ماذا يجرى فيه ، وقد تأثرت فعلا الحكومة هناك ، بهذه المحاولة ، فألغت قانون الضريبة على الرأس ، وبدأت جرائد الهند تكتب ضد الحكومة الأوربية هناك ، وأخذ الهنود وكل الآسيويين الآخرين ، يشعرون أن من واجبهم أن يتحدوا ، ويعملوا ، وقد بذرت بذور الثورة التى نسمع أنباءها حتى اليوم ، وهى تحاول اقتلاع أصول هذا المرض الوبيل ، مرض التفرقة العنصرية ، والإحساس بأن العالم يضم جنسين ، أحدهما سيد ، ورفيع ، وخلاق ، والثانى ذليل ، ووضيع ومخرب . وإذا كانت هذه الثورة الرفيعة قد أوشكت أن تصل إلى مراحلها الأخيرة ، فإنه لا يحق لنا أن ننسى بدايتها ، مهما كانت هذه البداية صغيرة .

* * *

إلا أن اسم غاندى ، بسبب هذه الحركة المجددة فى جنوبى أفريقيا ، ذاع فى الهند نفسها ، وأصبح على كل لسان ، فضلا عن أنه كسب أنصاراً لمواطنيه فى العالم كله ، كان فى مقدمتهم بطبيعة الحال تولستوى ، الذى تبادل مع غاندى عدداً من الخطابات ، وننقل من أحد هذه الخطابات العبارة التالية ، لأنها تزيد فلسفة الاثنين وضوحاً ، قال :

« لقد وصلتنى جريدتك ، وكنت سعيداً بالاطلاع على كل ما يتعلق فيها بالمقاومة السلمية . وشعرت لذلك بالرغبة فى أن أحدثك عن كل ما أثارته هذه المطالعة من الخواطر . كلما تقدم بى العمر ، وبخاصة فى وقتى هذا الذى أشعر فيه شعوراً قوياً — بدنوى من الموت — أحببت أن أقول لغيرى ما أشعر به شعوراً خاصاً ، وواضحاً ، وما يتخذ أهمية عظيمة فى نظرى ، نحو ما يسمى بالمقاومة السلبية ، وهى فى الواقع لا شىء أكثر من الحب ، دون أن تفسده الشروح الزائفة . الحب — وهو الجهاد فى سبيل وحدة النفوس ، وفى سبيل الحيوية الناجمة عن هذه الوحدة ، هو القانون الوحيد الأسمى ، للحياة . وكل إنسان يشعر به فى

أعماق نفسه (كما هو مشاهد بوضوح فى الأطفال) — يشعر به الإنسان حتى تربكه تعاليم الحياة الفاسدة . وقد أعلن الجميع هذا القانون : أعلنه الهنود ، كما أعلنه الصينيون ، واليهود ، واليونان ، وحكماء الرومان ، وأحسب أن المسيح أعلنه فى وضوح أعظم ، إذ قال : « فى الحب ، فقط ، القوانين كلها ، والرسل » .

ولتوقع المسيح سلفاً ما سيدخل على هذا القانون من فساد ، أشار فى جلاء إلى الخطر الذى سينجم عن هذا الفساد ، الذى تقضى به طبيعة الناس ، الذين تحوطهم مصالحهم فى هذه الدنيا ، خطر تبرير استعمال القوة ، للدفاع عن هذه المصالح ، أو كما قال هو : الرد بالضرب على الضرب ، أو استعمال القوة لاسترداد ما اغتصب » .

ثم قال تولستوى :

« الفرق بين الأمم المسيحية وبين سواها من الشعوب ، هو أن قانون الحب ، عبر عنه فى المسيحية ، بوضوح ، وبصفة قاطعة ، بينما لم يعبر عنه هكذا فى التعاليم الدينية الأخرى ، وقد تقبل الناس فى دنيا المسيحية ، قانون الحب ، بإجلال ، وفى الوقت نفسه ارتضوا العنف وبنوا حياتهم عليه ، ومن أجل هذا أصبحت حياة المسيحيين مزيج من التناقض المستمر بين الحب كقانون للحياة ، وبين العنف المعترف به ، والذى يظفر بالثناء ، المعتبر كضرورة فى نواح مختلفة من الحياة كعنف الحكام ، والمحاكم ، والجيوش . وهذا التناقض ينمو دائماً بتكاثر الشعوب ، المسيحية ، وقد وصل إلى غايته أخيراً .

« فلم يبق أمامنا سوى واحد من أمرين . فإما نعترف بأننا لا نقر شيئاً من
«التعاليم المسيحية ، وننظم حياتنا بقوة الأقوى منا ، أو نسلم بأن كل ضرائبنا
« الإجبارية ، ومحاكمنا ، ومؤسسات الشرطة ، وعلى وجه أخص جيوشنا ، باطلة ،
« وواجبة الإلغاء »

ثم قال : الاشتراكية ، الشيوعية ، الفوضية ؛ جيش الخلاص ، ازدياد الجرائم ، البطالة ، جنون الرفاهية ، الثروة المتفاقمة ، شقاء الفقراء ، الزيادة فى حوادث الانتحار ، كل هذه علامات التناقض الخالد ، الذى يجب أن يحل ؛ لأنه لا يمكن أن يبقى بلا حل . ويجب أن يحل بإدراك تام لقانون الحب ونكران العنف .

« ولذلك فإن حركتك فى الترنسڤال ، كما تبدو فى الجانب الآخر من الدنيا ، أعظم عمل أساسى ، وتفوق أهميته أهمية أى شىء عمل فى هذه الدنيا، إذ ستساهم فيه لا الشعوب المسيحية فحسب بل الدنيا بأسرها »

* * *

ولكن التطبيق الضيق لقانون الحب ، فى جنوب أفريقيا ، اتسع فى الهند ، واستطاع غاندى ، أن يقوم بهذه التجربة الضخمة ، على أوسع نطاق ، وفى أعلى مستوى ، وفى أحرج مرحلة من حياة العالم فى أكثر ميادين الحياة تعقيداً ، وأكثر مجالاً تهاعنفاً .

فالهند هى قارة ، ونسميها وطناً تجوزاً ، فعدد سكانها يزيد على سكان أمريكا الشمالية ، كما يزيد على سكان أفريقيا ، واستراليا مجتمعين . ومساحتها تزيد على مساحة أوربا ، أضعافاً . وما فيها من لغات ، ولهجات ، وأديان ومذاهب ، وطوائف وطبقات ، لا نظير له فى أى مجتمع آخر ، فى القارات جميعاً . وهى تضم مجتمعاً بشرياً معقداً من كل ناحية من نواحى السياسة ، ونظام الحكم ، ومن النواحى الاجتماعية ، بما تحوى عبارة الناحية الاجتماعية ، من طقوس الحياة ، وأساليب التفكير ، ووجهات النظر إلى المال ، والمرأة ، والدين والعقيدة .

والقوة التى تحكم الهند ، هى أقوى ما عرفه التاريخ من حيث بسطة السلطان ، وقدرة الحاكم وبراعته ، وغناه وثراؤه، وتمتعه بما أنتجه العلم من أسلحة ، ووسائل انتقال ، وأدوات للدعاية .

فإذا كان قانون الحب ، جديراً بأن يحفل من القوة والسلطان والثروة وتشابك المصالح ، فإنه أجدر ما يكون بالإجفال من منازلة هذه القوى فى الهند . ولكن غاندى دفع بفلسفة عدم العنف ، والمقاومة السلمية ، والعصيان المدنى وقوة الروح « الساتياجراها » إلى أتون التجربة فى الهند ، وكانت المغامرة هائلة ، إذ لو قضى على هذه التجربة بالفشل ، لاندفع العالم ، مع تيار القوة ، والإيمان بها ، دون أن يكون ثمة أمل ، فى أن يصغى أحد إلى دعاة الحب ، والمؤمنين بالإنسان المجرد من السلاح .

عاد غاندى إلى بلاده ، خلال الحرب العالمية الأولى ، وبدأ بالذات فى سنة ١٩١٧ فى مقاطعة (بيهار) كفاح طبقة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ،

وإنما يستأجروتها من أصحابها ، ويدفعون لهم إيجاراً ، ثم تبنى قضية الفلاحين فى (كوجارت) ثم أصيب بمرض طويل ، حجبه عن العمل العام فترة ، فلما أبل منه ، فى سنة ١٩١٩ ، كانت الهند تغلى كالبركان .

فإن بريطانيا التى جندت بضعة ألوف من أهل الهند بلغت فى سنة ١٩١٨ ، ٩٨٥ ألفاً ، ودفعت بهم إلى أتون الحرب ، والتى أخضعت اقتصاد الهند ، وكل شىء فيها خلال الحرب لاعتبارات تلك الحرب ، لم تجد شيئاً تعبر به عن امتنانها وشكرها للهنود ، مقابل ما احتملوه من تضييق ، إلا إصدار قوانين رولات ، التى مدت به أمد الأحكام العرفية التى أشهر سلاحها فى وجه الهنود طوال مدة الحرب ، وقد منحت هذه القوانين السلطات البريطانية حق إصدار القوانين بطريقة عرفية ، وجعلت الحكام العسكريين حكام البلاد الشرعيين . ولكن الهنود مع فوران غضبهم ، لم يكن يعرفون ماذا يفعلون لمواجهة هذا البغى البريطانى الجديد ، ولم تتفق كلمتهم ، وفى وسط هذا الاضطراب ، أخذ صوت غاندى يستميل الأسماع ، مع أنه كان صوتاً هادئاً ، وناعماً ، ولطيفاً ، ولكنه مع هدوئه ، ونعومته ، ولطفه ، كان يفيض بالحزم . ويضىء من فرط الوضوح . ولم يكن هذا الصوت كغيره ، داعياً إلى الحنق ، أو منطوياً على التهديد ، ولكنه كان إعلاناً بأن قوة جديده قد دخلت فى الميدان الوطنى فى الهند ، ولم يقترح غاندى لحل الأزمة الهندية ، شيئاً غير حركة (الساتياجراها) التى بدأها فى جنوب أفريقيا ، وقد بدأ الحركة بخطاب وجهه إلى نائب الملك البريطانى فى الهند ، ليحذره من مغبة إجتراء بريطانيا على إخضاع الهنود لهذا الحكم العرفى ، وتجاهل وعود بريطانيا خلال الحرب ، وقد كان من بين هذه الوعود ، عهداً قطعه لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، فى ٢ من إبريل سنة ١٩١٨ ، جاء فى بيان أذاعه على الهنود وقال فيه « إن استقلال الهند على الأبراب » .

ولما لم يلتفت نائب الملك إلى هذا الخطاب ، ولم يعره أى اهتمام ، فقد قرر غاندى أن يبدأ حركة العصيان المدنى ، ومقاطعة الحكومة فى اليوم السابع من إبريل ، ولما كانت هذه الحركة فى رأى غاندى ، حركة دينية خالية من عنف السياسة ، وأساليبها ، فقد رأى أن يسبق بدء الحركة ، يوم صلاة وصوم وراحة ، تتهيأ فيه النفوس ، لجهادها العظيم ، ولبى الهنود الدعوة إلى الصيام والصلاة على

اختلاف أديانهم ، فكان هذا أول عمل يشترك فيه الهنود ، من أقصى البلاد إلى أقصاها ، فكان بداية تجمع وطنى لم يألفه أهل هذه القارة .

ولكن أهل دلهى ، ظنوا خطأ أن يوم ٣١ مارس هو اليوم المحدد لبدء الجهاد فاجتمع الهندوكيون والمسلمون فى مسجد دلهى الجامع ، ووقف الزعيم الهندوكى « سوامى شراد هانند » يخطب ولما انتهى الاجتماع ، وخرج المصلون ، والمجتمعون ، هاجمهم رجال الشرطة ، وأطلقوا عليهم الرصاص ، وسقط قتلى وجرحى .

واشتعلت نار الحركة الوطنية ، وتطورت ، فى بعض نواح من الهند ، تطوراً عنيفاً بفعل ما أصاب موظفى الحكومة وممثليها من خوف ، لأنهم لم يعهدوا فى الهنود من قبل قدرة على حركة جماعية ، تشمل البلاد بأسرها ، فخيل إليهم ، أن الثورة على الأبواب ، وأنهاثورة تدمير وقتل ، من قبيل ثورة الهنود فى سنة ١٨٥٧ .

وقد كان أفجع ما وقع من حوادث الاصطدام بين الحكومة والهنود ، مذبحة امر تسار ، فى العاشر من أبريل ، فقد قبضت الحكومة فى السادس من هذا الشهر ، هو يوم المظاهرة الجماعية فى الهند كلها ، على زعماء مدينة امرتسار ، فاجتمع أبناء المدينة فى اجتماع سلمى ، احتجاجاً على هذا القبض ، فأطلقت الشرطه على المجتمعين النار ، فثار الشعب ، وهاجم مكاتب الإنجليز ، وقتل منهم ستة ، ولما كانت امر تسار فى مقاطعة بنجاب فقد عزمت بريطانيا ، أن تسدل ستاراً بين الهند كلها ، والبنجاب ، لتطلق يد موظفيها فى تأديب أهل هذه المقاطعة الذين جرءوا على قتل ستة من أبناء بريطانيا ، وبقى الستار مسدلاً فترة طويلة ولما رفع وأذيعت أنباء عمليات القتل ، والتعذيب ، والتنكيل ، روعت الناس ، وذاع نبأ المجازر البريطانية ، على وجه لطخ سمعة الحكم البريطانى الملطخ فعلا والذى كان يحسب أن الحركة الوطنية قد لفظت أنفاسها فى الهند .

فقد تسامع العالم بأن الهنود الهندوكيين كانوا يحتفلون فى مدينة امرتسار فى الخامس عشر من إبريل سنة ١٩١٩ بعيد من أعيادهم الدينية فى ساحة مسورة معروفة باسم (جاليانا والله باج) . وكان الحاكم العسكرى الجنرال (داير) كان قد أصدر أمراً بمنع الاجتماعات ، وقد ظن أهل أمرتسار أن قرار المنع قاصر على الاجتماعات السياسية ، دون الاجتماعات الدينية ، التى يشترك فيها غالب الشيوخ

والنساء ، ولكن الجنرال (داير) انتهز هذا الاجتماع لمجرد تأديب أهل البنجاب ، ولإلقاء الرعب فى القلوب ، حتى تصبح مجرد الإشارة منه قانوناً ، لا يجرؤ أحد على التفكير فى مخالفتها ، فأمر الجنود أن يحيطوا بالساحة من كل جانب ، ومعهم مدافعهم الرشاشة وبغير تنبيه ولا إنذار ، أطلقت المدافع الرشاشة ، قذائفها وراحت تحصد المجتمعين العزل مد السلاح ، لاتفرق بين شيخ أو امرأة ، ولا بين طفل أو رجل ، ولم تكف آلات الحصد البشرى عن إطلاق النار حتى بلغ عدد القتلى سمائة ، وزاد عدد الجرحى عن ذلك بكثير . ولما تسربت أنباء هذه الفاجعة ، إلى العالم ، واهتز لها مؤتمر كل الهند ، بزعامة غاندى ، اضطرت الحكومة البريطانية إلى مدارة الفضيحة ، بطريقتها المألوفة ، بطريقة تأليف لجنة تحقيق ، وعزلت الجنرال (داير) ، كما عزلت اللورد كرومر فى مصر ، فى إثر حادثة دنشواى ، ولكن الإنجليز فى الهند جمعوا من أنفسهم تبرعات اشتروا به سيفاً مذهباً ، وأهدوه إليه ، اعترافاً بفضله ، وتنويهاً بعمله .

وقد علق غاندى على ذلك بقوله :

« يجب أن نهيئ أنفسنا أن نشاهد هادئين ، لا ألف قتيل من الأبرياء ، من الرجال والنساء ، بل آلا فاً كثيرة ، قبل أن نصل إلى حال فى الدنيا ، لاتنبذنا فيها أمة من الأمم . لذلك أرجو أن يقوينا الذى وقع فى أمرتسار ، ولا يزعزع قلوبنا ، حتى يصبح الشنق أمراً عادياً فى حياتنا » .

ولقد تحقق كل ما كان يرجوه غاندى ، فإن حوادث البنجاب بعامة ، وحوادث امرتسار بخاصة لم تؤثر فى شجاعة الهنود ، بل إنهم اتخذوا من يوم ١٣ أبريل الذى وقعت فيه هذه الفاجعة عيداً قومياً ، واعتبر الأسبوع الواقع بين السادس والثالث عشر من أبريل كل عام ، أسبوعاً وطنياً ، تعقد فيه الاجتماعات وتلقى الخطب ، ويتدارس خلاله الهنود مشكلاتهم الوطنية والقومية . بل ن مجلس مؤتمر كل الهند ، وهو حزب الوطنيين الأكبر فى الهند ، والذى تزعمه غاندى انعقد فى امرتسار فى تلك السنة . وهكذا استمد الهنود من المصاب الأليم ، قوة تعينهم على السير إلى الأمام .

ولكن برنامج غاندى السياسى القائم على عدم العنف ، لم يكن ليلقى من زعماء الهند الذين سبقوه ، الموافقة ، فقد عارضوه ، وعارضه معهم زعيم الهند (تيلاك)

وكان يومذاك أكبر الشخصيات الوطنية بروزاً ، ولكن فى اجتماع المؤتمر فى السنة التالية ، سنة ١٩٢٠ ، أقر المؤتمر برنامج غاندى الذى يهدف إلى مقاطعة الحكومة ، وعدم التعاون معها ، ورفض المناصب الرسمية . ولما كانت المقاطعة ، تشمل اللجوء إلى محاكم الحكومة وعرض الدعاوى ، عليها ، فقد تحمل المحامون من أعضاء المؤتمر خسارة كبيرة ، بالمشاركة فى هذا البرنامج والعمل به . ولكنهم قدموا هذه التضحية راضين ، فقد أنشأ المؤتمر مجالس أهلية لفض المنازعات بين الأهلين كما هجر التلاميذ مدارس الحكومة وكلياتها ، والمجالس النيابية التى رأت الحكومة البريطانية إقامتها تهدئة لغضب الهنود ، ولم تكن فى واقع الأمر ، ذات غناء أو قيمة .

وكانت الخطوة التالية فى البرنامج مقاطعة الخدمة العسكرية ، والامتناع عن دفع الضرائب ، واقترن هذا كله بتشجيع المغازل اليدوية ، حتى يجد الفلاح مصدراً جديداً للرزق ، وليكف الهنود عن شراء المنسوجات البريطانية .

ولقد شاء حسن الحظ أن يكون المسلمون الهنود فى هذه الآونة ، غاضبين لأن بريطانيا حنثت فى وعد قطعته على نفسها لهم إبان الحرب ، بشأن مصير أملاك الخليفة العثمانى ؛ فقد ظن الهنود المسلمين أنهم قادرون على الإبقاء على ممتلكات الأتراك ، مقابل ما بذلوه للإمبراطورية من دمائهم ، وهى تجتاز محنة الحرب ولكن ما كادت الحرب تضع أوزارها ، حتى وزع الحلفاء ، على أنفسهم ممتلكات الخليفة التركى ، فثار مسلمو الهند ، وألفوا مؤتمراً أسمه مؤتمر الخلافة قال الهند ، وبدأوا كفاحهم ضد الإنجليز بمظاهرة سلمية فى ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٩ ، ورأى غاندى بثاقب نظره ، أن الوقوف إلى جانب المسلمين فى صراعهم مع الإنجليز بسبب مسألة الخلافة ، مما يدعم وحدة الهند ، ويقوى حركتها الوطنية ، وفعلاً امتزجت دماء المسلمين والهندوكيين فى معركة الاستقلال والتحرر ، وقال غاندى :

« إذا أردنا أن نعيش هندوكيين ، ومنبوذين ، ومسيحيين ويهوداً ، كشعب واحد ، وجب أن تكون قضية الطائفة من طوائفنا ، قضيتنا جميعاً ، ما دامت هذه القضية عادلة فى ذاتها ، ولقد لخص نهرو أثر هذه الحركة السلمية فى بلاده فى العبارة التالية :

« وهكذا لم يكن من مخرج من الحالة التى لا تطاق والعبودية الرازحة ، ومن كان

له إحساس مرهف خامره اليأس والقنوط ، حتى برز غاندى وقدم برنامجه السلمى الذى علمنا الدرس الذى تعلمته إيرلندا من قبل فى الاعتماد على أنفسنا وتقويتنا . وظهر بجلاء مدى تأثيره فى الضغط على الحكومة . فقد كانت الحكومة تستند إلى حد كبير على تعاون الهنود طوعاً أو كرهاً ، فإذا حجب هذا التعاون وتمت المقاطعة كان من الجائز تقويض صرح الحكومة وحتى لو لم يصل الكفاح إلى هذا الحد البعيد ، فلا ينكر أنه كان أداة فعالة فى إلقاء الضغط على الحكومة وزيادة قوة الشعب . كان النضال سلمياً ولكنه لم يكن سلبياً . وإذا كانت حركة ساتيا جراها تخلو من الصنف ، إلا أنها تقف موقفاً حازماً فى وجه الظلم . وإذا كانت فى جوهرها ثورة سلمية ، فإنها كانت أكثر الحروب مدنية ، وأبعدها أثراً فى زعزعة أركان الدولة . وكانت وسيلة فعالة لإثارة الشعب إلى العمل والكفاح واتسقت كلياً مع طبيعة النبوغ الهندى وأظهرت فينا خير مزايانا وألبست عدونا ثوب المذنب . وأنقذتنا من الخوف الذى كان يغشانا ، ومكنتنا من رفع صوتنا ومخاطبة الناس مخاطبة الند للند ، ولم تعد تخفى ما تكنه ضمائرنا ، وأزاحت عن عقولنا غشاوة ثقيلة ، وربت فينا احترام الحرية بالقول والعمل والثقة بالنفس والشجاعة . وأخيراً فإن الكفاح السلمى قد وقانا شر قيام الخصومات الشخصية المريرة والأحقاد القومية التى كانت تلازم مثل هذا الكفاح كما يسرت لنا الوصول إلى التسوية النهائية »

وقد كانت الحكومة البريطانية فى الهند أول الأمر مستخفة بالحركة حتى قال عنها اللورد شلمسفورد : « إنها أسخف المشروعات السخيفة » ولكن بريطانيا ، ما لبثت أن أحست بضخامة الحركة ، وبانطوائها على كل الهند ، بكل عناصرها وأجناسها ، بعد أن وقف المسلمون لأول مرة مع الهندوكيين صفاً واحداً فى وجه الاستعمار البريطانى .

وبعد أن أقر مؤتمر الخلافة لمسلمى الهند فى ٢٨ من مايو سنة ١٩٢٠ سياسة عدم التعاون مع الحكومة بدأت الثورة السلمية البيضاء ، وفى أول أغسطس وجه غاندى خطاباً آخر إلى نائب الملك كان شارة بدء حركة عدم التعاون ، وقد جاء فى هذا الخطاب ، الذى أرسل معه غاندى المداليات التى كان قد حصل عليها من الحكومة البريطانية ، لخدماته إياها خلال حرب البوير فى جنوبى أفريقيا ، وخلال الحرب العظمى ، بقيادة وحدة متطوعين للإسعاف الطبى ، قال غاندى :

« لقد أردت أن أعيد هذه المدليات اتباعاً لمشروع عدم التعاون الذى افتتح اليوم مع حركة الخلافة . وعلى الرغم من نفاسة هذه المدليات فى نظرى ، فإنى لا أستطيع أن أحملها وضميرى مطمئن ، ما دام إخوانى المسلمون يعانون من أخطاء ارتكبتموها فى حق شعورهم الدينى . والحوادث التى وقعت فى الشهر الماضى أكدت رأيى فى أن الإمبراطورية تصرفت فى مسألة الخلافة تصرفاً مرذولا جريئاً ، بطريقة ظالمة ، وأنها كانت تخرج من خطأ لتقع فى آخر ، لكى تستر جرمها . ولست أستطيع أن أحمل لحكومة كهذه لا الاحترام ولا الحب .

« وموقفكم وموقف الإمبراطورية فى مسألة البنجاب ، كان سبباً جديداً وخطيراً لعدم رضائى . فلقد كان لى — كما تذكرون — شرف عضوية لجنة المؤتمر التى حققت فى أسباب قلاقل البنجاب فى إبريل سنة ١٩١٩ ، وإيمانى الذى بنى بعد تدبر ، أن السير ميشيل داير كان غير صالح مطلقاً لأن يشغل منصب مساعد حاكم بنجاب ، وأن سياسته مسئولة قبل كل شىء آخر عن إثارة الشعب فى امر تسار .

« وفى رأيى أن طريقة الاحتجاج العادية : طريقة العرائض ، والوفود ، وماشابهها ليست وسيلة لتحريك ضمير حكومة مستهينة بواجبها إلى أبعد حد كحكومة الهند ، ولو أن مجموعة من الأخطاء كأخطائكم فى حركة الخلافة ، والبنجاب ، قد حدثت فى أوربا لأنتجت ثورة شعبية دامية ، حيث يقاوم الناس ، بأى ثمن ، اعتداء كاعتدائكم على رجولة الأمة . ولكن نصف الهند ، أضعف من أن يقاومكم بالعنف ، ونصفها الثانى لا يريد أن يقاومكم به .

« ولذلك اقترحت علاج عدم التعاون ، ليعين الذين يريدون أن يتخلصوا من الحكومة ويحمل هذاه الحكومة — إذا لم تتلون الحركة بالعنف ، وبقيت متسمة بالنظام — على أن تراجع خطواتها وتصلح أخطاءها » .

وأردف غاندى هذا الخطاب بخطاب مفتوح آخر وجهه لكل البريطانيين المقيمين فى الهند ، عسكريين كانوا أو مدنيين ، وهو الخطاب الثانى يتضمن شرحاً أكثر إسهاباً لفكرة عدم التعاون :

عزيزى الصديق .

بودى أن يقع نظر كل إنجليزى على هذا الخطاب ، وأن يمنحه تدبراً وعناية

دعنى أقدم لك نفسى — فأنا هندى ، لا أعتقد أنه يوجد هندى آخر مثله ، تعاون مع الحكومة الإنجليزية لمدة تسع وعشرين سنة ، فى وجه ظروف كانت خليقة أن تحول أى إنسان سواى إلى ثائر ضد الحكومة البريطانية وأرجو أن تصدقونى إذا قلت إن تعاونى مع الحكومة ، لم يكن عن خوف من العقوبات المنصوص عليها فى قوانينكم ، ولا كان لدوافع أنانية أخرى ، بل كان تعاوناً حرًّا واختياريًّا ، أساسه الاعتقاد بأن الحكومة البريطانية كانت فى مجموعها فى صالح الهند — ولقد عرضت نفسى للخطر أربع مرات من أجل الإمبراطورية .

وقد فعلت كل هذا وأنا معتقد أن جهوداً كجهودى ستظفر لإخوانى بالمساواة فى الإمبراطورية . لذلك وافقت على التعاون مع الحكومة فى ديسمبر الماضى ، وكنت أؤمن أن مستر لويد جورج سيفى بوعده للمسلمين ، وأن مظاهر الاستبداد الحكومية فى البنجاب ، ستزول ، وأن حق أهل البنجاب فى التعويض سيحفظ . ولكن خديعة المستر لويد جورج ظفرت بتقديركم أنتم ، فلما أضيفت إلى هذه الخديعة فظائع البنجاب ، تمزق إيمانى فى حسن نوايا الحكومة البريطانية ، ونوايا الشعب الذى يؤيدها .

« وعلى الرغم من أن ثقتى فيكم قد ضاعت ، فإنى أقدر شجاعتكم ، وأنا أعرف أن ذلك الذى يخضع للعدل والعقل ، سيلبى داعى الشجاعة .

انظروا ما هى الإمبراطورية فى الهند .

١ — هى استغلال لثروات الهند من أجل صالح بريطانيا .

٢ — نفقات حربية متزايدة ، وإدارة مدنية هى أكثر الإدارات إسرافاً فى العالم .

٣ — تبذير تام فى كل مصلحة حكومية مع نسيان تام لمصالح الهند .

٤ — عدم تسليح الشعب الهندى ، وبالتالى القضاء على رجولة شعب بأسره ، حتى لا تتعرض حياة حفنة منكم للخطر .

٥ — اتجار فى المخدرات ، وفى الخمور .

٦ — تشريعات اضطهادية متزايدة ، لكبت ثورة نامية ، تريد أن تعبر عن ألم أمة .

٧ — معاملة قائمة على تحقير الهنود القاطنين فى ممتلكات الإمبراطورية .

٨ – استهانة تامة بمشاعرنا أدت إلى تكريمكم حكومة البنجاب ، وتجاهل لمشاعر المسلمين .

أنا أعلم أنه لا تخيفكم حربنا لكم ، ولا تجزعون من انتزاعنا صوبلجان الحكم منكم ، فأنتم تعلمون أننا عاجزون عن هذا ، فقد أكدتم عجزنا عن الحرب فى ميدان مفتوح ، وفى معركة شريفة – وبذلك لقد أصبحت الشجاعة فى ميدان القتال شيئاً مستيحلا بالنسبة لنا ، ولكن شجاعة النفس لا تزال فرصتها متاحة لأفراد شعبنا »

وفى أول أغسطس بدأت الحركة ، وفى اليوم السابق على بدئها ، عكف المجاهدون كالعادة على الصلاة ، ونذروا الصوم ، وكان أشد ما يزعج غاندى خوفه من أن تتورط الحركة فى العنف ، وكان مصدر خشيته ، علمه بأن الهنود لم يألفوا النظام ، وأن الفوضى قد تؤدى وحدها إلى العنف .

وكان يقول : « إذا أرادت الهند أن تحقق حريتها بالعنف ، فليكن العنف المنظم الذى يسمى بالحرب » ولكنه كان يرجو أن يتعلم الهنود النظام ، فلم يكف لذلك عن القول : « لنخلق من الفوضى نظاماً » . وكان يبحث عن كل سبب جعل النظام فى الهند ، فضيلة مفقودة، فقال يوماً : العقبة الكأداء فى سبيل خلق النظام أننا أهملنا الموسيقى ، فالموسيقى هى الاتساق ، هى النظام ، والموسيقى هى فى الهند تسلية القلة ، فالموسيقى لم تكن شعبية قط ، ومن أجل هذا أريد أن يكون فى كل مؤتمر أو اجتماع بعض الموسيقيين الكبار ليعلموا الجماعات الموسيقى »

ولكن هذا كله بدا للحكومة ، كما بدا للورد شالمسفورد ، سخافة مطبقة .

غير أن الحكومة تبينت مدى قوة هذه الحركة ، حينما قرر ولى عهد بريطانيا زيارة الهند ، فى ديسمبر من تلك السنة ، وقرر المؤتمر مقاطعة الزيارة ، فقد مال بنائب الملك ومعاونيه إلى الاعتقاد أن هذه المقاطعة لن تنفع ، لا لأن الهنود لم يبلغوا من التنظيم إلى حد القدرة على تنفيذ قرار جماعى كهذا ، بل لأن ولى عهد بريطانيا كان ذا شهرة عالمية ، وكان محبوباً بين الناس فى بلاده وخارجها ، ولذلك كانت صدمة الحكومة هائلة ، حينما رأت شوارع العاصمة يوم وصول ولى العهد مقفرة ، ولما حاول بعض أتباع الحكومة وأصحاب المصلحة فى تملقها ، أن يخرجوا عن قرار

المقاطعة ، بطش بهم الشعب ، مما أحزن غاندى ، وحمله على أن يصوم خمسة أيام إظهاراً للألم ، ورغبة فى التكفير عن هذا الخطأ . ولكن كل ذلك حدا بالحكومة إلى أن تصطنع العنف فى مقاومة الحركة الجديدة حركة المقاطعة ، وانتهزت فرصة حلول موعد عقد الجلسة الختامية لحرب المؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩٢١ فأمرت باعتقال عشرين ألفاً من الهنود بتهمة العصيان المدنى والتحريض عليه ، ورد المؤتمر على ذلك بتخويل غاندى جميع سلطات المؤتمر ، حتى يستطيع مواجهة ما تأتى به هذه الظروف الشديدة ، وأوامر الاضطهاد والقمع التى قد تصدرها الحكومة فى المستقبل .

ولكن صبر بعض أنصار غاندى بدأ ينفد ، تحرقاً إلى معركة أحمى وطيساً ، وأكثر إحراجاً للحكومة ، فطلبوا تحويل برنامج عدم التعاون ، إلى سياسة العصيان المدنى . والأولى بطبيعة الحال أكثر سلبية ، والثانى لا تقنع بترك وظائف الحكومة ، ومدارسها ومحاكمها ، ورد الأوسمة إليها ، والتنازل عن الألقاب الممنوحة منها ، بل تتجاوز ذلك إلى مخالفة أوامر الحكومة ، وتحدى قوانينها ، دون استعمال العنف أو اللجوء إلى القوة ، وكان غاندى يعلم أن هذا المنهج الجديد ، قد يؤدى إلى العنف ، بحكم ما سيثيره من احتكاك بين المتطوعين الهنود ، ورجال الحكومة ، ولذلك رأى أن يطبق هذا المنهج على مقاطعة واحدة على سبيل التجربة ، ووقع الاختيار على مقاطعة (باردولى) وحدث ما توقعه غاندى إذ خرجت مظاهرة سلمية فى بلدة (شاورى شاورا) ، فتعرض لها جنود الشرطة ، ثم أطلقوا على المتظاهرين النار ، فهاجمتهم الجماهير وألجأتهم إلى الاحتماء بدار الحكومة ، ثم أشعل بها المتظاهرون النار وهم داخلها ، ولما حاولوا الخروج منها ، نجاة بأنفسهم ، مزقتهم الجماهير الصاخبة إرباً ، فاستولى على غاندى بسبب هذه الحوادث حزن عميق ، وأصدر أوامره بوقف حركة العصيان المدنى فى (باردولى) فوراً ، وقرر الصوم مرة أخرى لخمسة أيام . ولكن حكومة لندن كانت ترقب الحوادث وتطورها فى الهند ، وانتشار الروح الوطنية فيها ، والتفاف الهنود حول غاندى ، وتأكد زعامته ، وزيادة استعداد الشعب الهندى للتضحية والمقاومة ، فعلت فيها الأصوات بوجوب اعتقال غاندى ، ولكن نائب الملك ، اللورد ريدنج ، كان على خلاف من هذا الرأى ،

إذ كان يعتقد أن اعتقال غاندى ، لن يفت فى عضد الحركة ، ولن يثنى الهنود عن مواصلة الكفاح ، بل إنه سيزيدهم اشتعالا ، مع إفقادها عنصر السلمية والاتزان أو يسلم قيادها إلى زعيم أكثر تطرفاً ، ولكن العناصر المتطرفة فى الحكومة البريطانية ، غلبت رأى اللورد ريدنج ، وكان فى مقدمة الدعاة إلى استعمال الشدة فى قمع الحركة الهندية ، وفى معاملة غاندى اللورد جورج لويد الذى كان حاكم بومباى فى ذلك الوقت ، والذى أصبح فيما بعد ، مندوباً سامياً فى القاهرة .

وفى ١٠من مارس ، ذهب أحد الضباط إلى صومعة غاندى وكانت وقتئذاك على مقربة من قرية (أحمد آباد) وأعلنه بأمر الأعتقال ، وقال إنه ينتظره عند سيارة حكومية ليصحبه إلى السجن ، عندما يكون مستعدًّا للذهاب معه ، ولم يكد غاندى يسمع هذا النبأ حتى تهلل وجهه ، وراح أتباعه ينشدون الأناشيد الدينية .

وعلى الرغم من أننا لسنا بصدد سرد واقعات حركة النضال الهندية بزعامة غاندى ، فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وإنما نحن نريد أن نقدم المعنى العام للحركة ، فى إطارها السلمى ، كنموذج لما يمكن أن يؤدى إليه الإيمان بعدم العنف ، لا فى مجال النظريات ، بل فى مجال التطبيق العملى ، وعلى وجه خاص ، فى مجال السياسة ، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل محاكمة غاندى التى تلت اعتقاله ، لأن هذه المحاكمة ، كانت خير إبرائه ، لفهم غاندى لمبدأ عدم العنف .

كما كانت تطبيقاً عمليًّا لهذا المبدأ ، وكشفاً عن نتائج تطبيقه ، وأثراه على الخصوم .

كان الجو مملوءاً بكل ما يدل على أن الحكومة ستخطو هذه الخطوة ، وتعتقل غاندى ، فراح غاندى من جانبه ، يفعل كل شىء ، ليستقبل أتباعه بالقبض عليه ، وإيداعه السجن ، بهدوء ، فلا يثيروا شغباً ، ولا يستسلموا للحزن على غيابه ، فكتب مقالا بعنوان « إذا قبض على » ، قال فيه :

« أريد أن يضبط الهنود أنفسهم تماماً ، وأن يعتبروا يوم القبض على يوم سرور . إن الحكومة تعتقد أننى مصدر الاضطرابات ، وأنى لو أزلت سادت السكينة ، والشىء الباقى هو أن تقيس الحكومة قوة الشعب . ليخلد الهنود إلى

السكينة ، والهدوء الكاملين ، فإنه لا يشرفنى ولا يسعدنى أن تعدل الحكومة عن القبض علىّ خوفاً من الهياج العنيف العام ، بل إن هذا يحزننى ». ثم طلب المهاتما من الشعب أن يستمر فى تنفيذ البرنامج الموضوع ، فالمدارس والمحاكم يجب أن تقاطع ، وتترك خاوية على عروشها ، والحكومة يجب ألا تجد من يتعاون معها من أفراد الشعب » وقد أطاع الشعب أوامر زعيمه .

وفى يوم ١٨ من مارس قدم غاندى للمحاكمة بتهمة تحريضه على كراهية السلطات فى مقال نشره فى ١٢ من فبراير ، إذ جاء فى هذا المقال الفقرة التالية :

« كيف يقوم أى تفاهم ، ما دام الأسد الإنجليزى يهز مخالبه الحادة فى وجوهنا ؟ إن الإمبراطورية البريطانية التى تقوم على استغلال منظم للشعوب الضعيفة مادياً ، وعلى استعراض دائم للقوة الوحشية ، لا يمكن أن تدوم ، إذا كان هناك إله عادل فى السماء .

« إنه ليكونن وقتاً سعيداً هذا الوقت الذى يمكن أن يدرك فيه البريطانيون أن المعركة التى بدأت سنة ١٩٢٠ كانت معركة لابد آتية ، سواء بعد شهر ، أو بعد ساعة ، أو بعد شهور عدة ، أو سنين كثيرة . ولكنى أرجو فقط أن يهب الله الهند تواضعاً وقوة كافيتين لتبقى بريئة من العنف »

وقد شمل الاتهام أيضاً ، مقالين آخرين ، كتبهما غاندى أولهما ، بمناسبة القبض على الزعيمين المسلمين محمد على وشوكت على ، من زعماء حركة الخلافة الإسلامية التى اندمجت فى مؤتمر كل الهند ، وتعاونت فى تطبيق برنامج عدم التعاون ، وكتب الثانى رداً على خطبة لنائب الملك اللورد ريدنج ، أما الأول فقد كتب تعليقاً على برقية أرسلها اللورد بركهند وزير الهند إلى نائب الملك يقول فيها إن الإمبراطورية ستعرف كيف ترد على تحدى الهنود لها .

وبعد أن أثبت النائب العام التهمة على غاندى ، سأل القاضى غاندى هل لديه ما يقوله ، فقال :

« قبل أن أقرأ هذا البيان المكتوب ، أريد أن أصرح أننى أقر النائب العام على على كل ما نسب إلى . وأن إقرارى بأن النائب كان منصفاً كل الإنصاف لى ، هو من أشق واجباتى ، ولكن لابد أن أؤدى هذا الواجب مدركاً مسئولياتى . كما أنى

أقر أيضاً كل اللوم الذى ألقاه على النائب العام بسبب حوادث بومباى ومدارس وشورى شورا ، فإنى لا أستطيع بعد تفكير عميق فى هـذه الحوادث ليلة بعد ليلة ؛» أن أدعى ألا صلة بين وبين هذه الحوادث الشيطانية ، فى شورى شورا ولا الهياج الجنونى فى بومباى . والنائب العام محق إذ قال أنه كان يجدر بى أن أعرف نتائج كل عمل من أعمالى سلفاً ، وأنا الرجل المسؤول الذى نال نصيباً من التربية ، ونصيباً من الدراية الدنيوية . أن أعلم أننى كنت ألعب بالنار ، ولقد وقعت فى الخطر ، ولكن إذا أفرجتم عنى سأفعل ثانية ما أحاكم من أجله الآن ، ولقد أحسست هذا الصباح ، بأنى لأكونن رجلا فاشلا ، إذا أنا لم أقل لكم هذا الذى أنا بسبيل قوله لكم .

« لقد أردت أن أتحاشى العنف ، ولا زلت أريد تحاشيه ، فإن عدم العنف ، هو أول بند من بنود إيمانى ، ثم أنه آخر بند من بنود عقيدتى ، ولكنى كنت بين أمرين ، إما أن أخضع للنظام الذى أعتقد أنه أضر ببلادى ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه ، ولمإما أن أتعرض لخطر هياج مواطنى حينما يسمعون الحقيقة ، منى . وأنا أعرف أن مواطنى يفقدون عقولهم أحياناً وإنى لشديد الأسف على ذلك ، ولذلك فإنى هنا لا لأتلقى ، عقوبة خفيفة فحسب ، بل لأتلقى أقسى العقوبات . لست أطلب الرحمة ، ولست أدعى أن جريمتى مقترنة بأى ظرف يخففها . إنى لأطلب هنا أقسى عقوبة يمكن أن توقعها على المحكمة ، باعتبارى مرتكباً لجريمة عمدية ، وسأتحمل هذه العقوبة سعيداً ، وهو ما أعده أسمى واجبات المواطن الحق .

وليس أمامك يا سيدى القاضى إلا أحد طريقين : فإما أن تستقيل ، وإما أن توقع على أقسى عقوبة ممكنة ، إذا كنت تعتقد أن النظام الذى تعينه هو صالح للشعب . ولست أنتظر أن يتم تحولك فى الحال ، فتستقيل من منصبك ، ولكنى أرجو أن تتاح لك فرصة الحصول على فكرة صادقة عما يثور فى صدرى ، ومما يحملنى على التعرض لأخطر ما يتعرض له رجل مماثل »

وراح غاندى يشرح للمحكمة كيف تحول هو من رجل متعاون مع بريطانيا ، وراغب فى مساعدتها . وأن حياته العامة بدأت فى سنة ١٩١٣ فى جو مضطرب ، وأن أول اتصال بينه وبين الإمبراطورية لم يكن اتصالا سعيداً إذ كشف إنه

ليس له حقوق كإنسان ولا كهندى ، بل إنه لم تكن حقوق الإنسان لمجرد أنه هندى .

ثم قال :

« ولقد اضطررت أن أنتهى إلى أن العلاقة بيننا وبين الإنجليز زادت الهند ضعفاً سياسياً واقتصادياً عن أى عهد من عهودها التى سلفت .

« الهند التى لا سلاح لها ولا تستطيع أن تقاوم أى معتد عليها ، إذا أرادت أن تشن عليها حرباً مسلحة ، كذلك تعتقد جماعة من رنجا لنا أن الهند لابد لها من أجيال لكى تصل إلى مركز الممتلكات فى الإمبراطورية (الدومنيون) . لقد أصبحت الهند جد فقيرة حتى ضعفت قدرتها على مقاومة المجاعات .

« قبل الاحتلال الإنجليزى كانت الهند تغزل وتنسج فى ملايين من أكواخها وكان هذا الغزل دخلا يضاف إلى دخل الهند من مصادرها الزراعية الضعيفة ، ولكن هذه الصناعة الحيوية لوجود الهند ، صناعة المغازل الكوخية حطمت بوسائل لا رحمة ولا إنسانية فيها ، كما يشهد بذلك شهود من الإنجليز .

« قليل ما يعرفه سكان المدن عن الجماعات الهندية فى القرى ، التى توشك أن تهلك جوعاً ، والتى تنحدر إلى الموت . لا يعرف سكان المدن أن مناعمهم التعسة ، ليست إلا السمسرة التى يقدمونها للأجنبى المستغل ، وأن السمسرة والأرباح ممتصة من دم الجماعات الهندية ، لا يعرفون تماماً أن الحكومة الإنجليزية تقوم على استغلال هذه الجماعات .

« إن المبالغة مهما بلغت ، وإن اللعب بالأرقام مهما عظم ، لا يستطيعان أن يشرحا ما تشرحه للعين المجردة ، الهياكل العظمية المنبثة فى كثير من القرى . ولست أشك فى أن سكان المدن وإنجلترا سيسألان — إذا كان هناك رب فى السماء — عن هذه الجريمة فى حق الإنسانية . . .

ثم قال :

« وقد تكون المادة ٢٤ من قانون العقوبات (فقرة أولى) وهى التى أحاكم بها لحسن حظى ، هى خير ما فى مواد القانون السياسى الوارد فى قانون العقوبات الهندى ، لكبت حرية الأفراد .

إن الحب لا يمكن أن ينظم ، ولا أن ينفذ بالقانون . فإذا كان ثمة شخص يكره شخصاً آخر ، أو نظاماً ، فيجب أن يترك هذا الشخص حراً فى التعبير عن كراهته . ما دام لا يفكر ولا يدعو ولا يحرض على العنف . ولكن المادة التى تهم على أساسها أنا وزميلى السيد بانكر (رئيس تحرير جريدة الهند الفتاة) تعد التعبير عن الكراهية جريمة . ولقد درست كثيراً من القضايا التى طبقت فيها هذه المادة ، فعرفت أن معظم رجال الهند المحبوبين ، قد سبق أن اتهموا بمقتضاها ، فاتهامى بمخالفتها إذن شرف لى .

ثم قال :

« عدم العنف يتضمن الخضوع لعقوبات الظالم ، لذلك أقف طالباً مع السرور ، أقسى العقوبات المقررة فى القانون والتى يمكن تطبيقها على باعتبارى مجرماً عامداً ، لأرضخ لها لأن ذلك فى نظرى هو أسمى واجبات المواطن ، والسبيل الوحيد المفتوح إما أن تستقيل من وظيفتك — وبذلك — تقطع صلتك بالشر إذا كنت تعتقد بأن القانون الذى تطالب بتنفيذه سيء ، وأننى فى واقع الأمر برىء ، أو أن تطبق على أشد العقوبات ، إذا كنت تعتقد أن القانون الذى تساعد على تنفيذه ، صالح لأهل هذه البلاد ، وأن جهودى ضارة لذلك بالمصلحة »

ولما فرغ غاندى من تلاوة بيانه المكتوب ، قال القاضى : يا مستر غاندى . . لقد يسرت لى مهمتى من جهة ، وذلك باعترافك بالجريمة ، ولكن من جهة أخرى بقى بعد اعترافك هذا ، أصعب ما قدموا جهة قاض فى هذه البلاد ، ألا وهو إصدار الحكم ، فالقانون لا يميز بين الأشخاص ، ومع ذلك يستحيل على أن أتجاهل أنك فى الحقيقة من طبقة تخالف كل الذين حاكمتهم من قبل والذين قد أحاكمهم فى المستقبل ، ويستحيل على أن أنسى أنك — فى نظر المؤمنين من مواطنيك — وطنى عظيم ، وقائد كبير ، بل حتى الذين يختلفون معك فى السياسة ينظرون إليك كرجل مؤمن بالمثل العليا ، وذى نفس نبيلة شبيهة بنفوس القديسين »

ثم قال القاضى إنه لم يجد سابقة قضائية يستأنس بها فى تقدير العقوبة ، أفضل

من الحكم الذى أصدره قاض إنجليزى منذ اثنى عشر سنة على الزعيم الهندى الكبير (تيلاك) الذى يحبه غاندى ويقدره ، وقد قضى الحكم الصادر ضد تيلاك إذ ذاك بست سنوات حبس بسيط ، ثم ختم القاضى كلامه : أرجو أن يكون ممكناً مع تطور الحوادث أن تخفف الحكومة عنك المدة ، أو تطلق سراحك ، وعندها لن يكون هناك من هو أكثر منى سعادة .

أجاب غاندى :

أريد أن أقول كلمة واحدة . ما دمت قد أوليتنى يا سيدى القاضى شرف إحياء ذكرى المأسوف عليه ، بجا جندار تيلاك ، فإنى أقول أن اقتران اسمى باسمه ، هو أعظم ، ما أزهو به ، أما الحكم نفسه ، فأنى أعده من غير شك أخف ما يمكن أن يطبقه على قاض أما كل الإجراءات المحاكمة ، فأستطيع أن أقول عنها ، إنى لم أتوقع مجاملة ، كتلك التى لقيتها من المحكمة .

ويقول أندروز الكاتب الإنجليزى ، إن غاندى استطاع بهذه المحاكمة ، وأسلوبه فيها ، أن يستولى على كل قلوب الإنجليز فى الهند ، وأن المبشرين أحبوه ، واقتربوا منه ، وكان كثيرون من الإنجليز يطلبون أن يقابلوه فى السجن ، فكان يستقبلهم كأكرم ما يكون المضيف ، وقد أجمل المستر أندروز كل هذا بقوله :

« إن غاندى أظهر — أن القديس يمكن أن يكون إنساناً عادياً ، ورجلا عملياً مدهشاً . وهو ما لم ينجح فى إظهاره إلا القليلون » .

* * *

ولما دخل غاندى السجن تذكر الناس قوله .

« ينبغى أن توسع أبواب السجون ، لكى تستقبلنا أفواجاً ، فطريق السجن والاضطهاد ، هو طريق الحرية والنصر . فينبغى أن ندخل السجن فرحين ، كما تدخل العروس غرفة الزفاف ، لأن الحرية عروس لا تخطب فى المحاكم ، والمدارس والمؤتمرات ، بل وراء أسوار السجن .

* * *

ولقد أطلنا فى ذكر ما اتصل بالمحاكمة ، لأن المحاكمة كانت بياناً عملياً

عن آراء غاندى فى عدم العنف ، والمقاومة السلمية ، فإن مجاملته للقاضى الإنجليزى لم تذهب به إلى عدم إخفاء ما دعاه إلى المقاومة للحكومة البريطانية ، ولا إلى عدم الجهر بأخطاء الحكم البريطانى ، وإساءاته إلى الشعب الهندى ، ولا إلى ما تذرع به غاندى ، ليحمل به السياسة البريطانية والحكام الإنجليز على تبين سوء الطريق الذى سلكوه ، ومدى الضرر الذى ألحقوه بأبناء الهند ، وثروتهم ، وأخلاقهم ، وصحتهم .

ولكنه لم يقل كلمة سوء واحدة فى حق إنجليزى واحد ، ولم يستعمل حرفاً واحداً ، غليظاً أو نابياً أو جارحاً وهو يشرح فكرته ، ثم انتهى بأنه طلب عقاباً قاسياً، لأنه يعتقد أن العقوبة الشديدة ، تنفع فى خدمة دعوته ، لأنها ستبين للناس أن المجاهدين (السانياجراهى) لا يخافون العقاب ، ولا يفرون منه ، بل إنهم يسجلون به براءتهم من العنف ، وانغماس عدوهم ، فى الخطأ .

ودخل غاندى السجن ، ولكنه فى سنة ١٩٢٤ ، أصيب بالتهاب فى الزائدة الدودية اقتضى نقله إلى المستشفى وإجراء عملية له ، وقد نجحت العملية ، ولكن تخلف عن العملية ، خراج ، ساءت له صحته ، فاضطرت الحكومة إلى الإفراج عنه خشية وفاته فى السجن ، ولكنه لما خرج من السجن ، واجهته حال أسوأ حالا من المرض ، فقد كانت الوحدة بين المسلمين والهندوكيين عنصراً من أقوى عناصر الحركة الوطنية ، استمدت منه دافعاً للحركة والإقدام ،وقد تأثر المسلمون من موقف الهندوكيين ، حينما تبنوا حركة الخلافة التى نظمها المسلمون احتجاجاً على موقف بريطانيا من حكومة الخلافة العثمانية ، فلما قضى مصطفى كمال على الخلافة ، وعزل الخليفة ، فترت همة المسلمين قليلا ، فانفسحت الفرصة ، للراغبين فى إثارة الفتنة بينهما ، وفعلا استأنف الفريقان خلافاتهما القديمة ، ومذابحهما التقليدية : الهندوكيون يجمعون جموعهم ، ويقفون أمام المساجد عند الصلاة ، ليصخبوا ، ويطبلوا ويثيروا ضجيجاً ، للتشويش على المسلمين ، والمسلمون يذبحون البقر المقدس علناً ، وحزن غاندى حزناً شديداً ، لكل هذا ، ولما ترتب عليه من انحسار الموجة الوطنية التى كانت قد غلت وارتفعت كثيراً ، فى فترات الضعف ، تعلو أصوات الضعفاء . وفعلا بدأ البعض يتشكك فى حركة عدم التعاون ، ويدعو إلى

المقاومة المسلحة ، وبدأ فريق ثان يدعو إلى الدخول فى المجالس النيابية ، والمجالس البلدية التى كان ممكناً للهنود أن يشتركوا فيها ، بدعوة أن دخول الوطنيين فى تلك المجالس ، على ضعف اختصاصاتها ، وضآلة أثرها ، سيدفع إليها بدم جديد ، وسيكون ذلك خطوة فى طريق الاستقلال .

وفعلا كون هؤلاء حزباً يقوم على التعاون مع بريطانيا ، وقد صبر عليه غاندى ، ولم يقبل طرد أعضائه من مؤتمر (كل الهند) حتى لا يتصدع هذا المؤتمر ، ويتفرق أنصاره .

وحاول أن يرد الجميع إلى الصواب فخاطب الهندوكيين ، باعتبارهم الأغلبية فقال :

« إن مفتاح الموقف فى يدكم ، فأنتم سبب الشقاق والشغب ، بما تثيرونه من أجل ذبح البقر بأيدى المسلمين ، فإنى مع إصرارى على حماية البقر من الذبح لاعتبار دينى ، لا أرى معنى لا ستنكار ذلك ، حين يقترفه المسلمون ، فى حين لا نحرك ساكناً لذلك البقر الذى يذبحه الإنجليز كل يوم ، فكل شغب يقوم بسبب ذبح المسلمين للبقر إنما هو لغو فارغ وجهد باطل ، لم يؤد إلى إنقاذ بقرة واحدة ، فى حين سفك دماء بشر وإخوان ، وجعل بينهم دماً ، وأرث الأحقاد ، ومع ذلك فإن أكثر البقر الذى يذبح ، باعه هندوكيون ، للجزارين المسلمين . أليس الأولى إذن ، ان أن نوثق عرى الأخوة بيننا وبين المسلمين ، ونترك لهم مسألة البقرة وعدم ذبحها ، يقرروا فيها قرارهم فى ضوء من ضميرهم ، وكياستهم »

ولما لم يستجب له الفريقان ، قرر أن يصوم ، وكان ضعيفاً بادى الهزال ، بعد مرضه ، فى أثر العملية التى أجريت له ، والخراج الذى أصيب به ، فحاول أصدقاؤه من المسلمين كحكيم خان والدكتور أنصارى أن يحملوه على العدول عن الصوم ولكنه قال : « إن الصوم أمر بينى وبين الله . وإذا أراد الإنسان أن يتصل بربه ، فهو لا يستشير فى ذلك الآخرين »

ولقد سأله المستر أندروز هل سيصوم ، حتى ولو كان جسمه عاجزاً عن تحمل عبئه ، فقال إن إيمانى بالله قوى ومتأصل فى نفسى لهذا أنا واثق أن خطراً لن

يصيبنى » . وقد مضى فعلا فى صومه واحداً وعشرين يوماً ، لم يتناول خلالها سوى الماء .

فلما وصل الصوم إلى غايته ، تجمع أهل البيت الذى كان غاندى مقيماً فيه – وهو بيت الزعيم المسلم محمد على – وبدأوا صلواتهم فى الصباح الباكر ومرت فى هدوء كامل ، فلما أوشكت الساعة أن تدق الثامنة ، أقبل عدد كبير من الزائرين . وفى الساعة العاشرة اجتمع الزعماء والأصدقاء وحضرت السيدات اللواتى كن أشوق ما يكن إلى أداء خدمة للمهاتما فى يوم إفطاره ولما قربت ساعة الإفطار ، وهى ساعة الظهيرة – طلب أن يكون أهل البيت جميعاً حاضرين حتى الخدم ، وكان الكناس قد حضر فى الصباح ، وقابل غاندى وحياه ، وشكر غاندى خدماته ولما تكامل الجمع ، رتل (إمام صاحب) ، وهو صديق لغاندى منذ أيامه فى جنوبى أفريقيا ، سورة الفاتحة ثم رتلت بعد ذلك الأغنية المسيحية :

« انظر إلى الحزن ، والحب ممتزجين ، وقد فاضت بهما رأسه ، ويداه ،
« وقدماه . .

« هل اقترن مثل هذا الحب ، وهذا الأسى ، على أشواك . .
« كونت أغلى التيجان ؟

ثم رتلت بعد ذلك أغنية الكتاب الهندوسى المقدس :

« الذين يحققون الله فى أنفسهم ، هم هؤلاء الذين يطهرون قلوبهم ، فملازمة
« الصدق ، وضبط النفس ، والتأمل والقناعة »

ثم أغنية الفشنافا :

« إنه فشنافا الصادق الذى يعرف ويحس حزن غيره ، كما يعرف حزن نفسه .
« إنه مستعد أن يخدم . إنه لا يباهى أبداً . ولا يحتقر أحداً .
« محتفظاً بطهر فكرته ، وكلمته ، وفعلته .
« مباركة أم من كان كهذا . .
« إنه يحترم كل أم ، كما يحترم أمه »

ثم تخلى غاندى عن رياسة المؤتمر بعد أن كان قد حصل على أعلى السلطات فيه ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى بين زعمائه ورجاله ، وأحل محله فى مقعد

الزعامة ، الشاعرة ساروجيني نايدو ، التي ساهمت في الحركة الوطنية كمجاهدة في الصفوف الأولى للمجاهدين .

ونذر غاندى أن يصوم عن السياسة عاماً كاملا .

وفي هذا العام – عام ١٩٢٥ – أخرج الكاتب الفرنسي الشهير رومان رولان – كتابه عن غاندى ، فكان ظهور هذا الكتاب عنه ، بمثابة بيان لما وصلت إليه شهرته في العالمين ، فقد قصده أناس من كل جانب ، فدعى مثلا لإلقاء محاضرات في أمريكا ، فاعتذر بحجة أنه رجل قليل العلم ، ولم يكد العام ينتهى حتى راح يذرع الهند ، من أقصاها إلى أقصاها ، متنقلا من قرية إلى قرية ، باذراً بذور أعظم ثورة اجتماعية فقد أخذ على عاتقه أن يحارب جميع الآفات التي تأصلت في الهند ، في ظل عقائد دخيلة على الدين ، احتمت به ، وترعرعت بسبب تدهوره وتدهور رجاله . وقد كان من أخطر ما يدمى المجتمع الهندى ، ويسلبه القوة والحيوية ، زواج الأطفال ، إذ درج الهنود على أن يزوجوا بناتهن ، وهن دون التاسعة ، فإذا فقدت العروس الطفلة زوجها الطفل الذى لا يكبرها إلا بالقليل ، كتب عليها الترمل إلى آخر العمر وأصبح الزواج منها تجديفاً بالدين ، وكان من الآفات الأخرى ، ما كان يتسامع به الناس وقتذاك ، وهو موضوع احتقار طائفة اعتبرت الطبقة الرابعة ، بعد الطبقات الثلاث المعروفة ، وهي طبقة (النماشادورا) أو (الباريا) أى المنبوذين ، الذين كانوا يعتبر ظلهم نجاسة ، ويمنع دخولهم إلى المعابد والبيوت ، ولا يسمح لهم بالتعايش مع غيرهم من أهل الطبقات الأخرى . فقد فعل غاندى كل ما في وسعه لإنقاذ مئات الألوف من الأرامل الصغيرات ، ودعى أتباعه أن يتزوجوهن ، وعد ذلك خدمة وطنية وعبادة طاهرة . أما المنبوذون فقد آكلهم ، وشاربهم ، وقربهم منه ، ودافع عنهم بكل جارحة فيه ، وانتهى الأمر بأن اختير أحدهم بعد استقلال الهند ، ليكون وزيراً .

وفي كل قرية ، كان يدعو إلى سياسة المغزل الوطني ، ويحرض كل فرد في بلاده ، على أن يخصص وقتاً في يومه ، للعمل على هذا المغزل ، وقد نسج من تلك الخيوط ، نسيج (الخادى) ، الذى صنع منه الهنود ملابسهم ، وقاطعوا – فيما بعد – ما تنتجه مصانع لا نكشير . وفي القرى أيضاً ، علم الهنود النظافة ، فقد رأوه يكنس

بنفسه شوارعهم ، فاعتبروا هذه النظافة جهاداً وطنياً ، وحرصوا عليه. وأن النور دخل إلى القرية ، وأن الإيمان الصحيح بالدين ، بدأ يغزو القلوب ، وأن المجتمع الهندى راح ينفض ما كبله من قيود الجهل والخرافة ، وأن الشعب الذى نام طويلا ، سيستيقظ ، وعندها يصبح من المستحيل إخضاعه بل ولا التفاهم معه ، ولذلك أرسل نائب الملك الجديد — اللورد هليفاكس — فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩٢٧ ، إلى غاندى ليلقاه ، فلما تقابلا أفضى نائب الملك إلى غاندى وصحبه ، أن حكومة لندن اعتزمت أن توفد لجنة تحقيق برياسة السير جون سيمون ، ولم يزد نائب الملك عن هذا النبأ شيئاً ، فخرج غاندى ، وقد أصيب بخيبة أمل ، واستأنف زحفه فى القرى ؛ ولما وصلت هذه اللجنة إلى الهند فى ٣ من فبراير سنة ١٩٢٨ هتف فى وجهها الهنود: « عد يا سيمون إلى بلادك » وقاطعوها ، ورأت بريطانيا للمرة المائة ، أن الهنود شبوا عن الطوق ، وأنهم وإن لم يشهروا سلاحاً ، إلا أن العبث بهم ، وخديعتهم ، لم يعدوا أمرين ممكنين .

وفى السنة نفسها ، قررت الحكومة أن تزيد ضرائب الأطيان بنسبة ٢٢ ٪ ، فقرر غاندى أن يقاوم هذه الزيادة ، وامتنع الفلاحون عن سداد الضريبة ، وجن جنون الحكومة ، فأخذت توقع عليهم وعلى ما يملكون من مواشى وأدوات الزراعة فضلا عن المحاصيل المحجوز ، وتبيعها بأرخص الأثمان ، وتلقى بالفلاحين فى العراء ، وزاد شعور الهنود عمقاً بما يلاقيه الفلاحون منهم من ظلم ، فزاد ذلك من تحفزهم للمعركة ، وتوج غاندى هذا الشعور بأن حدد يوم ١٢ يونيه كيوم صمت وصوم وانقطاع عن العمل ، كتحية لجهاد مقاطعة (باردولى) فمر هذا اليوم هادئاً هدوءاً جليلا ورائقاً ومروعاً فى الوقت نفسه . وخشيت الحكومة مغبة موقفها القبيح فى باردولى ، فأعلنت فى السادس من أغسطس أنها ستفرج عن جميع المعتقلين بسبب الحوادث فى تلك المقاطعة ، وردت كل ما أخذته من الأراضى مقابل الضرائب غير المدفوعة ، وألغت الزيادة فى الضريبة .

وزاد هذا النجاح من ثقة المؤتمر بنفسه ، فقرر فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ أن المؤتمر سيعلن العصيان المدنى والانفصال عن إنجلترا إذا لم تحصل الهند فى سنة ١٩٢٩ على حكم ذاتى داخل الإمبراطورية عن طريق المفاوضة والتفاهم ، وراحت

سنة ١٩٢٩ ، كسنة الاستعداد والتهيؤ للمعركة الفاصلة ، معركة سنة ١٩٣٠ .
وقد أصبح من أظهر ما تميزت به الحركة الوطنية فى سنة ١٩٢٩ ، هو حرق الملابس الأجنبية ، وأصبحت تكوم فى الميادين وتشتعل بها النيران ، وسط التهليل ، وكان النسيج الوطنى الخادى — فى الوقت نفسه — ينفرد بالسوق ، فلا يشترى الناس سواه ، ولا يلبسون غيره . وأرادت الحكومة البريطانية — كعادتها أبداً — أن تطفىء هذه النار المقدسة ، بلعبة المفاوضة ، فأعلن نائب الملك — اللورد أروين — فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٩ بأن الحكومة تنوى عقد مؤتمر مائدة مستديرة لبحث موضوع دخول الهند فى تلك الممتلكات المستقلة — كأستراليا وكندا — وانقسم الرأى ، فمن قائل بأن الدعوة جديرة بأن تلبى ، ومن قائل بأنها وسيلة لتمزيق الصفوف ، وتخدير الأعصاب ، وإضاعة الوقت — على أن غاندى كان دائماً من أنصار : أن كل خطوة يخطوها العدو نحو الهند ، يجب أن تقابل بالترحاب ، ولا ترفض ، وحدد يوم ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، ليقابل غاندى نائب الملك (أروين) وتمت المقابلة ولم يجد فيها ما يطمئن على المستقبل ، فيما لو حضر مؤتمر المائدة المقترح ؛ إذ أن أسس الحديث فى هذا المؤتمر لم تكن واضحة ، وأعلن المؤتمر الذى انعقد فى ذلك العام فى لاهور ، أنه يترك لمكتب المؤتمر تحديد اليوم الذى تبدأ فيه حركة العصيان المدنى .

وفى ٢ من مارس سنة ١٩٣٠ ، بعث غاندى بخطاب إلى نائب الملك ، مفتتحاً معركة العصيان المدنى ، التى اتخذت من مخالفة ضريبة الملح ، بداية هذه المعركة ، ولما كان هذا الخطاب ، وثيقة من وثائق العصيان المدنى ، فقد رأيت أن أثبته فيما يلى :

صديقى العزيز

أرى من واجبى قبل أن أخطو الخطوة التى اشتقت طوال عمرى من أن أقدم عليها ، أن أحاول الاتصال بك ، لعلنا نوفق إلى مخرج من المأزق الذى وصلنا إليه ، فإن إيمانى الثابت أن حياة كل حى — أيًّا كان — هى مقدسة ، ولا سيما حياة الإنسان ، ولو كان أشد أعدائى وأعتاهم . ولهذا ترانى ، على ما أضمر من كره

للحكم البريطانى ، لا أطوى جوانحى على شر لبريطانى واحد ، ولا لما عساه يكون له من مصالح فى الهند »

ثم انتقل إلى ضريبة الملح ، بوجه خاص ، لأنها مثل بارز لامتصاص دم الفلاح الهندى الفقير ، حتى فى الضروريات الأوليه كالملح ، والعبء فيها واقع على الفقراء قبل الأغنياء . وأن الغاية من هذا الاستغلال ، هو أن تمتلئ بطون السادة الإنجليز من الموظفين الذين يتقاضون أضخم المرتبات من أفقر أمة فى العالم :

« خذ مثلا مرتبك بوصفك نائباً للملك ، أنه يبلغ ١٣٢٠ جنيهاً فى الشهر عدا العلاوات الإضافية والمكافآت ، أى نحو ٥٥ جنيهاً فى اليوم ، مقابل أربعة مليمات هى متوسط الدخل اليومى للفلاح الهندى الذى يدفع لك هذا المرتب . ومعنى هذا أن راتبك يساوى دخل خمسة آلاف هندى . مع أن راتب رئيس وزراء إنجلترا لايساوى أكثر من دخل تسعين إنجليزياً . وما يقال عن مرتب نائب الملك ، يقال عن مرتبات سائر الموظفين الإنجليز ، فلست أرى شيئاً يضع حداً لعدوان الحكومة المنظم ، إلا عدم عدوان منظم نقوم به من جانبنا . . فيتخذ عدم العدوان المنظم شكل عصيان مدنى عام ، ينضوى تحته كل راغب باختياره ، وكل مرادى أن أفتح عيون قومك على ما فعلوه بنا من شر ، دون أن ألحق بهم أدنى أذى ، فغايتى إن أحسنتم فهمها ، هى خدمتكم بمنعكم من مقارفة الشر كما أخدم أمتى بالتخلص من آثار هذا الشر .. فالفرصة متاحة لك فى الأيام التسعة لتلافى الأمر بإزالة الآثار السيئة لسياسة الحكم البريطانى فى الهند ، كما أنه فى مقدورك القبض على . وفى هذه الحالة الأخيرة ، أؤمل أن يكون آلاف من المخلصين ، قد وطنوا النفس على إدارة دفة العصيان ، بشكل منظم . وأرجو أن يكون مفهوماً أننى أبعث إليك بهذا ، لتمهيد طريق الوفاق ، قبل فوات الأوان ، لا على سبيل الإرهاب والوعيد ، وسوف أؤجل نشر هذا الخطاب ، فإذا أحببت ألا أنشره ، وآثرت التفاهم ، فأبرق إلى بذلك .

صديقك المخلص

مهنداسى كراشند غاندى

ولكن هذا الخطاب الجميل المؤثر ، لم يترك أثراً فى نفس نائب الملك ، وهو أمر طبيعى ، فغاندى كان يتكلم بلغة لا يفهمها نائب الملك الذى يتقاضى من قوت الفلاح الهندى ٥٥ جنيهاً كل يوم ، لا ليمد يده لمعونة هذا الفلاح ، ولا لرفعه إلى مستوى البشر ، بل لتكبيله بسلاسل من الخوف والجوع والمهانة ، والعلل والأسقام ، ليكون استغلال الهند ، أيسر ، وإذلالها أطول . . ولم يتفضل نائب الملك بالرد بنفسه على رسالة المهاتما ، مكتفياً بتكليف سكرتيره الخاص القيام بهذا الرد ، ولم يزد الرد عن أن نائب الملك يأسف لأن غاندى اختار هذا الطريق المؤدى إلى القلاقل والإخلال بالأمن .

أى أمن ! طبعاً أمن الحكومة الإمبراطورية ، التى تريد أن تترك ، لتطحن البشرية الهندية بأقدامها . وقال غاندى تعقيباً على هذا كله ، لقد ركعت على ركبتى ، وسألتهم خبزاً فألقمونى حجراً .

وفى يوم ١٢ من مارس بدأت حملة العصيان ، بعد أن صلى بمن كان معه فى الصومعة ، بدأ سيره — على اسم الله وبركته — نحو الشاطئ حيث اعتزم أن يخالف قانون ضريبة الملح ، بأخذ الملح من الشاطئ ، وقطع فى مسيرته المقدسة هذه مائتى ميل فى أربعة وعشرين يوماً ، مخترقاً فى طريقه مئات القرى حيث كان يتوقف ليلقى خطباً وأحاديث ، وحيث كان يخرج الفلاحون ، ليستقبلوه ملوحين بأغصان الأشجار فى أيديهم وناشرين ورق الشجر فوق الأرض ، وكان مع غاندى شبان ، كلت أقدامهم من السير ، فركبوا العربات ، وراح غاندى ، وهو فى الحادية والستين فى نشاط متدفق يسبق الجميع ، والعبء كله فوق كتفيه الناحلتين ، عبء القيادة ، والخطابة ، والأحاديث ، وإثارة الروح المعنوية ، والتأكيد على معانى العصيان المدنى ، والتطهر الروحى ، للفرد والمجتمع . تطهر الفرد من الخوف ، والطمع ، والحقد ، والعنف ، وتطهر المجتمع من آفاته ، آفات نبذ المنبوذين ، والخمور والمخدرات ، والكراهية المتبادلة بين الهندوكى والمسلم . فلما وصل غاندى قرية (دندى) عند الشاطئ فى الخامس من إبريل ، كان الموكب خلفه ، قد ضم الآلاف ، وباتوا ليلتهم ، وفى الصباح تبعوا غاندى حيث التقط حبة ملح ، فهتفت الشاعرة ساردجينى نايدو :

مرحى بالخلاص . . . يحيا المخلص ! . . .

وكان هذا إيذاناً للهند بأن تحذو حذو الزعيم ، وأن تتحدى قانون الملح ، فأخذ كل فلاح ، تقع قريته على الشاطئ أو قريباً منه يستخرج الملح من ماء البحر فى جرنه ، وردت الحكومة على ذلك بالقبض على الناس بالمئات والألوف ، ورد المتطوعون الوطنيون بدورهم على جنون الحكومة ، ببيع الملح جهراً ، ليزجوا إلى السجون ، ولما ثبت للحكومة أن الاعتقال والسجن ، لم يخف أحداً ، ولم يضعف الحركة عمدت إلى الوحشية ، فأهوى رجال الشرطة على المتظاهرين بالهراوات ، ثم انتهوا إلى إطلاق النار عليهم . وفى بعض البلاد ، كان المتظاهرون يخرجون بالآلاف متجهين إلى البحر ، فإذا وقفت الشرطة أمامهم ، افترشوا الأرض ، أياماً ، ورجال الشرطة حولهم ، فإذا هاجمتهم خيول الشرطة ، انبطحوا على الأرض ، كى تدوسهم الخيل بسنابكها ، فيضطر الجنود إلى الإحجام ، فإذا اعتقل هؤلاء ، حل غيرهم محلهم فى نفس اليوم (١) .

وفى ليلة ٥ من مايو ، كان غاندى نائماً بين أتباعه ، فى قرية قريباً من (دندى) ، فدخل ضابط إلى العريشة التى ينام فيها غاندى وسلط ضوء مصباحه على وجه غاندى ، فاستيقظ ، ونظر إلى الطارئ حامل المصباح ، وسأل هل تريدنى ؟ . فذهب معه غاندى ، وقد حمل معه ، حوائجه القليلة ، إلى السجن ، وحلت محل غاندى ، الشاعرة ساروجينى نايدو التى قادت زحفاً ، كان غاندى قد اعتزم القيام به إلى مصانع الملح ، بدلازاتا ، وسار وراء الشاعرة ألف وخمسمائة ، وعلى بعد مائة خطوة من المصانع وقف الجميع ، ثم تقدم صف من خمسة وعشرين متطوعاً إلى سور الأسلاك الشائكة الذى وقف وراءه الجنود المدججون بالسلاح ، فأمرهم الجنود بالتقهقر ، ولكن المتطوعين واصلوا زحفهم ، فانقض عليهم الجنود بكعوب البنادق يهشمون رءوسهم ، حتى سقطوا جميعاً دون أن ترتفع همسة احتجاج أو تمتد يد ، بدفع يد ، وسائر الجيش كأن على رءوسهم الطير ، حتى إذا انتهى الصف الأول ، تقدم صف مثله وتقدم ضابط ، فلمس ذراع الشاعرة ، قائلا : ساردجينى نايدو ، أنت مقبوض عليك .

فنحت يده وقالت : سآتى معك ، ولكن لا تلمسنى .

وسمى هذا اليوم (بذات السوار) نسبة إلى الشاعرة وكان فى كل الهند ، فى نفس اليوم ، يوم كيوم ذات سوار ، خرج فيه الهنود العزل ، يستقبلون بنادق الجنود غير خائفين ، وكان العزل من السلاح هم الذين يحاصرون ، الأقوياء بالحدود والنار ، ثم يغلبونهم على أمرهم .

ولما تفاقمت الأزمة ، أحست إنجلترا بمدى حماقتها ، فأحنت رأسها للعاصفة ، وأعلنت على لسان رئيس وزرائها رامزى ماكدونالد رئيس حزب العمال ، أنه سيعقد مؤتمر مائدة مستديرة لمناقشة مشكلة الهند وأفرج عن (غاندى) وأوفد حزب المؤتمر ، غاندى فقط يمثله فى هذا المؤتمر ، فسافر إلى إنجلترا ومعه حاشية منها الثرى الهندى الشهير (بيرلا) فى الدرجة الثالثة ، على سطح الباخرة (راجوبيتانا) . ولما وصل إلى لندن ، اختار له فندقاً متواضعاً فى الحى الشرقى من لندن (إيست لندن) وهو حى الفقراء ، وكان يذهب سيراً على أقدامه إلى وسط المدينة حيث كان يعقد المؤتمر . وقد كانت زيارة غاندى للندن ، دعوة جميلة لقضية الهند ، ولأفكار زعيمها ، وسجلت الصحف ، والكتب ، مئات من النوادر التى تكشف عن فكر وروح المهاتما ، فقد ذكر أن أحد الأطفال رأى غاندى سائراً فى الطريق ، وهو لا يتخذ من الثياب ، سوى شملة بيضاء لا تغطى ساقيه الرفيعتين ، فرآه فصاح : غاندى أين سراويلك ؟ فقهقه غاندى . ولما ذهب إلى مقابلة الملك والملكة فى قصر بكنجهام الملكى ، وخرج ، أراد أحد الأشخاص أن يلفت نظره إلى أنه لم يكن يليق به أن يقابل الملك والملكة بهذه الثياب فقال لغاندى : أتظن أنك كنت تلبس من الثياب ما يكفى ؟ فقال غاندى على الفور : على كل حال كان الملك يلبس ما يكفى لكلينا .

وأراد شا لى شابلن أن يقابل المهاتما ، فاعتذر لأنه لم يكن قد سمع عنه ، فلما قيل له إنه ممثل عظيم ، نشأ فى حى فقير فى لندن ، وخرج من عائلة فقيرة ، رضى أن يقابله ، ودار بينهما حديث ملىء بروح الدعابة التى تملأ كليهما ، كما زاره برنارد شو ، وقال لغاندى إنه هو (المهاتما الصغير) ، وإنهما ينتميان إلى جالية قليلة العدد جداً فى العالم .

وعلى الرغم من أن شخصية غاندى لفتت نظر أهل العاصمة الإمبراطورية ،

والعالم الأوربى بأسره ، إلا أن المؤتمر نفسه لم يحقق نجاحاً ، فقد ضمت فيه الحكومة البريطانية كل الهنود الذين تقضى عليهم مصالحهم بأن يتشبثوا بالحكم الإمبراطورى البريطانى ، وبإبقائه إلى أطول أمد ممكن بكل جرائمه وفظائعه . وعاد غاندى إلى بلاده ماراً بباريس حيث ألقى خطباً هناك ، ثم بسويسرا حيث لقى صديقه رومان رولان الذى ألف عنه — كما قلنا من قبل — كتاباً رائعاً سنة ١٩٢٤ ، دون أن يلتقيا . ولما وصل غاندى إلى بلاده ، تلقته السلطات البريطانية لتودعه السجن من جديد ، بعد أن كان فى ضيافة الملك والملكة فى لندن .

وقد كان سبب فشل مؤتمر لندن أن الحكومة أرادت أن يكون أساس الدستور الدستور الجديد للهند ، تخصيص عدد من الدوائر لكل طائفة من طوائف الهنود ، فللهندوكيين عدد ، وللمسلمين عدد آخر ، وللمنبوذين عدد ثالث ، وهكذا ، وقد رفض غاندى أن يقبل نظاماً سياسياً لبلاده يفرق بين طوائفها ، أو يؤكد الفرقة القائمة ، ويجعلها أساساً لحياتها . ولكن حكومة لندن لم تحفل بمعارضته ، وأصرت على إنفاذ سياستها ، فلما علم غاندى بذلك ، وهو فى السجن ، أرسل من سجنه ، خطاباً إلى السير صمويل هور وزير الهند ، خطاباً أعلنه فيه ، أنه إذا مضت الحكومة على هذا العزم ، فإنه سيصوم حتى الموت .

وجاء رد الوزير فى ١٣ من إبريل سنة ١٩٣٢ بأن رأى غاندى سيكون محل الاعتبار ، ولكن فى ١٧ من أغسطس أعلن رئيس الوزراء عزم الحكومة على إنفاذ هذه الخطة ، فقال غاندى : لا مناص من دفع هذا القرار بحياتى . وليس أملى إلا أن أعلن صوماً أبدياً حتى الموت ، أنقطع فيه عن كل طعام ، عدا الماء القراح أو الممزوج بالملح والصودا . . ويبدأ هذا الصوم ، عند ظهر ٢٠ من سبتمبر » .

وأرسل إليه رامزى ماكدونالد رئيس الوزراء خطاباً طويلا شرح له فيه الغاية من الدستور القائم على تخصيص دوائر للطوائف ، قائلا إن قصد الحكومة رعاية الطبقات الضعيفة ، كطائفة المنبوذين ، فرد عليه غاندى بأنه لا يمانع فى أن تأخذ هذه الطوائف الضعيفة التى جحد حقها فى الماضى ، ما يناسب عددها من الدوائر فقط ، بل ولا فى أن تأخذ أكثر مما يتناسب معها ، ولكنه يأبى أن يفرق

بين الهندوكيين على هذه الطريقة ، وحاول عدد من الزعماء أن يثنى غاندى عن عزمه على الصوم ، وأظهر بعضهم سخطه على موقف غاندى الذى يمنح موضوع المنبوذين عناية تنسيه المشكلة الأساسية ، وهى مشكلة الاستقلال ، ولكن غاندى صمم على موقفه ، واستجاب الشعب لهذا الموقف ، استجابة رائعة ، فقد دبت الحياة من جديد للحركة الوطنية ، بعد أن كانت قد خبت نارها ، وأرسل يسأل طاغور رأيه فرد عليه بقوله : « إن وحدة الهند وتكاملها الاجتماعى مطلب حقيق بتضحية الحياة وإن غلت ؛ وإن قلوبنا لترقب كفارتك المجيدة بالحب والإجلال » .

وفى منتصف الساعة الثانية عشر ظهراً ، تناول غاندى طعامه الأخير ، قبل صومه ، وكان يتألف من عصير الليمون والشهد الممزوج بالماء الساخن ، ثم بدأ الصوم ، وقد صام ملايين الهنود أربعاً وعشرين ساعة فى ذلك اليوم مشاركة للمهاتما ، فلم تنقطع الأناشيد الدينية والابتهالات فى كل مكان . ونقلت ساروجينى نايدو من سجن النساء ، لتقوم على تمريضه .

ولكن صوم غاندى نجح فى أن يحمل زعيم المنبوذين الدكتور (امبدكار) على زيارة غاندى فى السجن ، وكان الصوم قد أتعب غاندى من اليوم الأول ، حتى خيف على حياته ، فكان الكلام كله (لامبدكار) الذى كان مصمماً فى البداية على التمسك بما اقترحه الإنجليز من تخصيص عدد من الدوائر للمنبوذين . ولكن الجو الذى أوجده صوم غاندى ، هيأ السبيل للتفاهم ، فقبل (امبدكار) أن يكون التخصيص من الهندوكيين للمنبوذين بمعنى أن يكون للهندوكيين عدد من المقاعد فى المجالس التشريعية ، ويدخل فى هذا العدد ما كان سيخصص للمنبوذيين أصلا ، ويتولى الهندوكيون التنازل عن بعض مقاعدهم للمنبوذين ، والغاية من هذا كله ألا ينفصل المنبوذون عن إخوانهم الهندوكيين ، لأن هذا الانفصال ، سيؤدى إلى إبقاء المنبوذين طائفة مستقلة مع أنهم أصلا جزء من الأغلبية الهندوكية ، ولم يفصلهم إلا سوء فهم للدين . وبعد تصلب طويل من (امبدكار) ، قبل الحل الذى اقترحه غاندى ، فعلت فى البلاد موجة من الفرح ، أغرقت كل ما كان قد تحرك فى النفوس من توجس وارتياب وخوف . وفتح البراهمة ، أبواب المعابد للمنبوذين ، بعد أن كانت محرمة عليهم ، وجلس أحبار البراهمة ، وهم أعلى المجتمع الهندوكى ،

مع الكناسين الأنجاس المنبوذين ، وأكلوا معاً وشربوا سوياً ، وحقق غاندى لبلاده انتصاراً عظيماً .

* * *

على أن عقيدة (عدم العنف) دخلت فى امتحان رهيب لم تدخل فى مثله ، على الرغم من كل ما اعترض سبيلها من مآزق ، كانت تقذف بالشك فى نفوس أتباعها من أنصار غاندى . . ذلك لأن الحرب العالمية الثانية ، نشبت فى اليوم الأول من شهر سبتمبر ، فتساءل الهنود ، هل سنقف مكتوفى الأيدى أمام هذه الحرب . أم سنقف مع الإنجليز ، تعبيراً عن السخط على العدوان النازى ، أم سنقف مع الألمان ، ضد الإنجليز ، باعتبار أن الإنجليز هم الذين أذلوا الهنود ، واستعبدوهم وأفقروهم . ثم أى نوع من التأييد تمنحه الهنود للطرف الذى سيختارون الوقوف إلى جانبه — هل سيحاربون وبذلك يخرجون على عقيدة عدم العنف ، أم سيكون تأييدهم ، لوناً جديداً من عدم العنف ، أو المقاومة السلمية ، فإذا كان ذلك هو السبيل المفتوح أمام الهنود ، فكيف يطبق مبدأ المقاومة السلمية ، وأتون الحرب مشتعل .

وقد بدأت الأزمة ، بالبيان الذى أصدره مكتب الحزب — حزب مؤتمر الهند — فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، فقد سجل الحزب عطفه على بولندا ، ولكنه ذكر الدول الديموقراطية — إنجلترا وفرنسا وحليفاتها — بأن عدواناً سبق وقوعه على دول غير بولندا ، كمنشوريا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا والحبشة ، فلم تحرك هذه الديموقراطيات نفسها ساكناً ، إزاء العدوان على تلك الدول ، مما أغرى محور ألمانيا — إيطاليا ، باستمراء العدوان والاستمرار فيه ، وأن الديموقراطيات حينما تخاذلت فى نصرة هذه الدول ، كانت تفكر فى مصالحها ، مما أدى آخر الأمر إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية . وسجل الحزب فى بيانه ، أن الديموقراطيات نفسها ليست سوى إمبراطوريات ، تنافس مثيلاتها من الطامعين فى بسط النفوذ على الآخرين ، وأنها إذا عدلت عن خطة الاستعمار ، فإن الهند المستقلة الديموقراطية ، ستقف فى صف الدول الديموقراطية ضد كل معتد .

وقد شهد غاندى هذه المناقشة التى سبقت إصدار البيان ، ولم تكن هذه

فكرته ، لأنه كان يرى وجوب منح بريطانيا المعونة بلا قيد ولا شرط ، دون التفكير في استغلال حرج موقفها ، ولكن لأن الأغلبية رأت الرأى الذى عرضه البيان وسجله ، فقد سايره ، رغبة منه فى الإبقاء على الوحدة فى الحزب وفى الوطن ، وذهب فى هذه المسايرة إلى حد أنه هو الذى قصد نائب الملك ، وأبلغه قرار الحزب ، وقد حمل الكثيرون على غاندى بسبب موقفه هذا ، واعتبروه خائناً لماضيه ، ناكلا عن مبادئه ، فرد غاندي على ناقديه بقوله إن بذر الشقاق بين المواطنين ، هو نوع من العنف ، لا يجب أن يتورط فيه . ومع ذلك فإن نائب الملك رد على بيان الحزب ، بأن فترة الحرب ، لا تسمح للحكومة بالنظر فى شىء يتعلق بالهند أو بنظام المستعمرات ، وإن أوان ذلك سيجىء بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فقرر الحزب عدم مساعدة بريطانيا ، ثم دعا وزراءه فى الولايات إلى الاستقالة .

وتوالت هزائم الدول الديموقراطية ، وأشفقت تلك الدول من المستقبل ، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى أن توصى لنائبها فى الهند إلى أن يتلمس سبباً لاستئناف المفاوضة مع حزب المؤتمر ، وفعلا عرض نائب الملك على حزب المؤتمر ، زيادة نصيب الهنود فى سلطات الحكم بالهند ، ولكن كان عرض الفتات على الهنود قد فات أوانه ، فرفض المؤتمر هذا العرض ، وأبى إلا أن تمنح الهند استقلالها ، وأن يقوم فى البلاد حكم مركزى لتتأكد وحدتها ، وكان على رأس الحكومة البريطانية ، تشرشل أشد المحافظين مغالاة ، فرفض بدوره طلب المؤتمر ، بدعوى أنه لم يتول رياسة الوزارة فى بريطانيا ، ليقوم بتصفية الإمبراطورية .

وبدأ العصيان المدنى ، أول الأمر بصفة فردية ، فقد كان زعماء الحزب ، يتطوعون تباعاً لمخالفة أمر من أوامر الحكومة ، فيقبض عليهم ، ولما حل عيد الميلاد رأى غاندى أن توقف حملة العصيان المدنى حتى لا يعكر على البريطانيين عيدهم ، فرد الإنجليز على هذه التحية ، بإلقاء القبض على مولانا أبى الكلام أزاد ، وكان رئيس المؤتمر فى تلك السنة ، ثم توالى الاعتقال حتى بلغ عدد المعتقلين ٢٤ ألفاً .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، ألقت الطائرات اليابانية قنابلها على ميناء بيرل هاربور ، فأغرقت ما أغرقت من وحدات الأسطول الأمريكى ، ثم راحت تتقدم ، ومستعمرات

الإنجليز وممتلكاتهم تسقط الواحدة فى أثر الأخرى فى يد اليابان ، حتى سقطت سنغافورة فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، ثم سقطت جاوة والجزر الهندية ، وأدركت بريطانيا أن اليابانيين ، أصبحوا على أبواب الهند ، وأنهم سيفتحون هذه الأبواب وشيكاً » .

ولما رأى تشرشل الخطر يهدد إمبراطوريته التى كان يظن أن العناية اختارته ليحميها ، اضطر أن يحنى رأسه وأن يرسل السير (ستافورد كريبس) ، ليفاوض الهنود ، وأطلق سراح الزعماء المعتقلين .

ولم يستطع رسول تشرشل أن يعرض شيئاً ذا بال ، وعاد إلى بلاده فى ١٢ أبريل دون أن يحقق أى نجاح . وفى يوليه سنة ١٩٤٢ سقطت بورما . وكان رأى غاندى ألا يضع الهنود العراقيل فى وجه المجهود الحربى البريطانى مع عدم التعاون معه ، والاستعداد لمقاومة الغزو اليابانى ، مقاومة سلبية ، بمعنى ألا يقدم الهنود لهم كساء ولا غذاء ولا مأوى ، ولا يتعاونون مع السلطات اليابانية الغازية عسكرية كانت أو مدنية ، فإذا أصبح ذلك صعباً ، يهجر الهنود كل بلد تقع فى أيدى اليابانيين ، ويتركونها خاوية .

ووجه غاندى بياناً إلى اليابانيين ، حذرهم فيه من توهم أن الهنود سيرحبون بهم ، باعتبارهم أعداء بريطانيا التى أذلتهم وضنت عليهم بالاستقلال . ولم تكن بريطانيا فى حالة تسمح لها بالتصرف بحكمة ، فقد أذهلتها الهزائم المتوالية ، وضياع هيبتها ، وعلى الرغم من أن حزب المؤتمر ، عدل قراره إلى التعاون مع الحلفاء بالقوة المسلحة والمجهود الحربى الكامل إذا منحت الهند استقلالها ، فإن الحكومة ألقت القبض على غاندى ونهرو ، وسائر زعماء حزب المؤتمر ، ولما أعلنت (كاستور باى) زوجة غاندى أنها ستخطب فى اجتماع بمدينة بومباى كان غاندى معتزماً أن يخطب فيه ، قبض عليها هى أيضاً .

وانطلق العنف الحكومى من عقاله ، ضارباً على غير هدى ، فأرسل غاندى إلى الحكومة فى ١٠ من فبراير سنة ١٩٤٣ أنه سيصوم ، لأنه لا يملك وسيلة يضغط بها عليها لتعدل عن سياستها الهوجاء إلا أن يبذل حياته ، لتصعد روحه إلى بارئها ، احتجاجاً على حكومة الإنجليز وسياستهم . ولما وصل غاندى فى صيامه إلى اليوم

السابع ، ساءت صحته ، فارتفعت الأصوات من كل جانب ، احتجاجاً على موقف الإنجليز منه ، ولكن نائب الملك — وقد أصبح وقتذاك اللورد لنجثلو — أصم أذنيه دون جميع تلك الأصوات حتى بدأ رجال الدولة يستقيلون بالجملة ، وكانت صحة غاندى آخذة فى التدهور ، فأخذ دمه يكثف ، وتوقفت كليتاه عن العمل فى اليوم الثالث عشر ، وركعت إلى جانبه زوجته ، وهى تحسب أنه سيلفظ أنفاسه . وبجهد جهيد أقنع صحابة غاندى ، زعيمهم أن يتناول مع الماء ، نقطاً تمنع القىء ، كما نجحت زوجه فى إقناعه أن يمزج مع الماء ، قطرات من عصير البرتقال ، فشربه وهو يبكى .

ومضت الأيام الأربعة التالية ، على نفس النسق ، ونائب الملك ، متصلب فى موقفه يأبى أن يلين ، وبلغ من تشدده ، أن رفض أن يسمح لمندوب الرئيس روزفلت ، أن يزور غاندى فى سجنه . ولم يغير اللورد لنجثلو قراره حتى انتهت مدة خدمته ؛ فأرسل إليه غاندى فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ خطاباً يقول له فيه : إنه لم يسىء إليه نائب من نواب الملك مثلما أساء إليه ، وإنه يسأل الله أن يلهمه يوماً بالشعور بمدى هذه الإساءة ، ومع ذلك فهو يرجو له الخير ، وأنه سيبقى له الصديق الصدوق .

ورد عليه اللورد لنجثلو : بأنه يود أن يعبر بأكثر الألفاظ لطفاً ، لغاندى أنه لا يقره على تأويله لأقواله وأفعاله . أما فعل الزمن فى تصحيح الآراء والعواطف ، فما من رجل رشيد يرفضه .

ونقل غاندى من السجن إلى منزل أغا خان ليعتقل فيه ، فوجد الأحزان فى انتظاره ، فقد لحق سكرتيره الذى خدمه ، وعاشره ، وعاش معه كصديق وتابع خمساً وعشرين سنة ، وبعده بقليل ، ماتت كاستوربای زوجة غاندى ، فلما عاد من تشييع جنازتها ، قال إنه لا يستطيع أن يتصور الحياة بدونها وقال إننا عشنا سوياً اثنين وستين سنة ، ثم ماتت فى حجرى ، وإنى لأحمد الله على هذا المصير وإنى بهذه الكرامة لسعيد سعادة تجاوز كل حد » .

ولما أصيب غاندى بأنيميا شديدة الخطر ، وساءت حاله ، وتسامع الناس بخبر مرضه ، هموا بالهجوم على مكان اعتقاله ، فأفرجت عنه الحكومة فى السادس من مايو سنة ١٩٤٤ ، وكان ذلك آخر عهده بالسجن ، الذى قضى فيه ٢٠٨٩

يوماً فى الهند ، و ٢٤٩ يوماً فى جنوبى أفريقيا ، فجملة أيامه فى السجن، ست سنوات وستة أشهر وثمانية عشر يوماً .

وقد يكون من الخير أن ننقل هنا ما سجله نهرو عن أزمة عدم العنف خلال فترة الحرب فى صفحة ٤٥٠ من كتابه كشف الهند قال :

« على الرغم من الماضى ، ومن كل ما حدث فيه ، فقد كنا (نحن الهنود) متحرقين لنقدم عوننا فى الحرب ، وخصوصاً فى الدفاع عن بلادنا .

« ولكن غاندى وجد نفسه عاجزاً عن أن يتنازل عن مبدئه الأساسى — مبدأ عدم العنف — حتى عند ما تقضى الحاجة بتطبيق هذا المبدأ ، على الحرب الخارجية . إن دنو الحرب دنواً شديداً من بلادنا ، كان تحدياً لغاندى ، وامتحاناً لإيمانه ، فإذا فشل ، فى تلك اللحظة الحرجة فإنه لم يكن أمامه سوى أحد أمرين . فإما أن يسلم بأن عدم العنف ليس مبدأ كلياً ، وعقيدة أساسية ، وأسلوباً فى العمل ، وإما أنه قد أخطأ بالتخلى عن مبدأ عدم العنف ، وقبول المصالحة بينه وبين غيره من المبادئ . لم يكن فى وسع غاندى أن يترك عقيدة بنى عليها حياته ، وأقام كل نشاطه . وقد أحس أن من واجبه أن يقبل برضا كل نتائج واحتمالات (عدم العنف) .

« ولست أذكر أن موضوع (عدم العنف) بحث فيما يخص الجيش والبحرية ، والطيران ، والشرطة . فقد فهم كل منا بلا مناقشة أن تطبيقه مقصور فقط على كفاحنا من أجل الحرية ، وإن كان له أثره القوى على تفكيرنا فى نواح عديدة . فقد حفز هذا المبدأ ، حزب المؤتمر ، إلى تأييد عدم التسلح الدولى ، بحرارة ، كذلك إلى تأييد فض المنازعات الدولية بالطرق السلمية ، كفض المنازعات الداخلية ؛ وقد أرادت بعض الحكومات المحلية — حينما كانت تعمل فى الأقاليم — أن تشجع التدريب العسكرى ، فى الجامعات والكليات ، ولكن حالت دون ذلك ، حكومة الهند (البريطانية — المركزية) ولا شك أن غاندى لم يرض عن ذلك ، ولكنه لم يتدخل . فإنه لم يكن ليوافق على استعمال الشرطة كقوة مسلحة فى فض الإضرابات » .

« وقد كان أول اتصال لغاندى بمشكلات الحرب ، فى التاسع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٣٩ ، إذ أرسل بادرفسكى ، رئيس جمهورية بولندا السابق ،

وعازف البيان الشهير ، برقية إلى غاندى طالباً منه أن يستعمل نفوذه بين الهنود ، ليكسب عطفهم وتأييدهم لقضية بولندا ، فى وجه التهديد الألمانى بالغزو ، وكان بادرڤسكى من الشخصيات التى تقابلت مع غاندى إبان زيارته لأوروبا ، فلم يتردد غاندى فى أن يوجه البيان التالى :

« إن قلبى بطبيعة الحال ، مع البولنديين ، فى صراعهم غير المتكافئ ، الذى اشتبكوا فيه دفاعاً عن حريتهم . ولكنى مدرك للحقيقة المؤلمة ، حقيقة أن كلماتى لا أثر لها على مجرى الحوادث . وإنى أتمنى لو كانت لدى القوة التى تمنع هذا التخريب الجنونى الذى يجرى الآن فى أوربا . إنى من أبناء أمة فقدت استقلالها ، وهى تجاهد لتحرير نفسها من ربقة أعظم القوى الاستعمارية فى العالم ، مستعينة فى ذلك ، بطريقة عدم العنف الفريدة ، وإن كانت هذه الطريقة قد أثبتت فعاليتها إلى حد ما ، إلا أن الهدف، لا يزال يبدو بعيداً .

« لذلك كان كل ما أستطيع أن أبعث به إلى البولنديين الشجعان ، هو دعاء صادر من القلب ، من أجل خلاص قريب من محنتهم المروعة ، ومن أجل أن تكتب لهم الشجاعة التى تعينهم على تحمل العذاب ، الذى يرتعد الإنسان لمجرد تصوره . إن قضيتهم عادلة ، ولذلك فإن نجاحهم أكيد ، فإن الله دائماً يدافع عن الحق » .

وفى يوم الأحد الثالث من سبتمبر سمعت الهند ، صوت نيفل تشمبرلن المرتعش ، وهو يعلن أن بريطانيا أصبحت فى حالة حرب مع ألمانيا ، وفى يوم الثلاثاء الخامس من سبتمبر ذهب غاندى لمقابلة اللورد لنجثلو نائب الملك ، وقضى معه ساعة ، ولما خرج من هذه المقابلة قال للصحفيين الذين كانوا فى انتظاره عقب انتهاء المقابلة ، إنه أفضى لنائب الملك بأنه لا يستطيع أن يتصور إمكان تعرض لندن للدمار ، من غير أن يضطرب إلى غاية أعماقه ، وقد روى أن غاندى ، انفجر باكياً ، حينما تمثل صورة البرلمان الإنجليزى (ووستمنستر أبى) وقد حاق بهما الدمار . ولكن لم يفت غاندى أن يقول لنائب المللك إنه لا يستطيع أن يتحدث باسم الشعب الهندى ، فى هذا الموقف ، ولا باسم حزب المؤتمر ، وأضاف أنه لا يزال يؤمل حتى الآن فى أن يصغى هتلر لصوت العقل ، ولنداء

جميع الجنس البشرى المتعقل ، ولا أستثنى من ذلك الشعب الألمانى نفسه الذى لا أستطيع أن أصدق ، أنه يقبل بهدوء إخلاء مدن ضخمة كلندن ، خوفاً من الموت والخراب ، ولا أتصور إحاقة الدمار بها ، وبآثارها . ولذلك فلست مشغولا بنجاة الهند وخلاصها ، فإنهما آتيان بلاشك ، ولكن ما قيمة خلاص الهند ، إذا سقطت إنجلترا وفرنسا ، أو إذا خرجتا من الحرب ظافرتين على ألمانيا التى خربت واستذلت ؟ ولكن يبدو لى أن الهر هتلر ، لا يعرف إلهاً ، سوى القوة الوحشية ، كما يقول المستر تشمبرلن ، وهو لذلك لن يستمع لشئ عدا صوت القوة »

وبعد يوم من تصريحه هذا ، نقل عن غاندى أنه قال : إذا كانت الهند معتزمة أن تمنح بريطانيا عونها، فليكن عوناً غير مشروط . بمعنى أنه لا يجوز للهنود أن يفتحوا موضوع الحصول على تنازلات من بريطانيا ، مقابل بذل المساعدات لها خلال فترة الحرب ، وبقصد تعزيز مجهودها الحربى.

وفى ١٥ من سبتمبر أعلن أنه كان يقصد، بالمعونة والمساعدة اللتين قد تبذلهما الهند ، المعونة والمساعدة التى يمكن أن تمنحا لبريطانيا وحلفائهـا فى حدود « عدم العنف » . ولكن حزب المؤتمر — كما مر بنا — قرر على لسان لجنته التنفيذية ، أنه لن يؤيد بريطانيا وحلفاءها ، إلا إذا أجيبت طلبات الهند الوطنية ، وأيد غاندى هذا القرار ، وأضاف إليه أن المقصود بتأييد مجهود بريطانيا ، هو بذل أقصى المساعدة الروحية والأدبية ، فإن الحزب لا يحارب إلا بوسائل عدم العنف ، مهما كانت هذه الوسائل من القصور أو البدائية .

وقد انتهى إلى القول بأنه خلص إلى أن هتلر مسئول عن إثارة الحرب ، وقد يكون مصيباً فيما خلص إليه، أو مخطئاً ؛ وسبب اعتقاده بخطأ هتلر ، أنه رفض اقتراح روزفلت بعرض الخلاف بين هتلر وبولندا على ممر دانزج على التحكيم ، فقال إنى لأرجو أن يكون موقفى واضحاً للذين وجهوا إلى النقد ، فإن عواطفى وتأييدى لإنجلترا وفرنسا، ليس مصدرهما انفعالا وقتياً، أى لوناً من الهستيرية بل إنهما صادران من ينبوع عقيدة (عدم العنف) التى لا تنضب . لست أدعى العصمة ، ولكنى أحسب أن عطفى على إنجلترا وفرنسا له أساس من حكم العقل — وأنى لأدعو

الذين يقرون أساس عطفى هذا ، أن يتبعونى . أما ماذا ستكون صورة هذا العطف ، فأمر آخر . كل ما أستطيع أن أفعله ، هو أن أتجه إلى الله ، و أصلى ، وهذا ما قلته لنائب الملك ، فقد أفضيت إليه ، أن عطفى ليست له قيمة مادية فى وجه التخريب المادى الذى يصطليه الذين اشتبكوا فى الحرب » .

ولكن الأنباء نقلت إلى العالم أن غاندى وعد ببذل مساعدة للحلفاء غير مشروطة ، فأثار ذلك جزع المؤمنين بالطرق السلمية مما اضطر غاندى إلى القول ، بأن كلمة غير مشروطة لم ترد فى بيان له ، وأنه حتى إذا كانت لجنة الحزب التنفيذية قد وعدت بمساعدة من هذا النوع ، فهى تعنى المساعدة الأدبية ، لا الاشتراك فى الحرب بجيوش مجندة من الهنود .

وقال إن أصدقائى فى بريطانيا ، لن يجدوا صعوبة فى تبين موقفى ، ولكن لهم أن يقولوا إنى بوصفى من معارضى الحرب لا أستطيع آن أعطيهم حتى التأييد الأدبى ، ولقد قلت من قبل ، إنى لا أعتنق مثل هذا الرأى « فإن من حق معارضى الحروب ، أن يوازنوا بين معسكرى المتحاربين ، وأن يتمنوا النجاح والفوز ، لمن كان الحق فى جانبه ، وبهذا فإنهم يعملون على التوفيق بين الفريقين ، بدل الوقوف والتفرج عليهما »

وواضح من كل هذه التصريحات المختلفة أن غاندى كان فى ورطة . فهو أولا مدين لبريطانيا بثقافته ، وملئ القلب بالولاء الروحى لها ، وهو ككل الأوفياء ، لا يستطيع أن ينزع من قلبه حبه لها ، وهو حب يلون أفكاره من حيث لا يدرى ، ولا يشعر . وثانياً ، هو شديد الرغبة بسبب هذا الوفاء فى أن يساعد بريطانيا وفرنسا ، ولكنه يشعر بأن عقيدة عدم العنف تقيده ولذلك فهو يخشى أن يكون ما سيبذله فى حدود هذه العقيدة أمرًا تافهاً ، والحرب تشتعل وتأتى على الأخضر واليابس ، وتدمر المدن ، وتكتسح الدول . وكلامه كله يشير بأنه خجل من هذه المعونة الحقيرة التى لا يملك سواها ، ويشتد عليه الشعور ، حتى يكاد ينصح بأن تساعد الهند ، الحلفاء بكل شىء ، حتى بالتطوع فى جيوشها . ولكنه لا يلبث حتى يجزع مما يكاد يقع فيه من مخالفة صارخة لعقيدته ومبدئه . وهو فى اضطرابه الروحى هذا ينتقل من القول بأنه ليس فى وسع الإنسان ، أن يقرر أى المتحاربين على حق

فى معظم الأحوال ، يعود فيقول إنه على المؤمنين بالسلام ، أن يختاروا بين المعسكرين ، المعسكر الذى يحارب من أجل الحق . وهكذا كانت الحرب بضخامتها ، وباحتوائها على الكثير والعديد من المشكلات والمسائل ، تحدياً لغاندى ولسياسته ، وإن كان قد صمد فى النهاية ، لما آمن به منذ البداية .

ولقد بدا اضطراب غاندى ، وبدت حيرته ، فى مقاله المعنون : هذا سبيلى قال فيه :

« إن رد فعل الحرب عندى ، هى أنها فزع أكبر من أى فزع شهده الناس من قبل . وإنى لم أشعر بالألم ، شعورى به اليوم . وهذا الفزع الأكبر ، يحول بينى اليوم ، وبين أن أكون الشاويش المتطوع الذى كنته فى الحرب العالمية الأولى .

« ولذلك قد يبدو غريباً ، إن أقول أن عواطفى كلها مع الحلفاء . فإن الحرب ، آخر الأمر ، تتبلور فى صراع بين الديموقراطية كما طورها الغرب ، والحكم الكلى[1] كما يمثله الهر هتلر . وعلى الرغم من أن الدور الذى تلعبه الروسيا ، لداع إلى الألم ، ولكن دعنا نتمنى أن يؤدى التحالف غير الطبيعى (بين الحلفاء الديموقراطيين من جهة وروسيا من جهة أخرى) إلى اندماج ، لا يستطيع أحد منا أن يتكهن به الآن .

« وما لم يصب الحلفاء انهيار روحى ، ليس ثمة علامة واحدة من علاماته ، فإن هذه الحرب يمكن أن تستعمل لإنهاء كل الحروب ، أو على الأقل الحروب الضارية التى نشهدها الآن .

« كما أنى أتمنى أن تلعب الهند — وإن كانت ممزقة الآن بخلافاتها الداخلية — دوراً فعالا فى تحقيق الخاتمة المرجوة ، أى فى نشر ديموقراطية أكثر نظافة من الديموقراطية التى وصلنا إليها . وهذا يتوقف بصفة أساسية على مسلك اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر خلال هذه الفاجعة التى تجرى على مسرح العالم . هذه الفاجعة التى نلعب فيها الدور المزدوج : دور الممثلين ، ودور المتفرجين فى آن واحد .

« وقد وضح سبيلى سواء تصرفت كمرشد متواضع للجنة التنفيذية ، أو — من غير رغبة فى الإساءة — كمرشد للحكومة ، فإن غايتى من الإرشاد ، أن أقود كلا من الحزب والحكومة أو أحدهما إلى طريق عدم العنف — ولو كانت خطواتى إلى هذا الطريق غير محسوسة . فإنه من الواضح ، أنه ليس فى وسعى ، أن أستحث سرعة

---

(١) الحكم الكلى ، هو الحكم الذى يمثل الزعيم قمته ، والذى تجتمع فى شخص زعيمه كل السلطات .

هذه الخطوات . فليس بين يدى غير القوة التى يمنحها الله إياى فور اللحظة . ليس لدى خطط محددة ، فإن ميدان الحرب ميدان لا عهد لى به ولا تجربة لى فيه . وعلى ذلك ، ليس أمامى إلا أن أختار وسائلى . ولست سوى داع من دعاة عدم العنف سواء ملت إلى رأى نائب الملك أو رأى لجنة الحزب ، ولذلك فإن هذا الذى أفعله ليس سوى جزء من الخطة العملية وستتجلى لى الطريق ، شيئاً فشيئاً كما كان الحال معى فى كل خططى السابقة .

« ولكن إذا افترضت أن الله أسبغ على ، ومنحنى سلطات كاملة (الأمر الذى لم يفعله قط) فإنى بمقتضى هذه السلطات كنت أطلب من الإنجليز أن يلقوا بسلاحهم ، ويحرروا كل عبيدهم ، ويقنعوا بأن يكونوا « الإنجليز الصغار » ، ويتحدوا كل الدكتاتوريين (أصحاب الحكومات الكلية) أن يفعلوا أقصى ما فى وسعهم . وكنت أسأل أيضاً الهنود أن يتعاونوا مع الإنجليز فى هذا الاستشهاد الإلهى ، وأنها لتكونن إذن زمالة تحررت وثيقتها بحروف من الدم ، لا زمالة بيننا وبين ما نسميهم الأعداء . ولكن الله لم يمنحنى سلطة عظيمة كهذه . وإن عدم العنف لنبات يبطأ نموه ، كما أن نموه ليخفى على الأعين ، وإن كان أكيداً . وإنى لمصمم على أن أتصرف بوحى من الصوت الهادئ الصغير — الصوت المنبعث من داخلى — ولو لم يفهمنى أحد » .

والحق أن حيرة غاندى بسبب ما أثارته الحرب من مشكلات ، وما انطوت عليه من تحد لعقيدة عدم العنف ، وتساؤل الناس ، ماذا يفعل عدم العنف فى وجه قوى زاحفة ، وهائلة ، ومدمرة كالقوات التى أعدها هتلر ، وأعد مثلها الحلفاء ؟ وهل تستطيع الهند أن تواجه اليابان مثلا إذا هى غزت الهند ، وماذا يفعل الهنود أمام طائرات ودبابات وأساطيل اليابانيين ؟ هل يقتصرون على عدم معونة العدو الزاحف ، أم يقفون فى وجه مدافعه ودباباته ليحصدهم فى أيام ، أم يهجرون بلادهم ، ويدعون ما فيها من وسائل للنقل ، ووسائط للحياة ، أم يدمرونها ؟ . إن حيرة غاندى أمام هذا كله ، وضغط الآراء المختلفة كلها عليه ، ومن كل جانب ، جديرة بالاحترام . فلو لم يكن غاندى رجلا صادقاً ، وراغباً فى أن يكون وفياً لمبادئه ، لما انتابته هذه الحيرة ، ولأصدر قراره فى كلمة واحدة ، كما فعل غيره . ولكنه مذبذب بين فكرة

مساعدة بريطانيا بلا قيد ولا شرط ، لكيلا يستغل ظرف بريطانيا السيئ ، بانشغالها فى الحرب ، ليكسب شيئا لقضية بلاده ، وبين أن تقتصر المساعدة على مجرد التأييد الأدبى ، ثم أخيراً بين تعليق هذه المساعدة على أن تحصل الهند على حقوقها الوطنية فى الاستقلال ومن منحها بلا قيد أو شرط .

ولقد اضطرته الحرب أن يقول المزيد من الأفكار التى كانت تثير النقد والسخط حيناً ، والدهشة والاستغراب حيناً آخر ، والتى كانت تربك وتحير الناس حيناً ثالثاً .

ومن بين بياناته التى حيرت الناس أو صدمتهم المقال الذى نشره فى ١٨ يونيه سنة ١٩٤٠ والذى مدح فيه الماريشال بيتان الفرنسى وأثنى عليه وعلى شجاعته ، لأنه حقن دماء شعبه ، من أن تسفك فى حرب لا جدوى منها ، ولا نفع ،وقال : إن قرار بيتان دل على شجاعة هذا السياسى التى تتناسب وتتلاءم مع شجاعة الجندى الفرنسى التى لا يشك فيها أحد . وربما أن يحسن هتلر معاملة الفرنسيين الذين كفوا عن قتاله ، وأن يكون موقفهم هذا ، داعياً إلى إعادة السلام .

وقال :

« إن ما سفكه هتلر من دم ، لم يضف واحداً على مليون من بوصة نحو التقدم الإنسانى ، والبناء الروحى للإنسانية . ولكن لنتصور عكس ما جرى ، أى لنتصور أن التشيك والبولنديين والنرويجيين والفرنسيين والإنجليز كانوا مؤمنين بالمقاومة السلمية أى بعدم العنف . إنهم كانوا قادرين على أن يقولوا لهتلر حسبك استعداداً للحرب ، فإنك قادر على أن تقضى علينا ، بدون كل هذا السلاح ، وكل ذلك العتاد الذى تنفق فى سبيله ، وتستعد من أجله. وكان الذين ماتوا مثلا وهم يقاومون هتلر يموتون أيضاً ، ولكن دون أن يقتلوا هم أحداً ، ودون أن يطووا صدورهم على حقد أو حسد ، ودون أن يلحق ببلادهم وببلاد الأعداء ، ما لحق بها فعلا من جراء الحرب » .

ومن بين الآراء التى بدت للناس غريبة ، أنه قال، وخطر الغزو اليابانى يحلق فوق رأس الهند ، إنه لن يلجأ إلى خطة (الأرض المحروقة) ، وهى خطة تقوم على حرق المدن ، قبل أن تسقط فى يد الأعداء ، فلا يجد فيها مأوى ، ولا وسيلة من

وسائل الحياة ، بل إنه سيترك المدن الهندية، عامرة بكل ما فيها؛فإن عدم العنف يمنعه من أن يهدم المساكن ، ويخرب المدن ، ويعدم وسائل الحياة .

وقد دار فى ٣ من إبريل سنة ١٩٤٠ حديث بين غاندى وبين آلان مورهيد مندوب جريدة الديلى إكسبريس اللندنية صمم فيه على جميع أفكاره هذه،وبخاصة أنه لن يقاوم اليابانيين إذا غزوا الهند مقاومة عسكرية،لأن لدى اليابانيين قوة قادرة على سحق الهنود ، بحيث تصبح المقاومة عبثاً،وأما إذا كانت اليابان والهند متساويتين فى القوة ، فإن كلا منهما سينزل بالآخر من الخسائر فى الأرواح والأموال ، ما يجعل الحرب بينهما ضرباً من الجنون ، أما إذا كانت الهند أقوى من اليابان بحيث تستطيع أن تسحقها ، فإن الهند يجب أن تمنع نفسها من أن ترتكب ذلك الجرم ، إذ أن استقلال الهند مع تدمير اليابان ، يفقد معناه .

والخلاصة أن عدم العنف هى — عند غاندى — السياسة المثلى فى جميع الأحوال ، وفى مواجهة جميع الأخطار ، وقد انتهى غاندى إلى القول بأن جيش الهند سيسرح بعد انسحاب الإنجليز .

على أن انتصار غاندى الجدير بكل احترام فى رأيى ، كان إبان محنة تقسيم الهند . فقد أصر محمد على جناح زعيم رابطة الإسلام (مسلم — ليج) على أن تقسم الهند بين الهندوكيين والمسلمين ، رافضاً كل حل يؤدي إلى التعاون بين الطائفتين فى حكم الهند . وتحرج الموقف، ثم وقعت مذابح طائفية دامية فى البنغال ، وفى بيهار، حيث راح الهندوكيون يقتلون المسلمين ، حيناً ، والمسلمون الهندوكيين حيناً آخر . وقرر غاندى أن يذهب إلى البنغال حيث توجد أغلبية إسلامية ، وأخذ يتجول بين المسلمين بغير حراسة ، وكان غاندى إذ ذاك فى السابعة والسابعين ، وكانت صحته قد تدهورت ، ومع ذلك راح يخوض فى الأوحال ، ويتنقل فى مناطق تسوء فيها حالة المواصلات إلى أبعد الحدود ، من قرية إلى قرية ، متحدثاً إلى الفلاحين فى بساطته ، التى تفتح له القلوب . وفى مارس سنة ١٩٤٧ جاء اللورد مونتباتن من قبل إنجلترا إلى دلهى ليقوم بمحاولة أخيرة ، وجاء غاندى من منطقة بيهار التى كانت مسرحاً لمذابح طائفية ، ولكن جناح أصر على التقسيم مؤمناً بأن ذلك هو السبيل لحقن الدماء ، ولوضع حد لمزيد من الأحقاد والكراهية بين

أبناء الدينين ، ولحماية المسلمين من عسف الأغلبية الهندوكية المتعصبة التى خرجت من حكم الدين السليم الصحيح ، إلى حكم التقاليد التى لا تمت إلى العقيدة الصحيحة بنسب ، وبدا التقسيم أمراً لا مفر فيه ، وفعلا استقلت الهند ، وانقسمت فى الوقت نفسه .

وتم الانقسام ، ولكن الهند والباكستان (الدولة الحديثة) اختلفتا على كشمير ، وشبت من جديد نار التعصب الحمقاء ، فأحرقت فى الهند بيوت للمسلمين ، وصودرت مساجدهم ، لتكون مأوى للهندوكيين الذين طردوا من الباكستان . وقد كانت هذه الأيام أسوأ ما عرف غاندى فى حياته ، بعد أن طعن فى السن ، وضعف فى الجسم ، وفقد أمين سره ، وزوجته ، ورأى بلاده بعد طول الجهد والمثابرة ، والعناء والاحتمال تنقسم . ثم رأى مواطنيه يذبحون بعضهم بعضاً وهو الذى دعاهم طوال حياته لنبذ العنف . وأعلن غاندى أنه سيصوم حتى الموت إذا لم يكف الهندوكيون عن ذبح المسلمين ، وبدأ صومه فى ١٣ من يناير سنة ١٩٤٨ ، وهو يقول : لقد نفدت طاقة احتمالى البشرية ، فلما رأيتنى خاوى الوفاض والآمال والقدرة ، وقد أعيانى الكفاح ، وضعت رأسى المكدود فى رحاب الله كى أريحه ، فألهمنى الله عزاء الصوم . .

« وإنى لأوجه بهذا الصوم خطاباً مفتوحاً إلى قلب كل هندوسى ومسلم ، فى الهند والباكستان على السواء . فإذا استجابوا فإنى سعيد ، وإذا مت فإنى أسعد بالموت منى بمرارة القنوط والحيرة فى هذه الحياة »

وما زال صائماً حتى تلاقى زعماء الطائفتين ، وذهبوا إلى غاندى فى يوم السادس (١٨ من يناير) ، وأبلغوه أنهم تواصوا على منع الناس من العدوان على إخوانهم ، وإيقاف السلب والنهب وطرد الناس من بيوتهم ، ورد المساجد إلى المسلمين بعد أن احتلها الهندوكيون . فسألهم غاندى هل اتفقوا حقًّا أم إنها وسيلة لمنعه من الاستمرار فى الصيام . فإذا كانت النية خالصة ، فإنه ذاهب إلى الباكستان ليتم رسالته التى بدأها فى الهند ، فأكدوا له أنهم صادقون ، وقدم له أبو الكلام أزاد ، كوباً من البرتقال ، فأفطر عليه .

وتهلل غاندى ، وقال إذا رضيتم بهذا الميثاق عادت إلى الرغبة فى الحياة ،

واستطعت أن أعيش إلى أقصى ما يسمح به عمر الناس أو إلى ١٣٥ سنة .

وبعد يومين من إفطاره ، كان يؤدى صلاته ، والناس من حوله ، فألقى عليه هندوكى قنبلة لم تصبه ، وكان هذا الهندوكى لاجئاً إلى مسجد من مساجد المسلمين ، وطردوه منه ، عندما أخليت المساجد من اللاجئين الذين اتخذوها مأوى ، وهنأه الناس على نجاته ؛ فقال : إن نجاتى لا تستحق التهنئة ، إنما أكون جديراً بالتهنئة ، إذا أنا أصبت ولم أغضب ولم أحزن ولم أحقد .

وكانت نبوءة . .

فى الساعة الرابعة والنصف من مساء ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ كان غاندى متجهاً إلى صلاته فى قصر بيرلا ، معتمداً على حفيدتيه اللتين كان يداعبهما بقوله « إنهما عصواى اللذان أدب عليهما » فتصدى له شاب قصير ممتلئ اسمه ناثورام ، وأطلق عليه ثلاث رصاصات سقط مع الأخيرة منها ، وهو يصيح (أى رام) أى يا إلهى . . ولم يتكلم . .

الكتاب الثالث

الحرب العالمية الثانية والأمم المتحدة

الفصل الأول

لماذا قامت الحرب العالمية الثانية

يقول هيود دلتون فى كتابه « حرب هتلر » ، نقلا عن كتاب سابق له معنون « نحو السلام بين الشعوب » .

« لقد دلت احصائيات الحرب العالمية الأولى أن عشرة ملايين قد قتلوا خلالها، وعشرين مليوناً جرحوا، وتسعة ملايين طفل فقدوا آباءهم، وخمسة ملايين زوجة ترملن . وقد أخبرتنا هذه الإحصائيات نفسها عن مدى ما سببته هذه الحرب من خسارة فى مختلف صورها — وهى خسارة يكفى تصورها لشل العقل ، وأثقال القلب بالسقم .

« ولنرجع بذاكرتنا الضعيفة إلى الوراء . لنذكر ثانية العشرة ملايين جندى الذين ماتوا . وليتخيل أحدنا أن الظروف أتاحت له أن يقف كإمبراطور أو مشير ، أو كسياسى كبير ليستعرض على أبواب الأبدية هذه الملايين ويتلقى التحية منها .

« إن هذه الملايين إذا سارت فى صفوف . كل صفّ يضم أربعة ، استغرق مرورهم أمام منصة ، ثمانين يوماً ، متواصلة ، بلياليها ، أى من مطلع الشمس ، إلى مطلعها فى اليوم الثانى ، بلا توقف ، طوال ساعات النهار والليل ، والفجر ، والغسق، ويخص من هذه الأيام الثمانين للضحايا البريطانيين ثمانية أيام بلياليها ، أكانت هذه التضحية قليلة ؟ »

ثم قال :

« فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ظفرت القوات المتحالفة لفرنسا ، والكومنولث البريطانى ، وإيطاليا ، والولايات المتحدة ، بانتصار كامل فى البر ، والبحر ، والجو ، وخلف الجبهة . فقد انهارت ألمانيا وحلفاؤها ، وتناثرت النمسا والمجر ، إلى شظايا ، وتمزقت على أيدى الأقليات فيها . وبذلك تكون الحرب من أجل إنهاء الحرب ، قد تكللت بالنجاح .

« وقد بدا أنه كان فى إمكان المنتصرين ، أن يصنعوا سلاماً دائماً ، فى إطار نظام جديد للعالم . وقد جاء ولسن عبر المحيط من أمريكا إلى أوربا ، ليعلمها كيف تنشئ هذا الإطار ، ثم وصل إلى باريس .

فأى خطأ وقع ؟ أى خطأ وقع لكيلا يتحقق هذا الأمل ؟

وقد استرسل دلتون ، فى بيان هذا الخطأ ، أو الأخطاء ، التى قضت على هذا الأمل ، وقادت خطى العالم ، الذى دفع هذا الثمن الباهظ فى الحرب الأولى ، إلى الحرب مرة أخرى .

ودلتون هو زعيم من زعماء حزب العمال ، شهد عملاً طويلا ليصل حزبه إلى الحكم فى بريطانيا ، ولما وصل الحزب إلى الحكم ، اشتغل هو فى وزارة الخارجية ، معاوناً للوزير العمالى هندرسن أكثر من مرة فى أكثر من حقبة ، وكان عضواً بمجلس العموم البريطانى فى سنة ١٩٢٤ ، وموظفاً كبيراً فى وزارة الخارجية من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣١ ، وعاد إلى مجلس العموم فى سنة ١٩٣٥ . ثم وصل إلى منصب الوزارة . فروايته للحوادث ، وتحليله لها ، ليست رواية مؤرخ ، وإنما هى رواية عامل فى الحقل السياسى ، ومطلع على خفاياه ، وليس هو من الساسة الذين ورثوا المنصب السياسى ، وإنما وصل إليه فى كفاح بين صفوف الشعب ، فنظرته خالية من عيوب النظرة الرسمية التى تنظر إلى الأمور من عل ، وهو من العمال ، فاتهامه بالجمود ، أو الرجعية ، لا تقوم على أساس . فلننظر كيف يفسر تورط أوربا ، مرة أخرى ، فى جنون الحرب ، لتخسر من زهرة أبنائها أكثر مما خسرت فى الحرب الأولى ، ولتهلك فى أتون القتال ، من بلايين الجنيهات أضعافاً مضاعفة ، كما أهلكت فى مجزرة سنة ١٩١٤ .

وهو لا يعتقد أن معاهدة ڤرساى على ما بها من عيوب هى وحدها التى أفضت إلى ما انتهت إليه حالة الأمور فى أوروبا ، التى أدت بدورها إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية .

فمعاهدة ڤرساى فى رأيه قد أقامت الدول على أساس حرية كل جنس أو شعب فى أن يستقل بحكومته ، وأن يشكلها على الصورة التى ترضيه ، وبفضل هذه المعاهدة ، ومبدأ تقرير المصير الذى قامت على أساسه ، تحرر البولنديون والتشك ،

والسلوڤاك ، بعد عهود طويلة من العبودية . كما اتحد الكروات ، والسلوفنيون ، مع ذوى قرباهم من الصرب ، وأنشأوا معاً دولة يوغسلافيا . كما عاد الفرنسيون والرومانيون والطليان الذين كانوا يعيشون فى ظل حكومات لا تمت لهم ، إلى الأرض الأم ، وأصبحوا أجزاء من فرنسا، ورومانيا و إيطاليا . وكانت النتيجة الختامية لعملية التحرير هذه ، أن هبطت الأقليات من ٤٥ مليوناً قبل معاهدة ڤرساى إلى ١٩ مليوناً فقط ، وهو تقدم لا شك ترضى عنه الاتجاهات الحرة ، وهو فى ذاته خطوة نحو إزالة أسباب الاحتكاك بين الدول بعضها وبعض ، وبين الجنسيات داخل كل دولة على حدة .

وكان من خيرات معاهدة ڤرساى فى رأى دلتون أيضاً أنها أنشأت عصبة الأمم ، ومكتب العمل الدولى ، وأنها حاولت نزع السلاح ، وعقدت له مؤتمرات ، وأوجدت نظام الوصاية على البلاد التى كانت أجزاء فى إمبراطورية الأتراك ، أو التى كانت مستعمرات لألمانيا .

وهذا الوجه من النظر إلى الأمور يدل على سذاجة مطبقة ، ولعل هذه السذاجة بذاتها هى التى أدت إلى الحرب . فتحرر الأقليات ، كان اتجاهاً مستمراً ، سابقاً على الحرب ، وعلى معاهدة فرساى ، وكانت هذه الأقليات تهز الإمبراطوريتين النمساوية والتركية . ولو لم تقم الحرب ، ولو لم تعقد معاهدة ڤرساى ، لانفصلت هذه الأقليات ، واستقلت بحكومات خاصة بها ، كما استقل الطليان ، وكما استقل الألمان والرومانيون والبلغار واليونان باعتراف دلتون نفسه . وعصبة الأمم ، ليست سوى أداة عاجزة ، زادت مع الأيام عجزاً ، حتى أصبحت آخر الأمر ، مسخاً يثير الضحك أكثر مما يثير الاحترام ، أو لعله يثير الإشفاق والأسى ، أكثر مما يثير الهزء والامتعاض .

ولكن دلتون يرتب أسباب الانهيار الذى حدث فى فترة ما بعد الحرب ، ترتيباً يجعل فى مقدمته نفض الولايات المتحدة — بعد هزيمة ولسن— يدها من شئون أوربا بعامة ، ومن عصبة الأمم بصفة خاصة . فالولايات المتحدة ، انتابها الملل من متابعة شئون أوربا ، ولم يعد يهمها من هذه الشئون سوى استعادة ما أنفقته فى الحرب ، واستيفاء ديونها التى أقرضتها للدول الحلفاء . وقد بلغت هذه الديون الأمريكية على

أوربا مجتمعة ٢,٣٦٠ مليون جنيه كما كانت أمريكا تداين انجلترا وحدها بـ ٩٣٠ مليوناً »

ويقول : دلتون إن الولايات المتحدة لو تريثت قليلا ، لاستطاعت أن تضبط الأمور بين دول الحلفاء ، ولما تركتهم يتفرقون . وإن أكبر المصائب التى نجمت عن خروج الولايات المتحدة من المسرح الأوربى ، أن فرنسا ، خيل إليها أنها أصبحت وحيدة عزلاء ، فراحت تتخبط تخبطاً أدى إلى إشاعة روح الخوف ، والتحفز ، بدلا من أن يسود أوربا ، بعد الحرب الطاحنة المدمرة ، روح من الوفاق، والطمأنينة والاستقرار. فقد كان مطلب فرنسا الأساسى ،على لسان المسيو كليمنصو رئيس وزرائها وممثلها فى مفاوضات الصلح فى ڤرساى ،أن يكون نهر الراين نهاية حدودها فى الشرق ،إذ بغير هذا تبقى دائماً تحت رحمة الألمان وجيوشهم الساحقة .

ولما كانت إجابة فرنسا إلى هذا المطلب ، معناه سلخ جزء كبير وهام من ألمانيا ، وإضافته إلى فرنسا ، مما يجعل السلام بين الدولتين فى المستقبل مستحيلا ، ومما يزود الشعب الألمانى بوقود هائل لحقده ، ورغبته فى الثأر . فقد رفضت كل من إنجلترا والولايات المتحدة إجابة فرنسا إليه

ولذلك كان البديل لكل هذا معاهدة ضمان توقعها بريطانيا والولايات المتحدة ، يتعهدان فيها ، بأن أى عدوان عليها يعتبر عدواناً عليهما ، وقد رضيت فرنسا بهذا البديل ، ولكن توقيع الولايات المتحدة ، وبريطانيا على معاهدة تفرض عليهما هذه الالتزامات ، معناه أن كلا منهما سيصبح من دول أوربا . وسياسة بريطانيا التقليدية ألا تتورط فى مشكلات أوربا أبداً ، وألا تخوض فيها ، ولا تتصل بها إلا بالقدر الذى يلزم لحماية مصالحها هى . أما سياسة الولايات فهى أمعن فى البعد عن أوربا ، وأحرص على عزلتها من بريطانيا ذاتها . فرفضت الولايات المتحدة توقيع معاهدات الصلح كلها بما فيها هذا الضمان ، وفعلت بريطانيا ذلك .

وقد انتهى الأمر بفرنسا ،وعلى رأسها المسيو بوانكاريه — إلى احتلال منطقة الرور الألمانية الغنية بمناجم الفحم ، وقد كان هذا الاحتلال نذيراً بما سيعقبه من توتر الموقف الدولى ، وتأزمه . وساعد على هذا التأزم ، أن رياسة اللجنة التى وكل إليها تقدير التعويضات المطلوبة من ألمانيا عن خسائر الحرب ، التى كان مقرراً إسنادها

إلى مندوب أمريكا، آلت بسبب انسحاب أمريكا، إلى فرنسى ، فبالغ فى طلب هذه التعويضات مبالغة لو أخذ بها ، لكان من المستحيل على ألمانيا أن تستعيد وجودها الاقتصادى ، ولأدى خرابها المادى إلى عجزها عن دفع التعويضات من جهة ، وإلى الاضطراب فى شؤونها من جهة أخرى مما يفتح فيها أبواب التطرف أمام الزعماء ،وقد انتهى تقدير التعويضات المستحقة على ألمانيا إلى مبلغ ٦٦٠٠ مليون جنيه استرلينى . ولذلك بادرت أمريكا ، بإرسال أحد سياسيها ، وهو (داوز) بصفته خبيراً اقتصادياً لمعالجة مشكلات التعويضات ، وبسبب تدخلها هذا قبلت فرنسا الانسحاب من منطقة الرور فى سنة ١٩٢٤ وأقر نهائياً مشروع أمريكى آخر للتعويضات عرف بمشروع (يونج) وذلك فى سنة ١٩٢٩ ، وبعد ثلاث سنوات توقفت ألمانيا عن دفع أى شىء من هذه التعويضات .

وقد حاول لويد جورج أن يزج ببلاده فى حرب ضد روسيا سنة ١٩٢٠ ، لما قام فيها النظام الشيوعى ، وقد كان رد الفعل عند الإنجليز لهذه المحاولة عنيفاً ، فقد هدد العمال بالإضراب ، وتألفت لجان لتمنع لويد جورج من إنفاذ غرضه ، ولما كرر فى سنة ١٩٢٢ محاولة إقحام بلاده فى حرب ضد تركيا من جديد ، قام زعماء حزب الأحرار ، وعزلوه من الحكم ولم يعد إليه . ويقول دلتون إن بريطانيا سادها بعد ذلك إما نفور من فرنسا ، بسبب ما كانت تبديه من عصبية بعد الحرب ، وتشدد مع الألمان ، وإما فتور من روسيا ، بسبب نظامها الجديد ، وإما عطف على ألمانيا ، وميل إليها بدعوى أن الألمان والإنجليز من جنس واحد ، وأنهما إذا اتفقا أمكن تقسيم العالم بينهما دون احتمال أى مقاومة جدية من الدول الأخرى .

وبقدر ما أصاب فرنسا من خيبة أمل، أصاب إيطاليا أيضا، فقد كانت تمنى نفسها بنصيب من المستعمرات وشعرت بإهانة حينما طالبت بمدينة فيومى ، فرفض طلبها المستر ولسن بغلظة وقلة كياسة . ويقول دلتون أنه مما زاد الأمر تعقيدا أن مندوب إيطاليا تغيب عن جلسات مؤتمر الصلح احتجاجاً على سوء المعاملة التى لقيها فى موضوع مدينة فيومى وقد تصادف أن الجلسة التى تغيب فيها ، كانت مخصصة لتوزيع الانتدابات ،فلم يخص إيطاليا شىء منها ، وانفردت فرنسا وإنجلترا

بالانتداب على العراق وفلسطين وسوريا ولبنان ، ومستعمرات ألمانيا فى أفريقيا ، وخرج شعب إيطاليا صفر اليدين .

أما ألمانيا فلم يكن يتوقع أحد منها أن ترضى ، ولكن الحلفاء زادوا الأمور فيها سوءاً ، فقد نشأت فيها حكومة ديموقراطية ، وثب بفضلها إلى الحكم جماعة من هواة السياسة ، غير الناضجين ، ولشدة التكالب على مغانم الحكم ، أتخمت ألمانيا بالعديد من الأحزاب . وكان نظامها الانتخابى قائماً على الانتخاب النسبى ، الذى لم يكن أساساً — حينئذ لاستقرار الحكم فيها .

ولكن هذه الحكومة ، على الرغم من كل ما كان يشوبها من قصور وعجز ، استطاعت أن تحقق أعمالا مجيدة ، فى ميادين الثقافة ، والعمارة ، وإنشاء المساكن ، وتخطيط المدن ، والتشريع الاجتماعى ، وفى بعض فروع التعليم والصحة العامة ، والمشروعات الكبيرة . وقد تذوق الشعب الألمانى ، ولا سيما الجيل الجديد ، معنى الحرية فى ظل هذه الديموقراطية الحديثة . ولكن إنجلترا وفرنسا ، لم يفطنا إلى أهمية دعم هذه الديموقراطية ، ولا إلى أن إحراجها ، وإهالة تراب المهانة على ألمانيا ، سيجر حتماً إلى إضعاف ثقة الألمان بها ، أو الحيلولة دون الالتفاف حولها ، فأصبح من السهل ، التطلع إلى نظام حكم آخر ، غير هذا النظام الديموقراطى . وقد استمرت فرنسا وإنجلترا فى حماقة إحراج ألمانيا واحتلال أجزاء منها ، ومطالبتها بالتعويض ، مما أيأس الألمان من الحكم الديموقراطى وآمنوا بأنهم فى حاجة إلى حاكم قوى .

وقد ساعد على تهيئة الجو ، لانهيار الديموقراطية الألمانية أن كانت خالية من المضمون الاجتماعى ، فقد بقيت مشروعات ذات الطابع الاشتراكى ، حبراً على ورق ، كما أن زعماء العسكرية الألمانية ، احتفظوا بأماكنهم التى كانوا يشغلونها خلال الحرب ، والجيش الألمانى ، وإن خفضته معاهدة فرساى إلى مائة ألف جندى مسلحين تسليحاً جيداً ، إلا أن هذا العدد ، لم يكن قليلا بالقدر الذى تصوره الناس : وقد قال وزير الحربية الألمانية ، « إن الجيش الألمانى ، بقى عنصراً لا يستطيع أحد أن يتخطاه ، عند إصدار أى قرار سياسى يخص ألمانيا » .

ولم يكن الأمر مقصوراً على وجود هذا الجيش ، بل إن الأحزاب المتنافسة

استغلت ضعف الحكومة الألمانية ، فأنشأ كل منها لنفسه جيشاً ، فأصبح للشيوعيين جيش من متطوعى الحزب ، المدربين عسكرياً والمسلحين ، كما أصبح للنازى جيش . . وقد سولت لهتلر حالة التراخى السائدة فى بلاده ، أن يفكر فى الزحف على برلين فى نوفمبر سنة ١٩٢٣ ولكن لما فشل هذا الزحف ، لم تستطع محاكم تلك الأيام ، أن تحكم بإعدام هتلر ، إذ قنعت بحبسه لمدة ست سنوات فى سجن فى ميونخ ، ولكنه لم يقض من هذه السنوات سوى ستة أشهر ، وخرج ليستأنف كفاحه السياسى .

على أن أسوأ ما أصاب أوربا عقب الهدنة ، وانتهاء الحرب ، هو الخراب الاقتصادى .

ويقول دلتون إنه لو حققت الشعوب بعد الحرب ، ارتفاعاً مستمراً فى مستوى المعيشة ، مع توسع مستقر فى فرص العمل ، وتقدم دائم نحو المساواة الاجتماعية ، ولو وجدوا فى حياتهم اليومية ، قدراً معقولا ونامياً من أسباب الراحة ، والأمن والعدالة ، فإنه كان من المؤكد ألا تقوم حرب أخرى .

ولكن الذى حدث كان عكس ذلك .

فقد أعقب الحرب تضخم هائل فى ألمانيا والنمسا(١) ، وتضخم أقل منه حجماً فى فرنسا وإيطاليا . وقد أدى التضخم فى ألمانيا والنمسا ، إلى القضاء تماماً على الطبقة المتوسطة ، كما أدى إلى الهبوط بالطبقة ذاتها فى فرنسا وإيطاليا إلى حافة الإفلاس . وفى وسط الخراب السائد فى هذه الدول خرج أصحاب الملايين ، الذين استطاعوا أن يجمعوا ثرواتهم من الاتجار فى النقد المتبادل بين الدول فكانوا يشترون بنكنوت من هنا ليبعوه هناك مستفيدين من فروق الأسعار ، وقد كانوا جماعة لا خلاق لها ، حصلت على ثرواتها بلا جهد ولا عمل . وقد أعقب التضخم الانكماش ، وقد أصيبت به بريطانيا فى مرحلة مبكرة بعد الحرب ، ثم حل الانكماش بألمانيا ،

---

(١) بلغ التضخم فى ألمانيا إلى الحد الذى بلغت معه قيمة الجنيه الإنجليزى فى ١٩٢٣/١/١ ٨٠ ألف مارك ثم تضاعف حتى بلغ فى أكتوبر ١١٢ مليار مارك .

بعد ذلك ، فأتى على ما جمعه الناس من أعمالهم من أرباح ، وانخفض بالتالى استثمار الأموال فى الصناعة ، وقلت المشروعات ، وضاقت فرص العمل ، وسادت البطالة ، وجاء فى أعقابها الفقر الماحق للعمال . ويرى دلتون — أن التضخم وما أدى إليه من تدهور قيمة العملة — والانكماش وما نجم عنه ، من قلة الأعمال — تحالفا سويًّا على خلق الجو الملائم للثورات سواء كانت يسارية ، أو يمينية ، فتسابقت الشيوعية والفاشستيه على الاستيلاء على مقاليد الأمور فى دول أوربا ، وبصفة خاصة دول أوربا الوسطى .

ولكن ما كان العقد الثالث ينتصف (أى حوالى ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٥) حتى بدت على اقتصاديات أوربا علائم النقاهة فقد زاد الإنتاج العالمى فى سنة ١٩٢٥ عما كان عليه سنة ١٩١٣ بنسبة ١٨٪، بينما لم يزد عدد سكان العالم إلا بنسبة ٦ ٪ . واستمر التقدم خلال السنوات الأربع التالية ، حتى وصل الدخل الحقيقى فى معظم الدول الأوربية إلى مستويات لم يصلها قبل الحرب ، وبلغ التفاؤل عند بعض الناس إلى حد الظن بأن العالم — وأوربا بصفة خاصة — أصبحت على أبواب الفردوس . ولكن هذه المستويات العالية ، لم يطل العهد بها ، فإنها كانت مؤقتة ، وسريعة الزوال ، وحتى فى هذه اللحظات ، كان الملايين من العمال يشكون من البطالة ، وكانت الفوارق الضخمة فى الثروة والرخاء لا تزال قائمة بين الدول بعضها البعض ، كما كانت قائمة بين الطبقات المختلفة داخل الدولة الواحدة .

ثم جاءت أزمة سنة ١٩٢٩ .

وأذهل وقوع الأزمة الجميع ، ووقفوا أمامها حيارى .

وقد قيل فى تشخيصها أن سببها « مالى » بمعنى أن مردها إلى رجال المال ، الذين أسرفوا فى المضاربة ، فى بورصات الأوراق المالية والبضاعة الحاضرة ، وفى عقد القروض القصيرة الآجال ، وقد كان مقرضو الأموال ، فى حالة جنون ينقلون أموالهم من بلد إلى بلد ، بحثاً عن الربح ، وهرباً من الخسارة ، فراحوا يهربون على التوالى من المارك الألمانى ، ومن الفرنك الفرنسى ، ومن الجنيه الإنجليزى ، وهكذا اضطربت

السوق العالمية ، وانتابها فزع مدمر ، وتوالت الكوارث .

خرجت بريطانيا على معيار الذهب ، الذى كان أساس الجنيه الإسترلينى ، هبطت أسعار الأغذية والمواد الخام إلى أقل من النصف ، وواجهت الدول المنتجة لها الخراب ، فقد ضعفت القوة الشرائية عند هذه الدول إلى حد العجز عن شراء ما يلزمها من ضروريات من الدول الأخرى ، فزاد ذلك من أزمة هذه الدول الأخرى ومن تفاقم شر البطالة فيها . ويقول السير أرثر سالتر فى كتابه (الشقاء) :

« فهتلر وحركته ، كان ثمرة خيبة الأمل الناجمة عن الأزمة الاقتصادية ، أكثر من ثمرة الغضب السياسى . وقد عاونه وأيده الشبان الذين كانوا قلقين على مستقبلهم ، أكثر مما لقى من العون والتأييد من قدماء الجنود الذين كانت تلهبهم صور الماضى . وقد وجد مادة لحركته ، فيما يخالج مؤيديه — فأصبحت تعبيراً عما يساور نفوسهم — وكان لهذه الحركة عواقب ،انعكست بدورهاعلى العلاقات الدولية . وقد كان لتفاقم الأزمة الاقتصادية ، أثر فى تقوية العناصر التى عملت من أجل الثورة الاجتماعية ومن أجل سياسة دولية باعثها سياسى » .

وبقدر ما خابت آمال الناس ، بسبب الأزمة الاقتصادية ، فقد خابت آمالهم ، بسبب ما أظهرته عصبة الأمم من عجز مطبق على مواجهة مشكلة واحدة من مشكلات السياسة الدولية .

وقد كان أول ما أضعف هذه العصبة ، إلى جانب ما ذكرناه ، أنها كانت عصبة دول ، حرصت كل منها على سيادتها القومية ، ولما كانت السيادات القومية بطبيعتها سيادات متعارضةومتناقضة ، وأحياناً متنافسة ومتخاصمة ، فلم يكن ثمة سبيل للإبقاء على وجود هذه الدول معاً داخل العصبة إلا بفضل ثلاثة أمور أتبعتها جميعاً العصبة . وأول هذه الأمور ، هو التأجيل، ولذلك جرى العمل فى العصبة على تأجيل كل ما يعرض عليها ، حتى قيل إن العصبة لم تكن تلمس شيئاً حتى تؤجله .

وكان الحل الثانى لأزمة العصبة الهرب من مواجهة المشكلات الكبرى وثالثها نقل اختصاص العصبة إلى الدول نفسها خارج العصبة ، فجميع المحاولات التى كانت

على قدر ما من الجدية ، تمت خارج العصبة كبروتوكول جنيف ، وميثاق لوكارنو ، وميثاق كيلوج .

بل إن المشكلات الحادة كانت تعالج من وراء ظهر العصبة ، وأحياناً تتم كمؤامرة ضد ميثاق العصبة . وقد كانت العصبة فى حاجة إلى زعامة تقودها ، وتلهمها وتثبت خطاها . وقد افتقدت هذه الزعامة ، وشاء حظ العصبة أنه لم يكن فى الدول الكبرى حكومات قوية خلال الفترة اللاحقة لمعاهدة ڤرساى ، فقد كانت فرنسا نهباً للمنازعات بين الأحزاب الكثيرة الضعيفة ، وكانت الأزمات الاقتصادية ، سبباً فى قيام حكومة ائتلافية فى إنجلترا ، بعد فترة قصيرة لحزب العمال فى الحكم ، أما فى ألمانيا فقد كانت الحكومة فيها شبحاً ، بسبب القوتين الكبيرتين المتنازعتين للسلطان : الشيوعية والنازية ، ثم كانت حكومة هتلر فى يناير سنة ١٩٣٣ المنطوية على أشد الكره للعصبة .

وفى إيطاليا ، كان موسولينى وحكومته المستقرة ؛ لا يعلن لعصبة الأمم عن كراهية صريحة ، ولكنه لم يكن بطبيعة الحال من المؤمنين بها ، ولا الراغبين فى دعمها ، فقد كانت فى رأيه ، أداة فرنسية — بريطانية أكثر منها أداة عالمية ، محايدة ذات أثر جدى .

قلنا إن المحاولات الجدية فى تحقيق السلام كانت محاولات خارج العصبة ، وفى مقدمة هذه المحاولات كان (بروتوكول جنيف) الذى عقد فى سنة ١٩٢٤ ، وكان من أكثر العاملين على إبرامه ، هندرسن وزير خارجية بريطانيا بمعاونة إدوارد هريو ، وزير خارجية فرنسا ، وقد أقر الاجتماع الخامس للعصبة هذا الميثاق الذى كان يتكون من ثلاثة أجزاء تكمل بعضها بعضاً ، وتهدف جميعاً إلى تحقيق ضمان متبادل للدول الموقعة عليه ، ولمن يوقع عليه فى المستقبل ، مع التزام هذه الدول بحل مشكلاتها بالتحكيم قبل إعلان الحرب ، وبالعمل على نزع السلاح .

والجديد فى هذا الميثاق أنه وضع قواعد وإجراءات ثابتة للتحكيم فى جميع المنازعات الدولية بغير استثناء ، بمعنى أنه لم تعد الدول فى حاجة إلى الاتفاق على إجراءات لفض خلافاتها تحكيماً ؛ إذ أغناها البروتوكول عن ذلك ، أما المنازعات

الدولية ذات الصبغة القانونية ، فتحال إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى ، وحددت هذه المنازعات بأنها ما يدور حول واقعة ، إذا ثبتت صحتها ، كانت منطوية على مخالفة لأحكام القانون الدولى . وهذا التحديد يشمل لاتساعه ، جميع الوقائع ، بما فيها حوادث الحدود ، التى كانت دائماً المبرر لإعلان حروب ضخمة كحروب سنة ١٩١٤ ، وكالحرب اليابانية ضد الصين سنة ١٩٣١ ، والحرب الإيطالية الحبشية سنة ١٩٣٥ . أما جميع المنازعات الأخرى التى ليس لها طابع قانونى فتحال إلى مجلس العصبة ، فإذا لم يتفق على قرار إجماعى ، كان من حقه أن يحيل عملا بحقوقه arbitral إلى محكمة يأمر بتشكيلها .

وقد حدد الميثاق تعريف الدولة المعتدية ، بأنها الدولة التى ترفض الخضوع فى النزاع الذى تكون أحد أطرافه ، للإجراءات السلمية التى شرحناها سواء أمام مجلس العصبة أو أمام محكمة العدل الدولية ، أو ألا تقبل ما تقضى به هذه الهيئات ، وتؤثر استعمال القوة .

وقد نص البروتوكول أنه يجب على كل عضو فى العصبة أن يتعاون مخلصاً وفى ولاء ، وبطريقة جدية ضد المعتدى ، باتخاذ الإجراءات الاقتصادية والمالية ، وعند الاقتضاء باستعمال القوة المسلحة .

ويقال إن فرنسا لم تجد فى عبارة « يتعاون مخلصاً وفى ولاء بطريقة جدية » ما يطمئنها على فعالية هذا النص ، كوقاية من العدوان ، فسألت عن معناه ومداه ، ففقد مستر هندرسن وزير الخارجية عند ذلك صبره وقال : « يعنى سنضرب الشخص المعتدى فوق أم رأسه » فطابت نفس مندوب فرنسا لهذا .

ثم أضاف البروتوكول أن مساعدة الدولة المعتدى عليها ، لا يجوز تطبيقه ، إذا ما انعقد مؤتمر نزع السلاح وأمر بتخفيض تسليح الدول إلى مستوى معين ، وكانت الدولة المعتدى عليها ، قد خالفت قرارات المؤتمر ، واحتفظت بتسليح يفوق القدر المحدد لها .

يقول دلتون إن هندرسن حرص على أن يربط بين بروتوكول جنيف ومؤتمر نزع السلاح ، وجعل أولها ، معتمداً على الآخر ، بقصد تحريض الدولة الراغبة فى الحصول على ميثاق ضمان لحمايتها من عدوان الغير عليها ، أن تتحمس لمؤتمر

نزع السلاح ، وتعمل على سرعة عقده ، وتسعى لتوفير أسباب نجاحه .

وقد حدد فعلا لمؤتمر نزع السلاح شهر يونيه من سنة ١٩٢٥ موعداً للانعقاد . وقد كان صيف سنة ١٩٢٤ موسماً من مواسم السلام ، فقد وافقت جميع دول العصبة على بروتوكول جنيف ، ووقعت عليه فعلا دول فى الحال ، وأقرته الجمعية العمومية للعصبة بالإجماع . ولكن سقطت حكومة العمال ، وتولت وزارة المحافظين الحكم فى بريطانيا ، وبدلا من بروتوكول جنيف ، والسعى لإكماله بعقد مؤتمر نزع السلاح ، فضل تشمبرلن وزير خارجية المحافظين أن يعقد معاهدة لوكارنو التى اقتصرت على الدول الغربية وحدها ، وقد خلا من النص على التحكيم ، كما خلا من أى نص يضمن لبريطانيا أن تتعاون معها غيرها ، إذا وقع عليها اعتداء أو أى نص يلزم بريطانيا أن تدافع عن غيرها ، ومعنى ذلك أن السياسة الخارجية البريطانية عادت إلى العزلة والبعد عن شئون أوربا .

ولكن بقى الجو الدولى صافياً خالياً من شىء خطر يعكره ، وحدث أن انضمت ألمانيا إلى عصبة الأمم كعضو دائم أصيل فى مجلس العصبة ، فاعتبر دخولها هذا بشيراً بخير ، وإن كان الألمان بقوا متحفظين مع العصبة ، حتى ذكر عن مندوبهم أنه قال عن العصبة « لقد أصبحت رجلا عجوزاً ، فبات من الصعب على أن آلف هذه المؤسسة الجديدة وأنظمتها » ومن آيات ذلك أن ألمانيا لم تفكر قط فى طلب تعديل معاهدة ڤرساى والمعاهدات التى فرضت عليها بعد الحرب عملا بالمادة ١٩ من ميثاق العصبة التى تخول لأعضاء العصبة أن يطلبوا إلغاء كل معاهدة تخالف ميثاقها أو تؤدى بسبب تخلف نصوصها عن التطورات الدولية إلى المنازعات أو الحرب .

واستمرت دلائل الوفاق الدولى — فى الظاهر — فقد وقعت الدول بعد معاهدة لوكارنو بسنوات قليلة ميثاق كيلوج — وكان كيلوج وزيراً لخارجية أمريكا ، وقد نص ميثاقه على استنكار الحرب كوسيلة لحل المنازعات الدولية وتعهد الموقعين عليه ، على تلمس وسائل سلمية لحل مشكلاتهم من أى نوع كانت ، وقد اعتبر هذا الميثاق بأنه ميثاق عدم اعتداء ، غير محدود المدة ، ولا يمكن الانسحاب منه وإن خلا من عقوبات على مخالفيه .

وازدهرت الآمال فى السلام حينما نجحت فرنسا وإنجلترا فى الاتفاق على تحديد فبراير سنة ١٩٣٢ موعداً لعقد مؤتمر نزع السلاح الذى طال انتظاره ؛ ولما نجحتا فى إقامة لجنة للاتحاد الاقتصادى الأوربى وذلك فى سنة ١٩٣٠ ، بعد خطبة للمسيو بريان وزير خارجية فرنسا فى سنة ١٩٢٩ عن (الولايات المتحدة الأوربية) .

ولكن سنة ١٩٣١ شهدت نكسة بعد هذا الجو المبشر بالآمال وتحقيقها ، فقد دهمت العالم الأزمة الاقتصادية مما استوجب تأليف حكومة ائتلافية ، كان للمحافظين فيها نصيب كبير ، وفى هذا الاضطراب الاقتصادى ، وما تبعه ونجم عنه من انشغال بال الحكومات الأوربية، انتهزت اليابان الفرصة وأعلنت أن الصينين قتلوا جندياً يابانياً فى منطقة سكة حديد منشوريا التى تسمح المعاهدات والاتفاقات الدولية لليابان بوضع نقطة حراسة عندها ، وقد قرر موظف بالقنصلية البريطانية ، هناك ، أن القتيل كان صينياً ،وقد ألبسته السلطات اليابانية ثوباً يابانياً لتتخذ من مقتله المزعوم مبرراً لمهاجمة الصين .

ولو وجدت اليابان مقاومة جدية من الدول ، لتوقف غزوها للصين . وقد كان فى وسع بريطانيا وأمريكا والولايات المتحدة أن يطلبوا من اليابان مجتمعين أن تحترم ميثاق العصبة — وهى عضو فى العصبة وفى مجلسها — وأن تعرض نزاعها على التحكيم . ولم تكن اليابان لتجد حليفاً لها يناصرها وقتذاك ضد هذه الدول الكبرى الثلاث ذات المصالح فى هذا الجانب من العالم . ولو حاولت العصبة إيقاف اليابان عند حدها ونجحت ، لكان نجاحها هذا دعماً لها وتثبيتاً لوجودها ، ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى الإخفاق فى هذا . ولو تمت هذه المحاولة ونجحت لتغير تاريخ العالم فى السنوات التالية لسنة ١٩٣١ ولكن بريطانيا لم تكن لتريد أن تستدرج للخوض فى هذه الأزمة ، ولما عرضت هذه المشكلة على العصبة ألقى وزير خارجية بريطانيا جون سيمون خطاباً فهم منه مسيو (ماتسوكا) مندوب اليابان فى العصبة ، أن إنجلترا لن تقف فى وجه اليابان على الرغم من كل ما ورد فيه من استنكار لموقف اليابان . ولذلك كان تعليق ماتسوكا ، أن « جون سيمون قال خلال نصف ساعة وفى بضع عبارات قليلة منتقاة وبليغة ، ما حاولت أن أقوله أنا فى الأيام العشرة الماضية بلغتى الإنجليزية الركيكة » .

ومنذ ذلك اليوم أعد قبر عصبة الأمم ، وفى السنوات الباقية ، كانت عملية دفن العصبة فى هذا القبر ولذلك كان من العبث عقد الآمال على مؤتمرات نزع السلاح التى بدأت — على كل حال — فى فبراير سنة ١٩٣٢ .

ولقد حضر هذا المؤتمر إلى جانب جميع أعضاء العصبة ، الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى — وكان كل منهما مستعداً لتأييد أى اقتراح جدى . وقد بدأ (جراندى) مندوب إيطاليا ، فاقترح إلغاء جميع الأسلحة المتعارف على تسميتها « بالأسلحة الهجومية » مثل البوارج ، والغواصات ، وقاذفات القنابل ، والدبابات ، والمدفعية الثقيلة ، والغازات الخانقة ، وهى الأسلحة المحرمة على ألمانيا حسب معاهدة فرساى . فرحبت كل من الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والألمان ، والدول الصغيرة بهذا الاقتراح ، كما أبدت فرنسا استعداداً طيباً للنظر فيه ، إذا اتفق على إنشاء قوة حربية دولية وإذا وضع نص أكثر إحكاماً فى شأن الضمان ضد الاعتداء . وقد كان احتمال نجاح هذا المؤتمر عظيماً لو أن بريطانيا أيدت الاقتراح ، كما فعلت غيرها من الدول . ولو نجح هذا المؤتمر ، لنجحت المؤتمرات التالية ولكن وزير خارجية بريطانيا جون سيمون بدل أن يقف هذا الموقف المشرف ، آثر أن يقترح إنشاء لجنة الخبراء لتحدد « بالضبط ما هى الأسلحة الهجومية » .

ومع ذلك بقيت دلائل قوة الروح السلمية ظاهرة فى الأفق فالأمريكان والفرنسيون قدموا اقتراحات ذات صفة جدية نوعاً . فالأمريكان اقترحوا تدمير ثلث البوارج ، وربع جميع السفن الحربية العائمة فوق سطح الماء ، أما السفن التى تجرى تحت سطح البحر (الغواصات) فتنقص إلى أقل قدر ممكن ، مع إلغاء استعمال كل الطائرات القاذفة للقنابل والدبابات ، وتخفيضات عظيمة فى الأسلحة البرية . وبقى الفرنسيون مشغولى البال بموضوعهم المحبب الخاص بالطيران الدولى ، إذ وضعوا خطة مفصلة لخدمة طيران دولية ، ولبوليس جوى دولى مع إلغاء جميع أسلحة الطيران لدى الدول ، وتأميم جميع مصانع الأسلحة . أما الإنجليز فقد بقوا ينظرون إلى هذه الاقتراحات ، دون أن يؤيدو ، أو يرفضوا شيئاً منها ، مؤثرين سياسة التأجيل والتعويق والمماطلة ، وفى خلال هذا كله كانت النية الطيبة تتضاءل ، والآمال المشرقة ، تنطفىء شيئاً فشيئاً .

ولكن أخيراً فى مارس سنة ١٩٣٣ ، اقترحت بريطانيا أن تخفض الدول الأخرى دونها ، أسلحتها وعدد جيوشها ، مع وضع قيد على أحجام المدافع والدبابات ، والهبوط بقوة أسلحة الطيران إلى الحد الذى وصل إليه سلاح الطيران البريطانى ، ولكنها لم تقترح أى تخفيض فى السلاح البحرى . ومع تفاهة هذه المقترحات ، فإن بريطانيا لم تبذل جهداً يذكر ، ليناقشها المؤتمر ، ومضت الشهور ، الواحد وراء الآخر ، والأمور راكدة فى مؤتمر نزع السلاح ، حتى إذا ما حل أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، تركت ألمانيا مؤتمر نزع السلاح ، وراحت ألمانيا تتسلح على نطاق واسع ، وانهارت الآمال الشامخة ، وانطفأ نور الرجاء فى عالم لم يتعظ من فاجعة حرب سنة ١٩١٤ ، وأخمدت صرخات عشرة ملايين قتيل . وضاعت هباء تضحيات النساء والرجال الذين فقدوا أزواجهم وأولادهم . وتركوا بيوتهم ، وهاموا على وجوههم .

وقبل أن يكمل عامان على ترك ألمانيا مؤتمر نزع السلاح ، غزت إيطاليا الحبشة .

الفصل الثانى

النازية

أصولها الفكرية ، ودوافعها السياسية — زعيمها وتاريخه ومذهبه

لا يجادل أحد فى أن النازية ، وظهورها على المسرح الدولى للسياسة ، وتطور الحوادث بعد الحرب العالمية الأولى ، بسببها ، كان أكبر الأحداث ، وأبرزها ، فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين ، كما كانت أكبر العناصر بروزاً فى تاريخ الحرب العالمية الثانية . ومن هنا كان من الواجب ، أن نقف أمامها لندرسها كظاهرة سياسية ، لنسأل أكانت تطوراً مفاجئاً فى ألمانيا ، أم كانت حلقة من سلسلة ، تتابعت حلقاتها على مر السنين خلال القرنين التاسع عشر ، والعشرين ؟ .

ولنبدأ بالتعرف على النازية ، بالتعرف على قائدها أدولف هتلر ، الذى ولد فى العشرين من إبريل سنة ١٨٨٩ فى قرية (براوناو) النمساوية التى تقع على حدود النمسا وألمانيا .

وقد عبر أدولف هتلر عن سروره بميلاده فى هذه القرية بقوله : لقد أحلنى القدر محلا لائقاً ، حينما اختار لى قرية (براوناو) مسقطاً لرأسى ، فإن هذه القرية الصغيرة تقع على الحدود بين الدولتين الجرمانيتين التى اعتبرنا نحن الجيل الجديد ، إقامة الاتحاد بينهما ، عملا يستحق منا أن نبذل كل ما فى وسعنا ، لتحقيقه » .

وقد كان أبوه موظفاً صغيراً من موظفى الجمارك ، ويبدو أن فقر أبيه ، وقلة شأنه ، لم يغره بالتفكير فى أن يصبح موظفاً للحكومة ، فقد قال فى كتابه الذى ألفه بعد ذلك ، عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره : « لم أرد أن أكون موظف حكومة ، ولم يفلح الكلام معى ، ولا ما أبدى لى من حجج ، فى تغيير قرارى. لم أرد أن أكون موظفاً حكومياً ، ورفضت أن أكون . ولم يكن للمثل الذى ضرب به لى أبى بعمله فى الحكومة ، أى أثر فى إثارة حبى لهذا العمل ، بل على العكس أثار كراهيتى لأن أربط فى مكتب ، يغمرنى السأم ، وبدلا من أن أكون السيد

المتصرف فى وقتى ، أصرف العمر ، فى تحرير وملء نماذج رسمية »

ويقول إن مشاعره الوطنية كانت مبكرة فقد انضم إلى جمعية مدرسية ، صنعت أعلاماً ألمانية ، وكانت تهتف فى اجتماعاتها الهتاف الألمانى المعروف « ألمانيا فوق الجميع » وتنشد النشيد الألمانى الذي يكرر نفس المعنى ، بدلا من النشيد النمساوى (كايسرليد) ، ولم يفلح العقاب ولا التهديد فى ثنى هتلر وزملائه عن هذا المسلك، وفى هذه الحقبة من حياته التى يلخصها بقوله : أصبحت وطنياً متعصباً لألمانيا . وقد لاحظ وهو بعد دون الخامسة عشرة ، مع الألم ، تسرب العناصر غير الألمانية (المجرية ، والسلافية ، والتشيكية) التى كانت تضمها الإمبراطورية النمساوية إلى نطاق الوطنية الألمانية ، وتفسد نقاءها وتلوثها .

ولذلك كان من أهدافه منذ كان صبياً أن يسرع بتحطيم الإمبراطورية النمساوية ، بقدر إسراعه فى بناء الإمبراطورية الألمانية التى تضم ألمان الدولتين — النمسا وألمانيا وحدهما — فى وحدة جنسية نقية .

ويقول هتلر فى كتابه إن فقر أسرته ألزمه بأن يبحث مبكراً عن عمل ، فقد مرضت أمه ، فاستنزف مرضها موارد الأسرة التى لم تكن تزيد عن معاش ضئيل كان هو كل ما خلفه والد هتلر له وللعائلة ، ولذلك فقد حمل — على حد تعبيره — حقيبة مليئة بالملابس الداخلية ، وقد امتلأ هو عزماً وتصميماً على مواجهة الحياة ، مؤملا فى أن يصبح شيئاً ذا قيمة ، على ألا يكون موظفاً حكومياً بأى حال . ووصل فعلا إلى فيينا بحثاً عن عمل ، حيث لقى شظف الحياة .

ولعل أكبر تجاربه — كما رواها فى كتابه — فى المرحلة الأولى من حياته ، هو صلاته باليهود ، فإنه لم يكن يسمح بلفظ (يهودى) فى بيته خلال أحاديث أبيه معه ، إلا حيث يقتضى ذلك سياق حديث تاريخى .

فلم تعلمه أسرته إذن كراهيتهم ، وكان كل ما يفهمه عنهم أنهم مواطنون ألمان ، وإن كانوا يعتنقون ديناً غير المسيحية ، وقد أكد له ذلك الاعتقاد ، جالية يهودية كانت تعيش فى مدينة (لنز) القريبة من قريته ، فقد كانوا يلبسون ملابس الألمان ، ويتكلمون لغتهم ، ويسلكون مسلكهم ، ولما وصل إلى فيينا لم تتغير نظرته هذه ، أول الأمر ، بل إنه لم يلحظ أن فى هذه المدينة ٢٠٠ ألف يهودى ،

حتى ذهب يوماً إلى الجزء الداخلى لمدينة ڤيينا ، أو ڤيينا القديمة ، فاسترعى نظره رجل يلبس قفطاناً ، ويطيل سوالفه على خدوده ، فأخذ ينظر إلى تقاطيع وجهه ، وهو يتساءل أيمكن أن يكون هذا ألمانياً مثله ؟ وكان هذا أول يهودي يراه .

ولما انفتحت أمامه المشكلة اليهودية ، حاول أن يقرأ كل شيء عن اليهود ، وتاريخهم ، فلم تزده القراءة إلا حيرة ، وإن استنكر أن يلقى اليهود ما لقوه من اضطهاد بسبب عقيدتهم الدينية ، ولكن بدأت فكرته تتغير حينما وقف على نشاط اليهود فى الصحافة النمساوية ، وفى عالم الفن والأدب والمسرح . فلقد تبين أن وراء كل أدب وفن رخيص وفاسد ، عقولا يهودية ، وشخصيات يهودية . وأن روايات السينما الداعية إلى الانحلال ، والمسرحيات الوضيعة ، كانت ثماراً يهودية . فوصف ذلك كله بأنه الطاعون ، وأنه أكثر فتكاً بالشعب الألمانى من الموت الأسود . وزاد من حنقه على اليهود أن صحافتهم درجت على الإعلاء من شأن كل ما هو يهودى فى دنيا الآداب والفنون ، وعلى الحط من كل ما هو ألمانى . ثم انتقل من ذلك إلى السياسة ، فرأى الحركة الشيوعية فى ألمانيا ، أي الحزب الاشتراكى الديموقراطى ليس سوى أداة يهودية ، فقد تزعمه اليهود ، كما تزعموا حركة اتحادات العمال ، ليحطموا الشعب الألمانى ، وليقضوا على الوطنية ، لحساب نفوذهم العالمى ، وسيطرتهم . وقد نمت كراهيته لليهود ، وللحركة الاشتراكية الديموقراطية جنباً إلى جنب ، كأنما هما توأمان .

ولما كان هتلر قد انتهى إلى أن اليهود الألمان ، ليسوا ألماناً — فقد اعتبر أن الحركة الشيوعية والاشتراكية الديموقراطية فى ألمانيا ، فى يد أجانب ، لا يضمرون لألمانيا أى حب ، ولا يرجون لها أى خير . ويقول إنه توفر على دراسة النظرية الماركسية ، فلم يرفيها إلا مجموعة من الأغاليط ، وإنه خرج من الدراسة ، متعصباً متطرفاً ضد السامية .

ويقول هتلر إنه لم يكن يحزنه شيء أكثر من أنه ولد فى عهد ، كان التقدير والاحترام فيه ، لطائفتين من الناس : التجار ، وموظفى الحكومة . وكان ينعى حظه لأنه لم يولد ، قبل ذلك بمائة سنة ، ليعيش فى عهد حروب التحرير التى شنتها ألمانيا ضد قوات نابليون . فى ذلك العهد كانت البطولة فى ميادين القتال ،

والتضحية ، هي عناوين المجد وسر التقدير . ولذلك فإنه كان سعيداً حينما أعلنت الحرب أخيراً فى سنة ١٩١٤ ، وحينما أسرع بتقديم طلب تطوع للخدمة فى إحدى الفرق البافارية ، وكانت سعادته أعظم حينما قبل طلبه فى اليوم نفسه .

على أنه كان سعيداً لسبب آخر هو أن ولى عهد الإمبراطورية النمساوية لقى لقى مصرعه على يد طالب صربى ، فقد كان ولى العهد — الذى أدى مقتله إلى قيام الحرب — ذا ميول سلافية بسبب زواجه من سيدة تشيكية ، فكان يتودد إلى العناصر غير الألمانية ، فى الإمبراطورية النمساوية ، فأبى القدر إلا أن تكون خاتمة حياته ، وحياة زوجته ، برصاصتين من مسدس طالب سلافى . وقد جرح هتلر خلال الحرب فى أكتوبر سنة ١٩١٦ ، فنقل إلى مستشفى ، ولما تماثل للشفاء ، أذن له بالسفر إلى برلين ، فوجد الملايين من أهلها على حافة المجاعة . كما رأى السخط ناشراً جناحيه فى كل مكان ، ولما ذهب إلى ميونيخ ، وجد حالتها أكثر سوءاً . ورأى اليهود يملأون مكاتب الحكومة ، ومكاتب وزارة الحربية . ولما عاد إلى الجبهة ، واشترك فى الهجوم الأخير الكبير كان سروره عظيماً ، إذ رأى بلاده تعاود الهجوم ، بعد أن انقضت السنتان السابقتان على الجيش الألمانى فى مواقع دفاعية ، ولكنه لاحظ أن السموم التى نثرها الشيوعيون وراء الجبهة قد تسربت إلى الجبهة نفسها ، فقد كان الجنود يتناقشون فى الغاية من قتالهم ، ويتساءلون عمن يفيد من هذه الحروب . . .

وكان الجواب على ألسنة بعضهم : هذه حروب تشن لحساب القيصر وقواده ووزرائه والطبقة الغنية .

وفى ليلة ١٣ — ١٤ من أكتوبر سنة ١٩١٨ ، بدأ الإنجليز يسقطون الغازات الخانقة على الجبهة الجنوبية ، وفيما كان هتلر على قمة تل فى جنوب مدينة (وروك) ، أغارت على الموقع الطائرات البريطانية وأسقطت قنابلها ، وقنابل الغازات السامة ، وقبيل الفجر ، أحس بآلام شديدة فى عينيه وكانت هذه الآلام تتزايد كل ربع ساعة ، فلما كان الصباح ، كان يترنح وعيناه تكاد ان تصبحان جمرتين من النار ، وبعد ساعات أصبحت عيناه قطعتين من الفحم المشتعل ، فأرسل إلى مستشفى ، وقد أصبح كل ما حوله ظلاماً . ثم جاءته الأنباء بقيام الثورة الشيوعية فى برلين فى التاسع من نوفمبر ، ثم كانت الهدنة فى الحادى عشر من نوفمبر فكانت هذه الهدنة

قمة آلامه وأحزانه . . وفى آخر نوفبر عاد إلى ميونيخ حيث ألحق بكتيبة الاحتياط هناك ، وكانت قيادتها قد سقطت فى يد (سوفييت) الجنود ، على الطريقة الشيوعية ، فأثار ذلك اشمئزازه . ثم أخمدت الثورة فى ميونيخ ، وألحق بلجنة لتحقيق الحوادث التى جرت أثناء تلك الثورة . ثم أمر بعد ذلك لحضور برنامج تثقيفى أعد لأفراد قوات الدفاع لتزويدها ببعض الأفكار التى تقود خطاها بعد الحرب والهزيمة ، وفى مواجهة الثورة اليسارية.فأتاحت له هذه الدروس فرصة التعرف على زملاء له ، كانوا يفكرون تفكيره فى الحالة ، السائدة فى ألمانيا ، ويودون انتشالها من الوهدة التى تردت فيها . وقد فكر مع هذه الحفنة من الجنود فى إنشاء حزب ، وكانت غايته وغايتهم من ذلك إنقاذ ألمانيا ، على أن يكون الحزب بعنوانه ومنهاجه قادراً على أن ينفذ إلى الجماهير ، ولذلك اقترحت تسميته « بالحزب الاشتراكى الثورى ».

ويقول هتلر أنه فى هذه المرحلة من حياته السياسية استطاع أن يميز بين نوعين من رأس المال أحدهما الثمرة النهائية الخالصة للعمل المبدع ، وثانيهما رأس المال الذى يتكون كنتيجة للمناورات والمضاربات فى سوق المال (والبورصة) . ويقول إنه مدين بهذه المعرفة إلى محاضرات كان يلقيها على الجنود « جوتفريد فدر » ، ويعترف بأنه بعد أن فرغ من سماع المحاضرة الأولى (لفدر) ثبت فى رأسه ، المبدأ الأول من من مبادئ الحزب الذى كان يفكر فى إنشائه ، وهو مبدأ تحرير الشعب الألمانى من الخضوع لرأسمال الذى تلده المناورات والمضاربات، أى من خضوع الحكومة الألمانية للرأسمال العالمى ، الذى هو رأسمال اليهودية العالمية ، الذى أجج نار الحرب ، فلما انتهت ، سعى سعيه ، ليحيل جنة السلام ، إلى جحيم .

ولما فرغ من تأمله السياسى رأى أن برنامج حزبه الوطنى الاشتراكى ، يجب أن تكون أهدافه : تأمين وجود الجنس الألمانى ، وضمان تزايده ، ثم توفير موارد الرزق لأبنائه ، والإبقاء على دمه نقياً ، لا يلوثه الاختلاط بغيره من الأجناس ، ثم الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وتهيئته للقيام دوماً برسالته التى ألقاها عليه ، خالق هذا الكون .

ولما كان الاختيار قد وقع على هتلر ، ليلقى محاضرات على جنود الجيش الذين كانت ثورة ٩ نوفبر سنة ١٩١٨ قد أفقدتهم — على رأى هتلر — النظام والطاعة ،

فقد أخذ يجرب فى هذه المحاضرات موهبته الخطابية، ويبدو أنه كان راضياً عن نتائج التجربة، فقد سجل فى كتابه أنه نجح فى كسب المئات بل الألوف إلى جانب الفكرة الوطنية ، بعد أن كادوا يكفرون بها ، ويلقون بأنفسهم فى أحضان الفكرة العالمية التى تروجها الشيوعية . وهكذا ، أصبح هتلر ، سياسياً محترفاً ، وأصبحت الخطابة ، والترويج لمبادئه ، هى عمله الأساسى ، بعد أن كان قد حاول أن يكسب قوت يومه ، عندما وفد إلى ڤيينا ، بالعمل كمصور أو نقاش .

ولكن شاءت الصدفة أن تقوده إلى الخطوة الحاسمة فى حياته، فقد تلقى أمراً من قيادة الجيش، ليكتب لها تقريراً عما يجرى فى إحدى الجمعيات التى بدا لهتلر من اسمها ، أنها جمعية سياسية فقد اختارت لنفسها اسم « حزب العمال الألمانى » ، ولما ذهب إلى الموعد المحدد لانعقاد هذه الجمعية ، رأى من جديد (جوتفريد فدر) يلقى محاضرة من محاضراته التى استولت على اعجاب هتلر ، ثم دارت بعد المحاضرة مناقشة ، اقترح فيها أحد الحاضرين اقتراحاً أغضب هتلر ، فطلب الكلمة ، واستطاع بفصاحته، وبيانه الملتهب لا أن يقنع المناظر ، بل أنه كاد يحمله على الفرار . وسر أعضاء الجمعية من مساهمة هتلر فى الدفاع عن آرائهم وكافأوه على ذلك بدعوته إلى عضوية بلجنة الحزب التى كان مقرراً انعقادها فى يوم الأربعاء من الأسبوع التالى ، مع إخطاره بأنه مرشح لعضوية اللجنة ، فأضحكه هذا الأسلوب الساذج فى ضم الأعضاء ، ولكن الفضول غلبه على أمره فذهب فى اليوم المحدد لانعقاد اللجنة ، وبعد أن سأل بضعة أسئلة ، أدهشه أن فكرة الانضمام بدأت تساوره ، وهو الذى كان موشكاً على تأليف حزب جديد ، ولكن الذى أغراه بالتأمل فى الدعوة الموجهة إليه للانضمام ، هو ما رآه من حماسة أعضاء حزب العمال الألمانى ، وصدق إيمانهم، وأنهم لم يعدوا بعد برنامجاً للحزب، ولم يطبعوا شيئاً من أوراقه، ومن ثم كان هيئة قابلة للتشكيل . وبعد يومين مريرين من التردد والحيرة ، قرر هتلر أن يقبل الانضمام إلى حزب العمال الألمانى، فتلقى بطاقة العضوية التى تحمل رقم (٧) ، وبذلك خطا أكبر خطوات حياته ، فإن هذا الحزب ، بعد أن تعدل اسمه إلى الحزب الوطنى الاشتراكى لعمال ألمانيا ، كان هو فى واقع الأمر حزب (النازى) لأن هذه اللفظة الأخيرة ليست سوى الحروف الأولى من أجزاء الاسم

الكامل . . . وستعرف فيما بعد ، أطرافاً من نشاط هذا الحزب المتصل بالشئون الدولية ، ولكن يكفينا هنا ، أن نلم بالأسس الكبرى لمبادئ هذا الحزب .

ويمكن أن نرد هذه المبادئ إلى أصلين كبيرين : الجنس والدولة .

فالجنس (Race) هو الحقيقة الكبرى فى تاريخ الإنسانية . فإن الإنسان عندما أراد أن يبدع الحضارة احتاج إلى أعوان تعينه على ذلك ، ولم يستطع الإنسان فى مراحل حياته الأولى ، قبل عشرة آلاف من السنين ، إلى استئناس الحيوان ، فكان لابد للمحراث من يجره ، فتولى جر هذا المحراث ، الإنسان، فالإنسان قام بأعمال الحيوانات أولا ، ثم استؤنست الحيوانات فحررت الإنسان من بعض أعماله الشاقة .

فالناس لم يكونوا منذ البداية متساوين . وكشف الإنسان الموهوب لقدرته وبراعته ، كان أول وأهم ما كشفه الإنسان ؛ إذ مكنه من أن يسود الأفراد الأقل قوة ، وأن يستخدمهم فى تحقيق الخطوات التى رفعت قدر الإنسان ، وعلمته ، وهذبته .

ولذلك يمكن تقسيم الأجناس — حسب نظرية هتلر — إلى ثلاثة : جنس خالق للحضارة ، وجنس ينتفع منها ، ويطبقها ، وجنس يخربها ويدمرها .

والجنس الخالق للحضارة ، هو فى رأيه الجنس الآرى ، ولكن هذا الجنس يخطئ فى حق نفسه لأنه يتولى تحضير وتهذيب الأجناس التى يغزوها ، ويعلمها أساليب حضارته ، فتتحسن أحوالها ، وترتقى ذهنياً ، وتقلد الجنس الخالق ، تقليداً محكماً ، فلا يرى الآريون بأساً من التزاوج مع تلك الأجناس، فتتدهور خصائصهم المميزة لهم ، ويفقدون قدراتهم على الخلق والإبداع ، فتنحدر الحضارة وتتدهور . . .

فالأجناس الخالقة المبدعة ، يجب ، لا وفاء لنفسها ، بل وفاء للإنسانية كلها ، أن تحافظ على نقاء الجنس ، وألا تسمح بالتزاوج بين أفرادها من جهة ، وأفراد الأجناس الأخرى من جهة ثانية . ويترتب على هذا المبدأ أن الفرد هو الوحدة الرئيسية فى بناء المجتمع ، لأن الفرد الموهوب ، القادر على القيادة ، المبتكر ، هو الذى يجدد الحياة ، ويزيد من مداها ، وعمقها وليست الجموع الكثيرة التى

تجرى وراء قائدها ، كما يجرى قطيع ، وراء الراعى أو أحد أفراده .

والنتيجة لهذا التقريع أن الديموقراطية نظام فاسد من أساسه ، لأن الديموقراطية وبالتالى الشيوعية ، تقيم وزناً لعدد الأفراد أى للأغلبية . مع أن العامة لم يصنعوا طوال أدوار التاريخ بجموعهم الكثيرة شيئاً ، فالأعمال فى حياة الأمم والشعوب ، هى أعمال أفراد لا أعمال جماعات ، والحضارة من صنع عباقرة لا من صنع قرارات الأغلبية . وفى هذا المعنى يقول هتلر : شىء واحد يجب ألا ننساه ، الأغلبية ليست البديل للإنسان . إن الأغلبية لا تدعو فقط إلى ما يدعو إليه الغباء ، بل إلى ما يرتضيه الجبن وكما أننا لا نستطيع أن نتصور أن مائة مغفل يمكن أن يصنعوا عاقلا واحداً ، فإنه من المستحيل، أن يصدر عن مائة جبان ، قرار واحد يتسم بالشجاعة » .

ومن تطبيقات هذه النظرية أن الرأى العام يصنع ، ولا يصنع هو شيئاً ، وأن الجماهير ، لا تفهم الأمور المجردة الفلسفية أو العقلية ، ولا ترتاح للحلول النصفية ، فهى كالمرأة ، تفضل أن تخضع للرجل القوى ، من أن تستذل هى رجلا ضعيفاً ، وهى لا تخجل إذا أرهبت فإن الإرهاب أفضل لديها من أن تتعثر فى الحرية التى لا تعرف كيف تستغلها ، أو تنتفع بها .

ولما كان الرجل الأقوى — والجنس الأقوى— هو الذي يصنع الحضارات ، فعقيدة الحب والتسامح ، التى يبشر بها المسيح ، هى عقيدة زائفة ، إذ أن الحب والتسامح ، يأتيان بعد أن يتم الصراع دوره كاملا — ويسود الجنس الأقوى العالم أولا .

ولما كانت الفلسفة النازية أو قل الهتلرية ، جوهرها الجنس ، فإن الدولة النازية ، وظيفتها الأولى هى السهر على حماية الجنس ، والإبقاء عليه نقياً ، ولما كان الدم الألمانى قد تلوث لاختلاطه بالأجناس المحيطة بالألمان من كل جانب ، وبالأجناس التى غزت أرضها القبائل الجرمانية ، فلابد من العمل على تنقية الدم الألمانى بوقف التزاوج بين الألمان والأجناس الأخرى غير الآرية ،وباستخلاص العناصر الآرية النقية وتقديمها ، وتمكينها من السيادة والقيادة . كما يجب على هذه الدولة إعداد المواطن الألمانى فى المدرسة لا بتقديم المعرفة الصحيحة له ، فإن التعليم

يأتى فى المرتبة الثانية أو الثالثة عند الدولة النازية، أما المرتبة الأولى فهى لتنشئة أبناء الجيل الجديد ، تنشئة صحية سليمة ، ولذلك فإن التربية البدنية هى جزء رئيسى وأساسى فى التعليم بالمدارس ، ويجب أن يخصص له على الأقل ساعتان ، فى اليوم ، ساعة فى الصباح ، وأخرى فيما بعد الظهر ، ولا تكمل التربية البدنية فى ظل الدولة النازية إلا إذا تعلم كل شاب رياضة الملاكمة ، ويستنكر هتلر اشمئزاز أصحاب الأذواق الرفيعة من الملاكمة باعتبارها رياضة خشنة ، بينما لا يجدون غضاضة فى أن يجرح الشبان بعضهم بعضاً بسيوف المبارزة كأن ثمة فرقاً بين الأذى الذى يلحقه الشاب بزميله إذا كان وسيلة لذلك قطعة من الحديد ، والأذى الذى يصدر عن لكمات ذراعيه القويتين .

ثم يأتى بعد الإعداد البدنى للشاب ، إرهاف عزيمته ، أى تربيته خلقياً ، ليتحمل المسئولية ، ولا يفر من الخطر ، فإن كل من الناحيتين كان ملأ عقله بالمعلومات النافعة ، منتجاً ومثمراً للدولة التى تحتاج إليه ، والتى تتطلع إلى جيل صحيح بدنياً ، وسليم نفسياً، أكثر مما تتطلع إلى جيل من الضعفاء الشاحبين الذين حفظوا الكثير عن ظهر قلب : ويقول هتلر « إن دولتنا ، تمر الآن فى مرحلة انحلال ، يركلها كل إنسان ، ولذلك فهى فى حاجة إلى أن تزرع فى قلوب أبنائها الثقة بالنفس منذ الطفولة ، ومن ثم وجب أن تتجه كل تربيتهم وتدريبهم إلى إقناعهم بأنهم يمتازون على من عداهم من الأمم والشعوب » .

وبعد الدراسة ، وأداء الخدمة العسكرية ، يمنح الشاب اللائق شهادتان أولهما ، تدل على أداء الخدمة الوطنية ، والثانية تشهد بلياقته صحياً لأن يكون زوجاً . فإذا لم يكن يحمل الشهادة الثانية ، فلا يجوز له أن يتزوج. أما تربية المرأة ، فتعنى فوق كل شىء بالناحية البدنية، ثم إعداد الفتاة خلقياً ، وبعد كل شىء، تثقيفها وتعليمها ، فإن الغرض الأساسى من تربية المرأة ، أن تكون أم المستقبل .

وعلى الدولة النازية أن تعلم رعاياها فضيلة قد لاتبدو لأحد ذات أهمية ، هى فضيلة الصمت، ذلك لأن رجال الجيش والمخابرات شكوا خلال الحرب العالمية الأولى ، من أن الرعايا الألمان كانوا لا يحسنون مسلك ألسنتهم ، فكان من الصعب الاحتفاظ أحياناً حتى بأخطر الأسرار . فالدولة يجب أن تعلم رعاياها فضيلة

الصمت ، وأن تبذر بذور ثقة المواطنين بعضهم فى بعض ، كما أن تنمى فى نفوسهم ثقتهم بأنفسهم هم ، فهذه الفضائل خير بكثير من كل الذى تحشو به مدارس ألمانيا عقول أبنائها؛ فقد أثبتت الحرب العالمية الأولى أن المصاب الأكبر الذى جر الهزيمة على البلاد ليس نقص المواد الحربية ، بقدر ما كان نقص الإرادة ، فإن الأحداث التى وقعت فى الأيام الأخيرة من سنة ١٩١٨ أثبتت أن الشعب الألمانى من الملك إلى قائد أصغر وحدة ، كانت تنقصه شجاعة تحمل مسئولية إصدار قرار حاسم ، معتمداً على نفسه ، دون التلفت حواليه باحثاً عن مسئول يدعمه . وقد لخص أحد القادة العسكريين الألمان هذا النقص فى الشعب الألمانى بقوله: « إنى لا أقدم على عمل إلا إذا تبينت أنه ناجح بنسبة ٥٠ ٪ على الأقل » ، وفى رأى هتلر أن نسبة الخمسين فى المائة هذه هى التى ألحقت الهزيمة ببلاده ، لأن الحياة تحتاج إلى المجازفة؛ ثم تحدث بعد ذلك عن الوطنية ، فقال الوطنية الصحيحة لا تسلم بوجود الفوارق الطبقية فالإنسان لا يفخر بوطنه ، إلا إذا كان خالياً من طبقة يخجل من الانتساب إليها أى مواطن ، فما لم يكن الوطن سليماً فى كل أجزائه سليم البدن ، والروح ، لم يشعر المواطنون بسعادة فى الانتماء إليه ، هذه السعادة التى نسميها « الكبرياء » الوطنى . فى ظل الدولة الوطنية ، ستخصص الأماكن الممتازة ، لذوى المواهب الممتازة ، لا لأبناء الطبقات الممتازة ، أى لأولاد الأغنياء ، والعائلات صاحبة النفوذ ولن يستساغ فى ظل الدولة النازية ، هذه العزلة التى تعيش فيها طبقة المثقفين الذين يطيب لهم أن يغلقوا على أنفسهم أبوابهم ، ويحلقوا فى سماوات لا تطولها طبقات الشعب الأخرى ، فإنه ينجم عن هذه العزلة أن المثقفين يصعب عليهم إدراك مشاعر الشعب من جهة ، كما أن آراءهم على مر الأيام تضعف ، وقدرتهم على تحمل المسئولية تقل . فالمثقفون لا يجب أن يتحولوا إلى طبقة عاجزة ، تفكر فقط ، ولا تحسن التنفيذ ومواجهة المخاطر . ولهذا يجب تجديد الطبقة المثقفة بإتاحة الفرص لأبناء الشعب الممتازين من جميع الطبقات للوصول إلى أعلى درجات التعليم الجامعى . ويقول هتلر إن من سوء طالع ألمانيا ، أن ساستها كانوا من المثقفين وأن رئيس وزرائها أثناء الفترة الأخيرة من الحرب كان ذا ميول فلسفية ، فالتاريخ كان يمكن أن يتغير لو أن الذى قاد ألمانيا هو أحد أبناء الشعب القادرين

العاديين ذوى الإرادة، والذين لا يعتمدون فى إصدار قراراتهم على المعرفة الفلسفية وحدها بل على ما يوحى به الإلهام الفطرى والغريزة الإنسانية السليمة .

وفى فصل معنون « الرجل القوى يكون أقوى ، حينما يكون وحيداً » كرر هتلر المعانى التى نشرها فى الكتاب فى فصول سابقة. فأعلن أن الأشياء العظيمة التى قام بها رجال عظماء ، لا جماعات ، ولا اتحادات ، ولا محالفات بين هيئات أو أحزاب ، وأن الرجل العظيم يصل إلى مكانة فى التاريخ خلال صراع يثبت فيه قدرته و إرادته ، فالتاريخ إذن هو مجمع الأفراد الأفذاذ الذين يقودون حركات تحقق مصالح الجموع ، أو يوفقون إلى أفكار أو أعمال ، تعود على الإنسانية بالخير ، فالثورات الكبرى التى شبت فى هذا العالم ، لم تكن قوتها الدافعة فضيلتها السلام والنظام ، وعالمنا يسير إلى ثورة عظمى وتساءل هتلر أسيكون فى هذه الثورة خلاص الجنس الآرى صانع الحضارات والمبتدع ، المبتكر ، أم أنها ستكون مورداً آخر من موارد الربح لليهود الدائم ؟ ؟

* * *

والآن وقد وقفنا على طرف من آراء هتلر ، ونظماته الفلسفية ، فإلى أى مدى كان هو صاحب هذه الآراء ؟

يقول روهان بتلر[١] مؤلف كتاب أصول الوطنية الاشتراكية الألمانية ، إن هتلر ، كان فى كتابه (كفاحى) صدى أفكار كثيرين سبقوه .

والثبت الذى أعده بتلر للمفكرين الذين مهدوا للوطنية الاشتراكية ، التى جاء (هتلر) كرسول لها ، ثبت طويل ، حوى عدداً كبيراً من الأسماء ، أخرجوا من الكتب ، ووضعوا من الرسائل ، ما عبر عن الروح الجرمانية التى كانت الحركة النازية أحدى صور التعبير عنها .

وأول هذه الأسماء عند (بتلر) هو (برناردى). ذلك لأن برناردى يثبت أنه كان ثمة ترابط بين التفكير الألمانى فى فتره ما قبل الحرب العالمية التى وقعت فى سنة ١٩١٤ ، فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية التى وقعت فى سنة ١٩٣٩ فقد ألف قبل الحرب الأولى كتاباً بعنوان « ألمانيا والحرب القادمة » ، وألف قبل الحرب العالمية الثانية كتاباً بعنوان « حرب المستقبل » ، وقد استحث همة الشعب الألمانى ، ليستعيد ما فقده ، وأن

---

(١) The Roots of National Socialism By Rohon D. O. Butler

محاولة تجريد ألمانيا من السلاح ، محاولة غير مجدية ، فإن الألمان استطاعوا بعد حروب نابليون أن ينشئوا جيشاً من ٢٠٠ ألف جندى ، مع أنه لم يكن مسموحاً لهم أن تتجاوز قواتهم المحاربة ٤٢ ألفاً من الجنود .

وبشر برناردى الألمان ، بأن ألمانيا الكبرى التى دعى إليها ، ستتحقق ، وإن كان يشك فى أنه سيراها بنفسه .

أما (راتناو) ، فهو على الرغم من كونه يهودياً ، ورجل مال ، إذ كان على رأس شركة A.E.G. الألمانية الكبيرة ، إلاأنه مع ذلك كان من دعاة الروح الجرمانية . وقد علل فشل ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لا بسبب انتشار الروح اللاسامية المعادية لليهود ، بل بانتشار روح الآلية التى أفقدت الشعب الجرمانى خصائصه التى كان يمتاز بها على بقية شعوب ألمانيا ، فلما أصبحت الحرب حرب دبابات ، وسيارات ، وطيارات ، لم يعد لهذه المزايا ما كان لها من قبل . فالروح الآلية نجحت فى إضعاف الروح الجرمانية حيث أخفقت الروح المسيحية . فقد ترتب على انتشار الآلات ، وسيادتها ، أن قامت الفكرة الاشتراكية ، وهى فكرة غريبة عن الروح الجرمانية ، فهى لم تلهب قط قلوب الناس فى ألمانيا ، كما أن الروح (البرلمانية) ماتت عند الألمان قبل أن تولد .

ويعتقد أن الحكم الناجح فى كل مكان ، هو الحكم (الأوتوقراطى) ، حكم السلطة المطلقة فى يد قائد فرد ممتاز ، وإن كان لابد لهذا الحكم (الأوتوقراطى) من قاعدة ديموقراطية ، فالأوتوقراطية والديموقراطية عند راتناو وغير متعارضتين إذ يمكن إحداث التزاوج بينهما . ويقول إن هذا التزاوج ممكن فى ألمانيا ، لأن الشعب الألمانى يتكون فى الواقع من جنسين ، جنس سيد ، قائد ، هو الجنس التيوتونى ، الذى غزا الأقاليم الواقعة فى الشرق من ألمانيا ، وأخضع أهلها لحكمه ، وهى الأقاليم التى يسكنها السلافيون الذى يكونون الجنس التابع . ولذلك فإن الناظر المتأمل إلى فرقة من فرق الجيش الألمانى ، يجد فى غير عناء ، أن الضباط والقادة هم جرمانيون ، وأن الجنود ، هم سلافيون . والأوائل يحسنون إصدار الأوامر ، وتحمل المسئولية ، ويحبون المجازفة ، ولا يخافون من المخاطر ، والآخرون يحسنون الطاعة ، ويفنون ولاء فى الرئيس أو الزعيم .

وينتهي (راتناو) إلى القول بأن ألمانيا لم تغلب فى الحرب العالمية الأولى ، بل خدعت ، وطعنت من الخلف .

ويأتى بعده ،(هرمان كيسلرنج)، وقد كان من النبلاء ، وصاحب مزرعة فى ولايات البلطيق ، وتزوج حفيدة (بسمارك) العظيم ، وأحب (هوستون ستيوارت تشمبرلن) صاحب كتاب « أسس حضارة القرن العشرين». ويبدأ كيسلرنج سلسلة أفكاره ، بالإشادة بالشعوب الجرمانية ، التى حطمت بغزواتها الإمبراطورية الرومانية ، فقال إنها وإن كانت جافية قاسية ، إلا أنها كانت شجاعة ، مستعدة للتضحية ، وقد أعانتهم صفاتهم هذه أن يكونوا خلال القرون أفضل من الأغريق والرومان ، الذين وإن كانوا أكبر نصيباً من التهذيب والتحضر ، إلا أنهم كانوا زائفين ، وخبثاء ، فقادهم ذلك إلى الانحلال . ويقول كيسلرنج إن الجنس الألمانى هو حقيقة واقعة ، بينما الجنس اللاتيني مجرد (وجود ثقافى) .

وأخص خصائص كيسلرنج أنه لا يعلى من قدر التفكير ، وإنما يجعل المقام الأولى للتجليات التى تنبعث من (اللاوعى) ، إلى (الوعى) ، ولذلك فالفلسفة عنده (فن) وليس (علماً) وقد شجب النزعة الآلية، كما شجبها (راتناو) ، واعتبرها شقيقة النزعة الذهنية التى سادت الغرب ، وقال إن الغرب ، فر بسبب هذه النزعة الذهنية من الحياة ، لأن هذه النزعة هى خنق لمجال الغريزة ، والحافز الصادر من اللاوعى ، ونزع للحياة الواعية ، من جذورها الحقة .

« فالعقل لا يدرك إلا التجاور والانفصال . والكم والعدد ، وما هو قابل للوزن والقياس ، وما هو متجانس ، أى المادة . وعلى العكس من ذلك لا يدرك الوجدان غير التتابع والاستمرار والكيف والاتصال وغير المتجانس ، أى يدرك الروح . والعقل تبعاً لهذا لا يتصور الأشياء إلا على أساس المادة — أى على أساس الثابت المطلق بينما الوجدان يدرك التغير والصورة كما هما فى تغيرهما وصيرورتهما ، إن صح هذا التعبير . ولما كان العقل لا يدرك إلا التجانس ، فإنه يحاول دائماً فى إدراكه للأشياء أن يجعلها متجانسة ، ولهذا ترى أن القانون السائد فى تقسيمه للأشياء هو قانون التكافؤ أو قانون العلية . أى تكافؤ الصلة مع المعلول تكافؤاً تاماً .

« ولهذا لا يمكن للعقل أن يدرك الحياة ، لأن الحياة تغير دائم ، وجدة

مستمرة ، وخلق جديد وما دامت كذلك فلا يستطيع أن يدركها غير الوجدان ، لأن الوجدان يدرك التغير والصيرورة . فيجب ألا يتدخل إذن فى عالم الحياة ، أى إن النزعة الآلية فى تفسير الحياة نزعة باطلة كل البطلان[1] » .

وتبعاً لذلك كان كايسرلنج يرى وجوب السير وراء تجليات (اللاوعى) أو العقل الباطن ، وإدماج اللاوعى بالوعى ، والإلهام الشرقى ، بالذهنية أو العقلية الغربية .

ويرى فى ألمانيا القدرة على أن تواجه النزعة العقلية الغربية ، بنزعتها الوجدانية . وكان يراها الوطن الذى يناسب نشوء حكم الصفوة المختارة ، الصفوة التى تجد إلهامها فى اللاوعى . فألمانيا لم تكن قط بلد الديموقراطية ، ذات الوجه القبيح . فالديموقراطية عند كايسرلنج هى حكم العجز وعدم الكفاية . كما أن الشكل الجمهورى للحكومة لا يحقق للناس حرية ، بل عبودية ، ذلك لأن كل الجمهوريات تقوم على الفرض الخاطئ ، فرض أن الناس فى الأصل متساوون . ولهذا فهو يعجب بالبوذية ، بقدر مخالفته للمسيحية ، ويقول « إن العين لا يمكن أن تخطئ سمات النبالة فى تعاليم بوذا ، فالبوذية أثبتت أنها أسمى من المسيحية ، فالمسيحية كانت أصلا دين البروليتاريا . فهى منذ البداية ضد الطبقات الممتازة ، إنها دين تحيز للفاشلين ، لذلك حملت معها أينما ذهبت ، أسباب تمزيق المجتمع »

وكان يعزى نفسه بقوله إن الديموقراطية مرحلة فى حياة الأمم ، إذ أنها منحت طبقات البروليتاريا الأمل فى أن يرتقوا ، وتبعاً لقواعد التهجين ، ستكسب الطبقات العاملة ، صفات النبلاء ، وبمجرد اكتسابها هذه الصفات ، ستتوقف الديموقراطية فى الحال ، لأن النبلاء الجدد ، سيكفرون بها ، وسيكونون خصومها .

ويدعو كايسرلنج ، إلى اشتراكية ألمانية ذات خصائص مميزة لها ، اشتراكية تسعى لوضع حد التنافس بين الطبقات ، وتخول الطبقة العاملة ، إلى فرع من فروع الحكومة يترقى فيه العمال ، بحكم الأقدمية .

أما فى مجال السياسة الخارجية ، فيدعو كايسرلنج ألمانيا إلى ألا تفرط فى شبر من أرضها ، وقال إن ألمانيا مهيأة ، بحكم مركزها ، وكفايتها الغنية ، لأن تكون على رأس نظام عالمى ، يعمل على إعادة تنظيم العلاقات الدولية ، تنظيماً يخفف من أسباب التوتر ، وإن كان لا ينهى هذا التوتر الذى هو من خصائص الحياة ،

(١) تلخيص آراء برجسون فى كتاب اشبنجلر للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٢٧ طبعة ١٩٤١ .

لا سيما أن النظام العالمى المقترح ، سيحفظ لكل شعب مميزاته .

ونظام الحكم الأمثل عند كايسرلنج هو النظام الأوتوقراطى ، الذى يقف على رأسه ملك ، لا يتوق لا إلى السلام ولا إلى الرحمة ، ولا تنازعه نفسه إلى الراحة ، ويعتبر نفسه وحده مذنباً إذا أخطأ ، فهو يتحمل مسئولية ما عمله فى كبرياء هادئ ، فإن ذلك هو منهج الرجولة . فالنساء وحدهن هن اللائى يقضين حياتهن فى انتظار ما يأتى به المستقبل ، وفى احتمال العذاب وفى الأمل ، ثم فى الرضاء بما يقسم لهن . ومن ثم فهن يتطلعن إلى الرأفة والرحمة والسلام . ولهذا السبب فهن على حق فى الاعتقاد فى سلطان القدر الأعلى . ولكن الرجل لا يجدر به أن يشغل باله بالله ولا بالشيطان ، لأن قدرته على المبادءة ، ترفعه فوق سلطان كليهما » .

ثم يأتى (توماس مان) الذى يرى فى الحرب لوناً من الرومانسية ، ويرى أن الجندى والفنان متناظران ، لأن كليهما يعمل على ثل عرش النظام الفاسد الذى أقامته الطبقة البرجوازية . وقال (مان) إن هناك تطابقاً فى الغرب بين السياسة والديموقراطية ، فالديموقراطية فى الغرب هى السياسة ، والسياسة هى الديموقراطية ، وهذا المركب الغربى من السياسة والديموقراطية أبعد ما يكون عن الروح الألمانية ، فإن ألمانيا تقيم فى مواجهته فكرة (الثقافة) اللاسياسية .

وقد لاحظ مان أن بين لفظ (الثقافة فى اللغة الألمانية Kultur ولفظ العبادة Kultus تقارباً .

ولذلك فالثقافة فى ألمانيا ، ذات طبيعة دينية . ومن ثم فإن الروح الألمانية ، لا تسيغ الديموقراطية القائمة على الأغلبية ، لأن الثقافة بطبيعتها ، نتاج فردى . فالمثاليون والمربون والأساتذة الألمان أمثال لوثر وجيته وشوبنهاور ، ونيتشه وجورج وغيرهم من أعلام الفكر الألمانى ، لم يكونوا ديموقراطيين قط .

وقد تمنى (مان) أن يحدث اندماج بين النزعة الذهنية ، أو الديموقراطية السياسية فى الغرب ، وبين البربرية الحيوية فى الشرق ، فى روسيا ، عن طريق ألمانيا ، وطن الأرض المتوسطة ، فإن هذا الاندماج ، يمنح الإنسانية ، قوة جديدة ويخلق من النقيضين ، كلا متجانساً .

ثم يأتى دور شبنجلر الذى ولد فى نفس العام الذى ولد فيه كايسرلنج ، وهو

يحتل مقاماً عالياً بين من كتبوا فى فلسفة التاريخ ، لابين المفكرين الألمان وحدهم ، بل بين جميع الكتاب فى جميع اللغات . ولعلنا واجدون مفتاح أفكار هذا المفكر الثائر فى الفقرة التالية :

« إن الإنسان وحش مفترس ، وسأقولها المرة بعد المرة . وكل دعاة الفضيلة والمفكرين فى الأخلاقيات الاجتماعية الذين يودون أن يعلو فوق هذه الحقيقة ليسوا إلا وحوشاً مفترسة تخفى أنيابها . من عساى أهين حينما أقول أن الإنسان وحش مفترس : الإنسان أو الحيوان ؟ ذلك لأن أعظم الوحوش المفترسة ليسوا سوى مخلوقات نبيلة فى أعلى الدرجات برئت من صفات الكذب التى تتسم بها أخلاق الإنسان بسبب ضعفه »

وأتبع شبنجلر هذا الحكم القاطع بحكم آخر لا يقل عنه قطعاً :

« إنى متشائم فيما يخص هدف الإنسانية . فالإنسانية فى نظرى هى كلية حيوانية ، فلست أرى لها تقدماً ، ولا ألمح هدفاً ، ولا سبيلا ، ولا وجود لشىء من هذا إلا فى رأس الفريسيين من أهل الغرب الذين يؤمنون بالتقدم . »

وعلى هذا الأساس يؤسس شبنجلر بناءه التاريخى ، والغرض عنده : أنه لا مكان للمثل الأعلى إذ ليس هناك إلا وقائع . لا توجد حقائق بل وقائع . لا أسباب ، ولا فضائل ، ولا عدالة ، ولا هدف نهائى ، بل وقائع . ومن لا يدرك ذلك قد يؤلف كتباً فى السياسة ، ولكنه لا يمارس السياسة . والنتيجة الحتمية لهذا أن السياسى المطبوع هو الذى يعلو فوق الحقيقة والتزييف أى يقيم حكمه على الوقائع فقط .

ويحتل الساسة عند شبنجلر مقاماً كبيراً لأن التاريخ عنده هو تاريخ دول . والدستور الداخلى لأى شعب وفى جميع الأحوال ، وعند جميع الأمم ، يتجه إلى أن يتشكل فى صورة ما تتفق مع أغراض هذا الشعب وأهدافه فى صراعه وقتاله ضد الأمم الأجنبية الأخرى ، بمعنى أن الصراع بين الأمم سواء كان عسكرياً أو اقتصادياً أو سياسياً هو الذى يملى صورة دستور تلك الأمم المنظم لشئونها الداخلية وعلاقات سلطاتها بين بعضها البعض .

والحرب هى الشكل الأبدى لأسمى صور الصراع الإنسانى، والدول لم تخلق إلا بقصد تحقيق أغراض الحرب، أى هى التعبير عن التحضير للحرب .
ولا تنطوى الحرب على التعبير الأسمى للصراع الإنسانى فحسب ، بل إن الحرب هى الحياة نفسها . والحرب هى السياسة الأصيلة لكل كائن حى ، ولهذا فالحرب والحياة ، إذا أردنا أن نصل إلى أعماق الحقائق، ليسا سوى شىء واحد ، وبانعدام إرادة القتال ينعدم الكائن الحى .

وكما يتحدث شبنجلر عن الثقافات يقسمها إلى ثلاث فصائل : الحضارة الإغريقية ويسميها الحضارة (الإقليدية) والحضارة العربية ويسميها الحضارة السحرية . وحضارة أوربا الغربية وبسميها الحضارة الفاوستية نسبة إلى فاوست بطل رواية الشاعر جيته ، وفاوست كان شيخاً استطاع الشيطان أن يرده إلى الشباب .

والحضارة الغربية تستمد حيويتها من شعبين يمتان على السواء إلى الجنس الجرمانى ، وهما الإنجليز والألمان . ولكن الإعياء والهرم استولى على الإنجليز . والأجيال الإنجليزية الجديدة ، تنظر إلى الحياة نظرة روحية خلقية ، مما يعنى أن الشعب الإنجليزى بدأ ينحدر . كان شعار الإنجليز فى الماضى أن بريطانيا تنتظر من كل ابن من أبنائها أن يقوم بواجبه ، وكان كل إنجليزى من عائلة كريمة ، ممن يتلقون العلم فى ايتون واكسفورد ، يحسب أن هذا الشعار موجه إليه هو بالذات ، أم الآن فإن هذا الشعار لا يجد إلا أذناً صماء . فهم الآن يقنعون بمداعبة مشكلات الشيوعية ، ويعتبرون الجنس Sex لوناً من الرياضة ، والرياضة مهنة من المهن » .

ولكن إذا كانت إنجلترا قد شاخت وتولاها الإعياء ، وفسد أبناؤها ، فإن ألمانيا لا تزال تحتفظ بشبابها ، فألمانيا (شابة) وهى فى الوقت نفسه أمة (حاسمة) لا لأن ألمانيا تمتد حدودها إلى آسيا ، بل لأن شباب ألمانيا يعينها على إجراء التجارب ، فيقدرون بذلك على تحديد مشكلات العالم الدولية بأنفسهم ، بينما تصلبت شرايين وأعضاء الشعوب الأخرى ، وفقدوا المرونة ، فلم يعد فى مقدورهم أكثر من أن يدافعوا عن أنفسهم . ولكن لا يحسم المشكلات الكبرى إلا الهجوم .

فالهجوم وحده هو سبيل النصر . فالألمان فى نظر أشبنجلر هم المخلص للشعوب البيضاء والمربى لتلك الشعوب الذى ستتعلم على يديه . والحقيقة الكبرى فى حياة ألمانيا هى الروح البروسية . ولكن العجيب أن اشبنجلر يرى أن الروح البروسية ، والاشتراكية هما شقيقان — وأن العداوة التى تقوم بينهما هى من قبيل العداوة التى تقوم أحياناً بين الأشقاء . ولكن الشىء الذى تأباه الروح البروسية أو الألمانية ، فهو (الليبرالية) أو (البرلمانية) .

ومضى اشبنجلر يتحدث عن (ملكية اشتراكية) وقد أفاض فى أن فكرة الاشتراكية فى أعمق معانيها هى إرادة القوة ، والكفاح لا من أجل سعادة الفرد ، بل سعادة الكل ، وبهذا المعنى يكون فردريك وليم الأول هو أول اشتراكى وليس كارل ماركس ، وقال فى شرح هذا :

« إن الدولة الاشتراكية البروسية ، دولة كل الشعب ، تقف من سلطتها غير المحدودة البرجوازية ، والعمال ، بوصفهم مجرد أحزاب أو أقليات ، كل منهم يخدم الصالح العام . والاشتراكية فى معناها الدقيق ، هى استحالة جميع العاملين إلى موظفين . واستحالة جميع أصحاب المشروعات كذلك إلى موظفين ، فيكونون موظفين صناعيين ، وموظفين تجاريين ، تماماً كما يوجد موظفون عسكريون ، وموظفون فى مرفق النقل ، وهذا أعلى ما وصلت إليه الثقافة المصرية القديمة من مراتب »

وقد عاد يقول إن الحضارة الغربية التى يسميها (الفاوستية) قد دخلت فى دور الانحلال ، وفى هذا الدور تحتاج أوربا إلى ألمانيا لا بوصفها عدوة لإنجلترا ، فقط ولكن لأنها البطل الذى ينعقد عليه آخر رجاء للغرب ضد الشعوب الملونة من جهة ، وضد روسيا من جهة أخرى . ويقول اشبنجلر إن التاريخ لم يعرف أمة شقت طريقها بأسلوب أكثر امتلاء بالفواجع من أسلوب ألمانيا ، فالشعب الألمانى ، هو الشعب الذى يتفق مع روح العصر الذى نعيشه ، فهو عصر قوى ، غاية القوة ، ومعنى كونه عصراً قوياً ، أنه عصر مفزع ، لاحظ له من السعادة ، فالسعادة والقوة شيئان مختلفان .

وقد رسم اشبنجلر عالم المستقبل — بكل خصائصه — كما يراها هو فبعد أن كان

أستاذه نيتشه يسأل من هم برابرة القرن العشرين، أجاب شبنجلر على هذا السؤال قائلا : إن الوقت الذى لا مكان فيه للنفوس الرقيقة ، والمثاليات الواهنة ، قد دنا ، بل إنه حل بالفعل ، وستستيقظ البربرية القديمة التى رقدت فى النفوس ، نفوس البشر ، مختفية ومكبلة بالقيود. وقال «ما أعنيه بالبربرية هو الجنس العارم، أو العنصر ذو الطابع الحربى الخالد ، طابع الوحش المفترس . وكثيراً ما خيل إلى أن هذا العنصر قد انعدم ، والحقيقة أنه راقد فى النفوس ، وعلى أهبة الانتفاض ، وحسبه أن يتلقى تحدياً قوياً ليصرع خصمه الذى يتحداه » ثم قال ليست العبرة بنقاء الجنس الذى ينتمى إليه الشعب ، بل العبرة بقوة هذا الجنس . والمعيار الذى تعرف به قوة الجنس هو أن تكون المرأة بين أفراده راغبة فى أن تحمل وتضع أولاداً ، لا أن يغازلها الرجال ، وتحب . وإذا أنجبت لم تنجب طفلا واحداً لتتسلى به ، وتتلهى ، بل أنجبت أولاداً كثيرين » .

وقد عاش اشبنجلر حتى رأى هتلر بعينى رأسه على رأس الدولة الألمانية ، وزعيماً للشعب الألمانى ومعبوداً للشبيبة الألمانية ، وقائداً تجتمع فى شخصيته جميع سلطات الحزب والحاكم ، ونبياً يدعو إلى القوة ، ويعمل بها ، ويبشر بالجنس ، ويعد الجنس رسالة الإنسانية الكبرى؛ فقال اشبنجلر :

« اليوم يمكننا أن نقول ، إن الثورة الوطنية ، ثورة سنة ١٩٣٣ ، ثورة قوة ، وأنها ستبقى هكذا ، فى أعين المستقبل ، وسر قوتها الثقل الأساسى الذى يعلو فوق الأشخاص الذى حققت به نفسها ، فضلا عن النظام النفسى الذى تمت به . وهى بهذا ثورة بروسية من منبت الشعر إلى أخمص القدم .. لقد هب الحالمون الألمان، بحكم طبيعة الأمور ، فى هدوء ، وعلى وجه بالغ التأثير ، وفتحوا أبواب المستقبل ولكن لهذا السبب نفسه ، يجب أن يكون واضحاً لمن شارك فى هذه الثورة ، أنها لم تحقق نصراً؛ ذلك لأنه لم يكن هناك من يعاديها . فإنه بمجرد قيام الثورة اختفى فى الحال ، كل ما كان نشيطاً فى العمل ضدها ، وكل ما تم بناؤه على غير قواعدها . إن الثورة تعد بانتصارات فى المستقبل ، انتصارات لا يمكن كسبها إلا من خلال قتال ، وإنه ليكونن قتالا مريراً »

وفى نهاية المفكرين الذين مهدوا للثورة النازية يأتى مولر (ڤان دن بروك مولر)

وقد ولد فى سولنجي فى ولاية سكسونيا الوسطى سنة ١٨٧٦ . وقد أصدر فى سنة ١٩٢٣ كتابه (الإمبراطورية الثالثة) كصدى لتأثراته وانفعالاته بأحداث الحرب العالمية الأولى وبهزيمة بلاده ، وبما جاء بعد الهزيمة .

وهو يتفق مع اشبنجلر فى تشاؤمه ، ويتفق مع الآخرين ، فى حمله على النزعة الذهنية الغربية ، وعلى الليبرالية (الحرية البرلمانية) ، وعلى الشيوعية ، وعلى كارل ماركس ، ويشيدون بألمانيا ، ويتنبأون بأن لها دوراً قيادياً ضخماً ، بعد إفلاس الحضارة الغربية القائمة على العقل والعقل وحده ، والتى تحدد من قوة الغريزة ، وإلهام الفطرة ، وتجليات الوجدان . وبقدر ما يكره الديموقراطية التى يراها نباتاً غريباً عن التربية الألمانية ، يكره عصبة الأمم ، وولسن مقترح إنشائها ، ويثور على معاهدة فرساى ، ولسنا نود أن نملأ صفحات نقلاً عن كتاب مولر ، وحسبنا أن نقدم للقارئ بعض فقرات ذات دلالة خاصة . فمثلا ، قد وضح تشاؤمه وضيقه بالمصير الذى انتهت إليه ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى فى العبارة التالية :

« لابد أن يكون قد وقع خطأ ما شمل كل شيء ، فنحن لا نكاد نضع أيدينا على شيء لنصلحه حتى يتحطم قطعاً بين أيدينا . كان ذلك هو الحال قبل الحرب ، وخلال الحرب ، وأثناء الثورة ، وبعد الثورة . إن الشعب كله واقع تحت تأثير سحر سيء » .

ثم تحدث عن عهد الإمبراطور غليوم الذى وقعت فى عهده الحرب العالمية الأولى ، فقال :

«أى عهد كان ذلك العهد ! عهد الآلية ، تتحكم فيه البيروقراطية ، ومع ذلك فهو عهد كثير المباهاة فقير مع كل غناه ، قبيح رغم كل استعراضاته ، أشبه شيء بسفينة قضى عليها أن تغرق . عهد قدر له أن يرى كل انتصاراته قد اكتسحت » .

ولما كان مولر ممن يعتقدون أن سبب هزيمة ألمانيا أن الروح الآلية سادتها ، فقضت على خصائص الروح الجرمانى ، ولما كانت الآلية بنت الروح المادية ، وكانت المادية هى رسالة كارل ماركس ، فكارل ماركس يستحق اللعنة ، فقال عنه مولر : « إنه كان مادياً نافذ البصيرة ، ولكنه لم يكن يعلو فوق المادية » . وقد رفض مولر الأخذ بنظرية ماركس ، وقال لو صدقت هذه النظرية ، لما بقى

للإنسان شيء في حياته سوى تنظيم جهازه الهضمي . وقد علل مولر قصور نظرية ماركس في تقديره ، إلى أنه يهودى ، ويهوديته جعلته غريباً عن أوربا وروحها ، وأنه مع بعده عن أوربا ، وعدم استطاعته فهمها ، فإنه لم يكف عن إقحام نفسه في شئونها ، وشئون الأوربيين ، وأضاف أنه لا غرابة في أن تحمل أفكار ماركس آثاراً من الأفكار الموسوية ، والمكابية ، وآثاراً من كتاب التلمود ، وأنه لا يفهم إلا من خصائصه اليهودية ، وقال مولر : إنه لم يخطر على بال ماركس أن الاشتراكية الوطنية يجب أن تسبق الاشتراكية العالمية . وقد رفض مولر ، كأكثر الذين مهدوا للنازية (المادية) و (العقلية) في آن واحد ، واعتبر عهد العقل هو أحد خطايا الغرب . وقد رمى ساسة الغرب ، بنقص الإحساس لأنهم لم يتعرفوا على إحساس الألمان بأنهم محبوسون كحيوانات موضوعة في قفص ، وأن قادة الحلفاء يروحون ويغدون أمام هذه الأقفاص ، في زهو وخيلاء ، كالحراس . وأن أهل ألمانيا أصبحوا كاللاجئين ، حتى في فترة السلم وإن لم يبق لهم مما تركه الأجداد إلا فتات إمبراطورية تمزقت أشلاؤها ، وأن دول الغرب ، وضعت أيديها على أنهار ألمانيا ، وحرمت على الألمان الجو ، وأن الغرب تفضل بإهداء (جمهورية) إلى ألمانيا ، لا تقوم على دستور ڤيمار بل على نصوص معاهدة فرساى » .

ثم وصم (مولر) — الرئيس (ولسن) بالنفاق لأنه ادعى أنه لا يطيق سماع كلمة غرامة الحرب ، ولكنه قبل أن تدفع ألمانيا تعويضات كان القصد منها أن تتحمل ألمانيا جميع نفقات الحرب ، بالنيابة عن الطرفين المتحاربين : الفائز والمهزوم . كما أن (ولسن) زعم أنه يرفض إلحاق المستعمرات بالدول الفائزة ، ولا بتوزيعها على المنتصرين ، ولكنه وزع على هؤلاء المنتصرين انتدابات هي في واقع الأمر ، مستعمرات . وانتهى الأمر بولسن أنه ضحى بـ (حرية البحار) و (المساواة في التجارة) و (نزع السلاح) من أجل أن يعود وفي جيبه ميثاق عصبة الأمم .

وحمل مولر على النزعة العقلية الغربية وقال إن الثورة القادمة ستكون ثورة ضد العقل ، وقال :

« لقد حول العقل الإنسان المفكر ، إلى إنسان حاسب . إنه أفسد أوربا ،

ولقد كانت الحرب الأولى بمثابة غرق لسفينة عصر العقل ، والحرب ضد عصر العقل التى نخوضها الآن هى فى الوقت نفسه حرب ضد (الليبرالية)، وفى خلال هذا الصراع ستتبين كم كان عمر عصر العقل قصيراً ، وأن إنتاجه كان ضعيفاً ومختنقاً ، وما خلفه سريع الزوال . حقاً لقد استطاعت إنجلترا أن توفق إلى بعض أشياء ذات قيمة عملية ، كما وفقت فرنسا إلى أشياء ذات بريق ذهبى ، ولكن الأعمال العظمى كان القيام بها من نصيب الجانب الآخر من الحدود (ألمانيا) وقد انتزعنا هذه الأعمال العظيمة من أنياب عصر العقل ، إن جميع عظماء الرجال منا ، سواء ذكرنا جيته أو بسمارك ، فإن كليهما كان من غير فريق الليبرالية أى (فريق الديموقراطية البرلمانية) .

وقد رسم مولر آخر الأمر ، حدود الإمبراطورية الألمانية الثالثة ، كما حدد رسالتها ، فجعل حدودها متسعة لكل الألمان فى أوربا الذين عجزت الإمبراطورية الألمانية الأولى والثانية عن ضمها إليها .

أما رسالتها ، فهى أن تضع ألمانيا نفسها على رأس جميع الدول المضطهدة والمغلوبة على أمرها ، وأن تريهم الظروف التى يمكن لهم فقط أن يعيشوا فى ظلها . وهو يقترح للإمبراطورية الألمانية الثالثة اشتراكية تختلف عن اشتراكية الاشتراكيين الديموقراطيين ، واشتراكية ماركس التى تأبى أن تتنازل عن نظرية حرب الطبقات والدوليات « Internationals » وفى اشتراكية مولر ، تقدم الدولة على الفرد ، ويقول إن ما لم يتحقق العدل للدول ، فإنه يستحيل أن يتحقق للشعوب ، ولذلك فلا بد من إنصاف ألمانيا أولا . وهو يقول إن قيام الإمبراطورية الألمانية الثالثة على أصولها الصحيحة ، وأداءها لرسالتها ، سيؤدى إلى السلام الدائم ، وإن كان هذا السلام لن يتحقق من نفسه ، بل لا بد لتحققه من حروب .

وقد كان مولر ، شديد الإعجاب بـ (هتلر) ، وقد ظهر كتابه الإمبراطورية الثالثة كما قلنا ، فى سنة ١٩٢٣ وكان لا بد أن تنقضى ست سنوات لتقوم الإمبراطورية الثالثة أو الرايخ الثالث ، وقد كانت هذه السنوات ، سنوات خيبة فى الظاهر لأمله

نفسه من تشاؤم ، ولكل ما بها من حساسيته ، فأنهى حياته بيده فى سنة ١٩٢٥ ، ولو طال صبره قليلا لرأى الزعيم على رأس الرايخ الثالث ، ولرأى هذا الزعيم ، وهذا الرايخ ، يحقق تقريباً كل ما قاله فى كتابه الإمبراطورية الثالثة حرفاً بحرف .

الفصل الثالث

النازية فى طريقها إلى الحكم

لقد رأينا فى الفصل السابق ، ما كان يملأ جو ألمانيا الفكرى والسياسى من نظريات ، وما كان يساور دعاتها وفلاسفتها ، من أحلام ، وتصورات.

ولعله كان من الواضح الجلى ، أن هذه النظريات ، وتلك الأحلام والتصورات ، لم تكن ضعيفة التأثير على الحركات السياسية التى تلت هدنة سنة ١٩١٨ ، ثم ثورة التاسع من نوفمبر ، بل لعلها كانت الأساس الذى قامت عليه أكثر هذه الحركات ، وفى مقدمة تلك الحركات جميعاً : الحركة النازية .

فالشعب الألمانى كله كان ثائراً ، وساخطاً بسبب معاهدة ڤرساى ، وبسبب احتلال منطقة الرور والراين ، وبسبب حرمان ألمانيا من التحليق فى الجو ، وإنشاء أسطول طيران لها ، ومن تحديد قوتها العسكرية بمائة ألف جندى ، وبتجريدها من مستعمراتها . فمعاهدة ڤرساى كانت عدوة الشعب الألمانى كله ، ولم يزد هتلر عن ترديد ، ما قاله الغير ، وما كان يملأ عقول وصدور الألمان ، شباباً وشيباً .

ثم كانت السياسة الفرنسية الإنجليزية ، فى نظر الألمان جميعاً هى القوة الدولية التى فرضت معاهدة ڤرساى بعد الحرب ، والتى أرادت أن تطيل من أمدها ، وتزيد من إرهاف سلاحها ، لتذبح الروح الألمانية ، ولتمنعها من استرداد ما فقدته ، واستعادة قوتها ، واستئناف نضالها ، ففرنسا وإنجلترا إذن العدو الأول مع معاهدة ڤرساى لكل ألمانى .

ثم رأى الشعب الألمانى ، مهزلة ذات فصول وذيول ، يراد إسباغ الجد عليها ، وهى هزل كامل ، ويراد أن ينسب إليها الصدق ، وهى زائفة ، ونعنى بها عصبة الأمم . وأدرك الألمان أن الإنجليز والفرنسيين يريدون أن يستتروا وراء العصبة ، ليبدوا دعاة للسلام ، وهم مثيرو الحروب ، وليدعوا أنهم كفوا عن الاستعمار ، وشراهتهم الاستعمارية لا تشبع ، فأصبحت عصبة الأمم ، فى نظر كل ألمانى ،

بديلا للسياسة البريطانية والفرنسية فكرهوها .

ثم تعمق بعضهم ، فوصل إلى القول بأن السياسة الغربية كلها ، ثمرة حضارة ، لا تتسق مع روح الحضارة الألمانية القائمة على الاعتراف بسلطة الحاكم المطلق ، الذى يستحيل إلى أب وزعيم للشعب ، والذى يدين له الأتباع عن تقدير ووفاء وولاء ، فلا تبدد حيوية الشعب ، فى مناورات الأحزاب ، داخل البرلمان وخارجه ، فانتهوا إلى القول بأن حضارة الغرب ، حضارة تجار ، تقوم على إدارة المال ، وتفسح مجالاً لليهود والجماعات السرية المشبوهة الغامضة كالماسون (البنائين الأحرار) ، فأصبحت الحضارة الغربية عدواً ثالثاً للشعب الألمانى .

ثم أصبح كل ما تجره هذه الحضارة من منظمات ، وأفكار ؛ فالديموقراطية البرلمانية ، هى ثمرة نظام الفكر الغربى ، والإعلاء من شأن العقل ، وإهدار طاقات النفس والوجدان ، هى نتيجة سيادة هذه الحضارة ، المادية ، والاشتراكية الماركسية ، هى شقيقة العقلية الجافة التى لا يترقرق فيها ماء الوجدان الجياش ، ولا تنعكس عليها ذخائر اللاوعى ، الملىء بالحرارة والجدة والابتكار .

وبمقارنة ما قاله زعيم النازى وما عمله ، بكل هذا ، نجد أنه كان من هذه الأفكار والنظريات كرجع الصدى .

فلما جاء التضخم بعد الحرب ، أصبح الشعب الألمانى إلى جانب معتقداته الفلسفية هذه ، ساخطاً ، لأمور تتعلق بشئون معاشه ، فقد أفلس ، واحترق فى نار البطالة وكساد الأعمال ، والتهبت نفسه حنقاً على هؤلاء الذين أثروا بفضل كوارثه ، ثم جاء دور رخاء صورى ، أتاح فرصاً ضخمة لعديد من الانتهازيين ، والمضاربين ، ففشا الفساد فى الحكومة ، وعمت المحسوبية ، وتنعمت بهذا الرخاء العابر ، السطحى جماعة الحكام والزعماء ، ومن اتصل بهم بصلات السياسة أو صلات القرابة .

ثم جاء الحكم الجمهورى ، فثبت ضعفه وعجزه عن حل مشكلات ألمانيا فى الداخل أو فى الخارج ، وراحت الأحزاب تناور وتتنافس ، فتاقت ألمانيا إلى حكم حازم ، وإرادة موحدة ، فأصبح كل شىء يشير بأن الحركة النازية ، قد

أصبحت على أبواب الحكم الكلى ، حكم الزعيم الذى يجمع فى شخصه الحكم والحزب ، العقيدة والإرداة ، والذى يعمل فى جرأة لضرب الأحزاب والجماعات المتنافرة ، ويوحد ألمانيا ، ويخلق ألمانيا الكبرى . ويحررها من كل ما فرضه الغرب من قيود . . .

قلنا أن ألمانيا مرت بفترة رخاء نسبى فى الفترة ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٩ ، بعد أن انحسرت موجة التضخم الرهيبة التى أودت بمدخرات الطبقة الوسطى ، والتى حطمت الطبقة الفقيرة . ولا يمكن تصور أهوال تلك الفترة ، مهما افتن الكاتب فى تصويرها للقارئ ، ولكن حسبنا أن نضع السطور التالية تحت نظر القارئ ، فقد تعينه على تصور الجحيم الذى كان الألمان يصطلون بناره :

« العديد من الأطفال ، حتى الأطفال الرضع ، لم يكن ليجدوا قطرة لبن . . وكان كل ما يستطيعون الحصول عليه من طعام ، الخبز الجاف ، وفى بعض الأحيان كانوا يجدون معه شيئاً من البطاطس المسلوق . وكان الأطفال يذهبون عادة إلى مدارسهم بلا قمصان ، أو غيرها مما يدفئ . وفى بعض الأحيان كان الأطفال يعجزون عن الذهاب إلى المدرسة لأنهم لا يجدون ما يسترون به أبدانهم. وقد قضت الحاجة على كل إحساس بالنظافة وكل كراهة للقذارة أو حرص على لياقة المظهر ، فلم يعد ما يشغلهم سوى الكفاح ضد الجوع والبرد » .

ولكن لما انقضت فترة الجوع والبرد والكساد التى طالب أكثر من خمس سنوات طويلة ثقيلة بطيئة ، وجاء هذا الرخاء الخادع ، لم تحل مشكلات ألمانيا ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل إن عدد عمالها العاطلين فى تلك الفترة لم يقل عن ثلاثة ملايين ، ولم ينقطع شعور الألمان بالمهانة ، ولم تنقطع حماقات فرنسا التى كان منها احتلال منطقة الرور بجنود السنغال .

ولكن ألمانيا ، على أية حال ، أحست بما يشبه إحساس المريض الذى فقد الأمل فى الشفاء ، فى دور النقاهة ، وإن بدا دوراً طويلا ، لا يظهر له نهاية قريبة ، وقد اقترن هذا الدور باسم السياسى الألمانى جوستاف شترسمان ، وقد استعان شترسمان هذا ، بواحد من أمراء الصناعة هو هيجوشتاين ، الذى كون ثروته من كارثة التضخم فى بلاده وذلك بقصد إعادة بناء الصناعة الألمانية ، وترميم ما تصدع

من اقتصاد البلاد . وقد كانت سياسة شترسمان تهدف إلى إعادة ألمانيا فى المجال الدولى ، كإحدى الدول الكبرى ، ولكن بطريق المفاوضة ، والمحاولات السلمية ، ولذلك أخذ يلعب على الخلافات بين تشمبرلن الإنجليزى ، وبريان الفرنسى ، وقد نجح فى أن يوقع فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٥ مع إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ميثاق لوكارنو الذى مرت الإشارة إليه والذى وقع كضمان لسلامة دول الغرب ، والذى ترتب عليه أن ألمانيا دخلت العصبة فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ .

ولكن سياسة شترسمان السلمية ،لم ترض كل الشعب الألمانى ، بل اعتبر ، مما يهين بلادهم ، أن يبذل وزير خارجيتها ، الجهد ، ليترضى الحلفاء ، وليكسب مودتهم وثقتهم ، ورموه بقولهم : « إن ابن بائع البيرة ، يضيع جهده ، فيما تأباه الروح الألمانية العظيمة » ، ومع ذلك فإن سياسة شترسمان هذا لم تكن تبعد كثيراً عن سياسة غيره من الأحزاب ، فقد أرسل خطاباً إلى ولى عهد ألمانيا — الذى كان وقتذاك خارج البلاد — قال له فيه إن سياسته (سياسة شترسمان) تهدف إلى حل مشكلة التعويضات التى كانت مفروضة على ألمانيا من الحلفاء ، وحماية الألمان فى الخارج ، وتعديل حدود البلاد الشرقية ، واستعادة ميناء دانزج من بولندا ، والممر البولندى ، وما اقتطع من ولاية سيلزيا العليا ومنح لبولندا ؛ وفى آخر الأمر الاتحاد مع النمسا . وقال فى مقال له بعد ذلك إن ألمانيا هى زعيمة الأقليات الألمانية وإنها الوطن الأم لجماعة الثقافة الألمانية ، وإن ألمانيا يجب أن تستأنف نشاطها الاستعمارى ، وأنه تبعاً لمبدأ تقرير المصير ، يحق لألمانيا أن تندمج فيها النمسا .

وقد كانت ألمانيا قد وقعت اتفاقاً مع الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٢ ، وعرف باتفاق (رابالو) ثم جدده شترسمان سنة ١٩٢٦ باسم معاهدة برلين ، وقد كان الاتحاد السوفيتى طوال هذه المدة يسلح الفرق العسكرية السرية فى ألمانيا ، خلافاً لما تقضى به المعاهدات .

ولما مات شترسمان فى الثالث من أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، بدا للناس بأنه أقام بلاده على قدميها ، بعد الأزمات التى مرت بها ، وأنه استطاع أن يعيدها إلى جماعة الدول ، وأن يرفع عنها عبء التعويضات الفادحة ، وأن يزيل التوتر الذى كان سائداً بينها وبين فرنسا ، وأن سماء الحياة الدولية ، أصبحت صافية ، وأن الأمل

فى خطوات نحو السلام ، زاد قوة .

ولكن قبل أن يموت شترسمان ، حل محل الرئيس إيبرت الديموقراطى ، فى منصب رياسة الجمهورية الماريشال هندنبورج ، الذائع الصيت ، بسبب انتصاراته المدوية خلال الحرب العالمية الأولى فى الجبهة الشرقية ، وبصفة خاصة ، صاحب النصر الرائع ، فى موقعة تاتبرج التى قضى فيها على جيش سامسونوف عن بكرة أبيه ، ثم عاد هندنبرج فهزم جيش رننكاسف . وانتهز هندنبرج فرصة اتهام وزير الحربية فى فضيحة مالية وعين الجنرال (جرونر) وزيراً للحربية بدلا منه . والجنرال جرونر هو رئيس أركان حرب هندنبرج خلال الحرب العالمية . وبذلك أصبح على رأس الدولة ، وعلى رأس الجيش ، اثنان من رجالات العهد البائد عهد الإمبراطور غليوم ، والإمبراطورية الثانية ، فكان السنوات من ١٩١٨ حتى ١٩٢٥ ، قد سقطت ، وخرجت ألمانيا القديمة من تحت أنقاض الحرب ، وخرائبه .

وكان قد حدث قبل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٢٣ اتفق هتلر زعيم الحزب النازى ، وفون كار رئيس وزراء باڤاريا ، ومن خلفهما لدوندرف على تدبير انقلاب عرف فى التاريخ بلفظ الـ «Putch» ، ولكن فون كار ، خانته أعصابه فى اللحظة الأخيرة ، وكان الجيش الألمانى ، لم يرض بعد تماماً عن هتلر وحركته ، فخرجت قوات الدولة ، لتطارد جموع النازى ، فتفرقوا ، وقبض على هتلر ، وحوكم ، ثم حكم عليه بالسجن ست سنوات ، فأودع قلعة لاندسبرج . حيث كتب كتابه الشهير « كفاحى » الذى لخصناه فى الفصل السابق .

ومنذ سنة ١٩٢٤ ، استترت الحركة النازية خلف حركة الحرية الشعبية ، بزعامة « جراف » ، وقد مرت الحركة النازية فى أزمات مالية ، وتناقص عدد أعضائها ، وبدا فى بعض الأوقات ، أنها موشكة على الانفضاض ، ولكنها فى جميع هذه الأحوال الشاقة ، بقيت مستمسكة بآرائها المتطرفة ، رافضة كل الرفض أن تقوم بينها وبين النظام القائم وقتذاك فى ألمانيا مصالحة أو مهادنة . ولم يكد هتلر يفرج عنه فى ربيع ١٩٢٥ ، حتى بادر بإعادة تنظيم حزبه ، ثم أعلن مبدأ اجتماع السلطات فى يد الزعيم ، وكونه زعيماً مدى الحياة ، وفى سنة ١٩٢٦ أنشئت

فرق الهجوم (S·S) Sczstaffel . وفى سبتمبر سنة ١٩٢٦ انعقد أول مؤتمر للحزب فى نورمبرج ، ثم أصبح الاجتماع فى هذه المدينة تقليداً سنوياً للحزب ، ثم توالت الفروع والمنظمات الهتلرية على مسرح الوجود . فقد عزز الشباب الهتلرى باتحاد الطلبة النازيين ثم تأسس اتحاد المدرسين النازيين ، واتحاد المحامين النازيين ، ثم اتحاد الأطباء النازيين وألحق اتحاد النساء النازيات بالحزب تحت اسم اتحاد الصليب المعقوف الأحمر . والصليب المعقوف هو شعار الحزب كما لابد أن نكون قد عرفناه .

ولما تبين هتلر أن الجيش (الرايشوهر) لا يثق به ، ولا يريد أن يتعاون معه ، أراد أن يتفق مع الكاثوليك ، وسلطات بافاريا ، ليكون له ما يعتمد عليه ، ثم انفصل عن حركة الحركة الشعبية ، وأرسل الأخوين (جورج وأوتوستراسر) إلى بروسيا لتنظيم الحزب هناك ، وما لبثت مجهوداتهم حتى توجت بنجاح عظيم . ومع ذلك كان واضحاً أن هناك خلافاً فى الرأى بين الأخوين استراسر وهتلر ، ذلك لأن نزعة هذين الاشتراكية ، كانت واضحة ، وقد كان أوتوستراسر صديقاً حميماً ومعجباً متحمساً (بمولرڤان بروك) ، وقد ألف معه (نادى يونيه) لإعادة بناء ألمانيا على الأسس التى شرحها فى كتابه الذى لخصناه فى الفصل السابق .

ولم يكد العقد الثالث يصل إلى غايته حتى كان هتلر قد وثق علاقاته بأمراء الصناعة والمال ، أمثال تيسن ، وشاخت محافظ بنك الرايخ ، وهو سجنبرج ، وكان لهوجنبرج أهمية خاصة لأنه كان يدير عدة منظمات للنشر والدعاية ذات خطر كبير ، منها اتحاد التلغراف ، وشركة (أوفا) للسينما و (كونزرن تشرل) التى تصدر كل جرائد ومجلات المحافظين وكانت الأحوال الاقتصادية قد ساءت بعد أن بدأت أزمة سنة ١٩٣٠ ، وزاد عدد المتعطلين ، وأصبحت شوارع برلين مشهداً مستمراً لاستعراضات الفرق العسكرية التابعة للأحزاب .

وقد كان كل شىء يدعو إلى نجاح الشيوعيين ، ولكن القيادة المتسمة بالشجاعة كانت تنقصهم فبدأ كثير من أشياعهم ينفض عنهم ، بينما أخذت مبادئ ، وصيحات النازيين ، وأعلامهم ، ونظامهم يخلب ألباب الشباب ، كما عقد أبناء الطبقة المتوسطة ، آمالهم على نجاح هذا الحزب فأيدوه . ولما انتهت مدة هندنبرج الأولى

فى الرياسة ، وجرت الانتخابات أيد براوننج رئيس الوزراء هندنبرج ضد هتلر ، فلما انتخب هندنبرج ، كان أول أعماله أن أقصى براوننج هذا عن منصب الرياسة ، وأسنده إلى فون بابن . وكان أول عمل قام به فون بابن ، أنه حل حكومة بروسيا الاشتراكية ، وكانت حكومة راسخة القدم هناك ، وكانت بروسيا بسبب قيام هذه الحكومة فيها آخر معقل للاشتراكية والديموقراطية فى ألمانيا ، واحتجت الحكومة على هذا الحل ، باعتباره عملا غير دستورى ، ولكن رئيس الجمهورية ، لم يحفل بهذا الاحتجاج ، تأسيساً منه ، على سابقة صدرت من رئيس الجمهورية السابق ايبرت ، وكان اشتراكياً ديموقراطياً ،إذ أنه أمر بإقالة رئيس حكومتى ثورانجيا وسكسونيا ، وكانتا حكومتين محافظتين . ولم يقاوم الاشتراكيون هذا الإجراء ، ولم يثيروا فى البلاد، احتجاجاً ، ذا قيمة . وقد كشف هذا الحادث الدستورى ، أن الحركة النازية ، كانت تلقى التأييد من جزء غير قليل من الشعب الالمانى ، وقد كان هذا الإجراء دليلا كذلك على أن رغبة الألمان فى وحدة حقيقية تضمهم ، وتوحد سياستهم ، قد بلغت درجة الاكتمال ، وأنهم أصبحوا مستعدين ، لكل ما يقوض سلطان واستقلال الولايات ، لتنشأ حكومة مركزية قوية فى برلين ، الأمر الذى أتمه النازيون حينما تسلموا مقاليد الأمور . فاتحد الشمال مع الجنوب ، واندمجت المشاعر والأحلام الجرمانية المتسمة بالغموض ، المغلفة بالفلسفة ، بالروح البروسية العسكرية ، فى تأييد الحركة النازية التى توالت انتصاراتها فى الانتخابات ففى انتخابات سنة ١٩٣٠ كان عدد ما ظفر به النازيون من الأصوات هو ستة ملايين ونصف مليون ، و ١٠٧ مقعداً فى الريشستاج . وفى سنة ١٩٣٢ قفز عدد الأصوات إلى ١٤ مليون صوت وعدد المقاعد إلى ٢٣٠ . وقد أعلنت جريدة الحزب — Der Angriff (الهجوم) رسالة نواب النازى فقالت : نحن ندخل البرلمان لنزود أنفسنا من مخازن الديموقراطية بالسلاح الذى سنقضى به عليها وعلى روح ڤيمار ، بيد (ڤيمار) نفسها ، وإذا كانت الديموقراطية بلهاء إلى حد تزويدنا مجاناً بالقوة وبالمال ، فإن هذا شأنها ، أما نحن ، فسندخل إلى البرلمان ، كأعداء له ، شأننا فى ذلك شأن الذئب الذى يدخل إلى قطيع الغنم ليفتك به »

الفصل الرابع

النازية فى الحكم

قلنا فى الفصل السابق إن أصوات الناخبين الألمان المؤيدين لحزب النازى ، قفزت من ستة ملايين ونصف مليوناً إلى ١٤ مليونا ، وأن عدد نواب الحزب قفز من ١٠٧ إلى ٢٣٠ ، وذلك فى فترة لم تجاوز العامين ، وقلنا إن هندنبرج رئيس الجمهورية أقصى براوننج الذى أيده فى حملته الانتخابية ضد هتلر ، وأسند رياسة الوزارة إلى فون بابن ، وقد كان (فون بابن) ضالعاً مع هتلر ، وكان هندنبرج شيخاً فانياً ، فاستطاع فون بابن ، أن يخيفه من خطر شيوعى كامن يتحفز للانطلاق والتحكم فى ألمانيا ، ليحيطم كل مقوماتها القومية ، ويقضى على نزعتها الإمبراطورية ، وروحها الجرمانية ، ويدعها فريسة مهينة لكلاب الشوارع والرعاع .

وفى ٣١من يناير سنة ١٩٣٣ استطاع النازى أن يحصلوا على الأغلبية التى تمكنهم من الوصول إلى الحكم ، فتولى هتلر رياسة الوزارة ، ثم تحدد يوم أول مارس لانتخاب يجرى فى ظل الحكومة الهتلرية ، وقبل هذا اليوم بأسبوع اشتعلت النار ، فى الرايشستاج (البرلمان) وألقت الحكومة القبض على زعماء الشيوعية ، والاشتراكية معاً ، تأسيساً على أن حريق الرايشستاج ، كان مجرد مقدمة لمؤامرة ضخمة ، نظمها الشيوعيون لإلقاء البلاد فى أتون فتنة لا تبقى ولا تذر .

وفى ٥ من مارس أعلنت نتيجة الانتخاب ، وظهر أن ٤٣ ٪ من الناخبين أيد الحزب النازى ، ويقول كونراد هايدن فى كتابه « رجل واحد ضد أوربا » أن حريق الرايشستاج ، واتهام الشيوعيين بأنهم مدبروه ، ومرتكبوه ، ترك أثراً عميقاً فى الشعب الألمانى إذ أيقنوا أن هتلر هو المخلص الوحيد لهم من بربرية الشيوعيين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد لجأ الحزب النازى برياسة جورنج الذى أصبح فيما بعد وزيراً للطيران فى حكومة هتلر إلى الأساليب التى كانت متبعة بين

الأحزاب الألمانية منذ انتهت الحرب فى سنة ١٩١٨ ، وهى استعمال الفرق المسلحة وشبه العسكرية ، فى تشتيت اجتماعات الأحزاب المعادية ، ومطاردة الخصوم السياسيين ، وضربهم وأحياناً قتلهم . وقد مر بنا أن الحكومة الاشتراكية ، سلطت فرقها على خصومها بما فيهم زملاءها فى جبهة اليسار .

ولما كانت فرق النازى أكثر تنظيماً ، وأوفر مالا ، وأعظم جرأة ، فقد استطاعت أن تحطم الحملة الانتخابية الشيوعية خصوصاً واليسارية عموماً . فلم يعد فى وسع الأحزاب المعادية أن يعلقوا لوحاتهم الانتخابية ،فقد كانت تنتزع من مكانها وتداس بالأقدام وتحرق ، وكان معلقوها يضربون . وفى يوم الانتخاب لاذ مندوبو المرشحين اليساريين ببيوتهم ، ولم يجرؤوا على الذهاب إلى اللجان الانتخابية ليشرفوا على عملية الانتخاب .

ومنذ وضع هتلر قدمه فى الحكم ، بدأت حملة ضخمة ضده ، زادت مع الأيام تتهمه وتتهم أنصاره ، وزعماء حزبه فى العاصمة وفى الأقاليم بارتكاب أفظع جرائم التعذيب ضد الخصوم السياسيين ، وبلغ من ضخامة وفداحة الاتهامات التى نسبت إلى هتلر فى هذا الصدد ، أنه قيل إن بعض بيوت التعذيب التى كان رجال الشرطة والحزب النازيين ، يمارسون فيها عملياتهم غير المشروعة وغير الإنسانية ، اختيرت فى الشوارع العامة الآهلة بالحركة ، وإن أصوات المعذبين ، وصراخهم كان يتصاعد من وراء جدران هذه البيوت ، ويخرق صمام آذان المارة ، فلا يفعلون أكثر من أن يسرعوا بالا بتعاد عن المكان .

ولسنا نحب أن نقف أمام هذه الاتهامات لننقضها أو لنؤيدها ، وإنما نحب أن ننتقل منها إلى ما كان يلقاه هتلر وحكم هتلر فى البلاد التى أخذت على عاتقها الدعوة لرسالة الديموقراطية والتبشير بها ، والتى عدت نفسها حامية هذه الرسالة .

يقول الدكتور دلتون فى كتابه (حرب هتلر) ، إن أصحاب الأموال فى حى المال (الستى) بلندن ، كانوا راغبين فى إقراض هتلر ، ولم يكن يثنيهم عن هذه الرغبة ، حتى علمهم بأن هتلر قد يستعمل هذا المال فى شراء السلاح ، وفى استعمال هذا السلاح نفسه ضد بريطانيا ذاتها ،وأن قسماً كبيراً من كبار رجالات

الإنجليز كانوا يودون (تهدئة) هتلر ، بمنحه عطايا من ممتلكات الدول الأخرى ، بل إن بعض هؤلاء ذهب إلى حد التحدث عن التحالف الإنجليزى — الألمانى ، وتوجيه الضغط على رئيس وزراء بريطانيا فى عهد هتلر (نيفيل تشمبرلن) بقصد حمله على تنفيذ مشروع أبيه تشمبرلن الكبير ، الذى كان يقوم على تحالف بريطانيا وألمانيا ، بحجة أنهما إذا تحالفتا ، فإنهما تصبحان قادرتين على اقتسام العالم بينهما ، كما يتعذر بعد ذلك ، على الدول الأخرى كافة ، أن يعكروا السلام .
ويشرح دعاة هذا المشروع فكرتهم قائلين إنه ليس ضروريًّا لإمكان تنفيذه أن يلقوا بفرنسا جانباً ، متجاهلين وجودها ، ففرنسا فى حد ذاتها ، أمة أقل حيوية وإيجابية من الشعب الألمانى هذا من جهة ومن جهة أخرى ، يجب على الإنجليز أن يلفتوا نظر البولونيين والتشك إلى وجوب التنازل عن بعض أراضيهم التى يسكنها ألمان أو تقيم بها أغلبية ألمانية ، وإلا فعليهم تحمل مسئولية عدم العمل بهذه النصيحة .
أما إذا رغبت ألمانيا فى أن تتوسع فى أوروبا الشرقية (على حساب بولندا وروسيا) فهذا شأنها ، ولا حق للإنجليز فى التدخل فيه ، وفضلا عن أن من حقها على أية حال ، أن تستثمر حيويتها ، هذا كله مع ملاحظة عن أن الاتجار مع هذا الجانب من العالم ، يتعب بريطانيا ، أكثر مما تكسب منه . أما فيما يخص المستعمرات ، فلابد من فتح اكتتاب لألمانيا ، ليتيسر لها إنشاء إمبراطورية لها فى شرق أفريقيا ، وعلى فرنسا وبريطانيا أن يكونا فى رأس المكتتبين ، وعليهما أن يستحثا بلجيكا والبرتغال وجنوب أفريقيا ليساهموا فى الاكتتاب ، وذلك بتنازل كل منها عن جزء مستعمراته لألمانيا
ويضيف أصحاب المشروع إلى هذه التفاصيل كلها قولهم إن موظفى وزارة الخارجية الدائمين ، يصعبون السهل ، ويعقدون البسيط ، ولكن عليهم أن يفهموا أن لبريطانيا هدفاً واحداً ، هو أن الإنجليز والألمان يجب أن يصبحوا أصدقاء ، وكل شىء عدا ذلك ثانوى ، ويجب أن يضحى بكل شىء من أجل الوصول إلى هذا الهدف »

ويقول دلتون إن معظم الإنجليز الشاغلين لمناصب ذات أهمية ، كانوا يرددون مثل هذه الآراء ، وإنهم لم يكفوا عن ترديدها حتى نهاية سنة ١٩٣٨ . وأنه أراد أن يناقش بعض هؤلاء فقال لهم إن ألمانيا إذا توسعت فى الشرق ، فإنها لن تلبث حتى ترتد إلى الغرب ، وهى أكثر قوة ، وأوسع مطمعاً ، فاكتفوا بالرد : وما هو

البديل ؟ فأجابهم : يجب علينا قبل أن نناقش شيئاً من مطالب ألمانيا ، أن ننشئ ضماناً جماعياً حقيقياً بحيث يستحيل إحداث تغيير فى أوربا بالقوة . فعادوا يسألونه : كيف ؟ فأجابهم : علينا أن نعبئ كلا من السلاف مع الفرنسيين والإنجليز ، ليقفوا صفاً واحداً فى وجه ألمانيا . فكان التعليق أن هذا المشروع ، لا يصدر من رجل يقدر المسئولية .

والحق أن هذه المناقشة ، وذلك المشروع القديم ، مشروع تقسيم العالم بين بريطانيا وألمانيا ، يمثلان وجهى التفكير الأوربى ، فأحد الوجهين ، يؤمن بقوة ألمانيا ، وبأنها حليف جدير بمصادقة الإنجليز ، وأنهما إذا اجتمعتا فى معسكر ، دانت لهما المعسكرات الأخرى . والوجه الثانى ، يعتبر ألمانيا خطراً مخوفاً ، وأن على بريطانيا أن تكتل القوة المعادية لها ، وأن تقف هى على رأس هذا التكتل . ولكن لا يوجد إلى جانب المهادنة والخوف من ألمانيا ، أوالتصدى لها والوقوف فى وجهها ، أية محاولة جادة لمناقشة أساس العلة ، وموطن الضعف فى بناء أوربا سياسى ، وفى وهن أسس السلام العالمى .

لم يكن فى وسع أحد من الساسة أن يفكر أولا فى أن العالم ليس أوروبا ، وأن هناك ملايين يمكن أن يتوجه إليهم التفكير السياسى والاقتصادى ، لتصبح الحياة الدولية ، أكثر نصيباً من الصحة والقوة . وثانياً ، أن أساس التفكير اعتبار الزعامة على أوربا ، سواء لبريطانيا وحدها ، أو لبريطانيا مع فرنسا ، أو لبريطانيا مع ألمانيا ، أمر لا مناص من التسليم به ، هو أساس خاطئ ، وأنه مصدر الخطر على سلام أوربا والعالم .

ولكن هذا هو الطابع الذى اتسم به التفكير فيما بعد الحرب العالمية الأولى فلنر كيف جرت الأحداث على أساسه حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

يقول خصوم هتلر ، إن الأمر الذى خفى على دوائر السياسة البريطانية ، أن هتلر كان له هدف واحد : هو أن يحكم العالم ، ويعتبرون أن هذا أكبر أخطاء هتلر ، كأن حكم العالم حق بريطانيا الإلهى ، كما كان فى الماضى ، حق الملوك الإلهى ، أن يحكموا رعاياهم ، وأن على رعاياهم أن يسلموا بهذا الحق دون مناقشة ، لأن المناقشة فيه ، من قبيل التجديف بالله . ومع ذلك فإن هتلر ، لم يعلن أنه يهدف

إلى السيطرة على العالم حينما تولى الحكم بل قال فى ١٧ من مايو سنة ١٩٣٣ أمام الريشستاج : « إن ألمانيا لن تطرق بقدمها إلا الطريق الذى رسمته لها معاهدات الصلح . وإن حكومة ألمانيا ، ستناقش جميع المشكلات السياسية والاقتصادية ، فى حدود المعاهدات . وإن فكرة غزو أية دولة أخرى لم تخطر على بال ألمانيا قط »

ويقول الدكتور راوننج صاحب كتاب هتلر قال لى ، وكتاب ثورة ألمانيا التخريبية :

« هتلر قال لى فى نفس هذا الصباح — صباح ١٧ مايو سنة ١٩٣٣ — إنه مستعد أن يوقع أى شىء . وأن يضمن أى حدود ، وأن يمضى على أى ميثاق عدم اعتداء مع أية حكومة ، وإنه لمن الحماقة أن يتردد الإنسان فى أن ينتفع من هذه التسهيلات ، بدعوى أنه قد يضطر فى ذات يوم ، لمخالفة ما وقعه »

وخصوم هتلر ، يعتبرونه أفاقاً ومغامراً لمثل هذه التصريحات ، والحق أنه بهذه التصريحات سجل على نفسه ، أنه ليس أكثر سوءً من سواه من ساسة أوربا فى عهده ، وفى العهود التى تلت أيامه ، بل إنه أكثر صراحة ، وأقل مداراة ، فما من معاهدة وقعت فى أوربا ، وما من عهد أو ضمان أو وعد ، إلا وداسته الدول الكبرى ، أو تجاهلته أو فسرته على هواها ، حينما اقتضت الضرورة أو المصلحة شيئاً من ذلك . وسنرى كثيراً من الأمثلة على ما نقول ، فى الحوادث التى سبقت نشوب حرب سنة ١٩٣٩ .

ولعلنا نذكر أن من مشروعات نزع السلاح ، مشروعاً فرنسيًّا ، كان يقضى بإلغاء جميع أسلحة الطيران ، وقد كان من قوة أثر هذا الاقتراح ، أن صرح أحد وزراء بريطانيا — وهو اللورد لوندوندرى — صرح فى يوم ٢٢ من مايو سنة ١٩٣٥ ، أنه كان يجد صعوبة كبرى — إبان إثارة هذا الاقتراح « فى الاحتفاظ بقاذفات القنابل حتى فى الشرق الأوسط وعلى حدود الهند » والمتأمل فى هذه العبارة ، يرى كيف يفكر سادة أوربا ، فاللورد كان يقصد بعبارته هذه ، أن شعار السلام ، كان قويًّا فى تلك الأيام إلى حد أن الاحتفاظ بالطائرات اللازمة لتأديب وضبط الأمن حتى فى الشرق الأوسط والهند ، كان أمراً مرفوضاً ، مع أن ضبط هذه المناطق — غير

الأوربية — من الأمور البديهية التى لم يكن يجوز للسذج من دعاة السلام أن يناقشوا فيها ، أو يقحموها فى مشروعات السلام .

ولقد كان من الطبيعى ، أن يكون صدى هذه المشروعات التى سميت زوراً وبهتاناً بمشروعات نزع السلاح ، أن يصل إلى الحكم حزب كحزب النازى ، وأن يتولى الأمور فى ألمانيا ، رجل كهتلر ، وأن يأمر من اليوم الأول لإسنادالوزارة إليه ، زميله جورنج ، بإنشاء أقوى قوة طيران فى أوربا . وبدأت الأنباء تتسرب إلى دوائر (دوانبج ستريت) الحاكمة ، فى لندن ، أن هتلر ينشئ سلاحاً قوياً ، هائلا ، ولكن هؤلاء لم يكترثوا لهذه الأنباء ، لواحد من سببين : إما أنهم لم يتصوروا أن هتلر ، قادرفى ألمانيا ، التى حطمتها سنو الحرب ، ثم سنو التضخم المالى ، ثم سنو الأزمة العالمية ، أن ينشئ سلاح طيران ذا قيمة ، وإما أنهم كانوا فى أعماق نفوسهم يتمنون أن ينشئ هتلر هذا السلاح ، لاعتقادهم بأنه لن يسود أوربا سلام إلا إذا استعادت ألمانيا ، قوتها العسكرية ، ووقفت نداً لفرنسا ، ولذلك كان طبيعياً أن يصرح مستر بلدوين رئيس وزراء بريطانيا فى٢٨من نوفمبر سنة ١٩٣٤ للبرلمان البريطانى ، بأنه يكتفى بالقول بأنه من الحق أن يقال — إن الألمان منهمكون فى إنشاء قوة جوية لهم . ولكن الحكومة فى مارس سنة ١٩٣٥ طمأنت النواب الإنجليز بأن قوة بريطانيا الجوية لا تزال متفوقة على سلاح الألمان الجوى ، وأن تفوق بريطانيا سيبقى حقيقة واقعة ، حتى ولو لم تضاعف بريطانيا برنامج منشآتها الجوية حتى آخر سنة ١٩٣٥ .

ولكن فى سنة ١٩٣٥ ، كان مستر إيدن — بوصفه وكيلا لوزارة الخارجية — فى زيارة لبرلين ، حيث استقبله هتلر ، ثم قال له : « ألمانيا ، أوشكت أن تلحق ببريطانيا فى الجو ، ولن تلبث حتى تتفوق عليها .. » ولم يعد الأمر سراً . لماذا قال هتلر لهم ذلك ؟ هل كان هذا التصريح من قبيل حرب الأعصاب ، والتخويف للابتزاز .

إن دلتون يعتقد، واعتقاده له أساس، أن ما قاله هتلر لإيدنلم يكنخافياًعلى أقلام الجاسوسيةالبريطانية ،ولا على السادةالذين يتربعون على عرش حى(السى)حى المال فىإنجلترا، وإنما كان إخفاؤها عن فروع الحكم متعمداً، لأن تضاعف قوة هتلر ،

شىء مطلوب ، وهدف مرتقب عند زعماء حى المال .

وفى ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ، لم تر ألمانيا — جرياً على عادتها فى عهد هتلر — !
أن تضيع وقتها فى هذا العبث ولا أن تشارك فى هذا التزييف الممجوج ، المسمى مؤتمرات نزع السلاح ، فتركت هذا المؤتمر إلى غير رجعة وأعلنت أنها بسبيل ترك عصبة الأمم أيضاً .

وراحت ألمانيا تسلح نفسها ، وقد قدر أحد خبراء التسليح المبالغ التى أنفقتها على تسليح نفسها ، فى المدة من مارس سنة ١٩٣٣ إلى يونيه سنة ١٩٣٦ ، ٢٧٠٠ مليون من الجنيهات أى مليارين و ٧٠٠ مليون . !!

ولقد أنتجت هذه البلايين من الجنيهات أثرها ، فأصبح هتلر قوة يحسب لها حساب فعلا ، وبدأ يسترد شيئاً فشيئاً ما فقدته ألمانيا بعد هزيمة سنة ١٩١٨ ، ثم ينفذ برنامج ألمانيا الكبرى خطوة خطوة ، بادئاً من خطوات هذا البرنامج بما يعتبر أكثر مشروعية من سواه .

وقد كانت الخطوة الأولى خطوة خالية من العنف ، ومتفقة مع نصوص معاهدة فرساى نفسها ، فقد فرضت هذه المعاهدة على ألمانيا ، ألا تعود منطقة السار إليها إلا بعد استفتاء يجرى بين أهليها ، وقد حدد لهذا الاستفتاء يناير من سنة ١٩٣٥ وكانت هذه المنطقة منذ إبرام معاهدة الصلح ١٩١٩ حتى موعد الاستفتاء خاضعة لحامية دولية مكونة من البريطانيين والطليان والهولنديين والسويديين . وقد أسفر الاستفتاء عن انتصار الراغبين فى العودة إلى ألمانيا الأم ، وإن كان بعض أهل المنطقة صوت مع بقائها حرة تحت إدارة عصبة الأمم .

وكانت منطقة الراين بحكم معاهدة فرساى كذلك خاضعة لحامية عسكرية بريطانية وفرنسية وبلجيكية ، وكان مفروضاً أن تبقى عزلاء من السلاح ، وخاضعة لهذه الحامية ، خمسة عشر عاماً ، وقد قصد من هذا الإجراء جعل احتلال هذه المنطقة وسلخها عن أصلها ضماناً لوفاء ألمانيا بالتزاماتها المفروضة عليها بمقتضى المعاهدة . وفى خلال إبرام ميثاق لوكارنو سنة ١٩٢٥ ، أعلن سترسمان وزير خارجية ألمانيا أن بلاده ستبقى هذه المنطقة عزلاء من السلاح إلى الأبد ، كسباً لثقة فرنسا ، وإدخالاً للطمأنينة إلى قلبها ، بقصد دعم روح المسالمة ، وحل مشكلات أوروبا

المعلقة ، وتحقيقاً لحلم نزع السلاح . وقد كان رد الفعل عند فرنسا الموافقة على التعجيل بإجلاء جيوش الحلفاء عن الراين ، فى سنة ١٩٣٠ ، قبل الموعد المحدد لجلائها بخمس سنوات . وفى ٣٠ يناير ١٩٣٤ أعلن هتلر أنه بعد أن سويت مشكلة السار بعودتها إلى ألمانيا ، فإنه مستعد أن يقبل ميثاق لوكارنو روحاً ونصًّا ، وأنه لم يشك مطلقاً فى صحة ومشروعية ميثاق لوكارنو وفى ٢ من مايو سنة ١٩٣٥ وقعت كل من فرنسا والاتحاد السوفيتى ميثاق الصداقة بينهما ولم يعترض عليه هتلر ، ولم ير فيه تحالفاً بين هاتين الدولتين ضده بقصد حصر ألمانيا بينهما . وتوالت تصريحات هتلر المشربة بروح المسالمة ؛ فأعلن فى ٢١ من مايو سنة ١٩٣٥ أنه لن ينوى التدخل فى شئون النمسا ، ولا أن يبرم معها ميثاقاً للوحدة الاقتصادية بينها وبين ألمانيا (أنشلس Anschuls) .

ثم وقعت الحرب الحبشية ، ورأى هتلر ، أن فرنسا وإنجلترا ، لم يدافعا عنها فقط ، بل اتفقا معاً على تسليمها لموسولينى ، وهو حديث سنتناوله بالتفصيل بعد حين ، فقرر أنه سيحتل منطقة الراين وأنفذ قراره هذا فى ٧ من مارس سنة ١٩٣٦ ، ولكنه لم يعتبر هذا فاتحة هجوم على أوربا ، ولا خروجاً على روح المسالمة إذ خطب فى البرلمان الألمانى فقال : إن ألمانيا لن تحطم سلام أوربا . وإنى لأستطيع أن أقرر أن نضال ألمانيا فى سبيل وقوفها على قدم المساواة مع غيرها قد تكلل بالنجاح فى خلال ثلاث سنوات (من تولى النازى الحكم) وألمانيا لم تعد لها مطالب إقليمية فى أوربا » .

ويستنكر — بغير وجه حق — الدكتور دلتون الأسلوب الذى استقبل به ساسة إنجلترا احتلال هتلر للراين ، إذ أنهم انطلقوا يرددون أن هتلر رجل عظيم ، وأن الراين آخر الأمر ليس إلا إقليماً ألمانيًّا ، وجزءاً من أرض ألمانيا ، وأنه لم يكن حقًّا ولا عدلا أن تجرد قطعة من أرض دولة عظيمة من السلاح ، وأنه ليس فى وسع أى إنسان عاقل ذى إحساس أن يتوقع أن تصبح تسوية مصطنعة كتسوية فرساى ، حكماً أبديًّا لا ينقض ، وأنهم يختمون كلامهم هذا بأن هتلر قائد عظيم لأمته . ويعتبر دالتون هذا الكلام ، من هؤلاء الساسة فى بلاده استهزاءاً ، وخنوعاً أمام هتلر ، وأن الذين قالوه يستحقون أن يسموا « بالنواعم » وفى رأينا أن هذا كله تجن

على الحقيقة ، فهتلر لم يخطئ مطلقاً حينما استعاد قطعة من بلاده ، والقول بأن تسوية فرساى التى قضت على ألمانيا بأن تنتزع منها جزءاً من صميم أرضها ، وأن يحتلها الإنجليز والفرنسيون ، كانت حمقاء ، وكان من المستحيل أن تبقى ، قول سديد . وهتلر لم يتضخم ، ولم يستكثر من السلاح ، إلا لأن هذه العقوبات الرعناء فرضت على بلاده ، فوجد فيها رأى عام يستطلع إلى زعيم يرد للوطن اعتباره ، ويستخلص له حقوقه ، ويضع حداً للإهانات التى لحقت بشرفه ، وإذا كان الإنجليز قد تهاونوا فى تسليح أنفسهم حتى لا يطمع فيهم هتلر فهذا أمر آخر لا علاقة له بسلامة خطوات هتلر نحو ضم المسلوب من أراضى الوطن ، ولا فى سبيل توحيد الشعب الألمانى ، وخلق ألمانيا الكبرى ، ولكن الذى جعل من هتلر ، الوحش الضارى ، هو الجو الذى كان يسود أوربا ، وعقدة القوة التى تحكم الجميع ، وما تلى ذلك من أحداث السياسة الدولية ، يكشف عن هذه الحقيقة ويؤيدها .

كانت إيطاليا ، قد بدأت حملتها ضد الحبشة منذ مدة ، ولقيت من بريطانيا وفرنسا تشجيعاً فى الواقع ،وتنمراً وتهديداً منهما فى الظاهر ، فقد أصبحت مصلحة هتلر أن يعقد حلفاً مع إيطاليا ، وفعلا قام ما يسمى محور برلين — روما .

ثم نشبت الحرب الأسبانية الداخلية فى صيف سنة ١٩٣٦ ، وسنفرد لها مع حرب الحبشة فصلا مستقلا ، باعتبار كل منهما تطوراً ذا شأن فى الحياة الدولية قبل نشوب حرب سنة ١٩٣٩ ، ولكن حسبنا هنا أن هتلر وموسولينى تدخلا فى هذه الحرب ، فى صف الجنرال فرانكو ، بينما لزمت إنجلترا وفرنسا سياسة عدم التدخل ، فقد كان اعتقاد الحكومتين أن إثارة غضب هتلر وتحديه فى هذه الحرب ، مؤد حتماً إلى الحرب العالمية . وقد ساعد على تثبيت هذه السياسة الأنجلو — فرنسية ، أن هتلر أعلن أنه يحارب مع فرانكو ، الشيوعية الدولية ، فرحب أصحاب النفوذ فى حى الأموال والأعمال فى لندن بتدخل هتلر وموسولينى ، ما دام أنه سيدفع عن أسبانيا خطر الشيوعية ، وأسبانيا بالنسبة لبريطانيا — ولأوربا — كلها موقع هام ، وسقوطه فى يد الشيوعية ، خسارة لا يمكن مجرد تصورها . وقد مضت الحرب الأسبانية إلى نهايتها فى بطء شديد ، والخسائر فى الأرواح والأموال ، تتضاعف

وتزيد حتى انقضت سنتان ونصف سنة ، وكتب بعدهما للجنرال فرانكو ، الثائر على حكومة الجمهورية الاشتراكية الانتصار ، وكتب معه بصفة ضمنية نفس الانتصار لهتلر وموسوليني .

ثم جاء دور النمسا ، وكان هتلر قد وقع فى الحادى عشر من يوليه سنة ١٩٣٦ معاهدة معها ، تتضمن اعترافه بالسيادة النمساوية على أراضيها ، وفى ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ أكد لشوشنج رئيس وزراء النمسا سريان مفعول هذه المعاهدة . وفى ١٠ من مارس سنة ١٩٣٨ كان ريبنتروب سفير هتلر إلى بريطانيا يتناول طعام الغداء فى لندن مع رئيس الوزراء البريطانى مستر تشمبرلن ووزير خارجيته اللورد هيلفاكس ، فلم يشر بحرف أثناء الغداء إلى النمسا ، وفى مساء هذا اليوم نفسه ، كانت فرق هتلر المدرعة ، قد اتجهت إلى الحدود الألمانية النمساوية ، وفى اليوم التالى كانت النمسا قد ألحقت بألمانيا ، ولم تقاوم بطبيعة الحال النمسا هذا الإلحاق ، ولم تطلق رصاصة واحدة وانضم إلى الرايخ الثالث ستة ملايين ونصف مليون ألمانى ، كانوا يكونون دولة النمسا ، واقترح لتفينوف ، فى أثر ذلك الضم ، عقد مؤتمر يضم الدول كلها صغيرها وكبيرها ، لمنع أى عدوان من قبيل عدوان ألمانيا ، على دولة النمسا . ولعله كان يفكر عندما اقترح هذا ، فى تشيكوسلوفاكيا ، التى كانت المرشحة التالية ، فى القائمة النازية للضم والإلحاق . .

رفضت بريطانيا هذا الاقتراح بدعوى أن عقد مؤتمر من هذا الطراز كفيل بتقسيم أوربا إلى معسكرات مذهبية (أيدولوجيه) ، وقال دعاة التهدئة فى إنجلترا — على حد رواية دلتون ، إنهم لا يريدون أن ترتبط بلادهم بأية التزامات فى فى أوربا .

وفى ١٤ من مارس أعلن مستر تشمبرلن فى مجلس العموم البريطانى أن الماريشال جورنج وزير الطيران الألمانى أكد فى ١١ من مارس سنة ١٩٣٨ لسفير تشيكوسلوفاكيا فى برلين ، مرتين باسمه ، وباسم هتلر نفسه ، أن ألمانيا لن تدخر وسعاً فى تحسين علاقتها بتشيكوسلوفاكيا ، كما تلقت تشيكوسلوفاكيا تأكيداً ثالثاً بأن ألمانيا ترى نفسها مرتبطة بمعاهدة التحكيم المبرمة بينها وبين تشيكوسلوفاكيا فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ ؛ ويقال إن هتلر تهيأ للهجوم على تشيكوسلوفاكيا فى ليلة العشرين من

مايو سنة ١٩٣٨ ، وأنه لم يوقفه عن الاستمرار فيما اعتزمه سوى تعبئة الجيش التشيكوسلوفاكى ، وحشد قواتها على الحدود الفاصلة بينها وبين ألمانيا . ولكن بعض الصحفيين نقلوا عن مستر تشمبرلن أنه صرح بعد غداء فى منزل اللادى استور السياسية البريطانية الشهيرة بأنه إذا هوجمت تشيكوسلوفاكيا ، فلن يتقدم للدفاع عنها لا الإنجليز ولا الفرنسيون ، وأن إعادة النظر فى الحدود التشيكية الألمانية ، أمر تستوجبه الحكمة — وأن هذا التصريح ، وصل إلى سمع ربنتروب وزير خارجية ألمانيا ، فاستطاع بفضله أن ينجح فى إقناع زعيمه بالمضى فى عملية غزو تشيكوسلوفاكيا ، وانتزاع منطقة السوديت الألمانية منها ، وكان هتلر متردداً ، لأن مستشاريه العسكريين ، كانوا يرون أن ألمانيا لم تستكمل بعد استعدادها للخوض فى حرب عالمية شاملة ، وأن المجازفة التشيكية ، غير مأمونة العواقب ، فاحتمال وقوف فرنسا وبريطانيا إلى جانب التشيكوسلوفاكيا ، أكبر من احتمال تخليهما عنها .

وقبل أن ينفض البرلمان البريطانى لعطلة الصيف ، أعلن مستر تشمبرلن أنه متفائل وأن سنة ١٩٣٨ التى بدأت والجو السياسى مكفهر ، صفا فيها هذا الجو ، وخف التوتر السياسى كثيراً .

فهتف دعاة التهدئه ، والمتفائلون بقولهم : مرحى ! مرحى !

ولكن ما كاد الصيف ينتهى حتى بدأت الاضطرابات تسود منطقة السوديت التشيكية ذات الأغلبية الألمانية .

وأحست حكومة تشيكوسلوفاكيا ، أن نية ألمانيا متجهة إلى انتزاع منطقة السوديت منها ، فحاولت أن تقترب منها ، رجاء التوصل إلى حل وسط ، فعرضت على زعماء السوديت اقتراحات كثيرة كان نصيبها الرفض جميعاً . وكانت الصحافة الألمانية فى تلك الفترة فى أشد حالات الغضب من السلطات التشيكية ، وصحب هذه الحملات الصحفية ، اتجاه قوات ألمانية إلى الحدود بين الدولتين . وطار تشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا ثلاث مرات إلى ألمانيا لمقابلة هتلر فكانت المقابلة الأولى فى برشتسجادن والثانية فى جودسبرج والأخيرة فى ميونيخ . ويقال أن مستر

مستر تشمبرلن كان يعتقد أنه استطاع أن يؤثر على هتلر .

ويصف دلتون تشمبرلن بأنه يستطيع أن يكون عنيداً وواثقاً من نفسه عندما يريد، وأنه فى الشئون الخارجية غير مجرب ، وغر ، وقليل المعرفة . وأن مستشاريه بهم نفس عيوبه ، فقد كان مستشاره الذى صحبه فى رحلاته (السير هوراس ولسن) خبيراً فى شئون الصناعة ، ولكنه لا يدرى فى شئون السياسة الخارجية الألف من الياء . وأن تشمبرلن كان يرتكب حماقات فى رحلته منها أنه وهو لا يعرف الألمانية ، كان لا يصحب معه مترجماً يثق فيه ، فكان المترجم الألمانى ، مترجم هتلر ، هو الذى يقوم بالترجمة للطرفين ، أو بالترجمة ذهاباً وإياباً . وبناء على كل العاهات المنسوبة إلى تشمبرلن، كان من غير الغريب أن يصرح بأن (تشيكوسلوفاكيا بلد بعيدة عنا ، ولا نعرف عنها شيئاً) .

ويأخذون على إنجلترا وفرنسا أنهما لم يتشاورا مع الاتحاد السوفيتى فى أزمة السوديت ، مع أن الاتحاد السوفيتى مرتبط بمواثيق بكل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، ويذكرون أن وزير خارجية الاتحاد السوفيتى قال خلال الأزمة إنه إذا دافعت فرنسا عن تشيكوسلوفاكيا إذا هاجمتها ألمانيا ، فإن الاتحاد سيقف إلى جانب فرنسا . ولكن الأغرب أن تشيكوسلوفاكيا لم تكن تدعى للمؤتمرات التى يعقدها رئيس وزراء بريطانيا وفرنسا مع زعيم ألمانيا ، كأن الأمر لا يخصها ، وكان كل ما تتلقاه تشيكوسلوفاكيا من حلفائها ، الأوامر بالإذعان لما يطلبه هتلر فقد أمرت بعد اجتماع برشستجادن بأن تسلم لألمانيا كل منطقة يكون أكثر من نصف سكانها من الألمان. وقد رفضت تشيكوسلوفاكيا إطاعة هذه التعليمات ، وطلبت أن تعرض المشكلة كلها على التحكيم حسب معاهدة التحكيم المبرمة بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٢٦ والتى أكد الألمان احترامهم لها فى مارس سنة ١٩٣٨ أى قبل الأزمة ببضع شهور ولكن ألمانيا رفضت، وأيقظ الوزراء التشيك من نومهم فى الليل المتأخر ، ليفكروا فى حل أكثر عملية ، ولم يكن ثمة حل أكثر عملية من الإذعان لإرادة زعيم ألمانيا ، وقد أنذرهم الفرنسيون بأنهم إذا لم يثوبوا إلى صوابهم ، ويدركوا الاعتبارات العملية فى الموقف، فإنهم وحدهم سيتحملون المسئولية .

وقبل التشيك المشروع الإنجليزى الفرنسى ، وانتقلت السوديت إلى ألمانيا ، لتكمل وحدتها .

وظن المعسكر الغربى أن هتلر قد رضى ، وشبع ، وأنه لن يطلب بعد ذلك شيئاً ، ولكن فى اجتماع جودسبرج فوجئ تشمبرلن بمذكرة تضمنت مطالب جديدة من تشيكوسلوفاكيا ، مع منحها مهلة قصيرة للرد ؛ وتبودلت المذكرات وراح الوسطاء ، يتنقلون بين العواصم ، ثم أعلن تشمبرلن « أن الكلمة الآن لتشيكوسلوفاكيا» ولكن مجلس الوزراء البريطانى ، أعلن أنه لا يستطيع أن يؤيد مطالب جودسبرج ، وبالتالى أعلن الفرنسيون مثل هذا الرأى ، ثم أعقبوا ذلك بإعلان تعبئة جزئية ، وهنا فقط أنكر الألمان أنهم قرروا التعبئة العامة ، ولكن ما لم لبث أن اجتمع زعيما الغرب مع هتلر فى ميونيخ ، وهناك قبلا من هتلر ، أسوأ مما رفضاه فى جودسبرج ، وقيل إن دلادييه رئيس وزراء فرنسا ، كان ذاهباً إلى ميونيخ وهو يعتزم ألا يسلم لهتلر ، ولكن شيئاً ما — لا يزال مجهولا — أثر عليه ، أو سلبه الإرادة .

على أن نتيجة هذا ، هو أن تشيكوسلوفاكيا — أو ما بقى منها — بعد الذى استولت عليه ألمانيا ، والنصيب الذى حصلت عليه منها كل من بولندا والمجر ، أصبحت مجردة تقريباً من كل وسيلة ناجعة للدفاع عن نفسها ، كما أصيب اقتصادها فى أساسه ، هذا فضلا عن أن أكثر من مليون من التشيك والسلوفاك خضعوا لنفوذ أجنبى : نفوذ ألمانيا ، أو بولندا ، أو المجر . وقد كانت المهمة الشاقة التى وقعت على أكتاف تشمبرلن ودلادييه هى مهمة تفسير ما وصلت إليه الأمور بعد ميونيخ للتشيك . وقد روى أحد أعضاء الوفد التشيكى أنه بعد أن انفض الاجتماع مع هتلر وموسولينى ، أخذ أحد الأعضاء التشيكيين يناقش تشمبرلن فى بعض مسائل قانونية خاصة بالاتفاق ، وكان تشمبرلن خلال كل ذلك يتثاءب باستمرار دون أية محالة لوقف تثاؤبه هذا ، ثم التفت بعد ذلك إلى دلادييه وسأله هل يتوقع أن تقبل حكومة التشلك ، ما انتهت إليه محادثات ميونيخ ؟ ولكن دلادييه ، كان فى حالة هياج عصبى بين ، فلم يرد عليه ؛ وعاد تشمبرلن إلى لندن ، وفى يده الاتفاقية التى وقعت فى ميونيخ ، تحمل توقيع هتلر ، ولما خرج من الطائرة ، لوح بهذه

الوثيقة لمستقبليه قائلا :(هذه معناها السلم فى عصرنا) ثم أضاف :(حققنا مع السلم الشرف) . ويقال إن دور السينما فى لندن عرضت فيلم توقيع هذه الاتفاقية ، وقد ظهر فيه هتلر وموسولينى واقفين خلف تشمبرلن عند إمضائه عليها ، وقد ارتسمت على شفتى كل منهما ابتسامة عريضة ، وأن هذا الفيلم لم يطل عرضه ، فقد صدرت الأوامر بوقفه .

وقد علق تشرشل على هذه الاتفاقية بقوله : « لقد آثروا العار ، خوفاً من الحرب ، ولكن الحرب ستدهمهم أيضاً » . ولقد ظن المتفائلون ودعاة المسالمة فى بريطانيا على أن الحل الذى انتهى إليه الاتفاق فى ميونيخ ، هو حل جيد جداً ، وكان أساس قولهم هذا ، أن السوديت فى آخر الأمر هم من الشعب الألمانى ، وكان فصلهم عنه ، عملا مصطنعاً ، وغير عادل ، ولم يكن منتظراً له الدوام ، ومن ثم فإن تشمبرلن يستحق التهنئة ، لأن بلاده لم تكن مهيئة للحرب . ولكن الشعب البريطانى ، كان شاعراً ببعض الإثم فيما أصاب التشلك من جراء اتفاقية ميونيخ ، ففتحوا اكتتاباً للاجئين التشلك الذين اضطروا إلى أن يتركوا بلادهم وبيوتهم خشية وقوعهم تحت سيطرة السلطات النازية ، وقد تبرع عدد من مؤيدى اتفاقية ميونيخ فى هذا الاكتتاب بسخاء . وقد روى (جان مازاريك) وزير خارجية التشيلك ، وكان وقتذاك فى لندن ، : « أنه كان سائراً فى الطريق ، فاستوقفته فتاة صغيرة ، وسألته : هل أنت تشيكى ؟ فلما رد عليها بالإيجاب ، أخرجت قرشاً من جيبها وقالت له : خذ هذا لك . »

كما روى أن أحد الضباط التشلك الذى كان مرابطاً على الخط المسلح بين ألمانيا وبلاده ، الذى كان يشبه خط ماجينو الفرنسى ، لما بلغه نبأ الاتفاقية ، وتلقى الأمر بالانسحاب من موقعه ، لتحتله قوات النازى ، قال : « ما دام الجندى على قيد الحياة ، فواجبه أن يطيع الأوامر ، أما عندما يموت ، فلا لوم عليه إن لم يطع » ثم أطلق رصاصة على رأسه .

ويختم دلتون ، عرضه للوقائع السابقة على اتفاقية ميونيخ والمعاصرة لها بقوله : إن تشمبرلن أعلن فى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٨ فى مجلس العموم أن هتلر أكد له فى جودسبرج ، ما قاله له فى برشستجادن من أن منطقة السوديت هى آخر

مطامعه الإقليمية ، وأنه لا رغبة له فى أن يحتوى الرايخ الألمانى ، غير الألمان » ، وأضاف تشمبرلن : « وأنا لا أتردد فى أن أعلن بعد اتصالى الشخصى بهتلر أنه يعنى ماقال » .

وقد أعلن هتلر نفسه أمام البرلمان الألمانى فى يوم ٢٦ من سبتمبر أى قبل تصريح تشمبرلن بيومين : « أن هذا هو آخر مطالبنا الإقليمية فى أوربا ، ولكنه مطلب ، لسنا مستعدين للتنازل عنه . نحن لا نتوق إلى أن نرى بيننا فى وطننا شعوباً غير شعبنا . نحن نريد أن نعيش حياتنا ، ونحن نحب لغيرنا ما نحب لأنفسنا لسنا نريد أحداً من التشيكيين » .

ويذكرون أن سلوك هتلر كان فى ميونيخ أثناء المحادثات ، وعند توقيع المعاهدة ، التى سلخت من التشك منطقة السوديت ، (غريباً إلى أبعد حد) . ففى جزء من المحادثات أعطى ظهره للآخرين الجالسين معه فى الحجرة التى ضمت المفاوضين ، وقد تغيرت سحنته بينما أخذ يقرض أظافره .

ويتساءل دالتون أكان ممكناً أن يجازف هتلر بمواجهة الحرب ، فيما لو واجه مقاومة جدية من فرنسا وبريطانيا ؟ ويذكر رداً على تساؤله هذا بأن هتلر كان معتقداً دوماً بأنه قادر على غزو التشك ، كما أتيح له أن يغزو النمسا ، دون أن يطلق قذيفة واحدة . وفى فترات من أزمة ميونيخ ، كان شديد الاعتقاد بأن واجب إنجلترا وفرنسا أن تعلنا أنهما ستواجهان القوة بالقوة إذا غزا هتلر بلاد التشك ، وأن الشعب الألمانى عليه أن يتحمل وزر الحرب ، إن هو لم يستمع لهذا الإنذار ، على أن يردفا هذا الإعلان بأن إنجلترا وفرنسا مستعدتان لأن يناقشا مع ألمانيا جميع مشكلاتها المتعلقة بحياتها ، لا فى وسط أوربا وحدها ، بل بجميع مشكلاتها الأخرى ، بل مسألة المستعمرات ، والتجارة والنقد والتسليح ؛ وأنهما حاولتا مراراً مناقشة تلك المشكلات بروح ومودة ولكنهما لم يجدا من ألمانيا استجابة ، ويقدر دالتون ، أن إنذاراً من هذا القبيل ، كان كفيلا بمنع نشوب الحرب وأن الذى أطمع هتلر ، هو أن رئيس الوزراء البريطانى لم يظهر فى ميونيخ أقل علامات الحزم والصلابة ، بينما كان هتلر يتظاهر بأنه مصمم على القتال إن لم يظفر بمطالبه من قبيل حرب الأعصاب وإخافة أعدائه . وسند هذا الرأى أن الجيش الألمانى أثناء أزمة

ميونيخ لم يكن مستعداً لمواجهة حرب عالمية فى جبهة واحدة ، فضلا عن جبهتين وأن عجز أقلام المخابرات البريطانية هى التى قلبت الأمور رأساً على عقب إذ لو علم الإنجليز ذلك لتبدل موقفهم ، ولكانوا أشد صلابة ، ولما تساهلوا تساهلهم الذى أطمع هتلر فيهم . ويذكر أن جورنج فى يوم ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، ذهب مع رئيس هيئة أركان الحرب الألمانى لمقابلة هتلر ، فلما فتح الباب على هتلر ، وجد جورنج ، ربنتروب وزير الخارجية الألمانى خارجاً عن عند الزعيم فدفعه جورنج جانباً، ولما قفل الباب على هتلر قال جورنج : لا يمكن أن تقوم الحرب ، فأجابه هتلر : « اعطنى مهلة يومين آخرين ، فإنى أتوقع أن تنطلى حيلتى على تشمبرلن ودلادييه ، فإذا لم أكن مصيباً فى رأيى ، وكان تقديرى خطأ فإنى سأقتل نفسى » . وقد كان هذا القول من هتلر قبل اليوم الذى انعقد فيه مؤتمر ميونيخ ، والذى أظهر فيه زعيما دولتى الغرب من الاستسلام والخور ، ما حدد مصير بلاد التشك ومصير العالم أيضاً . ويذكر أيضاً أن ربنتروب قال لهتلر ، بعد أن انصرف تشمبرلن : « أن تشمبرلن هذا وقع شهادة وفاة الإمبراطورية البريطانية ، وترك لنا تاريخ الدفن على بياض » وينسب إلى هتلر فضلا عن ذلك ، قوله : « ما الذى يدعونى إلى شغل بالى باسترداد مستعمرات ألمانيا القديمة ، وأنا فى خلال سنة واحدة سأضع يدى على إمبراطوريات البلجيك والهولنديين ، ثم الإمبراطورية البريطانية بعد ذلك بقليل » .

ويلخص دالتون هذه الأحداث جميعاً فى قوله إن الحرب لم تكن لتقع مطلقاً لو أبدت بريطانيا حزماً وتصلباً أكثر مما أظهرت هى وفرنسا معاً ، وإنه حتى على فرض أن هتلر كان منتوياً المجازفة بخوض الحرب فعلا ، فإن الحرب فى سنة ١٩٣٨ كانت أصلح للإنجليز ولفرنسا وللتشك من الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، وهو الأمر الذى حدث فعلا فى أول سبتمبر من تلك السنة . فقد كان لتشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٣٨ دولة متماسكة ، وكانت منيعة بطيرانها ومصانع أسلحتها . ولكنها بعد أن تمزقت سهل سقوطها فى يد الألمان ؛ ويقال إن الجيش الألمانى سلح نفسه بالأسلحة التشيكية فى المراحل الأولى للحرب ، فالطلائع الألمانية التى وصلت إلى دانزج فى بولندا كانت تحمل مدافع برن التشيكية ، وتركب مصفحات الجيش التشيكى ،

بل وترتدى ملابس الجنود التشيك ولم تكن إيطاليا مستعدة لإعلان الحرب فى سنة ١٩٣٨ ، ولم يكن الاتحاد السوفيتى قد أبرم مع ألمانيا ميثاق عدم الاعتداء الذى وقع فى صيف سنة ١٩٣٩ ، فضلا عن أن روسيا ، كانت ستجد صعوبة شديدة فى مقاومة إغراء الهجوم على ألمانيا ، ما لم تحصل ألمانيا على انتصارات ساحقة ، الأمر الذى لم يكن ممكناً لها فى سنة ١٩٣٨ إمكانه فى سنة ١٩٣٩ .

ولكن المعاذير التى كانت بريطانيا وفرنسا تدفعان بها اتهامهما بالتقصير والتفريط فى مؤتمر ميونيخ ، تقوم على أن تسليحهما لم يكن فى ذلك الوقت بالقدر الذى يسمح لمواجهة خطر الحرب ، وإن سلاح الطيران البريطانى والفرنسى ، والأسلحة المضادة للطائرات عندهما ، كانت دون قوة السلاح الألمانى بكثير .

كما أن الذين تساهلوا فى ميونيخ ، كانوا يطمعون أن تساهلهم فى سنة ١٩٣٨ سيمنع نشوب الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، وبهذه الروح المتفائلة ، تكلم تشمبرلن فى نهاية تلك السنة ذاتها فقال إن السنة موشكه على الانتهاء، وهو إذ يراجع أحداثها، تتولاه الدهشة من تشاؤم هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنها لن تنتهى بخير » ولما وجه إلى الشعب البريطانى تحية العام الجديد ، كان فى أعلى درجات التفاؤل فقال : « لم يكن أحد ليجرؤ على التنبؤ بأن الدول الكبرى الأربعة (— بريطانيا — فرنسا — ألمانيا إيطاليا) ستستطيع السير سوياً على طريق التفاهم » .

ولكن تشرشل قال بنغمة مختلفة تماماً :

« فى فبراير سنة ١٩٣٨ بشرنا تشمبرلن بأن التوتر فى أوربا قد خف ، وبعد تصريحه هذا بأسابيع قليلة استولت ألمانية النازية على النمسا . وقد تنبأت أنا بأن تشمبرلين سيكرر تصريحاته المتفائله حالما تذهب صدمه اغتصاب النمسا . وقد تحقق تنبئ ، فقد كرر تصريحه فعلا ، ببعض العبارات فى آخر يوليه . وفى منتصف أغسطس ، قامت ألمانيا بهذه التعبئة الصورية التى أشعرتنا بأننا على حافة الحرب ، والتى انتهت بتحطيم كامل للجمهورية التشيكية » .

* * *

وقد كان من الممكن التكهن بعد ذلك ، وبسهولة ، أن تشيكوسلوفاكيا ، تهيأت لتكون اللقمة الأولى ، فى حرب سنة ١٩٣٩ ، وقد حدث ذلك بالفعل ؛ ففى

١٤ من مارس سنة ١٩٣٩ تلقى (هاشا) رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ووزير خارجيتها (تشفالكومسكى) دعوة لمقابلة هتلر فلما وصلا إلى برلين ، قوبلا بالحفاوة العسكرية ، ثم ذهبا فوراً لمقر الزعيم ، وكان فى استقبالهما (جيرنج) وزير الطيران ، و (ربنتروب) وزير الخارجية ، وكيله . ووجد رئيس الجمهورية التشيكى وزميله ، وثائق معدة للتوقيع ، وفاجأهما هتلر بقوله ، إن زمان المفاوضات انتهى ، وإن عليهما أن يوقعا فور اللحظة على احتلال براغ فى الساعة التاسعة من اليوم التالى ١٥ من مارس ، كما أن بوهيميا ومورافيا ، وهما إقليمان أو ولايتان من ولايات تشيكوسلوفاكيا ، يجب أن تخضعا للحماية الألمانية ، وإن من سيقاوم هذا القرار سيداس بالأقدام ، ووقع هتلر على الوثائق وترك الغرفة ، فأخذ رئيس جمهورية التشيك يناقش ، ويدافع ، ويتوسل ، فلم يجد من جانب الألمان إلا إصراراً على الموقف ، ودفع الوثائق إلى أنفه ، ودفع الأقلام فى يده ، وطالت المحاولة حتى الساعة الرابعة صباحاً ، وتهديد الألمان مستمر بأنه فى حالة الامتناع عن التوقيع ، ستحطم نصف براغ العاصمة ، فى خلال ساعتين بمئات من الطائرات الألمانية ، التى وقفت مستعدة لتنفيذ الأوامر ابتداء من الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، وأن هذا لن يكون سوى البداية . ويقال إن رئيس الجمهورية التشيكى ، وكان شيخاً ضعيفاً ، أغمى عليه مراراً ، وأنه قبيل طلوع النهار ، قبل هو وزميله التوقيع على هذه الوثائق التى أعدت سلفاً . ولما خرجا ، يجران أقدامهما جراً ، قال وزير الخارجية : إن أهلنا ، حينما يسمعون النبأ سيلعنوننا ، ولكننا أنقذناهم من مجزرة مروعة »

وراحت صحف لندن تحصى المغانم التى حصل عليها الألمان من توقيع هذه الاتفاقية ، فقالت التيمس : إن ألمانيا ظفرت بالسلاح الكامل لستة وثلاثين فرقة ، وهو سلاح من أحدث وأحسن مستوى . على أن أكبر ما غنمته هو وسائل النقل الميكانيكية المصفحة والمدفعية الثقيلة وقد كانت تشيكوسلوفاكيا ، فى أعلى درجة من درجات التجهيز بالعتاد الآلى ، كما أن المدفعية الثقيلة كانت من خصائص مصانع (سكودا) الشهيرة وأنه تبعاً لأكثر الإحصائيات تحفظاً ودقة ، يمكن القول بأن ألمانيا نجحت ، بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فى مضاعفة مدفعيتها

الثقيلة ، أما عن الطيران التشيكى ، فقد كانت تشيكوسلوفاكيا تملك ١٧٠٠ طائرة من جميع الأصناف ، منها ٥٠٠ طائرة صالحة للقتال فى خطوط الميدان الأولى ، وشهرة هذه الطائرات مسلم بها، وذائعه . كما وضعت ألمانيا يدها على ثلاث مصانع للأسلحة من الدرجة الأولى ، تعتبر من أكبر مصانع العالم ومصنع من مصانع الغازات الخانقة .

أما الديلى تلجراف ، فقد قدرت ما استولت عليه ألمانيا من أسلحة وعتاد من التشيكيين بمقدار ٣٠٠ مليون جنيه ، وأن هذه الأسلحة وذلك العتاد ، نقل إلى ألمانيا ، بما فيه من ملايين البنادق ومئات الملايين من القذائف ومئات الألوف من المدافع الرشاشة ، والمدافع المضادة للدبابات وللطائرات ، وقد باتت جميع مصانع الأسلحة الضخمة التشيكية فى خدمة ألمانيا ، وأداتها الحربية .

أما من الناحية الاستراتيجية فقد أصبحت بولندا ، بعد احتلال هتلر لسلوفاكيا ، محاصرة من الشمال والجنوب والشرق ، والمجر محاصرة من الشمال والغرب .

وكانت ميناء (ممل) فى لتوانيا ، التالية فى الكشف ، فقد دعى وزير خارجية لتوانيا ، وطلب إليه أن يسلم الميناء إلى ألمانيا وإلا خربت (كاوفاس) العاصمة ، وقبلت (لتوانيا) ، فى ٢١ من مارس سنة ٩٣٩ ماطلب منها ، وفى ذلك الوقت نفسه ، كان الجنود الألمان فى سلوفاكيا ، يقولون ، إن إقامتهم هناك ، لن تطول ، وإنهم فى القريب العاجل ، سيكونون فى بولندا .

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل من حقنا ، أن نتساءل ماذا فعلت ملايين الجنيهات التى أنفقتها تشيكوسلوفاكيا على تسليحها ، وماذا كانت قيمة مصانع الأسلحة والذخيرة التى بلغت الدرجة الأولى من الإتقان والجودة ؟ . . لقد تمزقت تشيكوسلوفاكيا ، بغير حرب ، وسلمت سلاحها فى غير معركة ، واتضح أن كل ما أبرمته من معاهدات الضمان وعدم الاعتداء ، والتحكيم ، ليس سوى قصاصات من الورق .

ذلك لأن روح الحرب كانت غالية ولأن الحديث عن السلام كان زيفاً ونفاقاً .

الفصل الخامس
الفاشيستية وزعيمها

سبقت الفاشيستية ، النازية ، إلى الوجود .

فقد كان موسوليني ، أسبق إلى الحياة من أدولف هتلر زميله ، الذى أصبح فيما بعد أستاذه ، إذ ولد بنيتو موسوليني فى ٢٩ من يوليه سنة ١٨٨٣ ، بينما ولد هتلر ، كما قلنا من قبل ، فى ٢٠ من أبريل سنة ١٨٩٥ .

ولدت الفاشيستية يوم أن خرج موسوليني من الحزب الاشتراكى الإيطالى ، واستقال من الجريدة الاشتراكية (أفانتى) ، ثم أخرج جريدته (بوبولو ديتاليا) التى صدر العدد الأول منها فى ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وبميلاد الصحيفة ولدت الفكرة الفاشيستية ، وقد قال موسوليني فى ترجمة حياته التى كتبها بقلمه :

« لقد بدأت الحرب العظمى فى ٢٨ من يولية سنة ١٩١٤ ، وقبل إنقضاء ستين يوماً على إعلانه ، كنت قد قطعت صلتى « بالحزب الاشتراكى ، ولم أعد رئيساً لتحرير (الأفانتى) ، ويشهد الله أنى شعرت بأن نفسى أصبحت أكثر جدة وكما أحسست بأنى أقل ثقلا ، وأخف حركة . لقد تحررت فأصبحت أعظم استعداداً للحرب فى معاركى التى أشنها ، دون أن تقيدنى مبادئ ، ونصوص الهيئات السياسية .

« ولكنى شعرت فى الوقت نفسه بأنى لن أستطيع الدفاع بنجاح عن معتقداتى الخاصة ، إذا أنا بقيت أعزل من السلاح الحديث ، القادر على كل شىء ، القاطع ، المعين ، النافع فى الهجوم والدفاع ، وما هذا السلاح إلا الجريدة . .

« لقد كنت فى أشد الحاجة إلى جريدة ، لقد كانت الجريدة بالنسبة لى ، كالطعام للجائع » .

وبعد سنوات من صدور الجريدة قال موسوليني عنها :

« إلى الآن وهذه الجريدة فى نظرى أحب أطفالى إلى ، فعن طريقها وحدها ، على الرغم من بدايتها المتواضعة ، استطعت أن أكسب كل معاركى السياسية » .

وظاهر من هذه السطور أن الحركة الفاشيستية ، كانت — كالحركة النازية — حركة وطنية ، وأن كلا منهما كان ثمرة لظروف داخلية ، تكاد تكون متطابقة .

على أن من الخير ، أن نبدأ من البداية .

ينتسب بنيتو موسوليني ، إلى نفس الطبقة التي خرج من صلبها ، هتلر : الطبقة الصغيرة . فقد كان أنساندرو والد موسوليني حداداً ، ولكنه لم يكن همَلا لا تشغله إلا بطنه وعياله ، بل كان صاحب فكرة ، فقد كان اشتراكياً ، وقد كان فى الاشتراكية ، زميلا لأصحاب أسماء لامعة ، وكان من هؤلاء باكونين الشيوعى الروسى ، وأندريا كورت الرائد الاشتراكى فى إيطاليا ، وقد دفع الساندرو موسولينى ، ثمن فكرته سجناً طال ثلاث سنوات . وقد بقى الساندرو على عقيدته ، ولكنه لم يجد بأساً فى أن يغير مهنته ، فقد أصبح صاحب فندق ، وكانت هذه المهنة ، متفقة مع نزعة صاحبها السياسية ، إذ استغل الفندق فى استقبال زملائه فى العمل السياسى ، ولما رزق ابنه الأول ، أسماه (بنيتو) تيمناً باسم الثائر المكسيكى بنيتو جواريز الذى قاد الثورة ضد الإمبراطور ماكسيمليان . وقد نشأ الطفل ، فى وسط ذى صلات غير قليلة بالفكر والثقافة ، فأبوه كما رأينا ، اشتراكى يدخل السجن ، أما أمه فقد كانت تعلم الأطفال ، فى حجرات فوق مصنع الحدادة ، ثم نقلتها إلى حجرات بالفندق .

ولم يدخل المدرسة ، حينما كبر فوراً ، إذ مر بفترة عمل فى مصنع أبيه الحداد ، وكان أبوه يشتد فى معاملته ، ليخرج حداداً، صلب العود ، بيد أن أمه انتزعته من الحدادة وأرسلت به إلى مدرسة الآباء السيلزيين ، ولكن موسولينى لم يكن يحب الرهبان ولا المدارس ، وكان يلعن الأوائل بقوله : هؤلاء السود ، أما عن المدارس فقال فى ذكرياته : « كان يخامرنى الإحساس بأن المدارس والسجون سواء » ، وذكر موسولينى أنه ذهب وأبوه إلى المدرسة فى عربة ، يجرها حمار ، وأن الحمار لم يكد يخطو بالعربة وركابها قليلا ، حتى كبا ، فصاح أبوه : نذير سوء . . وفى آخر الرحلة ، ترك موسولينى بين يدى مراقب المدرسة ، ولكن لما تركه أبوه ، بعد أن قبله ، وسمع صوت الباب ينصفق خلف أبيه ، انفجر باكياً . .

وبعد أن فرغ الطفل من الدراسة فى مدرسة الآباء السيلزيين ، تعلم فى مدرسة

معلمين متوسطة ، ثم عين مدرساً فى مدرسة ببلدة جولاتيرى وكان مرتبه ضئيلا ، قال عنه موسولينى : « إنه لم يكن بالشيء الذى يفرح له الإنسان » .

وقد ضاق موسولينى بحياة المدرسة ، فترك عمله ، ولكنه لم يفكر فى العودة إلى أسرته بقرية « بريدبيو » ويقول فى هذا الصدد :

« وهكذا أغلقت المدرسة فلم أر العودة إلى أسرتى ، فهناك الدنيا ضيقة صحيح أن الحنان فيها مضمون ، ولكن الإنسان فيها مقيد » .

وفى ٣ من سبتمبر سنة ١٩١٢ ، أرسل موسولينى من سويسرا خطاباً إلى أحد أصدقائه ، سننقل منه فقرات لأنها ترينا ، صورة حية ، لتجارب موسولينى الأولى فى حياته .

ففى جملة من هذا الخطاب يقول :

« تركت جوالتيرى فى الأربعاء التاسع من يوليه سنة ١٩٠٢ ، ولقد كدت أهلك عطشاً فى المسافة ما بين بارما إلى ميلان ، ومن ميلان إلى تشايسو (فى سويسرا) لشدة الحر ، ولما وصلت إلى تشياسو ، طالعت فيها جريدة (سيكولو) ، فكم كانت دهشتى حينما قرأت أن والدى ألقى القبض عليه فى اضطرابات انتخابية . ولقد أزعجنى هذا النبأ الذى لو طالعته قبل أن أترك جواليترى لذهبت إلى (رومانا) حيث أسرتى لا إلى سويسرا .

ثم قال :

« فى يوم السبت ذهبت إلى مدينة (أورب) المجاورة لمدينة يفردون وبصحبتى نقاش عاطل لأشتغل (فاعلا) ، وجدت عملا يوم الاثنين وبدأت أشتغل إحدى عشرة ساعة فى اليوم ، مقابل اثنين وثلاثين سنتيماً فى الساعة الواحدة ، وقمت فى يومى بمائة وإحدى وعشرين رحلة من أسفل البناء الذى كنت أشتغل فيه إلى الدور الثانى ، منه ، وعلى كتفى مكتل ملىء بالطوب ، وفى المساء ، أحسست بعضلات يدى وقد انتفخت . وكان عشائى بضعة من الطماطم المشوية على السفود ، ثم ارتميت بكل ملابسى على الفراش ، الذى كان من القش .

وفى الخامسة من صباح اليوم التالى استيقظت وعدت إلى العمل ، فكافحت فى نفسى كفاحاً شديداً غضب الضعيف الذى لا حيلة له ، فلقد أثارنى (الريس)

حتى الجنون ، إذ قال لى : « أنت مسرف فى الأناقة ! » وقد كان مقصوده من هذه العبارة جرح شعورى ، ولكم وددت أن أثور ، وأن أحطم هذا المحدث الذى اتهمنى بالكسل فى الوقت الذى كانت تنوء فيه أعضائى ، تحت ثقل الأحجار . . وددت لو أصيح فى وجهه : « يا جبان ! يا جبان ! » ولكن ، الرجل الذى يدفع لك أجرك على صواب دائماً » .

ثم جاء فى الخطاب :

« فى لوزان اقتصدت فى الأسبوع الأول فى الإنفاق من النقود التى حصلتها من (أورب) ثم عدت بعد ذلك إلى الفاقة المطبقة ، ففى يوم الاثنين كانت القطعة المعدنية الوحيدة التى تؤنس جيبى (مدالية) كارل ماركس ، وفى الصباح تبلغت بقطعة صغيرة من الخبز ، ولكنى لم أكن أدرى أين سأضع رأسى لأنام فى الليل . . فتجولت واليأس يفعم قلبى ، ولكن ألماً فى الأمعاء عاقنى ، فجأة ، عن السير ، فجلست على قاعدة تمثال (وليام تل) القائم فى حديقة مونتيتبينون ولابد أن مظهرى فى هذه اللحظات كان مخيفاً ، لأن الناس الذين اقتربوا من التمثال ليشاهدوه ، تأملونى فى ريبة ، بل فى فزع »

وتنقل موسولينى بين مهن تافهة عديدة ، فاستمر زمناً يعمل فى صناعة البناء ، وفى عمال تبييض واجهات المنازل ، ثم أتقن تركيب الأعلام ، فوق ساريات البيوت ، واهتدى خيراً إلى عمل عند تاجر نبيذ ، كان يتقاضى منه أجراً مناسباً فوقة جرعتان من النبيذ وقطعة من العيش ، وكان يحصل من العملاء على « بقشيش » وقد كانت له شهية مفتوحة ، فكان يأكل كثيراً ، إلى الحد الذى هال زوجة صاحب العمل الذى كان يعمل عنده فصاحت يوماً : كم يأكل هذا الولد ! إنه يأكل كثيراً ، وأنى لا إعرف كم يدخل فى بطنه من أشياء » .

وابتدأ بعد ذلك يهتم بمظهره ، فاشترى بذلة ، وربطة عنق وحذاء وقبعة ، ثم سرعان ما ذهب إلى الجامعة ، وأخذ يحضر دروساً فى المساء ، واختلط بالطلاب ، وعرف من كثرة اتصاله بهم ، بعض الإنجليزية ، وقليلا من الأسبانية والألمانية ، ثم أتقن الفرنسية اتقاناً ممدوحاً . وكانت صلاته بالروس أقوى ، من صلاته بغيرهم ، وكان المهاجرون الروس فى سويسرا ، أخلاطاً عجيبة ، من

فوضويين واشتراكيين ، وشيوعيين ، وبوهيميين ، وشواذ ، وعرف مع الروس من الرجال ، سيدات من روسيا ، وكان لبعضهن أثر ذهنى عليه ، فقد قيل إنه قرأ بفضل صلاته هذه ، كتب دعاة القوة ، والإيمان بها : نيتشه وسورل ، كما قرأ شوبنهاور ، وكانت وهيجل ، كما أحاط بطرف من الفلسفة اليونانية .

وتأثر فى هذه الفترة بأستاذ الاقتصاد (الفريد باريتو) وخصوصاً بنظريته المعنونة « الذى لا يمكن حسابه » ، والتى تتلخص فى أن فى الإنسان عناصر روحية ، وأنها لا يمكن إخضاعها لقواعد الرياضة والحساب .

وكما تشرد فى شوارع جنيف وبرن ولوزان ، وتحت جسورها ، فقد تجول عقله ، فى هذه القراءات التى تنقل بينها بحرية وكان خاتمة المطاف كارل ماركس .

وأصبح اشتراكياً ، كأبيه . وفى يونيه سنة ١٩٠٣ ، نفته ولاية برن لأنه نظم إضراباً لعمال المعمار والبنائين ، فذهب إلى ولاية جنيف ، التى نفته بدورها ، فقدم أحد النواب الاشتراكيين سؤالا لوزير الداخلية يسأله عن سبب نفى موسولينى فكان الجواب :

« موسولينى كان مدرساً فى إيطاليا ، ولكنه يكرس الآن جهوده للاشتراكية الثورية ، والدعوة لها . فقبض عليه فى سنة ١٩٠٢ بلوزان للتشرد وفى سنة ١٩٠٣ ببرن لارتكابه جريمة سياسية ، ثم طرد من ولاية برن ، وقد قبضت عليه السلطات الإدارية فى جنيف بدعوى أنه فوضوى ، وهو ينفى عن نفسه أنه فوضى قانع بلقب : اشتراكى ثورى » .

وخرج موسولينى من سويسرا إلى بلاده ، بعد أن دخل السجن ، إحدى عشرة مرة ..

ولكنه قبل ن يعود إلى بلاده ، ذهب إلى سويسرا الألمانية ، حيث تعرف بثورية روسية هى (إنجيلكيا بلابانوف) وقد كانت سيدة حدباء ، ضئيلة الجسم ، سريعة اللسان ، قوية العبارة ، حادة الذكاء ، شديدة التأثير على سامعيها . وقد كانت منه — لفترة غير قصيرة — أمه الروحية التى تعلمه ، وتثبت ثقته فى نفسه ، وتلهمه وتدفعه للعمل ، ولكن لم تخل صداقتهما مما يعكرها ، فقد كانت طبيعتهما الحادة ، ومزاجهما العنيف ، سبباً فى جفوة متجددة بينهما .

ويقول جنتر فى كتابه (داخل اوربا) أن إنجيلكيا ، جمعت بين موسولينى

ولينين ، ولكن المؤرخين الآخرين يشكون فى هذه الواقعة »

وعاد موسولينى إلى بلاده ولحق بفرقة البرساليرى ، وكانت معسكرة فى مدينة فيرونا التاريخية ، فارتاح لها موسولينى الذى كان شديد الزهو بتاريخ بلاده وبآثارها . فقال : « لقد ألفيت بين هذه المدينة وبين مزاجى توافقاً واستجابة لا حد لها . لقد نعمت بالعطر المنبعث من أرجائها »

وفى أثناء تأديته الخدمة العسكرية جاءه نبأ أن أمه تعانى سكرات الموت ، فانطلق بأول قطار إلى إقليمه (رومانا) حيث يجد أمه فى بريدبيو ، وقال :

« لقد كانت أمى فى أشد آلام النزع ، ولكن بإيماءة برأسها لا تكاد تلحظها العين ، أدركت أنها أحست بوجودى إلى جانبها ، ولقد رأيتها تجاهد لتبتسم ، ثم انخفض رأسها قليلا . ثم انتهى كل شىء .

« وهنا عجزت ، كل قوى نفسى ، وكل مددى الفلسفى ، والعقلى ، بل ومعتقداتى الدينية العميقة ، عن أن تخفف حزنى ، ولقد بقيت أياماً فى تيه ، فلقد سلبت أعز المخلوقات وأقربهم إلى نفسى ، وألصقهم بقلبى ، وأكثرهم تقديراً وإعزازاً لما يجول بصدرى » .

وبعد أن خرج موسولينى من الجيش ، لم يجد أمامه عملا سوى التدريس ، فعاد إليه ثانية ، فى مدينة تولمز ، ثم فى مدينة (أرباليا) بإقليم الترنت الإيطالى الذى كان خاضعاً للإمبراطورية النمساوية ، وهناك هاجت عواطفه الوطنية ، واتقدت ، وهناك أيضاً ، عرف (سيزار باتستى) الصحفى الاشتراكى ، الذى ، كان واحداً من أكثر الناس تأثيراً على حياة موسولينى السياسية والفكرية .

وعاد موسولينى من جديد إلى قريته ، فى سنة ١٩٠٧ ، فوجد نزاعاً حاداً قائماً بين الاشتراكيين والجمهوريين بشأن آلات الحصاد الميكانيكية التى كانت أدخلت آنذاك إلى الزراعة ، فوقف موسولينى فى صف الاشتراكيين من العمال وتزعمهم ، وقاد اضطراباً ، سيق من أجله إلى السجن لعشرة يام .

* * *

ولكن حياة موسولينى فى الترنت كانت مرحلة هامة من مراحل تطوره السياسى ، فقد أسند إليه ، أثناء وجوده هناك منصب سكرتير الحزب الاشتراكى ، ثم أخذ

يحرر جريدته ، ولكنه أحس بأن نزعة الجريدة ، عالمية ، وليست وطنية ، فتركها حيث عمل مع سيزار باتستى فى جريدة الشعب ولم يكتف آنذاك بكتابة الفصول السياسية الملتهبة ، بل كتب فى ملحق الجريدة الأدبى — الحياة الترنتية — قصصاً ، كان من أكثرها نجاحاً قصة « حب ابنة الكردينال » التى لم تخل من هزء وتهكم برجال الإكليروس الكاثوليكى ، وقد كانت هذه القصة بذاتها سبباً لنجاح الجريدة أيضاً ، مما دعا باتستى أن يطلب من موسولينى ألا ينهيها سريعاً ، وألا يقضى على حياة البطل . فقبل موسولينى الطلب ، مكتفياً بقتل بعض الأبطال الثانويين . ومن آثار موسولينى الأدبية فى هذه الحقبة فصل عن شاعر ألمانى ، وبحث عن النساء فى رواية (ويليام تل) للشاعر الألمانى شلر ، وفصل فلسفى ، ضمنه خواطره فى الحياة والسياسة .

وكان لموسولينى فى هذه المرحلة ، صديقة لا تفارقه ، تلك هى (كمانه) ، التى كان يبثها لواعجه وأحزانه .

وقد وضع حد لحياة موسولينى ، فى إقليم الترانت ، بسبب مقال له ، عن حدود الفاصلة بين إيطاليا ، وهذا الإقليم ، ووجوب إزالتها ، فلم تطقه السلطات النمساوية ، وأعادته إلى إيطاليا ، ولما وصل إلى بلاده وضع كتاباً بعنوان « مشاهدات اشتراكى فى الترنت » وهو عمل ، يكشف عن نزعات موسولينى الوطنية ، المختلطة ، بالميول الاشتراكية وقد كان كفاح موسولينى (فى الترنت) سبباً فى لفت نظر الزعماء الاشتراكيين إلى مواهبه ، وإلى حيويته ، وإلى قدرته على التهييج والإثارة ، فنجح فى أن يكون سكرتيراً للحزب الاشتراكى فى إقليمه (رومانا) ثم أخرج فى سنة ١٩١٠ جريدة أسمها « حرب الطبقات » . واسم الجريدة وحده ، ناطق بالتحول عند موسولينى ، فقد بات اشتراكيًّا متطرفاً .

وعلى الرغم من أن جريدة « لوتادى لا كلاس » « حرب الطبقات » ، كانت جريدة إقليمية إلا أن مقالات موسولينى لفتت الأنظار إليها ، فراحت جريدة الحزب الرسمية ، فى روما ، تنقل عنها ، وتشير إلى موسولينى ، وآرائه كثيراً .

وجاءت لموسولينى فرصة ذهبية ، لتزيد من اسمه توهجاً ، ومن دورة بين الاشتراكيين بروزاً ، فقد كانت إيطاليا منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل

القرن العشرين ، شاعرة بحسرة مضنية ، لأنها خرجت من التسابق الاستعمارى بين دول غرب أوربا ، بلا نصيب ، فلما كانت سنة ١٩١١ ، وكانت تركيا ، قد بلغت أقصى درجات الضعف ، فقد فكرت حكومة إيطاليا برياسة (جيولوتى) أن تجرب حظها فى السلب الاستعمارى بتدبير حملة ضد طرابلس (ليبيا) ، وفعلا بدأت التدابير للحملة ، وتهيأت البلاد ، للغزو .

فانقسم الاشتراكيون فى أمر هذه الحملة ، فرأت أغلبيتهم أن هذه الغزوة عمل استعمارى يخالف الاشتراكية ، ويتناقض معها . وكان الفريق الآخر ، ينظر إلى الأمر ، نظرة مصلحة ، ويرى ألا يهاجم الاشتراكيون (جيولوتى) لأنه يعتمد فى حكومته ، على الاشتراكيين ، فإن بادءوه بالحرب ، تخلى عنهم ، ووقع فى يد خصومهم . أما موسولينى ، فقد كان عالى الصوت جداً فى إقليم رومانا وفى جريدته ضد هذه الغزوة ، وكان نشيطاً ، قوياً ، عنيفاً فى مقاومتها .

ونحب أن ندع الكلام هنا ، لواحد من الد خصوم موسولينى ، هو (أرماندو بورجى) مؤلف كتاب موسولينى (الأحمر والأسود) الذى يتحدث عن دورى حياة موسولينى الكبيرين ، إبان اشتراكيته (الحمراء) ، وفاشيستيته (التى كان يلبس أفرادها القميص الأسود) .

« فى هذا الفترة ، ترجم موسولينى ، بغرض دعم الدعاية لنفسه ، عن الفرنسية كتاب الثورة العظمى وكلمات لثائر . تأليف بيتركر وبوتكين ، وفى نفس الوقت ، أصبحت مجلة « حرب الطبقات » مركز التجمع لهذا الطراز من الاشتراكيين الماركسيين الذين يرفضون السير بالاشتراكية فى طريق البرلمانية والوزارة ، ونتائجها المنطقية ، والذين كانوا يعلنون دائماً أنهم يريدون الثورة الاشتراكية . ولكن موسولينى لم يكن دائماً على وفاق مع زملائه . وكان هو فى ذاته ، فى اضطراب أيدولوجى (مذهبى) ، فقد أدى به هياجه العصبى ، إلى لون من العنف ، جعله أقرب إلى إرهابى لافوضوى .

« وقد حدثت فى هذه الفترة ثلاث هجمات إرهابية . وتعليق موسولينى على هذه الحوادث ، يبدو ذا أهمية خاصة لدارسته . ونذكر من هذه الحوادث ، حادث إلقاء قنبلة على مسرح (كولون) ببونس إيرس بالبرازيل ، وقد أسفر عن إلقاء

هذه القنبلة ، سقوط عدد كبير من الضحايا ، إلى حد جعل الفوضويين أنفسهم ، يتبرأون من تحمل مسئولية الحادث ، فنسبوه إلى تدبير البوليس ، وإليك ما كتبه موسوليني :

« إني أسلم ، بغير جدل ، أن القنابل فى الأوقات العادية ، لا يمكن أن تكون وسيلة للعمل الاشتراكى ، ولكن حينما تزيحك حكومة جمهورية أو ملكية ، إلى الحافة القائمة بين الموت والحياة ، بعيداً عن نطاق القانون والإنسانية ، فليس ثمة ضرورة ، لصب لهذا السيل الدافق من اللعنات على رءوس من أقدموا على عمل عنيف ، لأنه فى حقيقة الأمر ، رد فعل ، لعمل عنيف آخر ؛ حتى ولو أدى هذا العمل العنيف ، إلى إنزال الخسارة ببعض الضحايا . وأنى لألاحظ إن عدداً من الاشتراكيين ، يتأثرون عادة بما يصيب الطبقة البورجوازية من أرزاء ، بينما يبدون بروداً فى العاطفة ، إزاء مصائب الطبقة العمالية (البرولتياريا) . . .

« إن أجزاء ماكينة تعنى عند الرأسمالى أكثر بكثير ، مما تعنيه أعضاء عامل . وأن المضارب ، يتخذ من مصائب المجتمع وسيلة لنفوذه ، وهو لا يحفل فى الوقت نفسه ، بما تملأ أعماله ، الطريق به ، من جثث الضحايا وأن السياسى « تيير » لم يشعر قط بالرحمة نحو أعضاء الكوميون فى باريس ، وبافايا بيكاريس ، اكتسح بمدافعه الرشاشة شوارع ميلان ، كذلك لم يشعر الفونس الثالث عشر بالرحمة نحو مدينة فيرر ، ولكنا نرى من الناحية الأخرى ، اشتراكيين ، جاشت عواطفهم رحمة لضحايا مسرح الكولون ببونس أيرس .

« إن الموت ليس وقفاً على البروليتاريا وحدهم .

« وأن هذه الحساسية ذات الجانب الواحد، التى يبديها الاشتراكيون ، ترينا كيف أن المسيحية لا تزال تحيا فى قلوبنا ، فإن المسيحية هى المسئولة عن هذه الرحمة المخنثة الهستيرية » .

* * *

وقد قلنا أن غزوة طرابلس أو ليبيا ، كانت سبباً لانقسام الاشتراكيين الإيطاليين ، فقد كان بعضهم مؤيداً للغزوة على أساس أن الاشتراكية هى ثمرة الرأسمالية ، وأنه لكى توجد اشتراكية ، فلا بد أن تسبقها رأسمالية ، فالرأسمال

هو الذى يمنح الكفاية لعالم لم يعمر بعد . وقد كان دعاة هذه النظرية بين الاشتراكيين الإيطاليين ، مثل لابريولا وبيسولاتى ، وبونومى ، يدعون لها فى شجاعة غير هيابين ، ولامكترثين لما تثيره فى نفوس زملائهم من الاشمئزاز .

أما موسولينى ، فقد كان فى الطرف الآخير ، معارضاً متطرفاً وعنيفاً للغزوة الليبية وكان لا يزال فى مدينة (فورلى) عاصمة إقليم رومانا ، حيث وقعت اضطرابات عنيفة ضد الحرب . فقد اندفع الجمهور نحو المحطة ، وانتزع قضبان السكك الحديدية ، ومنع سفر الجنود إلى الميدان . فقد كان موسولينى على رأس المتظاهرين ، فقبض عليه ، وحوكم ، وقد كان زميله فى السجن (بيترونينى) زعيم الحزب الاشتراكى الحالى فى إيطاليا ، ثم أصبح عدواً لدوداً للفاشيستية ولموسولينى ، واتخذ من باريز مقراً له يدبر منه حملاته على الفاشيستية ، وقد زعم (نينى) فيما كتبه بعد ذلك عن تلك الأيام التى جمعته فى السجن مع موسولينى ، أن موسولينى لم يكف طوال السجن عن البكاء ، خوفاً من عقوبة قاسية ، فقد كان أمله فى التخفيف لصغر سنه ، ولكنه لم يحكم عليه آخر الأمر بسوى خمسة أشهر .

* * *

وفى سنة ١٩٢١ انتصر موسولينى ، على رأس الاشتراكيين الثوريين ، على الاشتراكيين الإصلاحيين ، وانتزعت رئاسة تحرير جريدة الحزب (أفانتى) من (توراتى) الإصلاحى وانتهت إلى موسولينى ، وارتفع المبيع منها من أربعين ألفاً إلى مائة ألف ، وفى سنة ١٩١٣ ثار الفلاحون فى منطقة (روكاجورا) فضربتهم الحكومة بالحديد والنار ، فكتب موسولينى ينذر الحكومة بأن هؤلاء المساكين الذين لم يطلبوا أكثر من حقهم ، إذ لم يطلبوا سوى مستشفيات لمرضاهم ، ومصارف لأرضهم ، وتخفيف من أثقال حياتهم ، سيعرفون كيف يردون الصاع صاعين ، فقدم موسولينى للمحاكمة ثانية ووقف يترافع عن نفسه ، فقال كلاماً له أهميته الخاصة ، على ضوء ما انتهى إليه موسولينى ، وما انتهت إليه إيطاليا تحت زعامته ، قال :

« تصوروا إيطاليا وكل من فيها يفكر على منوال غيره من أبنائها ، وكأن عقول

الكل قد صبت فى قوالب واحدة .

« إنها لتكونن عندئذ مستشفى كبيرة للمجاذيب،أو دنيا بله مسئمة ، فالملك الذى يرى أن رعاياه يؤمنون جميعاً بأن الملكية هى خير نظام ، ليرى نفسه مضطراً إلى الدعوة إلى الجمهورية ، ليدخل شيئاً من التغيير إلى حياة أمته مثلة فى ذلك مثل الكلاب التى قال عنها الشاعر هينى إنها تقبل آثار أقدام الغرباء الذين قد يخففون عنها سأم النظر إلى وجوه أهل الدار الذين لا يتبدلون أبداً » .

* * *

واستمرت الاضطرابات الثورية فى تزايد ، وكانت الصيحة العالية ضد الحرب ، والروح العسكرية ، وقد أصبح اسم أحد الجنود عنواناً على الحركة ضد الحرب ، فى تلك الفترة ، وعلماً يلتف حوله الأنصار .

فقد ضرب الجندى (أوجستومازيتى) ضابطه (الكولونيل ستروبا) فى ثكنات مدينة (بولونا) وهو يتهيأ لإلقاء خطبة فى جنود مسافرين إلى ليبيا . ولم تجرؤ الحكومة على أن توقع على هذا الجندى أقصى العقوبة ، كما كان ذلك متوقعاً للغليان الذى ساد الشعب فى تلك الآونة ، ولم ير رئيس الوزراء وسيلة للتخلص من الجندى مازيتى دون محاكمة ، إلا أن ينسب له الجنون ، وأودع بالفعل فى مستشفى للأمراض العقلية ، بعد وضعه تحت اختبار عقلى ، كانت نتيجته معروفة مقدماً .

ولكن الشعب لم يقنع بهذه النتيجة التى كان يمكن أن تكون مقبولة ، لو لم تكن الظروف فى إيطاليا قد وصلت إلى ما وصلت إليه فعلا ، لذلك ثار الشعب وطالب بإطلاق سراح (مازيتى) من المستشفى وقالت الصحف إنه مقاتل، وإن العمل الذى أقدم عليه لم يكن فقط مشروعاً ، بل كان فوق ذلك عمل أبطال ، أما المجنى عليه الكولونيل (ستروبا) ، فلم يمت ، إلا أن جرحه كان جسيماً .

ولم تستطع الحكومة الاستجابة لطلب الشعب ، فتألفت فى الحال لجان تحمل اسم (مازيتى) ، فى طول البلاد وعرضها ، وأصدرت هذه اللجان بيانات ، ووزعت منشورات ، ووقف الخطباء من كل حزب ، يتنافسون فى إظهار قبح عمل الحكومة ، وبطولة مازيتى الجديرة بالإعجاب ، وقد انقضت سنة ١٩١٣ كلها

تقريباً والناس مشغولون بهذا الجندى وقضيته . وكان الناس طوال هذا الوقت يسمعون اتهامات موسولينى الصارخة ضد الحكومة ، ووصفه لأعضائها بالإجراء ، ويعجبون بكل هذا ؛ وانتقلت عدوى التطرف من الاشتراكيين إلى الجمهوريين ، فتغلب أمثال (نينى) و (زوكارينى) على زملائهم ، فشارك الحزب الجمهورى فى الحملة على الغزوة الطرابلسية .

وساد الشعور بأن النار المتأججة فى إيطاليا لا ينقصها وقود . وعاد فى هذه الأيام (مالاتستا) ، زميل الفوضوى الروسى (باكونين)،فاستقبله موسولينى بمقال ترحيب حار ، وكانت عودة (مالاتستا) ، دعماً للحركة الثورية وتقوية للثائرين ، وفى إبريل سنة ١٩١٤ ، قررت الأحزاب الأشتراكية ، وحلفاؤها ، أن تضرب جميع القوى العاملة يوماً كعلامة احتجاج ، ضد الملكية الإيطالية ، وتحدد هذا اليوم ، فى السابع من يونيه سنة ١٩١٤ ، وكان هذا عيداً قومياً . وقد قرر منظمو يوم الإضراب ، من الثوريين والجمهوريين ، أنه إذا وقع من الحكومة ، ما يقع منها عادة من أعمال القمع ، فى مثل هذه المناسبات ، فإن الرد سيكون إعلان إضراب عام . ولم يدخر موسولينى وسعاً كعادته فى إلهاب شعور الجماهير بأعمدة فى جريدته طافحة بالحماسة والإثارة .

وفى اليوم المحدد ، ذهب الطليان فى أعداد غفيرة إلى الاجتماعات التى عقدت فى كل مدينة وبلدة وقرية ، وتدفقت سيول المظاهرات ، هاتفة ، بحياة (مازينى) والمطالبه بإطلاق سراحه . وفى (أنكونا) ، وقع أول اصطدام بين الشرطة ، والمتظاهرين ، فأطلقت الشرطة الرصاص ، مدعية أن الجماهير تجاوزت حدودها ، فسقط من العمال ثلاثة من القتلى،اثنان من الجمهوريين ، والثالث فوضوى . فنفذ الإضراب الموعود ، وتوقف العمل يومين كاملين فى كل إيطاليا،وفى خلال الأسبوع الثانى من السابع إلى الرابع عشر هاج هائج الشعب ، ووقعت أحداث بلغت الغاية فى العنف .وقد شعر الكثيرون بأن موسولينى كان روح هذا الأسبوع الذى سمى بالأسبوع الأحمر ، وقد استحق موسولينى هذا التقدير عند الذين قارنوا بين موقف جريدة الاشتراكيين ، عندما كانت فى يد اشتراكى مؤمن بالقانون ، وحريص على عدم تحديه ، هو (بيتسولاتى) ، وبين موقفها عندما انتقلت إلى يد موسولينى ،

فالتهبت مقالاتها التهاباً ، وأيدت الاتجاه المتطرف ، تأييداً كاملا ، بلاتحفظ ولا احتياط ولكن خصوم موسولينى ومنهم (بورجى) صاحب كتاب موسولينى (الأحمر والأسود) التى سلفت إليه الإشارة يقول إن موسولينى لم يكن روح أى شىء ، ولا على رأس أى حركة ، فمركز الحركة كان فى المارش و (رومانا) ، وقد بدأت فى (أنكونا) ، ثم امتدت إلى (رافنا) و (فورلى) فى الحال ، حيث بلغت من الجسامة والعنف إلى الحد الذى اعتقد معه الناس ، أنه بات ممكناً أن تعلن الجمهورية فى هذه الأقاليم الثلاثة فى إيطاليا ، كما أعلنت جمهورية قطالونيا فى أسبانيا .

ولكن (بورجى) يعود فيعرض نماذج من مقالات موسولينى خلال الأسبوع الأحمر ، ليظهر التعارض بين ما كان يقوله أيام اشتراكيته ، وما فعله إبان وجوده على رأس الحكم الفاشيستى ، ففى خلال الأسبوع الأحمر نشر موسولينى مقالا قال فيه إن الوطنيين والبوراجوازيين ، أعداء الاشتراكية والعمال ، يريدون أن ينتقموا منا ، فسينشئون قوة بوليسية ، أحسن من قوة البوليس العادية ، وإن على العمال أن يواجهوا هذه القوة بقوة يكونونها من أنفسهم ، فى كل حى ، وفى كل قسم ، إذ لا يجوز أن يؤخذ العمال على غرة ، وإنه إذا كان الوطنيون والبورجوازيون يريدون فى البلاد حرباً أهلية غالية الثمن ، فلينتظروها ، فإن العمال أكفاء لتلك الحروب »

وكما نشر فى ١٢ من يونيه سنة ١٩١٤ مقالا آخر قال فيه : إنه يفهم انزعاج الطبقات الحاكمة من انفجار عمالى ضخم كالانفجار الذى بدأ فى السابع من يونيه وأنه يفهم كذلك ما تبديه الدوائر الديموقراطية من التردد ، وما يلتحف به موقفها من الغموض ، مكتفين بإعلان لون من الاتجاه الاصلاحى ، ذى الطنين الممل ، الخالى من أى معنى .

ثم قال « أية مفاجأة مذهلة أصابت الحكومة ودوائرها ، فى الأسبوع الأحمر ، فقد كانت الحكومة ، تطمئن نفسها بما تتوهمه من أن الحملة الأفريقية ، قد لقيت تأييد الشعب الشامل فى الداخل ، بقدر ما لقيته هذه الحملة من التأييد الدولى فى الخارج . وكانوا يقولون أيضاً إنه لا وجود للطبقات فى إيطاليا ولا للصراع الطبقى ، وإنه لا احتمال لقيام إضراب شامل ، وإنه لا توجد فى إيطاليا إلا طبقة واحدة هى :

الشعب . هذا فضلا عن أمل الطبقات الحاكمة فى أن تكون الحملة الأفريقية هى نهاية الاشتراكية فى إيطاليا ، وأنه ليس ثمة أمل أكثر سخفاً من هذا الأمل ، وأنه لم يكن هناك حلم تبعته خيبة أمل ، كهذا الحلم . فالإضراب العام الذى انتهى أمس ، ليس له نظير بين الحركات الشعبية منذ سنة ١٨٧٠ . وقد تميز بخاصتين هما مداه الواسع وقوته . فالإضراب شمل كل إيطاليا ، كما أن روحاً من التضامن والدفاع المشترك شملت الطبقة العاملة ، فى المدن العظيمة ، والقرى الصغيرة ، والمراكز الصناعية والمراكز الزراعية حيث يعمل الفلاحون وعمال المياومة على السواء . فقد اشترك فى هذا الإضراب ، طوائف من كل العمال حتى العمال الذين يعملون فى الحكومة . ثم ان هذا إضراب لم يكن دفاعياً فقط ، بل كان هجومياً كذلك ، وأن الجماهير التى لم تكن تجرؤ لتقيس قوتها بقوات الحكومة ، عرفت هذه المرة كيف تقاومها وتحاربها بشجاعة عظيمة . وفى بعض الأماكن هو جمت مخازن الذخيرة ، ولكن أهم سمات هذا الإضراب هو الهتاف الذى علا (إلى الكيرينال) القصر الملكى ! » .

ولما انتقدت إحدى الجرائد الديموقراطية ، موقف جريدة الاشتراكيين الإيطاليين ، لأن الحزب الاشتراكى الإيطالى ، لم يكن حزباً ثورياً ، بل كان حزباً ، يؤمن بالتطور ، وبالأساليب البرلمانية والديموقراطية كوسيلة لتحقيق الاشتراكية . أجاب موسولينى بقوله : إن الحركات الثورية ، ليست أعمالا ، يمكن للمحاسبين البارعين ، أن يفصلوا فيها السالب عن الموجب ، فالانتفاضات الشعبية يجب أن توزن جملة واحدة ، فالثورات لا تصنع تبعاً لقواعد التهذيب اللطيفة ، فى كل حركة شعبية تختلط الفواجع ، بالمساخر ، والبطولة ، بمظاهر الجبن ، والخير ، بالانحراف . وفى كل حركة ، تنطوى على ما يمكن توقعه ، وما يكون رداً للفعل ، وما يكون خلقاً وبناء ، وما يكون هدماً وتخريباً ، وما يبعث الحياة ، وما يؤدى إلى الهلاك . وإن تاريخ الكومون (اللجان الشعبية) المجيدة فى ثورة فرنسا سنة ١٨٤٨ ، لجان الشعب ، تعطينا جانباً من كل السمات الثورية ، أعنى المزيج من الجلال ، والهزء .

ثم انطلق من هذه النقطة إلى تمجيد ماركس فقال :

« ولكن حينما وقع الكومون ، متخبطاً فى دمائه ، تحت ضربات وطعنات حراب (تايير) ، فإن رجلا واحداً هو أستاذنا الخالد فى نظرنا جميعاً ، هب ليدافع عن الكومون ، ولم يضع وقتاً فى اللف والمراوغة ، فقد برر كارل ماركس ، فى صراحة ، كل الأعمال التى اتخذها الكومون ، حتى هذه الأعمال التى لا يمكن نسبتها لشخص بذاته ، والتى صدرت عن الناس بصفة عفوية . لقد برر إشعال الحرائق ، وإنفاذ الموت فى الرهائن . لقد بارك النار والدم ، وبقى يهتف (ليحيى الكومون) حتى بعد أن لفظ الكومون أنفاسه ، بقى يهتف هكذا ، فى وجه كل أوربا البورجوازية ، التى عقدت العزم على أن تنزل بالعمال انتقاماً رهيباً ، بدافع من خوف استولى عليها وزاد عن أصله مائة ضعف » .

* * *

وفيما كانت أنباء الأسبوع الأحمر ، تملأ الصحف ، وتدوى فى الآذان ، دوت رصاصات ، بعيداً عن روما ، وخارج إيطاليا كلها ، تلك رصاصات الطالب برنزيب ، فى مدينة سراجيفو ، بصربيا ، تلك الرصاصات التى سقط على أثرها ، ولى عهد الإمبراطورية النمساوية ، والأميرة زوجته. وكان الحزب الاشتراكى الإيطالى فى تلك الآونة فى قمة نجاحه الانتخابى ، وقد كان موسولينى واحداً ممن نجوا فى الانتخابات فى تلك الأيام ، عضواً فى مجلس مدينة (ميلان) ، وانتخب معه لنفس المجلس (تورانى) . وقد كانت بعض المجالس البلدية ، اشتراكية مائة فى المائة . وثبت من نتيجة هذه الانتخابات ، أن المتطرفين ، هم الذين تصدروا الحزب . ولما اشتعلت حريق الحرب العالمية الأولى ، لم تكن إيطاليا ، ضمن الذين نزلوا حلبتها فور اندلاعها ، ولكن الفترة السابقة على دخول إيطاليا الحرب ، كانت من أسوأ فترات حياتها ، إذ أنها كادت تشعل حرباً أهلية بين أبنائها الذين اختلفوا اختلافاً حاداً حول هل: تدخل بلادهم الحرب أو لا تدخل، وتدخل إلى جانب ألمانيا والنمسا ، أم فى جانب إنجلترا وفرنسا . أما الدول التى دخلت الحرب عقب إعلانها ، فقد بقيت وحدة متماسكة .

ويمكن باختصار ، إن نقول أن الجمهوريين وحدهم هم الذين نادوا فى

إيطاليا ، بوجوب الدخول فى الحرب إلى جانب إنجلترا وفرنسا ، أما موسولينى فقد كان موقفه جديراً حقاً بالتأمل ، فقد ثبت على موقفه ضد الحرب ، فحتى ٢٦ من يوليه سنة ١٩١٤ ، كان موسولينى يكتب فى (الأفانتى) مقالا تحت عنوان « لتسقط الحرب » أعلن فيه ، « أنه حتى إذا خاضت أوربا كلها الحرب ، فلإيطاليا وحدها موقف واحد ، هو الحياد التام » .

وفى ٢٩ من يوليه ، قال أنه من مصلحة الطبقة العاملة ، أن نضيق نطاق الحرب العالمية ، التى لا تنتفع من اتساعها إلا الروح الحربية ، والطبقات العسكرية ، ومشروعات الطبقة البورجوازية الطفيلية ؛ ثم وجه الحديث إلى العمال فقال : « أما أنتم أيها العمال الإيطاليون ، الذين أثبتم فى وسط فترة الأزمة ، والبطالة ، منذ الإضراب العام الحديث ، إنكم تتمتعون بوعى طبقى ، وتتحلون بروح التضحية ، فيمكنكم أن تحولوا دون أن تستدرج بلادكم إلى دوامة هذه المغامرة الرهيبة » :

وفى ١٢ من أغسطس ، كتب مقالا يدافع به عن الدولية الاشتراكية ، لأن بعض الأقلام هاجمت هذه الدولية الاشتراكية بدعوى أنها عجزت عن منع الحرب ، ولأن الأحزاب الاشتراكية ، فى كثير من الدول المتحاربة ، وقفت مع الداعين إلى الحرب ، وأيدت الاشتراك فيها ، وعبرت عن النزعات الوطنية ، فقال موسولينى :

« إن خصوم الاشتراكية يتظاهرون ، وهم لا يؤمنون فى قرارة أنفسهم بما يتظاهرون - بأن الاشتراكية كان يجب أن تحقق فى أقل من خمسين سنة ، الأخوة الإنسانية التى عجزت المسيحية عن تحقيقها فى عشرين قرناً ، أى منذ اليوم الذى ألقى فيه شريد الناصرية بتحديه ، فى وجه البشر . وأنه لاعتقاد داع إلى الضحك . فالدولية الاشتراكية لم تتعهد من قبل ، بمنع الحرب ، فقد قنعت باعلان أنها ستحارب فكرة الحرب . وهذه المقاومة لكفرة الحرب ، بذرت بذورها فى كل الأمم ، وإنى لألفت النظر إلى الاجتماعات التى عقدت فى طول ألمانيا وعرضها بهذا الغرض بفضل الحزب الاشتراكى الألمانى .

« إن هذه الحرب تقودنا مباشرة إلى البربرية ، وستعيدنا إلى عهد القبائل وبطون القبائل ، وليست الاشتراكية الدولية سوى الثمرة التى ستنضج على شجرة المستقبل » .

* * *

ولكن لاحت نذر وأمارات ، على تحول فى موقف موسولينى ، فقد بدأ يميل إلى تأييد جبهة الداعين إلى الدخول إلى الحرب ، وأخذ بعض الكتاب يتهمونه علناً بذلك ، وكان فى مقدمة هؤلاء (ليبروتانكريدى) ، الذى كان يوقع مقالاته باسم (ما سياروكا » ، ويقال أن الوسيط الذى أقنع موسولينى بالتحول هو (نافليبونالدى) ، وأن موسولينى اشترط لإمكان تحوله ، أن تضمن له جريدة يكون مالكها ويتولى تحريرها ، والدفاع عن نفسه ، ونشر أفكاره عن طريقها ، وإن (نالدى) نجح فى إجابة موسولينى إلى هذا الشرط ، فأصبح موسولينى مالكاً ومحرراً لجريدة (بوبولو ديتاليا) ، ويقول خصوم موسولينى إن هذه الجريدة ، تأسست بمال فرنسى ،

ولكن الفرقة لم تقع بين موسولينى وبين حزبه ، إلا على خطوات ، وقد بدأت الخطوة الأولى فى مؤتمر للحزب عقد فى أكتوبر ، فقد نصح موسولينى فى هذا المؤتمر ، بأن تلتزم إيطاليا حياداً نسبياً أو جزئياً وأن ذلك أبعده عن أعضاء الحزب ، وجعله فى عزله ، فانطلق من المؤتمر إلى القطار ، ولما وصل إلى شارع (سان داميانو) حيث توجد إدارة جريدة (الأفانتى) جمع أوراقه ، وكل المستندات الخاصة بفترة رياسته للتحرير ، وحملها فى عربة ، ونقلها إلى بيته ، وفى الشهر التالى ، ظهرت جريدة (البوبولو ديتاليا) وتحتها عبارة « جريدة اشتراكية » ، وكتب تحت هذه العبارة قولين مأثورين ، أولهما لبلانكى ونصه « من عنده حديد ، عنده خبز » ، والثانى لنابليون ونصه : « إن الثورة فكرة تخلق الحراب والسيوف » .

ولكن موسولينى وإن ترك جريدة (أفانتى) فقد بقى فى الحزب ، لكن بقاءه لم يطل فيه ، فقد انعقد موتمر فرع الحزب فى ميلان ، ويقول (فاليرا) وهو أحد شهود هذا المؤتمر ، إنه كان اجتماعاً صاخباً ، طالب فيه المجتمعون برأس موسولينى ، وقد ساد الهرج والمرج وتعذر اختيار رئيس للاجتماع . وبذل البعض جهوداً لتهدئة الحاضرين ، ليدافع « موليني عن نفسه ، ولكن ذهبت هذه الجهود عبثاً . . ولم يكد موسولينى يفتح فمه ، حتى صاح الحاضرون « ارفع صوتك . ارفع صوتك » وضاع صوت الخطيب فى تضاعيف الضجيج ، ولكن سمع بجهد قوله إنكم أقل نزاهة حتى من قضاة البورجوازية . . وإذا أعلنتم أنى حقير . . » فدوى فى المكان « نعم أنت حقير » .

فغادر موسولينى مكان المؤتمر ، وهو شديد الشحوب ، وشفتاه ترتعشان غضباً ، وأصبعه فى فمه ، وعلى وجهه تعبير يمكن ترجمته : انتظروا . . فسنلتقى ثانية .

والذين يدافعون عن موسولينى فى هذه المرحلة ، يقولون إنه كان يؤمل فى أن ينجح الاشتراكيون ، ودوليتهم الاشتراكية فى منع الحرب، ولكن لما قامت الحرب ، أثبتت عجز الدولية الاشتراكية، فقد جرى الاشتراكيون الألمان مع جنود القيصر، فى حلبة واحدة وهاجمت جحافل القيصر الإمبراطورية ، أرض فرنسا الجمهورية أرض ثورة سنة ١٨٧٩ ، فلم يعد التمسك ، بمبدأ الحياد ، متفقاً مع الواقع المرير . ولذلك كان يجب على موسولينى أن يجد طريقاً سليماً إلى هدف سليم .

* * *

هل أدخل موسولينى بلاده الحرب اقتناعاً منه بقضية الحلفاء (إنجلترا وفرنسا) أم أنه كان أجيراً ، قبض ثمن الحملة التى قادها ، ضد المبادئ التى أعلنها مراراً ، مبادئ الحياد المطلق ، وكراهية الحروب ، لعبة الرأسماليين المفضلة ، التى يموت فيها العمال ، ويكسب فيها الأغنياء أصحاب المصانع ؟

حدث أن قتل الإيطالى « بونومين » بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن أصبح موسولينى رئيساً لحكومة إيطاليا ، الديبلوماسى الإيطالى الفاسيستى (بونسرفيزى) ، وقدم القاتل إلى المحاكمة ، وترافع عنه هنرى توريز المحامى الفرنسى (زعيم الحزب الشيوعى) ، وترافع ضده المحامى العام ، الذى أراد أن يستثير عواطف المحلفين والقضاة ضد القاتل ، فقال إن القتيل يمثل حكومة إيطاليا التى يرأسها موسولينى ، الذى وقف إلى جانب فرنسا فى محنتها خلال الحرب العالمية الأولى ، وصرخ (توريز) بأن موسولينى لم يقف إلى جانب فرنسا حبًّا فى فرنسا ، بل لأنه قبض الثمن. وكان ورثة القتيل قد وكلوا محامياً فرنسيًّا شهيراً ليطلب الحكم لهم بالتعويض المدنى ، وكان المنتظر أن يرد على هذا الاتهام الصريح ولكنه سكت . وبعد أن انتهت القضية ، كتب توريز تفصيلا للاتهام ، الذى وجه إلى موسولينى فى المرافعة ، فقال إن مجلس الوزراء الفرنسى ، كان منزعجاً من موقف الحياد الإيطالى وفكر فى أن يشترى بعض الاشتراكيين ذوى النفوذ أو المعارضين فى دخول بلادهم فى الحرب ووقع الاختيار على موسولينى الذى دفع له كدفعة أولى خمسة عشر ألف فرنك ،

ثم دفع له بعد ذلك ١٠ آلاف فرنك شهرياً، وأن من هذه الأموال ، ولدت جريدة (البوبولو ديتاليا) ، لكن هل هذا الاتهام يمثل الحقيقة أم أنه صدى المعركة العنيفة بين الاشتراكية ، والفاشيستية ؟

وعلى كل حال أعلنت إيطاليا الحرب فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٥ ، وهلل موسولينى وقال :

من أجل خاطرك يا أمنا ، من أجل خاطرك يا إيطاليا ، سنعيش وسنموت ، بلا خوف ولا أسى .

ثم قال :

عشنا فى السنوات الأخيرة فى جو خانق ، جو مهانة عامة ، وتعاسة كاملة ، ولكن ها قد حانت الساعة التى نستطيع أن نحقق فيها مطالبنا . حانت الساعة التى نبدأ بها عهداً جديداً لبلادنا .

ولا شك أن ما نحن على أبوابه ، هو امتحان قاس ، ، إذا نجحنا فيه ، استعدنا ثقتنا وأصبحنا مساوين لغيرنا من الأمم التى أخذت نصيبها من المعركة ، التى ستكيف تاريخ البشرية »

وجد موسولينى نفسه ، فى فرقة البراسليرى ، وأصيب من قنبلة أحد زملائه أثناء التدريب على قذف القنابل اليدوية ، وعانى عذاباً شديداً من جراء سبع وعشرين عملية جراحية ، أجريت له ، أجرى أكثرها من غير مخدر ، ولكن بعد ستة أشهر سرح ، ليستأنف عمله فى جريدته .

وتوالت هزائم إيطاليا ، وكان أفدحها ، وأدعاها إلى الشعور بالعار ، هزيمة واقعة كابرتو ، التى فقد فيها الطليان عشرات الألوف من القتلى والأسرى .

ولكن عوض الطليان عن هذه الهزيمة ، انتصارهم فى الترنت ، واسترداد هذا الإقليم الإيطالى من النمسا .

ووضعت الحرب أخيراً أوزارها وأبرمت الهدنة فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وبدأ نشاط موسولينى ، كزعيم للحزب الفاشيستى .

* * *

وضعت الحرب أوزارها ، ثم أعلنت الهدنة ، ثم تم الصلح فى فرساى بباريس ،

وعاد فيكتورفنتو ، مندوب إيطاليا فى هذا المؤتمر مهيض الجناح مهزوماً ، فإيطاليا التى ذهب من بنيها نحو نصف مليون قتيل ونصف مليون آخر جريح . و ٦٠ ألف رجل ، أعجزتهم الحرب . كانت إيطاليا تمنى نفسها بعودة دلماشيا إليها ، و (فيومى) ولكن لم يتحقق شيء مما تمنته ، ورأت غيرها من دول المعسكر الغربى ، يظفر بالمستعمرات والانتدابات ، وخرجت هى صفر اليدين لم تعط شيئاً . وسأل الشعب نفسه ، لماذا حاربت إيطاليا . وزاد هذا السؤال إلحاحاً لأن كل شيء ساده الاضطراب والتدهور بعد الحرب ، إلا الأسعار ، فقد قفزت بخطوات رهيبة بقدر ما تدهورت العملة الإيطالية ، فالتضخم الذى كانت ألمانيا تعانى منه ، وهو يعصف بها وبثروات المتوسطين فى ضراوة ، فارضاً البطالة والركود ، والفقر والجوع ، والسخط والضيق ، فعل مثل ذلك فى إيطاليا ففشت البطالة ، وجاءت فى أعقابها الإضرابات والاضطرابات ، والمظاهرات واحتلال المصانع ، وسقوط الوزارة فى إثر الوزارة ، وعجز السلطات عن معالجة الحال ، وعن ضبط الأمن أو فرض النظام .

شعر الشعب الإيطالى أن دخوله الحرب كان صفقة خاسرة من جميع الوجوه ، فكره كل ما يتصل بالحرب ، حتى الجنود العائدة منها الذين دفعوا ضريبتها عن إخوانهم المواطنين ، عذاباً فى الخنادق ، وآلاماً فى المستشفيات ، ودماء مسفوكاً فى ميادين القتال ، والذين عادوا جرحى وعجزة ، حتى هؤلاء الجنود لم يستقبلهم أحد بالورود والرياحين بل استقبلهم الناس بالزراية والاحتقار ، وامتدت الأيدى إلى أوسمة الشرف على صدورهم وأكتافهم فمزقتها وداستها بالأقدام ، ثم امتدت هذه الأيدى نفسها إلى علم إيطاليا فألقته على الأرض ، ووطأته بالنعال ، وهتفت الجموع التى أصيبت بخيبة الأمل تقول : لتسقط الحرب ، ومن دعا إليها .

وفى وسط هذه الفوضى أعلن النداء (المنفستو) الشيوعى الأول فى إيطاليا ، فقد أذيع فى ١٨ من فبراير سنة ١٩١٩ .

وفى الشهر التالى ، أى فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١٩١٩ ، اجتمع خمس وأربعون شخصاً بقاعة صغيرة فى مبنى عتيق ، وأطلق على أنفسهم اسم (الفاشى) .

والفاشية بالإيطالية ، هى الرباط الذى يربط حزمة العصى ، التى كان يحملها القائد الرومانى قديماً ، رمزاً على السلطة ، فهى فى يده من قبيل الصولجان فى يد الملك . ولم يكن فى هؤلاء الخمسة والأربعين شخصاً ، من الأسماء المعروفة فى إيطاليا إلا أربعة ؛ وفى مقدمتهم موسولينى .

وليس ثمة شك الآن فى أن الحركة الفاشية ، لم تكن سوى رد فعل للحركة الشيوعية ، وعجز الحكومة — كما قلنا — عن أن تحفظ النظام ، أو تكسب ثقة الناس ، أو تعدهم بما يقيم الرجاء فى نفوسهم ، فى استقرار قريب ، أو تقدم ، أو تخفيف للآلام التى يعيش فيها الشعب .

وكان تردد زعماء الأحزاب الاشتراكية ، وعدم تجمع القوى الشيوعية ، تحت قيادة ذات كفاية ، وشجاعة ، فرصة ذهبية للفاشية ، تؤيدها جميع العناصر التى أشفقت من الاتجاه اليسارى العارم الذى شمل البلاد . فمن الملك إلى عناصر الصناعة فى شمال إيطاليا ، إلى رجال المال فى روما ، إلى الكنيسة فى الفاتيكان ، م الطبقة المتوسطة بأسرها ، تولاها هلع ، إذ تصورت أن إيطاليا على أبواب تجربة من قبيل التجربة الشيوعية التى قامت فى روسيا فى سنة ١٩١٧ ، أى قبل ميلاد الحركة الفاشيستية بنحو أقل من عامين .

ولكن ليس معنى ذلك أن جميع هذه الدوائر ، كانت سعيدة بالفاشية ، أو واثقة من موسولينى ، فالملك نفسه ، كان لا يطمئن كثيراً إليه وكان تاريخه ، وأقواله السابقة عن الجمهورية ، وضد الملكية مما لا يجعل الاعتماد على الفاشية ، وموسولينى ، مضموناً مائة فى المائة. بل أن الدوق داوستا ، وهو من كبار أمراء الأسرة المالكة ، كان يخيف قريبه الملك ، بإظهار المودة للحركة الفاشيستية ، مما جعل من هذه الحركة كابوساً للملك .

وكان العديد من أبناء الطبقة المتوسطة ، لا ينظرون بارتياح إلى ماضى موسولينى وتقلباته وأساليبه فى معالجة خصومه وكان قلقهم يزداد مع الزمن ، ولا يخف ، ولكن موسولينى أكثر الزعماء على المسرح سرعة ، وأعلاهم صوتاً ، وأقدرهم على المناورة ، وعلى التهديد . وعلى إثارة الآمال والمطامع . ولذلك لم تجد العناصر المعادية للاتجاه اليسارى الذى يمتد من الشيوعية إلى الاشتراكية ، والجمهورية ، بداً من

أن تعتبر موسولينى وجماعته هو سبيل الخلاص الوحيد المفتوح أمامهم .

ولما كان الذى يهمنا هنا هو الجانب المذهبى فى الحركة الفاشية ، ورأى المذاهب الأخرى ، دون تفاصيل حياتها حتى وصولها إلى الحكم ، فإننا نجمل التطورات التى سبقت دعوة موسولينى إلى الوزارة فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ فى سطور ، لنخلص بعد ذلك للحديث عن الفاشيستية كمذهب لنرى كيف طبق المذهب فى دنيا الحرب ، وهو موضوع كتابنا .

مر بنا أن موسولينى كان يضع تحت عنوان جريدته « البوبولو ديتاليا » عبارة « جريدة يومية اشتراكية » ، ولكنه منذ اجتماع (الفاشى) فى ٢٣ مارس سنة ١٩١٩ وصدور البيان الفاشى استبدل بهذه العبارة ، عبارة « جريدة المحاربين والمنتجين » .

وقد كان قرار الاجتماع الأول للفاشيست تحية المحاربين الطليان الذين ماتوا من أجل عظمة إيطاليا وحرية الدنيا ! وكان القرار الثانى التحالف لإعادة دلماشيا إلى إيطاليا ، واستردادها من يوغسلافيا وبعد نحو شهرين سقطت وزارة (أورلاندو) لفشلها فى مفاوضات مؤتمر الصلح بفرساى ، وفى يونيه وقعت مصادمات بين الجنود الطليان والجنود الفرنسيين فى فيومى ، التى حاول الطليان ضمها عنوة إلى بلادهم غير عابئين بقرارات مؤتمر الصلح التى سلخت هذا الميناء من إيطاليا .

وتولى الوزارة بعد أورلارندو (نيتى) فلم تزد الأمور فى عهده إلا سوءاً ، وانقطعت جريدة موسولينى عن الظهور ، لأن العمال كانوا مضربين ، فلم تكن تظهر من الصحف إلا جريدة الاشتراكيين (أفانتى) .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٩ جرت الانتخابات فقرر الفاشيست الدخول فيها فمنوا بهزيمة منكرة إذ سقط جميع مرشحيهم بما فيهم موسولينى الذى لم يظفر فى دائرته بميلان بسوى ألف صوت ، وفى اليوم التالى نشرت جريدة الأفانتى تعليقاً على هزيمة موسولينى فقالت :

« لقد وجدت بالأمس جثة طافية فى النهر ، فلما انتشلت تبين أنها جثة بنيتو موسولينى »

وبدا التصادم بين الفاشيست والاشتراكيين ، فكانت أنصار الطرفين يتبادلون الضرب بالعصى والطوب ، وعقد الفاشيست اجتماعهم بعد الانتخابات فى (فلورنسا)

فى شهر أكتوبر ، فهاجم الاشتراكيون المجتمعين بالطوب ، ورد الفاشيست عليهم بالرصاص .

ولما انعقد البرلمان الإيطالى فى سنة ١٩٢٠ أظهر مدى ما وصل إليه التيار اليسارى من ارتفاع ، فقد دخل الملك إلى قاعة النواب ، والنواب الاشتراكيون فى أماكنهم ، لا يقفون لتحيته كالعادة ، ولما وصل إلى مكانه على المنصة العالية ، خرجوا وهم ينشدون نشيدهم ، مصفرين .

ثم احتل العمال المصانع ، ووقعت مذابح فى أنكونا وميلان وغيرهما من مدن إيطاليا فاستقال (نيتى) .

وفى نفس الوقت كان الشاعر (دانتزيو) على رأس جماعة من الطليان يحارب ، ليستخلص (فيومى) لبلاده بالسيف والمدفع ، وموسولينى يكتب عنه فى جريدته مؤيداً ، ويجمع الاكتتابات ، ليؤيد المجاهدين الإيطاليين ، فيتهمه الاشتراكيون بأنه يسرق هذه الأموال .

ولكن سنة ١٩٢١ بدأت تسجل للفاشيست ، انتصارات ، رجحت بها كفتهم قليلا . فاليساريون لم يذهبوا فى تنفيذ برنامجهم ، إلى النهاية . والعمال لم يجدوا فى الفلاحين حليفاً مستعداً للوقوف فى الميدان ، وتحمل ضريبة المعركة ، والكنيسة ، تبذل الجهد ، لتمنع انضمام هذا الحليف القوى الى العمال .

وفى ظل هذه الظروف استطاع موسولينى أن يعقد مؤتمراً يضم ١٠ آلاف من الفاشيست ذوى القمصان السوداء . وبعد ذلك بقليل استطاع أن يستعرض ٥٠ ألفاً من الفلاحين فى (فراراً) .

وفى هذه السنة جرت انتخابات جديدة دخلها الفاشيست ، فظفروا بـ ٣٥ مقعداً ، على رأسهم موسولينى الذى نجح فى دائرتين (ميلان وبولون)

وفى أكتوبر من السنة نفسها انعقد المؤتمر الفاشيستى فى روما فحضره ألفان ومئتان من رؤساء الوحدات الفاشيستية التى بلغ عدد أعضائها فى هذه السنة ٣١٠ من الآلاف .

* * *

وفى سنة ١٩٢٢ ، هبطت الموجة الاشتراكية ، حتى قبل زعيم الاشتراكيين ،

أن يعقد هدنة مع الفاشيست ، كف كل من الطرفين خلالها عن مهاجمة الآخر ، وغضب فريق من الفاشيست لمهادنة الاشتراكيين ، ولكن موسولينى أفاد من هذه الهدنة ، فقد توافر خلالها على تنظيم صفوفه ، وفى هذه الفترة ، بلغ تردى هيبة الحكومة إلى حد لم يسبق له مثيل ، فإن حكومة (بونومى) لم تستطع أن تبقى فى دست الحكم إلا ثلاثة أيام . ونزع من قلوب الناس الاطمئنان إلى النظم البرلمانية إذ بدا عجزها تماماً عن مواجهة الأزمة ، والخروج منها . ووضح هذا مادياً عندما بقيت إيطاليا بلا حكومة فى المدة ما بين ١٩ من يوليه حتى أول أغسطس ، وكانت حكومة (فاكتا) قد سقطت فأعلن موسولينى أنه يمنح الحكومة ٤٨ ساعة لتعيد هيبتها ، فإذا لم تنتفع بهذه المهلة فسيكون للفاشيست مطلق الحرية فى التصرف .

ثم عادت الإضرابات ، وحاول الاشتراكيون وقف حركة المرور ، والتغذية ، والإضاءة ، وانتهز الفاشيست هذه الفرصة ، ليثبتوا للناس أنهم قادرون على العمل ، وعلى إعادة الاستقرار إلى البلاد ، فتولى أفراد منهم قيادة عربات الترام ، والأوتوبيسات العامة ، وخلقوا من أنفسهم شرطة ، وأقاموا لها دورات ، وسلحوا أفرادها بالعصى ، والمسدسات ، وزجاجات زيت الخروع ، يسقونها قسراً لكل عامل يريد العودة إلى منزله مشاركة منه فى الإضراب .

وحاول (فاكتا) أن يؤلف وزارة جديدة فدمغه موسولينى بقوله : لقد سئمنا حكومات الرجال الذين يجمعون بين التهاون والجبن . فكان رد الملك أنه عرض عليه منصباً فى الوزارة ومنصبين آخرين لوزيرين فاشيستين (وزيرى دولة) ، وعدداً من وكالات الوزارات ، فرفض موسولينى وطلب أن يكون وزيراً للحربية والبحرية والعمل والأشغال العمومية .

ومد موسولينى المهلة للحكومة التى سبق أن منحها لها ، ثمانية وأربعين ساعة أخرى ، فردت الحكومة على ذلك بوضع المدافع على الطرق المؤدية (لروما) ، إذ كان الجو مليئاً بإشاعة واحدة هى أن الفاشيست يتهيأ للزحف إلى روما ، واقترح فاكتا إعلان الأحكام العرفية ، ولكن الملك رفض . كان من المستحيل على الملك أن يفكر فى تأليف وزارة يسارية ، ولم يكن هناك فى الجهة المقابلة للأحزاب اليسارية إلا موسولينى . وقد كانت العناصر المعادية لليسار قد مكنت

للفاشيست فى وظائف البوليس والحكومة ، وقد بذل فى سبيل ذلك رئيس الوزراء جيوليتى جهداً كبيراً عندما كان على رأس الحكومة .

ولما تأزمت الأمور فى النصف الثانى من سنة ١٩٢٢ ، أخذ الملك يفكر فى الحل ، على أساس ائتلافات مختلفة ، مؤملا أن ينجح فى الاستغناء عن موسولينى ، ولكن الملك استقبل (سيزار دى فيكى) عضو اللجنة الرباعية العليا للحزب الفاشيستى المكونة منه ومن ميشيل بانكى ، ودى بونو ، ثم إيتالو بالبو ، ثم عاد فاستقبله للمرة الثانية فى اليوم نفسه ، وتحدث معه فى تأليف وزارة ، برياسة (سلاندر) زعيم الأحرار ، على أن يكون للفاشيست فيها نصيب كبير ، ولكن موسولينى أبدى امتعاضه من هذا الاقتراح ، وكان الملك قد سمع من (دى فيكى) أن (دوق أوستا) ابن عم الملك زار موسولينى ، وتحدث معه ملياً ، بقصد اشتراك الدوق فى الزحف على روما ، وأن الدوق ، طاف على معسكرات الفاشيست فى مناطق متعددة ، فزالت البقية الباقية من تردد الملك فى دعوة موسولينى إلى الوزارة فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

ثم اتصل كبير أمناء الملك بموسولينى فى مقر قيادة الحزب فى ميلان ، تليفونياً ليدعوه إلى الوزارة ، ولكن موسولينى أبى إلا أن تصل إليه دعوة مكتوبة ، فتلقى البرقية التالية :

« السيد موسولينى المحترم .

« إن جلالة الملك يرجوك أن تحضر إلى روما حالا ، لأن جلالته ينوى تكليفك بتشكيل وزارة . تحياتى » .

جنرال جياردينى

وذهب موسولينى إلى روما . . لا على رأس فرق زاحفة ، كما يتصور أكثر الناس ، بل إنه ذهب إليها فى عربة نوم فى قطار ، وكان معه فى العربة الأربعة الكبار من أعوانه ، بيانكى ، ودى بونو ، وفيكى ، وبالبو . وفى مساء ٣١ أكتوبر وصل موسولينى إلى روما ، مرتدياً قميصه الأسود ، ولما دخل إلى حضرة الملك قال موجهاً الحديث إلى جلالته :

« إنى لأرجو أن تغفر لى جلالتكم ، مثولى بين يديكم فى القميص الأسود ،

٣١٠
إذ أني عائد من معركة ، أحمد الله أنها لم تكن دموية . إني أقدم إلى جلالتكم إيطاليا التي أنجبت فيتوريو ڤنتو ، وقد تجددت ، بانتصارات جديدة . وإني خادم جلالتكم الأمين » .

* * *

الفصل السابع
ما هى الفاشيستية ؟

عندما أعلن الشيوعيون الإيطاليون بيانهم فى ميلان سنة ١٩١٩ ، كانت جموع العمال تسير فى شوارع روما ، وفى غيرها من مدن إيطاليا هاتفة « ليحى لينين »

فعلق موسولينى على هذه المظاهرات ، وعلى هتافها بقوله :

« بضع عشرات من الآلاف من البروليتريا ، اخترقت شوارع المدينة الغاضبة وهم يهتفون « ليحى لينين » وليس فى هذا ما يدهش . فإن هؤلاء هم الشعب ، وهم الجموع . إنهم فى حاجة إلى بطل ، إذ لا بد لهم من بطل يؤمنون به ، فالأبطال القدماء الذين اختفوا لا يمكن أن يبقى مكانهم فارغا ، ولكنا نحن الذين نؤمن بالذاتية الشخصية ، لا نستطيع أن نحنى رءوسنا للآلهة الجدد . فنحن لا نتردد فى انتقاد عقيدة الإلهام الجديد ، كما نرفض أن نسجد أمام الأيقونات المقدسة ، التى تتعبد لها الجماهير . فنحن ، جد محافظين ! نعم ، أنه لا تعنينا ابتسامة الاحتقار التعالى التى ترتسم على شفاه المتعالين الذين يعتقدون أنهم يحيطون بكل شىء خبراً ، ولكنا نؤمن فى غريزة المحافظة التى تلتصق بها الحضارة الغربية ، والتى تتشبث بحقوق الأفراد ، والتى تعلى من قدر حريتهم ، حرية أذهانهم التى لا تعيش فى العقول وحدها ، هذه الحرية التى لا يمكن لطغاة روسيا سحقها ، كما لم يتيسر لطغاة بروسيا دوسها بالأقدام »

« إن الجماعة الإنسانية التى تقيمها الاشتراكية كنموذج للجماهير المغرر بها ليست سوى إحياء لبربرية القرن الحادى عشر » .

ثم قال :

كانت تسود فى أوربا الشرقية ، قوة ، تدعم كل إنكار للحقوق الإنسانية ، ولكن الحرب ، هدمت هذه القوة من أساسها ، فاختفت من الأفق عائلة حاكمة ، كانت محلا لعبادة الملايين ، اختفت كما يختفى السحب المتبدد أمام أشعة الشمس ،

ولا ينقص من فرحتنا بهذا الاختفاء ، أن الحكام الجدد يستعملون السوط وحبل الجلاد ، فإن ذلك لا يحجب الحقيقة ، حقيقة أن أسرة رومانوف قد زالت .

« ولكن هل التقلصات التى هزت جسم روسيا ، عند سقوط هذه الأسرة ، هى هزات المخاض التى تسبق نظاماً جديداً أفضل ؟ ثم إلى أى أتجاه، يتجه هذا النظام الجديد ؟ إنه لا يتجه حتما إلى الاشتراكية ، فإن (لينين) نفسه أقر فى نهاية سنة ١٩٢٠ ، بأن الأسس الاقتصادية بالجمهورية اشتراكية لم تتوافر بعد ، وقد أضاف لينين إلى قوله هذا أن الشيوعية تسير إلى طريق الفشل . . وأن الاحتمالات فى روسيا ، لا تنبىء عن قيام شيوعية ، بل عن قيام رأسمالية . إن الطبقات الرأسمالية تتقدم فى صفوف متراصة نحو أرض الميعاد ، بحيث ستصبح روسيا فى عقود قليلة من الزمن ، واحدة من أكبر قوى الإنتاج فى العالم » .

وتقول مرجريت سرفاتى ، مؤلفة ترجمة حياة موسولينى ، إن موسولينى ، كان يعارض زملاءه الذين كانوا يقولون إن التجربة الشيوعية ، لن تعمر ، وكان يقول : لا بل ستبقى ، إنها بقيت بالفعل زمناً »

وتقول مرجريت سرفاتى أيضاً إن موسولينى قاد بحسم قاطع رداً على سؤال، هل يمكن أن تصلح الشيوعية فى إيطاليا بكلمة واحدة هى (لا) وقال إن الشيوعية قامت فى روسيا ، وستبقى محصورة فيها فإن روسيا شكلت نفسها ومواردها الحيوية للنظام الشيوعى أو ربما العكس ، يعنى أن الشيوعية عدلت وشكلت من نفسها بحيث تلائم روسيا وأخلاق الروس . ويضيف مو سولينى أن القدر لا يكف عن السخرية ، وأن التاريخ هو الذى يكشف سخرياته لنا ، فإن كروموبل الثائر على شارل الأول أنتجت ثورته شارل الثانى ، كما أنتج نابليون ، لويس الثامن عشر ، ومن سخريات القدر هذه أن الشيوعية أنتجت الرأسمالية فى روسيا .

وآخر الأمر ، الشيوعية هى فى رأى موسولينى ، هى الوباء ، وأنه لا يكفى أن يكون الوباء بعيداً عنها ، لنطمئن ، بل يجب أن يكون الجميع مستعدين لمقابلة الوباء ، والوقوف ضده ، ولو بدا أننا أبعد عن أن ينالنا بخطر ؛ ولذلك فإن بريطانيا يجب أن تعلم أنها مدينه للفاشيستيه بالكثير ، لأن الفاشيستيه تقاوم لها الشيوعية ، وتحميها منها . ولكن موسولينى يقول إن مكافحة الشيوعية ، ليست كل شىء فى

برنامج الفاشيستية . بل إن عداوته لها ، ليست عداوة فى رأيه ، للأفكار الاشتراكية ويذكر مؤرخوه أنه قال حينما طرد من الحزب الاشتراكى .

« أنتم تتصورون أنه يمكنكم أن تقذفوا بى إلى الخارج . ولكنى اشتراكى وسأبقى اشتراكياً . ومعتقداتى لن تتغير أبداً ، فإنها مغروسة فى عظامى » وقد وضع موسولينى قواعد ، أصبحت أسس تشريعاته ، وقال فى بيان هذه الأسس .

« إنى غير منتو الدفاع عن الرأسمالية ولا الرأسماليين ، فللرأسماليين ، كغيرهم من البشر ، عيوبهم ، ولكن كل ما أقوله هو أن احتمالات نفعهم لم تستنفد بعد ، وقد تمثلت الجماعة الإنسانية قدراً من المبادئ الاشتراكية التى أمكن تطبيقها من غير أن يسفر هذا التطبيق عن نتائج ضارة . لقد حملت الرأسمالية عبء الحرب الهائل ، واليوم ، لا تزال الرأسمالية قادرة على حمل أعباء السلام . وليست الرأسمالية مجرد تجميع للثروة ، بل إنها تعميق ، واختبار ، وتنسيق للقيم التى أبدعها عمل القرون . لقد لاح فى سموات روسيا الباردة . نجم الشيوعية الشاحب ، وهو مذهب ، كان يظهر دائماً ، فى فترات تعاسة الأمم العظيمة ومع ذلك فإن الشيوعين يستعينون بأسماء فاند ربلت وشتين ، ويطبقون مبادئ معروفة بأنها مبادئ الرأسمالية . على أن الكثيرين يعتقدون — وأنا واحد من هؤلاء الكثيرين — أن الرأسمالية تكاد تكون فى بداية حياتها ، فإن مساحات كبيرة من آسيا ، وأفريقيا ، بل وفى أمريكا واستراليا ، لا تزال فى حاجة إلى التعمير والتقدم . ومن ثم ، فإن الرأسمالية وقد بدأت فى أوربا ، ستنتشر لتعم العالم بأسره . وإن أكتاف البروليتريا ، لم تصبح بعد قوية إلى الحد الذى يمكنها من أن تنهض بالعبء الفادح ، عبء تحضير مثل هذه المناطق التى لا تزال فى حاجة إلى التعمير . فعلى العمال أن يتبعوا خطى تقدم الرأسماليين ، بل عليهم فى لحظات معينه بذاتها أن يهادنوهم ، ليقتسموا سوياً المغانم ، مزيحين جانباً ، طفيليات اليمين واليسار معاً ، الذين يعيشون على هامش الإنتاج » .

وانتقل موسولينى إلى ملكية الدولة لأدوات الإنتاج :

« ملكية الدولة ! إنها لا تقود إلا إلى سخافات ، ونتائج مروعة ، فإن ملكية الدولة تعنى احتكار الدولة ، وتركيزها فى حزب واحد وأتباعه ، وهذه حال ،

لاتحقق غير الخراب والإفلاس للجميع : العمال ، وأهل المدن ، والإنسانية .

« وما أقوله ، ليس سوى الحقيقة التى أثبتتها تجربة روسيا ، حيث أنتجت ملكية الدولة ، إرهاباً مركزاً . فالملكية بعد أن أممت ، ذهبت إلى أيدى جماعات (وأفراد، هيئات الحزب الشيوعى وزعمائه) حقاً ! إن تاريخ الاشتراكية ، الملىء بالتناقض فإن الثورة الشيوعية الأولى ، ثورة روسيا ، أثبتت أولا عجزها ، ثم أعادت الجماعة الإنسانية إلى الرأسمالية »

وإذا كانت الشيوعية — فى رأى موسولينى — قد سقطت كمثل أعلى ، فإن الحرب كشفت أيضاً ،عن إفلاس الأساليب الديموقراطية ،فإن بعد النظر ، والتهيؤ صفتان ، لا يمكن توقعهما من مجرد أعداد من البشر ، هما صفتان للنخبة المختارة من الأفراد . فالفاشيستية تنطوى على احتقار للبرلمانية ، أى لما تسميه (آلات الكلام) ، (وللنظم الانتخابية) التى تعطى المكانة الأولى لمجرد العدد . فمنذ اللحظة الأولى ، كانت الفاشيستية تؤمن (بالأرستقراطية) ، ولكن الأشراف وأصحاب الصدارة ، فى ظل الفاشيستية هم (الرجال العائدون من الخنادق) أى المقاتلون .

وتبدو النزعة الأرستقراطية عند الفاشستيه حتى فى الخطبة الأولى التى ألقاها موسولينى فى الاجتماع الأول لهذه الحركة فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١٩١٩ فقد قال :

« إن هذا الاجتماع ، اجتماع الثالث والعشرين من مارس ، يقدم تبجيله ، لذكرى الذين سقطوا ، وللذين جرحوا ، وللذين قاتلوا فى سبيل بلادهم وفى سبيل الإنسانية ولكل هؤلاء الذين أعلنوا استعدادهم لأن يكونوا بكيلتهم فى خدمة إعادة بناء نظام ، تعهدت بإقامته جماعة المحاربين للقدماء . ونحن الآن أكثر إيماناً ، بما أخذنا على عاتقنا تنفيذه ؛ ولقد أسفرت الحرب عن نتيجتين إحداهما سلبية والأخرى إيجابية . أما السلبية منهما ، فهى سلب القوة والسلطة من عائلة هو هنزلرن (الألمانية) والهابسبرج (النمساوية) أما الإيجابية ، فهى أنه لن يكون فى مقدور شعب فى الدنيا ، أن يشهد انتصار الرجعية » .

ثم أضاف فى خطبة الاجتماع الأول :

« إن اجتماع الثالث والعشرين من مارس يعلن أنه ضد الاستعمار الذى تفرضه

الدول الأخرى على حساب إيطاليا الإمبريالية الإيطالية ومثل عصبة الأمم التى تفترض نظريتها حق كل دولة من أعضائها فى النمو الكامل . وهذا النمو الكامل فى حالة إيطاليا يستدعى امتداد حدودها إلى الألب ، والأدرياتيك ، مع ضم فيومى ودالماشيا »

« لشعوب أخرى مستعمرات ، يحتفظون بها ، بغير اعتبار لما يقوم فى بلاد غير بلادهم من وجهات النظر بشأن هذه المستعمرات ، مع أن الإمبريالية ، هى فى حقيقتها مبدأ حياة للأمم المتوسعه (التى ينمو عدد سكانها) . بيد أن صور الإمبريالية تختلف بعضها عن بعض فى وسائلها فحسب ، والأسلوب الذى سيقع عليه اختيارنا ، لن يكون أبداً أسلوب البربرية والهمجية »

ثم أضاف :

« فى الانتخابات القادمة ، أيًّا كان موعدها ، سنحارب بكل سلاح تلتقطه أيدينا ، هؤلاء المرشحين الذين يقفون فى صف الحياد أياً كانت صورته »

ثم قال :

« إنى لا أنظر إلى الثورة كانفجار ، أو نوبة صرع ، فإنى أعد أمة لا ثورة بغير هدف تهدف إليه ، وفوق كل شيء بأسلوب فى العمل تنهجه ، ولقد نطقت فى سنة ١٩١٣ بعبارات غلت لها الدماء فى عروق بعض الاشتراكيين البارزين . لقد قلت لهم إن البروليتريا فى حاجة إلى حمام دم . ولقد أخذت البروليتاريا هذا الحمام ، الذى دام ثلاث سنوات وقلت إن البروليتاريا فى حاجة إلى يوم مجد ، ويوم نفخر بذكراه ، فكان لها آلاف من هذه الأيام . وقلت يجب تنقية حقل البروليتاريا من جذور فاسدة ، فإن كثيرين من أعضائها فسدوا وانحرفوا . أما اليوم فالبروليتاريا فى غير حاجة إلى تطهير . فاليوم نستطيع أن نؤكد لأنفسنا أن الثورة لن تكون مصدراً لفزع لنا ، لأننا نعيش فعلا فى قلب ثورة . . وفى التحول الهائل الذى تحقق ، يمكننا أن ندفع التقدم . فإذا سارت الدنيا بخطى بطيئة فى طريق التطور ، أمكننا أن نستحث هذه الخطى ، وإذا اندفعت إندفاعاً غير محدود ، كان فى مقدورنا أن نضع عليه الضوابط .

« إنه لمجد الحياة أن يكون الإنسان ثوريًّا فى حقبة معينة من حقب التاريخ

ولكن حينما يكون المتحدثون باسم الثورة مجرد برابرة أو طفيليين ، فالواجب يقتضينا ألا نتردد فى الوقوف فى وجوههم دون أن يثنى عزمنا الخوف من اتهامنا بالرجعية »

« وعندى معيار أميز به بين الرجعية والثورية ، وهو معيار لا يخطئ . فكل ما من شأنه أن يضيف إلى مجد إيطاليا فهو جدير بتأييدى . وكل ما يؤدى إلى الحط من الشعب الإيطالى فهو خليق بالمعارضة »

وعاد موسولينى يتحدث عن الاشتراكية ، وقد ضغط بقبضة يده على أعلى قبعته فى حماسة وهو يقول :

« لا . . لا . . لن أخضع بسيادة الجماهير . فالجماهير جديرة بأن تتلقى تعليماً وتربية ، لا أن نتملقها ، أو ندع دجاجلة الشعوب يلعبون على عوطفها . ونحن (الفاشست) يجب أن ننصب أنفسنا مربين ، لا يبحثون عن أيسر السبل للنجاح ، ولا الشهرة بين الجماهير ، ولا المرتبات ، ولا أصوات الناخبين . إن عدد الاشتراكيين هائل ، ولكنهم ليسوا سوى أعداد ، وهم لا يمثلون سوى الوزن الثقيل لخيال ينتسب إلى ما قبل التاريخ ، خيال بلا روح .

« كذلك لم ينجح الدجاجلة الذين يضيفون إلى وعودهم (التى يخلبون بها عقول الناس) الوعد بالجنة . . فإن (دون ستروزو) القس الصقلى يستطيع بدوره أن يتكلم عن الجنة . ولكنه لن يحقق شيئاً من تلك الجنة على هذه الأرض .

هذه لمحات من آراء موسولينى تلقى ضوءاً على الأساس الفلسفى الذى تقوم عليه الفاشيستية ، على أنه بعد أن استقر موسولينى فى الحكم طويلا ، أصدرت المجلة الشهرية (راسينا إيتاليانا) ، مجلداً بعنوان « الدولة الموسولينية وما حققته الفاشيستية » وقد ترجم هذا المجلد إلى الإنجليزية تحت عنوان « الفاشيستيه ماذا ولماذا ؟ » وقد كتب (الفرد روكو) وزير العدل فى حكومة موسولينى فصلا بهذا العنوان ، وقد رأينا ترجمة الجزء الأكبر من هذا الفصل ، لأنه يحتوى على بيان كامل لوجهة نظر الفاشيستيه إلى دور الدولة وأساسها الفلسفى فى النظرية الموسولينية ، قال الكاتب :

إن الدولة الفاشيستية فى مظهرها ، وفى جوهرها ، هى النقيض من الدولة الليبراليه الديموقراطية التى أسرعت بإيطاليا إلى حافة الهلاك . وبذور هذه الدولة

ضاربة فى النظريات التى حققتها الثورة (الفاشيستية) بحذافيرها فى مثابرة لم تهن قط .

« فما هى الفكرة السياسية للدولة حسب هذه النظريات ؟ هى خلق دولة ذات سيادة حقيقية تعينها على أن تسود جميع القوى فى الوطن ، وفى نفس الوقت تكون على صلة دائمة بالجماهير ، تقود مشاعرهم ، وتربيهم ، وترعى مصالحهم .

« فهذه الفكرة هى الفرض المضاد للديموقراطية والأفكار الليبراليه التى تنبع كلها من مذاهب فلسفة غريبة عن إيطاليا ، مذاهب فردية تعتبر الفرد غاية الجماعة ، كما تعتبر الجماعة مجرد تجمع أفراد جيل واحد ، وأن الجماعة لا أهداف لها هى فأهدافها هى أهداف الأفراد الذين يكونونها . وبذلك لا يكون للدولة وظيفة أساسية سوى التنسيق بين إرادات أعضائها ، لتمنع تغول إحداها على الأخرى . فطابع الدولة الديموقراطية الليبرالية هو افتقادها الشخصية والمثل الأعلى ، وافتقارها إلى إرادة لها بذاتها ، فهى دولة سلبية . وهى بهذه الخصائص عاجزة عن قيادة القوى الحقيقية التى ينطوى عليها الشعب ، ومن ثم فإن هذه القوى ، تتولى تنظيم نفسها بنفسها ، تعيش وتزدهر خارج الدولة ، وتنتهى إلى السيطرة عليها .

« ولما كانت الدولة فى الواقع ، بغير طابع خاص بها ، مميز لها ، فلم يعد مناص من أن تتلقى الإنطباع من قوى خارجة عنها ، ولكل هذه القوى كامل الحق فى تشكيل الدولة حسب روحها وإرادتها ، والنتيجة لهذا كله هو شلل الدولة ، وتنبذها المألوف الذى تباشر فى ظله وظيفتها اليومية ، ذلك لأنها تفتقر إلى المثل الأعلى والبرنامج الذاتى افتقاراً يدفعها إلى اقتراض هذا المثل وذلك البرنامج من العناصر المكونة لها ، مما يواجهها بالمذاهب المتعارضة التى تمزقها .

« وقد كان لانتصار الفكرة الديموقراطية الليبرالية ، آثار أشد خامة فى إيطاليا منها فى بلاد غيرها . فقوام الدولة الديموقراطية الليبرالية ، على الرغم من كونه قواماً رخواً ، فإنه يحتاج فى بقائه إلى ظروف ، لا تتوافر فى بلادنا .

« وقد ازدهرت الدولة الديموقراطية الليبراليه خارج إيطاليا ، ولا سيما فى الدول الإنجلوسكسونية ، وأثمرت ثماراً يانعة ، ذلك لأن الظروف الاجتماعية والسياسية انطوت على ضمانات لنجاح الدولة لم يجدها هذا الطراز من الحكم فى إيطاليا ؛ ففى

الدول الإنجلوسكسونية ، كذلك فى فرنسا ، استقرت تقاليد وطنية عظيمة ، كما أن فكرة الدولة وسيادتها عززت بفضل كفاح قرون ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الروح الفردية والتفكك الجرمانى ووجها بتربية وطنية حازمة وشديدة ، ومن ثم فإن الفرد وإن كان يتمتع نظرياً بكامل الحرية من حيث علاقته بالدولة ، إلا أنه يعرف من تلقاء نفسه ، كيف يضبط هذه الحرية فى حدود . وكل هذا لا يتوافر فى إيطاليا . ولا جدال فى أن التقاليد الرومانية ، التى جددتها بصورة باهرة ، الكنيسة الكاثوليكية ، كانت تستلهم النظام وإخضاع الفرد للدولة ، غير أن هذه التقاليد تبدو الآن بعيدة ، وقد غيرتها تغييراً كبيراً ، الروح الجرمانية الداعية إلى التفكك وعدم الترابط ، ثم فوضى القرون الوسطى ، والحكم الأجنبى ، وهذا الحكم الأجنبى على وجه خاص جعل الدولة تبدو لقرون طويلة كأداة للاضطهاد الأجنبى ، كما أثار فى صدور أفراد الشعب ، روح شك وعدم ثقة عميقة فى السلطة ، وميل إلى التمرد عليها . وهذه الروح لا يمكن تغييرها إلا بتربية سياسية متأنية ، وبنظام تضعه الدوله . ولكن الدولة الليبرالية — الديموقراطية كانت عاجزة روحياً ومادياً عن النهوض بهذا الواجب الذى كان جديراً بأن يوضع على رأس واجباتها جميعاً ، وأكثرها إلحاحاً عليها .

« ومن هنا ، بقيت الجماهير فى إيطاليا ، حتى بعد الاستقلال والوحدة ، مطوية صدورها على نفس الشك وعدم الثقة التى كانت تحملها للحاكم الأجنبى . وبسبب هذه الظروف ، كانت الدولة الليبرالية تلقى عناء فى المحافظة على كيانها ، وقد زاد ضعفها تبعاً لنمو الحياة الوطنية ، ولانبثاق قوى جديدة فى البلاد . وقد استطاعت الصفات الأصلية فى الجنس الإيطالى ، والتنظيم العسكرى ، حماية الدولة خلال الحرب ، ولكن الاضطرابات العنيفة التى تلت الحرب ، تركت الدولة أكثر ضعفاً ، وأكثر سلبية مما كانت فى أى وقت مضى ، وأقل ما تكون حيوية . وتبعاً لعوامل الضعف التى اعتورتها من كل جانب ، لم تستطع الوقوف على قدميها . إنها انهارت فعلا ، مما أدى عقب الحرب إلى قيام حالة من الفوضى شاملة ، أصبحت الدولة فيها ، خيالا أوظلا لنفسها ، فراحت تنظر وهى مكتوفة اليدين إلى الصراع بين طبقات الشعب الذى لم يكن فى مقدورها الحد منه فضلا عن القضاء عليه .

« إلا أن هذه الفترة المؤلمة من الفوضى ، انتهت بمجيء الفاشيستية ، التى إذ أعادت النظام إلى البلاد ، أصبحت ملزمة بأن تعيد تشكيل الدولة تبعاً لمذهبها الأساسى ، الذي هو فى جوهره اجتماعى ، وبعبارة أخرى أكثر جلاء أن المذهب الفاشيستى ضد الروح الفردية .

« الحق أن الفاشيستية مذهب متكامل ، تاريخياً ، ومعارض لمذهب الحرية التقليدى . وهو المذهب المادى الذى ينظر إلى الجماعة كمجموعة ذرات . فالجماعة ، فى النظرية الفاشيستية تعتبر كائناً خالداً ، لاسبيل إلى القضاء عليه . فحياته ، تتجاوز حياة الأفراد الذين ليسوا سوى عناصره العابرة . فهؤلاء الأفراد يولدون ، وينمون ، ويموتون ، فيحل محلهم غيرهم ، بينما تحتفظ الجماعة بشخصياتها ، وبذمتها الخاصة بها من الأفكار والمشاعر ، التى يتلقاها كل جيل من الجيل الذى سبقه ويورثها للجيل الذى يأتى بعده . وتبعاً لهذه النظرية الفاشيستية لا يمكن أن يكون الفرد هدف الجماعة . فالجماعة لها دواع حياة وبقاء خاصة بها ، ولها دواعى التمدد والتكامل . وهذا الدواعى ، مستقلة عن دواعى الأفراد الذين يكونون تلك الجماعة . والجماعة وهى بسبيل تنفيذ أغراضها الخاصة بها ، لا بد أن تتخذ من الأفراد المكونين لها ، وسائل فى هذا التنفيذ . وهذا يعكس تماماً المعادلة التى قال بها كانت وهى : « الفرد هو الغاية ، ولا يمكن اعتباره الوسيلة إلى غاية » والدولة — التى هى التنظيم القانونى للجماعة — فى نظر الفاشيستية كائن مستقل عن المواطنين الذين يكونون أجزاء منه ، فإن لها حياتها الخاصة بها ، ولها أهدافها العليا التى تسمو على أغراض الأفراد ، ولهذا فلا بد من إخضاع الأفراد ، لتلك الأهداف .

« ومن هنا كانت الدولة الفاشيستية ، هى الدولة التى تأخذ على عاتقها إنضاج الكائن القانونى للجماعة وإكماله ، والوصول به إلى أعلى درجات القوة والتماسك . فليست هى إذن سلبية ، كالدولة الحرة الليبرالية ، فإن لها فى كل حقل من حقول النشاط الجماعى رسالة تؤديها ، وإرادة تنفذها .

« وللدولة الفاشيستية نظامها الأخلاقى ، ودينها ، ورسالتها السياسية ، إلى العالم ، ووظائفها القانونية وأخيراً واجبها الاقتصادى . ولذلك فإن من حق الدولة الفاشيستية أن تدافع عن مبادئها الخلقية ، وأن تشرب بها النفوس وهى لا تستطيع أن تغمض

النظر عن المشكلة الدينية بل عليها أن تدعو إلى الدين الذي تعتبر أنه الدين الحق وتدافع عنه وهو الدين الكاثوليكي. كما أن عليها أن تؤدي للعالم رسالة الحضارة التى ألقيت على عاتق الدول ذات الثقافة العظيمة والتقاليد الرفيعة . وبذلك يجب أن تجعل التوسع السياسى والاقتصادى والثقافى خارج حدودها ، هدفاً من أهدافها ، كما أن من واجباتها أن توزع العدالة بين مختلف الطبقات ، وأن تحد من تطرف أي طبقة فى الدفاع عن مصالحها فى مواجهة مصالح الطبقات الأخرى . وأخيراً أن عليها أن تبذل الجهد، لزيادة الإنتاج والثروة ، مستعينة بالحافز الفردى القوى : حافز المصلحة الشخصية . كما أن لها أن تتدخل — عند الاقتضاء — بمقتضى حقها فى المبادأة .

« ولما كان للدولة أن تحقق غاياتها الخاصة بها،التى تعلو على غايات الأفراد ، فإنه تبعاً لذلك ، يكون لها الحق فى ممارسة سلطات أعلى . فسلطة الدولة يجب أن تسمو فوق كل قوة أخرى . وبعبارة أخرى أن الدولة يجب أن تكون السيد المطلق كما يجب أن تهيمن على جميع القوى فى البلاد ، وأن تنسق بين هذه القوى ، وتدعمها ، وتوجهها نحو الغايات العليا للحياة القومية .

« ولقد تحققت هذه الفكرة للدولة فى كل إجراء تشريعى صدر عن الدولة ، ولكن يجدر بنا أن نقصر كلامنا على التشريعات الأساسية التى حققت التغيير .

« لقد بدا تدهور الدولة ، وخصوصاً فى إيطاليا ، بسبب تمتع المجلس النيابى بسلطات مسرفة على حساب السلطة التنفيذية .

« والحق أن النظام البرلمانى المطلق أو المتطرف الذى شهدته إيطاليا فى السنوات العشر الأخيرة السابقة على الثورة الفاشيستية ، لا صلة له بالدستور الأصيل للمملكة الإيطالية ، لأن ذلك الدستور كان دستوراً بسيطاً ، يمارس فى ظله الملك، والسلطة التنفيذية ، سلطات السيادة ، بوصف الملك رأس الدولة ، بينما خول المجلس النيابى الوظيفة التى تأتى فى المرتبة التالية ألا وهى وظيفة التعاون مع مجلس الوزراء ورقابته . ولكن التطبيق الدستورى، على مدى السنوات المتلاحقة ، عدل من الدستور ، مانحاً على الدوام سلطات جديدة للبرلمان ، المجلس المنتخب . ومثل هذا النظام ، يمكن أن يسير ،ما توافرت فى البرلمان أغلبية متجانسة على وجه

من الوجوه ، ولكن الأزمة تطل برأسها ، عندما لا تتوافر هذه الأغلبية .

« وقد أصبح المجلس التشريعي فعلا، مجموعة من الأقليات ، وذلك بعد أن أدخل قاعدة التمثيل النسبي على نظام الانتخاب ، وبذلك استعصيت الأزمة على الحل ، واختفت تماماً فكرة أن الدولة وحدة عضوية متينة ، تحت رياسة موحدة ، فأصبح فى مقدور كل فرد أن يسلك الطريق الذى يأمر به حزبه الذى يتلقى منه الأوامر والأفكار معاً ، وقد نجم عن ذلك أن منيت الحكومة بشلل أعجزها عن أداء وظائفها .

« ولكن وحدة الحكومة أعيدت — على أسس تختلف عن أسس الماضى ، على يد الفاشيستية فاصبحت أكثر فعالية وأعظم شمولا .

« وحسب التطبيق الدستورى القديم ، لم يكن مجلس الوزراء ، ليعنى خلق وحدة فى العمل والسياسة . بل إن التضامن الوزارى ، الذى يؤدى إلى مسئولية كل وزير ، عن كل ما يعمله الوزراء الآخرون ، والذى كان مفروضاً أن يؤدى إلى دعم الحكومة ، أصبح مصدراً لضعفها ، ذلك لأنه أدى إلى مضاعفة نقط الضعف فى الحكومة ، وجعل الوزراء ، أكثر تمرداً ، وأقصر عمراً . ولكن فى ظل الحكومة الفاشيستية ، حقق مجلس الوزراء وحدة فى السياسة والعمل ، تحت قيادة رئيس الحكومة الحازمة . وقد هجرت الفكرة القديمة ، فكرة التضامن الوزارى ، لأن هذه الفكرة ، تفترض وجود خلاف فى التطبيق والعمل بين الوزراء وبذلك أصبحت غير ذات موضوع ، ما دام أنه فى ظل الحكومة الفاشيستية ، لا توجد سوى سياسة واحدة ، وبعبارة أخرى حينما تتوحد خطة العمل . ولكنه بقيت المسائل الفنية وحدها ، خارج هذه الوحدة ، إذ أنه فى هذه المجالات يمكن أن يقوم بالعمل وزراء مختلفون. فوظيفة رئيس الوزارة الدستورية ، الذى هو الرئيس الحقيقى للحكومة ، ذات أهمية خاصة . فقد زالت من الوجود تماماً الآثار التى هى من خصائص النظام البرلمانى ، الذى كان يجعل من الوزارت المختلفة أقساماً منفصلة تمام الانفصال الواحدة منها عن الأخرى ، كما كان يجعل من كل وزير ، ممثلا لسلطة قائمة بذاتها ، ومستقلة عن بقية السلطات أى بقية الوزارات ؛ فلكل وزير أهدافه السياسة والاقتصادية الخاصة ، فإنه لابد أن يوجد على رأس الدولة شخص واحد ، وليس مجلس الوزراء ، ومع ذلك يبقى

مجلس الوزراء ، كجهاز استشارى ، على أكبر درجة من الأهمية ، ولكنه بسبب طبيعة تكوينه لا يمكن أن يكون المدير الفعال للحياة السياسة للبلاد . والقانون الذى نحن بصدد الحديث عنه ، حرر الحكومة من الاعتماد على البرلمان . ولقد قامت الحاجة إلى البرلمان ، حينما كان حق الانتخابات مقيداً ، وكانت سلطات الدولة ، فى الواقع ، فى يد أقليات بعينها من البورجوازية المثقفة . فهذه الأقليات التى استأثرت بالسلطة ، وبحق الانتخاب ، أصبحت هى القوة الحقيقية الوحيدة فى البلاد ، ذلك لأن الحياة الاجتماعية كانت غاية فى البساطة ، ولأن المصالح المتعارضه للطبقات المختلفة كانت محدودة ؛ أما الجماهير فقد نأت عن الصراع السياسى ، لأن تفكيرها لم يكن سياسياً .

« ولكن الموقف تغير حينما دخلت الجماهير إلى الحلبة دفاعاً عن مصالحها . ذلك لأن المجلس النيابى أو مجلس العموم أصبح مجرد تمثيل عددى للناخبين ، دون أن يكون تعبيراً دقيقاً عن القوى الحقيقة التى تنطوى عليها البلاد وبالتالى لا يمكن أن يكون انعكاساً صادقاً لحالة الشعب .

« ذلك لأنه يوجد فى الوطن قوى حية ، لا يمثلها المجلس النيابى ، أو لا يمثلها بالقدر المتناسب مع قيمتها الحقيقية ، لأن قيمتها العددية ، لا تتفق مع تلك القيمة (بمعنى أن أفرادها قليلون ، وإن كانوا ذوى أثر عظيم فى حياة مواطنيهم) . وإن تقدير القوى الحقيقية فى البلاد ، والتعبير عنها تعبيراً صادقاً لمن أعقد الواجبات ، وهو أبعد ما يكون عن المقياس العددى (الذى يعتمد على النظام النيابى) .

« ولما تحررت الحكومة من تبعيتها للبرلمان فقد عادت إلى المبدأ الدستورى القائل بأن الحكومة تصدر من سلطة الملك ، وليست من البرلمان ، وإن الوزراء يجب أن يتمتعوا بثقة الملك ، المعبر الأمين عن حاجات الشعب ، فإنه لم يعد ممكناً — بعد أن وصلت حياة الشعب العظيم إلى ما وصلت إليه من التعقد — أن يترك أمر الحكم لممثلين منتخبين . فإن مجلساً يمثل مصالح متضاربة ، إذا منح الهيمنة والأسبقية فى مزاولة سلطة السيادة ، فإن المصالح التقليدية الدائمة للمجتمع ، ستحجبها عن الأنظار ، مصالح الأفراد والجماعات ، والطبقات ، وبهذا تستحيل سيادة الدولة إلى شبح .

« والقانون الذى يخول السلطة التنفيذية الحق فى إصدار لوائح تشريعية ووضع الحد من نشاط الحكومة التشريعى ، ونشاط البرلمان فى نفس المجال . فإن الحد من حقوق السلطة التنفيذية كان طابع التفكير قبل مجىء الثورة الفاشيستية . وقد يكون مرد ذلك تحيف البرلمان لسلطات الحكومة التنفيذية وقد يكون سببه شيئاً آخر ، ولكن الحقيقة التى تبقى بعد كل شىء هى أن سلطة التشريع امتدت بحيث تجاوزت كل حد معقول ، بينما كان هناك انتقاص للسلطة اللائحيه للحكومة . وترتب على ذلك أننا وصلنا إلى نتيجة غريبة ، إذ بينما يجرى التطور السريع الحديث الاقتصادى والاجتماعى ، مقتضينا من الحكومة ، تطوراً مماثلا فى نشاطها ، ومقتضياً أن تكون فى عملها أكثر يقظه وفعالية ، فإن حرية السلطة التنفيذيه فى العمل تضيق أكثر فأكثر . ولذلك كان من المتعين إعادة سلطة الحكومة فى إصدار اللوائح التشريعية إلى نطاقها القديم ، حتى يتيسر للحكومة أن تمارس نشاطها فى ميدانه الواسع . وفى الوقت نفسه سدت فى الدستور الثغرات التى كان مرجع انطوائه عليها ، إنه وضع ابتداء لدولة صغيرة ، فلما كبرت هذه الدولة فى وقت كانت تجرى فيه التطورات الاقتصادية والاجتماعية على مهل ، فأصبح من حق الدولة فى بعض الأحيان ، أن تمارس السلطة التشريعية حتى فى الميدان الذى كان مخصصاً أصلا للبرلمان .

« وبذلك نظمت الحكومة على أساس أنها جهاز الدولة الذى يسبق كل سلطة فيها ، والذى كتب له الدوام ، بحيث تكون له القوة فى الحفاظ على وجود الدولة الدائم ، فى أحرج لحظات حياة الشعب .

وبعد أن دعمت هيمنة الحكومة أى السلطة التنفيذية دعماً واضحاً بهذين القانونين ، فلم يبق إلا أن تتوج هذه الهيمنة بعض الإصلاحات الثانوية منها ما كان مثلا متعلقاً بوظائف مديرى الأقاليم . وبهذا الإصلاح أصبحت السلطة التنفيذية قادرة على أن تشع بنفوذ سلطتها إلى كل نقطة فى الدولة ، عن طريق مندوبيها وممثليها وبذلك أصبحت تهيمن على الحياة فى الأقاليم والمراكز ، بدلا من أن تترك نهباً للمطامع المحلية .

وقد تبع تنظيم السلطة التنفيذية ، فى شكلها واختصاصاتها وعلاقاتها بالسلطة التشريعية إعادة تنظيم البرلمان .

« فى الوقت الذى حاربت فيه الدولة الفاشيستية الفوضى الانتخابية ، وأصرت فيه على قيام دولة قوية ، فإنها لم يفتها مطلقاً تعرف أهمية وفائدة التعاون البرلمانى . نحن لا نؤمن بأن البرلمان هو الوسيلة الوحيدة التى تمكن الدولة من الاتصال بالجماهير ، والوقوف على مشاعرهم ، وتبين تأثراتهم ، وما يساور عقولهم . ولذلك فنحن قد رفضنا فكرة حكومة برلمانية ، وانفراد البرلمان بالسيادة ، وأيا ما كان الأمر ، فإنه لا جدال ، فى أنه لابد أن يبقى مكان — بين أجهزة الدولة الدستورية المختلفة — لهيئة منتخبة من أشخاص يمكن لهم أن يعبروا عن أفكار الناس السائدة فى مختلف الجماعات ، وأن يحسنوا الشعور بحاجات الدولة العظيمة ، وذلك بفضل الأصل الذى انحدروا منه ، والطريقة التى انتخبوا بها . وإنه لواضح ، أنه لم يعد محل — فى ظل الحكومة الفاشيستية — لنظام الانتخاب الذى تحتضنه الحكومة الليبرالية الديموقراطية . فالمبدأ الفاشيستى ينكر المذهب القائل بالسيادة الشعبية ، وهو المذهب الذى يجعل البرلمان من جهة الموطن الوحيد للسلطة والسيادة ، وبذلك يصبح الجهاز الأساسى للدولة ، ومن جهة أخرى يترك الانتخاب لأهواء الجماهير بينما الجماهير عاجزة عن خلق إرادة منبعثة منها ، وهى أكثر عجزاً عن اختيار مندوبيها الصالحين .

وتبعاً لقانون أساسى من قوانين الحياة الاجتماعية ، وهو القانون الذى يسميه (مين) (١) « قانون المحاكاة » ، فإن أية جماعة من الناس تميل لمتابعته والانقياد لإرادة عناصر مهيمنة منها ، يسميها (مين) بـ « الأرواح القائدة » .

« وإذا لم يتم تنظيم جهاز جيد للاختيار ، فإن الظروف تفتح الباب للعناصر الأقل استحقاقاً وجدارة لفرض زعامتها على الجماهير ، ذلك لأن ترك اختيار المرشحين والممثلين فى يد جهاز الانتخاب كلية ، يعنى ترك ذلك الأمر لإدارة بضعة قليلة من المتآمرين ، والذين يفرضون أنفسهم على الغير ، وإقامة أشخاصهم كمعلمين روحيين للجماهير . ولم يتحسن الحال فى الانتخاب حينما كان اختيار المرشح موكولاً للأحزاب القديمة ، فقد استقل بهذا الواجب أقل الأحزاب تحرزاً ، وأبعدها عن تحرى المصلحة الوطنية ، وأكثرها عداوة للدولة . وبهذا تحلل مبدأ سيادة الدولة ، إلى مبدأ سيادة أقليات ضئيلة من المتآمرين والدساسين

---

(١) Maine

والدجاجلة . هذا كله إلى جانب فشل النظام الانتخابى القديم فى تقدير وتعرف حقائق الحياة الاجتماعية التى يخفى علينا إن أخذنا عند تقديرها الأفراد ، فرادى غير مجتمعين، ولم نأخذهم ككل غير منقسم . فالجماعة الإنسانية، ليست مجموعة من الأفراد ، بل إنها مركب من جماعات متداخلة ومتعايشة تداخلا وتعايشاً عضوياً وهذه الكائنات الصغيرة ، فى المجتمع ، هى طابع الحياة القومية الذى يتكون فى ظلها الفرد ، والتى يستمد منها أساس حياته الروحية .

« وتبعاً للمذهب الفاشيستى الذى يقيم سيادة الدولة، فى مواجهة سيادة الجماهير ، فإن البرلمان والأعضاء المكونين له، هما من الأدوات الأساسية للدولة ، واختيارهم يجب أن يتم على أحسن الوجوه ، حتى يتيسر تحقيق الغرض من إقامة البرلمان ومن اختيار أعضائه .

« ولما كان الواجب الأول لمجلس النواب، هو التعاون مع الحكومة فى رسم القوانين ، وذلك بتفهم حاجات ومشاعر للجماعات المختلفة والجماعات العديدة التى ينطوى عليها المجتمع ، والتنسيق بينها ، وإقامة التوازن بين أعمالها وأفكارها وبين حاجيات الدولة التاريخية والرئيسية فإنه بات من الجلى أن إقامه نظام انتخابى صالح ، يعتمد أول ما يعتمد على تعاون وتأييد جميع القوى المنظمة فى البلاد ، بحيث يضمن اختيار النواب الذين يتمتعون بأكبر قدر من المعرفة بمصالح الشعب ، وبعبارة أخرى بحيث يضمن اختيار أشخاص سياسيين بأعلى مفهوم لكلمة « سياسيين » .

« ومن ثم فإن مشكلة التمثيل السياسى للشعب يجب أن تحل على تلك الأسس التى سلفت إليها الإشارة ، وقد تم بالفعل حلها بطريقة تناولت المشكلة من أصلها ، ومتفقة فى الوقت نفسه مع مفهوم الدولة الاشتراكية، ومتصلة اتصالاً وثيقاً بالتنظيم الجديد للمجتمع الإيطالى حسب القانون الصادر لحل مشكلات العمل .

« ولهذا القانون ــ مكملا باللوائح الخاصة بتنفيذه ومعززاً (بميثاق العمل) أهمية عظيمة، بل لعله واحد من القوانين القليلة التى منحت الدولة الفاشيستية مظهرها الخارجى الجديد ، والتى جعلت لسياستها معنى اجتماعياً صلباً .

« ولسنا فى حاجة إلى التوسع فى التحدث عن إصلاح النظام النقابى، فهو فى كلمة ، قد حل نهائياً وكلياً وببساطة، أضخم مشكلة من مشكلات عصرنا . فهو لم يحل فقط مشكلة التعايش السلمى بين الطبقات المختلفة فى المجتمع الواحد ، ولم يرسم فحسب حل المتناقضات الحتمية بين تلك الطبقات بطرق قانونية ، بل إنه حل مشكلة الوصول إلى مستوى أعلى فى الإنتاج ، والأسلوب الأسلم فى توزيع الثروة . فهذا التنظيم النقابى الجديد — على خلاف التنظيم القديم الذى نشأ خارج الدولة (أى خارج نطاق سلطتها وبغير علمها) ثم عاش خارجها ، هو جزء من الدولة ، فالنقابات الجديدة هى من الدولة ومن مقومات مكانتها ، ومن عناصر قوتها .

« ولكن بجانب هذا كله، فإن التنظيم التعاونى والنقابى للشعب ، منح المجتمع الإيطالى نظاماً جديداً، فلم يعد يقوم على أساس الثورة الفرنسية الفردى الذى يقسم المجتمع إلى ذرات ، بل إنه يقوم الآن على مفهوم عضوى للمجتمع ، (بمعنى أن أجزاء المجتمع المختلفة تترابط فيما بينها كترابط أعضاء الجسم الواحد) وهذا المفهوم لا يمكن أن يتجاهل الخلافات النوعية بين أجزائه المتعدده . والحق أن المجتمع الإيطالى أعيد بناؤه على أساس مهنى ، وبعبارة أخرى ، أعيد تنظيمه على أساس وظائفه الإنتاجيه التى يمارسها كل فرد فيه .

« وهذا الأسلوب أتاح تمثيل الشعب بطريقة جديدة ، فقد محيت الدوائر الانتخابية الإقليمية وحل محلها وحدة انتخابية وطنية ، وقد خفض عدد النواب ، واقتصر ترشيح النواب إلى التنظيمات النقابية المنظمة قانوناً ، وإلى منظمات أخرى دائمة ، أقيمت بقصد رفع المستوى الثقافى ، والتربوى للشعب ، وصيانة المصلحة العامة . وقد أسند الاختيار الدقيق للمرشحين إلى المجلس الأعلى للفاشيست ، وهو المجلس الأعلى الذى يضم وينسق مختلف مؤسسات النظام ، ويضمن اختيار أحسن الصالحين لممارسة العمل فى البرلمان ، بأداء وظيفة التعاون التشريعى والسهر على المصالح الكبرى للشعب، وإن الانتخاب الإجماعى تحت هذا النظام الجديد للانتخاب يكشف عن مدى التوافق بينه ، وبين ضمير الشعب الإيطالى بعد بعثه . فلم يعد المجلس المنتخب حسب القواعد الفاشيستيه ، هو هذا التعبير

القديم عن الإدارة غير المنظمة لمجتمعات متنافرة ، وجماهير متعددة ، إنه مجلس خلقته أصوات منظمة ، وقريبة من روح الشعب . إنه أداة واعية وفعالة لمصالح ذلك الشعب .

« إن الإصلاح الدستورى غير كلياً الأجهزة التقليدية والأساسية للدولة ، ولكن ثمة أجهزة أساسية أخرى لكل منها دورها الذى أضيف إلى دستورنا ، وهذه الأجهزة الجديدة لم يكن لها نظير فى الدولة القديمة ، ذلك لأن وظائفها ذات الأهمية الدقيقة ، كانت تخفى على عقلية الدولة الليبرالية الديموقراطية ، لإنها تتعارض تماماً مع نظرية تلك الدولة .

« فالدولة الفاشيستية وظائف هى غريبة عن الدولة الليبرالية، فالدولة الفاشيستية ترفض الموقف السلبي للدولة الحرة التى لا هدف لها لذاتها ، ولا وجود مستقل عن حياة الأفراد، والدولة الفاشيستية ترفض كذلك أن تترك القوى الاجتماعية فى البلاد لنفسها ، تتصرف على هواها .

« فالدولة الفاشيستية التى عرفت أن الجماهير التى بقيت أجنبية عن الدوله ومعادية لها ، قررت أن تجعل هذه الجماهير أقرب ما تكون إليها ، وأن تدمجها فيها ، وهى تؤدى وظائفها ورسالتها فى كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية ، مشجعة ومنسقة كل قوى الشعب ، التنسيق الذى يرفع الطاقات الوطنية إلى أعلى قدراتها ؛ وموجهة تلك الطاقات بصفة فعالة لتحقيق أهدافها، خدمة للازدهار الوطنى .

« فالدولة الفاشيستية هى دولة كلية، تتجمع فيها السيادة كاملة، ولكنها فى الوقت نفسه دولة شعبيه ، إلى الحد الذى لم تبلغه دولة أخرى ، وهى مع ذلك ليست ديموقراطية بالمعنى القديم للكلمة ، لأنها لا تقر بالسيادة للشعب، فهذه السيادة فى الدولة ، ولكنها دولة ديموقراطية لأنها على صلة وثيقة بالشعب ، وعلى اتصال مستمر به ، نافذة إليها بألف وسيلة ، قائدة له روحياً منسقة حاجياته، تعيش حياته ، ومنظمة بين مختلف وجوه النشاط الدينى يمارسونه فرادى .

« ومن السمات الأصيلة للدولة الفاشيستية المؤسسات التى تقربها من روح الشعب . ولقد ذكرت الإصلاح النقابى وبمقتضى هذا التنظيم دخلت الجماهير إلى الدولة

كجزء منها ، لا صاخبة ، ولا متناقضة ، بل سعيدة هادئة ، لقد حل محل الصراع الطبقى — أكبر لعنة تصيب الشعب — التعاون المتآلف بين أجزاء الآلة ، آلة الإنتاج . وقد انشئ لتنسيق القوى الاقتصادية المختلفة فى البلاد المجلس القومى للتعاون .

« ولكن ليس المجلس الاقتصادى وحده، هو الميدان الذى تعمل فيه ا لحكومة حسب المثل الذى تقيمه الدولة ، والذى يحتضن كل وجوه النشاط فى البلاد ، فإن الدولة يجب أن تترأس وتوجه كل نشاط قومى ، فى كل ميدان من ميادين الحياة . فكل مؤسسة سواء كانت سياسية أو روحية أو اقتصادية ، يستحيل عليها أن تعيش خارج الدولة .

« وقد أنشئت مجموعة من المؤسسات، أصبحت منها الحياة الفاشيستيه أكثر تطابقاً مع حياة الشعب ، والمؤسسة الأساسية بين هذه المؤسسات هى الحزب ، وهو مؤسسة ، سياسية بصفة أصلية ، الذى يوجه ، ويحرك ، كل نشاط آخر فالحزب يحيا حياة الناس ، ويسبر غور مشاعرهم، ويعاونهم فى مشكلاتهم وأزماتهم ، ويكون ضميرهم المدنى . وهو يتدخل دائماً ليقدم معونته المخلصة المجردة عن الغرض ، وحيثما تقع مشكلة وطنية ، فإن الحزب فى مكانه ، مستعد أن يقود وينير الشعب الإيطالى . والمنظمة العسكرية للشعب هى (المليشيا) أنقى تعبير عن الثورة ، وهى — بعد الحزب — تكون أقوى وسيلة اتصال بين الشعب والدولة ، ومن المليشيا تفرعت مؤسسة الجيل الجديد للشعب « الباليلا » ، ولم يفلت من أثر هذه المؤسسة الحكيمة المنظمة وجه واحد من وجوه الحياة الإيطالية ، ومن ثم يمكن القول إن كل الطليان يساهمون فى الحياة القومية؛ فإن أكثر من عشرة ملايين منهم ، مقيدون فى سجلات المليشيا والباليلا ، يبعث فيهم الحماسة إيمان واحد إيمان بعظمة الشعب ، يحدوهم التعاون إلى حياته ازدهار إيطاليا التى بعثت من جديد.

« وقد اقتضى النظام الجديد الواسع للدولة، إنشاء مجلس أعلى، تكون بجميع القوى المنظمة وكل المؤسسات التابعة للنظام الفاشيستى ، على صلة به ، وبذلك يتم خلق توافق يخلق بدوره قواعد ضابطة وتنسيقاً فى الجهود ، وأداة هذا التنسيق

والإدماج ، يباشر عمله فعلا ، وهو فى الواقع ، واحد من المؤسسات العظيمة ، التى تعتبر من ثمار ثورة سنة ١٩٢٢ ، التى أينعت فى قلب الحزب الفاشيستى . وكل هذه المؤسسات أقيمت لترفع دائما الدولة، اندمجت شيئاً فشيئاً فى بناء الدولة ذاتها ولذلك أصبح من المتعين أن يندمج المجلس الذى أقام بين الدولة ، والجماهير الرابطة ، فى هذه الدولة ذاتها . وقد أصبح بالفعل المجلس الأعلى بمقتضى القانون الصادر فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ واحداً من أجهزة الدولة الرئيسية ، والموجه الأعلى لكل وجوه النشاط التى يضطلع بها النظام الفاشيستى ،ولما كانت رياسة هذا المجلس موكولة إلى رئيس الدولة ، وكان أعضاؤه هم ممثلو المؤسسات الأساسية فى الفاشيستية ، فقد أصبح فى مقدور هذا المجلس أن يتعرف على شعور الجماهير المحكومة ، ويتلقى من الحكومة التوجيه لأداء العمل لدفع عجلة التقدم المادى والروحى .

« وبهذا أصبح للمجلس الأعلى مكان بارز بين الأجهزة الدستورية للدولة، وهو فى الوقت نفسه مكان يتميز عن مكان الحكومة والبرلمان ، فهو جهاز سياسى فى الدرجة الأولى ، وهو يتعاون مع الحكومة ، يلعب هذا الدور الدقيق ، دور الناصح فى المسائل الدستورية والسياسية ، ولكنه لا يتحيف اختصاصات الحكومة ولا يجور على اختصاصات البرلمان ، فللبرلمان الاختصاص الكامل فى التشريع ومراقبة الحكومة على الوجه الذى رسم الدستور . ولكن الحكومة التى يمنحها المجلس الأعلى مساعدته ، تبقى القوة الدافعة للعمل السياسى الذى يشع على الشعب من خلال المجلس الأعلى . وبتحول المجلس الأعلى للفاشيست إلى جهاز للدولة فإن الحزب الفاشيستى الوطنى ، الذى تولدت عنه لكل هذه الأجهزة والتى احتوتها الدولة،أصبح كذلك جزءاً من الدولة، وقد تم ذلك تدريجيًّا وقد اعتمد دستور الحزب ،بمرسوم ملكى كما أن الأمين العام للحزب الفاشيستى ، يعين بمرسوم ملكى بناء على اقتراح رئيس الحكومة وله حق الجلوس فى المجلس الأعلى (الذى هو أمنه العام) وفى اللجنة العليا للدفاع ، وفى المجلس الأعلى للتربية القومية ، وفى المجلس الوطنى للاتحادات ، وفى اللجنة المركزية التعاونية ، ويجوز للأمين العـــام للحزب الفاشيستى أن يدعى كذلك لحضور جلسات مجلس الوزراء . أما أعضاء إدارات

الحزب ، وأمناؤه ، فيعينون بقرار من رئيس الحكومة . وبهذا أصبح اندماج الحزب فى الدولة كاملا ، طبقاً لما يقضى به المذهب الفاشيستى الذى يختلف عن الفكرة الليبراليه الديموقراطية القديمة . فإن الأحزاب فى النظام القديم ، كانت تعتبر مؤسسات خاصة ، خارج نطاق الدولة ، وكانت تتصارع فيما بينها للسيطرة على الدولة ، وذلك كان حتمياً طالما أن الدولة كانت كاملة السلبية فى هذا الصدد ، وكانت تتلقى محتوياتها أى (أعضاءها) وأفكارها من تلك الأحزاب التى تتوالى عليها الواحد فى أثر الآخر .

« والحزب الفاشيستى ، ليس فى الواقع حزباً بالمعنى الذى تفهمه النظرية الليبرالية الديموقراطية ؛ فقد بدأ مؤسسة خاصة ، هى التى أنشأت الدولة الحالية ، ولكن بعد نشوء الدولة ، وإن بقى محتفظاً باسمه المجيد ، فإنه حول نفسه من مؤسسة خاصة إلى مؤسسة سياسية عظيمة . وبفضل العمل الدعائى الذى قام به الحزب ، وبفضل ما قدمه للشعب الإيطالى من تربية سياسية واجتماعية ، استطاع الحزب أن يخلق حزباً من الجيش المدنى ، هو العدة الأساسية للنظام ولذلك كان لا بد أن يكون له مكان فى الدولة ، وإن احتفظ بحرية العمل فى أداء وظائفه وواجباته .

« وبهذا تكمل الصورة ، صورة هذا التآلف الذى يظهر طبيعة الدولة الفاشيستية التى هى نظام لا ينفصل عن جميع القوى التى تعيش فى البلاد ، والتى تحقق قول موسولينى : « لا شىء خارج الدولة ، ولا شىء ضدها » .

« والدولة الفاشيستية الصخرة الجرانيتية ، والمحيط الذى تذوب فيه كل القوى وموارد الشعب ، هى دولة سيادة وقوة ، وإن كانت على صلة وثيقة بالجماهير ، فهى نظام شعبى حقاً .

« وبفضل هذه الدولة والنظام الذى تقوم عليه ، تم التآلف بين أمرين كانا يعتبران نقيضين لا يتلاقيان مطلقاً ، أحدهما الحاجة إلى تنظيم سياسى ، والثانى نمو الشخصية الإنسانية . فالفرد وإن كان قد بقى فى ظل الفاشيستية ، صاحب دور تابع ، إلا أن هذه التبعية ذاتها تضمن له النمو والازدهار ، على وجه لا يتحقق إلا بفضل حماية دولة نقية وحسنة التنظيم ، وبذلك تكون المصالحة والمواءمة قد تمت بين ظاهرتين اعتبرتهما الدولة الحرة عدوتين ، لا سبيل إلى مهادنة أحداهما للأخرى .

«إن رخاء الفرد هو الشرط لنمو وازدهار الجماعة التى ترتكز بدورها على أساس من نظام متين للدولة» .

وربما نكون قد أسرفنا فى نقل هذا المبحث الطويل عن الفاشيستية ، وأساسها الفلسفى ، وبيان نظرتها إلى العلاقة بين الجماهير والدولة ، وبين الفرد والدولة ، وبين الأحزاب والدولة ، وتوضيح الفوارق بين الدولة الفاشيستية والدولة الحرة الديموقراطية ، ولكنا فى حقيقة الأمر ، قد تعمدنا أن ننقل هذا المبحث ، لأنه يحدد معالم الدولة الفاشيستية فى النظرية والتطبيق ، وهى معالم وملامح الدولة النازية ، أيضاً فى الأغلب الأعم ، ولهذا أهميته فى بيان مدى مسئولية العقيدة النازية والفاشيستية فى خلق الحوادث التى أدت إلى الحرب . فإذا تساءلنا أتكون هذه العقيدة ، هى التى أدت إلى الحرب ، أم تكون العقيدة صدى ونتيجة للعوامل الدولية ، التى هيأت هى أسباب الحرب ؟ كان لدينا من الحقائق والوقائع ما يعين على الرد الصحيح .

وقد يكمل البحث لو نقلنا هنا ، بعض الأقوال التى صدرت عن موسولينى ، قبل أن تكتمل له القوة ، ويصل إلى سدة الحكم فى بلاده ، أى إبان وجوده فى المعسكر الاشتراكى ، فإن المقارنة بين ما قاله فى تلك الآونة ، وما قاله وهو على رأس الحزب الفاشيستى ، يعيننا على دراسة التطورات التى طرأت على عقول الناس وأفئدتهم فى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى ووقوع الحرب العالمية الثانية .

والذى يذكرنا بآراء موسولينى الاشتراكى هو زميله فى الحزب الاشتراكى ثم عدوه بعد ذلك ، (أرماندو بورجى) فى كتابه (موسولينى الأحمر والأسود) ، الذى نقلنا عنه فيما سبق .

فموسولينى الفاشيستى الذى يقيم عقيدته أو دينه على أساس تمجيد الدولة ، واعتبارها الغاية التى ينتهى إليها الفرد والحزب والدين ، والمحيط الذى تذوب فيه النقابات والجماعات والمدارس والمذاهب ، والصخرة الجرانيتية التى يقوم عليها النظام والإيمان والمجتمع ، والأب العظيم الذى يتآلف فى ظله العمل ورأس المال ، وتقطع بين يديه الخلافات بين المتنافسين والمتصارعين ، هو موسولينى الذى قال :

« إنى نصير الفردية ، المندفع فى كفاح ضد الدولة . وواحد من هؤلاء الأفراد الذين

لا يكف تمردهم على الدولة — أى دولة لا دولة بذاتها — ، الدولة ، أياً كان اسمها أو شكلها ، إنما هم أقلية نشيطة ، لا تساورها أى أوهام بشأن مصير الدولة ، فالدولة بآلتها البيروقراطية المنيعة ، تشيع فى نفسك الشعور بالاختناق ، لقد كانت الدولة عبثاً محتملا حينما كانت قانعة بكونها رجل شرطة وجندى قتال . ولكن الدولة اليوم هى كل شىء . فهى صيرفى ، ومراب ، وملاح ، ورأسمالى ، ووكيل تأمينات ، وساعى بريد ، وبائع تبغ ، وأشياء أخرى بجانب هذا كله ، عدا الوظائف التى تشغلها من قديم وهى وظائف الأمن ، والقضاء ، وجمع الضرائب .

« اليوم الدولة ، هى مولوخ[1] ، ذو وجوه مخيفة ، ترى كل شىء ، وتتحكم فى كل شخص ، وتقوم بكل عمل ، ولكنها لا تقوم بشىء إلا وتخطئ فيه . إن كل عمل تباشره الدولة هو كارثة . ففن الدولة كارثة ، ومدارس الحكومة ، كارثة أخرى ، ومكاتب بريد الحكومة كارثة ثالثة ، وقس على ذلك أعمال الدولة مع الملاحة وإنتاج السلع . .

« وإن الناس لن تواصل تلاوة أوراد الدولة ، وإذا تبين الناس الهوة التى سيتردون فيها ، إذا واصلت الدولة إقحام نفسها فى كل شىء ، فإن عدد المنتحرين منهم سيزداد زيادة فاحشة »

ويعلق بوربجى على القول بأنه من سخرية القدر أن الإحصائيات دلت على زيادة نسبة الانتحار فى عهد الدولة الموسولينية . على أن الكلام الذى بدأه موسولينى بهذه الفقرة ختمه بقوله :

« إن الدولة آلة رهيبة تلتهم الناس أحياء ، وتلفظهم بعد ذلك أمواتاً ، أى مجرد أعداد بلا روح ولا شخصية . فالحياة الإنسانية تفقد كل جوانبها الحميمة المادية أو الروحية أمام سيطرة الدولة . فالدولة تدس أنفها إلى أصغر ركن من أركان حياة الأفراد ، وتحصى عليهم أصغر حركة . فإن لكل شخص عند الدولة (خانة) يوضع فيها ورقم يعرف به ، كأنما هو أحد عبيد السفن فى عهد الرومان . إن هذه هى اللعنة التى سحقت الجنس البشرى منذ عهد بعيد ، أى منذ

---

(١) مولوخ هو إله الكنعانيين ، وكان يقدمون له أطفالهم كقرابين ويضرب به المثل على كل من تشتد شراهته فى اقتضاء التضحيات من الغير .

تحسس طريقه ، حتّى خلق الدولة الّتى ناء تحت ثقلها ، بعد ذلك »

« فلتسقط الدولة أيًّا كانت صورتها ، وأيا كان المبدأ الذى تتجسده . لتسقط دولة الأمس ، ولتسقط دولة اليوم ، ولتسقط دولة الغد . لتسقط دولة البوجوازية ، ودولة الاشتراكية ؛ .

« وسيبقى لنا نحن المؤمنين بالذاتية الشخصية الذين نجوا من طوفان الدولة ، أن نشق طريقنا فى الظلام الذى يحيط بنا ، اليوم ، والذى سيحيط بنا غداً ، وسيبقى لنا الإيمان بالفوضوية ، دين الفوضوية ، وما أعظم العزاء الذى يمنحه إيانا » .

ويتساءل (ارماندو بورجى) ، كم من السنين كان يقضيها الإيطالى فى السجن لو أنه تفوه بواحد من مليون من هذه الحقائق فى وجه الدولة الّتى بلغت أقصى درجات القوة على يد موسولينى ، عدو الدولة من أى نوع كانت ، وبأى اسم تسممت ؟

ونحسب أن هذا القدر يكفى . . .

الفصل السابع

الحرب الإيطالية الحبشية ، والحرب الأهلية الأسبانية

لما قامت الحرب العالمية الأولى ، فى سنة ١٩١٤ ، كان المعسكران الشرقى بقيادة ألمانيا ، والغربى بقيادة بريطانيا ، يتنافسان على كسب الأصدقاء ، وكانت إيطاليا من بين من كسبهم المعسكر الغربى ، فقد دخلت الحرب كما قلنا فى الفصل السابق ، فى ٢٥ من مايو سنة ١٩١٥ ، فى صف بريطانيا وفرنسا .

ولكن إيطاليا لم تدخل الحرب فى صف بريطانيا وحليفتها ، بدافع الحب الخالص لهما ، بل لأنها قدرت أن الفوز سيكون حليفها من جهة ، ولأنها وعدت بأن تحصل على ثمن لدخولها الحرب من جهة أخرى ، فقد أبرمت معاهدة سرية بين إيطاليا وبريطانيا وفرنسا ، وقد جاء فى المادة الثالثة عشرة من هذه المعاهدة أنه فى حالة (توسيع بريطانيا وفرنسا مستعمراتهما على حساب المستعمرات الألمانية فى أفريقيا ، فلإيطاليا الحق فى الحصول على بعض التعويضات العادلة ، وعلى وجه الخصوص فى تعديل الحدود لمصلحتها فى مستعمراتها فى أرتريا ، والصومال وليبيا والمستعمرات المجاورة لمستعمرات فرنسا وبريطانيا) وقد علمنا أن إيطاليا لم تظفر بشىء عندما وضعت الحرب أوزارها ، ووزعت الأسلاب والمغانم ، فقد كان كل ما قبضته ثمناً لمئات ألوف القتلى ومئات ألوف الجرحى من أبنائها مدينة تريست ، أما مدينة فيومى ، فقد استولت عليها بيدها قسراً ، تحت قيادة شاعرها « دانتزيو » .

ومن هنا بقيت إيطاليا ، شاعرة بمهانة عظيمة تلهب كبرياءها ، وتدفعها إلى أن تحلم بإمبراطورية لها .

ولكن الإمبراطورية الإيطالية الأفريقية لم تعد أن تكون من قبيل أحلام اليقظة فقد أثبتت الحروب الإيطالية الاستعمارية ، أن الطليان لا يطوون الصدور على على حب شديد للقتال ، فقد حاولوا فى عهد (كرسبى) رئيس وزرائهم غزو الحبشة

فنزلت بهم هزيمة منكرة فى (عدوة) بقيت ذكراها مصدر ألم شديد لهم فقد هزم فيها الطليان بقيادة الجنرال براتيرى فى مارس سنة ١٨٩٦ بعد أن فقدوا ٦ آلاف قتيل ولما بدأت غزو ليبيا ، لم يتحمس الشعب الإيطالى كثيراً لها ، وقد رأينا كيف كان موسولينى من أكبر خصوم هذه الغزوة .

ولكن موسولينى أصبح الآن رئيس الحكومة وأصبح زعيم دولة عرفت كيف أنها لا تدع شيئاً فى إيطاليا إلا وضمته تحت جناحيها وأخضعه لسلطانها ، وفى مقدمة ما خضع لهذا السلطان ، الصحف ووسائل التعبير عن الرأى كافة .

وقد تلونت مشكلة الاستعمار الإيطالى بعدة ظواهر : الظاهرة الأولى أن الشعب الإيطالى ، أيًّا كان زهده فى القتال ، فإن أحلام العظمة تقتضيه أن يكون نداً للدول الاستعمارية الكبرى ، وإلا فإن مكانته الدولية ، تصبح محلا للشك .

الظاهرة الثانية أن إيطاليا ، كانت تدرك أنها فكرت فى الدخول إلى الحلبة الاستعمارية ، متأخرة ، فقد كان القول الشائع بعد الحرب العالمية الأولى ، ونشوء عصبة الأمم ، أن عهد الاستعمار انتهى ، وأن الدول تأدبت على يد فظائع تلك الحرب ، وتعلمت درساً رهيباً يمنعها من أن تفكر من جديد فى التوسع الإقليمى وفى استعمال القوة لحل مشكلاتها .

كما أن الدول الكبرى التى استولت على كل ما يمكن أن يستولى عليه ، لا يتصور أن تتنزل عن شىء مما أخذته ، ولا يمكن أن تسمح لغيرها أن يأخذ شيئاً جديداً بدعوى احترام ميثاق عصبة الأمم ، والروح الجديدة التى سادت بعد مجزرة سنة ١٩١٤ وفى هذا المعنى قال موسولينى :

« إن البريطانيين بعد أن أتخموا بالفتوح الاستعمارية ، وضعوا بوقاحة خطا فى منتصف الصفحة فى كتاب الملائكة ، ثم أعلنوا : ما كان جائزًا لنا حتى الأمس ، أصبح حراماً عليكم اليوم » .

وقد شغل الإيطاليون بالمناقشة فى جدوى المستعمرات الأفريقية للطليان ، كمنفذ للزائد من السكان الذين لا يجدون رزقاً فى بلادهم ، وكمصدر للمواد الخام والمعادن التى كانت إيطاليا فى أشد الحاجة إليها ، ويقول « جارات » إن الفكرة التى ظهرت بوضوح فيما كانت تتكتبه صحف إيطاليا ، هى أن الامبراطورية البريطانية

والفرنسية دخلتا فى دور الشيخوخة ، بدليل عجزهما عن ضبط الشعوب الخاضعة لحكمهما ، وكثرة الاضطرابات ، وحركات التحرر والتمرد ، التى سادت مستعمراتهما ، وقد أسعدت هذه الفكرة خيال موسولينى ، ورأى فيها ما يحقق أطماعه فى مستعمرات ضخمة ، تؤول إليه شرعاً بوفاة الإمبراطوريات العجوز . ومن ثم فقد قرر أن يبدو نصيراً للحركات القومية فى بعض البلاد العربية .

ويضيف (جارات) أن سنة ١٩٣٠ كان ركن الزاوية فى سياسة بريطانيا مع القارة الأوربية ، هو تأييد عصبة الأمم ، والإقبال على مؤتمرات نزاع السلاح بصفة جدية ، بفضل سياسة هندرسن وزير الخارجية العمالى . بينما كانت الديموقراطية الألمانية تسير سيراً حسناً نسبيا ، ولم يكن هتلر سوى « مصدر مضايقة » قليل القيمة

ولعلنا يمكننا أن نقول أن العالم بصفة عامة — كما يرى جارات — كان فى هذه الفترة ، متجهاً اتجاهاً واضحاً نحو اعتراف صادق بالقانون الدولى ، وإعادة النظر فى المعاهدات ، ونزع السلاح تدريجيا ، وتصفية المنافسات الاستعمارية التى كانت مصدر الخطر الذى تهدد أوربا طوال قرن بأسره . فكان على موسولينى أن ينتظر حلول الوقت المناسب ، وقد كان يرى من جانبه سلفاً أن هذه الاتجاهات السلمية ، صائرة إلى الانهيار قريباً ، وكان أول النذر ، حادث منشوريا الذى وقع فى سبتمبر سنة ١٩٣١ ، والذى خاضت فى أثره اليابان حرباً ضد منشوريا ، انتهت باستيلاء اليابان عليها ، وأقامة إمبراطور الصين السابق ، كملك تابع لها ، باسم « ملك منشوكو » . وقد تمت الحملة ، وانتهت ، دون أن يقف فى وجهها ، شىء من ميثاق عصبة الأمم ، ولا قليل أو كثير من روح السلام ، ونزع السلاح ، وإنهاء المنازعات الاستعمارية . فقد اكتفت العصبة ، بتأليف لجنة برياسة اللورد ليتون لدراسة موضوع حادث منشوريا . وقد افتت اللجنة بوجوب منح منشوريا استقلالا ذاتياً تحت إشراف الصين الوطن الأم ولكن تقرير هذه اللجنة لم يزد عن كونه حبراً على ورق .

ثم تبع ذلك هبوب رياح الأزمة الاقتصادية التى ساعدت على القضاء على الروح الدولية ، وقوت روح التعصب ، وشجعت الدول على أن تقفل كل منها بابها على نفسها فى وجه غيرها ، وأن تقيم سدوداً عالية من الضرائب الجمركية .

ويبدو أنه لابد من تقديم بيان موجز عن علاقات إيطاليا ببريطانيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فنى سنة ١٨٨٤ تفضلت بريطانيا على إيطاليا، إذ دعتها لاحتلال ميناء مصوع على البحر الأحمر . وكانت الحبشة آنذاك مملكتين منفصلتين إحداهما مملكة « التيجر » ، وعلى رأسها الملك « جون » ، ومملكة (شرع) ويحكمها « منليك الأكبر » ولما احتلت إيطاليا « اسمرا » بدأت توقع بين الملكين ، مؤيدة الملك منليك ، ضد منافسه ، ثم ضد خلفه ، بعد وفاة الملك جون ، وانتهى الأمر بعد أن توحدت الحبشة تحت عرش منليك . فلما فكرت إيطاليا بعد ذلك بسبع سنوات فى غزو الحبشة وقفت هذه الأخيرة صفا واحداً فى وجه الغزو الإيطالى، فاستطاعت أن تنزل بالطليان هزيمة (عدوة) المنكرة فى سنة ١٨٩٦ كما سبق القول . وبعد انتصار منليك الرائع ضد إيطاليا ، أسبغ على نفسه لقب (إمبراطور) ، ولكنه لم يفكر فى طرد أعدائه الإيطاليين من أريتريا .

وقد شهدت تلك الفترة ، تنافساً مريراً بين فرنسا وبريطانيا على التوسع فى تملك أقاليم أفريقيا ، فقد كانت الفترة التى شهدت حرب البوير ، وموقعة فاشودة التى حاولت فيها فرنسا أن ترفع علمها على منابع النيل العليا فى السودان ، فتصدت لها قوة بريطانية برياسة كتشنر ، ورفعت بدورها على (فاشودة) علم الخديوى المصرى ، باعتبار السودان جزءاً من الإمبراطورية المصرية ، وانخذل الكولونيل مارشان قائد الحملة الفرنسية ، وترك الموقع ، واستأثرت بريطانيا بالسودان وبالسيادة على منابع النيل ، وخرجت فرنسا من المنافسة .

ولذلك كانت مصلحة بريطانيا أن ترضى إيطاليا بشىء من الفتات الاستعمارى فعقدت مع إيطاليا بروتوكول سنة ١٨٩١ ، وبرتوكول سنة ١٨٩٤ ، أثبتت فيهما أن بحيرة (تانا) الحبشية التى ينبع منها النيل الأزرق رافد النيل العظيم ، تهم بريطانيا ، أما ما عدا ذلك من أقاليم الحبشية ، فيهم إيطاليا ، ولم يتغير هذا الوضع بين الدولتين ، حتى بعد أن لحقت الهزيمة بإيطاليا فى عدوة سنة ١٨٩٦ . ولكن ألمانيا دخلت فى حلبة التسابق الاستعمارية ، فاتخذت من حرب البوير فى جنوب أفريقيا ، فرصة لإحراج بريطانيا ، وتأييد خصومها ، رجاء أن تحصل على نصيب ذى قيمة من المغانم ، وأن تأخذ مكانها اللائق بها كدولة استعمارية ، وقد

أدى هذا إلى توثيق العلاقات بين بريطانيا وفرنسا ، ليقفا فى وجه هذا المنافس الجديد القوى .

ثم اتفقت الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا وإيطاليا بسبب هذا العنصر الجديد فى فى عالم التنافس الاستعمارى فى أفريقيا على إبرام معاهدة سنة ١٩٠٦ التى بدأت بتسجيل تعاهدهم على المحافظة على الحال القائمة فى الحبشة،وما لبث المتعاقدون الثلاثة بعد أن فرغوا من اسباغ هذا المظهر الرقيق من النفاق الدولى على معاهدتهم انتقلوا إلى حقوق كل منهم فيما لو أصاب الحالة القائمة Status quo تغيير وبدأت بريطانيا بالقول بأن من حقها أن تتحكم فى بحيرة تانا وفروع النيل الحبشية. وثنت إيطاليا بأن من حقها الاستيلاء على الأراضى الداخلية التى تلى ممتلكاتها الحالية فى شرق أفريقيا والمناطق التى تفصل بين هذه الممتلكات بعضها البعض ، والواقعة فى الغرب من أديس أبابا . أما فرنسا فقد سجلت حقها فى الحصول على الأرض الداخلية التى تلى الصومال الفرنسى ومنطقة تمد عليها سكة حديدية بين ميناء جيبوتى إلى أديس أبابا .

ويهمنا أن نشير إلى أن المنطقة التى خصصت لإيطاليا والموصوفة بأنها فاصلة بين ممتلكاتها وقت إبرام المعاهدة ، فى سنة ١٩٠٦ ليست سوى الحبشة كلها ، وإن كانت عبارة المعاهدة المائعة الفضفاضة تعطى لفرنسا الحق فى ملكية منطقة هرر

فالحبشة كما ترى كان مصيرها مقرراً بين وحوش الاستعمار من فترة سابقة طويلة ، وأن الجميع كانوا ينتظرون الوقت المناسب لينقضوا عليها ، أو ليتركوا صاحب الحظ ، ليلتهمها جميعاً ، أو يلتهم ما يستطيع أن يلتهمه . ولم يؤخر ذلك الانقضاض سوى أن بريطانيا وفرنسا ، لم تكونا راغبتين كثيراً فى تغيير الحالة القائمة فى ا لحبشة ، ولم تكن إيطاليا قوية إلى الحد الذى يمكنها من أن تقوم هى بتغيير تلك الحالة ، ولم تكن قد حصلت بعد على التجربة الاستعمارية ، التى نضجت عند فرنسا وبريطانيا والتى يصف جارات عناصرها بقوله : « حادث الحدود » « والمستشار المالى » و « قرض للدولة بضمانة إيرادت الجمارك » « الإرساليات الدينية » و « البعثات العسكرية » « القناصل وحاشيتهم » « المعاهدات الغامضة » و « تأييد أدعياء الحق فى العرش » وما عُرف فى القاموس الاستعمارى بسياسته « بابو الكريه » وبابو هذا هو أى

موظف ثقيل شرس ، ترسله الحكومة الاستعمارية عبر حدود إحدى ممتلكاتها لتحصيل الضرائب أو الغرامات ، ثم يقع عليه الاعتداء وربما القتل لشراسته وسوء معاملته ، فتهب الدولة الاستعمارية التى أوفدته ، طلباً للثأر له ، وتأديباً للعصاة أو للجار الذى اعتدى عليه .

والذى ألف قراءة التاريخ الاستعمارى يتضح له أن (جارات) أحسن إحصاء هذه الذرائع التى يتوسل بها الاستعماريون لفتح الدول المطموع فيها ، وهى ليست فى مجموعها إلا وسائل لتلفيق الاحتكاك بها ، أو لإفساد ماليتها ، أو للتفريق بين أبنائها .

وقد أنقذ الحظ الحسن الحبشة من الوقوع فى براثن أعدائها المتربصين ، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى وقامت عصبة الأمم ، وفى سنة ١٩٢٣ قدمت طلبها إلى العصبة للانضمام إليها كعضو ، وقد رشحتها فرنسا لهذه العضوية ، فاعتبرت إيطاليا ، هذه التزكية من قبل فرنسا ، عملا غير ودى ، أما بريطانيا فقد عارضت صراحة فى قبول هذا الطلب على أساس أن الحبشة كانت حتى تاريخ تقديم طلبها تعيش فى العهد الإقطاعى ، وأنها عاجزة بسبب نظام الحكم القائم فيها عن مكافحة تجارة الرقيق فيها . ولكن هذه المعارضة لم تحل دون قبول الحبشة فى العصبة ، ولم يحل قبولها فى العصبة ، دون استهانة الدول العظمى المجاورة بحقوق سيادتها على أراضيها ، فقد طلبت إيطاليا الترخيص لها بأن تمد خطا حديديا يخترق الحبشة ليصل بين مستعمراتها فى الصومال وأريتريا ، بينما استمرت بريطانيا فى الإلحاح على بناء سد عند بحيرة تانا .

وبينما كانت الدول الكبرى المحيطة بالحبشة ترتب الأمور بينها على هذا الوجه كانت تطورات تقع فى الحبشة ، ذاتها ، وكان من أهمها أن الرأس طفرى ، أحد كبار الزعماء الأحباش نجح فى عزل (لج ياسو) حفيد الإمبراطور منليك العظيم ، وفى سنة ١٩٣٠ أعلن نفسه إمبراطوراً على الحبشة باسم الإمبراطور هيلاسلاسى ، واحتفل بهذه المناسبة احتفالا عظيماً جمع بين فخامة العصور الوسطى ، والعصور الحديثة معاً ، وجاء للاحتفال معه بهذه المناسبة ممثلون للدول العظمى وفى مقدمتهم الدوق جلوسستر إبن عم ملك بريطانيا العظمى .

وقد استعان الامبراطور بثلاثة من كبار الخبراء من دول رآها محايدة ، فسر

(كولسون) أختير من الولايات المتحدة ليكون مستشاراً للإمبراطورية فى شئون المال ، والمسيو (أوبرسون) من سويسرا للشئون الخارجية ، والجنرال (فرجين) للشئون العسكرية ، من السويد ، ويضاف إلى هؤلاء الدكتور مارتن ، وهو أحد رعايا الحبشة ، اشتغل فى حكومة الهند جراحاً لمدة عشرين عاماً ، ثم عاد إلى بلاده ، فظفر بثقة الإمبراطور ، وأصبح من أكثر المقربين إليه ، فأكد عند الإمبراطور ، عظيم ثقته فى البريطانيين وفى الاعتماد عليهم .

أما فى إيطاليا ، فالأمور تطورت كثيراً ، منذ سنة ١٩٠٦ ، فقد أصبح فى الحكم موسولينى ، وأصبحت إيطاليا فى أشد الحاجة إلى ما يتملق كبرياءها من جهة ، وما يمحو عار موقعة « عدوة » من جهة ثانية ، وما يبتلع الفائض من سكانها من جهة ثالثة ، وأخيراً ، ما يصرف نظر الناس عن حالة القلق التى أخذت تشتد داخل إيطاليا لاشداد قبضة الحكومة على كل نشاط ، ولقمعها لكل رأى ، ولاستئثارها بكل سلطة ، ولخوفها من كل معارضة .

ولذلك كان من الطبيعى أن تلجأ إلى الأساليب الاستعمارية المعروفة ، التى أشرنا إلى بعضها ومنها (حادث الحدود) .

وقد بدأت إيطاليا بتسليح القبائل فى منطقة (أوجادين) ، وهم ليسوا أحباشاً أقحاحاً ، إذ أن منطقة أوجادين فى حقيقة الأمر هى أرض صومالية ، يسكنها مسلمون . وقد تزايدت حوادث الحدود خلال سنتى ١٩٣٣ و ١٩٣٤ ، ومن جهة أخرى ، زادت دسائس قنصليات إيطاليا التى أنتشرت فى أنحاء الحبشة حيث لا يوجد إيطالى واحد ترعى شئونه هذه القنصليات ، وقد كانت القنصلية الواحدة تضم نحو تسعين موظفاً تطلب إيطاليا لهم جميعاً الحصانة التى يتمتع بها موظفو السلك القنصلى . وقد اضطرت الحبشة آخر الأمر إلى تقديم شكوى إلى عصبة الأمم بهذا الشأن ، فصلت فيه الأمور على هذا الوجه ، وأضافت أن دور القنصليات الإيطالية امتلأت بالأسلحة ، وحاولت القنصليات أن تكسب لصف إيطاليا بعض الرءوس ، أى زعماء الحبشة ، فلم تحقق نجاحاً ذا قيمة إلا مع الرأس جوجسا ، زوج بنت الإمبراطور ، ومحافظ منطقة التجر ، وكان موسولينى قد أرسل الجنرال (دى بونو) إلى أرتريا ليدرس احتمالات غزو الحبشة فى مارس سنة ١٩٣٢

فكتب تقريراً لزعيمه يقول له فيه : إن الحالة السياسيه فى الحبشة تدعو إلى الرثاء ، ومن ثم فإنه لن يكون واجباً شاقاً تفكيك أوصال الإمبراطورية الحبشية إذا سلكنا الطرق السليمة ، وأن هذا التفكيك ، ليصبح أمراً مؤكداً بعد انتصار عسكرى نحرزه »

وقد كان نشاط إيطاليا وقنصلياتها فى تهريب الأسلحة ، واستثارة الزعماء الحانقين ، واستمالة غيرهم ، معلوماً للموظفين البريطانيين فى كل من السودان والصومال البريطانى ، وبالتالى لوزارة الخارجية البريطانية ، ولكن بقى الرأى العام البريطانى جاهلا به ، وكان موسولينى مطمئناً إلى أن بريطانيا لن ترفع أصبعاً واحداً فى وجه حملة عسكرية توجهها إيطاليا إلى الحبشة ، ما دام نصيب بريطانيا فى الحبشة سيبقى مضموناً لها ، أعنى التحكم فى منطقة تانا وبحيرتها ، وفروع النيل النابعة من الحبشة . بل إن تقريراً رسمياً بريطانياً ، هو تقرير (مافى) حدد مقدماً نتائج استيلاء إيطاليا ، على الحبشة فقال فى البند الثانى والثالث منه إنه ليس لبريطانيا مصالح جوهرية تمس بوقوع الحبشة فى يد إيطاليا ، بل إن هذا الاستيلاء ، يمكن أن يكون ذا نفع للمصالح البريطانية ، وإن كان من وجهة نظر الدفاع الإمبراطورى تعتبر الحبشة المستقلة ، أنفع من الحبشة الإيطالية ، على أن ذلك لا يتحقق إلا إذا قامت الحرب بين بريطانيا وإيطاليا وهو احتمال بعيد .

ويعلق (جارات) على هذا بقوله ، إن هذا التقرير يكشف بجلاء عن أن بريطانيا لم تأخذ عضوية الحبشة فى عصبة الأمم ماخذ الجد ، ولا كانت تعتبر المعاهدات التى تبرم مع دول فى مثل مستوى الحبشة ، جديرة بالاحترام ، ولعل الذى جعل بريطانيا تسلك هذا المسلك ، أنها لم تكن تعتقد أن شيئاً ما ذا خطر يمكن أن ينجم عن استخفافها بالحبشة والمعاهدات منها ، وبعضويتها فى العصبة ، وهو أمر يرينا لماذا قامت الحرب العالمية الثانية . وبلغ الأمر ، بتهيؤ بريطانيا لوقوع الغزو الإيطالى للحبشة ، أو قل الترحيب به أن أصدرت الوزارة أمراً للرعايا البريطانيين كان من شأنه منع البريطانيين من التطوع للحرب فى صف الحبشة .

وقد قيل فى تعليل موقف بريطانيا من موسولينى وغزوته الحبشة ، إن الحكومة البريطانية لاحظت ازدياد انتفاخ موسولينى بالكبرياء وزهوه الذى لم يعد يطاق

فأصبح من المناسب أن يتورط فى حملة لا تنتهى قبل عامين ، تستنفد بعض طاقاته ولا تضر بريطانيا كثيراً ، فحى المال فى لندن ، ينظر إلى بريطانيا ، باعتبارها أم الجميع ، وينظر إلى العالم ، كأسرة شرسة ، لابد للأم أن توزع على أعضائها كل حسب استحقاقه ، وبالقدر المناسب وفى الموعد المناسب .

وبدأ موسولينى يهيئ الرأى العام فى بلاده ، للغزوة المدبرة ، كما بدأ فى الوقت نفسه يزيد من ضغطه على الحبشة، تحضيراً لالتهامها ، فكان أول ما اختاره لهذا الغرض أنه أعلن اعتراضه على مشروع زواج بين ابن أخت الأمبراطور هيلاسى بسيدة يابانية ، وقد بلغ من نفوذ موسولينى فى هذه المنطقة ، ومن خوف الأحباش منه ، الحد الذى أدى إلى فسخ مشروع الزواج ؛ وفى سنة ١٩٣٤ ، بدأ الدوتشى يتحدث بصراحة عن توسع إيطاليا الذى يؤدى إلى التعاون بين إيطاليا وأهل أفريقيا ، ثم توجه إلى الفاشيست فذكرهم برسالة إيطاليا فى إدخال المدنية إلى أفريقيا ، وقال إن مركز إيطاليا فى البحر الأبيض ، يعطيها هذا الحق ، بل يفرض عليها هذا الواجب .

ثم التفت إلى فرنسا وبريطانيا وقال إنه لا يريد من الذين سبقوا بالوصول إلى الميدان أن يسدوا فى وجه إيطاليا سبيل التوسع الروحى والسياسى والاقتصادى »

ويقول (جارات) إنه فى الوقت الذى نشط فيه القناصل الطليان ، فى تدبير الدسائس ، وبذر بذور الفتنة فى الحبشة ، كانت البعثات الدينية الكاثوليكية تعمل بجد ونشاط مع هؤلاء لتحقيق الغرض السياسى نفسه ، وأنها أرسلت إلى روما فى تلك الفترة ، العديد من أبناء الحبشة الأقباط الذين تحولوا إلى الكاثوليكية ، ليتعلموا فى جامعات إيطاليا ، وعلى حساب حكومتها .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، وقعت (حادثة الحدود) المرتقبه ، فقد ذهبت بعثة بريطانية حبشية إلى منطقة على حدود الحبشة والصومال الإيطالى ، تدعو (والوال) لتخطيط الحدود الحبشيه مع الصومال البريطانى ، فوجدت فى هذه البعثة ، معسكراً للجنود الصوماليين الإيطاليين . وأحست البعثة أنها إن احتكت بهذا المعسكر ، فقد يقع شر جسيم ، فانسحبت من الموقع ، تاركة هناك حرس الحدود من الأحباش مواجهة الحرس الإيطالى ، واستمر الحرسان على هذا الحال عشرة أيام يتبادلون

الشتائم ، وبنادقهم فى أيديهم محشوة بالرصاص ومعدة للإطلاق ، وفى ٥ من ديسمبر ، جلب الإيطاليون دبابتين ، وحلقت على الموقع ثلاث طائرات وأخيراً ، هاجموا الأحباش ، وأجلوهم عن مكانهم تماماً ، وكما فعلت النمسا ، مع صربيا فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، فعلت إيطاليا ، مع الحبشة ، فقد وجهت إليها طلبات لا يمكن إجابتها ، ولما طلب الأحباش التحكيم رفضت إيطاليا ، وصممت على أن يبادر الأحباش بتحية العلم الإيطالى فى الموقع كاعتذار ، مع دفع ٢٠٠ ألف دولار تعويضاً ، والتسليم بحقوق إقليمية . وفى ٢ من يناير سنة ١٩٣٥ أرسل الإمبراطور برقية إلى عصبة الأمم ، تتضمن إخطار العصبة عن تجمعات عسكرية إيطاليا على الحدود ، وطلب تطبيق المادة الحادية والعشرين من ميثاق العصبة ، بقصد حماية السلام .

لقد كانت إيطاليا طوال سنة ١٩٣٤ فى مفاوضات مع فرنسا التى كان يمثلها لافال ، وكانت تدور حول تعديل حدود ليبيا بحيث تصل إلى بحيرة تشاد ، وحول وضع الإيطاليين المهاجرين إلى تونس الخاضعة لفرنسا ومعاملتهم بها ، وحول إضافة قطع من الصومال الفرنسى إلى الصومال الإيطالى ، كما حصلت إيطاليا على بعض أسهم فى المشروع غير الناجح اقتصادياً ، مشروع السكة الحديدية بين أديس وأبابا وجيبوتى .

وقد كانت هذه الاتفاقية معدة للتوقيع فى السابع من يناير ، وفى الحادى عشر ، تقدمت الحبشة بطلبها إلى العصبة لتمنع العدوان الإيطالى .

لقد كان لافال رئيس وزراء فرنسا سعيداً باتفاقه مع إيطاليا ، الذى أنهى حالة توتر كانت قد أدت إلى حشد قوات الدولتين على الحدود المشتركة بينه ، فقد كان يهم فرنسا أن تفرغ لهتلر الذى بدا خطراً على فرنسا . أما بريطانيا ، فقد عرفنا كيف أنها هيأت نفسها منذ سنوات ، لوقوع الحبشة فى أيدى الطليان ، وقدرت جميع نتائج هذا العمل . وألمانيا كانت بدورها سعيدة بدخول إيطاليا فى مثل هذه المغامرة ، لتكسب ودها ، بعد أن كان موسولينى ، واقفاً لألمانيا بالمرصاد ، كلما همت بضم النمسا ، أو فكرت فى زيادة التعاون معها ، أما روسيا فهى لم تظهر شيئاً ذا قيمة بشأن هذا العدوان . وفى الوقت الذى قصد فيه (لافال) جنيف ليمنع

أى شىء يقال فى عصبة الأمم ضد إيطاليا ، يفسد عليه اتفاقه معها ، ويعكر عليه صفو سروره بهذا الانتصار الدبلوماسى كان الجنرال (دى بونو) على ظهر باخرة ، قاصداً مصوع ، التى وصلها فى السادس عشر من يناير ، وفى جيبه تعليمات بوصفه المندوب السامى فى شرق أفريقيا ، صادرة من الدوتشى ، زعيم الفاشيست وزعيم إيطاليا الجديدة .

ولما بدأت سنة ١٩٣٥ ، كان كل شىء فى صالح موسولينى .

إنجلترا وفرنسا ، شطبتا مقدماً الحبشة من خريطة العالم كدولة مستقلة ، وسلما سلفاً بأنها داخلة فى منطقة نفوذ وسـيادة إيطاليا ، تفعل بها وباستقلالها ما تشاء . وفى بلاده ، كانت الصحافة ، فى قبضة يده ، يديرها يميناً ويساراً ، كاللعبة .

وكان صعود نجم هتلر ، واستقراره فى دست الحكم بألمانيا ، وإنجازه الجزء الأكبر ، من مشروعات تسليحه عاملا قويا ، حدا بكل من بريطانيا وفرنسا ، إلى التساهل مع موسولينى ، ليتفرغا لمواجهة الخطر الجديد ، خطر النازية . وهذا أمر يكشف عن سبب جديد من أسباب الحرب العالمية الثانية ، فمبدأ استهانة الدول العظمى بالدول الصغرى عموماً ، ودول أفريقيا وأسيا خصوصاً ، ثم يجىء عامل الاهتمام بالسلامة الشخصية ، على حساب الاهتمام بالسلامة العامة ، ليهيئ الجو الذى تفرخ فيه الحرب وتبيض .

وقد توالت النذر فإن بريطانيا فى أوائل سنة ١٩٣٥ ، أصدرت كتاباً أبيض أعلنت فيه فشل محاولات نزع السلاح ، فرد هتلر على نشر ذلك الكتاب ، بإعادة التجنيد الإجبارى فى بلاده ، وفى رفع عدد الجيش الألمانى (الريشوهر) إلى ٥٠ ألفا ، وهما إجراءان يتحديان معاهدة فرساى ، فأجتمعت دول غرب أوربا بريطانيا وفرنسا ومعهما إيطاليا فى ستريسا لمواجهة هذا التحدى ، وكان هذا بطبيعة الحال ، كسباً لإيطاليا . وفى هذا الجو أرسل إمبراطور الحبشة ، نداء جديداً إلى عصبة الأمم محتجاً ، وطالباً حماية بلاده من نيات إيطاليا العدوانية التى تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . ولم تكسب الحبشة حتى هذه اللحظة سوى عطف الدول الصغيرة كالسويد وبلجيكا اللتين أرسلتا إلى الحبشة بعثتين عسكريتين تضم بعض المستشارين . وقد

استطاعت جبهة ستريسا أن تقف موقفاً حازماً نسبياً من ألمانيا فقد أصدر المؤتمرون قراراً أدانوا فيه ألمانيا ، وأعلنوا ضمانهم لاستقلال النمسا ، وعقدت معاهدات عسكرية بين الاتحاد السوفيتى وفرنسا ، والاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا ، ولكن لم يشر أحد إلى الحبشة بكلمة وقد ترك الخبراء البريطانيون فى شئون الحبشة ، والذين رافقوا الوفد البريطانى إلى مؤتمر ستريسا خارج قاعات المؤتمر ، وقد نفد صبرهم ، دون أن يدعوهم أحد ليقدموا خدماتهم لأعضاء المؤتمر ، وعادوا كما جاءوا . وذلك لأن جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، كان يرى من غير الحكمة أن يفسد جـــو مؤتمر (ستريسا) الخاص بشئون أوربا ، بالحديث عن دولة سوداء !

على أن المستر إيدن لم يلبث حتى تولى وزارة شئون العصبة فأخذ على عاتقه حل المشكلة الإيطالية الحبشية ، حسب الخطوط التى أشار إليها (جارات) واعتبرها مؤدية إلى أحسن الحلول ، وهى تقوم على تهدئة موسولينى بإعطائه جانباً من أراضى الحبشة ، والإبقاء على كيانها العام ، وقد بدأ إيدن بتقديم قطعة من الصومال البريطانى ، لا تزيد عن أن تكون صحراء جدباء لا قيمة لها فى ذاتها ، ما لم تصلها بميناء زيلع سكة حديدية ، وبهذا يتاح للحبشة أن تتصل بالبحر ، الأمر الذى كانت محرومة منه ، ولكن الظاهر أن المنحة البريطانية كانت تتضمن شرطاً يمنع الحبشة من بناء هذه السكة الحديدية ، لتبقى شقة الأرض الموهوبة لها مجرد طريق جمال ، وحتى إذا خلا عقد الهبـــة من هذا الشرط المانع ، فإن إقامة سكك حديدية ، على نفقة الحبشة ، فضلا عن كونه فوق طاقتها ، ما كان ليحقق مشروعاً اقتصادياً نافعاً ذلك لأن صادارت الحبشة تتجه من المناطق الخصبة فيها شرقاً إلى السودان ، ولذلك قد بقيت بالمثل السكك الحديدية الفرنسية من مينا جيبوتى إلى أديس أبابا التى تبلغ طولها خمسمائة كيلومتر ، مشروعاً غير اقتصادى ، لم يغط نفقاته يوماً ، وبالتالى لم يحقق ربحاً قط . وقد كان على الإمبراطور فى مقابل هذه الشقة الجرداء من الأرض أن يسلم إلى إيطاليا منطقة أو جادين لتضمها إلى الصومال الإيطالى . ولكن جاءت هذه المحاولات بعد أوانها بكثير ، فقد كانت عجلة الحرب الفاشيستية قد تحركت ، وكانت إيطاليا قد اطمأنت إلى أن بريطانيا

وفرنسا فى حقيقة الأمر وواقعه موافقتان على مشروعها العسكرى ، وأن القصد من كل هذه المحاولات هو مجرد التظاهر من جانب بريطانيا وفرنسا بأنهما حريصتان على ميثاق العصبة. وقد قسم إيدن وصمويل هور العمل بينهما ، فبينما يحاول (إيدن) فى العصبة أن يدعم الثقة بميثاقها ، كان (هور) يعمل على تقديم الضحية إلى آكلها ، بأيسر السبل ، وفى أقصر وقت . لقد تلقت الدول الواحدة بعد الأخرى إنذاراً من إيطاليا ، بأن إرسال الأسلحة إلى الحبشة يعتبر عملا عدوانيًّا ضدها . وقد فرضت فى الوقت نفسه كل من بريطرنيا وفرنسا حظراً غير رسمى على تصدير الأسلحة للحبشة ، فحظرت الأولى مرور السلاح إليها عن طريق السودان ، كما حظرت الثانية وصول السلاح إلى الحبشة عن طريق سكك حديد جيبوتى . ورفضت الدولتان كذلك منح أى رخص لتصدير السلاح منهما ابتداء من أول مايو سنة ١٩٣٥ وفى يولية ، قال صمويل هور ، تصريحاً ، لا يستأهل إلا الضحك منه ، فقد قال : إن بلاده منعت تصدير الأسلحة إلى كل من إيطاليا والحبشة على السواء ، وإن كان لا يمنع مرور الأسلحة إلى أى منهما عبر المنطقة الخاضعة لبريطانيا والمتاخمة للحبشة . وفى هذا التاريخ كانت كل الدول قد أوقفت فعلا تصدير الأساحة إلى الحبشة ، فلم يتيسر تزويدها بأى سلاح ، سوى عدد قليل من البنادق ، تسللت تسللاً لها. فقد أوقفت السكاك الحديدية حمل الأسلحة ، وكما منع إنزال أى أساحة فى ميناء بربرة ، وبذلك قطعت صلة الحبشة بالعالم الخارجى تماماً — وقد حافظت بريطانيا وفرنسا ، على موقفهما هذا حتّى خلال فترة الحرب الإيطالية الحبشية ، بل حتّى خلال الفترة التى فرضت فيها عصبة الأمم العقوبات على إيطاليا .

أما إيطاليا فقد تدفقت عليها الأسلحة ، مارة بالصومال البريطانى ، كما تدفقت عليها القطع التكميلية للسلاح ، من بريطانيا ، بينما تنافست المستعمرات البريطانية المجاورة كمستعمرة عدن وكينيا فى مديد المعونة للجهاز الحربى الإيطالى ؛ فتجردت كينيا تقريباً من كل ما كان عندها من مواش ، وبضائع ،إذ أرسلت كلها للجيش الإيطالى الغازى بينما أرسلت مستعمرة عدن ، كميات كبيرة من الماء المقطر إلى نفس الجيش . وقد أوفدت الحبشة مندوبها الدكتور مارتن الذى سلفت إليه الإشارة ، فحاول بكل وسيلة أمكنته أن يحصل على سلاح لبلاده ، فلم يجد

إلا ابواباً مغلقة ، والإنصيحة واحدة ، هى أن يلتزم الصبر ، وألا يورط الحكومة البريطانية فيما قد يؤدى إلى تعقيد الموقف ، مع التأكيد له بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف. ولما كان مارتن هذا قد نشأ فى ظل الحكم البريطانى فى الهند ، فقد امتلأ قلبه إيماناً ببريطانيا ووعودها ، وثقة بسياستها وحكمتها ، فأودى به وببلاده هذا الإيمان ، إذ بدلاً من أن يهجر لندن ويبحث عن سلاح فى بلد غيرها ، وأن يسعى لقرض القروض لبلاده ، استنام لوعود بريطانيا حتى انتهى موسم سقوط الأمطار ، فى أكتوبر ، وأصبح ممكناً أن تبدأ إيطاليا زحفها على بلاده .

أما فى جنيف ، فقد كان هناك كلام كثير جداً ، على منبر العصبة ، وداخل أروقتها حول توقيع العقوبات على إيطاليا ، وقد انتفعت إيطاليا بهذا الكلام ، أكثر مما أوذيت بسببه ، فقد كان فى الطليان ، من لم يتحمس لغزو الحبشة ، فلما احس بأن العالم يتكتل ضد بلاده ، تحركت فيه النعرة القوميه ، فوقف الطليان صفاً واحداً وراء موسولينى . ولم تكن بريطانيا وفرنسا ، تقصدان من هذه الثرثرة المسرفة عن العقوبات إلا أن تسدلا الستار حول حقيقة موقف كليهما من الغزوة الإيطالية .

وفى الثانى من أكتوبر ، انتهى موسم الأمطار ، وأمر موسولينى بالتعبئة القومية ، وفى الثالث من أكتوبر سنة ١٩٣٥ ، تجاوزت القوات الفاشيستية الحدود الحبشية غزواً للحبشة ! !

* * *

بدأت الحرب الإيطالية الحبشية تبعاً للتقليد الجديد ، أى بدأت بدون إعلان حرب ! . . . ولكن موسولينى أصيب بخيبة أمل ، فقد كانت تقارير المارشال دى بونو ، وتقارير القناصل الذين انبثوا فى كل ركن من الحبشة ، والذين عملوا السنين الطويلة فى دأب مستمر ، معززين بالمال الكثير ، كلها تؤكد أنه حسب إيطاليا أن تجتاز الحدود ، حتى تقوم فى كل ركن فى الحبشة حركات التمرد والثورة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فقد بقيت الحبشة متماسكة ، فأثبتت أنها على مستوى من الخلق الوطنى يستحق الاحترام ، وأنه عموماً أعلى بكثير من المستوى الوطنى فى صفوف الطليان ، أبناء الحضارة ، وأصحاب رسالة المدنية التى يراد نقلها إلى الأفريقيين ، وليس هذا من قبل القول الذى يلقى على عواهنه ، فسنرى فيما يلى

مصداقاً له ، ودليلا عليه .

غزت إيطاليا الحبشة بلا إعلان حرب ، وقد كان ذلك ، معدوداً كعمل بربرى حتى سنة ١٩٣٠ ، ولكنه بات بعد ذلك إجراء مقبولا ولا اعتراض عليه .

غزا الطليان بالدبابات والطائرات الحديثة ، الحبشة ، التى لم يكن لديها ما تقاوم به هذا الغزو سوى ٤٠ ألف جندى مسلحين تسليحاً حديثاً ، ومدربين على يد الجنرال السويدى فرجين ، أما باقى أهالى الحبشة ، فأكثرهم لم يكن يعرف من فنون القتال سوى استعمال الرمح والسيف ، وقد كان البعض يتوقع أن تشن الحبشة حرب عصابات ، ولكن الحرب أثبتت أن الأحباش ليسوا على دراية بهذا الضرب من القتال الذى لم يبدأوا فى تعلمه إلا فى الشهر الأخير من الحرب مع الطليان . وقد كان أمل إمبراطور الحبشة أن ينجح جيشه الصغير ، والمتطوعون من رجال القبائل النحاف الأجسام السريعى الخطوة ، المتقشفين ، فى مجرد تأخير زحف الغزاة حتى تتدخل عصبة الأمم أو بريطانيا ، فإن الإمبراطور بقى إلى آخر لحظة مؤمناً بعصبة الأمم ، وببريطانيا .

أما الجيوش التى أرسلها موسولينى إلى الحبشة فقد زاد تعدادها عن ٢٠٠ ألف جندى من الأوربيين ، مسلحين أحسن تسليح ، مع ٦٠ ألفاً من الجنود الوطنين (من الصومال وأريتريا) ، ويعزز هؤلاء جميعاً عدد ضخم من المدنيين الذين يعملون فى بناء الطرق وفى غير ذلك من الأعمال الهندسية ، ولم يكن يقف فى وجه هؤلاء إلا جيش الإمبراطور الذى قلنا إن تعداده لم يزد عن ٤٠ ألفا ، ومع أحسن الفروض لا يتجاوز الخمسين ألفا ، و ٣٥ ألفا يكونون نواة فرق مختارة ، كان الضباط البلجيكيون ، قد شرعوا قبيل الحرب ، فى إعدادها ، لا لتكون جيشاً مقاتلا ، بل لتقوم بأعمال الأمن الداخلية . والمتطوعون من رجال القبائل ، وإن كانوا من الرجال الصالحين للقتال الذين يمكن أن يصل عددهم إلى مليون ، إلا أنهم كانوا يعتمدون فى تسليحهم وإمداد هم بالطعام والمؤونة على أنفسهم ، فإذا فرغ زادهم أو ذخيرتهم عادوا إلى بيوتهم : ولا يفوتنا أن نذكر بأن هذه القوات الإيطالية ، كان يساندها ويحميها ٤٠٠ طائرة فضلا عن أنها تلقت مدداً جديداً فى شهرى كتوبر ونوفبر على دفعتين أولاهما بلغت ٢٠ ألفاً من الجنود والثانية ٣٨ ألفاً ؛ فما

الذى استطاعت أن تحققه هذه القوى الهائلة الزاحفة ، التى لم تلق إلا هذه المقاومة البدائية الضعيفة ، بعد شهرين ؟

اتخذ الزحف الإيطالى اتجاهين رئيسيين ، أحدهما من الشمال ، ماراً بماكال ، بحيرة إشانجى ، وديساى . والثانى من الجنوب ، ماراً (بجيجا) ثم (هرر) ثم (ديرداوا) بمحاذاة الخط الحديدى . وحتى آخر شهر نوفمبر وصل الزحف من الشمال إلى ماكال وهى لا تبعد عن الحدود بأكثر من ٥٠ كيلو متراً ، أما الزحف من الجنوب ، بقيادة جرزيانى ، فإنه بعد أن تقدم قليلا ، عاد فتقهقر ، لسبب غير معروف . وفى شهر نوفمبر ، كان الوقت المحدد ، للتحدث عن تسوية النزاع ، بطريقة ودية قد حان فى نظر الإنجليز والفرنسيين ، وفعلا دارت الأحاديث بين لافال الفرنسى ، وصمويل هور البريطانى ، وموسولينى لتوزيع الحبشة على مناطق نفوذ ، أى لابتلاعها تحت اسم أخف وقعاً على السمع ، وأقل تحدياً للشعور العالمى ، ولكن هذه التسوية أخفقت ، لا لأن بريطانيا ، وفرنسا ، عدلتا عنها ، أو كانتا غير عازمتين على إنفاذها ، بل لأن عصبة الأمم ، على ضعف معارضتها ، ونفوذها معاً ، مع معارضة الرأى العالمى ومقاومة الأحباش غير المنتظرة ، هى التى حالت دون إنفاذ تلك الصفقة القذرة .

على أن محاولة تسوية الأزمة الناجمة من الغزو الإيطالى المسلح للحبشة فتحت موضوع السلام وطرائق الدفاع عنه على مصراعيه ، وهو الموضوع المتصل بجوهر هذا الكتاب .

فإن المعارضة العمالية فى بريطانيا وقفت ضد هذه التسوية وأدانت (صمويل هور) لدخوله فى مفاوضات مع (لافال) لتقسيم الحبشة ، من خلف عصبة الأمم ، التى كانت خطب ممثل بريطانيا فيها ، تفيض إيماناً بالعصبة ، وبالضمان المشترك ، وبالسلامة الجماعية للدول .

ولكن ممثلى حزب العمال فى مجلس العموم لم يكن يزيد عددهم عن خمسين عضواً ، وهو عدد قليل جداً إذا قورن بمقدار القوة الانتخابية الحقيقة الموجودة لحزب العمال فى البلاد . ولكن هؤلاء الخمسين لم يكونوا مع قلة عددهم متفقين فى الرأى إزاء المشكلة الحبشية .

فقد كان على رأس الحزب آنذاك ، المستر جورج لانسبورى ، وكان ساعده الأيمن فى هذه الزعامة السير ستافورد كريبس ، ولم يكن مساعداً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؛ فقد كان غير متفق مع زعيمه اتفاقاً كاملا .

وكان لانسبورى رجلا من غلاة الدعاة إلى السلم ، والمؤمنين بالمقاومة السلمية ، ولذلك كانت نصيحته للإمبراطور هيلاسلاسى أن يكف عن القتال ، ويلجأ إلى هذا الضرب من المقاومة أى المقاومة السلمية .

وكان رأى السير ستافورد كريبس متطرفاً فى اتجاه آخر ، مؤداه أنه لا شأن للاشتراكيين بالحروب التى تقوم بين الدول الرأسمالية ، باعتبار أن كلاً من إيطاليا ، والحبشة ، بلدان رأسماليان ، من الخير أن يتركا كلا بعضهما بعضاً .

وإنى أعتقد أنه نصر عظيم لفكرة عدم العنف والمقاومة السلمية ، أن يكون من القائلين بها ودعاتها سياسى وصل إلى زعامة حزب استطاع أن يتولى فى بريطانيا الحكم مرتين ، فإن ذلك يعنى أن الفكرة وصلت إلى حلبات السياسة العملية فى الغرب ، وأنها لم تعد لوناً من أحلام المفكرين ، والفلاسفة النظريين التى لا تتجاوز الكتب ، ولا تخرج عن نطاق المناقشات .

ولو سئلت عن رأيى فى نصيحة (لانسبورى) ، لأيدتها فى الحال ، فى حماسة ، ولكن مع تحفظات . وقد يبدو هذا الكلام متناقضاً ، إذ أن التأييد مع الحماسة ، لا يتفق مع التأييد مع تحفظات ، ولكن هذا التناقض الموهوم لا وجود له فى الواقع .

إذ أن التأييد بحماسة ، معناه ، التأييد بحرارة لجوهر الفكرة ، فالتحفظات لا ترد على الفكرة ذاتها ، وإنما ترد على ملابسات تنفيذها . فالمقاومة السلمية كانت واجبة على الأقل ، لانعدام الجدوى من مقاومة الأحباش العسكرية ، فقد كان الفارق بين القوتين الزاحفة ، والمدافعة هائلا بحيث لم يكن يؤمل للمدافعين أن يحققوا من مقاومتهم شيئاً ذا قيمة ، والإمبراطور نفسه لم يكن يعقد على جيوشه العزلاء البدائية غير المدربة الأمل فى النصر ، بل كان كل ما يطمع فيه — كما قلنا — هو مجرد تأخير زحف الغزاة بأمل أن تأتى الظروف الدولية بما ينقذ استقلال الحبشة فى آخر لحظة .

ولكن الإيمان بعدم العنف لا يعلق على شرط انعدام الفائدة من المقاومة

بالسلاح، وإلا كان أسلوب عدم العنف ، هو أسلوباً احتياطياً ، لا يلتجأ إليه، إلا عند الضعف المادى . وهذا غير صحيح ، وهو فى الوقت نفسه هادم لعقيدة عدم العنف من أساسها .

ولكن المقاومة السلمية ، أو طريقة عدم العنف ، تحتاج إلى إعداد وتدريب ، أطول وأشق من التدريب العسكرى ، ومن إعداد الجيوش . فالمقاومة العنيفة واستعمال السلاح ، هو رد الفعل الغريزى الذى يرد به الإنسان ، على أى أذى يصيبه ، حتى ولو كان عاجزاً عنها عن رده . فتعويد الناس على تحمل تكاليف وآلام المقاومة السلمية، يحتاج أولا إلى تربية روحية طويلة ، وإلى رياضة نفسية شاقة،وإلى القيام بعملين متناقضين : أولهما الإهابه بالجماهير ، واستحثاثهم، وتعميق إيمانهم بالدفاع عن قضيتهم وعدم التهاون فيها ، وعدم التعاون مع أعدائها ، وعدم الخوف منهم . وثانيهما إقناعهم بأن الدفاع المستميت عن القضية ، ليس سبيله العنف ، وإنما سبيله الاستمساك بالعقيدة ، ورفض الإذعان لأرادة الغاصب ، وتحمل أذاه، بلا تفكير فى الرد عليه .

وقد كانت الحبشة خلواً من كل أثر لهذه العقيدة ، ولذلك كان النصح لها بأن تنتقل فجأة من محاولة رد الغاصب بالقوة ، إلى رده بالمقاومة السلميه ، نصحاً لايقوم على أساس من الواقع .

ولذلك كان لا مفر من أن تلجأ الحبشة إلى مقاومة الغاصبين على طريقة حرب العصابات ، وهذا ما نصح به بعض الكتاب الذين تناولوا المشكلة الحبشية الإيطالية؛ فقد كانوا يرون أن الأفضل أن يترك الأحباش الطليان ، فى زحفهم من الشمال والجنوب ، وأن يكتفوا بمناوشات عن اليمين وعن اليسار ، حتى يأتى موسم الأمطار فى السنة ١٩٣٦ (أى السنة التالية) وعندها كان محتوماً على الزحف الإيطالى أن يتوقف ، وبذلك يصبح احتفاظ الطليان بمواقعهم التى وصلوا إليها مستحيلا إزاء هجمات الأحباش بقواتهم القليلة التى احتفظوا بها سليمة ، ولم يبددوها فى مواجهة غير منتجة فى بداية الزحف .

على أن الرأى الثالث فى حزب العمال ، كان يرى أن سبيل مقاومة الغزو الإيطالى ، هو السلامة الجماعية الذى تمثله وتجسده عصبة الأمم بميثاقها ، والذى

كان يقضى على بريطانيا وفرنسا ، وبقية دول الأعضاء أن يقفوا فى وجه الزحف الإيطالى بالقوة ، ولو أدى ذلك إلى حرب ، إذ لو أدركت الدول المهددة للسلام بأنها ستواجه دائماً بالعالم متحداً ، لترددت فى إنفاذ خططها العدوانية .

وجرت الانتخابات فى بريطانيا ، وحزب المحافظين ، يلعب دوريه المتناقضين فى خسة وبراعة معاً ، فهو فى عصبة الأمم ، يتحدث بلسان إيدن ، متحمساً لميثاق العصبة ، ويندد بخرق إيطاليا لهذا الميثاق ، ويطالب بتوقيع الجزاءات المنصوص عليها فيه ، وهو من خلف هذا المنظر الجميل الباهر ، يرتكب أكبر جريمة ، وهى جريمة الاتفاق مع المعتدى الغاصب ، على تمزيق الحبشة . وكانت النتيجة فوز حزب المحافظين بزعامة بلدوين بأغلبية ساحقة ، واستمرت المسرحية التى تمثل على مسرح العصبة ، كأنه لاشىء من خلف مناظرها ؛ ففى السابع من أكتوبر قرر مجلس العصبة بالإجماع أن إيطاليا لجأت إلى الحرب مما يناقض التزاماتها المنصوص عليها فى المادة الثانية عشرة من ميثاق العصبة ، وبعد أربعة أيام من هذا القرار ، أقرت الجمعية العمومية للعصبة ، بأغلبية ٥٤ صوتاً ضد أربعة أصوات قرار المجلس ، وتشكلت فى العاشر من أكتوبر لجنة لتنسيق تنفيذ العقوبات التى ستتخذها كل دولة ضد إيطاليا حسب المادة ١٦ . وبينما كانت لجنة التنسيق تعمل، كانت العقبات من كل نوع تقام فى وجه عملها ، ولما امتنعت دولتان من دول أمريكا الجنوبية الكاثوليكية عن الاشتراك فى تنفيذ العقوبات ، كان ذلك بمثابة مفتاح الفرج لدول أخرى كثيرة صوتت إلى جانب تنفيذ العقوبات فى الجمعية العامة تورطاً ، فقد أخذت هذه الدول فى تهريب السلع الممنوعة إلى إيطاليا عن طريق الدول الممتنعة من المشاركة فى تنفيذ العقوبات، وقد أخذ عدد هذه الدول يزداد فقد انضمت إلى دولتى أمريكا الجنوبية، النمسا، ثم المجر، ثم ألبانيا ؛ ولما انتهت مدة عضوية ألمانيا فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٥ أطلقت لها الحرية فى مخالفة قرار العصبة ، فاتجرت مع إيطاليا بلا قيد ولا شرط،وكانت عضوية اليابان قد انتهت قبل ذلك بكثير . وبهذا تحول قرار العصبة بتوقيع العقوبات حبراً على ورق .

وتقول مجـلة Survey of international affaires أى (دراسات عامة فى

الشئون الدولية » إن قرار العقوبات لم يوضع مطلقاً موضع التنفيذ الجدى منذ إنشاء لجنة تنسيق العقوبات فى العاشر من أكتوبر سنة ١٩٣٥ حتى توصية هذا اللجنه ذاتها بإنهاء العقوبات فى السادس من يوليه سنة ١٩٣٦ »

ويقول و. تيلنج فى كتابه « البابا والسياسة » إن من الحقائق المعروفة أن مندوبى البابا إلى أمريكا اللاتينية بذلوا كل ما يملكون من جهد ونفوذ ، لحمل تلك الدول على السعى لرفع العقوبات عن إيطاليا .

وقد كان موقف الولايات الأمريكية من هذه العقوبات ملفتاً للنظر فقد قررت حظر تصدير الأسلحة إلى إيطاليا وكل السلع الأخرى ما عدا البترول ، بينما لم تكن إيطاليا فى حاجة إلى أسلحة ، وكانت المادة الوحيدة التى تعوزها للاستمرار فى الحرب ، هى البترول .

وفى كلمة أن توقيع العقوبات على إيطاليا كان مهزلة لا تصم عصبة الأمم وحدها ، ولا الدول الكبرى التى تمرغت فى أوحال هذه اللعبة القذرة وحدهم ، بل إنها تصم هذه الفترة من حياة الإنسانية، لا لأن دولة قوية هاجمت دولة ضعيفة ، ولا لأن الدول القوية ، أجازت هذا ، وشاركت فيه ، ولا لأن الأوربين احتقروا الأفريقيين ، وأعلنوا عن احتقارهم هذا فى مشكلة الحبشة بألف أسلوب وأسلوب، ولا لأن هيلاسلاسى ، بقى مخدوعاً فى بريطانيا ، وفى عصبة الأمم إلى آخر لحظة ، مما يكشف عن مدى مركب النقص عند بعض الأفريقيين ولا سيما الملوك أمام المظاهر الزائفة لعظمة أوربا ودعاويها الروحية التى لا تقوم على أساس .

بل إن اللطخة الكبرى التى شوهت صورة هذه الفترة من حياة الإنسانية ، أن تجترئ دولتان كبريطانيا وفرنسا على عملية احتيال مروعة تخدعان بها العالم ، فتبدوان أمامه بصوره ، وتتصرفان بصورة أخرى ، فإن فعلتهما هذه جديرة بأن بأن تزلزل الاعتقاد فى (الإنسان) وقدرته على التسامى والارتفاع بنفسه ، فإن هذا الاحتيال لم يقع لضرورة من ضرورات الحرب التى يلتمس فيها للدول الأعذار عن الجرائم الخلقية التى يرتكبونها ولم يكن هناك ما يدعوهما إلى الإسراف فى التحمس لميثاق العصبة ، والتظاهر بالوقوف إلى صفه ، والادعاء بأنهما غاضبتان من الغزو الإيطالى للحبشة . . .

وقد كانت حصيلة كل هذا الاحتيال أن العقوبات لم تلحق بإيطاليا ضرراً يذكر ، فقد استمرت فى حربها ، وقد اجتمع لديها كل ما يلزمها من سلاح ، فضلا عن أنها اختزنت خلال فترة الخريف ، الكميات التى كانت تحتاج إليها من البترول ، بل إن العقوبات ، أسبغت على موسولينى ، ثوب البطولة فى نظر مواطنيه ، إذ ثبتت فى أذهانهم أكذوبة : إيطاليا ضد العالم .

واستمرت المفاوضات بين هور ولافال من جهة ، وموسولينى ، أو ممثليه من جهة أخرى ، ولم يمنع ذلك أن الأسطول البريطانى قام بمظاهرة بحرية ، تكلف الدولة الكثير ، فهذه المظاهرة ساعدت حزب المحافظين على النجاح فى الانتخابات لأنها أوهمت الشعب أن الحكومة لا تسلم لموسولينى بطلباته ، وأوهمت العالم بأن بريطانيا لا تفرط فى ميثاق العصبة وأفهمت موسولينى فى الوقت نفسه ، أن بريطانيا تسلم له الحبشة ، لا خوفاً منه ، بل لأنها مقتنعة أن ذلك ينفعه هو ولا يضرها هى . وهى تريده راضياً ، لكى يقف ضد هتلر ، عند الاقتضاء .

ولكن الحقيقة بدأت تتسرب حتى إلى عصبة الأمم ، فإن المسيو ڤان زيلند البلجيكى رئيس بعثة تنسيق العقوبات قبل اقتراح لافال وهور ، أن تكل إليهما اللجنة مهمة البحث تحت إشراف العصبة عن حل — يتفق مع روح ميثاقها ، على أن ترضى عناصر هذا الاتفاق الأطراف الثلاثة المعنية ؛ « العصبة ، وإيطاليا ، وأثيوبيا » ولكن اللجنة نفسها كانت أقل مسايرة من رئيسها ، إذ اكتفت بأن سجلت فى محضرها ؛ « أنها أخذت علماً بالرغبة التى أبداها المندوب البلجيكى » . ولكن الصحافة البريطانية والفرنسية ، متأثرة بتوجيهات وزيرى الخارجية فى البلدين ، بدأت تتحدث عن (الوكالة الروحيه) التى تلقاها مندوباهما من العصبة ، للبحث عن حل للأزمة .

والواقع أن الخبراء البريطانيين والفرنسيين كانوا قد فرغوا من إعداد خطة تقسيم الحبشة ، فرسموا خطوطاً حمراء على الخريطة ، لينشئوا حدوداً جديدة ، غير مبالين بما يصيبه أهل الأقاليم التى سيخترقون أراضيها بخطوطهم الحمراء ، ولا عواطفهم ، ولا مصالحهم . وقد اقترح أحد الخبيرين أن يكون حدود الحبشة الجديدة عند خط العرض ٤٠ ، واقترح الثانى أن تكون عند خط العرض ٣٨ ،

ولكن مستر صمويل هور ، نظر إلى الخريطة ورسم اعتباطاً خطاً بقلمه ، ورفض أن يستمع للحديث عن خطوط العرض ٣٨ و ٤٠ أو غيرهما ، وقد اتضح أن هذا الخط ، جرى عند خط العرض ٣٥ ، وأنه منح إيطاليا كل جنوب الحبشه ، فيما عدا الأجزاء الجرداء من هذا الجنوب ، الخالى من السكان ، والملىء بالمستنقعات ، وقد اقترح تعويض الحبشة عن ذلك ، بقطعة صحراوية ، تصلها بميناء عصب فى أريتريا الإيطالية .

ولكن ما كادت أنباء هذه المفاوضات تذاع حتى قامت عاصفة فى الدول الصغرى ، أربكت بريطانيا وترتب عليها سقوط لا فال وهور معاً ، ولكن صمويل هور ، لم يلبث حتى عاد إلى الوزارة ، بعد بضع شهور ، وزيراً للبحرية ، وهذا ما تقتضيه الأمور (فهور) ، لم يكن يفعل شيئاً مما فعله من تلقاء نفسه ، فقد كان فى الواقع ينفذ سياسته بولدوين ، وسياسة الوزارة كلها .

ولكن سقوط هور لم يمنع الحكومة البريطانية من أن ترسل برقيتين إلى سفيرها فى أثيوبيا ، ليغرى إمبراطور الحبشة على قبول التسوية التى مزقت أوصال بلاده ، وقد كان نص البرقية الثانية كالآتى :

لندن فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥

« يجب أن تستعمل أقصى ما لديك من نفوذ لأغراء الإمبراطور ليمنح هذه المقترحات تقديراً مشوباً بالتدقيق والعطف . إنى أشعر بأن جلالته سيقدم دليلا جديداً على حنكته كرئيس دولة بتفهم مزايا فرصة المفاوضة (مع إيطاليا) التى تتيحها هذه المقترحات ، وأنه سيستفيد من هذه الفرصة »

ويقال إن الذى ثنى عزم الإمبراطور عن قبول نصيحة وزارة الخارجية أن (كولسون) مستشاره الأمريكى ، أفهمه أنه بوضع الحبشه تحت الحماية الإيطالية سيفقدها مقعدها فى عصبة الأمم ، ولما كان الأمبراطور — كما قلنا — واهماً بأن حمايته وحماية بلاده لن تكون إلا على يد عصبة الأمم ، فقد رفض هذه المقترحات وقد كان رفضه أو قبوله متساويين ، فإن إيطاليا مضت فى غزو بلاده لأن الشىء الوحيد الذى كان يمنع عجلة الحرب الإيطالية من التقدم ، هو البترول ، وقد اقترح (لا فال) ، تأخير وضع البترول فى كشف الممنوعات إلى مارس ، ثم

تأجل إلى ما بعد مارس ، فكان كل شيء ما عدا ذلك ، ثرثرة لا نفع منها ، واحتيالاً مفضوحاً ، تتقزز له النفس ، ويندى له جبين الإنسان . .

ولنا أن نتساءل أين ذهبت فورة الغضب فى العالم ، وفى الدول الديموقراطية ، عندما كشف التحايل والتآمر بين لافال وهور ، وما الذى أفادته الحبشة من هذه الفورة ؟

يقول (جارات) إن غضب الرأى العام البريطانى ضد هذه الاتفاقية ، كان آخر انفعال يصدر عن البريطانيين مجرداً من المصلحة والهوى ، ومليئاً بروح الإيثار ومحبة الغير ، وإن البريطانيين العاديين بعد ذلك ، وطنوا أنفسهم على أن يروا الدول تمزق أوصالها ، دون أن يتحركوا ، كأنهم أدركوا أن ذلك أمر تقضيه طبيعة الحياة الدولية . والواقع أن الشعوب كلها ، حينما أحست بأن أحداً لم يهتم بالحبشة وأن الديموقراطية والديكتاتورية وأن الصغار والكبار ، متساوون فى إجازة السرقة ، ومباركتها ، أصابهم من خيبة الأمل ، ما انصرفوا معه عن تتبع السياسة الدولية ، إلا كما يتتبع المتفرج الملهاة ، فإن أضحكته ضحك وإلا قام وانصرف . . .

ويقول (جارات) فى عبارة ذات مغزى عظيم :

« لقد ثبت أن موجة الاحتجاج الإنجليزية ضد مشروع الصلح لم تزد عن
« كونها صرخة فى واد ، فهى لم تعن شيئاً . ومعنى هذه النتيجة ، أن موجة انفعال
« هذه الأيام لا تملك أن تفعل قليلا أو كثيراً شيئاً ضد حكومة ثابتة الأركان ،
« معززة بالرأى العام الكاثوليكى والرأى العام الذى يملك المال وبتأييد الأدارة المشرفة
« على الإذاعة البريطانية ، وتأييد أكثر الصحف . فإن كل انفعال الشعب لم ينقذ
« شبراً واحداً من أرض الحبشة ، بل لم يضع فى يد جندى واحد من الأحباش
« بندقية يدفع بها عن وطنه ! »

* * *

أما الحرب نفسها ، فعورة من عورات هذه الحضارة التى يسمونها الحضارة الغربية .

إذ لم يكف إيطاليا تفوقها الساحق فى العدة والعتاد ، ولا انفرداها واستئثارها بالجو فى الحبشة نتيجة استعمالها ٤٠٠ طائرة ، بينما لم تكن فى حوزة الحبشة طائرة

واحدة . ولم يكف إيطاليا أنها دولة حديثة متمدينة ، وأنها تريد أن تنقل الحضارة والمدنيه إلى الأفريقيين ، لأن الأحباش كانوا يعيشون فيا عدا قلة منهم فى القرون الوسطى ، فقد رأت أنها فى حاجة إلى استعمال الغازات الخانقة ، وقد استعملتها فعلا بعد الثانى والعشرين من شهر ديسمبر ، عندما فشل مشروع الصلح الفرنسى البريطانى .

فقد أوقفت زحف الماريشال بادوليو مقاومة فى جبهة (عادى كوالا) التى كان قائدها الرأس (أمرو) فأمر الماريشال باستعمال الغاز الذى أسقطته الطائرات ، فأصيب بعض الجنود بالعمى ، والآخرون رأوا أذرعهم وسيقانهم تحترق ، دون أن يعرفوا لهذه الحروق سبباً ، ولا علاجاً ، ففروا . وقد سادت جبهة الأحباش موجة الذعر التى كانت أشد فتكاً بهم من فعل الغازات الجهنمية التى ألقيت على رءوسهم ، وأسرع تشتيتاً لهم من القنابل التى كانت تمطرها حضارة الغرب على تجمعاتهم ومعسكراتهم . فقد ثبت الأحباش أمام القنابل التى تقذفها الطائرات وأبدوا تحملا وصبراً لا يمكن أن يصل إليه الجندى الأوربى فى أعلى درجاته ، ولكن الأمر الذى كان يوجعهم حقاً ، هو إلقاء القنابل على نسائهم اللواتى كن يعملن فى الحقول ، ويسرن فى شوارع القرى ، واللواتى لم تتردد حضارة الغرب : فى قتلهن ، دون أن تحقق لنفسها بهذا القتل الرخيص لا نصراً ولا شرفاً .

إنما هى الحيوانية الصرفة .

لقد تعلم الأحباش من أصول الحضارة الأوربية قبل أن يتم غزو بلادهم على يد هذه الحضارة ثلاثة أمور: أن عدوك يمكنه أن يبدأك بالقتال قبل أن ينذرك، ثم له أن يقتل نساءك دون مبرر ، من ضرورة حربية ، ثم يمكنه آخر الأمر ، أن يقدم لك السم الزعاف من طائرات تحلق بعيداً ، وقادتها آمنون . ! وقد توج هذا كله بقصف معسكرات الصليب والهلال الأحمر ، وقد اشترك ابن السيد موسولينى السنيور فيتوريو نفسه فى قصف معسكر الصليب الأحمر البريطانى فى (آلو ماشا) فى الرابع من مارس سنة ١٩٣٦ .

وقد قيل فى تفسير هذا الضرب المتعمد لوحدات الهلال والصليب الأحمر إن الطليان كانوا يشفقون من شهادة الأطباء والممرضين الذين يعملون فى هذه الوحدات

بعد الحرب ، عما رأوه من فظائع الجيش الإيطالى ، فإن الدكتور مللى قال إنه كان يعالج فى اليوم الواحد من ثمانين إلى مائة حالة إصابة بالغاز المسموم ، فى وحدة واحدة من وحدات الصليب الأحمر ، فلو شهد الآخرون بمثل ما شهد به الدكتور (مللى) لاكتملت صورة مروعة للحرب الإيطالية فى الحبشة ، خلافاً للعهد الذى قطعته إيطاليا على نفسها مع غيرها من الدول فى ميثاق ١٧ من يونيه ١٩٢٥ .

على أننا لن نجد من وثائق هذه الحرب المروعة ، وثيقة أدعى لاستيقاف النظر ، وأشارة الخاطر ، من صف فتوريو موسولينى ، لا حدى غاراته على قرى الحبشه ، فقد وصف هذا الشاب الذى لم يكن يتجاوز آنذاك الواحدة والعشرين ، الحرب بأنها « رياضة باهرة » وضرب على ذلك مثلا بأن منظر جماعة من الفرسان الأحباش بدا له كأنه برعم من براعم الزهور ، فلما ألقى عليهم إحدى قنابله ، وانفجرت بين صفوفهم ، ثم نثرتهم فى الهواء ، كان منظرهم كمنظر الزهرة التى تفتحت أكمامها . وكانت مشاهدته ، تسلية لا نظير لإمتاعها .

وقد كان الغرض من إرسال أمثال (فيتوريو) من الشبان فى مثل هذه الغارات أن يألفوا الحرب ، وألا يروا فى مآسيها ، ما يهز أعصابهم ، أو يستثير الشفقة فى قلوبهم ، ويعودهم المباهاة بالقسوة ، والتلذذ بممارستها .

وفى الوقت الذى كانت تمارس فيه إيطاليا وحشيتها ، كانت فيه عصبة الأمم ، تواصل بغير حياء ، تمثيل هذه الملهاة غير المسلية ، ملهاة البحث فى العقوبات الواجب إنزالها بإيطاليا ، وعقد لجنتين ؛ واحدة من ثلاثة عشر والثانية من ثمانية عشر عضواً ، راحوا يدورون حول أنفسهم ، وانتهى عملهم فى ٣ من مارس بتأجيل إدخال البترول فى المواد الممنوعة إلى أجل غير محدد ، وفى السابع من مارس ، أعلن هتلر إسقاط إتفاق لوكارنو واحتل منطقة (الراين) التى كان ممنوعاً على ألمانيا بمقتضى معاهدة فرساى تسليحها ، وعلى الرغم من أن ما فعله هتلر ، لا يعدو أن يكون استرداداً لحق بلاده ، فمنطقة الراين من ألمانيا ، وقد استعادها دون أن يطلق قذيفة واحدة ، ودون أن يستعمل الغازات الخانقة ، أو يدوس على قاعدة واحدة من قواعد القانون الدولى ، ولكن عمل هتلر ، كان أخطر عند إنجلترا وفرنسا من كل فظائع الحرب الحبشية ؛ ذلك لأنه قلب ميزان القوى فى أوربا ، ومن هنا فقد صدرت الأوامر للصحف بأن تخفف من عبارتها ضد إيطاليا ، وأن تقلل من

اهتمامها بغزو الحبشة ، وأفهمت إيطاليا ، تلميحاً أو تصريحاً ، أن المطلوب منها ، أن تسرع بالإجهاز على الفريسة ، حتى يمكن النظر فى الموقف الذى جد فى أوربا . . . !

ويقول (جارات) إن الحكومة البريطانية لم تجد حرجاً فى هذا الفصل الجديد من فصول سياستها إزاء إيطاليا وحربها فى الحبشة ، الذى لا يختلف كثيراً عن الفصول السابقة ، باعتبار أن سياسة بريطانيا منذ البداية هى تسليم الحبشة لإيطاليا . ويبرر (جارات) سهولة تطبيق هذه السياسة وجود رأى عام عاطف على إيطاليا . ويقول إن أول عناصر هذا الرأى العام ، هو الفريق المتطرف فى حزب المحافظين ، وفى حى الأعمال (الستى) الذى كان يكره منذ البداية عصبة الأمم ، وكان يساندهم فى هذه الكراهية معظم صحف لندن وصحف الأقاليم . وكان مجمل رأيهم أن الحرب الإيطالية فى الحبشة ، هى (مسألة استعمارية) لا يمكن أن تطبق عليها قواعد الحرب بين الدول المتمدينة ، ولا قواعد القانون الدولى العام . وكانوا يكرهون بنفس درجة كراهيتهم لعصبة الأمم ، فكرة القانون الدولى ، واحتمال التدخل فى الاستغلال التجارى وتحديده ، الأمر الذى قد يؤدى إلى إمكان تقدم أى مجموعة من السود ، إلى عصبة الأمم بقضية ضد مجتمع أوربى أبيض . ويجب أن يضاف إلى أثر هذه المجموعة المسرفة فى التحفظ ، أعضاء الصالونات الفاشيستية التى كانت فكرة الدولة الكلية التى تجتمع فيها جميع السلطات بيد حاكم وزعيم ، تستهويهم كثيراً ، وتعوضهم عن شعورهم بالقرف والاشمئزاز من الحكومات الديموقراطية الضعيفة كما يضاف إلى هذين الفريقين — فى رأى جارات — الرأى العام الكاثوليكى فى بريطانيا ، وفى أوربا ، فقد وقف هذا الرأى العام ، بعد فترة قصيرة من التردد ، وراء موسولينى ، ويؤيد الكاتب الإنجليزى ، رأيه بما جاء فى كتاب من وضع مؤلف كاثوليكى معروف هو تيليبيخ بعنوان « البابا والسياسة » فقد جاء فى هذا الكتاب :

« لا يمكن أن يقال عن البابا إنه أراد الحرب ، وقد قال ذلك قداسته ، بأوضح عبارة . ولكنه لزم الصمت ، ولزمه وقتاً أطول مما كان يجب . وصحيح أيضاً أنه تاق أن يرى انتشار الكاثوليكية فى الحبشة ، وكان يعتقد أن ذلك لا يمكن تحقيقه

بغير تأييد من إيطاليا .

« وصحيح أن قداسة البابا ألقى بثقله مع قادة الدول الكلية « الدكتاتورية » (مثل موسوليني) ، فقد خالجه الشعور بأن سياسة موسوليني الاستعمارية تعني انتشار نفوذ كنيسته في البلاد المفتوحة ولكنه مع ذلك لم يشبع كل رغبات موسوليني ، فقد حاول الأخير بكل قواه أن يحمل البابا على أن يبارك الجيوش الإيطالية وأن يقف بكلياته مع إيطاليا . وقد رفض البابا أن يفعل ذلك بنفسه ، ولكنه لم يرفع أصبعاً واحداً ليمنع سائر أساقفة إيطاليا إلى أصغر قسيس فيها ، من الذهاب إلى منابر الفاشيستيه ، ومن فعل كل ما يمكنهم أن يفعلوه لتأييد الجيوش الإيطالية » .

* * *

لم يبق من عصبة الأمم بعد الحرب الحبشية بقية تستحق الذكر ، فقد أثبتت تلك الحرب أنها شبح لا ينفع ويضر ، وأن كل أمل ينعقد عليها ، هو أمل ضائع .

ولكن الحرب الأسبانية الأهلية ، جاءت بعد الحرب الإيطالية الحبشية ، أشبه شيء بالضربة التالية ، للضربة القاضية ، مجرد لكمة ، موجهة إلى من انتهت مقاومته فعلا ، وبدأ يسلم الروح .

ولذلك فلسنا عازمين على إضاعة وقت طويل في تسجيل وقائع الحرب الأسبانية إلا بالقدر الذي يبرز معناها ، فيما يتصل بموضوعنا : السلام ، وعصبة الأمم ، ومعسكرات الدول قبل الحرب العالمية الثانية .

وقد وقعت الحرب الأهلية الأسبانية ، بعد الحرب الإيطالية الحبشية ، بقليل ، فبدت وكأنها امتداد لتلك الحرب الأخيرة ، فإيطاليا الفاشيستية بعد أن فرغت من غزو الحبشة على مسمع ومرأى من العالم المتمدين ، وبعلم وموافقة وتآمر الدول الديموقراطية ، وتحت سمع وبصر عصبة الأمم ، أدركت أن قوى السلام في العالم أضعف من أن تقاوم طموح الدول الراغبة في تحقيق مطامعها الاستعمارية ، واحتلال مكانها بين الدول الكبرى ، فمضت تمارس نشاطها العسكري والسياسي في الحرب الأسبانية بغير تحفظ ، وقد زادت أقدامها ثباتاً هذه المرة ، لأنها وجدت لها حليفا قوياً ، هو ألمانيا النازية ، التي كانت قد جربت أسلوب التحدي للمعسكر الديموقراطي ، وعجمت عوده ، فرأت أنه كثير الجعجعة ، قليل الطحن ، وأنه

يؤمن فى قرارة نفسه أن ما نزل بألمانيا وإيطاليا من الغبن فى معاهدة فرساى ، وملحقاتها ، كان خطأ يجب أن يصحح ، وإن كان لا يملك الشجاعة للإقرار بذلك ، والعمل على إقامة مجتمع دولى ، تعالج فيه المشكلات بإنصاف وعلنية ، وبطرق سلمية .

وقد جاءت الحرب الأسبانية ، بعد الحرب الحبشية مصداقاً للنظرية القائلة ، إن الحرب كالمرض ، فهى لا تقع إلا حيث يكون هناك تخلف حضارى ، أو فساد سياسى ، أو اضطراب اقتصادى . فالحروب هى المظاهر الخارجية ، للخلل فى العلاقات الإنسانية فى مجتمع صغير ،أو مجتمع كبير ؛ فى دولة ، أو أو مجموعة دول .

فأسبانيا إن كانت دولة من دول أوربا ، إلا أنها فى المجموع ، ليست أحسن حالا بكثير من الحبشة ، فالإقطاعية والفقر ، والاحتكار السياسى ، بل الأمية ؛ كانت فاشية فى أسبانيا قبيل الحرب الأسبانية الأهلية ، فشوها فى الحبشة . فدخل الفلاح الأسبانى كان لا يزيد عن ٣٦ جنيها استرلينيًّا ، فكان يعيش على ليمونة وقطعة سكر وكوبة نبيذ . وكان توزيع الثروة الزراعية دليلا ناطقاً بفساد الأساس الاقتصادى لأسبانيا ، فقد كانت الأرض المزروعة فيها تبلغ ٤٥ مليوناً من الهتكارات موزعة ملكيتها على الوجه التالى :

٥٠ ألفاً يملكون	٢٣ مليوناً من الهتكارات	أى ٥٠٪
٧٠٠ ألف يملكون	١٥ مليوناً من الهتكارات	أى ٣٥,٢٪
مليون يملكون	٥ ملايين من الهتكارات	أى ١١,١٪
مليون و ٢٥٠ ألف يملكون	١ مليوناً من الهتكارات	أى ٢,٢ ٪
٣ ملايين	٤٤ مليوناً	

ولم يكن ملاك الأرض الزراعية من الأسبانيين ، فقد كان من بين الملاك الزراعيين الكبار عدد غير قليل من الأجانب عدا عدد من الأسبانيين الذين لا يقيمون فى إسبانيا ، ومن هؤلاء دوق مدينا شلى الذى كان يملك فى سنة ١٩٣٦ ١٩٥ ألفاً من الأفدنة ، بينما كان الدوق (بنارنادا) يملك فوق مائة ألف فدان ، والدوق البا ٩٠ ألفاً أما الدوق البريطانى ولنجتون فكان يملك مزرعة هائلة فى جرانادا ،

بينما كان الماركيز البريطانى أيضاً « بيوت » من أكبر ملاك الأراضى فى جنوب أسبانيا .

وقد كانت أسبانيا ترزح تحت حكم ديكتاتورى ، يحمى هذه الأوضاع الفاسدة ، وتسود فى ظله رقابة جاهلة على كل ما يقال وينشر ، وكان آخر ديكتاتورية من هذا الطراز هى حكومة الملك الفونسو الثالث عشر ، ورئيس وزرائه الديكتاتور الجنرال بريمودى ريفيرا . وقد اهتز هذا البناء المتداعى فى أثر هزيمة منكرة نزلت بجيوش أسبانيا ، فى معارك التحرير التى شنها البطل المغربى الأمير محمد بن عبد الكريم ، فقد جرت انتخابات البلدية فى ذلك الحين ففاز الجمهوريون بأكثر المقاعد ، فعرف الملك ، من أين تهب الريح ، ففر تاركاً عرشه ناجياً بجلده ، وكان طبيعياً بعد ذلك أن تصبح أسبانيا بعد الكبت والضغط الطويل ، كمرجل يغلى ، فارتفعت الأصوات من كل نوع ، فاختلطت أصوات الفوضويين الذين لا يؤمنون بأية حكومة ، بأصوات النقابيين والديموقراطيين الأحرار والجمهوريين المحافظين ، والاشتراكيين الزراعيين ، والثوريين الماركسيين ، والشيوعيين ، والرأسماليين الزراعيين ، والكاثوليك المتزمتين ، والكاثوليك المتحررين والملكيين الديموقراطيين ، والفاشست الجدد وعباد الملكية المطلقة ، وانضم إلى هؤلاء جميعاً دعاة الاستقلال المحلى للأقاليم .

وما لبثت أسبانيا أن شهدت بعد ذلك قيام حكومة جمهورية ، أضاعت وقتاً طويلا فى ثرثرة دستورية وقد استغل فرصة قيامها عدد غير قليل من الساسة غير المجربين . وقد انتهى هذا كله بوضع دستور احتوى على عدد غير قليل من النصوص الطريفة ؛ منها أنه لا يحق لرئيس الدولة أن يعلن الحرب إلا بعد موافقة عصبة الأمم ، وأن جميع الاتفاقات الدولية التى تسجل فى عصبة الأمم وتوافق عليها ، تلزم الحكومة الأسبانية وقد انتهت هذه الثرثرة باستقالة رئيس الجمهورية (زامورا) بسبب الخلاف حول المادة ٢٦ من الدستور ، التى كانت تقضى بنفى الجزويت من البلاد ، وتحديد نشاط الكنيسة المالى والتجارى . فقد كان فى البلاد جزء كبير يشكو من اتساع نشاط الكنيسة المالى ، إذ كانت أكبر الملاك الزراعيين ، وكان كثير من أملاكها معفى من الضرائب ، فضلا عن أنها كانت تستثمر مالا كثيراً فى عدد من المشروعات

التجارية التى كانت تلقى من الدولة رعاية خاصة ، هذا كله إلى جانب تدخل الكنيسة فى تحديد ما يجوز تداوله ونشره من الكتب والآراء . وباستقالة الرئيس (زامورا) حل محله الرئيس (أزانا) . ومنذ سنة ١٩٣٣ أحست جميع الكتل المعادية لحركة التطور والتقدم ، بأن بقاء الحكم الجمهورى ، واستقراره سيؤدى إلى اقتلاع جذورها شيئاً فشيئاً ، وتضيق الخناق عليها ، فقررت التخلص من ذلك الحكم ، وقامت فعلا بانقلاب ، استمر حتى سنة ١٩٣٦ إذ جرت انتخابات فى تلك السنة أسفرت عن نجاح للجمهوريين ، فقد ظفروا بأربعة ملايين و ٢٠٦ ألفاً من الأصوات ، بينما نالت جميع الأحزاب اليمينية ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف من الأصوات .

وقد وزعت مقاعد المجلس النيابى التى ظفرت بها جبهة اليسار على الوجه التالى:

الجمهوريون اليساريون :	٨٤	مقعداً
الاتحاد الجمهورى	٣٧	«
حزب كتالونيا الجمهورى	٣٦	«
حزب الباسك	١٠	«
الاشتراكيون	٨٩	«
الشيوعيون	١٦	«
أحزاب أخرى يسارية	٥	مقاعد

ومع أن الشيوعيين كانوا من أضعف الأحزاب وأقلها نصيباً فى هذه الانتخابات فقد ارتفعت أصوات الجبهة اليمينية بأن الشيوعية تكتسح أسبانيا ، وأنه إن لم يتخذ إجراء ما لوقف زحفهم فإن الدين ، ومقومات الشعب الأسبانى الأصيلة ، ستداس بالأقدام .

ولم يتأخر موسولينى فى انتهاز الفرصة ، فاتصل بعدد من زعماء جبهة اليمين ، ووعدهم بمساعدة أى حركة تقوم فى وجه الجمهورية التى أسفرت عنها الانتخابات.

وقد بدأ التمرد ضد الحكومة الأسبانية فى ١٧ من يوليه سنة ١٩٣٦ ، وقد وصل الجنرال فرانكو الذى قاد الانقلاب فيما بعد من بجزائر كناريا الواقعة فى المحيط الأطلسى حيث كان يعمل ، مستخفياً فى زى جندى عربى ، إلى مدينة تطوان

فى ريف المغرب الواقع فى الشمال ، وقد ردت الحكومة على هذا التمرد ، بإسقاط القنابل على مركز قيادة الانقلاب فى تطوان ، فأذاع الجنرال فرانكو بياناً وقعه بوصفه القائد العام للقوات المقاتلة فى أفريقيا ، وهدد فيه رئيس الحكومة بأنه سيحاسبه على إلقاء القنابل على المدن التى أودت بحياة الأطفال والنساء الأبرياء ، ومضت الحرب الأهلية . ولما كان الجيش ، منذ أحقاب ، مع عناصر اليمين ، فإن الحكومة الجمهورية الشرعية ، كانت فى حال لا تحسد عليه ، وقد نشرت جريدة (التيمس) البريطانية — وكان هواها مع الجنرال فرانكو والانقلاب — بياناً بما كان لدى الحكومة من أسلحة فقالت إنه لم يكن عدد البنادق ليزيد عن ١٤٠٠ بندقية ، وثمانية مدافع رشاشة ، ومدفع كبير واحد . ولذلك كان أمل موسولينى ، — وهتلر — بعد الانضمام إليه — فى أن يكتب للانقلاب نجاح سريع ، وألا يحتاج إلى تدخل صريح سافر ، ولكن الذى حدث أن مدريد ، قاومت ولم تسقط ، واستمرت مقاومتها ست سنوات كاملة .

لقد تلقى الجمهوريون فيما بعد من روسيا السوفيتية طائرات مطاردة ، ولوريات ، ولكن لم تكن هذه الأسلحة كافية وحدها لأن تكون قوام الثبات والاستبسال اللذين أبداهما الجمهوريون وجميع جبهة اليسار .

ولكن الشيء الذى لا يجادل افيه أحد ، أن أسبانيا استمرت مسرحاً للون رهيب من الحرب بين أبناء البلد الواحد ، كانت سلسلة متصلة من المذابح ، وحسبك أن تقرأ التعليمات التالية التى ينسب الجمهوريون صدورها إلى أنصار فرانكو ، لترتسم أمامك صورة من هذه الحرب البشعة :

« إنه لتأمين الأقاليم المحتلة لابد من إشاعة الفزع فى قلوب السكان ، ولذلك عندما تحتل قواتنا موقعاً يكون من الواجب إلقاء درس على السلطات المحلية بهذا الموقع ؛ فإذا فروا وجب أن يحل محلهم أفراد أسرتهم فى تلقى هذا الدرس . وفى جميع الأحوال يجب أن تكون الطرق المستعملة فى التأديب ذات مظهر وطبيعة بالغى التأثير ، وأن تكون دلالتها واضحة على أن قواد الفرق معتزمون أن يلجأوا إلى نفس الشدة كلما لقوا مقاومة . ويجب اعتبار كل مدينة على طول خط انسحاب الاعداء ، وكل المناطق التى حولها ، كمناطق للقتال . وفى هذا الصدد لا يجب أن نفرق بين

الجهات التى آوت جنوداً ، والجهات التى لم تأوهم . إن الفزع الذى يستولى على السكان على طول خط انسحاب العدو . لمن العوامل الأساسية ذات الأهمية القصوى التى تساعد على هبوط معنوية قوات الأعداء . وقد دلت التجارب فى الحرب العالمية الأخيرة على أن تدمير مستشفيات الأعداء ، ونقالات الإسعاف كان له أبلغ الأثر فى تدمير معنويتهم »

« وينبغى على الضباط القائمين على قيادة الوحدات المختلفة ، بمجرد دخولهم مدريد ، أن يقيموا مواقع للمدافع الرشاشة ، على أسطح الأبنية العالية المتسلطة على الأحياء المختلفة ، بما فيها أبراج الكنائس ، حتى تصبح الشوارع واقعة فى مدى طلقات هذه المدافع ، وعند قيام أية مقاومة من الأهالى يجب أن توضع الشوارع تحت سيطرة النيران بدون أدنى محاولة للتفاوض . ولما كان عدد كبير من النساء قد حارب فى صفوف الأعداء فإنه لا يجب التمييز عند القيام بهذه العمليات بين الرجال والنساء »

انطلق كل فريق فى ضرب الآخر بكل سلاح ، ولم يتردد الجمهوريون فى حرق الكنائس والأديرة ، وضربها بالمدافع مبررين فعلهم هذا بأن الانقلابيين الفاشيست اتخذوا من الكنائس والأديره مخازن للأسلحة ، ومواقع لنصب المدافع . أما الانقلابيون ، فقد ثبت بما لا يقبل الشك ، أنهم كانوا يقتلون بالآلاف ، وخارج ميدان المعركة ، العمال النقابيين ، باعتبارهم قادة الجبهة الجمهورية ، وقد بلغ عدد من أعدم من هؤلاء فى أشبيلية وحدها ٩ آلاف .

وقد لزم المعسكر الديموقراطى فى المرحلة الثانية من الحرب الأهلية سياسة عرفت وقتئذاك بسياسة عدم التدخل ، وهى سياسة شبيهة تماماً بسياستهم فى الحرب الحبشية التى أدت إلى سقوط الحبشة فى أيدى الطليان . فقد كان ظاهر هذه السياسة أن تتواصى الدول جميعاً بعدم التدخل فى الحرب الأسبانية الأهلية ، وألا تعين طرفاً على طرف ولكن ألمانيا وإيطاليا ، مع الموافقة على هذه السياسة كانتا لا تخفيان خرقهما لها . فقد كانت بريطانيا ، أو دوائر النفوذ فيها ، تفضل ألف مرة نجاح فرانكو الفاشيستى على قيام حكومة ذات ميول يسارية ، بدأت تتلقى المعونة من روسيا السوفيتية ، ولم يكن كبار الملاك البريطانيين يملكون الإقطاعيات الواسعة فى أسبانيا

فحسب ، بل إن رءوس الأموال البريطانية كانت تستثمر فى صناعات التعدين ، والصناعات الهندسية فى أسبانيا وفى تصدير النبيذ منها ، وقد كان حرق الكنائس والأديرة ، مما يؤكد الدعاية المنظمة ضد الحكومة الجمهورية ، بأنها حكومة ملاحدة وشيوعيين وخصوم للكنيسة وللدين عموماً .

أيد موسولينى أول الأمر سياسة الحياد من الحرب الأسبانية ، واشترك ممثله فى لجنة كان مقرها فى لندن سميت « باللجنة الدولية العليا لعدم التدخل » ، وقد كانت لجنة عاجزة تشبه لجان العقوبات التى شكلت خلال الحرب الإيطالية الحبشية .

ولما لم يحقق فرانكو نجاحاً سريعاً ، قبل موسولينى أن يأتى هتلر لمعاونته ، فأرسلت ألمانيا فوراً عدداً كبيراً من الطيارين ، ولما أريد تأليف لجنة دولية جديدة اسحب المتطوعين من أسبانيا أيًّا كان الفريق الذى يساعده المتطوعون ؛ رفض جراندى وزير خارجية إيطاليا ذلك ، وأعلن بصراحة أن بلاده لن تسحب متطوعاً واحداً حتى يتم النصر .

وفى يونيو سنة ١٩٣٧ صرح موسولينى نفسه بقوله : « فى القتال العظيم الذى وقف فيه طرازان من الحضارة وجهاً لوجه ، لم تقف إيطاليا على الحياد ، بل إنها حاربت وسيكون النصر حليفها » كما كتب جايدا رئيس تحرير جريدة الفاشيست الرسمية أن حكومة إيطاليا بعد تقدير الموقف كله ، قررت ألا يغادر المتطوعون الإيطاليون أرض أسبانيا حتى يتم نصر كامل لقوات الجنرال فرانكو »

إذن قرر المعسكران ، الفاشيستى والديموقراطى أن يجربا قوتهما الواحد ، فى مواجهة ، الآخر ، وأن يتخذا من أرض أسبانيا ميداناً للتجربة ، وقد ثبت للفاشيست أنهم أقدر على المجازفة وعلى تحمل المسئولية ، وأن أسلحتهم أكثر فاعلية بدليل أن فرانكو انتصر فى ٣٠ من مارس سنة ١٩٣٩ إذ دخل مدريد فى ذلك اليوم ، ولذلك كان من حق المعسكر المنتصر ، ألا يصبر طويلا ، وكان طبيعياً أن تقوم الحرب العالمية فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ من السنة .

الفصل الثامن

اندلاع الحرب العالمية الثانية

كم يأسى الإنسان ، حينما يستعيد ذاكرته صورة تشمبرلين ، الشيخ العجوز ، وهو يهبط من درجات سلم الطائرة ، وفى يده ورقة الصلح التى وقعها مع هتلر فى ميونخ والتى ظن معها أنه أعاد السلام إلى أوربا وحقن دماء البشر . . ثم حينما يذكر كيف أصاب الشعوب فى بريطانيا وفرنسا ، وكل دول أوربا ، جنون الفرح ، إذ تصوروا أنهم لن يخوضوا حرباً عالمية ثانية . . فقد ثبت أن هذا كله . لم يكن سوى أضعاث أحلام ،وأن الحرب ، كانت قد تهيأت لها كل أسباب الانفجار وأنها زاحفة عليهم ، ستدهمهم من كل جانب . .

ولسنا نود أن نضيع وقت القارئ فى تفاصيل الفرحة السابقة على الحرب ، إذ حسبنا أننا تأملنا طويلا فى الحرب الحبشية والحرب الأسبانية كمقدمة وثيقة الصلة بالحرب العالمية تكشف لنا كيف كان الساسة ، يفكرون ، وكيف كانت عوامل الحرب تتجمع ، وكيف كانت الشعوب تخدع ، ويضحك عليها ، وتزيف لها الأمور . . .

وقد وقف بنا الحديث عند إجابة دول الغرب الكبرى ، فرنسا وبريطانيا ، لطلبات هتلر ، فيما يخص منطقة السوديت ، وقد كان الظن أن هتلر ، سيقنع بأن يضم إلى ألمانيا الكبرى ، هذه المنطقة التى تسكنها أغلبية ألمانية ، لا جدال فيها ، ولكن هذا الأمل تحطم بجينما خطا هتلر ، خطوة أخرى ، فى ربيع سنة ١٩٣٩ ، بعد أن حرم تشيكوسلوفاكيا من حدودها المنيعة ، ومن مصانع أسلحتها الضخمة ، وفى مقدمتها مصانع سكودا ، ومن صناعاتها الناجحة ، إذ غزا أقاليم التشك أنفسهم ، ثم احتل براغ ، ، وأعلن أن دولة تشيكوسلوفاكيا قد حلت ، وألحق إقليمى بوهيميا ومورافيا بألمانيا ، ثم ترك إقليم سلوفاكيا ، متمتعاً بحكم ذاتى. فالألمان الذين كان يثيرهم أن تخضع أقلية ألمانيا لحكم تشيكوسلوفاكيا ، أدمجوا فى حكمهم أقلية تشيكية تزيد ثلاثة أضعاف عن الأقلية الألمانية فى الدولة التشيكية

وبعد ذلك بقليل ، ألحق هتلر ميناء ممل بألمانيا وهو ميناء ألمانى قح منتزعاً إياه من لتوانيا .

وبذلك تكون سياسة التّهدئة الّتى اتبعها تشمبرلين قد انهارت واستحالت أنقاضاً — وأصبحت المسألة هى مسألة الوقوف فى وجه ألمانيا النازية ، إذا همت بزحف جديد — ولذلك فقد بادرت بريطانيه ، فقطعت على نفسها عهداً لبولندا بالوقوف إلى صفها إذا هى هوجمت ، وبذلت نفس العهد ، لكل من رومانيا واليونان ، كما وقعت ميثاق المعونة المتبادلة مع تركيا ، وحاولت مع فرنسا ، جاهدتين أن تكونا مع روسيا جبهة كبرى من الدول ضد التغول الألمانى . ولكن المفاوضات مع الاتحاد السوفيتى ، جرت بطيئة متثاقلة ؛ ذلك لأن الاتحاد السوفيتى اشترط لتوقيع أى اتفاق مع فرنسا وبريطانيا ، أن يسمح لجيوشه بالدخول إلى بولندا وفنلندا ودول البلطيق الصغرى (لتوانيا واستونيا ولتفيا) لتكون هذه الجيوش قادرة على مساهمة جدية. ولكن بريطانيا وفرنسا اعتذرتا بأنهما لا يجدان من نفسيهما الشجاعة لإرغام هذه الدول على قبول هذا الطلب ، وكانت شعوب هذه الدول بدورها غير مستعدة للتطوع بقبول هذا الشرط من غير ضغط. معتقدة أن الجيوش السوفيتية إذا وضعت أقدامها على أرضها ، فلن تخرج بعد ذلك أبداً . . .

ولكن دوائر حزب العمال ، قالت إن هذه ليست سوى حجة ، تذرعت بها الدوائر المعادية فى حكومة المحافظين للاتحاد السوفيتى ، ولكل تقارب منه ، أو تعاون معه . وإن المسئولية عن فشل هذه المفاوضات تقع على عاتق هذه الدوائر لا على روسيا . ومع فشل هذه المفاوضات ، بقيت بريطانيا متمسكة بعهود الضمان التى أعطتها لبولندا ولليونان ولرومانيا أيضاً ، ثم أتبعت ذلك ، كدليل على تصميمها على اتخاذ موقف جديد ، يضع حداً لسياسة التهدئة فأدخلت قانون التجنيد الإجبارى . فردت ألمانيا على ذلك بدعم محور روما برلين ، وجعله أصلب عوداً ، وأكثر إحكاماً ، كما حاولت أن تمد نطاقه إلى اليابان ، والمجر ، ويوغسلافيا ، وأسبانيا .

واستولت حمى التسليح على الدول ، وانهمكت فى تنفيذ برامجها الهائلة ،

إلى الغاية التى بدت معها برامج التسليح قبل سنة ١٩١٤ ، أشبه شىء بلعب الأطفال .

ولما أوشك صيف سنة ١٩٣٩ على الانتهاء ، بدا واضحاً أن الضربة الثانية لألمانيا ستوجه إلى بولندا .

وقد كانت ألمانيا ، فى بداية عهدها النازى ، قد أبرمت مع بولندا معاهدة عدم اعتداء ، ومع ذلك فقد بقى البولنديون مضمرين الكراهية لجيرانهم الألمان ، فلما استطاع هتلر ، أن يظفر بطلباته جميعاً من دول الغرب ، كانت الفرصة جد مناسبة ، لعرض مطلبين ، كانا مصدرى ضيق للألمان ، أولهما موضوع ميناء دانزج ، الذى تسكنه أغلبية ساحقة ألمانية ، والذى قضت معاهدة فرساى بجعله ميناء حرًّا لا يتبع ألمانيا ولا بولندا ، لكى يكون منفذاً لبولندا إلى البحر ، وثانيهما موضوع الممر البولندى ، الذى انتزع أيضاً من الأرض الألمانية ، وألحق ببولندا ، فأصبح فاصلاً بين روسيا الشرقية وبين سائر الوطن الألمانى.وقد واصلت الصحف الألمانية، هجومها على بولندا . ومع ذلك احتفظ البولنديون بهدوئهم ، وأعلنوا أنهم مستعدون أن يتفاوضوا ، بشرط ألا تتم المفاوضة فى ظل التهديد ، ولكن الجميع ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، أدركوا أن القدر نطق بحكمه الذى لا يرد ، وأن حرباً جديدة فرضت على البرية ، حرباً أشد ضراوة وأوسع نطاقاً وأبشع عاقبة ، من كل الحروب التى شهدتها الإنسانية المسكينة . فقد أعلن فى ٢١ من أغسطس سنة ١٩٣٩ أن ميثاق عدم اعتداء ، قد وقع بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى ، بينما كان الوفد السوفيتى فى لندن ، يواصل مفاوضات تجر رجليها فى بطء زاهق للنفس . وأحس الناس أنهم خدعوا ، وكأن لسان حالهم فى هذه اللحظة كان يقول : « حتى أنت يابروتس ! » .

فقد كان الاتحاد السوفيتى ، إلى ذلك اليوم أحسن الدول سمعة ، من حيث حرصه على السلام ، وكرهه للحرب ، وزهده فى التوسع على حساب الغير . فما الذى حدث حتى أضاع كل هذا الرصيد العظيم من السمعة الطيبة ، والمكانة النظيفة ؟ ؟

وإنى لأذكر يوم ٢١ من أغسطس سنة ١٩٣٩ وأذكر ما جرى فيه، كأنه حدث

بالأمس ، فقد كنت فى هذا اليوم ، فى مقر الحكومة الصيفى بالإسكندرية ، ودخل موظف سمين إلى المكتب الذى كنت فيه معلناً بصوت عال ، وبرنة فرح عجيبة ، بأن الاتحاد السوفيتى ، أبرم اتفاقاً مع الألمان ، فتولانى الوجوم ، ووقفت ساهماً ، فقال زميل كان معى ؛ هذا الأحمق يفرح بالحرب . . ! وسرت ، وكنت على موعد مع رئيس الحكومة المصرية فى ذلك اليوم ، وأنا لا أدرى ماذا أقول له عن هذا النبأ . ولكن الذى شغلنى كثيراً سرور هذا الموظف ، ولم أسترح إلا حينما اهتديت إلى تفسير معقول له . ولا تفسير له إلا أن المصريين ، كانوا يفرحون بكل ما يجرى ضد بريطانيا ، ويرحبون بكل خروج عليها ، أو تحالف ضدها . وكان أكثر المصريين معجباً بألمانيا ، وصناعتها ، وجيشها ، لأنها الدولة المنافسة لبريطانيا ، وكان الروس يظفرون بالحب ، لأنهم يعلنون عداوتهم للاستعمار وعلى رأسه بريطانيا ؛ فوقوف هاتين القوتين معاً ، تطيب له نفس المصريين ، باعتباره تحالف الأقوياء ضد بريطانيا . ولو كان هذا التحالف صادقاً . لتغير وجه التاريخ ، ولكنه كان بطبيعة الأمور ، مرحلة فى السياسة الخارجية لكل من الاتحاد السوفيتى وألمانيا ، وكان لابد أن يقع بينهما التصادم المروع الذى وقع .

أما تفسير إبرام هذا الميثاق من جانب الاتحاد السوفيتى فسهل، إذ كان لابد من مهلة للاتحاد السوفيتى ، يستعد خلالها الجيش الأحمر ، ليكون كفءاً لمواجهة الجيش النازى الضخم ، ولعل السوفييت كانوا يطمعون فى حرب طويلة المدى بين الدول الرأسمالية تستنفد قواهم ، وتستهلك حيويتهم ، وتجعلهم هدفاً أقل حيلة ، وقوة ، أمام الدولة الشيوعية .

وقد كان من حق ربنتروب وزير خارجية هتلر ، أن يطمع فى أن يلقى ميثاق عدم الاعتداء مع السوفييت ، الفزع فى قلب بريطانيا وفرنسا ، فيحملهما ذلك على أن يتخليا عن بولندا. ولكن خاب هذا الأمل، إذ أن بريطانيا وقعت فى ٢٤ من أغسطس آخر الوثائق الخاصة بتحالفها مع بولندا . ومع ذلك فإن هتلر ، لم ينثن عزماً عن الاستمساك بموقفه، مع أن خطر الحرب كان محققاً بسبب موقفه هذا. ولكن كان تقدير هتلر ، أنه إذا أقضى على بولندا نهائيًّا فى أسابيع قليلة ، فإن بريطانيا وفرنسا ، ستكونان سعيدتين ، بانسحابهما من هذه المحالفة ، باعتبار أن

سحق بولندا يجعلها غير ذات موضوع ؛ فإذا ركبت بريطانيا وفرنسا رأسهما ، وخاضتا حرباً عالمية ، فإن خوض حرب عالمية فى سنة ١٩٣٩ سيكون أفضل له ، إذا أن هذه الحرب العالمية تبدو أمراً لا مفر منه ، فإن جاءت وهو أقوى بكثير من أعدائه ، فإن النتيجة ستكون من وجهة نظره ، أسعد وأولى بالترحيب .

وراح الموقف يزداد تأزماً يوماً بعد يوم ، فلما حل اليوم الأخير من شهر أغسطس أعلن هتلر مشروعاً للسلام مكوناً من ست عشرة نقطة من أهمها عودة ميناء دانزج للرايخ — وإجراء استفتاء فى الممر البولندى ، على أن يكون من حق ألمانيا إقامة سكك حديدية وطرق برية فى الممر ، قبل أن يعقد الاستفتاء وتظهر نتيجته ، وأعلن هتلر فى الوقت نفسه ، أن صبره قد نفد ، ثم أعلنت الحكومة الألمانية بعد مهلة قدرها يومان أنها لم تعد قادرة على أن تصبر أكثر مما صبرت على انتظار رد حكومة بولندا ، أو فى وصول مندوب عنها ويقول البولنديون ، إنهم لم يسمعوا من قبل رسميا عن هذا المشروع ذى النقط ستة عشر ، وأنهم فوجئوا باعتبارهم مطالبين بالرد على هذا المشروع . . . على أن القضاء كان قد حم ، وفى اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٩٣٩ أعلنت حكومة الرايخ ، أن دانزنج عادت إليها وبدأ غزو بولندا. وفى آخر لحظة تدخل موسولينى واقترح عقد مؤتمر ، ولكن الحلفاء ، كانوا قد لدغوا جيداً من مؤتمر ميونيخ ؛ لذلك اشترطت بريطانيا وفرنسا ، أن تخفف ألمانيا ضغطها على بولندا ، كشرط لقبول فكرة عقد مؤتمر وإجراء مفاوضات ، فأخفق مسعى موسولينى ، وإن كان موقف بريطانيا وفرنسا ، لم يخل من التذبذب لمدة يوم فقد كانت صورة حرب عالمية جديدة بأهوالها قادرة على أن تهز ثباتهما . وفى يوم الأحد الثالث من سبتمبر وجهت كل من بريطانيا وفرنسا إنذاراً ختامياً (Ultimatum) إلى ألمانيا هددتاها فيه بالحرب ، إن لم تنسحب من بولندا ، ولم يتلقيا رداً على هذا الإنذار ، وبعد ربع ساعة من الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم ذاته ، وجه مستر تشمبرلين خطاباً إلى الشعب البريطانى ، أعلن فيه خيبة آماله فى إنقاذ السلام .

ولم تجد شجاعة البولنديين شيئاً ، فقد رأوا خطوط مواصلاتهم محطمة أمام سيل فرق النازى المصفحة ، وفى السابع عشر من سبتمبر ، استولى الألمان على بولندا

الشرقية ، وفى ٢٧ من الشهر نفسه ، وصلوا إلى وراسو ، ولم يكن ثمة سبيل للتخفيف عن البولنديين إلا بهجوم على طول خط سيجفر يد الألمانى ، ولم يكن يتيسر هجوم من هذا القبيل ، إلا بعد مضى بعض الوقت ؛ لأن وحدات فرنسا الموجهة لهذا الخط ، لم تكن وحدات ميكانيكية ، فتجمعها كان لابد أن يتم ببطء ، وكانت القوة الأولى لبريطانيا المعدة لإرسالها إلى أوروبا ، تتحرك لتأخذ مكانها فى القارة ، ولذلك فقد اتفقت الدولتان على تأخير صدامهما بألمانيا إلى أطول وقت ممكن ، مع بذل أقصى الجهد للحاق بألمانيا فى مجال التسليح ، لكل هذا تركت بولندا تلاقى مصيرها ثم تهيأت ألمانيا للجوم على الغرب فى أكتوبر .

ثم انقضت ستة شهور فى هدوء حتى ظنت بعض الصحف الأمريكية أن الغزو الذى كانت ألمانيا تهدد به ، ليس سوى غزو فى الراديو ، وأن الحرب بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا هو حرب إذاعية واقتصر نشاط فرنسا وإنجلترا على محاولة فرض حصار على ألمانيا ، وإلقاء منشورات على الشعب الألمانى ، وتطهير البحر من الألغام المغناطيسية التى بثتها البحرية الألمانية .

أما الروس ، فلكى يؤمنوا المداخل الموصلة لمدينة لننجراد ، فى وجه كل غاز ، غزوا هم أرض فنلندا ، وبعد حرب غير مشرفة لقى فيها الاتحاد السوفيتى هزائم مدوية قهر هذا الشعب الصغير ، وانتزعت منه الأراضى والمواقع التى طهرها الاتحاد السوفيتى ، والعالم كله يشاهد ، مرة أخرى ، دولة ضخمة تسحق دولة صغيرة ، ويرى أن هذه الدولة الصغيرة تقاوم فى استبسال وشجاعة ، محرجتين لكرامة وكبرياء الدولة الكبيرة ، كما حدث هذا مراراً فى الحرب العالمية الثانية . ولكن الهدوء الذى ساد بعد سقوط بولندا ، تحطم فجأة بغزوة غير متوقعة ، وغير مسبوقة بإنذار من الجحافل النازية لكل من الدانمرك والنرويج ، إذ كان هتلر فى حاجة إلى تأمين تزويد بجيوشه وبلاده بما يلزمها من خام الحديد . وقد تم احتلال الدانمرك تقريباً بلا مقاومة أو سفك دماء ، أما النرويج فقد سلمت بعد قتال دام شهرين ، وكانت ألمانيا قد نقلت من بدء الغزو ، جنودها بالطائرات أو على ظهر السفن ، لاحتلال المناطق الاستراتيجية فى النرويج مما جعل المقاومة الوطنية النرويجية ، عبثاً .

ولما كان احتلال النرويج أمراً غير متوقع من جهة ، وتحولا مسيئاً إلى خطط

بريطانيا البحرية من جهة أخرى ، فقد تلقى الشعب البريطانى هذه الصدمة بانفعال شديد اقتضى سقوط حكومة تشمبرلين، وتأليف وزارة قومية برياسة وتسنّم تشرشل، على أن الصدمة التالية للحلفاء كانت أشد ، إذ أن الألمان التفوا حول خط دفاع ماجينو الفرنسى المنيع ، إلى بلجيكا— كما فعلوا فى الحرب العالمية الأولى — ولكنهم فى سنة ١٩٤٠ أضافوا إلى خطط سنة ١٩١٤ غزو هولندا مع بلجيكا ، وقد سلمت هولندا بعد ستة أيام فقط إذ لم يكن لها قبل بمواجهة خطط ألمانيا القائمة على استخدام بارع لجنود المظلات وإسقاطهم من الطائرات فى النقط الحساسة ، وذات الأهمية بأعداد كبيرة .

ووجهت ألمانيا بعد ذلك قواتها إلى نهر الموز ، فاستطاعت عند دينان وسيدان أن تخترق صفوف الفرنسيين بسهولة مذهلة ، وبعد أيام قليلة ، بلا أية مقاومة تقريباً ، استطاعت قوات ألمانيا الميكانيكية،أن تصعد فى اتجاه القنال البريطانى ؛ فبادرت القوات الفرنسية التى كانت قد اتجهت إلى بلجيكا للوقوف إلى جانبها ، بالارتداد فى سرعة هائلة خشية الوقوع فى قبضة القوات الألمانية،وفى ٢١ من مايو ، كان اختراق القوات الألمانية المتجه صوب المانش قد وصل إلى مداه واستطاع بذلك أن يفصل قوات بريطانيا وفرنسا وبلجيكا ، فى الشمال ، عن قواتهم فى الجنوب ، ثم ما لبثت قوات ألمانيا أن طوقت قوات الحلفاء فى الشمال من الشرق والغرب ، فلم يبق أمام هذه القوات إلا منفذ واحد للنجاة ، هو ميناء دانكرك، وبعبارة أخرى لم يكن أمامهم إلا أحد أمرين إما أن يجلو وإما أن يقعوا فى الأسر . أما البلجيكيون فقد استنفدت هذه الحرب الصاعقة قوتهم ، فألقوا السلاح ، بعد أن أنذر الملك ليوبولد حلفاءه بفترة قصيرة سابقة على استسلامه .

ولكن كان الجلاء عن دنكرك عملا ناجحاً وذلك بفضل شجاعة مؤخرة الجيش عند الميناء والجهود المضنية التى بذلتها البحرية البريطانية ، وسلاح طيرانها، وتطوع باسل من عدد هائل من أصحاب السفن وأصحاب اليخوت ، والحق أن تلك الجهود المتكافلة والمتعاونة أنقذت جيوش بريطانيا وفرنسا فى الشمال من كارثة محققة .

وبعد دنكرك التفت الألمان إلى فرنسا ، فوصلوا إلى باريس مكتسحين الجيوش

الفرنسية عند نهرى السوم والسين ، وبذلك جعلوا جيوش فرنسا قطاعات معزولة بعضها عن بعض .

ولما رأى موسولينى هذه الانتصارات السهلة ، سال لعابه ، ممنياً نفسه أن يحصل على نصيب من الغنائم ، ودخل الحرب ضد فرنسا التى كانت قد فقدت روحها المعنوية أمام هزائمها المنكرة فاستسلمت وبرز الماريشال بيتان بطل موقعة فردان فى فى سنة ١٩١٦ ليتولى حكومة فرنسا ، ويبرم الصلح مع الغزاة الفاتحين ، وفى ٢٥ من يوليه ، أى بعد أقل من سبعة أسابيع من بداية الحرب مع فرنسا ، انتهت المعركة كلها . وقد أبى هتلر إلا أن توقع شروط الهدنة فى مدينة كومبين فى نفس عربة القطار التى وقعت فيها ألمانيا شروط الهدنة بعد هزيمتها فى سنة ١٩١٨ .

ولكن موقف بيتان لم يلق تأييد كل الفرنسيين ، وكان من بين قواد الجيش الذين رفضوا الاستسلام لألمانيا الضابط ديجول الذى فر من فرنسا ولجأ إلى بريطانيا ورأس حكومة فرنسية فى المنفى ، سميت أول الأمر حكومة فرنسا الحرة ، ثم حكومة فرنسا المحاربة .

ولما رفض قادة سفن الأسطول الفرنسى الراسى فى ميناء وهران المرسى الكبير بشمال أفريقيا ، أن يسلموا قيادة سفنهم للأسطول البريطانى ، ضرب هذا الأسطول القطع الفرنسية فعطلها عن العمل .

وعرض هتلر فى هذه المرحلة الصلح على بريطانيا ، ولكن هذا العرض ، رفض أيضاً ، ففكر الزعيم الألمانى فى غزو بريطانيا ، ولكن البحرية الألمانية لم تقر هذا المشروع ، إلا إذا كان فى مقدور سلاح الطيران الألمانى شل الأسطول البريطانى عن العمل فى القناة الإنجليزية ، ورفض سلاح الطيران الألمانى (لوفتواف) أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة إلا بعد أن يحصل على تفوق ساحق على سلاح طيران بريطانيا ، يحقق له سيادة تامة على القنال الإنجليزى وجنوب بريطانيا. ومن ثم بدأت المعركة المعروفة بمعركة بريطانيا التى استمرت من أوائل أغسطس إلى آخر سبتمبر سنة ١٩٤٠ . وقد بدأت طائرات ألمانيا بضرب موانى الجنوب ، ثم ثنت بمحطات الردار ، ثم انتقلت إلى المطارات وعلى الشواطئ ثم إلى المطارات الداخلية ، وأخيراً

ركزت هجومها على لندن نفسها . ولكن بريطانيا صمدت لهذه الغارات الساحقة ، الأمر الذى يجب على الإنسان أن يذكره لها ولأبنائها ، والذى يدل مرة أخرى على أن القوة المادية ، لا تقوى على قهر العزل الذين عقدوا العزم على ألا يستسلموا أو يذعنوا .

ولذلك لم يكن ثمة مندوحة أمام هتلر من الانتظار حتى الربيع من السنة القادمة . ولكنه فى صيف السنة الثانية فكر فى أن يغزو روسيا . . . ومع ذلك لم تكف طائرات الألمان عن الإغارة على مدن بريطانيا كل ليلة ابتداء من سبتمبر سنة ١٩٤٠ حتى مايو سنة ١٩٤١ ، وكانت الطائرات البريطانية بدورها تغير ليلا بأعداد صغيرة على المدن الألمانية .

وبذلك وضع سكان الدولتين فى الخطوط الأمامية للقتال ، حتى من كان منهم فى بيته ، أو كان من العجزة الذين لا يستطيعون أن يحركوا أنفسهم من مكان إلى مكان ، فاتسعت دائرة الحرب ، أكثر مما اتسعت فى أية حرب سابقة .

ولما كان روزفلت رئيس الولايات المتحدة ، قد قرر أن يجعل من بلاده (ترسانة) لبريطانيا وفرنسا ؛ قائلا إن بلاده هى ترسانة الديموقراطية فقد أصدر قانون الإعارة والتأجير فى مارس سنة ١٩٤١ ؛ ورد على ذلك هتلر بأنه سيقطع خط الحياة الذى يصل بريطانيا بالولايات المتحدة عبر المحيط الأطلسى ، فنظم معركة غواصات واسعة النطاق فى هذا المحيط وانطلقت هذه الغواصات تتصيد السفن البريطانية الآتية من موانى الولايات المتحدة المحملة بالأقوات ووسائل النقل ، فارتفع عدد السفن الغارقه فى شتاء سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ ارتفاعاً كبيراً .

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه معركة بريطانيا ، كانت تقوم معارك بين إيطاليا وبريطانيا فى أفريقيا ، فقد اكتسحت قوات إيطاليا المتجمعة فى ليبا القوات البريطانيه فى مصر والسودان ، وأرغمتها على الانسحاب لمسافات طويلة وفى الوقت نفسه شنت قوات إيطاليا الموجودة فى شرق أفريقيا ، على الممتلكات البريطانية فى كينيا والصومال . ولكن المدد بدأ يتدفق على مصر : من جنوب أفريقيا واستراليا ، والهند ، كما وصلت إلى مصر أيضاً فرقة مصفحة ، ومعركة بريطانيا فى ذروتها . فرد البريطانيون بقيادة الجنرال ويفل الإيطاليين على أعقابهم ، وقد بلغت

خسائر الإيطاليين نحو ١٥٠ ألف جندى أكثرهم وقعوا فى الأسر .

وقد كان موقف موسولينى داعياً للرثاء ، فإن جيوشه لم تحقق نجاحاً فى ميدان واحد ، ولم تحتفظ بانتصارها فى معارك أفريقيا رغم ضخامة جيوشها ، بينما كان حليفه هتلر ، يصول ويجول ، مسجلا انتصارات لم يشهد التاريخ مثيلا لها ، كان آخرها احتلال الألمان لرومانيا تأميناً لوصول البترول ؛ لذلك قرر موسولينى أن يغامر بغزو اليونان ، مطمئناً إلى أن صغر حجمها ، وضآلة جيوشها ، ستجعل هذا الغزو ، مجرد سير فوق أرضها . وقد بدأ فعلا غزوته ، متخذاً ألبانيا قاعدة ، ولكن بعد أن ذهبت عن اليونانيين دهشة الصدمة الأولى ، صمد اليونانيون أمام أعدائهم ، ثم ردوهم على أعقابهم ، ثم غزوا ألبانيا قاعدة الطليان ، فكان ذلك ، مثلا آخر من الأمثلة التى انطوت عليها صحائف هذه الحرب الضخمة والدالة على أن العبرة فى القتال ، ليست دائماً بالعدد ولا بالعدة ، وإنما بعدالة القضية التى يدافع عنها المحارب ، وبإيمانه بها . ولما كانت هزيمة الطليان ، مما ينعكس على المحور كله ، ويضعف من مقامه ، فإن هتلر جاء لنجدة حليفه ، وقد تسلل الألمان إلى بلغاريا توطئة لمعاونة الطليان فى اليونان ، التى حاولت بريطانيا مساعدتها ، فسحبت جزءاً من قواتها فى مصر ، وأرسلتها عبر البحر الأبيض إلى اليونان ، وما كادت قواتهم تصل إليها ، حتى كان الألمان قد بدأوا يغزونها مزيحين من طريقهم اليوغسلاف الذين كانوا قد انضموا إلى الحلفاء ، وفى أقل من ثلاثة أسابيع كانت المقاومة اليونانية قد قضى عليها ، وكانت القوة البريطانية التى جاءت من مصر ، قد لاذت بالفرار ، مستعينة بقطع الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض ؛ ويعتبر بعض الكتاب الحربيين ، أن جلاء القوات البريطانية من اليونان عملية حربية فى الدرجة الأولى من النجاح ، حتى يمكن وضعها مع دنكرك فى صف واحد . وفى نفس الوقت كان الذى يتم فيه سحق القوات اليونانية وفرار القوات البريطانية ، هبط فى شمال أفريقيا على رأس قوات المحور القائد الألمانى الشهير (روميل) ، الذى استطاع أن يطرد البريطانيين من برقة إلى مصر .

وكانت كل هذه الأحداث جديرة بأن تثير مشاعر الشعوب العربية التى لقيت على يد البريطانيين طوال المدة بين الحربين العالميتين إنكاراً صريحاً لكل

مطالبها القومية ، وتحدياً صارخاً لحقوقها فى الحرية والتقدم الاجتماعى والاقتصادى ، وقد كان التعبير عن هذا كله ، الثورة العراقية التى قامت بزعامة السيد رشيد عالى الكيلانى فى إبريل سنة ١٩٤١ . والتى نجحت فى طرد الملك فيصل والوصى على العرش عبد الإله ، ورئيس وزرائه نورى السعيد ، ولكن قوات الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) استطاعت أن تسترد لبنان وسوريا من القوات الفرنسية التابعة لحكومة الماريشال بيتان التى عرفت بحكومة (فيشى) . فتيسر لها أن تضرب الثورة العراقية ، مما اضطر زعيمها إلى اللجوء إلى ألمانيا ، بعد أن لجأ إلى إيران ثم تركيا .

أما القوات الألمانية فى اليونان فقد قفزت إلى جزيرة (كريت) واستولت عليها عليها بطريق الجو ، فكانت عملية من أضخم عمليات جنود المظلات فى الحرب الثانية ، وأكثرها خسائر . وقد حاولت ألمانيا تعزيز قواتها فى كريت ، بالإمدادات عن طريق البحر ، ولكن الأسطول البريطانى تصدى لها ، فتكبد خسائر فادحة ، وظهر بجلاء أن القطع البحرية لا تستطيع أن تعمل بنجاح فى المياه الضيقة المدى ، وهى واقعة تحت تهديد الطائرات المعادية . وباستيلاء هتلر على اليونان وكريت ويوغسلافيا ، وبالاحتلال السلمى لرومانيا ، أصبح جناح ألمانيا الشرقى آمناً ، أما فى الغرب ؛ فقد صرعت فرنسا ، واستسلمت ، ولم يكن لبريطانيا موقع قدم فى أوربا فلم يستطع هتلر أن يقـاوم إغراء فكرة محفوفة بالخطر من كل جانب ، وهى فكرة غزو روسيا . ويقال إنه قرر هذا الغزو فى ديسمبر سنة ١٩٤٠ وأنه تأخر فى إنفاذ عزمه بسبب اشتغاله فى حرب اليونان ، حتى ٢٢ من يونية سنة ١٩٤١ . وقد قررت هيئة أركان الحرب الألمانية ، أن الحملة الروسية ستستغرق ثمانية أسابيع من البداية للنهاية .

وكما أنى لا أزال أذكر يوم إبرام ميثاق الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، الذى كان آخر نذر الحرب ، فإنى لا أزال أذكر اليوم الذى غزا فيه هتلر روسيا ، وقد كنت يومها سجيناً فى سجن الأجانب بالقاهرة ، وكنت أتمشى فى فترة الرياضة المسموح بها للمسجونين ، فلوح لى أحد زملائى فى السجن ، بجريدة فى يده وهو فى الدور الأسفل للسجن ، وكان متهللا ، وحاولت أن أفهم ماذا يقول ، ولما تبينت عبارته ، جمدت فى مكانى ، لأنى رأيت نفسى

أمام حماقة لا حد لها ، فقد أدركت فى التو ، وأنا لا أدعى علماً بشئون الحرب أن هذه الغزوة ستوسع من نطاق الحرب وستزيد من ضحاياها ، وخسائرها ، وأشفقت أن تخرج قوى الاستعمار ظافرة ، ظفراً يكتب لها السيادة المطلقة ، باندحار ألمانيا، وتضعضع قوى الاتحاد السوفيتى . ولكن سارت الأمور إلى غير ما كنا نخشى ، وأن تحقق أن الحملة الروسية ، كانت بداية النهاية لهتلر وانتصاراته إذ بعد أن تقدم الألمان بجحافل من الدبابات ، وعدد هائل من الطائرات نقلوها من الميدان الغربى إلى روسيا، مخترقين المنطقة الروسية من بولندا، إلى روسيا نفسها، وبعد أن وصلوا فى الشمال إلى ضواحى لننجراد وفى الوسط إلى مسافة لا تبعد عن موسكو بأكثر من مائة كيلو ، وبعد أن اخترقوا إلى الجنوب طريقهم مباشرة إلى القرم ، فإنهم لم يستطيعوا تحطيم الجيوش الروسية ، ولم يكد الصيف والخريف ينتهيان ، حتى تغطت سهول روسيا بالثلوج وتولى المعركة مع الألمان جنرالاتها التقليديون : الجنرال يناير ، والجنرال فبراير ! وبعد أن توقف الزحف الألمانى فى روسيا ، بدأت الحرب ، صفحة جديدة ، توالت فيها هزائم هتلر ، وإن كان ذلك لم يتم فى الحال ، وقد مهدت له تطورات بدت فى أول الأمر فى صالح المحور ، وإن أثبتت الحوادث بعد ذلك أنها لم تكن كذلك ، فإن اليابانيين فى ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١ انقضوا بطائراتهم على بيرل هاربر قاعدة الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى ، وأغرقوا من سفنه ١٨ سفينة ، و ٣٠٤٢ من رجاله وفى الوقت نفسه خرجت سفن الأسطول اليابانى من موانى الهند الصينية ، حتى انزلت جنودها فى الملايو وسيام ، فأسرعت ألمانيا وإيطاليا بإعلان الحرب على الولايات المتحدة . وشملت بذلك الحرب العالم بأسره .

وتوالت انتصارات اليابان فسقطت فى يدها هنج كونج الميناء البريطانية الشهيرة فى الصين وجاءت بعدها سنغافورة ، وفى مايو سنة ١٩٤٢ انتهت مقاومة قوات الهولنديين فى أندونسيا ، ثم اخترقت القوات اليابانيه بورما ، وطرقت بيدها أبواب الهند ، كما طرد الأمريكان من جزر الفلبيين ، ومن مجموعات من جزر المحيط الهادى ، وإن عجز اليابانيون أن يستولوا على ميناء مورسى فى غينيا الجديدة بعد معركة فى بحر الكورال .

أما اقتناص السفن البريطانية فى المحيط الأطلسى بواسطة غواصات الألمان وطائراتهم فقد استمر بنجاح عظيم . وتقدم رومل على رأس الألمان والطليان فى شمال أفريقيا ، وعلى أرض مصر ، حتى وصل إلى نقطة تقع على بعد ٦٠ كيلو من الإسكندرية غرباً ، وهى نقطة العلمين الشهيرة .

ثم توقفت كل قوات المحور عند النقط التى وصلت إليها ، فلم يستطع الألمان أن يدخلوا إلى موسكو فى الوسط ولا أن يستولوا على لننجراد فى الشمال ، ولا أن يقضوا على مقاومة الروس فى الجنوب عند مدينة ستالينجراد . وبدأت غارات الطائرات البريطانية ففى مايو سنة ١٩٤٢ بدأت أول غارة من غارات (الألف طيارة) على مدينة (كولون) فأحالتها أنقاضاً . وفى أكتوبر سنة ١٩٤٢ بدأ مونتجمرى هجومه على قوات رومل فى العلمين . وبعد قتال عنيف ، بدأت القوات الألمانية تتصدع ، ثم انسحبت من ليبيا إلى تونس وفى ٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، أنزل الإنجليز والأمريكان قوات فى الجزائر ومراكش بقيادة الجنرال أيزنهاور . وفى مايو سنة ١٩٤٣ سلمت آخر قوات المحور فى شمال أفريقيا . وفى منتصف سنه١٩٤٣ سلم جيش ألمانى ضخم فى ستالنجراد ، ورفع الحصار عن لينينجراد ، وأخفق هجوم الصيف الذى شنه الألمان الضخم وتوقف ، كما انحسرت موجة الصيد والقنص التى كانت تشنها قوارب U. Boats ، وذلك بفضل هذا الجهاز الدقيق «الردار» الذى استعانت به طائرات الحلفاء ذات المدى البعيد ، المعززة بجهاد مشترك بين البحريات البريطانية والأمريكية والفرنسية . ثم تحولت بعد ذلك ذلك طائرات الحلفاء إلى موانى ألمانيا ، فأنزلت بها خراباً واسع النطاق ، وقد أعان هذا كله على رفع معنوية حركات المقاومة السرية فى الدول التى احتلتها قوات ألمانيا ، فوسعت من نشاطها وزادت فيه حجماً ، ونوعاً . وقد زودتها طائرات الحلفاء بالسلاح بطريق الجو . ولما اطمأن الحلفاء ، أعدوا العدة لغزو جزيرة صقلية ، فنقلوا قواتهم من شمال أفريقيا إليها ، فلم يجدوا من قوات الطليان كعادتهم مقاومة تذكر ، ولكن الألمان كعادتهم أيضافى الاستبسال وصلابة المقاومة والعناد المتسم بالشجاعة الباهرة قاوموا قوات غزو بريطانيا وحلفائها لمدة خمسة أسابيع قبل أن يجلوا عن الجزيرة إلى أرض إيطاليا نفسها عبر مضيق مسينا . ولما هبطت قيمة موسولينى

إلى الحضيض ، وتضاءل نفوذه ، إلى ما يشبه العدم، استطاع الملك أن يلقى القبض عليه، وأن يقيم حكومة بقيادة الجنرال بادوليو، الذى عرف بالميل إلى العائلة الملكية، وقد عمل معها بالفعل من قبل فى تعاون وثيق . وفى ٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٣، بدأت قوات الحلفاء تكتسح أرض إيطاليا نفسها ، وتكرر نفس الذى وقع فى صقلية ، فقد آثر الطليان الاستخذاء فلم يقاتلوا، وتركوا عبء القتال عن أرضهم إلى الألمان ، ولم يكتف الطليان بهذا، بل إنهم راحوا يفاوضون الحلفاء فى صدد عقد هدنة منفردة وليتخلصوا من ربقة الحكم الألمانى . وهكذا أعاد التاريخ نفسه، إذ أن إيطاليا كانت فى الحرب العالمية الأولى متحالفة مع النمسا والمجر وألمانيا ، ولكن لما قامت الحرب ، وقفت فى صف بريطانيا وفرنسا .

ولم يرض الألمان عما أصاب حليفهم موسولينى ، فإنهم على الرغم من الهزائم التى كانت تنزل بهم ، أقدموا على مغامرة كمغامرات الأساطير ، أنقذوا بها موسولينى من المكان الذى اعتقل فيه ، ولما عاد إلى الحرية ، أقام حكومة إيطالية غير حكومة بادوليو فى شمالى إيطاليا ، وقرر مواصلة القتال إلى جانب ألمانيا ، وتشجع الحلفاء فأقدموا على غزو شمال إيطاليا ، ولكن الألمان بعد أن كانت صفوفهم قد تفرقت بسبب خذلان الطليان لهم، أعادوا تنظيم صفوفهم، وقاوموا قوات الحلفاء بعنف وشدة أوقفت تقدم الحلفاء تماماً . ثم اتجه الحلفاء إلى تحرير شمال أوربا الغربى ، وقد قام بهذه المحاولة فريق القواد الذين أبرزوا أنفسهم فى معارك شمال أفريقيا ، بقيادة أيزنهاور . وقد درست تفاصيل هذا الغزو دراسة طويلة ومضنية ، ووضعت الترتيبات فى عناية ودقة بالغتين ، وقد كان من ضمن ما اتخذ من ترتيبات إنشاء ميناءين صناعيين فى القنال الإنجليزى تسحبان عبره ، وفى يوم إنزال القوات ، الذى سمى بـ « D Day » ، الذى صادف السادس من شهر يونية سنة ١٩٤٤ ، استطاعت قوات الحلفاء البريطانية الأمريكية أن تطأ أرض قارة أوربا عند شاطئ نورماندى ، وفى هذه الفترة كان إنتاج ألمانيا بفضل غارات طائرات الأعداء وقاذفات القنابل قد وصل إلى حد جد منخفض فضلا عن أن خطوط مواصلاتها فى شمال فرنسا ، كانت تقطعت وتمزقت فاستطاع الحلفاء أن يركزوا فرقهم فى نقطة حيوية ، وأن يجعلوا موطأ أقدامهم منيعاً

وثابتاً . ولما حاول الألمان أن يفلتوا من خطر الإطباق عليهم وتطويقهم ، بالارتداد إلى الخلف ، عبر نهر السين ، قضى عليهم فى أعداد ضخمة ، ثم توالى نزول قوات الحلفاء ، فى تعاقب سريع ، مما مكنها من تحرير شمال وغرب فرنسا ، ومن اكتساح البلجيك وهولندا . وفى نفس الوقت ، نزلت قوات فرنسا المقاتلة فى جنوب فرنسا الذى كان متروكاً لحكومة فيشى برياسة الماريشال بيتان ، ثم احتله الألمان بعد أن نزلت قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٤ اخترق الحلفاء حدود ألمانيا فى أكثر من موضع .

وضاق بعض الألمان بإصرار هتلر على القتال ، وظنوا أنهم قادرون على إنقاذ البقية الباقية من شباب ألمانيا ، وما نجا من الهلاك والدمار من مدنها ، إذا هم تخلصوا من هتلر ؛ فدبروا مؤامرة بقيادة ضابط من النبلاء ، وضعوا فى مقر قيادة هتلر ، حقيبة مليئة بالمتفجرات فى يوليه سنة ١٩٤٤ ، وقد انفجرت القنبلة فعلا ، وأصيب هتلر إصابة بالغة ، ألحقت بإحدى ساقيه عجزاً بقى يلازمه حتى لقى حتفه فى إبريل سنة ١٩٤٥ . ولكن هذه المؤامرة لم ترفع يد هتلر عن جيوش ألمانيا ، ولم تزحه عن الحكم ، وبقى الألمان يقاتلون فى استبسال ، وإيمان ، وحمية مذهلة لكل عقل . فقد كان بادياً للجميع أن قضية ألمانيا قد انتهت وأن حكم الفشل قد صدر ضدها بغير أقل رجاء فى الانتصار ، أو شىء قريب منه .

أما الروس فى الجهة الشرقية — فقد استمروا منذ موقعة ستالينجراد ، يتقدمون فضاعفوا المقاومة فى فنلندا وبلغاريا ورومانيا ، واخترقوا دول البلطيق والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ، التى كانت قوات تيتو قد بدأت تقاتل فيها ضد الاحتلال الألمانى ، ثم وصلت قوات روسيا إلى بروسيا الشرقية .

وأخفقت أسلحة هتلر السرية V. I (ف.١) و V. 2 (ف. ٢) فى أن تهدم لندن وكان الأمل النازى معقوداً على هذه الأسلحة لإنهاء الحرب لصالح ألمانيا ، وقد كان هذان السلاحان ، قنبلتين طائرتين وكان سبب إخفاق فى تحقيق الأمل المعقود عليهما ، أن الحلفاء اهتدوا إلى قواعد إطلاقها ، ثم تحطيمهما بقنابل الطائرات .

ولكن الإنسان لا يكاد يفهم كيف استطاع الألمان أن يوجهوا فى ديسمبر

سنة ١٩٤٤ إلى الحلفاء ضربة ذات خطر ، اتخذ شكل هجوم مضاد فى منطقة (الأردن) بقصد الوصول إلى ميناء (أنتورب) فى بلجيكا ، فقد كانت مدن ألمانيا فى هذا التاريخ أكواماً من الخرائب ، وكان مالديها من الوقود لا يفى حتى بالحدود الدنيا من حاجات عجلة الحرب ، أما سككها الحديدية وموانيها ، وطرقها ، فكانت أثراً تاريخياً ، لا وجود لها إلا على الخريطة ، فمن أين استطاع الألمان أن يستمدوا القدرة والطاقة على مواصلة القتال ، فضلا عن القيام بهجوم كهجوم ديسمبر سنة ١٩٤٤ . إن الأمر فى حاجة إلى دراسة الذين يحسبون أنهم أحاطوا بالنفس الإنسانية ، وعرفوا مداخلها ومخارجها ، وحسبوا قدرتها وطاقتها .

وفى شهور ربيع سنة ١٩٤٥ ، أتم الروس غزوهم للمجر . ووصلوا لنهر الأودر فى ألمانيا . وفى مارس قام أيزنهاور بهجوم جديد ، وصلت به قوات الحلفاء إلى الضفة الشرقية من نهر الراين الفاصل لألمانيا عن فرنسا ، فأصبح الحلفاء الآن فى قلب ألمانيا ، وبات من الميسور أن يطوقوا منطقة الرور . فى الوقت الذى اكتسح فيه الروس فينا ، ثم وصلوا إلى ضواحى برلين ، ومن ثم كان الروس والأمريكان ، يتسابقان على أرض ألمانيا فى اتجاهين متقابلين ، الروس من الشرق إلى الغرب ، والأمريكان من الغرب إلى الشرق ، حتى تم تلاقيهما عند نهر الألب فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٤٥ ، وبعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ ، حاول موسولينى الهروب إلى سويسرا ، إلا أنه وقع فى أيدى بعض أفراد القوات السرية التى كانت تعمل لتطهير إيطاليا من الألمان ، فقتلوه هو وعشيقته كلارابتاتشى ، وعلقوهما فى سوق القرية ، من أرجلهما . .

وبعد يومين اثنين انتحر هتلر — فى الثلاثين من أبريل سنة ١٩٤٥ فى مقر قيادته فى برلين ، التى اتخذت مكاناً له فى مخبأ ، وانتحرت معه زوجته إيفا براون التى لم يكن أحد يسمع بها . وطفلاه ووزير دعايته الدكتور جوبلز ، وانطوت بذلك صفحة أغرب رجل شهده مسرح السياسة والحرب ، منذ كانت السياسة والحروب . فهو بلا جدال أكثر إثارة للدهشة من جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك الطغاة وهواة الحرب والتدمير وأقوى طاقة من إسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون ،

وأشد إيماناً بنفسه ، وتعصباً لوطنه، وأصلب عوداً فى وجه المكاره والهزائم والمؤامرات من أى صاحب عقيدة سبقه من طراز العسكريين .

وإن الإنسان ليعجز عن تصور ما كان يمكن أن تصيب الإنسانية من خير ، لو أن هذه الطاقة ، والقدرة على التنظيم ، والإرادة القاهرة لكبار الرجال ، والجاذبيه الساحرة لأكبر شعوب أوربا ، وأكثرها حضارة ، وأعلاها كعباً فى الفنون والثقافة ، توجهت إلى عمل إنسانى فى مثل ضخامة حرب سنة ١٩٤٠ التى دامت خمس سنين ؟

* * *

قبل أن ينتحر هتلر وقع اختياره على أمير البحر (دونتز) ليخلفه ، وقد وقع دونتز فى السابع من مايو سنة ١٩٤٥ وثيقة الهدنة بلا قيد ولا شرط فى مقر قيادة أيزنهاور فى مدينة ريمز بفرنسا وفى الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ انتهت المقاومة الألمانية . .

أما فى الشرق فقد كان ينتظر العالم بأسره فاجعة توجت هذا الجنون الذى اجتاح أوربا ، وشعوبها المتمدينة ، والشعوب الشرقية التى انتقلت إليها عدوى أوربا ، فنى السادس من أغسطس سنة ١٩٥٤ ألقت إحدى قلاع الجو الأمريكية Super - fortress القنبلة الأولى من نوعها على ميناء هيروشيما اليابانى فدمرت وخربت مساحة من الأرض المعمورة والآهلة بالسكان قدرها أربعة أميال مربعة، وقتلت وجرحت وشوهت ١٦٠,٠٠٠ يابانى غير مميزة بين رجل أو امرأة ، أو بين طفل وجندى ، ولا بين معبد ، أو مصنع للسلاح . وفى الثامن من أغسطس بعد هذه الفاجعة المروعة ، أعلن الاتحاد السوفيتى الحرب على اليابان ، وفى التاسع من أغسطس نفسه ألقت القنبلة الثانية على ميناء نجازاكى فقتلت وخربت ودمرت أكثر مما فعلت القنبلة الأولى . .

وفى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤٥ قبلت اليابان التسليم للحلفاء بغير قيد ولا شرط . .

وانتهت الحرب . . .

وبدأ عهد القنبلة الذرية .

الكِتَابُ الرابعُ

القنبلة الذرية وما بعدها

الفصل الأول

قنبلة هيروشيما وما بعدها

قنبلة هيروشيما ، وقنبلة نجازاكى . . .

قنبلة هيروشيما ! قنبلة هيروشيما ! ما أكثر ما نقول هذه العبارة ، ونحن نعنى القنبلتين اللتين أبادتا فى لحظة ، ما يقرب من ثلثمائة ألف إنسان ، واللتين ضربتا ، ودمرتا ، وأهلكتا ، بلايين الدولارات وملايين الجنيهات : من عمائر ومبان ، وأدوات ومعدات ، وطرق وجسور ، وتحف وأثاث ، وكتب وسجلات ، وسكك حديدية وقاطرات ، وعربات وسيارات ، واللتين أشاعتا من الحزن ، واشعلتا من حرائق الفجيعة وبجحيم الآلام والأحزان ، وأوجاع النفس والأبدان، ما نقل سعير الآخرة إلى الدنيا ، دنيا الأحياء . . .

ولكنا على كثرة ما نلوك عبارة قنبلة هيروشيما ، بألسنتا فنحن لا نستطيع أن نستحضر صورة واضحة ولا متكاملة لما أحدثته هذه القنبلة ، لأننا نقنع برسم الصورة العامة لذلك الخراب ؛ فتختفى فى هذه الصورة التفاصيل الإنسانية ، والجوانب الشخصية التى تنقلنا إلى فاجعة هيروشيما ونجازاكى ، وتنقلها إلينا ، وتشعرنا بأنها فاجعة العصر الذى نعيش فيه ، لا إحدى وقائع التاريخ البعيد الذى نقرؤها فى الكتب ، لنحيط بالتاريخ كعلم .

ولكن شاء حسن الحظ ، أن يعنى كاتب أمريكى ، بالانتقال إلى هيروشيما والتحدث إلى أبنائها الذين نجوا من الموت ، فى ذلك اليوم الرهيب الفاجع ، السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ الذى ألقيت فى ساعة مبكرة منه القنبلة الذرية الأولى على مدينتهم ، وبهذا استطاع أن يسجل صورة حية ، للأهوال التى احترق بسعيرها مئات الألوف من البشر ، من أجل صراع عقيم فى سبيل سيادة طبقات حاكمة فى هذه الدولة أو تلك ، لبضعة سنين ، ثم يفقدونها ، فى وجه التطور الحى المتجدد ، تطور الإنسانية الذى لا يبقى على قديم .

أما الكاتب فهو جون هيرسى ، الذى ولد فى ١٧ من يونية سنة ١٩١٤ ، قبيل الحرب العالمية الأولى بأقل من شهرين . وقد كان مولده فى الصين ، فاتصل عاطفياً بعالم المحكومين والمغلوبين على أمرهم ، وكان أبوه عضواً عاملاً فى جمعية الشبان المسيحية واشتغل فى توزيع الهبات الأمريكية على المناطق الصينية التى ضربتها المجاعة ، وقد رأينا أن نستفيد بهذا الكتاب فى نقل صورة حية لما وقع فى مدينة هيروشيما بعد إسقاط القنبلة عليها ، واعتمدنا فى هذا على الترجمة التى قام بها الأستاذ حسن محمود لكتاب جون هيرسى فى سنة ١٩٤٧ :

وقد اختط جون هيرسى لكتابه خطة قوامها أن يقدم لنا سبع أو ثمان شخصيات يابانية ، وأجنبية ، من أهالى هيروشيما ، رأوا رأى العين ما حدث للمدينة فور وقوع القنبلة ، لأنهم كانوا جميعاً فى صباح ذلك اليوم ، قد نهضوا من النوم ، وبدأوا يستقبلون اليوم الجديد ، ثم قامت القيامة فجأة ، وبلا إنذار أو تنبيه ، فلم يتبينوا أول الأمر ما حدث ، وظنوا أن قنبلة أصابت المكان الذى كانوا فيه يومذاك ، وأن الخراب الذى حل بهذا المكان ، كان قاصراً عليه ، دون الحى ، ودون المدينة كلها ، ثم بدأت الحقيقة تتجلى لهم شيئاً فشيئاً ، فقد رأوا أن كل ما حولهم تهدم ، وأن الناس جميعاً ، يموتون أو فى طريقهم إلى الموت ، وأن الأحياء منهم ، يحترقون ، ومن لم يحترق ، شوه جسمه ، أو فقد عضواً من أعضائه . . .

وقد بدأ جون هيرسى بتقديم شخصيات قصته الحقيقة بالآنسة (توشيكوسازاكى) وهى كاتبه بإدارة مستخدمى مصانع الصفيح لآسيا الشرقية ، وقد كانت عند ما لمع بريق القنبلة الذرية أمام عينيها فى الدقيقة الخامسة عشرة بعد الثامنة من صباح اليوم السادس من أغسطس على مقعدها فى إدارة المصنع . بينما كان الدكتور (ماساكازو فوجى) ، قد تربع فى بهو مستشفى ليقرأ جريدة (أساهى) ، وهو مستشفى يطل على أحد الأنهار السبعة التى تقسم مدينة هيروشيما ، فكأنها مدينة البندقية الإيطالية . .

وفى نفس الوقت كانت السيدة (نكامورا) — وهى أرملة ترزى — أمام نافذة مطبخها ترقب جاراً لها يهدم منزله بنفسه ليفسح طريقاً ليسهل على الناس النجاة من حرائق الغارات الجوية .

أما الدكتور (كلاينسورج) القسيس الكاثوليكى الألمانى ، فقد كان فى ملابسه الداخلية على سرير صغير فى الدور الأعلى من منزل البعثة الكاثوليكية الذى يتألف من ثلاثة طوابق ، وكان يقرأ آنذاك مجلة يسوعية .

أما الشخصية الخامسة فهى الدكتور (تيروفومى سازاكى) الجراح الشاب فى مستشفى الصليب الأحمر بالمدينة ، وكان يحمل فى يده نموذجاً من دماء مريض أخذه ليختبره فى معمل المستشفى .

وفى هذا الوقت ذاته ، كان القسيس المسيحى اليابانى (ثانيموتو) ، واقفاً على باب رجل ثرى بحى كوى ، وهو الحى الغربى من المدينة ، وكانت أمامه عربه يد ، عليها بعض المتاع الذى أراد أن ينقذه من الغارات الجوية بنقله إلى منزل صديقه فى ذلك الحى . وقد كان أهل هيروشيما يتوقعون أن تقوم الطائرات الأمريكية ب ٢٩ بغارات على مدينتهم .

هذه هى الشخصيات الرئيسية التى استطاع مؤلف الكتاب بها وعن طريقها ، أن يجسد لنا ما حدث فى هيروشيما ولكن إلى جانب هذه الشخصيات الرئيسية شخصيات مساعدة ومعاونه ، فإلى جانب السيدة نيكامورا مثلا يوجد ثلاثة أولاد لها . وإلى جانب القسيس الألمانى كلاينسورج ، يوجد ثلاثة قسس أجانب آخرون هم شيزلك ، ولاسال ، وفو كاى وهكذا .

فلنر ماذا حدث لهذه الشخصيات بالترتيب .

كانت الآنسة فى نحو العشرين من عمرها ، وقد استيقظت مبكرة فى منزلها لتقوم بطهو الطعام لأسرتها ، طعام الفطور أولا لها ولأبيها ولأخيها الطفل وأختها ، ثم طعام كامل لأمها ولأخيها ، بحيث يمكن لأبيها أن يأخذ معه إلى المصنع الذى يعمل فيه وجبة الظهر ، وبعد أن أتمت هذا الواجب ، وقامت بغسل الأطباق كانت الساعة قد أشرفت على السابعة ، فغادرت منزلها فى حى كوى إلى مصانع الصفيح وهى مسافة يستغرق قطعها خمساً وأربعين دقيقة : وبعد أن اجتمعت عقب وصولها إلى المصنع ، بزملائها وزميلاتها فى الردهة الخارجية للمصنع ، بقصد إعداد ما يلزم لحفلة تأبين لأحد موظفى المصنع ، مات منتحراً فى اليوم السابق ، ذهبت إلى مكتبها ، وجلست على مقعدها الذى يبعد عن النوافذ التى تقع على

يسارها ، وكان خلفها صوانان طويلان للكتب ، ثم بدأت بوضع بعض أدواتها فى أحد الأدراج ، ثم بدا لها أن تتحدث إلى جارتها ، قبل أن يستغرقها العمل ، وكانت هذه الجارة إلى يمينها ، وبمجرد أن أدارت رأسها إلى الجهة المقابلة للنوافذ امتلأت الحجرة بضوء يعشى الأبصار ، فاضطرب جسمها من الخوف ، وجمدت فى مكانها لا تتحرك لحظة طويله ، فقدت خلالها وعيها ، ولما أفاقت بعد مدة قدرتها هى فيما بعد بثلاث ساعات ، رأت أن السقف قد انهار ، وأن الأخشاب قد تجمعت فوقها ، كما سقطت أسقف الحجرات التى كانت تعلو حجرتها ، وسقط الناس الذين كانوا فيها . كما أدركت أن الكتب التى كانت فى الصوانين ، انقذفت من مكانها فى عنف وشدة ، فألقت بالآنسة سازاكى على الأرض من الأمام إلى الخلف ، فانثنت رجلها اليسرى انثناء فظيعاً تحتها حتى انكسرت . . وقد كان هذا أول حادث فى التاريخ تحطم فيه الكتب إنساناً . . !

أما الشخصية الثانية ، فهى الدكتور (فوجى) ، وقد كان من عادته أن يتأخر فى نومه فى الصباح إلى الساعه التاسعه أو التاسعه والنصف ، فإن ثراءه يسمح له بمباشرة هذه المتعة ، ولكن شاء حظه الحسن أن يستيقظ فى اليوم السادس من أغسطس ، فى الساعة السادسة ليودع صديقاً له على المحطة ، ولما سافر صديقه عاد إلى داره ، وكانت الساعة آنذاك قد بلغت السابعة ، وكانت صفارة الإنذار تذيع إنذاراً متصلا ، وتناول طعام الفطور ، ولما كان الجو حاراً فقد خلع ملابسه الخارجية ، واتجه إلى شرفة البهو ليقرأ جريدة ، وقد كانت مستشفى الدكتور فوجى قائمة على جانب نهر (كسيو) وكان يرتكز جانب منها على كوبرى هذا النهر ، فكان ثلثاها على الأرض ، وثلثها على (الكوبرى) ، وكان منزل الدكتور فى الجزء القائم على الكوبرى . وكان الدكتور قد صرف عملاءه من المستشفى عندما رأى فى شهر يوليو أن المدن اليابانية التى سلمت من غارات الطائرات الأمريكية بدأ يتناقص عددها ، فاستنتج من ذلك أن دور هيروشيما لابد آت فلم يكن فى المستشفى سوى امرأة تعالج من جرح فى كتفها وشاب فى دور النقاهة من جروح أصيب بها ؛ أما زوجته وأولاده فكانوا يعيشون فى مكان أمين خارج مدينة (أوزاكا) ، بينما كان ولد من أولاده وبنتان فى ريف مدينة (كيوشو) .

جلس الدكتور (فوجى) متربعاً كما قلنا ، وهو فى ملابسه الداخلية ، فوق حصير يابانى ، ووضع نظارته على عينيه وأخذ يقرأ جريدة (أساهى) ، ثم رأى البريق الذى ظهر أمام عينيه ، كأنه ذو لون أصفر براق ، واستولى عليه الجزع فهم أن يقوم ، ولكن مبنى المستشفى كله أخذ ينحنى من ورائه ثم يسقط فى النهر محدثاً صوتاً مروعاً ، وتطاير حطام المنزل ، فقذف بجزء من هذا الحطام بالطبيب ، وقد أحاط به من أمام ومن خلف و من فوق ، وكأن هذا الحطام يضرب به من كل جانب فيه موشكاً أن يطبق عليه ، ثم فقد الإحساس بكل شىء إذ كانت الأمور تتحقق بسرعة ثم أحس بالماء ، ولم يكد الطبيب يشعر بأنه يدنو من الموت حتى استيقن بأنه لا زال حياً فقد أطبقت على صدره خشبتان طويلتان تعارضتا على شكل زاوية ، وكأنه قطعة من اللحم معلقة بين مقطعين كبيرين للحوم . وقد أمسكت به الخشبتان فأصبح كالواقف على قدميه ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع حراكاً وقد بقى جسمه — بمعجزة — فوق سطح الماء ، بينما كان سائر جسمه فى الماء . وكانت بقايا المستشفى عائمة من حوله ، وهى خليط عجيب من قطع الأخشاب والمواد التى تعالج بها الآلام ، وكان يحس ألماً شديداً فى كتفه اليسرى ، كما أنه لم يعد يتبين الأشياء جيداً إذ فقد نظارته .

أما السيدة (نكامورا) أرملة الترزى ، فقد كانت تسكن فى حى (بنورى تسو) ، وكانت قد آوت إلى فراشها فى الليلة السابقة ، الساعة الثالثة صباحاً ، إذ أعلنت الإذاعة فى هذه الساعة إنذاراً للسكان من غارة متوقعة لطائرات ب ٢٩ ، ولكنها لم تفكر فى أن توقظ أبناءها ، وأن تنقلهم إلى ميدان الاستعراض الشرقى الذى اعتبر ملجأ من الغارات ، فقد كانت تنقل الأولاد إليه كلما سمعت إنذاراً بغارة دون جدوى . واستيقظت على صوت صفارة الإنذار فى الساعة السابعة ، فنهضت وارتدت ملابسها فى لهفة ، ثم أسرعت إلى منزل جارها وسألته ماذا تفعل . فأشار عليها بأن تلتزم دارها حتى تسمع إنذاراً ملحاً ، فعادت إلى دارها وأوقدت النار فى المطبخ ، وأخذت تطهو شيئاً من الأرز ، ثم جلست تقرأ فى جريدة هيروشيما الصباحية ، فلما أعلنت الصفارة أنتهاء الغارة تنفست الصعداء ، وكانت الساعة قد بلغت وقتئذ الثامنة ، وسمعت أطفالها يتحركون فى فراشهم فذهبت إليهم وأعطت

كلاً منهم حفنة من الفول السودانى ، وطلبت منهم أن يظلوا على وسائدهم إذ كانوا متعبين من السير فى الليل من ميدان الاستعراض إلى المنزل . ثم وقفت تطل من النافذة ، وإذا بكل ما تراه عينها يضىء ببريق أبيض لا يشبهه شىء قط مما رأته من قبل ، ودفعها شعور الأم نحو أولادها فخطت خطوة واحدة ، وإذا بشىء يحملها وكأنها تطير إلى الغرفة الثانية من منزلها ، تتبعها أجزاء من بناء وأثاث دارها : تناثرت الأخشاب حولها عندما ارتمت إلى الأرض ، وتساقط عليها سيل من الطوب الأحمر ، وصار كل ما حولها ظلاماً إذ دفنت تحته ، ولكنه لم يكن ثقيلا فاستطاعت أن تزيحه عنها وتنهض ، فسمعت طفلا يصيح : «أنقذينى يا أماه ! » ورأت أصغر أطفالها — وهى طفلة — قد دفنت حتى الصدر ، فأصبحت غير قادرة على الحراك ، فأخذت السيدة (نكامورا) تعمل بأظافرها فى يأس لتنقذ طفلتها ، ولم تكن ترى أو تسمع شيئاً عن طفليها الآخرين .

أما الطبيب الشاب (ڤيرو فومى سازاكى) الذى يعمل جراحاً فى مستشفى الصليب الأحمر ، فقد كان فى صباح السادس من أغسطس متعباً إذ رأى كابوساً فى نومه فى الليلة السابقة وكان يستعمل فى ذهابه إلى المستشفى من ضاحية (موكاياهارا) إلى (هيروشيما) القطار ثم الترام ولكنه فى يوم القنبلة الذرية ركب عند نهاية خط القطار ، سيارة ركاب عمومية ، ولم يركب الترام ، وبذلك وصل إلى المستشفى قبل تمام الثامنة بعشرين دقيقة .

ثم مر على رئيس الجراحين وبعد دقائق ذهب إلى حجرة فى الطابق الأولى وأخذ بعض الدم من ذراع رجل ليجرى عليه تجربة ، وكان المعمل الذى يحتوى على المساخن لإجراء التجربة فى الطابق الثالث ، وأمسك بنموذج الدم فى يده اليسرى وأخذ يسير وهو مشتت الفكر بسبب حلمه المزعج ونومه القلق ، فاجتاز الممر الرئيسى إلى السلم ، وكان قد جاوز نافذة مفتوحة بخطوة واحدة عندما رأى إنعكاس ضوء كأنه بريق فوتغرافى ، فجثا على إحدى رجليه وقال فى هدوء لا يستطيعه غير اليابانى (تشجع يا سازاكى) وفى تلك اللاحظة مرت ريح عاصف على المستشفى ، فطارت نظارته من وجهه وتحطمت زجاجة الدم على أحد الجدران ، وطار حذاؤه اليابانى من قدميه ، ولكن لم يصبه شىء غير ذلك بفضل المكان الذى

كان فيه ، وصاح الطبيب الشاب منا دياً رئيس الجراحين ثم جرى مسرعاً إلى مكتب هذا الرئيس فألفى به جروحاً كبيرة من الزجاج ، ثم شملت المستشفى فوضى شديدة فقد سقطت أسقف وجواجز على المرضى ، وانقلبت الأسرة ، وانخلعت النواقد إلى داخل المبنى ، فجرح الناس ولطخت الدماء الجدران والأرض ، وانتثرت الأدوات فى كل مكان . وكان بعض المرضى يجرون صارخين أما البعض الآخر ، وهو الجزء الأكبر ، فقد لفظ أنفاسه ، وقد كان من بين الموتى زميل للجراح الشاب كان يعمل فى المعمل الذى كان يقصده ، كما مات المريض الذى أخذ منه نموذج الدم لتحليله . وقد تبين الدكتور سازاكى أنه الطبيب الوحيد الذى لم يصب فى المستشفى بفضل وجوده فى الممشى ، مع أنه لو كان قد ركب الترام كالعادة ، لكان فى قلب المدينة عندما ألقيت القنبلة ولكان من الهالكين .

أما القس كلاينسورج فقد قام كالعادة بصلاة الصباح ، وقد شاركه فيها فيها طالب لاهوت يعيش فى دار البعثة ، وسكرتير البعثة المستر فوكاى ، ومديرة الدار ، وهى السيدة (مورانا) . ولم يكد القس يتم الصلاة حتى دوى صوت الإنذار فتوقفت الصلاة ، وخرج كعادته كلما سمع إنذاراً بغارة ، إلى خارج الدار ، ثم راح يتأمل السماء ، وسره فى ذلك الصباح أنه لم ير سوى طائرة استطلاع اعتادت أن تمر كل يوم فى سماء هيروشيما ، فأيقن بأنه لن يحدث شىء وعاد لتناول طعام الفطور مع الآباء الأخرين وهو مؤلف من قهوة صناعية وخبز أسود ، ثم جلس الآباء ، وتحدثوا مليا إلى الساعة الثامنة ثم سمعوا إعلاناً بزوال الخطر فذهب كل منهم إلى جانب فى البناء أما القس كلاينسورج فقصد غرفة فى الطابق الثالث وخلع ملابسه الخارجية ، وتمدد على جانبه الأيمن فوق سريره ، وأخذ يقرأ مجلته. ثم اندلع بريق مخيف ذكره بشىء قرأه وهو غلام عن شهاب كبير اصطدم بالأرض ، فخيل إلى الأب أن قنبلة قد سقطت مباشرة عليهم ثم استولت عليه الدهشة لمدة ثوان ثم غاب عن صوابه ولما أفاق رأى نفسه خارج الدار ، بملابسه التحتيه فقط ، يسير على غير هدى حول حديقة الخضروات فى أرض البعثة ، بينما تنزف منه دماء قليلة من جروح صغيرة فى فخذه اليسرى ، وأن جميع ما حوله من الأبنية قد انهار ما عدا دار اليسوعين التى قام قس بتقويتها أكثر من مرة ،

إذ كان يخشى الزلازل ، كما تبين أن النهار قد أظلم ، وأن السيدة مورانا مديرة المنزل كانت إلى جواره تردد » : فلتشفق علينا ياسيدى المسيح » .

أما القس الياباني (تانيموتو) الذى قال إنه ذهب فى صباح اليوم السادس من أغسطس إلى حى كوى ، لينقل إلى منزل صديق غنى له بعض المتاع ، فقد كان واقفاً أمام منزل هذا الصديق ثم برق فى الجو ضوء خاطف عبر السماء ، وقد كان مسار هذا الضوء الخاطف من الشرق إلى الغرب ، ومن المدينة نحو التلال ، وكأنه قطعة من الشمس ، فاستولى عليه الخوف كما استولى على صديقه صاحب الدار ، الذى جرى إلى الداخل ، وألقى بنفسه وسط وسائد كبيرة كانت موجودة فى بهو داره ، أما القس تانيموتو ، فقد رمى بنفسه بين صخرتين كبيرتين فى الحديقة ، ملصقاً صدره بإحداهما ، ولما كان وجهه غائصاً خلف الصخرة ، فإنه لم ير ما حدث ، ولكنه شعر بثقل فجائى ، ثم سقطت عليه ألواح وأجزاء من الخشب وقطع من الطوب الأحمر ولم يسمع أى صوت. وعندما جرؤ المستر تانيموتو على رفع رأسه رأى أن دار صاحبه قد انهارت ، فتبادر إلى ذهنه أن قنبلة مباشرة سقطت عليها ، وارتفعت سحب من التراب حتى أحاط به ما يشبه الشفق ، وجزع جزعاً شديداً حتى إنه نسى صاحبه الذى كان واقعاً تحت الأنقاض ، وجرى إلى الشارع ، ولاحظ وهو يجرى أن الحائط المقام حول الحديقة والدار — وكان من الأسمنت — قد مال إلى الداخل لا إلى الخارج . وكان أول شىء وقع عليه نظره فى الشارع شرذمة من الجنود، كانت تحفر فى التل المواجه ، حفرة من إحدى آلاف الحفر التى يظهر أن اليابانين كانوا عازمين على مقاومة الغزو منها ، يدافعون من تل إلى تل ، ويبذلون دماءهم قطرة بعد قطرة ، وكان الجنود خارجين من الحفرة التى كان يجب أن تقيهم شر الطائرات ، ولكن الدماء كانت تسيل من رءوسهم وصدورهم وظهورهم ، وكانوا ساكتين ، وقد استولى عليهم ذهول . وقد أظلت المدينة ما يشبه غمامة محلية من التراب ، فإذا النهار ظلام من فوقه ظلام .

وفى هذه اللحظة شاهد القسيس (تانيموتو) سيدة عجوزاً تسير ذاهلة ، تمسك رأسها بيدها اليسرى ، ومسندة طفلا صغيراً عمره ثلاثة أشهر أو أربعة على ظهرها بيدها وهى تصيح : « لقد أصبت ! لقد أصبت ! لقد أصبت ! » فاشفق عليها

وحمل الطفل على ظهره ، وأمسك بيد المرأة يسير بها نازلا الشارع الذى أظلم ، إلى مدرسة ابتدائية قريبة أعدت لتكون مستشفى عند الضرورة ، وقد أعان هذا المسلك (تانيموتو) على أن يتخلص فى الحال من الخوف ولكنه دهش كثيراً عندما رأى زجاج المدرسة مبعثراً على الأرض وخمسين أو ستين من المصابين تمكنوا فى هذه الفترة العصيبة من الوصول إليها طلباً للعلاج . فجال بخاطره حينذاك أنه على الرغم من إعلان زوال الخطر ، وعلى الرغم من عدم سماعه صوت طيارات ، لا بد أن تكون عدة قنابل قد ألقيت ، وتذكر فى هذه اللحظة تلاً صغيراً يمكن منه مشاهدة حى (كوى) بأكمله ، بل (هيروشيما) بأسرها ، ولذلك جرى عائداً إلى ذلك التل حيث رأى من أعلاه منظراً عجيباً ، فلم يكن جزء من حى كوى ، كما كان يظن ، هو الذى أصابه الدمار ، بل إن هذا الخراب أحاق بكل ما استطاع نظره أن يصل إليه من أحياء هيروشيما نفسها ، لم تكن الرؤية ميسورة من ذلك التل ، فقد أكتنف الجو ضباب كان يخرج منه غبار كثيف كريه . وقد أخذت أعمدة من الدخان ، قريبة منه ، وبعيدة عنه ، تفتح لها طريقاً بين سحب التراب المنتشرة فى كل مكان . وعجب القسيس كيف حدث هذا كله ، والسماء هادئة ، ولا أثر للطائرات فيها ، التى كان فى مقدوره أن يسمع صوتها حتى لو كانت بعيدة . وكانت الدور القريبة من التل تحترق . ثم أخذت قطرات كبيرة من الماء تتساقط ، فظن القس أنها قطرات من الماء الذى لابد أن يكون رجال المطافى قد استعملوه لإطفاء الحرائق ، والواقع أنها كانت قطرات رطوبة تجمعت بسبب ذلك البرج من التراب والحرارة وقطع الحطام التى ارتفعت أميالا فى الجو فوق هيروشيما .

هنا ذكر السيد (تانيموتو) أسرته وكنيسته فجرى أولا نحوهما مجتازاً أقرب طريق فى الشارع الكبير بحى كوى ، وكان هو الشخص الوحيد الذى يسير نحو المدينة ، وقابل مئات ومئات يفرون منها ، وكان كل منهم قد أصيب بنوع من الإصابات ، فقد احترقت حواجب بعضهم ، وتدلى الجلد من وجوههم وأيديهم ، وكان بعضهم رافعاً ذراعيه من الألم كأنه يحمل شيئاً بينهما ، وكان بعضهم يتقايأ وهو سائر ، وكان العدد الكثير منهم عارياً أو فى أسمال ممزقة ، وقد رسمت الحروق على بعض الأجسام العارية ضروباً من الرسوم ، فترى علاقات القمصان

وقد ظهرت على أجسادهم فى شكل حروق وترى بعض النساء ، قد طبعت رسوم الأزهار على أجسادهن من (الكيمونو) ، ذلك لأن اللون الأبيض يحول دون نفوذ حرارة القنبلة ، واللون الأسود يمتصها وينقلها إلى الجلد . وكان بعضهم على الرغم مما أصابهم يساعدون أقاربهم الذين كانوا فى حالة أسوأ من حالهم . وكان الجميع تقريباً منكسى الرءوس ، ينظرون إلى أمام فى سكوت ، ولا يظهر على وجوههم أى تعبير ، وبعد أن عبر مستر « تانيموتو » جسر كوى ثم جسراً آخر ، وهو يجرى ، رأى وهو يقترب من مركز المدينة إن جميع الدور قد تهدمت ، والكثير منها تشتعل فيه النار ، وقد صارت الأشجار عارية وجذورها سوداء وحاول اختراق الخرائب من أكثر من موضع ولكن النيران كانت تصده ، وكان الناس يصيحون من تحت دور كثيرة طالبين الغوث ولا مغيث . وكان الجرحى يسيرون متحاملين على أنفسهم غير مكترثين بما يسمعون من صياح ، وكان « تانيموتو » يجرى غير مكترث أيضاً بتلك الصيحات ، وكان بوصف كونه مسيحياً قد امتلأت نفسه عطفاً على أولئك الذين وقعوا فى فخ الأبنية المتهدمة ، وبوصفه يابانياً عراه الخجل ، لأنه لم يصب بسوء ، وكان يدعو الله وهو يجرى : « اللهم ساعدهم ونجهم من النار ! »

كان هذا يحدث ، بينما كان الدكتور فوجى فى ماء النهر ، يصارع عمودى الخشب اللذين حصراه بينهما ، حتى إذا ما خطر له أن موج المد سوف يطغى على النهر ، وسيغمر رأسه ، حتى دبت فيه قوة مفاجئة ، أعانته على أن يتخلص من أسر قطع الخشب التى اجتمعت فوق صدره ، ثم تسلق كومة أخشاب كانت طافية بجانبه ، ثم لما رأى لوحاً ممتداً إلى الشاطئ ، سار فوقه ، ولما خرج مبللا ، غارقاً فى القذارة ، عارياً أو كالعارى ، بعد أن تمزق قميصه ، وكانت الدماء تجرى من جروح فى ذقنه وظهره ، لم يستطع أن يتبين طريقه إلا بعناء فقد فقد نظارته ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يتبين أن كل ما حوله من الدور قد تهدم وتخرب ، وتصادف أن رأى فى هذه اللحظة طبيباً فسأله « ماهذا » ؟ » فأجابه زميله الطبيب : (لابد أن تكون سلة أزهار مولوتوف) ولم تكن سلة أزهار مولوتوف ، عند اليابانيين سوى الاسم الذى أطلقوه على القنابل التى تتناثر من تلقاء نفسها .

ثم رأى الدكتور فوجى ، أول الأمر ، حريقين ، أحدهما قريب من مستشفاه ،

والثانى بعيد فى الجنوب ولكنه لاحظ أنه لم تشب حتى تلك اللحظة إلا حرائق قليلة ، ومع قلة عدد الحرائق ، فإن الجرحى من الناس كانوا يسيرون مسرعين فوق الجسر فى موكب لا ينقطع ، تشملهم تعاسة هائلة ، وعلى وجوه بعضهم وأذرعهم حروق فظيعة فعاد الدكتور يسأل زميله ماذا تظنها ؟ ، ولم يجد الطبيب رداً غير رده الأول : وماذا تكون سوى سلة أزهار مولوتوف .

وعلى الرغم من أن جو الصباح ، كان قابضاً ، لم تخفض حرارته نسمة واحدة ، فإن الرياح بدأت بعد إلقاء القنبلة ، تهب قوية وتعصف بكل مكان فى المدينة ، وكانت الرياح فوق الجسر شرقية ، وأخذت النيران تندلع من جهات عدة وتنتشر فى سرعة ، ثم أخذت تهب رياح عنيفة ساخنة وأخذ الرماد يتناثر مما جعل الوقوف على الجسر مستحيلا ، فذهب الدكتور فوجى إلى جانب الماء الذى يجرى تحت الجسر حيث التجأ عدد عديد من الناس ، ورأى الدكتور فى ذلك المكان ممرضة معلقة من رجليها فى أخشاب المستشفى ، وأخرى مسمرة بقطعة من الأخشاب أخترقت صدرها ، فطلب المساعدة من بعض الواقفين تحت الجسر وأنقذ الممرضتين.

وكان الطبيب فوجى مثال لما حدث للسواد الأعظم من الأطباء والجراحين فى هيروشيما ، إذ تخربت عياداتهم ومستشفياتهم ، وتناثرت أدواتهم ، وأصيبوا بجروح وكسور ، متفاوتة الجسامة ، وقد أدى هذا إلى أن الأغلبية الساحقة ممن أصيبوا ، لم يجدوا من يعتنى بهم ، وأن الكثيرين ممن قدر لهم الموت ، كان ممكناً أن يعيشوا ، وقد كان فى المدينة مائة وخمسون طبيباً فمات منهم خمسة وستون ، وكان أكثر من نجا من الموت ، قد أصيب بجروح . ومن بين ١٧٨٠ ممرضة ، ماتت ١٦٠٤ منهن ، أو أصبن بإصابة تمنعهن العمل ، وفى أكبر مستشفى ، وهو مستشفى الصليب الأحمر ، لم يعد يستطيع العمل غير ستة أطباء من بين ثلاثين طبيباً ، وعشر ممرضات من بين أكثر من مائتين . وكان الطبيب الوحيد الذى لم يصب بسوء هو الدكتور سازاكى الذى مر بنا ذكره ، وقد تركناه يعدو إلى مخزن بالمستشفى يتزود بأربطة ، فكان هذا المخزن ، كسائر ما رآه فى المستشفى ، على حاله غريبه من الفوضى ، فزجاجات الأدوية ملقاة من الرفوف ومكسورة ، والأدويه متناثرة على الحوائط ، فجمع بسرعة بعض الأربطة ، وزجاجة لم تكسر من

كروم الزئبق ، وأسرع إلى كبير الجراحين فربط جروحه، ثم ذهب إلى الطرقة ، وأخذ يربط جروح المرضى والأطباء والممرضات ، وكان يجد مشقة فى العمل، بدون نظارته ، فاضطر إلى اقتراض نظارة من وجه ممرضة جريحة ولبسها ، ولو أنها لم تكن تلائم نظره تماماً ، ولكنه رأى أن شيئاً خير من لا شىء ، واستمر يستعمل هذه النظارة شهراً ، حتى تيسر له الحصول على غيرها .

وكان هذا الجراح الشاب يعمل بلا نظام ، فيعالج من هم أقرب إليه أولا ، ولكنه لاحظ بعد قليل أن الجرحى يزدادون احتشاداً فى الطرقة ،وكان يجد بين خليط الناس المصابين بالجروح والكدمات ، وهو ما أصيب به جميع الذين فى المستشفى آخرين أصيبوا بجروح فظيعة فأيقن أن المصابين أخذوا يتدفقون من الخارج، وأنهم من الكثرة بحيث أخذ يهمل الذين أصيبوا بجروح بسيطة ، وتقرر لديه أن كل ما يستطيع عمله هو إسعاف المصابين بنزيف الدم الذى يفضى إلى الموت ، ولم يمض وقت طويل حتى كان المرضى يغطون أرض عنابر المستشفى ومعامله ، وجميع الحجر الأخرى والطرقات والسلالم والردهة الخارجية وفيما وراء الباب الخارجى وعلى الدرج الأمامى وفى فناء المستشفى وعلى الطرقات المؤدية إليه ، وهم بين ممدد وجالس القرفصاء ، وكان الجرحى يساعدون الذين قطعت أعضاؤهم ، وتتساند الأسر التى شوهت وجوهها ، وكان الكثير من الناس قد اعتراهم القىء .

وفى موضع آخر من كتاب جون هرسى جاء :

« كانت الشوارع تعترضها أجزاء الدور التى وقعت عليها ، وعمد التليفون المتساقطة وأسلاكه. وكان يسمع من بين أنقاض كل بيت أو أكثر البيوت ،أصوات أناس غمرتهم الأنقاض وتركهم أهلوهم وهم يصيحون فى عبارة محزنة : « تاسوكيتى كورى » أى « المساعدة من فضلكم ! »

وقد تحدثنا عن تجارب القسيس اليابانى تانيموتو ، فى يوم الحشر ، فى هيروشيما ، ولكن كان لا يزال أمامه أشياء أخرى أكثر هولا ، فقد انتهى به عدوه إلى ساحة الاستعراض الشرقية التى لجأ إليها المصابون فأصبح النظر إليها أمراً لا يطاق ، فقد امتلأت بصفوف وراء صفوف من المحروقين والجرحى ، وكان الذين أصابهم الحريق يئنون قائلين (ميزو ! ميزو !) أى « الماء ! الماء ! » ، وقد

سمحت الصدفة لتانيموتو بالعثور على صنبور ماء ، كان لا يزال صالحاً فى دار مهدمة، فأخذ يحمل الماء إلى هؤلاء المعذبين، وبعد أن زود نحو ثلاثين منهم بالماء ، بدا له أنه أنفق فى ذلك وقتاً طويلا فقال بصوت عال ، لأولئك الذين كانوا يمدون أيديهم من حوله يرجون إطفاء غليلهم: «معذرة فإن على أن أهتم بأناس عديدين» ثم جرى مسرعاً إلى النهر ، والإناء فى يده ، وقفز إلى كثب من الرمل ، وهنالك رأى مئات من الناس أصيبوا بجروح خطيرة لم يكونوا يستطيعون أن يخرجوا من القسم الذى احترق من المدينة ، وعندما رأوا رجلا سليماً يسير على قدميه ، دونهم جميعاً ، أخذوا ينادون « الماء ! الماء ! الماء ! » لم يستطع تانيموتو أن يقاوم نداءهم بل حمل إليهم الماء من النهر .

ولما عاد إليهم بعد قليل : كانت الحديقة غاصة بالناس ، ولم يكن من السهل تمييز الموتى من الأحياء ، فإن أكثر الناس كانوا راقدين فى سكون وأعينهم شاخصة إلى السماء . فكان هذا السكون فى هذه الأدغال إلى جانب النهر مع أن جروح مئات من الجرحى كانت مخيفة ، تسبب لهم عذاباً أليماً ، ومع ذلك فإن هؤلاء المصابين كان يطبق عليهم سكون عميق دون أن يبكى أو يئن أحد منهم أو ترتفع له شكوى أو يحدث ضجيج الذين يموتون . حتى الأطفال كانوا لا يبكون، ولم يكن إلا القليل من المصابين يتحادثون ، ولما وزع الماء على بعض الذين أصيبت وجوههم بحريق الانفجار حتى أختفت معالمها ، كانوا يأخذون نصيبهم من الماء ، ثم يرفعون أنفسهم قليلا من الأرض ، وينحنون له علامة الشكر .

وكان لتانيموتو جارة شابة فى العشرين من عمرها . رآها فى يوم انفجار القنبلة ، وبين يديها طفلها ، وقد فارق الحياة ، ولكنها فى ذهولها ، وحزنها معاً ، لم تفكر فى أن تواريه التراب ، مع أن جثته تعفنت فى اليوم الثانى لوفاة الطفل ، وبقيت محتضنة الجثة هكذا أربعة أيام ، وقد جلس تانيموتو معها لحظة روت له كيف مات طفلها ، فقد دفنا معاً تحت الأنقاض، ولما استطاعت أن ترفعها عن نفسها، وجدته يختنق وقد امتلأ فمه بأتربة الأنقاض ، فنظفته بيدها الصغيرة ، وتنفس الطفل بعض الوقت تنفساً طبيعياً كأنه نجا من الموت ، ولكنه مات فجأة ، وانتقلت الأم البائسة إلى الحديث عن زوجها ، الذى التحق بمعسكر فى ناحية (شوجوكو) وعن طيبة

هذا الزوج ،ورجت (تانيموتو) أن يبحث لها عنه ،فأراد (تانيموتو) إلا أن يدخل إلى قلبها بعض الأمل فوعدها بذلك ، وهو يعلم أنه يعدها بما يشبه المستحيل ، فقد رأى بنفسه جنود هذا المعسكر وهم يعانون من إصابتهم بحروق فظيعة . وكم من مرة تقابل الرجل مع هذه الأم ، وفى كل مرة كانت تستوقفه وتسأله ألم يعثر على زوجها بعد ؟ ولم يكن يعدها إلا بمواصلة البحث ، ولما اقترح عليها أن تدفن الطفل ، كان ردها أن زادت احتضاناً له . . .

وبعد مضى الوقت أخذ مستشفى الصليب الأحمر يعود إلى نوع من النظام ، وعاد الطبيب الجراح الشاب ، من إجازة بعد عمل أيام متصل لم يكن يطعم فيه النوم ، وبمجرد استئنافه للعمل ، أخذ يقسم المصابين حسب إصابتهم ، ثم بدأ موظفو المستشفى فى تنظيف ردهاته وممراته برفع الأنقاض منها ، كما أخذ الممرضون والعمال ، فى نقل جثث الموتى إلى خارج المستشفى ، ولما كان اليابانيون يعتقدون أن حرق جثث الموتى ، ووضع رمادها فى زجاجات بالهيكل أكبر أهمية من العناية بالمصابين الأحياء ، فقد بذل عمال المستشفى جهداً فى حرق الجثث ، فقد جمعوها فوق قطع من الأخشاب جمعت من حطام المبانى المنهارة ثم أشعلوا فيها النيران ، ووضعوا شيئاً من رمادها فى ظروف خطابات ، كانت معدة لألواح أشعة إكس ، وكتبوا على كل ظرف منها اسم صاحب الرماد ، ثم رتبوا هذه الظروف فى رفوف المكتب الرئيسى بالمستشفى ، وبعد بضعة أيام ملأت هذه الظروف جانباً كاملا من هذا الهيكل الذى أقيم مؤقتاً . وقد جرت عادة ممرضى المستشفى على أن يعلقوا فى ثياب المصاب الذى تسوء حاله ، ورقة باسمه ، توطئة لحرق جثته ونقل اسمه إلى الزجاجة التى ستضم رماده .

وبعد اثنى عشر يوماً من تفجير القنبلة ، خرج القسيس اليسوعى الألمانى كلاينسورج يسير على قدميه فى المدينة من موضع إلى موضع ، وكان يحمل فى يده حقيبة مصنوعة من الورق المقوى ، وقد كان لهذه الحقيبة أهمية خاصة ، فقد كانت موضوعة تحت مكتب القس ، فلما انفجرت القنبلة ، تناثر المكتب وتناثر الأثاث الذى كان فى حجرة المكتب ، أما هذه الحقيبة نفسها ، فقد بقيت على حالها لم تمس ، وبقى مقبضها مرفوعاً إلى أعلى . ولم يكن الأب كلاينسورج يرى

وهو يسير فى المدينة إلا خراباً ، ولكنه اعتاد المنظر الرهيب الذى كان يسلكه فى المدينة ، كما ألف منظر حقول الأرز الشاسعة على مقربة من دار الرهبان مخططة بالسواد ، والدور القائمة فى أطراف المدينة ، بينما تحطمت نوافذها ، وسقطت سقوفها ، فإذا وصل إلى المركز الذى ألقيت فيه القنبلة والذى شمل أربعة أميال مربعة ، فلا يقع نظره إلا على خراب شامل ، فهناك احترق وانهار وتحطم كل شىء . سقطت عمارات المدينة صفاً بعد صف ، فى مواضع متناثرة فوق الحطام ، تقع العين على علامات نصبت فوق الرماد والآجر كتب عليها : « أين أنت يا أختاه ؟ » أو « لقد نجونا جميعاً نحن نعيش فى تويو ساكا » وأما الأبنية التى بقيت جدرانها فقط قائمة بعد أن تطاير منها كل شىء كالنوافذ والأبواب والأثاثات والأسقف ، كمتحف العلوم ، والصناعة مثلا ، فقد كانت أكثر إظهاراً للخراب الذى حل بالمدينة فقد كان مثلا متحف العلوم الذى طارت قبته من إطارها الصلب ، كجثة فتحت للتشريح ، كما وقف المبنى الجديد للغرفة التجارية ببرجه القائم جامداً بارداً لا ينال منه ، ومنها كذلك دار البلدية ، وهى دار ضخمة قليلة الارتفاع . كما يمكن أن ترى آثار حركة نقل لم يتخلف عنها إلا أثرها المؤلم الفاجع فمثات الدراجات المحترقة ، وأجسام السيارات وهياكل عربات النقل وقد وقفت فى نصف حركتها .

على أن الذى دب فى جسد الأب كلاينسورج من الضعف ، وهو يسير فى شوارع المدينة التعسة ، شىء جديد ، وهو فى ذاته أثر من آثار القنبلة ، فإنه كان قد أصيب بجروح صغيرة ، وقيل له إن هذه الجروح ستلتئم بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولكنها لم تلتئم مع أنه أخلد إلى الراحة أسبوعاً كاملا وها هو ذا الآن ، وهو يحمل حقيبة الورقة الخفيفة يحس أنه أثقل من أن تحملها يداه ، فضلا عن أن ركبتيه تخاذلتا ، ودهمه تعب شديد ، فلم يستطع أن يصل إلى دار الرهبان التى كان يقصدها إلا بعد جهد جهيد ، ولكنه لم يحدث زملاءه بهذا كله ظاناً أنه طارئ لا يلبث حتى يزول ، ولكنه بعد يومين أحس بالدوار وهو يصلى ، ولما كشف على جروحه فى اليوم التالى ، اتضح أنها زادت اتساعاً وتورماً .

على أن ما أصاب السيدة نكامورا أرملة الترزى — إذا كنا لا نزال نذكرها —

كان أدعى للدهشة فهذه السيدة لم تصب بأى جروح أو حروق ، وإن ظلت تشعر بميل إلى القئ ، هى وأطفالها ، وفيما تمشط شعر رأسها فى أحد الأيام ، رأت أن المشط حمل معه ما يملأ اليد من الشعر ، وفى مرة ثانية حدث مثل هذا ، فتوقفت عن تمشيط شعرها خشية أن يسقط شعرها كله ، ولكن ما خشيته تحقق من غير أن تمتد يدها إلى رأسها بمشط فقد أخذ شعرها يتساقط شيئاً فشيئاً حتى صارت صلعاء تماماً فلازمت البيت اختفاء من أعين الناس . فى يوم ٢٦ من أغسطس استيقظت هى وابنتها الصغيرة وهما يشعران بضعف وتعب شديدين ، واستمرتا ملازمتين لفراشهما ، والعجيب أن ابنتها وابنها الآخرين اللذين شاطراها كل ما مر بها من كوارث أثناء إلقاء القنبلة وما بعدها كانا فى صحة تامة .

ولكن الأعجب أن السيدة نكامورا ، لم تستطع أن تعرض نفسها على طبيب ، ليعالج صلعها المفاجئ ، وليعالجها هى وابنتها الصغيرة مما أصابهما من مرض ، فلازمت فراشها بلا علاج ولا دواء ، ولا طبيب ، فأخذت حالتها وحالة ابنتها فى التحسن ، وكان بعض شعر الطفلة قد سقط ، كما كان فى ذراعها جرح أبى أن يلتئم ، غير أن الشعر بدأ يعود إلى رأس السيدة نكامورا ، حتى استعادت كل ما فقدته من شعر .

أما الأب كلاينسورج فقد ارتفعت درجة حرارته ، وساءت حالته ، مما رؤى معه أن ينقل إلى المستشفى الدولى الكاثوليكى فى طوكيو ، ولما وصل إليها ، وجد معه رسالة من طبيب يقول فيها : « فكروا مرتين قبل أن تنقلوا إلى هذا الرجل شيئاً من الدماء ، لأنه ليس من المحقق إذا وخز مرضى القنبلة الذرية بابر ألا تنزف دماؤهم » وعندما وصل الأب كلاينسورج إلى المستشفى كان ممتقع اللون وضعيفاً ، وكان يعتقد أن القنبلة أضرت بهضمه وجعلته يشعر بآلام جسدية ، وكان عدد الكرات البيضاء فى دمه ثلاثة آلاف ، وهى فى العادة خمسة آلاف ، ولما فحصه الطبيب قال له : « ستخرج من هنا بعد أسبوعين » ولكن هذا الطبيب نفسه قال لكبيرة الممرضات فى المستشفى ، وهى راهبة ، « إنه سيموت فإن جميع هؤلاء الذين أصيبوا بمرض القنبلة — يموتون — وسترين ، فإنهم يظلون بضع أسابيع أحياء ثم يموتون » ووصف للأب كلاينسورج غذاء مقوياً ، فكانوا يعطونه كل ثلاث ساعات بعض البيض

أو خلاصة اللحم البقر ، ومقادير من السكر بقدر ما يستطيع وأعطوه فيتامينات وحبوباً حديدية وشيئاً من الزرنيخ لعلاج فقر الدم . ولقد كذبت تكهنات الطبيب فى الناحيتين فلا القسيس مات ، ولا هو خرج بعد أسبوعين ، مع أن الرسالة التى جاءت معه حرمته من أن يمد بالدم وهى خير علاج لحالته ، وقد زالت الحمى والمتاعب الهضميه عنه بسرعة ، وارتفع عدد الكرات البيضاء بعض الشيء ولكن فى أوائل أكتوبر نزل عددها إلى ٣٦٠٠ وبعد عشرة أيام ارتفع إلى أكثر من عددها فى الحاله العادية فبلغ ٨٨٠٠ . ثم انتهى بها الأمر فبقيت ٥٨٠٠ ، وكانت جروحه الصغرى التى كادت تكون خدوشاً ، مثار كل دهشة ، فهى تلتئم بعض الوقت ، ثم تعود فتنفتح ، إذا تحرك ومشى قليلا . ولما تحسنت صحته ، أخذ يستمتع بمركزه الجديد فى طوكيو ، فهو فى هيروشيما ، كان واحداً من عشرات الألوف من الماضى ، بل كان مريضاً قليل الشأن لتفاهة جروحه ، ولكنه كان فى طوكيو أعجوبة ، فقد كان واحداً من المرضى القليلين الذين وصلوا من هيروشيما إليها ، وكان الأطباء الشبان فى الجيش الأمريكى يأتون بالعشرات ليفحصوه ، ويأتى الخبراء من اليابانيين ليسألوه ، وجاء مندوب جريدة ليأخذ منه حديثاً .

وأخيراً سمح له بالخروج من مستشفى طوكيو فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

* * *

لعله قد آن لنا أن نلتفت إلى الجانب العام من فاجعة هيروشيما . . .

لقد عرفنا بما فيه الكفاية ، كم خربت القنبلة من الدور ، كما أشاعت الدمار ، وكيف فتحت السعير ، لأهل المدينة ، فلننظر إلى أثرها خارج المدينة التعسة فى اليابان وفى العالم البعيد . .

فى الصباح الباكر من اليوم السابع عشر من أغسطس أعلنت الإذاعة اليابانية ، لأول مرة نبأ قصيراً لم يسمع به إلا القليل ، وقد اقتصر هذا النبأ على ما يلى :

« أصيبت هيروشيما بخسائر كبيرة على أثر هجوم عدد قليل من طائرات ب٢٩ والمعتقد أنه استعمل نوع جديد من القنابل . ويجرى التحقيق فى التفاصيل »

ولم يكن أحد من ضحايا القنبلة القادرين عن أن يشغلوا أنفسهم عما حدث ويفكرون فى طبيعة هذه القنبلة ، أو فى سر جروحهم تفكيراً سليماً ، فقد راحوا

يفترضون فروضاً بدائية لهذا المصاب ، فمن قائل إنه نتيجة رش المدينة بالبترول ثم إشعال النار فيها ، أو بالقاء غاز قابل للاشتعال ، أو كمية كبيرة من القنابل الحارقة ، أو عملا من أعمال رجال المظلات ، ولم يكن فى وسعهم جميعاً ، أن يخمنوا أنهم كانوا محل أول تجربة كبيرة فى استعمال القوة الذرية ، على أنه لم ينقض على إلقاء هذه القنبلة سوى ثلاثة أيام ، حتى ألقيت قنبلة مماثلة على نجازاكى فى التاسع من أغسطس . وقبل ذلك أذاع رئيس الولايات المتحدة خطاباً وجهه إلى شعب الولايات المتحدة قال فيه : « فى هذه القنبلة من القوة أكثر مما يحتويه عشرون ألف طن من الديناميت ،وفيها من قوة الضغط الجوى أكثر من ألفى مرة من القنبلة البريطانية المعروفة باسم السلام الكبير وهى أكبر قنبلة استعملت فى تاريخ الحروب »

وبعد نحو أسبوع من إلقاء القنبلة وصلت هيروشيا إشاعة غامضة غير مفهومة، مؤداها أن المدينة دمرت بالقوة الناشئة عن تحطيم الذرة قسمين بطريقة ما.

وفى يوم ١٢ من أغسطس سمع توشيونكامور الغلام — ابن السيدة نكامورا — البالغ من العمر عشر سنوات صوت طيارة فوق رأسه ، فجرى خارج الدار وعرف بعين خبيرة أنها طيارة من طراز ب ٢٩ فصاح : « هذا مستر ب يطير » .

فناداه أحد أقاربه قائلا : «ألم يكفك ما عرفت من مستر (ب) . وفى هذه اللحظة بالذات كان صوت خفيض يائس ، يتكلم لأول مرة فى التاريخ ، موجهاً الحديث إلى مواطنيه .

فلم يكن الصوت ، سوى صوت الإمبراطور هيروهيتو ، الذى أعلن لشعبه : « بعد تفكير عميق فى الاتجاهات العامة فى العالم والأحوال الحاضرة فى إمبراطوريتنا اليوم ، قررنا أن نصل إلى تسوية الموقف الحاضر باتخاذ إجراء غير عادى »

وفى نفس اليوم ، كانت السيدة نيكامورا عائدة إلى هيروشيا فى القطار من مدينة كابى فقالت لها أختها : هل سمعت الأنباء ؟

فقالت : أى أنباء ؟

فأجابتها أختها : لقد انتهت الحرب .

فصرخت السيدة مستنكرة : لا تقولى مثل هذا القول السخيف .

فأكدت لها شقيقتها : ولكن سمعت ذلك بالإذاعة اللاسلكية . ثم همست : وكان صوت الإمبراطور .

ولم تستطع أن تعقب السيدة نيكامورا على هذا إلا بقولها : أوه . . !

وقد جمعت فى هذا المقطع ، آلام شعب كامل ،عرف بضبط النفس ،والطاعة وإنكار الذات والدأب ، والشجاعة ، والنظام . . .

وقد عبر عن روح هذا الشعب القس اليابانى المسيحى تانيموتو فى عبارة مؤثرة وبليغة جاءت فى خطاب له لأحد أصدقائه الأمريكيين :

« فى الوقت الذى انتهت فيه الحرب حدث شىء عجيب فى تاريخنا ، فقد أذاع إمبراطورنا مباشرة بصوته متكلماً إلينا نحن الرجال العاديين فى اليابان ، فقد أنبأنا أنه ستلقى علينا فى ١٥ أغسطس أنباء عظيمة الخطر ، ويجب أن نسعى إلى سماعها . فذهبت إلى محطة السكة الحديدية ، بهيروشيما ، حيث أقيم مكبر للصوت فى أنقاض المحطة ، واحتشد هنالك عدد كبير من المدنيين كلهم برباطات ، وبعضهم مستند إلى أكتاف بناتهم والبعض يستعين على أقدامه المصابة بالعصى ، وأخذوا يستمعون إلى الإذاعة ، ولما تحقق لديهم أنه الإمبراطور أخذوا يصيحون والدموع تنهمر من أعينهم : « أية بركة عجيبة أن ينادينا تنو بنفسه ، وأن نسمع صوته شخصياً ! إننا لراضون كل الرضا فى مثل هذه التضحية العظيمة » ولما علموا أن الحرب انتهت — أى إن اليابان هزمت — تألموا بالطبع تألماً كبيراً ولكنهم أذعنوا لإمبراطورهم فى روح هادئه مقدمين على التضحية بطيبة خاطر من أجل السلم الدائم فى العالم . وابتدأت اليابان فى طريقها الجديد » .

على أنه قد كتب فى رسالة أخرى ، تستحق أن نسجل منها بعض عبارات تكشف عن روح الشعب اليابانى حتى بعد إلقاء القنبلة قال :

« ياله من منظر كئيب هذا المنظر الذى رأيته فى الليلة الأولى لإلقاء القنبلة . لقد نزلت فى نحو منتصف الليل إلى شاطئ النهر ، وكان عدد الراقدين على الأرض كبيراً حتى إنى لم أستطع أن أشق طريقى إلا بأن أطأ بعضهم ، وكنت أكرر قولى (معذرة) ، وأنا حامل آنية مليئة بالماء ، وأقدم كوباً منه لكل واحد منهم . فكانوا يرفعون أجسامهم فى بطء ويتقبلون الكوب فى انحناء

ويشربون فى هدوء ويريقون ما تبقى ويعيدون إلىّ الكوب وهم يعربون قلبيًّا عن شكرهم ، وقد قال أحدهم : إنى لم أستطع مساعدة أختى التى كانت دفينة تحت أنقاض الدار لأنه كان على أن أساعد أمى التى جرحت جرحاً عميقاً فوق عينها . ولم تلبث الدار أن اشتعلت بها النيران ولم تكد تنجو ، أنظر لقد فقدت دارى وأسرتى وأصبت أخيراً إصابات شديدة ، ولكنى لا أزال محتفظاً بعقلى ، لكى أهب ما لدى لإتمام الحرب فى سبيل بلادنا » هكذا كانوا يقولون لى حتى النساء والأطفال كانوا يفعلون مثل هذا . ولما كنت قد تعبت تعباً شديداً فقد ارتميت بينهم على الأرض ، ولكنى لم أستطع النوم مطلقاً ، وفى الصباح التالى ألفيت الكثير من الرجال الذين أعطيتهم الماء فى الليلة السابقة قد ماتوا . على أن ما أثار دهشتى الكبيرة أنى لم أسمع أحداً منهم يصرخ فى جزع واضطراب مع أنهم كانوا يتألمون ألماً مبرحاً ، وماتوا ساكنين غير ساخطين . وقد أطبقوا أسنانهم ليتحملوا هذا الألم : كل هذا من أجل الوطن »

* * *

وإذا كان جون هيرسى قد لاحظ أن اليابانيين لم يفكروا طويلا فى الجانب الأخلاقى منها ، ويقول تفسيراً لذلك إنه لعلهم فزعوا منها ، فلم يروا أن يفكروا فى شىء يتصل بها ، وأن بعضهم كانوا يقولون إن ما أصابهم من القنبلة ، أثر من آثار الحرب ، وإنهم ما داموا قد خاضوا هذه الحرب فعليهم أن يتحملوا ما تأتى به ، وإن البعض الثالث كانوا يقولون كلمة (نيشفيو) وتعادل فى العربية العامة « زى بعضه » ولكن هذا لم يمنع أغلبية اليابانيين من أن يكرهوا الأمريكيين كراهية لا تمحوها الأيام ، وقد قال الدكتور سازاكى كلمة تعبر فى إجمال عن هذه الكراهية ، إذ قال : « أراهم يحاكمون مجرمى الحرب فى طوكيو الآن ، وأظن أنه يجب أن يحاكموا الرجال الذين قرروا استعمال القنبلة ويقتلوهم جميعاً » .

الفصل الثانى

الذين ألقوا القنبلة

فى التاسع من أغسطس أذاع المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة على شعبه البيان التالى ، الذى اجتزأنا ببعضه فى الفصل السابق قال :

« لقد وجهنا القنبلة الذرية ضد هؤلاء الذين اعتدوا علينا دون إنذار ، فى بيرل هاربور ، وضد الذين أذاقوا أسرى الحرب الأمريكيين مرارة الجوع والحرمان ، وأساءوا معاملتهم وعذبوهم ، وضد هؤلاء الذين لم يحترموا قوانين الحرب الدولية .

« لقد وجهنا القنبلة لتقصير أمد الحرب ، ولنحمى ونصون حياة الآلاف من الشباب الأمريكى ، ولن نكف عن استخدامها ، إلا إذا استسلمت اليابان .

« لقد حملنا على عاتقنا مسئولية كبرى ، ونشكر الله على أننا حملنا هذه المسئولية ، دون عدونا ، ونرجوه أن يلهمنا السداد لاستخدام القنبلة الذرية فى هدفها المقصود » .

وقد كان من خلف هذه الكلمات القليلة التى تذيع نبأ أكبر مجزرة بشرية ، تمت فى ثوان ، وراحت ضحيتها الألوف ، عمل طويل ، استنفد من ميزانية أكبر دولة فى العالم ، ألفى مليون دولار .

وقد كانت الولايات المتحدة ، تجرى ، نحو إنتاج القنبلة الذرية ، لأنها تخشى أن تسبقها ألمانيا إلى إنتاجها ، ولو كتب للألمان حظ سبق الحلفاء ، لتغير وجه التاريخ .

وقد كان معروفاً أن الألمان قد وفقوا إلى كشف الأسس الهامة اللازمة لإنتاج السلاح الذرى ، ولكن لم يكن الحلفاء ، يعرفون مدى ما قطعه الألمان فى إنتاج هذا السلاح ، ولذلك قد كان هم الأمريكان أن يتجسسوا على الألمان فى هذا الميدان وأن يبذلوا فى هذا السبيل أقصى ما يملكون من مواهب ، غير مدخرين مالا ،

ولا جهداً . فأنشأوا فعلا فرقة خاصة للتجسس على أبحاث الألمان الذرية ، كما أنشئت وحدة كشف وتخريب خاصة بتجميع المعلومات عن تسليح ألمانيا الذرى ، وأسندت قيادتها إلى الكولونيل (بوريس باش) ، حتى نوفمبر سنة ١٩٤٣ وكانت تعرف باسم (ألسوس) ، وهى كلمة يونانية تعنى (الغابة) كما كانت الطائرات الاستكشافية ، تقوم بالتقاط صور من الجو .

ولما نزلت القوات الأمريكية أرض أوربا ، كانت فرقة التجسس (ألسوس) معها ، وقد تسلم قيادتها عالم طبيعيات هولندى الأصل ، وذائع الصيت هو (صمويل جود سميث) ، وقد زودت هذه الوحدة بأجهزة خاصة لتسجيل المواد المشعة حتى تتمكن من إنجاز مهمتها . وبقى الحلفاء فى فزع من سبق الألمان إلى إنتاج الأسلحة الذرية ، كما استولى فزع أكبر على أكبر مركز صناعى فى العالم لإنتاج اليوارنيوم فى (أوك ريدج) وأكبر مصنع لأنتاج البلاتينيوم هو مصنع هانفورد — وكلا المصنعين فى أمريكا .

وقد أسفرت تحريات الأمريكان عن كشف الحقيقة التى طابت لها نفوسهم ، وهدأت أعصابهم ، إذ عرفوا أن الألمان قد لاقوا فشلا فى مساعيهم ، وأنهم قد تخلوا نهائياً عن محاولة إنتاج قنبلة ذرية فى الحرب العالمية الثانية . كما ثبت لهم أن الألمان لا يعرفون شيئاً عن مجهودات الولايات المتحدة فى البحوث الذرية ، وإنتاج الأسلحة التى تعتمد على نتائج هذه البحوث .

وقد كان الألمان قد قاموا بشن هجوم كبير فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، فاجأ الحلفاء ، وحملهم على اليأس من سرعة انتهاء الحرب ، وتسليم الألمان ، ولكن بقى بين صفوف العسكريين رجل واحد يؤمن بأن الحرب فى الشرق الأقصى ، أى مع اليابان لن تنتهى إلا بإنتاج القنبلة الذرية ، وكان هذا الرجل هو الجنرال (لسلى ريتشارد جروفز) ، الذى كان يطلقون عليه اسم الجنرال الذرى ، وقد رأس هذا الجنرال مشروعاً سرياً سمى مشروع مانهاتن لإنتاج الأسلحة الذرية ، وقد أنشأ جيشاً من ١٣٠ ألف عامل وجندى لهذا الغرض ، وشيد مراكز الإنتاج السرية فى هانفورد فى ولاية واشنطن وفى أوك ريدج . وقد خصص لمشروعه مليارين من الدولارات ، فعقد العزم على ألا تضيع هذه الألوف من الملايين سدى ، وقد

طلب من الجنرال مارشال رئيس القوات الأمريكية سرباً خاصاً من الطائرات يوضع تحت تصرفه وحده .

وقد وقع الاختيار على مكان مجهول ، لا يوجد على الخريطة ، يسمى (لوس ألموس) ، وهو يقع بين سلسلة جبال المكسيك ، ولم يكن أحد يعرف بأن هذا المكان قد اختير لإنتاج وتجربة السلاح الذرى .

كما وقع الاختيار على مطار (وندأوفر) فى ولاية (أوتاه) لكى يكون مطار الطيارين الذين سيختارون للطائرات التى ستقوم بإلقاء القنبلة الذرية عند إنتاجها ، وقد كان هذا المطار معزولاً عن الناس جميعاً ، وقد كتب على مدخله بخط عريض : « انس كل ما رأيت هنا ، عند عتبة الباب ، فى طريقك إلى الخارج » .

وكان الطيارون الذين اختيروا من آلاف الطيارين ، لا ينتخبون إلا بعد دراسة دقيقة ، وطويلة ، لتاريخهم ، وسجل أعمالهم ، وتقارير أخلاقهم ، فإذ وصلوا إلى المطار تسلموا عند وصولهم إليه من ضابط الأمن به ، ثلاث جوازات مرور ، واحداً باللون الأبيض وهو الذى يسمح لحامله بمجرد الدخول إلى المطار ، والثانى بلون أصفر ، ويسمح بالوصول إلى حظيرة الطائرات ، والثالث يأذن بالوصول إلى المكان المعد لتفجير القنابل وصفها .

وقد اختير بالفعل خمسة عشر طياراً من أكفأ الطيارين ، وأعظمهم لياقة ، وأكثرهم خبرة بالإغارة على المدن فى أوربا وأفريقيا ، وآسيا . وقد كان معظمهم ممن اشتركوا فى الغارات على المدن الألمانية ، وفى إنزال قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا ، وفى الغارات على المدن اليابانية ، ومنهم من طار خمسة آلاف ساعة .

وحينما وصل الطيارون المختارون إلى مطار (وندوفر) وأراد بعضهم أن يسأل عن العمل الذى سيقومون به فى المطار ، لم يجدوا استعداداً للإجابة عند ضابط أمن المطار الذى سلمهم الجوازات ، بل إن وجهه اكفهر ، ورد عليهم فى غلظة قائلا إن الجواز الذى سلم إليهم ، به من البيانات ما يوضح كل شىء ، وأضاف إن قائد وحدتهم هو الكولونيل (تيبتس) . والكولونيل تيبتس (Tibets) هذا ، لعب دوراً هاماً فى إعداد القنبلة التى ألقيت على هيروشيما ، وتدريب الطيارين الذين أسقطوها وأسقطوا القنبلة فيما بعد على نجازاكى ، ولم يكن فى ذلك التاريخ قد تجاوز

التاسعة والعشرين ، وكان كبير الوجه ذا عينين زرقاوتين ، ومع ذلك كان شعره أسود وقد عمل فى الوحدة (٩٧) ذات الشهرة الواسعة بسبب هجماتها على ألمانيا ، وكان الطيار الخاص لأيزنهاور ، وللجنرال كلارك ، وفى سنة ١٩٤٤ استدعى لاختبار الطائرة ب ٢٩ وكان يعمل قبل ندبه مباشرة للمهمة الجديدة على تجربة الطائرات ب ٢٩ فى الطيران على ارتفاع شاهق فى مناورة جوية أمام

وبعد ظهر يوم ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ التقى الطيارون مع قائدهم (تيبتس) فتحدث إليهم قائلا : « إننا نعد وحدة قادرة على التحرك إلى أى مكان مع اعتمادها فى تحركاتها على نفسها ومن ثم فهى ستضطلع بعملها الفنى ، كما ستقوم بنقل المؤن الخاصة بها ، كما سيتكون من ذات أفرادها بوليس حربى . أما كل ما نقوله أو نفعله ، فيجب أن يبقى سراً لا يتجاوزنا »

ثم قال : « إننى أعرف أن كلاً منكم بارع ماهر ، وإلا لما وقع عليه الاختيار ، ثم تحدث بصوت منخفض كأنه يتحدث إلى نفسه ، وكأنه لا وجود للطيارين الذين يوجه إليهم الخطاب : إن الذى نعمله هنا يتطلب الدقة ، وخاصة من الطيارين فإن الذى نحاوله ، يقتضينا الدفاع عن أنفسنا فى الوقت المناسب ، فإنه لا يحق لنا أن نلقى بقنابلنا فى حقل خال » ثم ارتفع صوته وقال : « إنه من الواجب أن تعلموا أن طفلنا الذى نجربه هنا ، سوف يقصر أمد الحرب حوالى نصف عام تقريباً إذا ما نجحت التجربة ، وأخيراً أشكركم »

ولم يفهم الضباط شيئاً من لفظ « طفلنا » فأنهم إلى هذه اللحظة لم يكونوا قد عرفوا شيئاً عن المدن السرية التى تنتج القنابل التى كان من حظهم أن يلقوا منها اثنتين فى المستقبل القريب ، ولا شيئاً عن طبيعة هذه القنابل .

وقد كان هناك عملان يتمان فى وقت واحد ، كان أحدهما يكمل الآخر ، ومع ذلك لم يكن بينهما تنسيق حتى يونيو سنة ١٩٤٤ . وكان العمل الأول تدريب الطيارين على الطيارات الحديثة ، التى كان مفروضاً أن تحمل القنبلة الجديدة ، وكان العمل الثانى هو إنتاج هذه القنبلة ، ولكن لأن هذه القنبلة لم يكن قد تم إنتاجها ، فكان من الصعب أن يدخل على الطائرات تعديل يتفق مع طبيعة هذه القنبلة التى كانت سراً فى بطن الغيب وقد ندب الكابتن (بارسو نس) وهو مهندس

أسلحة ، يعمل فى الوحدة التى يرأسها الكولونيل تيبتس ، فأصبح الرجل الثانى فى هذا العمل الخطير .

وقد تقابل تيبتس وبارسونس لأول مرة فى الثانى من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٤ بمكتب الجنرال أوزال ، قائد الفرقة الجوية الثانية للجيش الأمريكى ، وقد تبين (تيبتس) أن زميله فى العمل هو رجل فى الثالثة والأربعين فهو يكبره ، بنحو ١٥ عاماً وكان يعمل من قبل ضابطاً فى البحرية ، وكان له ماض مشرف ، إذ ساهم مساهمة ذات قيمة ، فى تطوير جهاز (الردار) فى الولايات المتحدة ، ولكنه تخصص منذ سنة ١٩٤٢ لمشروع (مانهاتن) السرى ، الخاص ببناء القنبلة الذرية ، فالى (بارسونس) يرجع الفضل فى تحقيق أحلام العلماء ، وتحويلها إلى حقائق ترى وتمسك باليد . .

ولم يقل (بارسونس) لزميله شيئاً عن القنبلة ، وإنما حدثه عن أمر لا يدور حوله خلاف ، وهى أن هذه القنبلة ستقوم بالقائها طائرة من أكبر قاذفات القنابل التى صنعتها الولايات المتحدة الا وهى الطائرة ب ٢٩ ، والتى تنتجها مصانع (يونج) ، وأن هناك خمس عشرة طائرة معدة لذلك ، وأن واجب (تيبتس) هو اختيار المطار الذى يتم فيه تدريب هؤلاء الطيارين ، فطار فى نفس اليوم (تيبتس) إلى مطار (وندوفر) الذى يقع على حدود ولاية (أوتاه) ، وصحراء (نيفادا) ، وهى صحراء ملحة ، بعيداً عن الضواحى ، وعن أعين الناس جميعاً .

وبدأ التدريب والعمل ، كل فريق فى هذا العمل ، لا يعرف شيئاً عن الفريق الآخر ، فالطيارون لا يعلمون شيئاً عن العلماء الذين يصنعون القنبلة فى (لوس ألموس) ، والعلماء لا يعلمون شيئاً عن الطيارين الذين ينتظرون (المولود) ليحتضنوه ، ويتولوا باقى شئونه .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٤ كانت القنبلة المنتظرة قد صنعت على ثلثمائة وثلاث وتسعين خطوة فى فيرمونت بولاية نيبراسكا ، وبقيت تنتظر نقلها إلى مطار (وندوفر) ويحسن هنا — ما دمنا نؤرخ لهذه الحقبة — أن نذكر أسماء سبعة أشخاص يتبعون لثلاثة أقسام — عملت كلها فى تدريب الطيران ، وفى الجانب الخاص بنقل القنبلة ، وإلقائها . فالقسم الأول كان عمله صيانة القنابل ويتكون من رائد هو (فيربى)

ونقيب هو (بيهان) . والقسم الثانى تخصص فى التدريب الملاحى ويتكون من رائد هو ڤان كيرك ، و (ڤان بلت) ، أما القسم الثالث فقد كانت مهمته تدريب الطيارين ، ويضم ثلاثة هم الرائد (سوينى) والنقيب (ألسبورى) والرائد (روبرت لويس) وقد جرت التدريبات على ارتفاع ٧ آلاف متر . بينما كان أقصى ارتفاع تستطيع الطيارة الوصول إليه هو تسعة آلاف ، وكانت التدريبات تقوم مع طائرات مقاتلة تحمل بدلا من المدافع آلات تصوير ، فإذا استطاعت الطائرة المطاردة تصوير الطائرة الحاملة للقنبلة ، اعتبر ذلك بمثابة إصابة للأخيرة . ثم قام (تيبتس) بتخفيف حمولة الطائرة ، فاستطاعت أن تحلق إلى اثنى عشر ألف متر ، واستمر التدريب أثنتى عشرة ساعة يومياً ، ومضت الأيام والطيارون ، يعملون على هذا المنوال ، ليلا ونهاراً ، دون أن يعرفوا طعم الراحة ، إلا إذا تعطلت طائرتهم ، ولكن لم يسطع الصمود لهذا التدريب المرهق ، جميع الطائرين ، فإن ثلث عدد طيارى الوحدة ، استبعد لعدم استطاعته تحمل مشاق وتكاليف التدريب ، واستبدل بهم غيرهم . ولكن حالة الجميع المعنوية ، قدامى وجدد ، بدأت تسوء ، أولا لما أصابهم من جراء هذا العناء الذى كانوا يكابدونه ، مما أحوجهم إلى اللجوء إلى عنابر المستشفى ، وثانياً لسوء المكان الذى كانوا يعيشون فيه ، وثالثاً ، لأنهم لم يكونوا يتبينون لهذا التدريب نهاية ، ولا هدفاً . وقد كان يؤنسهم فى وحشتهم ويخفف عنهم آلامها ، ما كانوا يسمعونه من قرب تسليم الألمان ، وإلقائهم للسلاح فلما علموا بأن الألمان قاموا بهجوم مفاجىء وكبير فى السادس عشر من ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، أيقنوا أن الأمل فى دنو أجل الحرب ، كان سراباً ، وأن الحرب ستمتد إلى أجل يصعب التكهن بنهايته .

وفى ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ — أى فى اليوم السابق تماما للهجوم الألمانى ، أصدر الكولونيل تيبتس أمراً ، بتجهيز خمس عشرة طائرة بطياريها المدربين ، على أن يتبعها مجموعات للخدمات الجوية ، وحاملات الجنود ، والنقل التى تقوم به طائرات من طراز لث ٥٤ . والبوليس الحربى ، وقد أطلق على هذه الوحدة ، وما يتبعها من مجموعات الفرقة ٥٠٩ وقد انضم إلى هذه الفرقة ، فى مارس سنة ١٩٤٥ عدد من العلماء العسكريين .

وبعد ثلاثة أشهر ، دعاهم (تيبتس) ليقول لهم : لقد عشنا سوياً نحو ثلاثة أشهر ، وإنى لمدرك تماماً ما تعانونه من ضيق ، متسائلين ألهذا نهاية ؟ والجواب ، إن الشيء الذى سنلقيه ، لم ينته بعد ، ولكنكم ستسمعون عن قنبلتين الكثير ، وقد يكون لدينا منها مجموعة من ثلاث أو أربع قنابل ، وربما واحدة » .

ولم يفهم الطيارون هذا الكلام ، إذ كيف تحمل خمس عشرة طائرة من أضخم الطائرات يقودها طيارون لم يتدرب أحد مثلهم فى تاريخ الطيران ، قنبلة ، واحدة فقط ، ولم يبدد غموض هذا الكلام ، أو يخفف منه ، أن علموا أن القنبلة التى اجتمعوا لها ، وتحملوا كل ذلك فى سبيلها ، ستبلغ زنتها أكثر من عشرة آلاف رطل .

ولعل الأمر ، أصبح أخف وطأة ، حينما صدرت أوامر قائد وحدة التدريب الرائد سولين ، لعشر طائرات ، بالتدريب على الطيران فوق جزيرة كوبا . وإن كان هذا الطراز الجديد من التدريب ، كان يقتضى الطيارين أن يبقوا فى الجو ، حتى يقطعوا خمسة آلاف كيلو متر فى الذهاب والإياب .

كما أن شهر يناير سنة ١٩٤٥ شهد شيئاً آخر غير هذا التدريب الرهيب ، ذلك أن الجنرال (كورتيس ليماى) تلقى أمراً من القوات البحرية للولايات المتحدة باستعمال الطائرات ب ٢٩ فى غارات على اليابان ، وبيدأ هجمات ثقيلة مركزة على المدن اليابانية وذلك فى شهر فبراير ، وكانت المدن اليابانية بالنسبة له أهدافاً نموذجية لأنها تنحصر فى مجال ضيق ومزدحم بالسكان ، وقد كان من العسير على مساعدى الجنرال (ليماى) إحصاء القتلى الذين تخلفهم غارات الطائرات ب ٢٩ ، وذلك لكثرتهم الهائلة . وفى مارس سنة ١٩٤٥ عاشت اليابان عشرة أيام قاسية ، وقد كان الهجوم الأول فى مساء ٩ ، ١٠ موجهاً إلى طوكيو وفى الصباح التالى أصبحت هناك مساحة تقدر بستة عشر ألف كيلو متر مربع مخربة تماماً كصحراء جرداء ، وبلغ عدد القتلى ٧٠ ألفاً .

وكان الهجوم الثانى فوق (ناجويا) ثم فوق (كوبى) ، ثم شملت الغارات أوزاكا و « كوساكى » وكان الجنرال (ليماى) مقتنعاً بأنه يستطيع وحده بالسلاح الجوى هزيمة اليابان ، وقدر لتمام هذه الهزيمة ستة أشهر ، وطلب للوصول إلى هذا الهدف طائرات وقنابل كثيرة ، ولكن لدهشته ، لم يجب

إلى طلبه بل إن القيادة أمرته فوق ذلك أن يسقط من برنامج الغارات على مدن اليابان كلاً من هيروشيا ونيبجاتا ، وكوكوارا ، ونجازاكى ، وكانت مدينة (كسيوتو) مع هذه المدن أيضاً ولم يكن إعفاء هذه المدن ، حبًّا فى أهلها ، أو لعدم أهميتها كهدف حربى ، بل لأن هذه المدن هى التى اختيرت لتكون هدفاً للقنابل الذرية ، وقد استبعدت مدينه (كيوتو) لأنها مركز دينى وثقافى عند اليابانيين ، ولأنها تحتوى على معابد وهياكل ذات قيمة أثرية وفنية ، ولأنها ليست من مراكز الصناعة، مما تحرص دوائر المال والصناعة فى الولايات المتحدة على نسفها وتدميرها ، إخراجاً لليابان فى المستقبل من ميدان المنافسة مع صناعة الولايات المتحدة .

ولم يكن باقياً سوى اختيار الموعد المناسب (جويا) وإلقاء القنبلة الذرية الأولى ، ثم إلقاء ، ما عساه يكون قد تم إنتاجه منها ، لو يتسر ذلك . وقد تعاون اثنان من خبراء التنبؤات الجوية ، وكلاهما نرويجى الأصل ، بأن خير الأشهر لذلك هو شهر يوليه وأغسطس . فأصبح على مدن اليابان أن تنتظر مصيرها الذى يخبؤه القدر لها فى أحد هذين الشهرين . ولما كان هذا الأمر قد تقرر فى السادس عشر من إبريل سنة ١٩٤٥ ، فقد أصبح بين هذا التاريخ ، وتاريخ تنفيذ الحكم ، حكم الإعدام ، على مدن اليابان نحو ١١١ يوماً .

وقد كان روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة قد توفى فى ١٢ من إبريل سنة ١٩٤٥ ، وتولى الرياسة من بعده هارى ترومان الذى لم يكن يدرى من أمر هذه القنبلة شيئاً ، حتى رفعته الظروف إلى هذا المركز الكبير . بل إن سلفه كان أيضاً، لا يدرى شيئاً كاملا وواضحاً عما يتم فى إنتاج السلاح الذرى . ولذلك كان هارى ترومان فى حاجة إلى محاضرة من الجنرال (ولسلى جروفز) الذى سبق أن قلنا عنه إنه سمى الجنرال الذرى ، وقد ألقى فعلا هذه المحاضرة على رئيس الولايات المتحدة فى ٢٥ من أبريل سنة١٩٤٥ تضمنت تفاصيل كثيرة ختمها بقوله : بعد أربعة أشهر ستكون القنبلة معدة .

وقد قدم وزير الدفاع مذكرة للرئيس بكل تفصيلات هذا الموضوع ، واقترح تشكيل لجنة تحدد نتائج السلاح الجديد ، وتناقش الرئيس حول استخدامه .

واجتمعت اللجنة المؤقتة ، وكانت تضم الساسة والعلماء فى يومى ٣١ مايو والأول من يونية ، وبعد ثلاثة وعشرين يوماً ، بدا أن الحرب مع ألمانيا موشكة على الانتهاء وأصبح من الواجب تقرير ما إذا كان استخدام القنبلة الذرية لازماً ؛ ولكن الجنرال الذرى لم يجد مطلقاً ما يدعو إلى التردد ، فقد كان يرى أن إلقاء القنبلة الذرية أمر واجب ، أما وزير الدفاع فكان يرى أن المهم ليس إلقاء القنبلة وإنما أن تحقق أهدافها ، وبعد مناقشات طويلة قررت اللجنة أن تقوم على ارتكاب هذه الجريمة مع ملاحظة :

١ — استخدام القنبلة فى أقرب وقت مستطاع .

٢ — أن يختار لها هدف يبين مدى قوتها التدميرية .

٣ — كما يجب أن تستخدم دون تحذير سابق .

* * *

وبعد أن عادت إلى مطار (وندوفر) الطائرات العشرة التى كانت تقوم بالتدريب فوق جزيرة (كوبا) ، وصل إلى المطار عشر طائرت جديدة من طرز ب ٢٩ ، وكان من بين هذه الطائرت ، طائرة ، ستبقى فريدة فى تاريخ الإنسانية تلك هى الطائرة (انولاجاى) . وفى التاسع والعشرين من مايو سنة ١٩٤٥ نقلت أربع طائرت إلى جزيرة (تينيان) فى المحيط الهادى ، ثم تبعتها طائرت أخرى ، وكانت جزيرة تينيان تشبه حاملة طائرت ضخمة ، فقد اصطفت عليها قاذفات القنابل الواحدة بجانب الأخرى . وقد وقع الاختيار على هذه الجزيرة ، لتكون قاعدة لطائرات ب ٢٩ التى أعدت لتغير على اليابان ، ولتسقط القنابل الذرية ، لأنها كانت فى وسط المحيط الهادى ، فهى تبعد عن شواطئ الولايات المتحدة بعشرة آلاف كيلو متر ، بينما لا تبعد عن شواطئ اليابان بأكثر من ٢٧٠٠ كيلو متر ، ومن هنا يتضح لماذا كان الطيارون ، يتدربون على الطيران فوق البحر من جزيرة (كوبا) ، ولماذا كان يستمر طيرانهم التدريبى لمسافة ٥ آلاف كيلومتر ، فقد كانت المسافة بين جزيرة تينيان ، وشواطئ اليابان ذهاباً وإياباً هى هذه المسافة تقريباً . ولم يكد شهر يونيه يصل إلى نهايته فى سنة ١٩٤٥ ، حتى كانت طائرات المجموعة ٥٠٩ قد تجمعت فى جزيرة تينيان ، وقد بلغ عدد ضباطها فى ذلك التاريخ

التاريخ ٢٢٣ ضابطاً ولم يؤذن لهؤلاء الضباط أن يختلطوا بغيرهم من الضباط الذين كانوا فى نفس الجزيرة .

ولم يكن أحد من طيارى الوحدة ٥٠٩ قد رأى شواطئ اليابان حتى هذا التاريخ ، فقد حلقوا لأول مرة على الشاطئ اليابانى فى اليوم العشرين من شهر يولية ، وكان تحليقهم على ارتفاع عشرة آلاف متر ، ولما نجحت هذه التجربة ، أرسلت إلى جزيرة (تينيان) جميع مواد القنبلة .

وقد حدد يوم ١٦ من يوليه سنة ١٩٤٥ لإلقاء قنبلة التجربة ، فى منطقة صحراوية منعزلة عن السكان وتبعد عن (لوس آلاموس) فى جبال المكسيك باثنين وثلاثين كيلومترا . وقد دعى جميع الذين شاركوا فى صنع هذه القنبلة من علماء وعسكريين لمشاهدة تفجيرها ، فاختبأوا فى أحد الخنادق فى المعسكر الرئيسى الذى يبعد عن قاعدة القنبلة ٣٧ كيلو متراً وقد تأجل تنفيذ التجربة مرتين ؛ الأولى إلى الساعة الخامسة والثانية إلى الخامسة والنصف صباحاً ، ولم يكن (بارسونس) الرجل الثانى فى عملية إلقاء القنبلة الذرية على اليابان حاضراً ، فقد كان فى طريقه إلى مكان التجربة فى طائرته ، ولما كان على بعد ٤٥ كيلو متراً من المكان ، خطف بصره ، وبصر من كانوا معه فى الطائرة ، ضوء الانفجار وكان متوهجاً كحرارة الشمس القاتلة التى بهرت عيون الرجال الذين كانوا على متن الطائرة على الرغم من نظاراتهم الداكنة .

وفى الأيام الستة التالية عكف الجنرال جروفز (الجنرال الذرى) على دراسة نتائج التجربة ، وكتب تقريراً إلى رئيس هيئة أركان حرب الولايات المتحدة الجنرال (مارشال) قال فيه إنه يقدر القوة التدميرية للقنبلة التى فجرت بما يساوى ٥ آلاف طن من مادة T.N.T ، ولكن الأيام أثبتت أن هذا التقدير كان دون الحقيقة بكثير ، إذ أن هذه القوة ، تساوى فى الحقيقة أربعة أضعاف هذا الرقم أى عشرين ألفاً من مادة T.N.T الناسفة ، وقد كانت الكمية المتفجرة التى تحويها القنبلة ٣٨,٣٥ كيلو جرام . وقد حقق الكونجرس الأمريكى فى سبب تأخير تفجير القنبلة الذرية ، فقال (بارسونس) الكلام التاريخى التالى :

« إن مواد قنبلة هيروشيما لن تصل من (أوك ريدج) أو من (هانفورد) قبل ثلاثة أسابيع ، والإجراءات تتم بسرعة ، وإن أعمال أربع سنوات متتالية تمخضت

عن ثلاث قنابل ، فالبلوتونيوم الذى نحصل عليه من مناجم هانفورد لم يكف لغير قنبلتين ، أما اليورنيوم الذى نحصل عليه من أوك ريدج لم يكف لغير قنبلة واحدة . لذلك قررنا تجربة إحدى قنابل البلوتونيوم . أما قنبلة اليوارنيوم فستأتى دون تجربة سابقة وسترسل فوراً إلى تينيان »

وفيما كانت أجزاء القنبلة تنقل إلى (تينيان) على ظهر الباخرة أنديانا بوليس وصل إلى علم قائد السفينة ، أن غواصة يابانية تجوب المحيط الهادى ، فأقلقه هذا النبأ إذ كان ممكناً أن تتعرض هذه الغواصة للسفينة ، وتقذفها بطوربيد ، يذهب بها إلى قاع البحر ، ومعها مواد اليوارنيوم التى استنفد إنتاجها أربع سنوات ، وبذلك تمنع القنبلة الذرية الأولى من أن تدخل التاريخ ، وتلعب دورها فيه . ولكنها وصلت إلى جزيرة تينيان سالمة ، وبعد أن أفرغت حمولتها ، اتجهت إلى جزر الفليبين ، تصدى لها الكابتن اليابانى (هاشيموتو) قائد الغواصة وصوب إليها أنبوبة الطوربيد ، فشطرها نصفين فى المكان الذى كان فيه من قبل أهم جزء من أجزاء القنبلة ، وغرقت السفينة ، وعدد كبير من ركابها ، دون أن يلتقط أحد منهم نداء الاستغاثة.

وفيما بعد ، حينما كشفت جميع الحقائق ، أدرك القبطان اليابانى ، أنه لو كان قد أسرع إلى مكان الباخرة أنديا نا بوليس باثنين وسبعين ساعة ، لأنقذ بلاده من الهلاك الذى تعرضت له بعد ذلك بأقل من عشرة أيام . وعندما عاد هذا القبطان إلى بلاده فى السابع عشر من أغسطس علم أن بلاده قد سلمت .

* * *

أصبح من المقرر أن تلقى القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما ، وكان موعد إلقائها متوقفاً على حالة الطقس وحدها ، ولذلك كان الجنرال (لماى) يدرس فى الساعة الواحدة من بعد ظهر كل يوم النشرات الجوية الآتية من روسيا والصين والفلبين . وكان محتملا أن يصدر الجنرال فى أى يوم من أيام أغسطس أمره إلى الطائرة التى ستحمل القنبلة ، ففى اليوم الثالث من أغسطس مثلاً غطت سحابة ضخمة المدن التى تقرر قصفها بالقنبلة الذرية . فتقرر ألا تقلع الطائرة فى تلك الليلة ، ولا فى الليلة التى تليها .

ولكن ما أن طلعت شمس اليوم الخامس ، حتى ظهر أن الجو فى هذا اليوم

أنسب من أى يوم مضى فتجمع الطيارون أمام لوحة الأوامر السوداء ، بعد أن تناولوا غداءهم فى مقصفهم الخاص، ولكنها كانت خالية من أى أمر ، فانصرف كل منهم إلى شأن من شئونه .

وفى هذه الفترة المليئة بقلق التوقع والانتظار ، قام العلماء بتركيب أجهزة وأدوات القياس ، وكذلك أدوات التصوير ، فى طائرات ب ٢٩ التى حملت جميعاً دائرة وسهماً أسود كشارة مميزة . وتكون من هذه الطائرات ، وحدة مكونة من ست طائرات فثلاث منها تطير فى المقدمة فى الاتجاه إلى إحدى المدن الأربعة التى تقرر أن تقصف بالقنبلة وتختار أيها أكثر صلاحية من حيث الطقس ، ثم تتبعها طائرة رابعة ، تحمل القنبلة ، وخامسة تقوم بالتصوير عقب أسقاطها ، والسادسة تلقى الأدوات والأجهزة التى تقوم بقياس الضغط الذى أحدثته القنبلة ، وسائر الظواهر الطبيعية .

وكان كل طيار يسأل نفسه أى هدف سيقع عليه اختيار القدر ، وأى عمل سيكون من حظه القيام به فى هذا الرحلة التى لم يسبق لأحد من البشر أن قام بمثلها .

ولما اجتمع الطيارون أخيراً ، وقف أمامهم الكابتن بارسونس مهندس الأسلحة وكان وجهه متألقاً ، وعيناه لامعتين ، ثم أجال بصره فى المستمعين الذين كانت أعصابهم فى أعلى درجات التوتر ، فازدادوا انتباهاً ، وركزوا أعينهم على محدثهم الواقف أمامهم ، وتعلقت آذانهم بشفاهه وهو يقول :

«لقد اشتركت بنفسى فى صنع القنبلة التى ستلقونها ، ومنذ أكثر من ثلاث سنوات وأشهر العلماء يعملون فى هذه القنبلة . ولقد تكلفت التجارب مئات الملايين من الدولارات . ومع ذلك لم يتح لنا إلا صنع عدد قليل من هذه القنابل »

ثم عرض عليهم صوراً بالفانوس عن تجربة تفجير القنبلة، فى صحراء نيومكسيكو ولم يتبينوا شيئاً له قيمة على الشاشة ، إذ لم تظهر سوى نقط ، رمادية متوهجة فى الصورة الأول ، وزاد عدد هذه النقط فى الصورة الثانية ، وخيل إلى المستعمين المشاهدين أن عامل الفانوس السحرى الذى يعرض هذه الصورة ، لم يحسن إدارة الفانوس .

ولكن كان كلام بارسونس أهم من هذه الصورة ، فقد قال : لا يمكن لأى

إنسان أن يتنبأ بما سيحدث عندما تلقى هذه القنبلة من إحدى الطائرات إذ لم يسبق لأحد أن جرب ذلك . وكل الذى نعرفه أن قنبلة التجربة تحتوى على كمية من المواد الناسفة ت. ن. ت تبلغ عشرين ألفاً من الأطنان »

فقدر الطيارون فى الحال ، أن هذا مقدر من المواد لمتفجرة يساوى ما تلقيه ألف طائرة فى غارتين جويتين . ثم أضاف بارسونس : أعتقد أن قنبلتنا ستمحو كل شىء فى منطقة مساحتها ميلان أو أكثر قليلا أو أقل قليلا . ولست أستطيع أن أذهب فى الشرح إلى أبعد من هذا لأن وقته لم يحن حتى الآن ، ولكننى واثق أنكم ستفهموننى فيما بعد »

وتحدث بعض العلماء بعد بارسونس فأعادوا شرح جميع التفاصيل الفنية : مثل الارتفاع الذى ستلقى القنبلة منه ، وعند أية سرعة ، واتجاه العودة الذى كان عليهم أن يسلكوه . وسمع الطيارون هذه المرة . كما سمعوا فى مرات سابقة ، أشياء عن المدن التى ستكون هدفهم . .

وعندما انعكست صورة هيروشيما على الشاشة ، تبينوا أنها هدف نموذجى فهى مدينة كائنة بين جبال كثيفة الغابات فى دلتا أحد الأنهار ، فضلا عن أنهم علموا من تقارير القوات المسلحة أنها تعد ثامن أكبر المدن فى اليابان ، وأن عدد سكانها يربو على ٣٦٥ ألف نسمة ، كما أن ميناءها من أهم المطارات البحرية والجوية اليابانية المحاربة ، وإن كان قد أصبح محطماً تماماً بفعل غارات متوالية على الشواطئ فى الأشهر الأخيرة ، وتقع المصانع فى الضواحى البعيدة خارج المدينة وكذلك المطارات ، وحدد العلماء فى صورة هيروشيما موضع قنطرة عريضة (كوبرى) وقالوا إن القنبلة يجب أن تلقى فى هذا الموضع بالذات باعتباره مركز المدينة : حيث يتكاثف السكان .

وتوالى إعطاء المعلومات عن الأهداف الأخرى « كوكوارا » ونجازاكى » ، وإن كان قد فهم الجميع أن هيروشيما هى الهدف الأصلى ، وأن ما عداها ، أهداف بديلة.

وبعد انقضاء خمس ساعات على بدء الاجتماع ، أعلن الكولونيل تيبتس « أننى فخور شخصياً لاختيارى لهذه الغارة ، ويجب أن يكون لدى كل منكم نفس الشعور » وأدرك الطيارون أن قائدهم سيصحبهم شخصياً فى هذه الغارة الأمر الذى

لم يحدث في أية غارة سابقة ، ثم أضاف القائد أن الطيارة التي تحمل اسم (أينولاجاى) هى التى تحمل القنبلة ، وأن الذى سيقود هذه الطائرة هو الكابتن (روبرت لويس) ، وسيصحبهم فى نفس الطائرة الكولونيل تيبتس كطيار احتياطى ، مع الطيارين الإضافيين ، كما أن الرائد (فيربى) ، هو الذى سيتولى صيانة القنبلة ، وستسند الملاحة إلى تيودور فان كرك . وستطير على يمين « أينولاجاى » — الطيارة « جريت أرتست Great Artist » وسيتولى قيادتها الرائد سوينى وسيكون واجبه إلقاء أجهزة القياس بالمظلة الواقية ، وعلى يسار طائرة القنبلة ، ستطير طائرة ثالثة بقيادة النقيب جورج ماركوارد فإذا وصلت الطائرات الثلاث إلى هيروشيما تقدمت الطائرة الحاملة للقنبلة ، وجاءت بعدها طائرة الرائد سوينى بأربعة أميال ، ثم جاءت الثالثة بعدها بخمسة عشر ميلا .

وفى نفس الوقت ستطير طائرات أخرى للأهداف الاحتياطية أو البديلة كنجازاكى وكاكوارا .

وانتهى النهار ، وشمل الليل الدنيا بسكونه ، وأوى الطيارون إلى مخادعهم ، وهم لا يصدقون أنهم سيحطمون مدينة عظيمة بقنبلة واحدة ، ولم يستطيعوا جميعاً أن يناموا ، إذ لم تستطع خطبة ، (تيبتس) أن تبعث من الثقة والطمأنينة فى نفوسهم ، ما أراده صاحبها ، فالظاهر أن لقائدهم أعصاباً من طراز فريد ، وقد تكون لديه أسباب أخرى تجعله فخوراً بقيادة حملة شيطانية كهذه الحملة ، فقد كشف الطيارون أن Enola Gay ليس سوى اسم والدة تيبتس أطلقها على الطائرة التى ستدمر مدينة ضخمة وربع مليون من البشر . وهو اختيار قبيح ، فالأم ، هى عنوان الرحمة والحنان والحدب ، فكيف تكون اسماً لطائرة تحمل الخراب والهلاك لعشرات الألوف من الأمهات والأطفال .

وقد حاول الإنجليز أن يشهدوا هذه الغارة فى شخص طيار عظيم من طياريهم هو (ليونارد كيشير) وعالم من علماء الطبيعيات هو (وليم بينى) ، ولكن الجنرال الذرى رفض اشتراكهما بدعوى أن من الخطورة إشراك أحد غير الأمريكان فى أسرار القنبيلة الذرية ، ولم يكن هذا سوى إصرار من الجنرال جروفز على سياسته ، التى جرى عليها منذ سنة ١٩٤٤ والتى تقوم على الحيلولة بين الإنجليز وبين

معامله فى (لوس آلاموس) فى جبال نيومكسيكو. وقد حاول تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أن يقنع الأمريكان بالعدول عن قرارهم موسطاً فى ذلك الجنرال (لماى) الذى أصبح الرئيس الأعلى لوحدة القنبلة الذرية، ولكن ذهب المجهود سدى، إذ لم يغير الجنرال جروفز موقفه.

وتقرر فى آخر لحظة أن التجهيزات الأخيرة للقنبلة وإعدادها لتكون صالحة للانطلاق، يجب أن تتم والقنبلة فى الطائرة، لا قبل ذلك، فقد حدث فى الليلة السابقة لليلة المحددة لإقلاع (أينولا جاى) بالقنبلة أن اصطدمت أربع طائرات طائرات من طراز ب ٢٩ بإحدى الشعب المرجانية فى نهاية الطريق الذى تجرى عليه الطائرة فى المطار، فاشتعلت فيها النيران، فخيف أن تصطدم الطائرة فيها وتحترق، وهى تهم بالتحليق بالقنبلة، فتدمر جزيرة تينيان عن آخرها بكل ما فيها من طائرات وطيارين.

وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم ٥ من أغسطس، خرجت القنبلة من مخزنها، فتبين الطيارون أن طولها أربعة أمتار ومحيطها حوالى متر، ووزنها عشرة آلاف رطل، وليس فى شكلها ما يميزها عن بقية القنابل التى كانوا يلقونها فى غاراتهم. ولما وصلت القنبلة إلى الموضع الذى كانت فيه الطائرة (أينولاجاى) رفعتها الرافعة الهيدروليكية سنتميتراً بعد سنتمتر، حتى وصلت إلى مخزن القنابل الأمامى فى الطائرة.

وهكذا انتهت جميع الترتيبات، ووقف صفان من الجنود، فى حراسة القنبلة. وفى الساعة العاشرة من مساء يوم الخامس من أغسطس صدرت الأوامر بالهجوم على أن يكون موعد انطلاق الطائرة الخاصة بالمعلومات الجوية الساعة الواحدة والنصف، وتقلع الطائرة أينولاجاى بعد ذلك بساعة.

وقبل أن يأخذ الطيارون مكانهم فى الطائرات قال لهم (بارسونس) مهندس الأسلحة أنهم سيأخذون معهم نظارات سميكة داكنة، وأراهم واحدة منها، وأضاف أنهم لن يرفعوا عن أعينهم هذه النظارات مهما كان الحال، وأن عليهم أن يضعوها على وجوههم قبل إلقاء القنبلة، فيصبح كل شىء معتماً، وقال: «أفهموا ما أقوله لكم فلم يحدث أن عاد طيار أعمى بطائرة ب ــ ٢٩»، وختم كلامه بقوله: إن

المعلومات الجوية الأخيرة طيبة ، وستجدون سماء صافية » .

ولما غادر بارنسوس القاعة ، بقى الطيارون فى أماكنهم ، جامدين ، بلا حراك ، حتى دخل القاعة النقيب وليم شابلن ، وهو قسيس الفرقة ، وبدأ يوجه كلامه ودعاءه إلى الله قائلا :

« أيها الأب القوى ، يا من تتقبل صلاة الذين يحبونك ، نتوسل إليك أن تؤيد أولئك الذين يجرءون على التحليق فى سمواتك العلا ، حاملين على عاتقهم قتال عدونا . نبتهل إليك أن تحفظهم وترعاهم عندما يطيرون لأداء المهام التى يؤمرون بها.

« ربنا اكشف لهم ، كما كشفت لنا عن سلطانك وجبروتك ، ومكنهم بتأييدك ليضعوا نهاية سريعة لهذه الحرب .

« نبتهل إليك يا إلهنا ، أن تنتهى هذه الحرب ، وأن تنشر السلام على الأرض مرة أخرى . . . .

« مكملا قلوب هؤلاء الرجال الذين سيطيرون فى هذه الليلة بالثقة فى رعايتك ، « والاطمئنان إلى سلامة مصيرهم ، ولسوف نسلك طريقنا معتمدين عليك لأننا الآن ، وإلى الأبد تحت حمايتك . . . . آمين »

نعم! لقد صلى إلى الله ، الذين حملوا أبشع أداة من أدوات الهلاك عرفها الإنسان ، وطلبوا حمايته ، وتحدثوا عن السلام . . فأى إله هذا الذى كانوا يصلون له ؟

وبعد قليل كان الظلام يلفهم من كل جانب ، إذ سرعان ما طاروا فوق السحاب بعد أن قطعوا أطول ممر أرضى فى مطار ؛ ومن آن لآخر كانت تسقط قطرات المطر ، على زجاج النوافذ المعتم ، أما فى داخل الطائرة فكان الدفء باعثاً على النوم .

فإذا عدنا إلى هيروشيما لنرى أهلها فى هذه اللحظات السابقة على فتح أبواب الجحيم ، رأينا مدينة سعيدة نجت حتى الآن — دون غيرها من مدن اليابان الكبيرة — من غارات الطائرات ، وفى الساعة السابعة ، أطلقت صفارات الإنذار ، فجال الناس بأعينهم فى السماء ، بنظرة قصيرة ، فشاهدوا الطائرة الوحيدة ، التى دأب الجنرال لماى فى الأسبوع الأخير ، على إرسالها يوميا لاستطلاع الأحوال الجوية فوق هيروشيما ، حتى تعود السكان رؤية الطيارة ب — ٢٩ ذات المحركات الأربعة ،

ولشدة إلفهم إياها ، سموها (مستر ب) ولذلك حسبوا فى اليوم السادس ، أن هذه هى الزيارة اليومية المألوفة ، فعلت شفاههم الابتسامة ، وانصرفوا إلى عملهم فى استهانة وبلا اكتراث . وفى هذه اللحظة كانت إينولاجاى على ارتفاع ٢٩ ألف قدم، وكان ممكناً أن تعود من حيث أتت إذا كانت السحب تغطى المدينة ، ولكن لسوء حظها وحظ أهلها ، كانت السماء صافية ، وكانت الشمس مشرقة .

فلما وصلت الساعة إلى التاسعة والربع من صباح اليوم ، والثامنه والربع حسب توقيت هيروشيما ، أطلق بارسونس مهندس الأسلحة القنبلة من عقالها ، وانطلقت القنبلة من الطائرة ، كالمصعد الذى ينطلق بسرعة خاطفة وبعد خمس ثوان ، وصل إلى الطائرة ما دل على انفجار القنبلة فى هيروشيما .

لقد اخترق ضوء خاطف كالسهام النظارات الجلدية . . وشمل هذا الضوء المكان بأسره، ثم انتشرت فى السماء أشعة رهيبة ، فنفذت حرارتها إلى قمرة الطائرة كسيل جارف أعمى ، انهمر فوق سطح الطائرة ثم اقتحمها إلى القمرة . .

وقد قال أحد أعضاء طاقم الطائرة عقب إلقاء القنبلة : كان أمامنا ثلاث وأربعون ثانية ، وفترة أخرى تقدر بعشر ثوان قبل أن تقابلنا موجة الهواء الضاغطه الأولى ، وفى هذه الفترة أحكمنا إغلاق مخزن القنابل الأمامى فى الطائرة .

وقال آخر : عندما اصطدمت الطائرة بضغط موجة الهواء ، أحدثت صوتاً كصوت سطح من الصفيح . . .

وقال قائد الطيارة :

حلقت دورة كاملة حتى استطعنا أن نراقب النتائج ، وكان منظراً غريباً فلم يسبق لعين أن رأت مثله ، ولا لأذن أن سمعت شيئاً شبيهاً به. فقد غطت سحابة سوداء ثقيلة تسع أعشار المدينة ، وظهر عمود ضخم من الدخان الأبيض ، وصل فى حوالى ثلاث دقائق تقريباً ، إلى ارتفاع ثلاثين ألف قدم ، واستمر فى الارتفاع أكثر فأكثر .

ثم قال : بدا جميع أفراد الطاقم كما لو كانوا قد ضربوا فوق رءوسهم ، وقال فى موضع آخر :

بعد ساعة ونصف تمكنا من رؤية السحابة الداكنة فوق المدينة وعندما ابتعدنا

عن هيروشيما بأربعمائة ميل وصل ارتفاع عمود الدخان إلى ٥٥ ألف قدم . وفى رحلة العودة كنا مجموعة من الآدميين ممتزجة كلية ، فقد رأينا أسوأ ما يمكن أن يراه إنسان ، لم نكن قد انتهينا ، فلم يكن خافياً علينا أن مدينة قد اختفت من وجه البسيطة .

* * *

وعاد الطيارون إلى قاعدتهم فى جزيرة تينيان ، وما كادوا يطأون أرضها ، حتى سمعوا فى المساء ، إشاعة عن قرار جديد مؤداها أنه على الطيارين أن يكونوا مستعدين لإلقاء قنبلة ثانية ، ستكون أشد هولا من الأولى .

فلم تسعف الطيارون عقولهم ليفهموا هذا الكلام ، فقد كان فوق معقولهم ، أن يعودوا إلى تخريب مدينة كاملة أخرى . . وقد كانوا يؤملون أن تستسلم اليابان بل كانوا يعتقدون ذلك . واليابانيون لم يستطيعوا أن يدركوا فى الحال ، ماذا أصاب هيروشيما ، فإن الردار لم يسجل تحليق طائرات كبرى ، وكما لم تسجل محطة الأرصاد الجوية أى زلازل أرضية ، فضلا عن أن الثابت أنه لم تكن فى هيروشيما كميات كبيرة من المتفجرات ، وكان كل ما دخل جو المدينة طائرتان فقط وعلى ارتفاع شاهق . ووصلت أنباء هيروشيما إلى طوكيو ، فعلمت العاصمة إن المدينة تشتعل ، وأن هذا الجحيم حال دون الاتصال بها ، للوقوف على حقيقة ما أصابها ، وسببه ، وكان أقرب نقطة يمكن الذهاب إليها تبعد عن هيروشيما بتسعة كيلومترات ونصف . وكانت جميع وسائل الاتصال السلكى واللاسلكى قد أنقطعت بينها وبين الخارج ، وبقى هذا الغموض ، حتى بدده بيان الرئيس ترومان ، الذى أعلن فيه أن القنبلة التى ألقيت كانت قنبلة ذرية .

ومع ذلك فإن اليابانيين كانوا يظنون أن قول الرئيس ترومان إن المدينة ، دمرتها قنبلة واحدة ، هو من قبيل الدعاية . ولكن الجيش شكل لجنة أبحاث برياسة الجنرال أريسوردى ، ولما وصل القائد (ماما شاكى أكوميا) فى اليوم الثامن كتب تقريراً قال فيه :

« عندما وصلنا إلى هيروشيما كانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، ولكن فى اليوم الثانى ، كان ينبعث من المدينة التى كنت أكثر من التردد عليها ، ضوء

مروع مخيف : أنها هيروشيما المشتعلة ،ونيرانها تعكس أضواء كالدماء القانية المرتجفة المصحوبة بالدخان الأسود المتصاعد من الأرض » .

* * *

ويبدو أن الأثر الرهيب الذى أحدثته القنبلة الأولى ملأ السلطات الأمريكية المشرفة على إنتاج السلاح الذرى زهواً ، فأحست أن الأمة الأمريكية أصبحت بفضل القنبلة قادرة أن تتقاضى من الشعب اليابانى ، ترضية كاملة ، وثأراً مروعاً ، عن أجتراء الشعب الأصفر ، على مفاجأة السادة البيض فى بيرل هاربور . ولذلك كانت هذه السلطات متلهفة على إلقاء قنبلة ثانية على إحدى مدن اليابان ، وتحدد فعلا اليوم السابع من أغسطس ، أى فى اليوم التالى مباشرة لإلقاء قنبلة هيروشيما ، ولكن رؤى أخيراً أن يسبق إلقاء القنبلة الثانية ، إلقاء بضعة ملايين من نسخ من منشور على ٤٧ مدينة يابانية تحرضهم على إنهاء الحرب ، وقد جاء فى هذا المنشور الذى كان باللغة اليابانية :

« إلى الشعب اليابانى .. إننا نملك مادة متفجرة لم يسبق لإنسان ابتكارها ، وقد بدأنا فى استخدام هذا السلاح ضدكم ، وإن كان لديكم أى شك ، فسنخبركم بما حدث فى هيروشيما حينما ألقيت القنبلة الكبرى عليها ، وقبل أن نستخدم هذه القنبلة مرة أخرى . . نطالبكم أن تتباحثوا مع إمبراطوركم لإنهاء الحرب » وقد تضمن المنشور صوراً فوتغرافية للخراب الذى وقع فى هيروشيما .

وحدد اليوم الحادى عشر من أغسطس لإلقاء القنبلة الثانية ، ولكن جاءت المعلومات الجوية دالة على أن يوم هذا اليوم ،لا يصلح ؛ لأن عاصفة عنيفة تقترب من اليابان ، مما يقتضى التعجيل بإلقاء القنبلة . ولذلك صدر الأمر فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم الثامن من أغسطس للفرقة ٥٠٩ آمراً بالعملية رقم ٣٩ يقضى بالطيران فى الليلة القادمة والقيام بغارتها الكبرى .

ولم يشعر أحد من الطيارين بأن خمسة وعشرين عالماً حضروا إلى جزيرة تينيان من (لوس الأمواس) ومعهم الأجهزة والأدوات اللازمة للقنبلة الثانية ، وقد كانت قواتها من البلوتونيوم وأسموها (الرجل العملاق) ، لأنها أكثر إفناء للبشر من قنبلة هيروشيما التى استحقت بالمقارنة بها لقب الرجل القزم .

وتغير الفريق المغير هذه المرة ، فأصبح قائد الطائرة الحاملة للقنبلة ، هو الرائد سويني ، ولم يشترك هذه المرة لا (تيبتس) الطيار ، ولا (بارسونس) مهندس الأسلحة ، وحل محل الأخير فى إجراء تجهيزات القنبلة الأخيرة النقيب فردريك ل . أشورت ، وكانت الطائرة الحاملة للقنبلة هى (جريت ارتيست) التى حملت فى المرة السابقة ، أجهزة القياس للضغط ، وسمح للإنجليز أن يحضروا الغارة الثانية ممثلين فى شخص طيارهم الكبير (كيشير) وعالمهم (وليام بينى) . وكان لهذا الهدف الرئيسى للغارة هى مدينة كيكوارا ، والهدف البديل هو نجازاكى .

وقبل أن يجلس الطيارون والمهندسون فى طيارات الغارة ، صلى بهم الأب وليام شابلين للمرة الثانية ، وكانت صلاته هذه المرة :

« أيها الأب القوى . . . يا أب الرحمة ، فلترع هؤلاء الرجال ، إنهم سيطيرون هذه الليلة ، احمهم واحفظهم وجنبهم لعنات السماء واشملهم بعنايتك ، واتحفظ أجسادهم وأرواحهم وردهم إلينا سالمين ، وهبنا الشجاعة والقوة فى هذه الساعات التى نحن فيها ، وكافئهم على جهودهم . . أيها الأب . هب عالمك السلام ودعنا نسلك طريقاً فى ثقتك وهديك . . إنك موجود الآن ، وإلى أبد الآبدين . آمين »

وفى الساعة الثانية كانت طائرة الاستطلاع قد وصلت إلى سماء نجازاكى ، ولكنها كانت مغطاة بطبقة من السحاب الأبيض الكثيف ، فأصبح من المتعذر إلقاء القنبلة عليها ، كذلك كانت (كوكورا) مغطاة بطبقة من السحب ، وكان على الطائرات حسب الأوامر أن تعود بالقنبلة إذا كانت الظروف الجوية لا تسمح بالرؤية . ولذلك أخذت الطائرات فى الدوران إلى أن ألقت أشعة النهار الساطع أضواءها ، فبدأت طبقة السحاب فوق نجازاكى تنسحب شيئاً ما ، ولكن الطائرات ظلت بعد ذلك ثلاث ساعات محلقة فوق اليابان وبدأ الوقود ينفد بحيث لم يعد فى إمكان الطائرات العودة إلى جزيرة تينيان ، واختفت طائرة من طائرات الغارة ، وقد كانت تحمل آلات التصوير ، وأصبح الموقف دقيقاً . وزاد الطقس سوءاً فوق مدينة كوكورا ، وتبادلت الطائرات الكلام باللاسلكى مدة خمسين دقيقة وهى فوق المدينة ، ثم قررت الطيران إلى نجازاكى ، ولم ير أهلها الطائرات فقد كانت محلقة على ارتفاع شاهق ولكن ظهر على شاشة الردار طائرتان آتيتان من الجهة الشرقية ،

فدوى صوت الإنذار ، غير أن أهل المدينة كانوا قد ألفوا هذا الصوت الكئيب فلم يكترثوا، ولم يأو منهم إلى المخابئ إلا القليل ، وكانت الساعة وقتذاك فى نجازاكى الساعة العاشرة وثلاثاً وخمسين دقيقة بينما كانت ساعة الطيارين هى الحادية عشرة . وثلاثاً وخمسين دقيقة وفجأة اكتشف النقيب (بيهان) وجود فجوة فى طبقة السحب، فألقى القنبلة ، وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة ودقيقة بتوقيت نجازاكى .

وقال سوينى قائد طيارة القنبلة ، بعد دقيقة من تفجير القنبلة ، شعرت كأن الطائرة ب — ٢٩ اصطدمت بأحد أعمدة التليفون ، كما أحسسنا بخمس صدمات متوالية كانت جميعها أقوى بكثير من تلك التى شعرنا بها فوق هيروشيما : ولكن ما تبع ذلك كان نفس الشيء الذى حدث فوق هيروشيما .

وبعد إلقاء القنبلة على (نجازاكى) لم يبق عند الولايات المتحدة قنابل ذرية أخرى تلقى بها : ولكن كان هذا سراً لا يعرفه إلا عدد قليل جداً من المشرفين على إنتاج الأسلحة الذرية ، حتى القسيس الذى كان يقوم بالصلاة قبل الغارة الذرية كان يعتقد أن قنبلة ثالثة فى الطريق ، فأعد لذلك صلاة ثالثة !

وقبل أن يصل نبأ القنبلة الثانية إلى طوكيو ، كان مجلس الحرب الأعلى اليابانى قد انعقد فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التاسع من أغسطس : وكانت الترتيبات قد اتخذت لعقده فى الليلة السابقة ، وهو مجلس يضم ستة فقط من أكبر رجال الدولة ، وعلى رأسهم جميعاً الإمبراطور .

وفى الساعة الثانية صباحاً ، من نفس اليوم ، وقبل انعقاد المجلس بنحو عشر ساعات كان الاتحاد السوفيتى قد دخل الحرب مع اليابان ، وزحفت قواته إلى منشوريا .

ولما انعقد المجلس قال الإمبراطور إن استمرار الحرب لا يعنى إلا دمار الأمة وإطالة فترة إراقة الدماء ، وقد حان الوقت لمواجهة ما لا طاقة لنا به » وكان يعنى وقف القتال .

وفى الساعة السابعة وثلاث وثلاثين دقيقة بتوقيت الولايات المتحدة : التقطت مراكز الالتقاط اللاسلكية نبأ واضحاً كان يذاع بطريقة مستمرة من راديو طوكيو، فقد أعلنت الحكومة اليابانية أنها قبلت الشروط الموضوعة فى بوتسدام وذلك مع الاحتفاظ بحقوق الإمبراطور العليا .

وفى الساعة التاسعة قبل ظهر اليوم نفسه استدعى الرئيس ترومان مستشاريه إلى البيت الأبيض لكى يناقش موضوع استسلام اليابان، وهؤلاء المستشارون هم: وزير الخارجية بيرنز، ووزير الحرب ستسمون، ووزير البحرية فورستال، والمستشار الحربى للرئيس ترومان الإميرال (ليهى) .

وكانت النقطة التى استنفدت وقتاً طويلا فى البحث هى النقطة الخاصة بمصير الإمبراطور ، فقد اشترط اليابانيون لوقف الحرب ، أن تضمن حياة إمبراطورهم ، وكان هناك رأى يرى عدم قبول هذا الشرط باعتبار الإمبراطور من مجرمى الحرب ، ولكن رجحت الفكرة القائلة بقبول شرط اليابان ، ونجا الإمبراطور من الموت . وأعلنت الولايات المتحدة والحلفاء ، أنه ينبغى على سلطات الإمبراطور والحكومة اليابانية من لحظة الاستسلام أن تخضع للقائد الأعلى للقوات المتحالفة .

وانتظر الحلفاء بصبر نافد ورود نبأ قبول اليابان الاستسلام . ولم يكن كل قواد الجيش اليابانى ، مستعدين لقرار الاستسلام ولا راغبين فيه ، حتى إن أحد قواد سلاح الطيران اليابانى ويدعى (مينامى) استولى على طائرة، وألقى منها منشورات على طوكيو ، حرض فيها الشعب على معارضة الاستسلام ثم هوى بالطائرة على المدينة .

ودعى الإمبراطور إلى اجتماع آخر لمجلس الحرب الأعلى ، وألح فى قبول طلبه ، وفى أن يطيعه الوزراء ، فيقبلوا مذكرة الحلفاء، ثم يعدوا بياناً للشعب بذلك فوراً .

وأرسلت مذكرة الحكومة اليابانية المتضمنة الموافقة على قرار التسليم إلى الحكومة الأمريكية ، عن طريق القائم بالأعمال فى السفارة السويسرية التى كانت تتولى شئون الولايات المتحدة خلال فترة الحرب .

وفى الساعة السابعة من مساء يوم ١٤ من أغسطس سنة ١٩٤٥ أعلن الرئيس ترومان القوات المتحالفة بوقف القتال ، وكانت كلمه السر التى تعنى أن الحرب انتهت هى (أوتا) .

وانتهت الحرب مع اليابان . . .

ولكن أكان استسلام الإمبراطور ، وقبول العناصر الحربية فى اليابان ، فكرة

الاستسلام ، نتيجة للقنابل الذرية التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكى .

ينقل الكاتب الألمانى هانز هيرلين ، عن مساعد الأميرال إيليس زخاريا مدير إدارة الحرب النفسية ضد اليابان قوله : «لقد قبلت اليابان شروط الاستسلام التى عرضناها عليها دون إلقاء القنبلتين الذريتين ، واقتنعت بنفسى اقتناعاً أكيداً بأن إلقاء هاتين القنبلتين لم يكن ذا تأثير حاسم فى نتيجة الأحداث التاريخية فى الباسفيك »

ويؤيد هذا الرأى أيضاً المؤرخ الأمريكى روبرت بوتاو .

فإذا كانت دوائر الحرب والسياسة الأمريكية على علم بأن اليابان كانت مستعدة أن تنهى الحرب قبل شهر أغسطس وأن الحلفاء كانوا قادرين على الوصول إلى هذه النتيجة السعيدة ، بغير مقارفة هاتين الجريمتين الكبيرتين ، جريمة هيروشيما ونجازاكى ؛ فكم تكون مسئولية ترومان وأعوانه ، إذ أقدم على هذا العمل الوحشى ، الذى تتضاءل إلى جانبه جميع فظائع الحروب ، منذ امتشق الإنسان سلاحاً ليقتل به أخاً له فى الإنسانية ؟

وكافأت سلطات الولايات المتحدة الطيارين والفنيين الذين اشتركوا فى إلقاء القنبلتين الذريتين ، بأن سمحت لهم بالسفر إلى طوكيو ، وبمشاهدة آثار عملهم فى نجازاكى ، وإن حرصت على تجنبهم رؤية مدينة هيروشيما ، ولكنهم استطاعوا أن يروها من طائراتهم ، وهم فى طريقهم إلى نجازاكى ، فعرفوا من الأطلال ، والخرائب ، هول ما اقترفت أيديهم ، ولم يمكثوا فى نجازاكى إلا بضع ساعات قليلة ، وكانوا تحت حراسة مشددة ، فألجم المنظر ألسنتهم ، ومرت الأيام على هذه الزيارة واستطاعوا أن يستعيدوا ذكريات الحرب جميعاً ، إلا ذكرى هيروشيما ونجازاكى ، فقد حاول كل منهم أن ينساها . . وقد عبر عن مشاعرهم ضابط اللاسلكى أبى شبتسر إذ قال : « لو أصبحت طبيباً وعملت ليلا ونهاراً ، وعاماً بعد عام . لأساهم فى ولادة أطفال للعالم ، وإنقاذ حياتهم ، لما ساوى عملى هذا شيئاً بالنسبة لتلك الحياة التى قضينا عليها . . ولن تكفر أعمالى عن هذه الأرواح التى أزهقت . . . . »

الفصل الثالث

الأمم المتحدة وما قبلها

لقد انتهت حرب عالمية ثانية ، أثبت فيها الإنسان ، أنه أكثر الوحوش ضراوة ، وأن فى نفسه من طاقات التخريب والتدمير ، ما تتضاءل إل جانبه ، الأعاصير الهوجاء ، والزلازل العاتية ، والبراكين بكل ما فيها من حمم ولهب . فلم يرو علماء الحيوان أن وحشاً استمر ، يقتل ، ويلغ فى الدماء ، ويمزق فرائسه ، خمس سنوات متصلة،ولم يرو علماء الطبيعة أن زلزالا ، أو إعصاراً ، بقى يعصف بالناس ، ويقوض حياتهم ، هذه المدة . ولكن هذا الإنسان نفسه ، أثبت بتلك الحرب ذاتها ، أنه عظيم ، جدير بأن ينحنى له التاريخ إجلالا وإكباراً ، وأنه حقيق بأن ترعى خطاه ، عين الله الساهرة .

فإن الحرب وإن كانت تخريباً وتدميراً ، وإن كان هدفها الاستعلاء ، على الخصوم ، ومحو وجودهم ، وإزلالهم لإرادة منتصرة ، فإنها أيضاً تنظيم باهر ، إرادة فى النضال صامدة ، وعقل يدبر ، ويحسب لكل صغيرة حسابها ، وقدرة على التحكم والضبط ، والدراسة والتنبؤ ، والحشد ، والتعبئة ، والإثارة والتحريض ، يتوج هذا كله استعذاب للتضحية ، وفناء فى العقيدة ، وإيمان بالنفس . . فهى تكشف عن قوى الإنسان ومواهبه ، التى تنحرف عن طريقهما السليم ، وتنقلب على نفسها .

إذن لا معنى لليأس من الإنسان ، ولا محل للتسليم بانحطاطه ، وبغلبة الشر فيه على الخير ، والأنانية على الإيثار ، والحقد على التسامح . . .

إن الإنسان مركب عجيب ، ولكنه فى الجملة ، يستحق أن يوثق بمستقبله ، ويطمئن إليه . .

ولا أدل على ذلك ، من أن إندلاع نار الحرب ، كان المناسبة للتفكير فيما يجب أن يعمل لمنع نشوبها من جديد ، والتحضير لتخريب العالم ، كان معاصراً وموازياً للتفكير فى تعميره بعد التخريب . . قد يبدو هذا متناقضاً ، ولكن ما حيلتنا ، وهذا هو الإنسان،ينتقل من النقيض إلى النقيض،وهو فى هذا التنقل

يبدو لبعضنا كريهاً ميئوساً منه، ويبدو للبعض الآخر صبياً شقياً ، ولكنه صبى يستمر فى النضج ، والنمو ، ولا ينقطع عن التجربة والمحاولة . . .

* * *

ما كادت الحرب تعلن ، حتى أعلن فرانكلين ديلانو روزفلت رئيس الولايات المتحدة أن على بلاده أن تقوم بدور هام فى المستقبل لمحاولة إقامة سلام يشمل العالم أجمع ، وتبع ذلك ، صدور قرار وزير خارجية الولايات المتحدة ، بتشكيل لجنة لدراسة شئون ما بعد الحرب ، وألفت بريطانيا لجنة برياسة مستر لاو وزير الدولة لدراسة المشروعات المتعلقة بالتنظيم الدولى الجديد ، وتألفت كذلك لجنة مماثلة فى الاتحاد السوفيتى[1] .

ثم اجتمع روزفلت وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا على ظهر البارجة (برنس أوف ويلز) فى المحيط الأطلسى ، وأصدرا تصريحاً عرف فيما بعد بتصريح الأطلسى ، وذلك فى الرابع عشر من أغسطس، قالا فيه إن دولتيهما لاتسعيان إلى أى توسع إقليمى وتحترمان حق الشعوب فى اختيار نظم الحكم التى تروق لها وتريدان كفالة المساواة بين الدول جميعاً فى التجارة العالمية وتحقيق تعاونها كاملا للتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، وإنهما يسعيان بعد القضاء ، على النازية ، إلى إقرار سلام عالمى يعيش الناس آمنين فى ظله .

ثم أضافا أن من بين أهداف الحرب إنشاء هيئة عالمية لحفظ السلم وتحقيق التعاون الدولى ، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الهيئة فى البند الثامن من التصريح ونصه .

« يؤمنان — أى صاحبا التصريح — بأنه يتعين على شعوب العالم جميعاً أن تنبذ لأسباب روحية وواقعية معاً ، استعمال القوة ، ولما كانت صيانة السلم فى المستقبل ، لا تتأتى ، إذا استمرت الشعوب التى تهدد أو قد تهدد بالقيام بعدوان خارج أقاليمها ، مستخدمة أسلحة برية وبحرية وجوية ، فإن رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية يريان أن من الحيوى تجريد تلك الشعوب من السلاح إلى أن ينشأ على نطاق أوسع نظام دائم للسلام العام ، كما أنهما يؤيدان ويعاونان كل

---

(١) الأمم المتحدة للدكتور زكى هاشم .

التدابير العملية التى تؤدى إلى تخفيف عبء التسلح الثقيل عن الشعوب المحبة للسلام ».

ويتضح من مطالعة تصريح الأطلسى أمور كثيرة: أولها أنه حوى أول إشارة بعد الحرب العالمية الثانية إلى نظام دائم للسلام العالمى ، وثانيهما أن هذه الإشارة اقترنت بما يقطع بأن الروح التى سادت الفترة السابقة على إنشاء عصبة الأمم هى نفس الروح التى صاحبت التفكير فى الأمم المتحدة ، فالرغبة فى الانتقام ، وتقليم أظفار المغلوب ، وتجريده وحده من السلاح ، سابقة أو على الأقل معاصرة للرغبة فى إنشاء نظام دائم للسلام ، مع أن الرغبتين متناقضتان ، ولا تؤديان إلا إلى إلغاء إحداهما الأخرى، فالقول بأن المغلوب هو المسئول وحده عن تعكير السلام ، وتهديد أمن الغير ، قول يرفضه المنطق . وإقامة سلام عالمى دائم على أنقاض فريق من الشعوب، يهدد هذا السلام، ويجعله رهناً ، باستعادة الفريق المطلوب القوة التى حرم منها ، والسلاح الذى منع عنه ، والمكانة الدولية التى نحى عنها ، فإذا عوض نفسه عن هذا كله، عاد من جديد، خطراً على العالم، والسلام ، وتكررت المأساة ، وسارت الحياة الدولية ، كأنما هى حلقة مفرغة .

ثم إن تصريح الأطلسى ، لا يتحدث عن نزع السلاح كهدف أسمى ، بل يقنع بالحديث عن تخفيض عبء التسليح الثقيل ، وهو حديث يدل على أن واضعى التصريح لم يتعظا بما جرى فى فترة ما بين الحربين العالميتين من محاولات خفض السلاح التى كانت أقرب إلى الهزل منها إلى الجد ، والتى استمرت حتى اتصلت بقيام الحرب العالمية الثانية .

وبالجملة كان تصريح الأطلس كرجع الصدى من مشروعات عصبة الأمم التى ردمت تحت ركام وحطام دول أوربا التى قوضتها قنابل الغارات الجوية .

على أنه لم ينقض على تصريح الأطلسى إلا بضعة أشهر حتى أذيع بيان ، ورد فيه اسم الأمم المتحدة صراحة ، وكان بياناً دولياً لأنه لم يصدر من اثنين من زعماء الحلفاء الذين أسموا أنفسهم بالعالم الحر ، بل صدر من ممثلى ست وعشرين دولة اجتمعوا فى واشنطن بالولايات المتحدة . ونعنى به البيان الذى أذيع فى أول يناير سنة ١٩٤٢ وأعلن فيه موقعوه إيمانهم بالمبادئ التى قررها تصريح الأطلسى

واعتقادهم الراسخ بأن الفوز الكامل على دول المحور أساس للمحافظة على الحرية والاستقلال وحقوق الإنسان ، ثم تعهدوا بأن يستخدموا مواردهم كافة ، عسكرية واقتصادية ، ضد دول الأعداء، وبأن يتعاون بعضهم مع بعض حتى يتم هذا الفوز ، وقطعوا عهداً على أنفسهم بألا تعقد أية دولة منهن هدنة أو صلحاً منفرداً مع الأعداء، وأبيح الانضمام إلى هذا التصريح لكل دولة تقدم معونة فعلية فى الحرب ضد النازية وحلفائها .

وقد وقع على هذا التصريح ممثلو الدول الآتية : الولايات المتحدة الأمريكية ، المملكة المتحدة البريطانية العظمى وإيرلندا الشمالية ، اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، الصين ، إستراليا ، باجيكا ، كندا ، كوستكاريكا ، كوبا ، تشيكوسلوفاكيا ، جمهورية الدومينيكان ، السلفادور ، اليونان ، جواتيمالا ، هايتى ، هندوراس ، الهند ، لكمسبرج ، هولندا ، ينوزلندا ، نيكاراجوا ، النرويج ، بناما ، بولندا ، جنوب أفريقيا ، يوغسلافيا .

وانضمت إلى هذا التصريح بعد توقيعه إحدى وعشرون دولة منها : فرنسا ، وقد تم انضمامها فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، كذلك انضم إليه من الدول العربية العراق فى ١٦ من يناير سنة ١٩٤٣ ، ومصر فى ٢٧ من فبراير سنة ١٩٤٥ ، والمملكة السعودية وسوريا ولبنان فى أول مارس سنة ١٩٤٥ .

ولا تعليق لنا على هذا التصريح الذى حمل اسم الأمم المتحدة ، إلا أنه محالفة عسكرية واقتصادية ، ضد ألمانيا النازية ، وإيطاليا الفاشية ، واليابان الإمبراطورية ، وأنه لا يمت إلى السلام ، بل إنه كان إجراء من إجراءات الحرب.

والظاهر أن الحلفاء ، كانوا يحسون أنهم وإن اتفقت كلمتهم فى سنة ١٩٤٠ وما بعدها على محاربة ألمانيا وإيطاليا واليابان ، إلا أنهم لن يلبثوا حتى يختلفوا هم بين أنفسهم ، وأنهم سيحتاجون عندما تضع الحرب أوزارها ، إلى نظام يحميهم بعضهم من بعض ، ولذلك لم يجتمع زعماء العالم الحر يوماً إلا وخرجوا بتصريح يتضمن إشارة صريحة للنظام العالمى الذى فكروا فيه ، وتمنوا قيامه ، وقد حدث هذا فعلا حينما اجتمع فى موسكو فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٣ ممثلو الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والصين ليتباحثوا فى

الأهداف التى يرمون إلى تحقيقها بعد أن تضع الحرب أوزارها ويشرق السلام على الأرض ، وفى الثلاثين من هذا الشهر أعلن تصريح الدول الأربعة عن الأمن العالمى المعروف بتصريح موسكو ، الذى أعلنوا فيه عزمهم لا على نزح السلاح ، بل على نزع سلاح الأعداء وحدهم ، والتواصى بتنفيذ ما عساه يفرض على هؤلاء الأعداء من شروط ، وأنهم لن يستخدموا جيوشهم خارج حدودهم إلا لتنفيذ هذه الشروط وحدها ، وأنهم سيتبادلون الرأى لوضع نظام عام ، لا لنزع السلاح ، بل للتسلح.

وبعد أن فرغوا من حديث الحرب ، قالوا إنهم :

« يعترفون بضرورة نشوء ، هيئة دولية عامة ، فى وقت جد قريب ، لصيانة السلام والأمن الدولى ، قائمة على مبدأ المساواة فى السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام ، والعضوية فيها مفتوحة لكل هذه الدول ، كبيرة وصغيرة » .

والمبادئ الواردة فى هذه الفقرة ، هى ترديد لما جاء فى ميثاق عصبة الأمم ، فالمساواة بين سيادة الدول الأعضاء فى الهيئة ، هو تعبير قديم ، أثبتت التجربة أنه لا معنى له ، ولامدلول ، فقد كانت عصبة الأمم كلها مجالاً لنفوذ دولة أو دولتين كبيرتين ، وكان الدخول إلى هذه العصبة معلقاً على إرادة هاتين الدولتين ، وكانت الدول المحبة للسلام هى الدول المحبة لهاتين الزعيمتين ، أو التى اتفقت معهما.

وجرياً على عادة زعماء العالم الحر تلاقى روزفلت وستالين وتشرشل فى طهران فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، ثم أعلنوا أنهم يدركون المسئولية الملقاة على عواتقهم وعاتق سائر الأمم التى وقع ممثلوها تصريح أول يناير سنة ١٩٤٢ وهى مسئولية وضع سلم عالمى ترضاه الغالبية العظمى من الشعوب ، وتجنيب الأجيال المقبلة شرور الحرب وويلاتها ، وأكدوا عزمهم على التعاون الإيجابى مع جميع الشعوب الراغبة فى القضاء على الاستبداد والاستعباد ، وحرصهم على أن يؤلفوا مع تلك الشعوب « أسرة عالمية للشعوب الديموقراطية »

والحق أن هذا التصريح ، كان أنقى التصريحات الصادرة من هؤلاء الزعماء خلال فترة الحرب ، وقبل وصولها إلى ختامها ، فقد كانت الإشارة فيه إلى الغالبية العظمى للشعوب ، والرغبة فى القضاء على الاستبداد والاستعباد ، مغايرة إلى حد ما للتعبيرات التى تضمنتها التصريحات السابقة ، والتى كانت تنضح بتعصبها لنفسها ،

وبتعصبها ضد أعدائها ، ولعل مرد هذا التغيير فى لهجة تلك التصريحات ، أن الحلفاء ، كانوا أكثر اطمئناناً إلى المستقبل ، وأعظم أملاً فى النصر ، ولذلك كانوا أهدأ نفساً .

ولما دنت الحرب من نهايتها ، أصبح من الواجب ، الإسراع بوضع الخطط اللازمة لإنشاء النظام العالمى الذى تعددت إليه الإشارات فى تصريحات زعماء الحلفاء ، ولذلك فقد اجتمع ممثلو حكومات الصين والاتحاد السوفيتى والمملكة المتحدة والولايات المتحدة فى دمبرتون أوكس للدخول فى المباحثات التمهيدية الرامية إلى وضع أسس الهيئة العالمية . ولما كان الاتحاد السوفيتى لم يدخل فى حرب مع اليابان ، إلا بعد قنبلة نجازاكى فى التاسع من أغسطس سنة ١٩٤٥ ، فقد تحاشى الاجتماع مع الصين ،وقد كانت مشتبكة مع اليابان فى حرب ،اجتماعاً مباشراً. ولهذا جرت اجتماعات هذا المؤتمر على مرحلتين منفصلتين . أولاهما تمت بين الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وقد استمرت من ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٤ إلى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤،وجرت الثانية بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والصين واستغرقت من ٢٩ سبتمبر إلى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

وقد أثمرت تلك الاجتماعات وضع مقترحات للأسس التى يرمى أن تقوم عليها الهيئة الدولية ، على أن تطرح تلك المقترحات للمناقشة فى مؤتمر عام لاحق يضم الأمم المتحدة كلها . ولم تكن هذه المقترحات إلا ما قبلت الدول أن توقع عليه وترضاه ، فهى لم تكن المقترحات المثالية ، وقد أدرك المجتمعون فى دمبرتون أوكس أن عدم وصولهم إلى اتفاق سيؤدى إلى عدم إنشاء منظمة دولية عامة على الإطلاق ، وأنهم يستحيل عليهم أن يقبل هذه النتيجة ، المهتمون بالقانون الدولى ، أو أولئك الذين يبذلون كل جهودهم للمعاونة على تجنب نشوب حروب جديدة » .

وعاد ستالين وروزفلت وتشرشل ، للاجتماع فى المدة ما بين الثالث والحادى عشر من فبراير سنة ١٩٤٥ وعادوا إلى إصدار البيانات المتضمنة إشارة إلى إنشاء منظمة عالمية لحفظ السلام ، وقد كانت هذه العبارة فى تصريح يالتا :

« لقد عقدنا العزم على أن ننشئ مع حلفائنا فى أقرب فرصة ممكنة هيئة دولية عامة للمحافظة على السلم والأمن. ونعتقد أن هذه الهيئة ضرورية،سواء لمنع

الاعتداء أو لإزالة الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى قد تؤدى إلى الحرب ، وذلك بالتعاون الوثيق المستمر بين الشعوب المحبة للسلام كافة »

وقرر المجتمعون فى يالتا ، دعوة مؤتمر من الأمم المتحدة للاجتماع بسان فرانسسكو فى ابتداء يوم ٢٥ من إبريل سنة ١٩٤٥ لوضع ميثاق لهيئة دولية على أساس الخطوط الرئيسية التى اتضحت خلال المحادثات غير الرسمية فى دمبرتون . ودعيت كل من الصين وفرنسا إلى الاشتراك مع الدول الثلاثة المجتمعة فى يالتا ، فى توجيه الدعوة إلى ذلك المؤتمر ، فقبلت الصين ، ولكن فرنسا — ولم تكن قد دعيت إلى مؤتمر دمبرتون أوكس — اعتذرت عن قبول أن تكون دولة داعية ، وإن وافقت على الاشتراك فى المؤتمر .

وقد وضع مؤتمر يالتا القاعدة التى تعتبر من أهم القواعد التى التزمتها الأمم المتحدة فيما بعد ، وهى قاعدة إشتراط اجماع الدول الخمس الكبرى (الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والصين ، وبريطانيا ، وفرنسا) ، وهى الدول التى تمتعت بالعضوية الدائمة ، فيما سمى بمجلس الأمن . وإن كانت هذه العضوية الدائمة ليست بالشىء الجديد ، فقد كان فى ميثاق عصبة الأمم ، نص على دول ذات عضوية دائمة ، ودول ذات عضوية مؤقتة فى مجلس العصبة .

وقد كان من بين ما قرره أيضاً مؤتمر يالتا الدعوة إلى عقد اجتماع من رجال القانون لوضع نظام لمحكمة العدل الدولية على نمط نظام محكمة العدل الدولية الدائمة ، وقد اجتمع لتلبية هذه الدعوة فى واشنطن فى المدة من ٩ إلى ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٥ ممثلو أربع وأربعين دولة ، وبحثوا أسس تلك المحكمة واختصاصاتها وإجراءات التقاضى أمامها .

ثم دعت الولايات المتحدة باسمها وبالنيابة عن المملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين ، إلى مؤتمر يتولى وضع ميثاق الأمم المتحدة على أساس مقترحات دمبرتون أوكس ، وقد وجهت الدعوى إلى جميع الدول التى أعلنت الحرب على ألمانيا أو اليابان فى تاريخ أقصاه أول مارس سنة ١٩٤٥ ، وقد بلغ عددها ستاً وأربعين دولة ثم انضمت إلى هذه الدول الست والأربعين الأرجنتين فى ٣٠ إبريل ، ثم الدنمرك فى ٥ من يونيه ، وقد أصبح بذلك عدد الدول المدعوة إلى مؤتمر سان فرنسيسكو

خمسين دولة ، وذلك لاعتبار كل من أوكرانيا وبلروسيا السوفيتين ، دولتين مستقلتين عن الاتحاد السوفيتي .

ولكن بولندا ، وإن كانت من الدول التي وقعت على تصريح الأمم المتحدة في أول يناير سنة ١٩٤٢ ، إلا أنها لم تدع للخلاف حول الحكومة التي تمثل بولندا ، فقد كانت هناك حكومة مؤقتة اعتبرتها تشيكوسلوفاكيا الحكومة الشرعية التي يحق لها أن تمثل بلادها ، ولكن دول الغرب اعترضت على هذا الاقتراح ، فرؤى إرجاء دعوة بولندا .

وقد ظل المؤتمر منعقداً من ٣٥ من أبريل إلى ٢٥ من يونية سنة ١٩٤٥ الذى أقر فيه ميثاق الأمم المتحدة ، وفى اليوم التالى السادس والعشرين من يونية وقع ممثلو تسع وأربعين دولة هذا الميثاق ، وترك بين التوقيعات مكان لإمضاء مندوب بولندا ، الذى وقع عليه فى الخامس عشر من أكتوبر من نفسها السنة .

وقد كانت الدول الكبرى فى عجلة من أمرها ، فقد قدروا أن التصديق على وثائق إنشاء الأمم المتحدة سيستنفد وقتاً طويلا ، فقرروا إنشاء لجنة تحضيرية تضم ممثلاً عن كل دولة من الدول الموقعة على الميثاق وتنعقد فى لندن . ويعهد إليها بمهمة التحضير لانعقاد الدورة الأولى للهيئات الرئيسية للأمم المتحدة ، والتمهيد لإعداد الأمانة العامة للهيئة ، ويتفرع عنها لجنة تنفيذية تقوم بعمل اللجنة التحضيرية فترة عدم انعقاد هذه اللجنة التحضيرية .

وقد انعقدت اللجنة التنفيذية فى السادس عشر من أغسطس سنة ١٩٤٥ ثم استمر اجتماعها حتى فرغت من إعداد تقارير ضمنتها اقتراحاتها بشأن ما يجب اتخاذه لإخراج الأمم المتحدة إلى حيز الوجود ، ولما عرضت هذه الاقتراحات على اللجنة التحضيرية ، فى المدة ما بين السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٥ والثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤٥ اتخذتها أساساً لتقرير عام اشتمل على توصياتها الخاصة بإنشاء الأمم المتحدة . وفى هذا الأثناء كانت الدول الخمس الكبرى وغالبية الدول الموقعة على الميثاق قد أودعت وثائق تصديقها عليه لدى الولايات المتحدة ، فبدأ العمل بالميثاق ، اعتباراً من ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وافتتح أول دور انعقاد للجمعية العامة للأمم المتحدة فى لندن فى العاشر من يناير سنة ١٩٤٦

وبهذا تكون الأمم المتحدة قد تم ميلادها .

الفصل الرابع

ميلاد الأمم المتحدة

لعله قد أصبح واضحاً للقارئ ، والكتاب قد قارب النهاية ، أن غايتنا من دراسة الأمم المتحدة ، ليس الوقوف أمامها كبناء دولى ، ولا كمؤسسة قانونية ، ولا كمرحلة من مراحل الحياة العالمية ، تدرس لذاتها ، وإنما نقف أمام الأمم المتحدة ، كما وقفنا أمام عصبة الأمم ، باعتبارها أداة من أدوات الإنسانية لتحقيق السلام ، وكمحاولة من محاولات البشر ، لمنع الحروب ، وإقامة قاعدة لتعاونهم بعضهم مع بعض .

ولذلك لا يهمنا كثيراً أن نفصل الأجزاء الرئيسية أو الفرعية المكونة للأمم المتحدة ، إلا بالقدر الذى تتصل به هذه الدراسة ، بوظيفة وعمل كل جزء من هذه الأجزاء ، فى تحقيق السلام ، ومنع نشوب الحروب ، وفض مشكلات الأمم والشعوب ، كما يليق بالبشر أن يحلوا مشكلاتهم .

ولذلك فلا مندوحة من أن ننوه هنا بكلمة أو كلمات عن أجزاء الأمم المتحدة ، الرئيسية ، وهى ستة أجزاء ؛ أولها الجمعية العامة ، والثانى مجلس الأمن ، والثالث المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، والرابع مجلس الوصاية ، والخامس محكمة العدل الدولية ، والسادس الأمانة العامة .

وقد يكون من الواجب — تبعاً لخطة هذا الكتاب — أن نقدم الحديث عن أهداف الأمم المتحدة عن الحديث عن أجزائها الإدارية .

وقد تضمنت المادة الأولى من مواد الميثاق التى بلغت مائة وإحدى عشرة مادة ، أهداف الأمم المتحدة الأربعة : وهى

أولا : حفظ السلم الدولى .

ثانياً : إنماء العلاقات الودية بين الأمم .

ثالثاً : تحقيق التعاون الدولى فى الشئون لاقتصادية والاجتماعية كافة .

رابعاً — جعل الامم المتحدة مركزاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو تحقيق هذه الغايات المشتركة .

وقد جاء فى المادة الأولى عن حفظ السلم الدولى : تحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم وتعمل على إزالتها وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم وتحل وتسوى بالوسائل السلمية ، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولى المنازعات الدولية التى تؤدى إلى الإخلال بالسلم» .

وقالت المادة الأولى عن الهدف الثانى « إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ التسوية فى الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلام »

وقالت عن التعاون الدولى إن تحقيق أهداف الأمم المتحدة ، لا يتم بالمحافظة على الأمن فحسب ، والتسوية السلمية للمنازعات ، وإنما «بتحقيق التعاون الدولى على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافيه والإنسانية، وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً والتشجيع على ذلك إطلاقاً فلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين؛ لا تفريق بين الرجال والنساء » .

وهذه الأهداف الأربعة بلا جدال ، هى أقصى ما يمكن أن يطمع فيه الناس ، لتسود حياتهم دواعى الطمأنينة ، ولينجوا من خطر العدوان، والخوف من الحرب ، ولكنى كنت أوثر أن يكون الهدف الأول إيجابياً لا سلبياً، فإن حفظ السلم والأمن الدولى، يقتضى الإبقاء على الوضع القائم على ما هو عليه عند صدور الميثاق ، وقد كان فى الأوضاع القائمة، آنذاك من دواعى القلق ، وأسباب الخلف بين الدول ، ما يهدد الأمن والسلم الدوليين، وكان الأحرى بواضعى الميثاق أن يعبروا عن شعورهم بأن تحرى هذه الأسباب ، وإزالتها، هى هدفهم الأول ، وأن ذريعتهم لهذه الإزالة ، ستكون سلمية محضة، فإذا جاء بعد ذلك ذكر السلم والأمن الدولى ، وضح لقارئ الميثاق ، وللشعوب على اختلاف ألوانها وأحكامها وأديانها، أن الأمم المتحدة ما جاءت لتحافظ على الحالة القائمة ، ولا أنها ستهمل ما تعانيه الشعوب المغلوبة ، والأمم المحرومة من حقوقها، إلا إذا بلغت شكواها الشكل الذى يهدد السلم والأمن .

وقد أثبتت الأيام أن هذا هو الذى حدث فعلا ، فالأمم الضعيفة، بقيت تعانى ضعفها ، حتى اضطربت الأحوال الدولية بسبب جهادها فى سبيل رفع الظلم عن بنيها ، وتبنى بعض الدول الكبرى لقضيتها ،إزعاجاً للدول الأخرى أحياناً، وإيماناً بهذه القضية حيناً، التفتت إليها الأمم المتحدة ونظرت فى شكواها ،وأصدرت بشأنها قراراً بتحرى العدل كله إذا اقتضت الظروف والمصالح الدولية الكبرى هذا العدل الكامل ، أو بعض العدل إذا لم تسمح مطامع الأقوياء وخصوماتهم إلا بهذا القدر .

* * *

وقد خلت مقترحات دمبرتون أوكس من التوصية بأية ديباجة للميثاق ، ولكن كثيراً من الوفود فى مؤتمر سان فرنسيسكو طالبت بوضع ديباجة للميثاق، وفيما يلى الديباجة التى أقرتها وفود الأمم فى هذا المؤتمر :

« نحن شعوب الأمم المتحدة

وقد آلينا على أنفسنا .

إن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى جلبت على الإنسانية مرتين خلال جيل واحد أحزاناً يعجز عنها الوصف .

وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان ، وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء والأطفال ، والأمم ، كبيرها وصغيرها ، من حقوق متساوية .

وأن نبين الأحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات ، وغيرها من مصادر القانون الدولى .

وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدماً ، وأن نرفع مستوى الحياة، فى جو من الحرية أفسح .

وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا

أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً فى سلام وحسن جوار

وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى .

وأن نكفل بقبولنا مبادئ معينة ، ورسم الخطط اللازمة لها، ألا تستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة .

وأن نستخدم الأداة الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب

وقد قررنا :

أن نوحد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض .

ولهذا فإن حكوماتنا المختلفة على يد مندوبيها المجتمعين فى مدينة سان فرانسسكو ، الذين قدموا وثائق التفويض المستوفية للشرائط ، قد ارتضت ميثاق الأمم المتحدة هذا ، وأنشأت بمقتضاه هيئة دولية تسمى « الأمم المتحدة » .

والحق أن هذه الديباجة ، ليست مجرد مقدمة شعرية للميثاق ، تحليه ، بل أنهـا ، أساسية وجوهرية ، لأنها تلخص روح الميثاق ، وتجمل أفكاره ، وتلقى ضوء باهراً خالياً من جهامة النص القانونى ، المكبل بالدقة ، على الأهداف التى أنشئت من أجلها المنظمة الدولية . فأهداف الميثاق لا يمكن أن تتحقق إلا إذا أكد الناس إيمانهم بالحقوق الإنسانية للإنسان ، وبالمساواة بين الأمم صغيرها وكبيرها ، وبين الرجال والنساء والأطفال ، وإلا إذا أخذوا أنفسهم بالتسامح ، وإلا إذا تواصوا بالعيش بعضهم فى جوار بعض متحابين ، وإلا إذا تعاونوا على رفع عجلة الرقى الاجتماعى إلى الأمام ، وعلى رفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

وقد لعبت الديباجة دوراً عمليا فقد ثار الخلاف بين أعضاء مؤتمر سان فرنسسكو بين ما يعتبر هدفاً ، من أهداف الأمم المتحدة ، وما يعتبر مبدأ من مبادئها ، فجاءت الديباجة لتحل هذا الخلاف ، فقد استقر فيها كل ما لم يتفق الأعضاء ، على اعتباره هدفاً ، وليس مبدءاً وكل ما لم يتفقوا على اعتباره مبدأ وليس هدفاً .

ومما يستحق الذكر أن الديباجة بدأت بعبارة نحن شعوب الأمم المتحدة ، خلافاً لما جرى عليه العرف السائد قبل ميلاد الأمم المتحدة ، فى صدد المعاهدات الدولية ، الثنائية أو الجماعية ، من أنها اتفاق بين الدول الموقعة عليها ، والحق أنه لا يمكن أن يصان أمن دولى ، إلا إذا كان فى رعاية وكفالة الشعوب ، وإذا كانت عصبة الأمم قد فشلت ، فذلك لأنها كانت عصبة دول ، منعزلة تماماً عن رقابة الشعوب ، وعن الاتصال الحى بما يخامر هذه الشعوب من أمان ، وما يساورها من مخاوف ، وقد أعان على ذلك أن الشعوب لم تكن قد استكملت — فى كثير من بقاع الأرض

قدرتها على التعبير عن نفسها ، وإعلاء صوتها تأييداً أو احتجاجاً حسب مقتضى الحال ، ولكن الشعوب ، حطمت الكثير من قيودها خلال سنى الحرب العالمية وما بعدها ، فأصبح من حقها أن تصدر ديباجة الأمم المتحدة باسمها ، لا باسم الدول .

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن ديباجة الميثاق ، هى من الناحية القانونية جزء منه لا يتجزأ عنه ، وقد أحالت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى كثير من قراراتها إلى الديباجة ، مثل ذلك قرارها الخاص باليونان فى أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وبالدعاية ضد السلام فى نوفمبر سنة ١٩٤٧[١]

* * *

أما المبادئ التى تقوم عليها الأمم المتحدة فهى :

أولا : المساواة فى السيادة بين الأعضاء .

وقد تقرر هذا المبدأ فى تصريح موسكو ثم تأكد فى مقترحات دمبرتون أوكس على نطاق أوسع لأنه كان قد تقرر لكل الدول المحبة للسلام ، ثم عاد فتقلص من جديد ، وأصبح مقصوراً على أعضاء المنظمة وحدهم . وهذا خطأ من حيث المبدأ وإن كان بلا نتيجة عملية .

ثانياً : أداء الالتزامات مقابل التمتع بالمزايا .

قررت الفقرة الثانية من المادة الثانية هذا المبدأ ، إذ تنص على أنه لكى يكفل أعضاء الهيئة لأنفسهم جميعاً الحقوق والمزايا المترتبة على صفة العضوية يقومون يقومون فى حسن نية بالالتزامات التى أخذوها على أنفسهم بهذا الميثاق .

وأوضح تطبيق لهذا المبدأ نص المادة التاسعة عشر من الميثاق الذى يحرم الأعضاء من حق التصويت فى الجمعية العامة إذا تخلفوا عن سداد اشتراكات العضوية المستحقة عليهم .

ثالثاً : مبدأ تسوية المنازعات الدولية بالوسائل السلمية .

وقد صيغ هذا المبدأ فى مقترحات دمبرتون أوكس بعبارة خلت عن لفظ (الدولية) ، فأضيف هذا اللفظ فى صياغة سان فرنسسكو لإخراج المنازعات

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ .

الداخلية من اختصاص الأمم المتحدة ، كما أضيف إلى التسوية بالوسائل السلمية ، ما يجعل هذه التسوية مطابقة للعدل؛ فقد اشترط فى التسوية بأن تجرى على وجه لا يهدد السلم والأمن والعدل الدولى » .

رابعاً : الامتناع عن الالتجاء إلى القوة فى العلاقات الدولية .

قررت الفقرة الرابعة من المادة الثانية هذا المبدأ إذ جرى نصها بأنه يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة وعن استخدامها ، ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة »

وقد خلا ميثاق عصبة الأمم من نص مماثل .

خامساً : معاونة الأمم المتحدة والامتناع عن مساعدة الدول المخالفة .

تنص الفقرة الخامسة على أنه « يقدم جميع الأعضاء كل ما فى وسعهم من عون إلى الأمم المتحدة فى أى عمل تتخذه وفق هذا الميثاق — كما يمتنعون عن مساعدة أية دولة تتخذ الأمم المتحدة ، إزاءها عملا من أعمال المنع والقمع »

سادساً : احترام الدول غير الأعضاء لمبادئ الميثاق .

تنص الفقرة السادسة على أن الأمم المتحدة « ستعمل على أن تسير الدول غير الأعضاء فيها على هذه المبادئ بقدر ما تقتضيه ضرورة حفظ السلم والأمن الدولى » .

والواقع إن هذا الالتزام ملقى على عاتق الأعضاء ، ودعوة لهم لالتزام مبادئ هذا الميثاق حتى مع الدول التى لم توقع عليه ، ولم تصبح عضواً فيه ، فالميثاق يضع مبادئ ذات صفة أخلاقية ، لا يجوز للعضو ، أن يلتزم بها مع فريق من أعضاء العائلة الدولية ، ثم يجوز له أن يخرج عليها ، مع فريق آخر . وهى إعلان للدول غير الأعضاء ، بأن يحذو حذو الدول الأعضاء وأن يدركوا أن الميثاق ، هو قانون الحياة الدولية ، وأنهم لن يفيدوا من عدم التوقيع عليه وعدم الانخراط فى سلك الأمم المتحدة ، فهم ملزمون باحترامه ، ولا سبيل إلى الإفلات من قواعده .

سابعاً : عدم المساس بالسلطان الداخلى للدول .

جاء نص الفقرة السابعة من المادة الثانية على النحو التالى :

« ليس فى هذا الميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى

تكون بصفة أصلية من السلطان الداخلى ، لدولة ما ، وليس فيه ما يقتضى الأعضاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تحل بحكم هذا الميثاق ، على أن هذا المبدأ لا يخل بتطبيق بتدابير القمع الواردة فى الفصل السابع » .

والحق أن الإنسان ليتراوح رأيه فى هذا النص بين الإقرار والاعتراض ، فهو يميل إلى إقراره إذا نظر إليه من زاوية حماية الشعوب من السلطان الذى يمكن أن يتوافر لدولة أو مجموعة من الدول فى الأمم المتحدة لفترة من الفترات ، أو لسبب من الأسباب . وقد تكون هذه الدولة أو تلك المجموعة من الدول العادية لحركات التقدم فى تلك الشعوب ، وهو يميل إلى الاعتراض عليه ، إذا نظرنا له على أساس أن من الخطأ حرمان الأمم المتحدة من التدخل فى الشئون الداخلية لبعض الدول التى تتحدى فى معاملتها لرعاياها مبادئ الميثاق ، والحقوق الأساسية للإنسان ، أو التى تفرض عليهم أسلوباً متخلفاً من العيش .

ولكن الذى يدعو إلى تخفيف عيب هذا النص أن الأمم المتحدة استطاعت فى الحالات الصارخة أن تناقش أموراً داخلية ، عندما بلغت هذه الأمور من التحدى للحقوق الأساسية للإنسان الحد الذى لم يعد معه ممكناً السكوت عليها ، وأقرب مثل لهذا حالة التمييز العنصرى فى أفريقيا الجنوبية .

* * *

بقى أن نلم إلماماً سريعاً بتشكيل الأمم المتحدة وأجزائها الستة الأساسية .

أول هذه الأجزاء ، ولعله أهمها ، هو الجمعية العامة ، وهى حسب نص المادة التاسعة من الميثاق هى الأداة الوحيدة فى الأمم المتحدة التى يمثل فيها كل الأعضاء .

وهى الهيئة التى يقول (إيجلتون) إن ولايتها تشمل جميع نواحى النشاط فى الأمم المتحده ، بل إنها تشمل فى اختصاصها الفسيح شطراً من وظيفة حفظ الأمن التى هى اختصاص ينفرد به مجلس الأمن ، وهى تباشر نوعاً من الإشراف على الفروع الأخرى للهيئة بما فيها ، فى حدود أضيق ، مجلس الأمن ذاته »[١] .

وتنص المادة العاشرة على أن للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة أو أمر يدخل فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة أو يتصل بسلطات فرع من الفروع المنصوص

---

(١) المرجع السابق .

عليها فيه أو وظائفه كما أن لها فيما عدا ما نص عليه فى المـــادة الثانية عشر ، أن توصى أعضاء الهيئة أو مجلس الأمن أو كليهما بما تراه فى تلك المسائل أو الأمور »

والمسائل التى لا يجوز للجمعية العامة التصدى لإصدار قرار فيها ، هى المسائل المتعلقة بنزاع أو موقف والمعروضة على مجلس الأمن ، ولكن كون هذه المسائل معروضة على المجلس لا يمنع الجمعية العامة من مناقشتها ، وإنما يمنعه من إصدار توصية بشأنها .

ولكن يجوز للجمعية العامة مناقشة هذه المسائل وإصدار قرار فيها ، إذا ما شطبت من جدول أعمال مجلس الأمن . وقد اعتبر شطب مسألة من جدول أعمال مجلس الأمن مسألة إجرائية لا يشترط لصحة القرار الصادر فيها موافقة الدول الخمس الكبرى .

ووظيفة الجمعية العامة هى :

أولا : مناقشة جميع شئون الأمم المتحدة .

ثانياً : حفظ السلم الدولى .

ثالثاً : التسويات السلمية .

رابعاً : تنمية التعاون الدولى .

خامساً : نظام الوصاية الدولية .

سادساً : تلقى تقارير فروع الأمم المتحدة .

سابعاً : التصديق على الميزانية وتقرير الاشتراكات .

وقد قلنا عن الاختصاص الأول إنه يسمح للجمعية العامة تناول أى أمر من الأمور التى يجوز للأمم المتحدة بأجزائها المختلفة أن تناقشها أو تتصدى لها بتوجيه أو تصدر فيها قراراً ، حتى المسائل التى جعلها الميثاق وفقاً على مجلس الأمن وحده يجوز للجمعية العامة أن تناقشها ، بل يجوز لها فى بعض الأحيان أن تصدر فيها قراراً .

ذلك لأن القيد المانع للجمعية العامة من مناقشة المواقف والمنازعات المعروضة على مجلس الأمن يزول إذا ما أحال المجلس الموضوع الذى كان مطروحاً عليه إلى الجمعية العامة ، فهذا المنع مقرر لمصلحة الأمن ، فإذا ما تنازل هذا المجلس

عن هذه الميزة ، جاز للجمعية العامة أن تناقش الموضوع الذى كان محرماً عليه ، لكونه معروضاً على مجلس الأمن صاحب الاختصاص الأول فى الأمور المتعلقة بحفظ الأمن والسلام الدولى ، والمنازعات والمواقف المهددة لهما .

وقد حدث أكثر من مرة أن أحال مجلس الأمن موضوعاً أو نزاعاً معروضاً عليه إلى الجمعية العامة ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ، وأدعاها فى الوقت إلى الأسى ، هو ما قرره المجلس فى أول إبريل سنة ١٩٤٨ ، حينما عرض عليه موضوع تقسيم فلسطين بين أصحابها ، والدخلاء الإسرائيليين ، فقد أدرك المجلس أن هذا التقسيم لا يتحقق إلا إذا فرض على أصحاب فلسطين الحقيقيين بالقوة ، ولم يكن فى مقدور أحد من أعضاء مجلس الأمن الدائمين أو المؤقتين أن يتحمل هذه المسئولية الضخمة أمام التاريخ ، وأن يسجل على نفسه فى الصفحات الأولى من سجل الأمم المتحده ، وكانت يومذاك وليداً لم يكمل العام الثالث له ، عار هذا القرار ، وقد قام الأمين العام « تريجفى لى » آنذاك — بتوجيه الدعوة إلى الجمعية العامة لدور انعقاد خاص وفقاً للمادة العشرين من الميثاق لبحث الموضوع المحال عليها من المجلس .

وقلنا إن المجلس حينما يتعذر عليه إصدار قرار فى موضوع بسبب الخلاف بين أعضائه — أعضائه الدائمين دائماً — فإنه يقرر شطبه من جدول أعماله ، فتزول العقبة من طريق الجمعية العامة لمناقشة هذا الموضوع ، الذى كان محرماً عليها تناوله ، وقد لجأ المجلس إلى ذلك فى عدة مسائل منها مسألة تحريم قبول ممثلى أسبانيا فى الوكالات المتخصصة والفروع التابعة للأمم المتحدة ، باعتبار ذلك التحريم نتيجة لقرار الجمعية العامة ، فقد رفضت قبول أسبانيا عضواً فيها ودعت الأعضاء إلى قطع العلاقات السياسية وعدم تبادل التمثيل السياسى معها .

كذلك مسألة اليونان سنة ١٩٤٧ ، وتهدد استقلالها ، بسبب النشاط الشيوعى فيها ، والنزاع الكورى والحرب بين شمال كوريا وجنوبها فى سنة ١٩٥٣ .

وقد نظمت المادة الثانية عشرة هذه الإحالة أذ نصت على أن الأمين العام ، يخطر الجمعية العامة — بموافقة مجلس الأمن — فى كل دور من أدوار انعقادها بكل المسائل المتصلة بحفظ السلم والأمن الدولى التى تكون محل نظر مجلس الأمن ،

كذلك يخطرها أو يخطر أعضاء الأمم المتحدة إذا لم تكن الجمعية العامة فى دور انعقادها بانتهاء مجلس الأمن من نظر تلك المسائل ، وذلك بمجرد انتهائه منها .

* * *

أما اختصاص الجمعية العامة ، بحفظ السلم الدولى ، فقد نصت عليه المادة الحادية عشرة ، ويقوم اختصاص الجمعية العامة بشئون حفظ السلم الدولى ، أولا على عموم اختصاصها بكل شئون الأمم المتحدة ، فهو داخل فى اختصاص الجمعية العامه الشامل ، ومع ذلك فإن المادة الحادية عشرة حددت أموراً على وجه خاص داخلة فى اختصاص الجمعية العامة ، متصلة بحفظ الأمن وهى : .

١ ــ المبادئ العامة للتعاون فى حفظ السلم .

٢ ــ مناقشة أية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم الدولى .

٣ ــ استرعاء نظر مجلس الأمن إلى الأحوال التى يحتمل تهديدها للسلم والأمن الدولى .

وقد ضربت المادة الحادية عشرة مثلا للمبادئ العامة للتعاون فى حفظ السلم « بالمبادئ المتعلقة بنزع السلاح وتنظيم التسليح » ومفهوم من نص المادة الحادية عشرة أن قوام اختصاص الجمعية العامة ، هو وضع المبادئ والقواعد الخاصة بالتعاون فى حفظ السلم ، فالجمعية لا تتناول بمقتضى هذا الاختصاص مسألة معينة أو نزاعاً أو موقفاً أو حالة مهددة للأمن بل إنها تناقش المسائل المتصلة بالتعاون الدولى فى حفظ السلم من جانبها المجرد العام ، وهى بمقتضى هذا الاختصاص تملك أن تصدر توصيات إلى الأعضاء وإلى مجلس الأمن ، بعد المناقشة والبحث طبعاً ، ولا يمنع الجمعية من هذا كله ، أن يكون نفس الموضوع محلا للمناقشة أو الدراسة فى مجلس الأمن .

والحق أن الجمعية العامة أولت هذا الجانب من اختصاصها اهتماماً كبيراً منذ الدور الأول لانعقادها فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ فنى هذا الدور أصدرت قراراً دعت فيه مجلس الأمن إلى أن ينشط لوضع تدابير عملية لتنظيم التسليح وخفض السلاح واتخاذ الضمانات اللازمة لاحترام جميع الدول لهذا التنظيم أوصت المجلس بأن يعرض الخطط التى يضعها لهذا الغرض على دورة خاصة للجمعية ، توطئة

لتقديمها إلى الدول الأعضاء لتوقيعها وإبرامها فى شكل معاهدات دولية ، وقد أعلن هذا القرار وجوب إنشاء نظام دولى للرقابة على التسلح ، فى نطاق مجلس الأمن يكون من أهدافه تنظيم التسلح ، وخفض السلاح والقوات المسلحة ، وتحريم استخدام القوى الذرية لأغراض حربية ، واستبعاد الأسلحة الذرية وأسلحة التدمير العام من التسليح الوطنى ، والرقابة على القوى الذرية لضمان استخدامها للأغراض السلمية فحسب ، وتشكيل لإدارة هذا النظام الدولى هيئات خاصة تبين سلطاتها فى المعاهدات المنظمة لهذا الشأن ، كذلك دعت الجمعية المجلس إلى التعجيل باتخاذ التدابير اللازمة لوضع القوات المسلحة تحت تصرفه وفقاً لنص المادة الثالثة والأربعين من الميثاق[1] .

وعادت الجمعية العامة لمناقشة هذا الموضوع من جديد فى القسم الثانى من دور الانعقاد الثالث سنة ١٩٤٨ حين قدم الاتحاد السوفيتى مشروعاً يقضى بتخفيض جميع القوى العسكرية البرية والبحرية والجوية الثابتة للدول الخمس الكبرى بمقدار الثلث فى خلال عام واحد كخطوة أولى لتخفيض السلاح والقوات العسكرية مع تحريم الأسلحة الذرية كأسلحة هجوم لا دفاع ، وإنشاء هيئة رقابة دولية فى نطاق مجلس الأمن لتشرف على تنفيذ هذه التدابير ولتتلقى بيانات رسمية كاملة عن تسلح الدول الخمس الكبرى وقواتها المسلحة ، ولم توافق الجمعية على هذا الاقتراح ، ووجهت نداء إلى الدول الكبرى دعتها فيه إلى تسوية الخلافات الناشبة بينها ، وإلى العمل بما تعاهدوا عليه فى مؤتمر يالتا سنة ١٩٤٥ من التعاون الوثيق للمحافظة على السلام العالمى وإلى إنجاز وضع معاهدات الصلح فى أقرب وقت مستطاع ، كما أصـــدرت قراراً نبهت فيه أن تخفيض السلاح وتنظيم التسلح لا يتحقق إلا فى جو من العلاقات الطيبة بين الدول وفى ظل نظام دولى للرقابة على القوى الذرية بغية تحريم استخدامها فى الأغراض العسكرية ودعت فيه مجلس الأمن إلى متابعة دراسة الموضوع وحثت الدول جميعاً على معاونته فى أداء هذه المهمة .

ولسنا نقصد هنا متابعة جميع مشروعات القرارات والقرارات التى طرحت على

---

(١) الأمم المتحدة ص ٦٤ .

الجمعية العامة ، أو التى أصدرت منها بشأن تنظيم التعاون لخفض السلاح أو نزعه ، أو تحريم الأسلحة الذرية ، وإنما قصدنا من ذكر هذين المشروعين ، وما تم فيهما ، بياناً عمليا ، لممارسة الجمعية حقها الخاص بحفظ السلم الدولى ووضع القواعد العامة له .

* * *

أما الحالة الثانية من حالات حق اختصاصات الجمعية فى شئون حفظ السلم ، فهى مناقشة أية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم . والاختصاص الأول ، لا ينصب على حالة معينة قائمة ، بينما ينصب الاختصاص الثانى ، على حالات بذاتها تنشأ ، وترى الجمعية العامة ، أنها تنطوى على خطر يهدد السلم الدولى ، وقد تلفت نظر الجمعية إلى هذه الحالات دولة من الدول الأعضاء ، أو مجلس الأمن ، أو دولة من غير الأعضاء ، وفقاً لنص المادة الخامسة والثلاثين .

واختصاص الجمعية العامة مقيد هنا بقيدين أولهما القيد الذى سلفت إليه الإشارة وهو القيد المانع للجمعية من إصدار أى توصيه فى موضوع معروض على مجلس الأمن .

والقيد الثانى أوردته المادة الحادية عشرة ، وهو قيد يمنع الجمعية العمومية من إصدار أى توصية لا يمكن تنفيذها إلا بعمل ما ؛ فى هذه الحالة يتعين على الجمعية أن تحيل الموضوع ، قبل بحثه أو بعده ، إلى مجلس الأمن . وحكمة هذا التحريم أن التوصيات التى تحتاج إلى عمل لقهر الدولة المعتدية أو المهددة للأمن ، سواء كان القهر بوسائل حربية ، أو بعقوبات اقتصادية ، لا يجوز صدورها إلا من مجلس الأمن ، بأعضائه الدائمين ، لأن إصدار القرار بهذه الأعمال ، من حق مجلس الأمن وحده .

والحالة الثالثة من حالات اختصاص الجمعية العامة بمسائل حفظ الأمن هى استرعاء نظر مجلس الأمن إلى الأحوال التى يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولى للخطر .

وقد يبدو الاختصاص فى هذه الحالة تافهاً ، ولكنه ،فى حقيقة الأمر ، فى مثل أهمية الحالتين الأوليين ، لأن استرعاء نظر مجلس الأمن يفترض أن هذا

المجلس لاعتبارات خاصة بالكبار الدائمين فيه ، يغض النظر عن حالات تنطوى على احتمال انفجارها دوليا ، فإذا لفتت الجمعية نظره إليها ، كان لهذا ، الموقف من جانب الجمعية العامة ، دلالته الدولية ، وقيمته الأدبية .

* * *

على أن المادة الرابعة عشرة ، قد أسبغت على الجمعية العامة ، اختصاصاً يكاد يبلغ فى درجته ، اختصاص مجلس الأمن ذاته ، فى شئون حفظ الأمن والسلم الدوليين إذ جرى نصها على الوجه التالى :

« مع مراعاة أحكام المادة الثانية عشرة للجمعية أن توصى باتخاذ التدابير لتسوية أى موقف ، مهما يكن منشؤه ، تسوية سلمية متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم ، وتدخل فى ذلك المواقف الناشئة عن انتهاك أحكام هذا الميثاق الموضحة لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها[1] .

ويهمنا أن نسترعى النظر إلى إطلاق عبارة هذه المادة ، واتساعها وشمولها ، وهذا يتضح :

أولا : لعبارة « تسوية أى موقف »

ثانياً : وعبارة « مهما يكن منشؤه » .

ثالثاً : وعبارة « متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم »

فبمقتضى هذا النص ، تدخل تسوية (أى موقف) فى اختصاص الجمعية العامة ، أيًّا كان منشأ هذا الموقف ، فالمواقف الناشئة عن علاقات تعاهدية ، كمعاهدات غير متكافئة ، أو عدوان مادى ، أو تهديد بالغزو ، أو حملات إذاعية ، أو استقبال لاجئين معادين للدولة المجاورة ، إلى آخر الصور البسيطة والجسيمة التى يمكن أن تشكو منهـا الدول بعضها من بعض ، والتى لا تؤدى إلى الحرب ، أو التى لا يحتمل منها خطر نشوبها فقط ، بل التى تضر بالرفاهية العامة ، وليس أحد يعرف ماذا تكون الرفاهية العامة أى ما هى حدودها ، كما

---

(١) المرجع السابق .

لا يستطيع أحد أن يعرف تعريفاً جامعاً ومانعاً عبارة « تعكير صفو العلاقات الودية بين الأمم » فإنه ليندرج تحت هذه العبارة عالم واسع من التصرفات والأقوال والمواقف ابتداء من مجرد تصريح مسئول فى الدولة إلى إعلان التعبئة العامة فيها .

وواضح أن أعضاء مؤتمر سان فرنسسكو أرادوا بمنح الجمعية العامة هذا الاختصاص الواسع ، أن يقيموا تعادلاً بين قوة الجمعية العامة ، وهى البرلمان العام لدول وشعوب العالم ، وبين الاختصاص الاحتكارى لأعضاء مجلس الأمن ، عموماً ، ولأعضائه الدائمين خصوصاً ، هذا الاختصاص الذى يكاد يجعل من الخمسة الكبار ، قادة مهيمنين على الأمم المتحدة ، ومتصرفين فى قراراتها ذات الأهمية . ويلاحظ أن هذا الاختصاص بشموله واتساعه، لم يكن وارداً فى مقترحات ديمبرتون أوكس ، فهو من عمل الشعوب والدول الصغيرة والمتوسطة ، وتعبير عن ضيق تلك الدول ، بسيطرة وسيادة الأقوياء الذين جروا العالم المرة بعد المرة إلى بحور من الدم ، بسبب سياستهم المتميزة المتعصبة ، ذات الأفق الضيق ، والنظرة المتسمة بالأنانية .

وقد خشى الاتحاد السوفيتى من أن يدخل فى نطاق المواقف « أيًّا كان منشؤها ، المؤدية إلى تهديد الرفاهية العامة وتعكير العلاقات الودية » ، المعاهدات التى أبرمها الحلفاء مع دول المحور المغلوبة . وخاف بالمثل ممثلو دول الغرب من أن تنتفع دول كمصر بهذا النص ، فتطلب وساطة الجمعية وتدخلها لإنهاء معاهدات غير متكافئة فرضت عليها ، كمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى أبرمتها حكومة مصر مع بريطانيا والتى كانت قرحة فى الحياة الوطنية المصرية ، ألهبت الموقف فى الشرق الشرق العربى زمناً طويلا حتى انتهت فى سنة ١٩٥٦ بخروج الإنجليز .

أما الاختصاص الرابع فى مجال العلاقات الدولية ، فقد أسبغته على الجمعية العامة ، المادة الثالثة عشر التى يجوز بمقتضاها لهذه الجمعية أن تنشئ دراسات وتشير بتوصيات بقصد إنماء التعاون الدولى فى الميدان السياسى وتشجيع التقدم المطرد للقانون الدولى ، وإنماء التعاون الدولى فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية والصحية ، والإعانة على تحقيق حقوق الإنسان والحريات السياسية للناس كافة بلا تمييز بينهم فى الجنس أو اللغة أو الدين ، ولا تفريق بين الرجال والنساء.

ونحن نعتبر أن هذا الاختصاص ، وإن بدا للناس أقل أهمية من الاختصاصات الأخرى ، الاختصاص الأساسى للأمم المتحدة ، فمحاولة نزع السلاح ، وإقامة دعائم الأمن الدولى ، فى مجال السياسة وحده وبمحاولة فض المنازعات بطريقة سلمية هو جهد سلبى ، أما الجهد الإيجابى ، فهو دعوة الناس على اختلاف شعوبهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعسكراتهم ، أن يتلاقوا ويتعاونوا ، فى مجالات الفكر والفن والثقافة والتعليم ، آن يتذوق كل منهم حضارة الآخرين ، ويقف على ما أبدعه إخوانه فى الأمم الأخرى ، من ثمار للإنسان ترفع قدره ، وتلطف ذوقه ، ويجمل حياته ، ويذلل صعابها ، ويوسع آفاقها ، ويعمق مداها .

وتنمية القانون الدولى ، وتسجيله ، وتقنينه ، يجعل من هذا القانون شيئاً فشيئاً شريعة الدول ، كما أصبح القانون المدنى والقوانين المكملة له ، قاعدة حياة الأفراد داخل حدود أوطانهم ودولهم .

وقد دعت الجمعية العامة فى قرار لها ، مجلس الأمن ، إلى أن يدعو أطراف المنازعات الدولية إليه ، محاولا أن يفض النزاع درن عرضه على مجلس الأمن ، حتى لا تؤدى المهاترات العلنية والاتهامات المتبادلة من فوق منبره إلى تأصيل النزاع وتأكيده ، كما دعت الجمعية كل دولة من الدول الأعضاء لتعيين شخص أو أشخاص لا يزيد عددهم عن خمسة يكون لهم من علمهم وثقافتهم وشخصياتهم وتجربتهم ومكانتهم ، ما يرشحهم لأن يكونوا أعضاء بلجان تحقيق أو ترفيق إذا إذا ما قررت الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو ما يتفرع عنهما من هيئات إنشاء مثل تلك اللجان تسوية للمواقف أو المنازعات المعروضة عليها بالطرق السلمية[١] .

أما فى مجال تنمية القانون الدولى فقد اتخذت الجمعية العامة قراراً فى القسم الثانى من دور انعقادها الأولى فشكلت بمقتضاه لجنة من ممثلى سبعة عشر دولة وعهدت إليها ببحث الوسائل التى تستطيع بها الجمعية تشجيع التقدم المطرد للقانون الدولى .

* * *

وقد بينت المادة الستون من الميثاق مقاصد الأمم المتحدة فى مجال التعاون الدولى

---

(١) الأمم المتحدة .

الاقتصادى والاجتماعى تقع مسئولية تحقيقها على عاتق الجمعية العامة وعلى عاتق المجلس الاقتصادى والاجتماعى تحت إشرافها ، فالمجلس الاقتصادى والاجتماعى الذى قلنا إنه جزء من أجزاء الأمم المتحدة الستة ، هو فرع من فروع الجمعية العامة ، يمارس نشاطه تحت إشرافها وتوجيهها ، فالنشاط الاجتماعى والاقتصادى الدولى ، مجال خاص بالجمعية العامة ، تمارسه من خلال المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، باعتباره أداتها ، ويعتبر هذا النشاط ، من أولى وجوه نشاط الأمم المتحدة بالاهتمام والرعاية ، وقد حققت فيه الأمم المتحدة أعمالا جديرة بالتقدير والشكر ، على الرغم من تأزم الموقف الدولى ، وتوتر العلاقات بين المعسكرين الدوليين : معسكر اليمين ، ومعسكر الشمال .

وتمارس كذلك الجمعية العامة أعمال الأمم المتحدة ، واختصاصاتها فى مجال الوصاية الدولية من خلال مجلس الوصاية ، تماماً كما تمارس اختصاصاتها فى المجال الاقتصادى والاجتماعى ، من خلال المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، فالوصاية الدولية ، من وظائف الجمعية العامة تباشرها بلا رقابة من مجلس الأمن ، وبلا حد من سلطاتها .

وتتلقى أخيراً الجمعية العامة تقارير سنوية ، حسب نص المادة الخامسة عشرة من الميثاق — من مجلس الأمن ، كما تتلقى منه تقارير عن أحوال خاصة تتضمن بياناً عن التدابير التى يكون مجلس الأمن قد قررها أو اتخذها لحفظ السلم والأمن الدولى ، كما تتلقى الجمعية العامة تقارير من الفروع الأخرى للأمم المتحدة وتنظر فيها .

والجمعية العامة هى التى تصدق على ميزانية الأمم المتحدة ، وتقرر الاشتراكات التى يجب على الدول الأعضاء أن تؤديها لخزانة المنظمة الدولية ، وقد كان نصيب الولايات المتحدة ٣٩,٩ ٪ من الميزانية ، بينما كان نصيب الاتحاد السوفيتى ٦,٩٨ ٪ وإنجلترا ١١,٣٧ ٪ وكل من الصين وفرنسا ٦ ٪ والهند ٣,٤١ ٪ بينما كان نصيب مصر ٠,٧١ ٪ وكان أصغر نصيب هو ٠,٠٤ ٪

الفصل الخامس

مجلس الأمن

لقد ظفر مجلس الأمن من الاهتمام والضجيج بما لم يظفر به جزء آخر من الأجزاء الستة المكونة لبناء الأمم المتحدة . وقد انقضى حين من الدهر ، كانت الأمم المتحدة عند عامة الناس ، هى مجلس الأمن ، فلم تكن الجمعية العامة ، فى نظرهم سوى مسرح ثانوى ، لا تعرض عليه إلا أتفه العروض ، وأدعاها إلى الملل والسأم ، وأقلها استحقاقاً للاهتمام والاحترام . فالجمعية العامة ليست سوى منبر للخطب الجوفاء التى لا تقدم ولا تؤخر فى حياة الدول أو الشعوب ، بينما تبقى خيوط الحياة الدولية الأساسية فى يد مجلس الأمن .

أما مجلس الأمن ، فهو موطن السادة الأقوياء ، يتصدره زعيما المعسكرين الكبيرين : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، ويجاورهما زعيما الحياة الدولية اللذان أبلى الزمان مجدهما : بريطانيا وفرنسا . وإلى جوارهما ممثل أكبر دول العالم مساحة ، وأكثرها سكانا ، وأقدمها حضارة : الصين . فمن واجب الأضواء أن تسلط إذن على هذا المجلس ، ومن حقه ، أن يكون مركز الاهتمام الدولى ، وقد شاءت الظروف أن يكون هذا المجلس حلبة للسباق بين الدول الكبرى ، فى مناسبات تهم العالم كله ، والأمم المتحدة فى أيامها الأولى .

ولكنا سنرى أن مجلس الأمن ، ككل شىء فى الحياة الدولية ، بل ككل شىء فى الحياة الإنسانية طرأ عليه ما أنقص رواءه ، وأخذ منه ليعطى الجمعية العامة ، ما لم تظفر به فى بداية أمرها ، حتى كادت تصبح — كما تستحق أصلا — الجزء الأساسى والرئيسى فى بناء الأمم المتحدة .

ومجلس الأمن يتكون من الخمسة الكبار : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين ، بوصفهم أعضاء دائمين ، لا تسقط عضويتهم أبداً ، ولا يحتاجون إلى تجديد انتخابهم ؛ فهم من الأمم المتحدة الجزء الثابت منها ،

على أن مجلس الأمن يضم إليهم حسب المادة الثالثة والعشرين من الميثاق ستة أعضاء آخرين، وهؤلاء هم الأعضاء غير الدائمين وتستمر عضويتهم عامين اثنين ويراعى فى اختيارهم التوزيع الجغرافى العادل .

ولا نفع فى مجادلة دوام عضوية الخمسة الكبار ، فلم يكن ممكناً أن تقوم الأمم المتحدة بغير النص على العضوية الدائمة لهم ، إذ كانت الأمم المتحدة فى بداية حياتها ، مظهراً واضحاً لنفوذ الولايات المتحدة ، فلم يكن للشيوعية فى العالم سوى ست أو سبع دول ، كائنة فى شرق أوربا ، وشرق آسيا — وكان سائر الدول إما حليفاً للولايات المتحدة ، أو خاضعاً لنفوذها ، أو منتفعاً بمعونتها ، أو متقياً لشرها ، أو محايداً لا يخاصمها ، ولا يصادقها . فلو ترك الأمر للجمعية العامة كما كان يجب أن يكون الحال ، لأصبحت أمور الاتحاد السوفيتى . ومصيره ، تحت رحمة الولايات المتحدة وحليفاتها . ولذلك كانت العضوية الدائمة ، أثراً من آثار الواقع ، وإن كان هذا الواقع صادماً لشعور الأمم التى كانت تود أن يقام بناء المؤسسة الدولية ، على أساس المساواة التامة بين الأعضاء . ولو حذف هذا النص ، طبقاً لما يقضى به التكوين المثالى ، لخرج الاتحاد السوفيتى من الأمم المتحدة بعد قليل ، ولفقدت هذه المنظمة قيمتها من اليوم الأول .

وقد كان هذا النظام للتصويت محلاً لاعتراض الدول الصغرى والوسطى فقدمت الدول الخمسة الكبار مذكرة ننقلها عن كتاب الدكتور زكى هاشم فيما يلى :

« إن نظام التصويت الذى اتفق عليه فى يالتا يستبدل بقاعدة الإجماع الكامل التى كانت متبعة فى مجلس عصبة الأمم نظاماً للتصويت فى مجلس الأمن أساسه الأغلبية الموصوفة به . وليس لأعضاء المجلس غير الدائمين حق الاعتراض (الفيتو) وفقاً لهذا النظام ، وليس من شأن هذا النظام تخويل الأعضاء الدائمين حقاً جديداً هو حق الاعتراض فقد كان أعضاء مجلس العصبة الدائمون يتمتعون بهذا الحق أيضاً . والقاعدة المقترحة وهى اتخاذ القرارات بأغلبية سبعة أصوات تجعل عمل المجلس أقل تعرضاً للتعطيل عما كان عليه الحال فى مجلس العصبة فى ظل قاعدة الإجماع الكامل .

« وينبغى تذكر أن الدول الخمسة الكبرى لا تستطيع بمقتضى نظام التصويت

المقترح ، أن تتصرف وحدها إذ يلزم لها بجانب أصواتها هي صوتان على الأقل من أصوات الأعضاء غير الدائمين . وبعبارة أخرى تستطيع خمس دول من الأعضاء غير الدائمين أن تمارس جماعياً ، حق الاعتراض ، ومن المفروض أنه لا الأعضاء الدائمون ، ولا الأعضاء غير الدائمين سيستعملون حق الاعتراض لتعطيل عمل المجلس عمداً .

« ولا يمكن أن يتوقع من الأعضاء الدائمين ، بالنظر إلى المسئوليات الأساسية التى ينهضون بها ، أن يتصرفوا فى مسائل خطيرة خاصة بحفظ السلام والأمن الدولى ، نتيجة لقرار لم يوافقوا عليه . ولذلك فإن السبيل الوحيد للأخذ بقاعدة الأغلبية فى المجلس هو أن يشترط فى المسائل غير الإجرائية إجماع الأعضاء الدائمين بالإضافة إلى صوتين على الأقل من أصوات الأعضاء غير الدائمين »

ولم تأت هذه المذكرة بشىء جديد يقنع أحداً بما فيها ، فإذا كان ميثاق عصبة الأمم ، قد اشترط الإجماع لصدور قرارات مجلس العصبة ، فقد كان هذا عيباً فى هذا الميثاق ، وقد انتهى الأمر بالعصبة إلى الانهيار ، أما أن الدول غير الدائمين فى المجلس قادرون على أن يتكتلوا ليقيموا من تكتلهم جبهة (فيتو) أخرى ، باعتبار أن القرار لا يصدر من مجلس الأمن إلا بأغلبية سبعة أصوات منها خمسة للدائمين ، واثنان لغير الدائمين ، فهو تعقيد للمشكله وليس حلاً لها ، فلسنا نريد أصلا عقبات فى طريق صدور القرارات ، بل نريد قرارات ترتضيها الأغلبية . ومع ذلك فإن هذه الحجة وجيهة فى ظاهرها ، باطلة فى حقيقتها ، فالدول غير الدائمة فى المجلس ، لا تخرج عن دولة تجرى فى الفلك الغربى ، أو دولة تجرى فى الفلك الشرقى ، والنادر أن تجلس فى مجلس الأمن إلى جانب الخمسة الكبار ، دولة غير منحازة .

ولسنا مع ذلك من خصوم (الفيتو) على طول الخط ، فإن (الفيتو السوفيتى) كان فى مناسبات كثيرة فى خدمة قضايا الأمم الصغيرة ، ولولاه لحلت بهذه الأمم متاعب جسيمة .

ومرد مشكلة (الفيتو) العيب الذى نشكو منه الحالة الدولية جميعاً ، وهو انقسام الدول إلى معسكرين كبيرين ، وإلى قلة دول اليسار فى الأمم المتحدة ،

ورجحان كفة دول الغرب فيها . ويبقى الحال هكذا إلى أن تزيد كتلة عدم الانحياز ، بفضل زيادة عدد أعضاء الدول التى كانت إلى عهد قريب خاضعة للاستعمار بأسمائه المتعددة ، وإن كان ذلك لا يرجى تحققه سريعاً ، إذ أن أكثر هذه الدول ، يظفر باستقلاله ، ومع هذا الاستقلال آثار غير قليلة من النفوذ الاستعمارى الأدبى والروحى ، تبقى عالقة بعقول زعماء هذه الدول ونفوسهم ، فترة ما .

وإلى أن يتم هذا التطور ، سيبقى كل أمل فى جعل الأغلبية فى مجلس الأمن قاعدة لصدور القرارات سراباً . وقد حاولت الجمعية العامة بالفعل أن تحمل الدول الكبرى على التنازل عن حق الفيتو ، فلم تلق فى هذا السبيل إلا الخيبة . فقد تقدمت كوبا فى الثانى من أكتوبر سنة ١٩٤٦ باقتراح إلى الجمعية العامة مطالبة بإلغائه ، ثم جددت الأرجنتين نفس الطلب بعد ذلك بنحو عامين ، فلم يلق الاقتراحان نجاحاً — ولما يئست الجمعية العامة من إلغاء حق الاعتراض ، قنعت بتوجيه الرجاء إلى الدول الكبار ، بضبط أنفسهم ، والإقلال من استعمال هذا الحق ، وقد أصدرت الجمعية قراراً بهذا المعنى فى ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ و ١٤ من أبريل سنة ١٩٤٩ ، ثم عادت الجمعية العامة فأصدرت قراراً ثالثاً فى الثالث من نوفمبر .

وكانت الدول الدائمة ، إزاء الضغط المستمر من الرأى العام العالمى ، قد وافقت على مشروع بريطانى فى الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٩ يدعو إلى تبادل المشورة بين الدول الدائمة قبل التصويت على أى قرار موضوعى .

ولما كانت مصلحة الولايات المتحدة فى إلغاء هذا الحق أكبر بكثير من مصلحة الاتحاد السوفيتى ، لاطمئنان الولايات إلى توافر أغلبية مؤيدة لها فى الجمعية العامة ، وبين الدول ، فقد أعلنت تنصلها من المذكرة التى نقلنا عنها بعض فقراتها فيما سبق والتى قدمت من الدول الكبار فى مؤتمر سان فرنسسكو .

ولسنا فى حاجة إلى سوق دليل على نفوذ الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة ، وإخضاعها لكثير من الدول الأعضاء لمشيئتها ومشيئة حليفاتها من دول الغرب بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ، التى كانت آخر الأعضاء فى النادى الاستعمارى الضخم ، الذى بسط سلطانه على أكثر من نصف مساحة العالم ، فهذا أمر لا ينكره

أحد ، ولكن قد يحسن أن نورد — ونحن نؤرخ للأمم المتحدة ونناقش رسالتها — أن نذكر مثلا أو مثلين .

ومن أوضح الأمثلة وأسبقها ، هى مسألة أسبانيا فقد كان مؤتمر بوتسدام قد أصدر فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٤٥ تصريحاً قرر فيه المؤتمرون وهم رئيس الولايات المتحدة ، ورئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ، ورئيس وزراء المملكة المتحدة ما يلى[١] :

« تشعر الحكومات الثلاث أنها ملزمة بتوضيح بأنها لن تقبل أى طلب للانضمام تقدمه الحكومة الأسبانية القائمة التى وصلت إلى السلطة على أساس المعونات العسكرية التى قدمها المحور لها ، فهى بصورها وطبيعتها وبسجلها وباتصالها الوثيق بالدول المعتدية لا تتوفر فيها الشروط اللازمة للعضوية » .

وتبعاً لهذا التصريح ، أصدرت الجمعية العامة فى الجزء الثانى من انعقادها الأول قراراً أوصت فيه الدول الأعضاء بأن يسحبوا ممثليهم السياسيين من أسبانيا ، ووجهت فيه الوكالات المتخصصة إلى عدم قبول اشتراك حكومة فرانكو فى وجوه نشاطها ، وذلك إلى أن تنشأ حكومة فى أسبانيا تستمد سلطتها من الشعب وتكفل له الحرية والديموقراطية .

ولكن لما انتهت الحرب ، وانقسم العالم الذى كان يسمى نفسه حراً ، إلى معسكرين ، ونشأ حلف الأطلسى ، ثم نشأ بعد ذلك ، حلف وارسو ، واشتد أوار الحرب التى اصطلحنا على تسميتها بالحرب الباردة ، وأصبحت القواعد العسكرية ذات أهمية خاصة ، فى توفير الأمن أو توفير الشعور به على الأقل عند دول المعسكرين ، فقد ارتفع قدر أسبانيا التى لم يكن فى وسعها أن تنشئ أياً من العلاقات الودية مع دول حلف وارسو ، فقد تحتم أن ترفع الولايات المتحدة عن أسبانيا قرار الحرمان الذى أصدره مؤتمر بوتسدام ، ولذلك أصدرت الجمعية الخامسة فى دورتها الخامسة قراراً ألغت به قرارها السابق ، بدعوى أن تبادل التمثيل السياسى لا يتضمن أى رأى فى السياسة الداخلية للحكومة المتبادل معها هذا التمثيل ، وإلى أن الوكالات المتخصصة المتفرعة عن الأمم المتحدة هيئات فنية أسست لنفع الإنسانية جمعاء

---

(١) الأمم المتحدة .

فينبغى أن يترك لها تقدير ما إذا كان اشتراك فرانكو أمراً مرغوباً ، أو غير مرغوب فيه .

ولا شك أن قراراً مثل هذا لم يكن ممكناً أن يصدر لو لم تكن الولايات المتحدة من ورائه ، ولو لم يكن لها نفوذ عند أعضاء الأمم المتحدة .

* * *

قلنا إن مجلس الأمن الذى كان رأس الأمم المتحدة فى أول العهد بها ، نظراً لأنه مجلس الأقوياء الذين يملكون أن يوقفوا ما شاءوا من القرارات ، إذا اعترضوا على أى منها ، بدأ يفقد شيئاً من نفوذه ، لحساب وصالح الجمعية العامة ، وقد تجسد هذا التحول ، فى تطورين هامين .

أولهما ، نشوء ، ما سمى بالجمعية الصغيرة . وثانيهما ، نشوء ما عرف بالاتحاد من أجل السلام .

وقد تم التطوران بناء على اقتراحات الولايات المتحدة وسعيها من أجل إخراجهما إلى حيز العمل والتنفيذ . فقد قدمت فى دور الانعقاد الثانى للجمعية العامة سنة ١٩٤٧ اقتراحاً بإنشاء « لجنة مؤقتة » تمثل فيها جميع الدول الأعضاء لتعاون الجمعية العامة فى أداء وظائفها الخاصة ، بحفظ السلم والأمن العالمى ، وبتوثيق التعاون الدولى فى المجال السياسى ، وتسوية المواقف التى قد تضر بالعلاقات الودية بين الأمم ، وذلك ببحث ما يعرض من تلك المسائل فى الفترة الواقعة بين دورى انعقاد الجمعية السنوى ، وقد استندت الولايات المتحدة فى تبرير هذا الاقتراح إلى نص المادة الثانية والعشرين التى تخول للجمعية العامة الحق فى إنشاء ما تراه ضرورياً من الفروع الثانوية ، وشرحت وظيفة هذه الجمعية بأنها مجرد بحث هذه الأمور الداخلة أصلا فى اختصاص الجمعية العامة ، دون إصدار توصيات لا للأعضاء ولا لمجلس الأمن ، مع التقيد بالقيود المفروضة على الجمعية ، فهى لا تملك مثلا أن تناقش موضوعاً مطروحاً على مجلس الأمن ، ولا أن توصى توصية يقتضى تنفيذها عملاً إذ أن إجراءات القمع والمنع وتدابيرهما من ولاية مجلس الأمن وحده ، ولكن الاتحاد السوفيتى عارض هذا الاقتراح ، وهو يدرك حوافز الولايات المتحدة لتقديمه ، وأقام اعتراضه على ثلاث حجج ؛ أولها أن الاقتراح الأمريكى

سيحول الجمعية العامة إلى لجنة دائمة ، يستمر انعقادها طوال العام ، بينما نص الميثاق على كونها لجنة تنعقد فترة معينة فى السنة ، فضلا عن أن الميثاق جعل المحافظة على الأمن ، من اختصاص مجلس الأمن وحده ، فإنشاء لجنة فى غيبة اللجنة العامة ، تمارس هذا الاختصاص ، فيه تخط لمجلس الأمن ، الهيئة الدائمة ذات الاختصاص الشامل فى مسائل حفظ الأمن . وأضاف الاتحاد السوفيتى أن إنشاء لجنة من جميع الدول الأعضاء ، لتمارس اختصاص الجمعية العامة ، فى غيبة هذه الجمعية ، ليس من قبيل إنشاء فرع ثانوى . ولكن اعتراض الاتحاد السوفيتى ، لم يؤخذ به ، لأن الأغلبية كانت محالفة للولايات المتحدة ، ومستعدة لترويج مقترحاتها . ولو نظرت إلى اقتراح الولايات المتحدة فى ذاته مجرداً من اعتبارات الصراع بين المعسكرين ، وظروف الحرب الباردة ، لوجدتها خالية من الضرر الذى يدعو إلى مقاومته ، ولكن لو لم تكن هذه الاعتبارات قائمة ، لما فكرت الولايات المتحدة فى تقديم اقتراحها ، فقد كان هذا الاقتراح فى جوهره مظاهرة تقيمها الولايات المتحدة ضد مجلس الأمن ، وضد (الفيتو السوفيتى) . ولولا انطواء هذه المظاهرة على هذا المعنى ، لما تنكر الاتحاد السوفيتى لها ، ولما مانع فى أن تقوم الجمعية العامة بعملها فى المحافظة على الأمن ، واعتماد التعاون الدولى، والتسوية السلمية ، طوال العام .

ويبدو من هذا كله كيف أن الأمم المتحدة كانت تعيش دائماً فى ظل الصراع بين المعسكرين ، وليس فى ذلك شىء من الشذوذ ، إذ أن مبرر وجودها وجود هذا الصراع ، ومحاولة تهدئته ، ثم تسويته ودياً حتى يزول . ولم تحل معارضة الاتحاد السوفيتى دون قبول الاقتراح بقرار من الجمعية العامة فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ .

وقد خول القرار اللجنة حق إجراء تحقيقات وتعيين لجان تحقيق بموافقة ثلثى الأعضاء الحاضرين والمشتركين فى التصويت . وقد قاطع الاتحاد السوفيتى ، ودول الكتلة الشيوعية هذه الجمعية العامة الصغيرة ، فلما دب الخلاف بين يوغسلافيا والاتحاد السوفيتى ، كفت يوغسلافيا عن هذه المقاطعة ، واشتركت فيها .

ولم تقنع الولايات المتحدة بنجاحها فى إنشاء الجمعية العامة الصغيرة ،

إذ اقترحت تحويل هذه الجمعية إلى جمعية دائمة ، وأصدرت الجمعية العامة قرارها فى الحادى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ بالموافقة على هذا الاقتراح ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الجمعية العامة الصغيرة تنعقد فى فترة عدم انعقاد الجمعية العامة الكبيرة .

* * *

أما التطور الثانى فقد دعى إليه وزير خارجية الولايات فى اقتراح قدمه للجمعية العامة فى الثالث من نوفمبر سنة ١٩٥٠ جرى نصه كالآتى :

« إذا أخفق مجلس الأمن بسبب عدم توفر الإجماع بين أعضائه الدائمين ، فى القيام بمسئولياته الأساسية الخاصة بحفظ الأمن الدولى فى الحالات التى يبدو فيها وقوع تهديد للسلم أو الإخلال به أو عمل عدوانى ، تبحث الجمعية العامة الموضوع فوراً لإصدار التوصيات اللازمة للأعضاء ، لاتخاذ التدابير الجماعية المناسبة بما فى ذلك استخدام القوات المسلحة ، فى حالات الاخلال بالسلم وحالات العدوان ، إذا اقتضت ذلك المحافظة على السلم أو إعادته إلى نصابه» (١) .

وهذا الاقتراح من طبيعة الاقتراح الذى أنشأ الجمعية العامة الصغيرة ، فهو محاولة واضحة الأهداف من جانب الولايات المتحدة ، لنقل اختصاص مجلس الأمن فى حالات تهدد السلام بالخطر ، وتوقع قيام عدوان ، إلى الجمعية العامة، لا حرصاً منها على هذا السلام ، وإنما هرباً من رقابة الاتحاد السوفيتى على قرارات مجلس الأمن ، فالولايات المتحدة ، كما قلنا أكثر من مرة ، ولو لم تكن مطمئنة إلى أنها قادرة على استصدار ما تشاء من القرارات من الجمعية العامة ، لما فكرت فى هذا الاقتراح ، ولما سعت إليه ، بل بالعكس ، لعوقت التفكير فيه ، فضلا عن تنفيذه .

وقد كان هذا الاقتراح تعديلا قانونيا للميثاق، ينقل جزءاً من اختصاص مجلس الأمن ، وجزءاً جيوياً ، إلى الجمعية العامة، وإن كان هذا التعديل ، مخالفاً لجوهر الميثاق ، من حيث توزيع الاختصاصات بين الجمعية العامة وبين مجلس الأمن ، إلا أنه لا يعدل هذا التوزيع إلا روحيا أو أدبيا ، إذ أن اقتراح

---

(١) المرجع السابق .

وزير خارجية ، لا يهدف فى الواقع إلا إلى أن تصدر الجمعية العامة مجرد توصيات للدول لا تلزمها، وذلك فى حالة إخفاق مجلس الأمن فى إصدار قرار بشأن حالة من حالات تهديد السلم أو الإخلال به . ولكن يعترض على هذا الاقتراح بالاعتراضات الآتية :

أولا : إن تصدى الجمعية العامة لمناقشة مسألة من مسائل حفظ الأمن الدولى ، مخالف لنص المادتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، اللتين تحرمان على الجمعية العامة مناقشة مسألة من هذه المسائل ما دامت مطروحة على المجلس ، ولا ينشأ حق الجمعية العامة فى هذه المناقشة إلا إذا أخطرها المجلس بحذفها من جدوله :

وإن كان يرد على هذا الاعتراض بأن المجلس اتفق على أن حذف مسألة من جدول أعماله، ليست قراراً موضوعيا بل قراراً إجرائيا ، لا تشترط فيه موافقة الدول الكبار الخمسة .

ثانيا : إن مجلس الأمن وحده الذى يملك إصدار قرارات القمع والمنع ، فإذا صدرت توصيات من الجمعية العامة باتخاذ شيء من هذا القبيل ، فإن الدول التى لم توافق عليه ، يبقى حقها فى اعتبار ذلك القمع ، عملا عدوانيا ، وجاز لها أن تقاومه .

ثالثاً : ألزمت المادة الثانية عشرة الجمعية العامة بأن تحيل إلى مجلس الأمن ، أية مسألة خاصة بحفظ الأمن ، قبل بحثها أو بعده ، إذا كان من الضرورى القيام بعمل ما فى صدد تسوية هذه المسألة ، فاستقلال الجمعية العامة ، باتخاذ قرار فى حالة وجوب اتخاذ عمل لتنفيذ هذا القرار ، مخالف لصريح نص الميثاق .

رابعاً : إن إغماض العين عن معارضة الدولة الكبيرة التى حالت معارضتها دون إصدار قرار من مجلس الأمن سيؤدى حتما إلى تصدع الأمم المتحدة كلها ، وانهيار بنائها الأمر الذى حفز منذ البداية إلى اشتراط موافقة الدول الدائمين الإجماعية .

وقد وافقت الجمعية العامة على هذا القرار وأنشأت لجنة سميت «لجنة» مراقبة السلام » ، ولجنة « التدابير الجماعية » مع توصية الدول الأعضاء بأن تعد فى جيوشها الوطنية قوات يمكن استخدامها عند اللزوم كوحدات للأمم المتحدة بناء

على توصية الجمعية العامة أو مجلس الأمن ، واقتراح تعديل الميثاق بحيث يصبح ممكناً دعوة الجمعية العامة بأغلبية سبعة أصوات من أعضاء مجلس الأمن لا يشترط أن يكون فيها الخمسة الكبار ، بناء على أغلبية اللجنة المؤقتة ، دون اشتراط أغلبية ثلثي أصوات الحاضرين والمشتركين فى التصويت .

إن أكبر مشكلات مجلس الأمن هى التصويت ، وعيب التصويت ليس مرضاً ، وإنما هو عرض لمرض ، والمرض أن زعيمى المعسكرين الكبيرين اللذين يقتسمان النفوذ فى العالم ، واللذين يملكان أكبر قوة ذرية ، لا يتقبلان الاحتكام إلى الجمعية العامة ، لأن الجمعية العامة لم يكتمل لها استقلال عن نفوذهما ، ولأن الأغلبية لاتزال تؤيد المعسكر الغربى دون الشرقى ، وإذا تغيرت الأحوال ، ورجحت كفة المعسكر الشرقى على الغربى ، لا يتغير الوضع ، ولا تحل المشكلة .

ولذلك لا تفلح النصوص فى الخروج من هذا المأزق ، والمثل الواضح على ذلك أن الخمسة الكبار اتفقوا فى مؤتمر يالتا على أن المسائل التى تعرض على مجلس الأمن تنقسم بطبيعتها إلى قسمين ، قسم موضوعى ، وقسم إجرائى ، وإن لأغلبية التى يجب توافرها فى القسم الأول هى سبعة أصوات على الأقل منها خمسة أصوت للكبار الدائمين ، أما القسم الثانى فتكفى فى صدده أغلبية سبعة أصوات ، دون اشتراط أصوات الخمسة الكبار وقد يبدو أن هذا المعيار يضع حلاً واضحاً ، ولكن بسبب الحالة الواقعة فى المجلس ،وسوء الظن المتبادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، فقد هذا المعيار كل قيمته ، إذ أن الاختلاف ثار بين هاتين الدولتين حول ما هو موضوعى ، وما هو إجرائى ، فقد حدث خلاف حول اقتراح إنشاء لجنة لتحقيق موقف دولى معين ، ووضع تقرير عنه يرفع إلى المجلس ، فرأى مندوب الولايات المتحدة ، أن تشكيل لجنة تحقيق وارد فى المادة التاسعة والعشرين من الميثاق ، وهى واردة بدورها فى القسم الخاص بالإجراءات ، فهو إذن عمل إجرائى ، ولكن الاتحاد السوفيتى اعترض على هذا التفسير بحجة معقولة إذ قال إن من يقرر تشكيل لجنة تحقيق ، فقد تصدى للموضوع الذى سيشكل من أجله لجنة .

ولا نحب أن نطيل الوقوف أمام محاولات تعديل نظام التصويت ، أو محاولات تعديل الميثاق فيما يخص هذا النظام ، فإن هذه المحاولات محكوم عليها بالإخفاق

مقدماً ، وتعديل الميثاق إن تم على غير إرادة أحد زعيمى الأمم المتحدة ، وبغير موافقته ، معناه إنهاء حياة الأمم المتحدة ، ودعوة هذين الزعيمين للإقلال من استعمال حق (الفيتو) ، كمن يقدم رجاء مكتوباً إلى البركان لكيلا يثور ، أو للبحر ، ليوقف مده وجزره ، أو يقلل من تلاطم إمواجه . إن حق (الفيتو) هو من قبيل حق الدفاع عن النفس فى وجه مخاطر لا تدرأ بغيره .

* * *

بقى أن نلم إلماماً سريعاً بنظام العمل فى مجلس الأمن : ونبدأ بما أوردته المادة الثامنة والعشرون التى تنظم إجراءات هذا العمل . وأول ما قضت به هذه المادة هو أن يكون للدول الأعضاء فى المجلس مندوب دائم يمثل دولته فى مقر الهيئة ، وللمجلس أن يعقد اجتماعاته خارج مقر الأمم المتحدة ، إذا قضت بذلك ظروف العمل .

وللدول غير الأعضاء يمكن تمثيلها بمندوب عنها ، إذا كانت مناقشات المجلس ، تؤثر على مصالح تلك الدول التى لا يمكن لها بعد الحضور أمام المجلس والإدلاء بما تراه ، حق فى التصويت فى الموضوع ، وإن كان لها أن تقدم مشروعات قرارات . بل إن الميثاق يسمح للدولة غير العضو فى الأمم المتحدة ، إذا كانت طرفاً فى النزاع المطروح على المجلس ، أن توفد مندباً عنها ، يشرح وجهة نظرها ، ولا يكون لهذا المندوب بطبيعة الحال ، الحق فى التصويت . ويلاحظ الفارق بين هذه الحالة والحالة التى سبقتها إذ يكفى أن تتأثر مصلحة الدولة العضو فى الأمم المتحدة ليؤذن لها بالحضور أمام المجلس والاشتراك فى مناقشاته ، بينما لا يسمح للدولة غير العضو بهذا إلا إذا كانت طرفاً فى نزاع قائم .

وقد اشترط المجلس فى حالة طرح النزاع الذى ثار بين ألبانيا وبين بريطانيا ، بسبب غرق سفن بريطانيا ارتطمت بألغام كانت مبثوثة فى المياه الألبانية غير الإقليمية والواقعة فى مضيق كورفو ، أن تقبل الحكومة الألبانية جميع الالتزامات التى تقع على عاتق أى عضو فى الأمم المتحدة فى أية حالة مماثلة .

ولم يقف المجلس عند حد دعوة الدول فقط ، بل تجاوز ذلك إلى دعوة هيئات كما دعى الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية ، عند طرح مسألة فلسطين سنة١٩٤٨ ،

وأن تحدد حق ممثل الهيئتين ، بحضور اجتماعات المجلس لكى يقدموا البيانات والمساعدات التى قد يطلبها .

* * *

فوظيفة مجلس الأمن هى حفظ الأمن ، وقد أسندت إليه المادة الرابعة والعشرون هذه الوظيفة ، بوصفه نائباً عن جميع الدول الأعضاء ، وقرارات مجلس الأمن حسب نص المادة الخامسة والعشرين ملزمة لكل أعضائه ، وهذه القوة الإلزامية هى التى جعلت مجلس الأمن رأساً للأمم المتحدة ، وأضفت عليه من القيمة ما لم يتوافر لأى جزء من أجزاء المنظمة .

ومن المشكلات القانونية لحفظ الأمن أمام مجلس الأمن ، ما نصت عليه المادة الرابعة والثلاثون من الميثاق من وجود موقف يؤدى استمراره إلى تهديد السلام والأمن الدولى ، ونشوب نزاع مهدد لهما ، وقد نصت المادة السابعة والعشرون على الحكم الخاص بكل حالة على حدة ، فإذا كان المطروح على المجلس هو موقف جاز للدول الأعضاء فى المجلس التصويت ولو كانت طرفاً فى هذا الموقف ، أما إذا كان المطروح على المجلس (نزاعاً) فأعضاء مجلس الأمن الذين يكونون أطرافاً فى هذا النزاع ممنوعون من الاشتراك فى التصويت . والمشكلة التى تثور بسبب هذا النص ، مردها عدم وجود معيار للتفرقة بين « النزاع » و « الموقف » . ويصبح الأمر لذلك ، خاضعاً لتقدير مجلس الأمن نفسه ، وتقدير هذا المجلس دائماً ، قائم على الاعتبارات السياسية وحدها .

وقد ردت مصر كلاً من إنجلترا وفرنسا وهولندا وتركيا ، وكانوا أعضاء فى مجلس الأمن سنة ١٩٥١ عن التصويت عندما تقدمت إسرائيل بشكوى ، بسبب التدابير التى تتخذها مصر ، ضد السفن التى تعبر قناة السويس حاملة مواداً حربية إلى إسرائيل وكانت هذه الدول الأربعة قد احتجت على مصر بسبب هذه التدابير مؤيدة شكوى إسرائيل بدعوى أن هذه التدابير تضر مصالحها البحرية . لكن هذه الدول لم تقبل اعتراض مصر على اشتراكها فى التصويت زاعمة بأنها ليست طرفاً فى النزاع القائم بين مصر وإسرائيل ، وإن تأثرت مصالحها بهذا النزاع ، كما رفضت إحالة اعتراض مصر القانونى على محكمة العدل الدولية للإفتاء فيه ، وقد

حال دون صدور قرار فى الشكوى الإسرائيلية أمتناع كل من الاتحاد السوفيتى والهند ، والصين ، وكانتا عضوين فى المجلس آنذاك — عن التصويت .

وإذا لم تستجب الدول المتنازعة إلى ما يقضى به المجلس بعد أن يحاول المجلس الجمع بينهما ، أو دعوتها إلى التفاوض أو التحكيم أو التوفيق ، وبعد أن يتخذ ما يراه ضرورياً لحصر النزاع فى أضيق النطاق — فإن المجلس يتخذ أولا من التدابير حسبما تنص المادة الحادية والأربعون ما لا يحتاج إلى استعمال القوات المسلحة مثل وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائط المواصلات ، وقفاً جزئياً أو كلياً ، وقطع العلاقات الديبلوماسية .

فإن لم تثمر هذه الجزاءات ، لم يبق أمام المجلس سوى التدابير العسكرية التى تنص عليها المادة الثانية والأربعون ، وقد تدرجت هذه المادة فى بيان هذه التدابير ابتداء بالمظاهرات العسكرية ثم الحصار ، وانتهاء بالعمليات الأخرى الجوية والبحرية والبرية .

وتفترض هذه المادة وجود قوات تابعة للأمم المتحدة ، وقد نصت المادة الثالثة والأربعون فعلا على أن جميع الدول الأعضاء يتعهدون بأن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن بناء على طلبه وطبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى ، ومن ذلك حق المرور ، وقالت المادة إن ذلك كله فى سبيل المساهمة فى حفظ السلم والأمن الدولى .

وهذه المادة لا تنشئ قوة تابعة للأمم المتحدة ، وإنما تنص على إنشاء هذه القوة من حيث المبدأ ، بل على مجرد قبول الدول الأعضاء وضع بعض قواتهم الوطنية تحت أمر مجلس الأمن . ولكن لكى يتم ذلك لابد من عقد اتفاق أو اتفاقات بين مجلس الأمن ، وبين كل دولة من أعضاء الأمم المتحدة على حدة أو بينه وبين كل مجموعة من الدول . وقد نصت الفقرة الثانية من المادة الثالثة والأربعين على أن هذا الاتفاق أو تلك الاتفاقات خاضعة للتصديق عليها دستورياً حسب أوضاع الدولة أو الدول المتعاقدة مع مجلس الأمن .

ومعنى ذلك أن الدول الأعضاء ملزمة بحسب المادة ٤٣ أن تدخل مع مجلس الأمن فى مفاوضات من أجل إبرام اتفاق لتنظيم وضع بعض قواتها فى خدمة مجلس الأمن وتنفيذاً لأغراضه فى حفظ الأمن والسلام الدوليين ، ولكنها ليست ملزمة بالموافقة على ما يفرضه مجلس الأمن فى هذا الصدد .

ولعل من أهم ما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة — فى رأيى — هو إنشاء لجنة أركان حرب عسكرية ، تابعة لمجلس الأمن؛ فإنه إذا كتب للمجلس أن يوفق فى إنشاء هذه اللجنة ، فإن معنى ذلك أن خطوة كبيرة نحو إنشاء حكومة عالمية تحكم الدول جميعاً ، قد تمت .

وقد وردت الإشارة إلى لجنة أركان الحرب مرة فى المادة الخامسة والأربعين ، وهى تتحدث عن القوات الجوية التى قرر الميثاق أهمية وجودها تحت أمر المجلس ليتسنى له استخدامها فوراً لأعمال القمع الدولية المشتركة؛ فقد جاء فى عجز هذه المادة : ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب ، وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين » .

ثم جاءت المادة السابعة والأربعون فأوردت حكم إنشاء هذه اللجنة من رؤساء أركان حرب الدول الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن ، وهذا طبيعى وفقاً لجميع ما قرره الميثاق من إسناد مهمة حفظ الأمن إلى الخمسة الكبار وحدهم ، وقد حددت المادة السابعة والأربعون مهمة هذه اللجنة بقولها : أن تسدى المشورة والمعونة إلى مجلس الأمن وتعاونه فى جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات حربية لحفظ السلم والأمن الدولى ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع »

وقد كان طبيعيا أن يفشل مجلس الأمن فى خلق هذه اللجنة ومدها بالحياة إذ لابد لكى تؤدى هذه اللجنة واجبها ،أن يسود الاتفاق المجلس الذى تخدمه وتسدى له المعونة والمشورة ، وتقوم بالتوجه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف ذلك المجلس ، وتضع له الخطط اللازمة لاستخدام تلك القوة .

وقد اقتصر عمل لجنة أركان الحرب على تقديم تقريرين عن المبادئ العامة

لتنظيم قوة عسكرية للأمم المتحدة وعن تكوين هذه القوات ومساهمة الدول الأعضاء فيها ، تنفيذاً لقرار المجلس الصادر فى ١٦ من فبراير سنة ١٩٤٦ .

ولم تكن لجنة الطاقة الذرية أسعد حظاً من لجنة أركان الحرب فلجنة الطاقة الذرية التى شكلتها الجمعية العامة بقرارها الصادر فى ٢٤ من يناير سنة ١٩٤٦ من جميع دول الأعضاء بمجلس الأمن ومنهم كندا باعتبارها أكبر دولة منتجة لليورانيوم ولا لجنة الأسلحة العادية المشكلة بقرار مجلس الأمن فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ من ممثل لكل عضو من أعضاء مجلس الأمن حققتا شيئاً .

فإن هاتين اللجنتين وإن ولدتا مستقلتين ، إلا أنهما أدمجتا لأنهما تهدفان إلى تضييق نطاق استعمال الأسلحة بأنواعها المختلفة الذرية والتقليدية ، ووضع الخطط لنزع تلك الأسلحة تدريجياً ، ولكنها لم تحققا قليلاً أو كثيراً مما نيط بهما لا وهما مستقلتان ، لا وهما مندمجتان .

والقوة العسكرية الوحيدة التى حملت لواء الأمم المتحدة ، هى القوة التى دعت الولايات المتحدة ، لا الأمم المتحدة ، إلى تكوينها ردعاً لقوات شمال كوريا التى زحفت مع قوات الصين الشيوعية على القسم الجنوبى لكوريا . ولم يكن مجلس الأمن ليقدر على إصدار القرار الذى أصدره بشأن الحرب التى نشبت بين جزئى كوريا فى الخامس والعشرين من يونيه سنة ١٩٥٠ والذى دمغ به الأعمال الحربية التى قامت بها كوريا الشمالية بأنها إخلال بالسلام ، لولا غياب مندوب الاتحاد السوفيتى عن مجلس الأمن ، فقد كان الاتحاد السوفيتى مقاطعاً لجلسات المجلس بسبب جلوس مندوب فرموزا فى المجلس بوصفه ممثلا للصين . وقد انتفعت الولايات المتحدة من هذا الغياب ، واستصدرت من المجلس هذا القرار كما استصدرت منه فى السابع والعشرين من نفس الشهر ، قراراً آخر دعا فيه أعضاء الأمم المتحدة إلى تقديم كل مساعدة للجمهورية الكورية (الجنوبية) لدفع العدوان المسلح ولإعادة السلم والأمن الدولى إلى نصابه .

وخطت الولايات المتحدة خطوة ثالثة إذ اقترحت على الجمعية العامة فى أول فبراير سنة ١٩٥١ أن تصدر قراراً تصم فيه تدخل الصين الشيوعية فى كوريا بتقديم المساعدة لشمال كوريا بأنه عمل عدوانى على كوريا ، وتدعو الدول الأعضاء

ببذل كل مساعدة ممكنة لقوات الأمم المتحدة ، وتشكيل لجنة لاقتراح ما تراه من التدابير الأخرى لقمع عدوان كوريا . وقدمت هذه اللجنة تقريرها فأصدرت الجمعية العامة فى الثامن عشر من مايو سنة ١٩٥١ قراراً أوصت فيه كل الدول الأعضاء بأن تمنع تصدير أية معدات أو منتجات حربية أو أدوات نقل أو زيت أو مواد صالحة لإنتاج ذى قيمة حربية إلى الصين أو كوريا الشمالية »

ولما عارض الاتحاد السوفيتى فى هذا القرار ، كما عارض من قبل فى القرارات السابقة — رد مندوب الولايات المتحدة بأنه كلما اتخذت أغلبية أعضاء أى فرع من فروع الأمم المتحدة قراراً ، فإن تصويتها على إقراره — يدل على أن هذا الفرع يعتبر نفسه مختصاً بإصداره ، وفقاً لمبادئ الميثاق »

والحق أن هذا الكلام صحيح قانوناً إذ لا معقب على قرارات الأمم المتحدة ؛ فهى قرارات غير قابلة للطعن فيها أمام جهة أخرى ، ولكن مندوب الولايات المتحدة لا يقول هذا الكلام لأنه صحيح ، بل لأن الولايات المتحدة قادرة على استصدار قرارات متفقة مع مصالحها من فروع الأمم المتحدة ما عدا مجلس الأمن.

وقد خشيت بعض الدول — لا سيما الدول التى تضمها تنظيمات إقليمية كدول الجامعة العربية ، ودول الجامعة الأمريكية — أن تحرمها نصوص الميثاق ، ولا سيما ما كان منها متصلاً بسلطة مجلس الأمن فى حفظ السلام والأمن الدوليين ، من أن تدافع عن نفسها منفردة أو مجتمعة ، حتى يصدر مجلس الأمن قراره بدمغ المعتدى بأنه معتد ، وباتخاذ الإجراءات الكفيلة برد عدوانه ، وقد يطول الأمر حتى يصدر مثل هذا القرار أو حتى تتخذ مثل تلك التدابير ، ولذلك فقد أصرت تلك الدول فى مؤتمر سان فرنسسكو على وجوب النص على حقها فى الدفاع عن نفسها فور وقوع الاعتداء عليها مستعينة بمن تربطها به من الدول تنظيمات إقليمية ، وقد انتهى البحث بالنص على ذلك فى المادة الحادية والخمسين من الميثاق وقد وصف حق الدول فى رد العدوان الواقع عليها بأنه الحق الطبيعى ، وبأنه ليس فى نصوص الميثاق ما يضعف هذا الحق . ولكن حق الدولة فى رد العدوان عليها ، لا يجب سلطة مجلس الأمن نهائيا ، إذ عليها أن تبلغ فى الحال المجلس بالعدوان الذى نزل بها ، وإذا أصدر المجلس قراراً فى صدد هذا العدوان انتقل عبء الدفاع ومسئوليته عن عاتق الدولة

إلى عاتق المجلس ، وقد يرى المجلس أن الدول الشاكية هى المسئولة عن حصول العدوان وأنها معتدية ، وقد يرى غير ذلك .

ولكن حق الدول منفردة ومجتمعة فى الدفاع عن نفسها حتى يضطلع المجلس بواجبه ، لا يعنى أن للدولة حق اللجوء إلى السلاح دفاعاً عن نفسها فى حالة حصول التهديد ضدها دون وقوع العدوان أيا كان مقدار هذا التهـديد وإن كان لا يمنعها من اتخاذ التدابير الوقائية من مثل إصدار أمر بالتعبئة ، أو وضع قواتها على حدودها .

ولا يشترط بعض الشراح فى الدول التى يضمها تنظيم إقليمى ، أن يكون بينها جوار جغرافى كدول الجامعة العربية ، أو دول الجامعة الأمريكية أو الدول الأعضاء فى معاهدة التعاون الاقتصادى والاجتماعى والثقافى للدفاع الجماعى المبرم بين بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج فى مارس سنة ١٩٤٨ وتبعاً لهذا الرأى تعتبر معاهدة الأطلسى وهى تضم دولا يضمها المحيط الأطلسى المبرمة فى أبريل سنة ١٩٤٩ ، يمكن اعتبارها تنظيماً إقليمياً .

وفى المادة الخامسة من ميثاق حلف الأطلسى بيان للحد الذى تنتهى عنده حق الدول الأعضاء فيه فى الدفاع عن نفسها وحق مجلس الأمن فى حمل مسئولية صيانة السلام الدولى فقد جرى عجز هذه المادة بأنه « يجب أن يبلغ نبأ أى هجوم مسلح وجميع التدابير التى تتخذ لمقاومته إلى مجلس الأمن على الفور ، ويجب العدول عن مثل هذه التدابير متى اتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة للمحافظة على السلم والأمن الدولى»

ويرى البعض الآخر أن فى نصوص معاهدة حلف الأطلسى ما يتناقض مع روح الميثاق ، مثال ذلك نص المعاهدة على اعتبار ممتلكات فرنسا فى الشمال الأفريقى مديريات فرنسية واعتبار معاهدة الثورة الداخلية إذا غذيت بمساعدة خارجية ، عدواناً خارجيا ، يستدعى تعاون دول الحلف على قمعه . والمفهوم بطبيعة الحال أن مقصد هذه المادة الثورة الوطنية الجزائرية المجيدة التى كانت قائمة وقتذاك ، واعتبارها عدواناً خارجيا ، وعلى دول الحلف أن تخف لقمعه . وهو نص لا يخالف نص الميثاق ، بل يتحداه .

ويرى البعض — ونرى معهم — أنه ليس ثمة ما يدعو إلى إخضاع تعاون الدول بعضها مع بعض فى دفع عدوان واقع على إحداها ، لشرط قيام تنظيم إقليمى

يفرض عليها هذا التعاون فما دام أن حق الدفاع عن النفس قد اعتبر حقا طبيعيا ، وما دام أن عمل الدولة المعتدى عليها لم يتجاوز رد العدوان ، فإن كل من يساعدها — فى ضوء مواد الميثاق — يكون فى حدود ما يسمح به ميثاق الأمم المتحدة .

* * *

ويعمل مجلس الأمن بصورة دائمة وتعقد اجتماعاته بدعوة من رئيسه فى أى وقت على ألا تزيد الفترة بين اجتماعين عن أسبوعين ، وللرئيس أن يطلب عقد الجلسة ، إذا تقدم بهذا الطلب إليه دولة من الدول الأعضاء فى المجلس ، أو دولة من أعضاء الأمم المتحدة بسبب نزاع أو احتكاك دولى ، أو إذا رفعت إليه دولة من غير الأعضاء نزاعاً كانت هى فيه طرفاً ، أو إذا قدمت إليه الجمعية توصيات أو أحالت إليه مسألة تتعلق بالسلام والأمن الدولى ، أو إذا طرح عليه الأمين العام أمراً ما يتصل بحفظ السلم والأمن الدوليين . ويتولى رياسة المجلس أحد أعضاء المجلس بالتناوب على ألا تزيد مدة الرياسة عن شهر ، وإذا كانت الرياسة معقودة لمندوب دولة ، وكانت طرفاً فى النزاع المطروح على المجلس ، تخلى مندوبها عن الرياسة .

* * *

بقى علينا أن نقول كلمة عن الأجزاء الأخرى من بناء الأمم المتحدة ، وهى المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة .

قلنا فى موضع آخر من هذا الكتاب ، إننا نعتبر النشاط الاجتماعى والاقتصادى للأمم المتحدة ، هو أخطر ضروب نشاطها ، وأعظمه أثراً فى تحقيق أكبر أهدافها ، هو حفظ السلام والأمن الدوليين ، فالحروب فى واقع الأمر ، هى أمراض أو أوبئة ، تفتك بجسم الجماعة الإنسانية أو بروحها ، مثلما تفتك الأمراض والأوبئة بأفراد الناس ، ومما يعين على تعرض الفرد الواحد للمرض ، ضعفه ، أو سوء تغذيته ، أو سوء الموطن الذى يقيم فيه ، وعدم توافر الأسباب الصحية فيه . كذلك يعرض المجتمع الإنسانى للحروب ، عدم توافر أسباب العدالة فيه ، وتخلف بعض جماعاته اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا .

ولقد فطن ميثاق الأمم المتحدة إلى هذا المعنى ، فنص عليه فى المادة الخامسة

والخمسين بقوله إنه «رغبة فى تهيئة دواعى الاستقرار والرفاهية الضروريين لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم مؤسسة على احترام المبدأ الذى يقضى بالتسوية فى الحقوق بين الشعوب ، وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها »

فلا جدال فى أن قيام علاقات سلمية ودية بين الأمم ، تحتاج إلى توفير وتهيئة دواعى الاستقرار والرفاهية

والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ، هو الجهاز الذى أسند إليه ميثاق الأمم المتحدة ، تحقيق هذا الهدف العظيم ذى الشعب الثلاثة :

(ا) تحقيق مستوى أعلى للمعيشة وتوفير أسباب العمالة الكاملة لكل الأفراد والنهوض بعوامل التطور ، والتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

(ب) تيسير الحلول للمشكلات الدولية الاقتصادية والاجتماعية والصحية ، وما يتصل بها وتقرير التعاون الدولى فى أمور الثقافة والتعليم .

(حـ) احترام حقوق الإنسان والحريات السياسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، ولا تفريق بين الرجال والنساء ، ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا »

وقد أفرد ميثاق الأمم المتحدة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للنهوض بهذه التبعات الكبرى التى تجعل من هذه المنظمة العظيمة ، أداة إيجابية ، تخلق أسباب المودة والوئام الدوليين ، ولم يكن فى عصبة الأمم جهاز متفرد ذو كيان مستقل يقوم بنفس الأغراض ، فقد ألقيت هذه التبعات ، مع التبعات السياسية ، على عاتق مجلس العصبة ، وهو مجلس غارق إلى منبت الشعر فى شئون السياسة ، ومشغول العقل والوجدان بها ، فضلا عن عدم تخصصه فى أمور الثقافة والتربية والتعليم ، والاقتصاد ، ومشكلات الأمومة والطفولة ، ولعله لا يهتم بها ، ولا يود أن يضيع وقتاً كثيراً فيها .

ومع ذلك فقد أدرك مجلس العصبة إلى ما فى تنظيمها من نقص فى هذه الناحية ، فأنشأ هيئة اسمها « اللجنة المركزية للشئون الاقتصادية والاجتماعية [1] »

* * *

(١) الدكتور زكى هاشم .

ويشكل المجلس الاقتصادى والاجتماعى من ثمانية عشر عضواً يراعى بقدر الإمكان اختيارهم بحيث يحقق توزيعاً جغرافيا عادلا بين الدول ، وتستمر العضوية فى المجلس لثلاث سنوات ، ويجوز تجديد انتخاب الدولة لمدة جديدة خلافاً لما يجرى عليه الأمر فى مجلس الأمن .

وقد نصت المادة الثانية والستون على وظائف هذا المجلس ، ومن هذا النص يتضح أن الميثاق ناط به القيام بدراسات ووضع تقارير عن شئون « الدول الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية والصحية » ، كما أن له أن يطلب هذه الدراسات من غيره ، كما أن المجلس هو الذى يعد مشروعات الاتفاقات فى حدود اختصاصه لعرضها على الجمعية العامة ، يقوم المجلس كذلك بعد موافقة الجمعية العامة بالخدمات اللازمة لأعضاء الأمم المتحدة أو الوكالات المتخصصة متى طلب إليه ذلك ، وللمجلس أن يمد مجلس الأمن بما يلزم من المعلومات وعليه أن يعاونه متى طلب إليه ذلك .

ويتفرع عن المجلس لجان موضوعية ولجان إقليمية ، ثم لجان دورية ، ولجان مؤقتة .

وأهم هذه اللجان « اللجان الموضوعية » ويختص كل منها بموضوع من موضوعات الاقتصاد والاجتماع ، وتقوم بدراسات ذات طابع فنى ، وقد أنشأ المجلس من هذه اللجان لجنة للاقتصاد والعمالة والتنمية ، ولجنة للمالية ، وأخرى للسكان ، ثم الإحصاء ، والنقل والمواصلات ، والاجتماع وحقوق الإنسان ، ومركز المرأة ، والمواد الأولية .

واللجان الإقليمية هى لجان يتناول نشاطها — كما يدل على ذلك اسمها — منطقة من المناطق أو إقليماً من الأقاليم ، يختص بدراسة أحواله ، واقتراح الحلول لمشكلاته ، وقد بدأت هذه اللجان بلجنتين خاصتين بالمناطق التى دمرتها الحرب ، فواحدة لهذه المناطق فى أوربا ، والأخرى فى آسيا ، ثم أنشئت لجنة لأمريكا اللاتينية ، ثم اقترح إنشاء لجنة بالشرق الأوسط .

أما اللجان الدورية فهى اللجان التى يشكلها المجلس فى بداية كل دور من أدوار اجتماعاته ، وهى أربعة ، واحدة للشئون الاقتصادية والثانية للشئون الاجتماعية

والثالثة لحقوق الإنسان والرابعة للتنسيق ؛ واللجان المؤقتة بعضها خاص بموضوع معين ، إذا فرغت من دراسة وكتابة التقرير عنه انتهت مهمتها ، وبعضها يستمر بعض الوقت ، ومن الأمثلة على هذا النوع لجنة جدول الأعمال ، فهى تستمر طوال دور الانعقاد ، واللجان ذات الأجل القصير الذى ينتهى بانتهاء اللجنة من الموضوع الموكول إليها دراسته فالأمثلة عليها لجنة جريمة إبادة الجماعة ، والرق ، واللاجئين . . إلخ .

ومن أهم أعمال المجلس الاقتصادى إعداده إعلان حقوق الإنسان الذى وافقت عليه الجمعية العامة فى نهاية سنة ١٩٤٨ .

أما مجلس الوصاية ، فله شأن خاص عند المصريين ، ذلك لأن مصر ساهمت فى كفاحه ونضاله من أجل تحرير الشعوب التى لم تستكمل استقلالها ، والتى كانت قبل الحرب العالمية الثانية جزءاً من ممتلكات دول المحور ، وقد كانت مساهمة بالدم الحار الغالى ، فقد استشهد أحد أبنائها الأستاذ محمد كمال الدين صلاح ، فى مقديشيو فى السادس عشر من إبريل سنة ١٩٥٧ تحت علم الأمم المتحدة بوصفه رئيس المجلس الاستشارى على الصومال ، وهو مجلس تابع للأمم المتحدة ، وخاضع لإشراف مجلس الوصاية دفاعاً عن مبادئ الأمم المتحدة .

وقد كان نظام الوصاية ، فى ظل عصبة الأمم ، تزييفاً كله ، فقد أطلق لفظ الانتداب ، على نوع من الحماية والاحتلال ، تفرضه الدولتان الاستعماريتان الكبريان ، بريطانيا وفرنسا على بعض الشعوب التى كانت خاضعة للدولة العثمانية التركية أو التى كانت مستعمرات وممتلكات لألمانيا القيصرية قبل الحرب العالمية الأولى .

ولم يكن فى هذا الاحتلال والاستعمار ، شىء جديد عن الاحتلال المألوف أو الاستعمار القديم ، سوى الاسم ولكن الجوهر بقى هو هو ، بل إن الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، والانتداب البريطانى على فلسطين ، كان أشد ضراوة من الاحتلال البريطانى فى مصر مثلا ، ففرنسا لم تتأخر لحظة عن ضرب دمشق بالقنابل : مساجدها وكنائسها ، وشوارعها وأحيائها بما فيها من نساء وأطفال ، عندما قام السوريون يطالبون بحقوقهم فى الاستقلال أو فى الدستور ؛ أما بريطانيا فقد توجت انتدابها فى فلسطين بتسليمها لليهود ، بعد أن سلطت على أهلها الحديد

والنار ، وبعد أن نفت فريقاً من زعمائها إلى جزيرة سيشل ، وفريقاً آخر إلى شرق أفريقيا .

ولذلك كان مستحيلا أن يتكرر نظام الانتداب البشع الكريه ، فى ظل ميثاق الأمم المتحدة ، بالصورة التى عاش بها فى ظل عصبة الأمم ، ولذلك فقد أفرد الميثاق الفصل الحادى عشر منه للأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى وقد تضمن هذا الفصل تصريحاً تعهدت بمقتضاه الدول التى تخضع لحكمها أقاليم لم تحصل على حقها كاملا فى الحكم الذاتى ، أن تجعل مصلحة أهل هذه الأقاليم فى المقام الأول ، وأن يعتبروا العمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم إلى أبعد حد ممكن ، أمانة مقدسة فى أعناقهم .

ولسنا نرى فى هذا التصريح الذى أوردته المادة الثالثة والسبعون من الميثاق شيئاً جديداً ، ولو أننا نسلم أن فى صياغة هذه المادة من الحرارة ، ما يفوق كل ما جاء فى ميثاق العصبة عن نفس الموضوع ، ولكن الذى جعل لهذا التصريح أهميته التطور العالمى الواسع المدى الذى جعل استمرار الاستعمار القديم ضرباً من المحال ، والتصريح الوارد فى المادة الثالثة والسبعين لا يتناول الشعوب التى سيشملها نظام الوصاية الذى يشرف عليه مجلس الوصاية بل إنه عام شامل ، يتناول كل إقليم خاضع لحكم دولة أجنبية ، ولو لم ينزع من حكم هذه الدولة ، فيشمله نظام الوصاية . أما الأقاليم التى تخضع للوصاية ، فلا بد من عقد اتفاق وصاية بينها وبين الأمم المتحدة ، كما لابد من إنشاء مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة ليشرف على تنفيذ هذا الاتفاق ، ولذلك فقد أصدرت الجمعية العامة فى التاسع من فبراير سنة ١٩٤٦ قراراً وجهت فيه النظر إلى أن الالتزامات التى قبلها أعضاء الأمم المتحدة بمقتضى الفصل الحادى عشر من الميثاق نافذة فعلا ، وليست معلقة على عقد اتفاقات الوصاية أو على تكوين مجلس الوصاية .

والتصريح الوارد فى المادة الثالثة والسبعين لم يكتف بإيراد الخصائص العامة التى يتطلبها الميثاق فى حكم الدول التى تخضع لها أقاليم أجنبية ، بل نص فى تفصيل على التزامات الدول الحاكمة فألزمها بأن تكفل تقدم هذه الشعوب فى شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم ، وأن تحميها من ضروب الإساءة ، وأن ترعى جانب

ثقافتها القومية الخاصة بها ، وأن تعمل على تنمية الحكم الذاتى فيها ، وأنظمتها السياسية الحرة ، وأن تحترم أمانيها السياسية .

وقد كان من حق بعض الدول التى عانت من الاستعمار ، أن تتوجس خيفة من العبارات التى وردت فى المادة الثالثة والسبعين بفقراتها الثلاثة ، إذ أن الحكم الذاتى مثلا ليس له حدود ولا معايير ، والأمانى القومية ، ليس لها ضابط ، مما يطلق يد الدول الاستعمارية فى الأقاليم الخاضعة لحكمها ، وقد حاول مندوب العراق أن يحل كلمة الاستقلال بدلا من كلمة الأمانى القومية ، ولكنه لم ينجح ، كما حاول مندوبو دول أخرى فى النصف الثانى من الدورة الأولى أن يستصدروا من الجمعية العامة قراراً يلزم الدول الحاكمة بعقد مؤتمرات من ممثلين منتخبين من الأقاليم المحكومة ، ولكن الدول الاستعمارية هاج هائجها ، ومسخت هذا الاقتراح إلى القرار الذى صدر فعلا والذى اكتفت الجمعية العامة فيه بالتوصية بعقد مؤتمرات من ممثلين للأقاليم منتخبين إن أمكن ، أو مختارين ، بطريقة تضمن التمثيل الشعبى إلى الحد الذى تسمح به ظروف كل إقليم .

على أن الفقرة الأخيرة من المادة الثالثة والسبعين تلزم الدول الحاكمة بأن ترسل بصفة منتظمة إلى الأمين العام البيانات الإحصائية وغيرها من البيانات الفنية المتصلة بأمور الاقتصاد والاجتماع والتعليم فى الأقاليم التى يكونون مسئولين عنها . والحق أن هذا النص يوفر لهذه الأقاليم، من الحماية أكثر مما توفره الفقرات الأربعة الأولى من المادة ، لأنه يفتح سبيل الرقابة الجدية أمام الدول الأخرى . ولو أن عجز هذه الفقرة ، تضمن عبارة (مع مراعاة القيود التى قد تستدعيها الاعتبارات المتعلقة بالأمن والاعتبارات الدستورية) ، وهى عبارة تجد فيها الدول الاستعمارية منافذ للإفلات من قبضة تلك الرقابة ، ولو أن هذه المحاولة ، تتم تحت رقابة أشد فاعلية هى رقابة قوى النضال القومى الداخلية التى تشد أزرها الدول الصديقة فى نطاق الأمم المتحدة وخارجها .

وهذا ما حدث بالفعل فإن الفقرة الأخيرة من الماده الثالثة والسبعين وإن كانت قد ألزمت الدول الحاكمة بأن تزود الأمين العام للأمم المتحدة بالبيانات والإحصاءات إلا أنها لم ترسم طريقاً للانتفاع بما يقدم منها للأمين العام ، ولذلك فقد تولت

الجمعية العامة ، سد هذه الثغرات التى تعيب النص .

فنى أول اجتماع لها كلفت الأمين العام أن يضمن تقريره السنوى العام ملخصاً للبيانات المقدمة إليه وفقاً للمادة الثالثة والسبعين ، ثم ألفت لجنة خاصة تعاونها فى بحث تلك البيانات ، وفى سنة ١٩٤٩ جعلت مدة هذه اللجنة ثلاث سنوات . وقد حاولت الدول الاستعمارية أن تسقط عن نفسها التزام تقديم البيانات المذكورة لأن الميثاق لم يتضمن تحديداً أو تعريفاً للأقاليم التى لم تبلغ بعد الحكم الذاتى ، فأصبح من حق الدول التى تدير بعض هذه الأقاليم أن تزعم أن تلك الأقاليم بلغت مرحلة الحكم الذاتى الكامل ، ولكن الجمعية العامة سدت فى وجهها باب الفرار ، وقررت أن من مسئولية الجمعية العامة أن تعبر عن رأيها فى المبادئ التى يتقرر على أساسها التزام الدول تقديم البيانات عن الأقاليم التى تديرها ، بمعنى أن الجمعية العامة هى التى تقرر ما إذا كان إقليم ما ، مما يخضع لحكم دولة أجنبية عنه ، قد بلغ الحكم الذاتى الكامل أو لم يبلغه ، مما يترتب عليه عدم تقديم البيانات عنه أو وجوب تقديمها .

وقد حاولت الدول الاستعمارية كذلك ألا تضمن بيانها الذى تقدمه للأمم المتحدة شيئاً عن النشاط السياسى وتطوره فى الأقاليم التى تديرها ، ولكن الجمعية العامة حاولت أن تلزم الدول الحاكمة أن تقدم بيانات عن التطور السياسى فى تلك الأقاليم بحجة غاية فى الوجاهة مبناها أن المادة الثالثة والسبعين تلزم الدول الحاكمة أن تعمل على إنماء الحكم الذاتى فى الأقاليم التى تديرها ، وما دام أن ذلك من التزامات تلك الدول ، فقد بات من حق الأمم المتحدة أن تراقب ما تفعله فى هذا السبيل ، ولكن النفوذ الاستعمارى الغالب ، مسخ القرار كالعادة ، فولد قاصراً على أن الجمعية العامة ترى أن تقديم البيانات اختياريا عن نمو أنظمة الحكم الذاتى مطابق لروح المادة الثالثة والسبعين من الميثاق ، لهذا ينبغى مراعاته وتشجيعه ، ولم تكتف الجمعية العامة بهذا ، بل إنها جعلت قسما خاصًّا لبيانات السياسة فى النموذج الذى أعدته للدول الحاكمة لتقدم طبقاً له ، البيانات المطلوبة منها ، وعددت الأسئلة عن هذا الجانب السياسى منها فكان منها مثلا ما يتناول نظام الانتخاب فى الإقليم ومدى مساهمة الشعب فيه ، والسلطات الحكومية ونصيب الشعب منها .

وفى سنة ١٩٤٨ ألزمت الجمعية العامة الدول بأن تحيط الأمم المتحدة بكل التطورات الدستورية التى فى الإقليم الذى تديره ، فى ظرف لا يجاوز ستة أشهر .

وقد حرصت الجمعية العامة على أن توفر للبيانات التى تصلها من الدول ، أكبر قدر ممكن من الذيوع والانتشار ، لعلمها بأن هذا الذيوع ، ينشئ ضغطاً أدبيا كبيراً على الدول المتلكئة فى منح الأقاليم التى تديرها حقوقها أو المتخلفة فى دعم قوى التطور والتقدم فيها .

* * *

كان كل ما أسلفناه من القول ، قاصراً على الأقاليم التى تديرها دول حاكمة ، من غير أهلها وهذه خاضعة لحكم المادة الثالثة والسبعين ، ولكن الأقاليم التى خضعت لوصاية الأمم المتحدة ، فقد جاء الحكم الخاص بها فى المادة السابعة والسبعين التى قسمت تلك الأقاليم إلى ثلاثة أقسام ، قسم كان خاضعاً للانتداب فى ظل عصبة الأمم ، وقسم يقتطع من دول الأعداء فى الحرب العالمية الثانية ، وقسم خاضع لحكم دولة من الدول ، وتقبل هذه الدولة أن تتنازل عن حكمه ، ليوضع تحت نظام الوصاية .

أما الدول الواقعة تحت الانتداب فقد قسمها قانون عصبة الأمم بدوره إلى ثلاث فئات ا ، ب ، حـ أما الفئة (ا) فقد كانت كلها فى البلاد العربية ، وكانت خاضعة جميعاً للدولة العثمانية وهى العراق ، وسوريا ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، وهذه أصبحت — فيما عدا فلسطين — دولاً مستقلة ، أبرمت معها بريطانيا معاهدات اعترفت لها فيها بالسيادة .

أما الفئة (ب) فتشمل أجزاءمن توجولاند ، والكاميرون ، وتنجانيقا ، بأسرها ، وهذه كانت واقعة تحت الانتداب البريطانى والأجزاء الأخرى من توجولاند والكاميرون فكانت تحت الانتداب الفرنسى ، بينما كان إقليم راوندى أورندى خاضعاً للانتداب البلجيكى ، وقد قدمت كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا اتفاقات وصاية عن هذه الأقاليم وبذلك أصبحت خاضعة لنظام الوصاية الدولى .

أما الفئة (حـ) فهى ساموا الغربية ، وكانت تحت انتداب نيوزلندا ، وغينيا وكانت تحت انتداب أستراليا ونور وكانت تحت الانتداب البريطانى عن طريق

أستراليا ، وأفريقيا الغربية الجنوبية وكانت تحت انتداب حكومة جنوب أفريقيا ، وجزائر الماريان وكارولينا ومارشال ، وكانت تحت انتداب اليابان .

وقد قدمت كل من أستراليا ونيوزلندا و بريطانيا اتفاقات وصاية عن الأقاليم التى كانت مشمولة بانتدابها ، كما قدمت الولايات المتحدة اتفاقات وصاية على الجزر التى كانت تحت الانتداب اليابانى ، بينما أصرت حكومة جنوب أفريقيا على أن أفريقيا الغربية الجنوبية جزء منها ، ورفضت كل ما أصدرته الأمم المتحدة من قرارات لا تتفق مع رغبتها هذه .

أما الأقاليم المقتطعة من دول الأعداء فقد كانت الصومال الإيطالى الذى قررت جمعية الأمم المتحدة فى الحادى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ بأن يصبح مستقلا بعد عشر سنوات من وضعه تحت الوصاية ، على أن تكون إيطاليا هى السلطة القائمة بالإدارة يعاونها فى هذا مجلس استشارى مؤلف من مندوبى كولومبيا ومصر والفلبين ؛ وينص ميثاق الأمم المتحدة على أهداف نظام الوصاية الدولى فى المادة السادسة والسبعين وهى توطيد السلم والأمن الدولى ، والعمل على تربية أهالى الأقاليم المشمولة بالوصاية فى أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتى أو الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم ، وشعوبه ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التى تعرب عنها بملء حريتها وطبقاً لما قد ينص عليه فى شروط كل اتفاق من الاتفاقات والوصايا .

فالميثاق نص هنا على أن من أهداف الوصاية هو تهيئة الإقليم المشمول بها للحكم الذاتى والاستقلال ، بينما نص فى الأقاليم المحكومة بإدارة دولة أخرى ، على أن الهدف من إدارتها مجرد تحضيرها للحكم الذاتى .

وقد تدرجت الجمعية العامة فى بسط رقابتها على إدارة الأقاليم المشمولة بالوصاية فطلبت من الأمين العام أن يضمن تقريره قسماً خاصاً عن تنفيذ السلطات القائمة بإدارة الأقاليم المشمولة بالوصاية لتوصيات المجلس الخاصة بالتدابير التى اتخذت لمنح شعوب تلك الأقاليم قدراً أكبر من الحكم الذاتى عن طريق إشراكهم فى الهيئات والإجراءات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى تلك الأقاليم .

وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على تشكيل مجلس الوصاية فى المادة السادسة والثمانين من الأعضاء الذين يتولون إدارة أقاليم مشمولة بالوصاية ، والأعضاء المذكورين بالاسم فى المادة الثالثة والعشرين (أى الخمسة الكبار) ومن العدد الذى يلزم من الأعضاء الآخرين لكفالة أن يكون جملة أعضاء مجلس الوصاية فريقين متساويين .

وقد نص على اختصاصات مجلس الوصاية فى المادتين الخامسة والثمانين والسابعة والثمانين ، وهو بمقتضى حكم هاتين المادتين يساعد الجمعية العامة فى القيام بوظائف الأمم المتحدة فيما يختص باتفاقات الوصاية وتغييرها وتعديلها ، ووسيلته إلى القيام بهذه المساعدة النظر فى التقارير التى ترفعها إليه السلطة القائمة بالإدارة فى الإقليم المشمول بالعصابة ، وقبول العرائض التى تقدم إليه من أية جهة كانت بشأن إدارة ذلك الإقليم ، وتنظيم زيارات دورية للأقاليم المشمولة بالوصاية فى أوقات يتفق عليها مع السلطة القائمة بالإدارة .

ولكل عضو فى المجلس صوت واحد ، وتصدر القرارات فيه بأغلبية الأعضاء الحاضرين والمشتركين فى التصويت .

* * *

أما محكمة العدل الدولية فقد نص الميثاق عليها ، باعتبارها فرعاً رئيسيا من فروع الأمم المتحدة فى المادة السابعة منه ، وقد أنشئ لهذه المحكمة نظام أساسى أى لائحة عمل لهذه المحكمة ، واعتبر هذا النظام الأساسى جزءًا لا يتجزء من الميثاق نفسه ، واعتبر أعضاء الأمم المتحدة أعضاء فى هذا النظام الأساسى ، وأجاز الميثاق لغير الدول الأعضاء أن يكونوا أطرافاً فى النظام الأساسى بناء على طلب يقدم من الدول الراغبة فى الانضمام ، فإذا قبلته الجمعية العامة ، فرضت على الدولة صاحبة الرغبة شروطاً تبعاً لكل حالة ، وهذه الشروط لا تخرج عن خضوع هذه الدولة لأحكام النظام الأساسى للمحكمة وقبول التزامات أعضاء الأمم المتحدة ، ودفع مبلغ كمساهمة من الدولة فى نفقات المحكمة تقدره الجمعية العامة أيضاً . ولكن المادة الرابعة والثلاثين يبيح حتى للدول غير المنضمة إلى النظام الأساسى أن تتقاضى أمام محكمة العدل ، ما دامت قد قبلت اختصاصها والاحتكام إليها كتابة .

وتتكون المحكمة من خمسة عشر عضواً لا يجوز أن يكون من بينهم قاضيان من دولة واحدة ، وهم يختارون لا بوصفهم ممثلين لدولهم ، بل لكفاياتهم الشخصية ، مع مراعاة أن يمثل هؤلاء القضاء المدنيات الكبرى والنظم القانونية الرئسية فى العالم »، والذى يختار هؤلاء القضاة هو مجلس الأمن والجمعية العامة مستقلين ، وبالأغلبية المطلقة ، ومدة عضويتهم تسع سنوات ، فإذا انقضت ثلاث سنوات ، اقترع على إخراج خمسة من هؤلاء ، ثم اقترع على إخراج خمسة آخرين بعد ست سنوات

ولا يفصل قاض من قضاة المحكمة إلا بإجماع رأى زملائه ، ومقر المحكمة هو لاهاى فى هولندا ،ومع ذلك فإنه يجوز للمحكمة أن تعقد جلساتها فى مكان آخر عند ما ترى ذلك مناسباً . وتصح جلسات المحكمة بجلوس تسعة من أعضائها ، وتصدر أحكامها بأكثرية قضاتها الحاضرين ، ويجوز لكل دولة من الدول الأعضاء ، إذا رفعت نزاعاً إلى المحكمة ، ولم يكن من بين قضاتها ، قاض ينتسب إلى تلك الدولة ، أن يعين من أبنائها قاض تختاره يجلس مع قضاتها حتى يفصل فى النزاع . وتضع المحكمة لائحة تنظم كيفية قيامها بعملها ، وقواعد الإجراءات أمامها (١) .

وللمحكمة اختصاصان ، اختصاص القضاء ، واختصاص الإفتاء .

ويدخل فى الاختصاص الأول ، حسب المادة الثامنة والثلاثين من النظام الأساسى ، نوعان : اختصاص اختيارى أو ولاية اختيارية ، واختصاص جبرى .

أما الاختصاص الاختيارى فمنشؤه : إما اتفاقات خاصة ، وإما معاهدات عامة ، وإما ارتضاء طرفى النزاع طرح النزاع الناشب بينهما على المحكمة . فالاتفاقات الخاصة هى المعاهدات التى تبرمها دولتان أو أكثر ، وتقرران فيها أن النزاع الناشئ حول موضوع الاتفاقية ، يعرض على محكمة العدل الدولية ، أو الاتفاقات العامة ، هى المعاهدات الدولية ، ومنها الاتفاقيات المؤسسة للوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة ، كهيئة العمل الدولى ، وهيئة الأغذية والزراعة ،

---

(١) الأمم المتحدة ص ٢٣٧ .

وهيئة الطيران المدنى الدولية ، وهيئة التربية والتعليم والثقافة (اليونسكو) ، وهيئة اللاجئين الدولية ، وهيئة الصحة العالمية .

والضرب الثالث من الاختصاص الاختيارى هو الاختصاص الناشئ من اتفاق طرفى نزاع دولى،لم تكن بينهما من قبل معاهدة محددة لجهة يطرح عليها النزاع — على قبول اختصاص محكمة العدل الدولية .

ومحكمة العدل الدولية ، هى الوريثة لمحكمة العدل الدائمة التى أنشأها ميثاق عصبة الأمم ، فكل اتفاق خاص أو عام على الاحتكام للمحكمة الثانية ، يعتبر اتفاقاً على قبول اختصاص المحكمة الأولى .

أما الولاية الجبرية ، أو الاختصاص الجبرى ، فأساسه نص المادة السادسة والثلاثين، التى تجرى الفقرة الثانية منها، بأن الدول الأطراف فى النظام الأساسى لمحكمة العدل ، تعترف باختصاص المحكمة بنظر جميع المنازعات الدولية ذات الطابع القانونى ، التى تقوم بين هؤلاء الأطراف ، متى كان موضوع هذه المنازعات تفسير المعاهدات الدولية ، أو أية مسألة من مسائل القانون الدولى ، وتحقيق واقعة من الوقائع التى إذا ثبتت كانت خرقاً للالتزام الدولى ، نوع التعويض المترتب على خرق التزام دولى ومدى هذا التعويض (١)

وأحكام المحكمة واجبة التنفيذ ضد الدول التى قبلت ولاية المحكمة . ومع ذلك فإنه إذا ما رفضت الدولة المحكوم ضدها تنفيذ الحكم ، لم يكن فى الوسع تنفيذه جبراً ، ولذلك نصت الفقرة الثانية من المادة الرابعة والتسعين على أنه يحق للدولة المحكوم لصالحها فى حالة امتناع الدولة المحكوم ضدها عن تنفيذ الحكم ، أن تلجأ إلى مجلس الأمن لإصدار ما يراه من التوصيات ، أو لإصدار قرار بالتدابير التى يرى وجوب اتخاذها ، وربما يكون فى المستقبل ممكناً تعديل الميثاق ، بحيث تفرض آلياً على الدولة غرامات مالية ، وعقوبات ، من مثل حرمانها من التصويت فى الجمعية العامة أو اشتراكها فى عضوية مجلس الأمن ، أو انتخابها فى الفروع الرئيسية للأمم المتحدة ، ذلك لأن إمكان تنفيذ أحكام محكمة العدل ، يعد خطوة

(١) الأمم المتحدة ص ٢٤٠ .

كبيرة فى إنشاء الجماعة الدولية التى ترتضى حكم القانون ، وتنزل على مقتضاه فى منازعاتها مع باقى شقيقاتها .

* * *

أما اختصاص الإفتاء ، فسنده نص المادتين الخامسة والستين من نظام المحكمة الأساسى ، والمادة السادسة والتسعين من الميثاق ، فإن الأولى تنشئ للمحكمة الحق فى أن تفتى فى أية مسألة قانونية بناء على طلب أية هيئة رخص لها ميثاق الأمم المتحدة فى استفتاء المحكمة ، أو حصلت على هذا الترخيص بناء على أحكام الميثاق ، أى بقرار من الجمعية العامة ، أو مجلس الأمن .

أما المادة السادسة والتسعون فتنص على أنه للجمعية العامة ومجلس الأمن أن يطلب إلى محكمة العدل الدولية إفتاءه فى أية مسألة قانونية

وفتاوى المحكمة هى آراء قانونية تبديها فى المسائل المعروضة عليها ، دون أن يكون ثمة إلزام على الهيئة طالبة الفتوى بالنزول على مقتضاها .

* * *

وتقيم محكمة العدل أحكامها ، وفتاواها ، على المعاهدات الدولية العامة والخاصة التى تضع قواعد معترفاً بها صراحة من جانب الدول المتنازعة ، والعادات الدولية المرعية المعتبرة بمثابة قانون دل عليه تواتر الاستعمال ومبادئ القانون العامة التى أقرتها الأمم المتمدنة .

* * *

والذى نستطيع أن نقوله فى شأن محكمة العدل الدولية ، أن المجال الذى خصص لها لا يزال ضيقاً ، والدور الذى لعبته حتى الآن دور صغير ، ولعله ليس من حقنا أن نؤمل فى أن نرى نمواً وتوسعاً سريعين فى اختصاص المحكمة الجبرى والاختيارى وأن تقوم إلى جانبها أداة قانونية ، فتنهض بمثل العبء الذى تقوم به النيابة المدنية لدى محكمة النقض فى بلادنا ، فتعرض هذه النيابة ومن تلقاء نفسها على المحكمة وعلى سبيل الوجوب كل نزاع دولى ، له جانب قانونى ، ولو لمجرد دراسته ، وتبيين أسبابه ، والتوصية أو الإفتاء أو الحكم بما يقضى به القانون . فإن مناط

تحقيق مثل هذه الآمال ، أن يزداد التفاهم بين المعسكرات الكبرى التى انقسمت إليها الجماعة الإنسانية ، وذلك بتناقص استرابة وتوجس كل منهما من الآخر .

ولسنا نحب أن نطيل الكلام فى الأمانة العامة فهى الجهاز الذى يقوم بأعمال الأمم المتحدة الإدارية والكتابية ، والذى يرأسه الأمين العام حسبما تقضى به المادة السابعة والتسعون من الميثاق، والأمين العام هو الذى يتولى تعيين موظفى الأمم المتحدة طبقاً للوائح التى تضعها الجمعية العامة . وقد عين أول أمين عام للأمم المتحدة فى أول فبراير سنة ١٩٤٦ ، ووقع اختيار الجمعية العامة على تريجفى لى وهو وزير خارجية سابق ، وقد قضى قرار الجمعية باختياره ، بتحديد خمس سنوات مدة لخدمته ، ولا يعتبر قرار الجمعية نافذاً إلا إذا أقره مجلس الأمن بأغلبية سبعة من أعضائه فيهم الخمسة الكبار ، وفى أول نوفمبر سنة ١٩٥٠ تقرر مد مدة خدمة تريجفى لى لمدة ثلاث سنوات لا خمسة نظراً للخلاف الذى ثار حوله ، ثم انتخب السيد همرشولد فى سنة ١٩٥٣ وبقى شاغلاً لمنصبه حتى لقى حتفه فى الكونغو فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٦١ ثم انتخب يوثانت بعد أن قام بأعمال الأمين العام بصفة مؤقتة السيد منجى سليم وزير خارجية تونس وأولهما أسيوى وثانيهما إفريقى .

واختصاص الأمين العام السياسى ، هو الذى يهمنا هنا ، وهو اختصاص كبير ، إذ أن له بنص المادة التاسعة والتسعين أن ينبه مجلس الأمن إلى أية مسألة يرى أنها قد تهدد حفظ السلم والأمن الدولى .

والأمين العام ، هو الذى يتلقى المعاهدات المبرمة بين أعضاء الأمم المتحدة ، فيتولى تسجيلها وما لم تسجل عنده ، لا يجوز لأى طرف من أطراف المعاهدة أن يتمسك بها .

الفصل السادس

الأمم المتحدة فى العمل

الأمم المتحدة هى ثمرة تجارب الإنسان المريرة على مدى الأجيال والحقب ، وقد خرجت من بين أنقاض وحطام مئات أو ألوف المدن ، فحملت آثار ما أصاب البشرية من قتل وتشويه ، وما شملها من خوف وحقد وحسد ، وما منيت به آمالها من خيبة وهزيمة وفشل ، فهى ليست بناء أفلاطونيًّا ، نظم أسسه وأرسى قواعده ، وبنى حجراته وقاعاته ، كاتب حالم ، يفكر بلا قيد ولا شرط ، ويتطوح مع الخيال كما شاء ذاهباً آيباً ، صاعداً هابطاً ، فهى صورة من الواقع بكل قبحه وبكل الأمل فى تحسينه وتطويره والارتفاع به عن حكم الزمن الذى ولدت فيه .

ولذا كان الطابع الأساسى فى بناء الأمم المتحدة هو طابع التشكك المتبادل بين الدول الكبرى ، وطابع توقع ميلاد قوى جديدة ، أخذت على عاتقها أن تشق طرقها إلى هذه الأمم المتحدة ، وأن تأخذ مكانها فيها ، وطابع إدراك أن الصراع القادم ، إذا سمح له بالانفجار ، سيكون مدمراً بلا حساب ، آخذاً بخناق المنتصر بمثل ما سيأخذ به خناق المنهزم .

وبهذه السمات ذهبت الأمم المتحدة تدرج فى الحياة ، تتعثر وتهتز ، وتسير وتقف .

ولما كنا لا نحب أن نسترسل مع هذا التيار المجرد من التأملات التى تكاد تكون تصوفاً سياسيًّا ، فنحن لا نرى سبيلا مأموناً للخروج منها إلا أن نضع أمثلة للعمل الذى مارسته الأمم المتحدة لنحكم عليه وعليها معاً . وسنختار هذه الأمثلة من واقعنا نحن ، المصريين والعرب ، أو نحن المصريين بصفتنا شعبة من العرب ، وجزاًء من أمتهم الكبرى .

والمثل الأول : الأمم المتحدة وإسرائيل .

والثانى : الأمم المتحدة وتأميم قناة السويس .

الأمم المتحدة وإسرائيل

انعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وهى لا تزال وليداً ينتفض بحرارة الدماء الأولى التى تتدفق فى شرايينه وعروقه الغضة ، مرتين ، فى اجتماع خاص ، غير اجتماعها الدورى الذى ينعقد فى الثلاثاء الأول من سبتمبر من كل سنة ، وكان الاجتماع الأول فى الثامن والعشرين من أبريل سنة ١٩٤٧ وكان الاجتماع الثانى فى السادس من أبريل سنة ١٩٤٨ ، وقد عقد هذان الاجتماعان بغرض واحد ، هو بحث مشكلة فلسطين .

وفى الاجتماع الأول قررت الجمعية العامة تشكيل لجنة خاصة تعد بحثاً تمهيدياً لنظره فى دور الانعقاد العادى الثانى ، وكان الانعقاد الثانى الخاص غير الدورى ، بقصد اقتراح ما يجب اتخاذه بعد أن ثبت أن قرار تقسيم فلسطين ، أو تمزيقها ، بين اليهود والعرب حسب قرارها الصادر فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ لا يمكن تنفيذه سلمياً ، وأن سبيل فرضه على أهل البلاد الأصلاء ، ولحساب الطامعين الدخلاء ، هو القوة والقهر والإبادة .

وقد انتهى الأمر بالجمعية العامة للأمم المتحدة ، وهى برلمان الشعوب ، الذى كان يتمرد على سلطة مجلس الأمن ، فى موضوع فلسطين إلى التوصية بإقرار مشروع التقسيم ، ثم لما تبينت أنها لا تملك حجة واحدة تقنع بها أصحاب البلاد أن يقبلوا تقطيع أوصال وطنهم بلا مقتض ولا موجب ، وأن ليس فى الميثاق روحاً أو نصاً ، ما يجيز هذا الحل أو يرتضيه ، فإنها لم تعدل عن هذ القرار ، بل ذهبت فى عناد إلى حد طلبها من مجلس الأمن أن يتخذ التدابير اللازمة لتنفيذ مشروع التقسيم ، فإذ رفض أهل فلسطين أن يسلموا أعناقهم لنطع الجلاد ، اعتبر أى شىء من قبيل محاولة تغيير القرار أو مقاومته انتهاكاً للسلام ، فطفح الغضب عند مندوب كوبا فصرخ : « إن إصدار توصية بمقتضى المادتين العاشرة والحادية عشرة أمر مختلف كل الاختلاف عن تقرير خطة تؤثر فى سلامة أراضى شعب ومركزه القانونى والسياسى . إن هذه ليست توصية ، إذ التوصية يجوز رفضها ؛ أما الخطة المعروضة

فذات طابع إلزامى واضح ، إذ يقضى أحد نصوصها بأن تعتبر أية محاولة لتغييرها تهديداً للسلم أو عملا عدوانياً تطبيقاً للمادة التاسعة والثلاثين من الميثاق »

والمضحك والمبكى معاً ، أن مجلس الأمن الذى طلبت إليه الجمعية العامة أن يتخذ التدابير اللازمة لتنفيذه ، هو نفسه ، الذى كان قد أحال مشكلة فلسطين إليها فى أول أبريل سنة ١٩٤٨ عندما تبين أنه لا يملك أن ينفذ اقتراح تقسيم فلسطين عنوة واقتداراً ، وبهذا تكون قضية فلسطين ، قد تقاذفها المجلس والجمعية العامة ، كالكرة . .

ولم تكن المشكلة التى عرضت على المجلس والجمعية العامة للأمم المتحدة تحت اسم مشكلة فلسطين إلا المرحلة الأخيرة لمشكلة قديمة ، صاحبت تاريخ الإنسانية ، حقبة بعد حقبة ، وجيلا بعد جيل ، وخلقت للناس وللدول فى مختلف العصور ، أزمات ، تطورت فى الكثير من الأحوال إلى حروب . ولم تكن هذه المشكلة سوى مشكلة الإسرائيليين منذ فقدوا دولتيهم على التعاقب فى سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ، ثم فى ٧٠ قبل الميلاد على يد الأشوريين والبابليين ، ثم على يد الإمبراطورية الرومانية .

ويرد الكاتب اليهودى ليليانتول Lilienthal فى كتابه ثمن إسرائيل What Price Israel المشكلة إلى أصلها القديم فيقول ما معناه : إن مشكلة إسرائيل هى ثمرة المركب المعروف « شعب الله المختار » [1] ففريق من اليهود يعتقد أن بنى إسرائيل ليسوا بشراً كسائر البشر ، بل هم طائفة مصطفاة لتؤدى دوراً خاصاً بها لا يقوى على النهوض به والارتفاع إلى مستواه سواها .

وهو يروى قصتهم فى كتابه لا كما يرويها رجال السياسة ، إذ يرجع بالقصة إلى سنة ٧٢٠ قبل الميلاد حينما اكتسح الأشوريون دولة اليهود ، فقامت دولتهم الثانية ليكتسحها الرومان فى السنة السبعين قبل المسيح . فكتب شاعر مجهول المزمور السابع والثلاثين بعد المائة ، الذى تغنى فيه بصهيون قائلا :

« على شواطئ أنهار بابل جلسنا ، ولكنا سفكنا الدمع حينما تذكرنا صهيون ،
« فأنى لنا أن نغنى فى أرض غير أرضنا ، فلتشل يدى اليمنى إذن إذا أنا نسيتك
« يا أورشليم » .

---

(١) هذا الشرق العربى للمؤلف .

« وليلتصق لساني بحلقي إذا عفى النسيان على اسمك فى ذاكرتى ، أو إذا أنا لم
« أعل بك يا أورشليم فوق أعظم أفراحى » .

فتعلق بهذا المزمور، وعاش عليه أقوام من اليهود أرادوا أن يجعلوا من ذكريات ماض مندثر أسواراً تحول دون أن يعيشوا مع الناس ، كما يعيش الناس مع بعضهم بعضاً ، أما اليهود الذين يطيب لهم أن يسايروا الحياة ، وأن يستقبلوا ما تأتى به بلا تحجر أو تصلب ، فيذكرون ما خاطب به النبي أرميا اليهود حينما قادهم بوختنصر مأسورين إلى بابل فقد قال لهم :

« شيدوا بيوتاً ، واسكنوا فيها ، وازرعوا حدائق وكلوا منها الطيبات ، وابنوا بالنساء
« وأنجبوا البنين والبنات ، وابحثوا عن سلام المدينة التى حملتكم بعيداً إليها فى
« الأسر ، وصلوا لإله هذه المدينة لأنه إذا ساد السلام فستنالون أنتم السلام ».

ويقول ليليانتول إنه بقى فى تاريخ اليهود هذان المذهبان المتعارضان : مذهب شعب الله المختار ، يعارض مذهب الإنسانية الشاملة ، ومدرسة الإيمان بالشعب اليهودى تعارض مدرسة الإيمان بالعقيدة السماوية ، ومبدأ التمييز والانعزال ، يعارض مبدأ الاندماج والانسجام .

لقد اعترض سبيل حياة اليهود الروحية والدنيوية ، منذ فقدوا سلطانهم السياسى هذا (المركب) الذى خلطوا فيه الدين بالسياسة ، وأولوا فيه نصاً دينياً على الوجه الذى يتفق مع أغراضهم الدنيوية ، فصوروا العودة إلى صهيون كهدف دينى استحثاثاً للجهود السياسية الرامية إلى إعادة المجد السياسى الذى انهار أمام تيار الصراع السياسى البحت . فالتوراة لا تذكر عن صهيون أكثر مما ورد فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين ونص ذلك : « وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته فى مغارة حقل المكفيلة أمام ممرا التى هى حبرون فى أرض كنعان فوجب الحقل والمغارة التى فيه لإبراهيم تلك ، قبر من عند بنى حث » .

ومضت القرون وليس لصهيون ولا لبيت المقدس قداسة خاصة أو كرامة مميزة فإن الملك يهواش ملك إسرائيل أغار على بيت المقدس أو على الهيكل الذى أقامه فيها سليمان ، وعاد إلى السامرة وقد حمل معه من تحف الهيكل كل ما استطاع أن يحمل.

وقد كان لابد لهذا الانعزال القديم ، من فلسفة تفسره فى أطواره الحديثة ،

لا سيما بعد أن بدت ملامح الحركات القومية ، وأخذت أوربا تتحول إلى دول ، وقد كانت أولى هذه المحاولات كتاب موسى هس عن رومة وأورشليم الصادر فى سنة ١٨٦٢ ، والذى ذهب فيه إلى أن اليهودية فى حاجة إلى مركز يلعب الدور الذى تلعبه رومة وكنيستها فى حياة الكاثوليك . وقد وقع اختياره على أورشليم ، وفى سنة ١٨٨٢ أصدر ليوبنسكر كتاباً بعنوان التحرر الذاتى ، قرر فيه أن اليهود يعيشون مع أقوام لا يستطيعون الاندماج فيهم ، كما تعجز تلك الأقوام عن هضمهم ، لأن اليهود عنصر ممتاز ، ولذلك لابد لهم من وطن خاص بهم .

ولا نستطيع أن نفهم كيف التهبت هذه الفكرة وأصبحت محوراً من محاور السياسة العالمية ، إلا إذا تذكرنا أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قد شهدا أضخم انقلاب عرفته الإنسانية منذ كشفت النار وعرفت المركب ذا الشراع ، فقد انفجرت قوة البخار ، ثم ولد القطار فالباخرة ، واتسع استعمال البارود وأصبح فى مقدور الدول الغنية أن تغزو أراضى تزيد عن مساحتها هى ، أضعافاً مضاعفة ، ويسكنها من البشر أكثر مما يسكن أرض الدولة الغازية بكثير ، ففتحت هذه الدول بالفعل الأسواق الفسيحة فى بلاد الشرق فاستيقظت الرأسمالية اليهودية على هذا كله ، وأدركت بخبرتها فى إدارة المال ، واستثماره ، معانيه . وكان نابليون قد أسال لعاب اليهود إذ أذاع بياناً نشر فى الجريدة الرسمية للدولة ، وهو يتهيأ لغزو مصر ، وقد دعا فى هذا البيان اليهود ليوافوه ، بمصر ، ليدخلوا مع جيشه إلى أورشليم ، وكان مجرد تفكير نابليون فى هذه الغزوة كافيا لإثارة المطامع ، لذلك جاءت رسالة الصحفى النمساوى هرتزل فى موعدها .

ويزعم بعض مؤرخى تيودور هرتزل أن ما أوحى إليه ، بفكرة هذه الرسالة ، التى لم تتجاوز صفحاتها اثنتى عشرة صفحة ، أنه شاهد تنفيذ الحكم فى الضابط اليهودى الفرنسى (دريفوس) الذى اتهم فى أخريات القرن التاسع عشر بأنه ارتكب جريمة الخيانة العظمى بإفشائه أسراراً حربية أؤتمن عليها بحكم عمله ، وقد انقسم الرأى العام الفرنسى بسبب قضية (دريفوس) هذه إلى معسكرين ، وكان أحدهما يؤمن ببراءته ، وأن إلصاق التهم به كان لمجرد كونه يهودياً ، بينما كان المعسكر الثانى مؤمناً بارتكابه

الجريمة ، وأن يهوديته ليست الباعث على اتهامه ، بل الباعث له على إجرامه ، لأنه لا يشعر بالولاء إلى فرنسا ، التى ينتسب إلى أرضها .

فادعاء أن هرتزل أوحى إليه بفكرة الدولة اليهودية ، وهو يرى تجريد دريفوس من شاراته العسكرية ، ثم وهو يسمعه صارخاً «أنا برىء» ، وقد شحب وجهه ، أمر لا يصدقه عقل ، فقد كان هرتزل صحفياً ناجحاً ومحبوباً فى النمسا ، بل كان صحفياً مسموع الكلمة ، وقد وصف زفايج كيف سعى إليه فى مكتبه لينشر مقالا أدبياً ، فاستقبله هرتزل فى مكتبه ، ثم قرأ مقاله فلما نطق بقرار الموافقة على نشرها ، كان شعور زفايج آنذاك ، على حد تعبيره هو ، كشعور الفارس والإمبراطور نابليون الأول ، يعلق على صدره وسام الشرف . فهرتزل إذن ، كان لا يعانى اضطهاداً ولا حرماناً ، ويهوديته لم تحل بينه وبين أن يرتفع مقامه فى المجتمع الناطق باللغة الألمانية فى كل من النمسا وألمانيا ، فإذا كان دريفوس ، وهو يهودى واحد ، قد مر فى محنة ، فملايين من اليهود فى وسط أوربا ، وغربها كانوا كأسعد ما يكونون : رغد عيش ، وعلو كلمة ، واتساع نفوذ . ومع ذلك ماذا كان من أمر دريفوس ، لقد انقسمت فرنسا من أجله وخرج كتاب كبار مثل إميل زولا ، وأناتول فرانس ، يدافعون عنه ، ويثبتون براءته ، ويتحدون السلطات من أجله ، ونهض سياسيون مثل كليمنصو ، يبذلون الجهد والوقت ، ليعيدوا إلى دريفوس شرفه ، ويردوا إليه اعتباره . و«هرتزل» آخر الأمر رجل يعرف ما السياسة ، وما حيلها ، ويعرف كيف تقتضى المناورات الحزبية ، اتهام الأبرياء ، وتلطيخ سمعة الشرفاء ، والتجنى على الخصوم .

بل إنه يعرف بحكم ثقافته ومطالعاته ، أن ما من قضية سياسية إلا وحولها من الكذب والافتراء ، أكثر مما فيها من حق وصدق . والتاريخ يذكر لنا مثلا أن بعد مقتل أبراهام لنكولن ، سيق إلى قفص الاتهام من لا يد لهم فى قتله ، بل إن التاريخ الحديث جداً ، يروى لنا كيف تكاثفت السحب حول مقتل كنيدى فلم يعرف من قاتله ، والقتيل هو أكبر الكبار فى بلده وحكومته ، فذهبت الناس مذاهب شتى فى الجماعة أو الجماعات التى دبرت القتل . فالجرائم السياسية ، يطيش فيها الصواب ، وتضطرب بسببها الأهواء ، فلا يسوغ أن يتخذ مما يحدث

فيها دليلا على قيام قاعدة يقاس عليها ، ويحكم بها .

لذلك كان من الواجب أن تبحث الرأسمالية اليهودية احتمالات المستقبل البعيد ، وكانت هذه الاحتمالات تؤكد أهمية منطقة الشرق الأوسط للإمبراطوريات الاستعمارية ، وقد كانت هذه المنطقة محل الاهتمام منذ نهاية القرن التاسع عشر فقد كان استقلال على بك الكبير فى مصر ، داعياً لإثارة اهتمام روسيا وبريطانيا بمصر وسوريا وفلسطين ، ثم حاول نابليون أن يضع يده على مصر وفلسطين سنة ١٧٩٨ ، توطئة لضرب الإمبراطورية البريطانية فى الهند والشرق البعيد ، ولما خرج نابليون من مصر سنة ١٨٠٠ بعد أن فشل فى الاستيلاء على فلسطين ، حاولت بريطانيا سنة ١٨٠٧ أن تستولى على مصر ، لولا قيام دولة محمد على . فهذه البقعة من العالم شديدة الجاذبية ، وأهميتها السياسية فى غير حاجة إلى بعد نظر ، لإدراك خطر دورها دولياً .

وقد جد عامل جديد ، كان يجب أن يدخل فى حساب الرأسمالية الاستعمارية التى هى رأسمالية يهودية ، وهو أن إمبراطورية الأتراك بدأت تتداعى تحت ضربات الزمن الطويل ، وجزر موجة الفتح التى منحتها القوة والتماسك ، ومد الحركات القومية داخل الإمبراطورية التى جمعت خليطاً متنافراً ، من الشعوب والأمم : شرقية وغربية ، مسيحية وإسلامية ، كاثوليكية وأرثوذكسية ، مؤيدة حيناً من قياصرة الروس ، ومؤيدة حيناً آخر بإمبراطوريات الغرب . وقد كان واضحاً أن الجناح الشرقى فى الإمبراطورية التركية ، هو جناح الشعوب العربية ، وكان واضحاً كذلك ، أن نهضة هذه الشعوب سيؤدى إلى اتحادها ، واتحادها سيؤدى إلى قوتها ، وقوتها ستفضى إلى تملك هذا الجانب الحيوى الحساس فى العالم . والدولة العربية التى ستقوم فى هذا الجانب لن تكون موالية مطلقاً للاستعمارية اليهودية ، لأنها ستقوم لحماية مصالح شعبها الذى حرم طويلا فى ظل الإمبراطورية العثمانية التركية ، فضرب هذه القوة التى تتحرك كالجنين فى بطن الغيب : أمر يحتمه بعد النظر ، والتلكؤ فى ذلك ضار غاية الضرر . ومما يدعو إلى سرعة العمل ، هو أن الشرق العربى ، هو بذاته جناح أيمن للعالم العربى الذى يمتد حتى يصل إلى المحيط . وإن كان الخوف من اجتماع الجناحين عند القلب العظيم مصر ، بدا احتمالا بعيداً

فى ذلك الحين ، إلا أنه احتمال يجب أن يحسب حسابه .

فالأسباب والدواعى كلها تحتم أن تقوم فى هذا الركن الحساس من العالم ، دولة من صنع الرأسمالية اليهودية ، ولحسن الحظ ، حظ تلك الرأسمالية هناك ما يمكن الاعتماد عليه ، واستغلاله فى وضع الأساس الروحى لتلك الدولة حتى لا تبدو عملا مصطنعاً ظاهر الزيف . وهذا الأساس الروحى ، هو أمل الحلم الضعيف الغامض الذى يساور بعض زعماء اليهود وأحبارهم وهم وراء (الجيتو) فى البلاد التى يعيشون فيها ، فى ظل حكم أرستقراطى استبدادى يبطش بكل شىء ، وبكل الناس . حلم هؤلاء فى أن يعودوا إلى (صهيون) . فما المانع فى أن يتقد هذا الحلم ، بعد أن بردت حرارته على مر العصور ، وأصبح خاطراً غيبياً من قبيل أحلام اليقظة ، والأشواق الروحية إلى الجنة ؟ والواقع أنه لا مانع فالإمبراطورية التركية صاحبة الولاية على فلسطين تزداد على الأيام شيخوخة وضعفاً ، والعالم العربى لا يزال مبعثراً ، غافياً ، والكلمة فى العالم للحكومات الاستعمارية اليهودية فى الغرب . .

وهكذا ، سارت الحوادث فى الاتجاه الذى أرادته تلك الاستعمارية ، فى بطء وحذر ، ولكن فى ثقة واطمئنان ، وقد بدأ الرأسماليون اليهود ، فى شراء الأراضى فى فلسطين ، وإنشاء مستعمرات يهودية هناك ، وقد كان من أهم الذين اشتركوا فى هذه الخطوات التمهيدية اللورد روتشيلد نفسه ، زعيم تلك الاستعمارية اليهودية المجترئة ، وهو نفسه الذى مول أول خطوة استعمارية لبريطانيا فى مصر ، حينما أقرض ابن جلدته ، اللورد دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا ، أربعة ملايين جنيه ليشترى بها أسهم الخديو فى شركة قناة السويس البالغ قدرها نحو ١٧٦ ألفاً من الأسهم ، وهى الصفقة التى جعلت بريطانيا أكثر اهتماماً بمصر فأصبح فى الميسور دفع الأداة الحكومية فى بريطانيا ، فى الاتجاه الذى تطمع فيه الاستعمارية اليهودية ، وهو إنشاء إمبراطورية بريطانية جديدة فى العالم العربى ، تكون مصر قاعدته ، وواسطة العقد فيه ثم يقع الامتداد من هذه القاعدة إلى الشرق — فلسطين وسوريا والعراق — وإلى الجنوب السودان ، وإلى الغرب ليبيا ، وبذلك تكبل حركات التحرر فى هذه المنطقة ، ويعطل النمو فيها ، والتقدم ، ويحجب عن حركات القومية فى الشرق البعيد ، والشرق الإسلامى خاصة ، ما تشعه مصر عادة فى هذا المجال البعيد والقريب من قوة إثارة وتحريك ودفع .

ولذلك كانت أخريات القرن التاسع عشر ، هي أصلح الأوقات ، للاستعمارية اليهودية ، لتبث فيه فكرة الوطن القومي اليهودي ، فهي منقطعة الصلة تماماً عما ألف اليهود من مواجهته واحتماله من مهانات وتحقير العالم الغربي والمسيحي ، خصوصاً في الجانب الشرقي من أوربا ، إذا أنه في هذ الوقت بالذات ، كان اليهود في غرب أوربا ، بدأوا يتمتعون بمساواة مع غيرهم من المسيحيين وقد خجل الصهيونيون فعلا من أن يتحدوا هذا الاتجاه التحرري الذي أخذوا ينعمون بخيراته ونعمه ، فلم يعلنوا في مؤتمرهم الأول الذي عقد في بال أنهم ينتوون إنشاء دولة لليهود ، بل اكتفوا بالقول بأنهم يريدون إنشاء وطن قومي لليهود فوراً ، ومع تواضع هذه الدعوة التي بدأت على استحياء ، فإن فريقاً كبيراً من اليهود ، الذين لم تجرفهم التيارات التوسعية الاستعمارية للزعامة اليهودية التي تمسك بيدها زمام الرأسمالية التي زادت مع الأيام قوة وغنى ونفوذاً — هذا الفريق قرر في مؤتمر انعقد في بطرسبرج سنة ١٨٨٥ ما يلي :

« نحن نقرر أننا لم نعد شعباً ، فلسنا سوى طائفة دينية ، ولذلك فنحن لا ننتظر العودة إلى فلسطين ، ولا إقامة قانون خاص بالدولة اليهودية »

ولكن زعامة اليهودية الاستعمارية ، أحسنت استغلال روح (الجيتو) في العناصر المنعزلة من الشعب اليهودي ، وأضفت على أطماعها التوسعية ، وعلى خططها الإمبراطورية ، ثوب الدين ، لتكسب هي ، وتزداد نفوذاً ، وسلطاناً ، وثروة ، ولترضي أسوأ ما في نفوس فريق (الجيتو) من غرائز ، وكانت الحرب العالمية الأولى فرصة ذهبية لهذا الفريق الاستعماري البارع .

فقد مر الحلفاء (بريطانيا وفرنسا ثم أمريكا) في فترات رهيبة من اليأس بعد فشل عسكري متكرر ، ولذلك كانوا في حاجة إلى أنصار من كل لون . ولذلك اتجهوا إلى العرب ، وأخذوا يمنونهم بتأييد قضية تحررهم من الدولة العثمانية ، وفي نفس الوقت ، أدرك اليهود ، أن الفرصة متاحة لهم ليجذبوا الحلفاء من ذراعهم . وكان على رأس اليهود في لندن في تلك الآونة ، (وايزمان) وهو عالم كيماوي ، علم عن طريق اتصالاته اليهودية ، بأن الحكومة البريطانية تحاول أن تتوصل إلى طريقة لإنتاج مادة الأسيتون بسعر رخيص لإنتاج المفرقعات بكميات كبيرة ، فاقترح

أصحاب وايزمان على لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، أن ينتفع بخبرة وايزمان فى هذه الأبحاث . وكان وايزمان تواقاً ليخطو هذه الخطوة ، لأنه كان متوقعاً من أنه سيكون قادراً بعدها ، على أن ينشر شباكه السياسية ، وهو مستخف فى ثوب عالم يخدم المجهود الحربى البريطانى ، ويساعد الحرب القومية ، فى أحلك أزمات الشعب . وقد تحقق تقديره ، فقد وضع فى مكان ذى خطر فى البحرية البريطانية ، ومن هناك ، أخذ يسلط تأثيره ، على الحكومه البريطانية شيئاً فشيئاً ،وقبل أن تبلغ الحرب نهايتها ، كانت الدائرة العاطفة على فكرة الوطن القومى اليهودى قد اتسعت فى الحكومة البريطانية ، فتيسر أن يصدر وعد بلفور فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ . وكان بلفور هذا ، هو أحد الذين ضغطوا على لويد جورج رئيس الوزراء ، ليضع (وايزمان) فى فريق أبحاث البريطانيين . .

ولقد أبت الظروف إلا أن تحيط التصريح بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين بالأضواء التى تبين طبيعته ، وتبرز جوهره ، فالخطاب المتضمن هذا التصريح صادر من وزير خارجية بريطانيا ، إلى زعيم الرأسمالية اليهودية اللورد روتشيلد ، فبريطانيا لم توجه خطابها إلى حبر من أحبار اليهود ، ولا إلى زعيم من زعماء الفكر عندهم ، إنما وجهته إلى روتشيلد أغنى أغنياء اليهود ، فالدولة اليهودية ليست فى واقع الأمر ، إلا واحدة من مشروعات الاستثمار والتوسع والفتح ، وهى تأييد للجهد الاستعمارى السابق عليها ، وضمان لما يأتى به الزمان من مجالات جديدة لهذا الجهد ذاته .

قال اللورد بلفور :

« عزيزى اللورد روتشيلد .

يسرنى جداً أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك بالتصريح التالى ، تصريح العطف بإقامة وطن قومى فى فلسطين لليهود ، وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ، على أن يفهم جليا أنه لا يجوز عمل شىء يغير الحقوق المدنية الدينية للطوائف غير اليهودية ، فى فلسطين ، ولا الحقوق ، ولا المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلاد غيرها »

وقد يكون من نافلة القول — بعد مضى السنين الطويلة ، على صدور هذا

التصريح ، وبعد كل ما كتب عنه – أن نقول إن هذا التصريح لا قيمة له من الناحية القانونية ، والدولية ، فبريطانيا وقتذاك لم تكن تملك سلطاناً – ولو على سبيل الغصب على فلسطين – وهى لم تملك هذا السلطان حتى بعد أن دخلت جيوش اللورد للنبى القدس وأراضى فلسطين . ثم من هو روتشيلد ، هذا الذى يمكن أن يكون طرفاً ثانياً فى عقد ، تنتزع به أرض دولة وحقوق شعب من الأصحاب الحقيقيين للدولة وللأرض لتمنح له ؟ . .

ولما كان البريطانيون قد دخلوا فى مفاوضات مع الشريف حسين بن على أمير الحجاز ، وعدوه فيها باستقلال البلاد العربية ، وكان الكشف عن كل هذه المحاولات المتعارضة يحتاج إلى كلام – أى كلام – لتفسير ما يبدو غامضاً أو متناقضاً بين الوعد المبذول للشريف حسين ، واللورد روتشيلد . فقد توالى صدور التفسيرات من جانب الحكومة البريطانية ، وكان أول من تولى التفسير بلفور نفسه ؛ فقد قال : إن الوطن القومى يعنى شكلا من حماية بريطانية أو أمريكية أو غيرهما بقصد منح اليهود مركزاً لثقافتهم القومية ، أما الصورة النهائية للحكم فى فلسطين ، فإنه سيكون محلا لتطور تدريجى يتم تبعاً لقانون التطور السياسى » .

وفى سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض تضمن تصريحاً لمستر تشرشل وزير المستعمرات فى ذلك الحين وقد جاء فى هذا التصريح : أن الوطن القومى ليس معناه حكومة يهودية تبسط سيادتها على العرب ، وأن بريطانيا لا تتوقع ولم تعن أن تصبح فلسطين يهودية كما أن بريطانيا إنجليزية »

وأرسلت أمريكا بعد أن وضعت الحرب أوزارها لجنة لبحث ودرس شئون الشرق الأوسط ، وقد عرفت بلجنة كرين وكنج ، وقد وضعت هذه اللجنة تقريراً عن أعمالها جاء فيه :

أولا : إن الوطن القومى لليهود فى فلسطين لا يعنى إنشاء دولة يهودية هناك ، وإن قيام دولة من هذا القبيل ، لا يمكن أن يتم بغير المساس بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من الطوائف .

ثانياً : إن الصهيونية اعتداء شنيع على حقوق الشعب ، وشذوذ عن المبادئ التى

أعلنها الحلفاء والرئيس ولسن » .

ولكن السطحية وحدها ، هى التى يمكن أن تصور لأحد أن لتفسيرات الدولة البريطانية ، أو لتقارير اللجان الدولية ، أو لشىء من هذا الطراز قيمة ما فى وجه القوى ذات النفوذ التى تشكل السياسة العالمية وتوزع المستعمرات ، والنقط الاستراتيجية ، وتدفع الأمور فى الاتجاه الذى تريده . فبريطانيا سلخت فى مصر ٧٤ عاماً ، بذلت خلالها ٧٤ وعداً بأنها خارجة من مصر سريعاً ، وأنها لا تريد أن تبقى فيها ، وأنه لا أطماع لها فى وادى النيل . . كلام مجرد كلام .

والعطف على الشعوب التى سلبت حقوقها ، واستنكار ما وقع عليها من عدوان ، هى عملة استعمارية يحسن الاستعمار تداولها والتعامل بها ، فبريطانيا ترعى حركات الاستقلال فى منطقة نفوذ فرنسا ، وفرنسا تتظاهر بتأييد حركات التحرر فى إمبراطورية بريطانيا ، والأمر فى نهايته لا يعدو أن يكون كلاماً . . . كلاماً مجرد كلام !

فثقافة اليهود ، وإقامة مركز لها ، أو مصالح طائفة اليهود ، أو مصالح العرب ، ليست العناصر الأساسية الموجهة لإنشاء دولة يهودية ، إنما هى مصالح الاستعمارية اليهودية المهيمنة على حركات الاستعمار منذ قرون ، هى التى تحدد كل خطوة فى هذا السبيل ، وقد نجد بصيصاً من الضوء يكشف لنا طرفاً من هذه الحقائق المعتمة فيما قاله الصهيونى (عمانوئيل نيومان) الذى كان رئيساً للمؤسسة الصهيونية ، وهو يتحدث عن دور الدكتور وايزمان فى استصدار تصريح بلفور :

« لم تكن جاذبية الدكتور وايزمان ، ولا قدرته على الإقناع ، والتأثير ومهارته ، كافية وحدها لإصدار تصريح بلفور ، إذ أن بريطانيا كانت وهى تعانى ضغطاً شديداً فى صراعها مع ألمانيا ، تتلهف على مساعدة من اليهود ، فى روسيا من جهة ، وفى الولايات المتحدة من جهة أخرى فقد كان الناس من غير اليهود فى العالم كله يعتبرون اليهود ، قوة يعتد بها ، بل إن الناس كانوا يبالغون فى تقدير نفوذ اليهود ، وفى وحدة اليهود . وقد أتاحت حاجة بريطانيا إلى اليهود فرصة للدبلوماسية الصهيونية ، منحتها قوة وقدرة فى المساومة ، ولذلك ما كاد تصريح بلفور يظهر حتى أمر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، فى ذلك الحين ، بطبعه وإلقائه ، من الطائرات

فى روسيا ، وألمانيا ، حتى يقع فى أيدى اليهود فى كلتا الدولتين » .

وقال سيسل شلوود وكيل وزارة الخارجية البريطانية بعد ذلك :

« إن إسرائيل ستكون حماية لبريطانيا ، ولا سيما فى منطقة قناة السويس »

وقال تشرشل فى سنة ١٩٣٧ : إنه من الوهم أن نتصور أن تصريح بلفور كان فروسية متحمسة ، أو صدقة سخية ، فإنه كان إجراء فى وقت الحاجة ، قصد به تحقيق الفوز التام للحلفاء ، وقد توقعنا من هذا الإجراء — أن نظفر بمعونة ذات شأن ، وقد حصلنا بالفعل على ما توقعناه .

فإنشاء دولة فى هذا الموقع من العالم أمر مدروس تماماً ، وهو أبعد ما يكون عن العواطف ، وعن الدين ، وهو بقدر انقطاعه عن الكرم البريطانى نحو شعب إسرائيل ، فهو أيضاً من جانب اليهودية العالمية منقطع الصلة عن آلام الشعب الإسرائيلى ، والرغبة فى توفير وطن يحميهم من العدوان .

فوايزمان نفسه قال : بعد أن سقط النظام القيصرى فى روسيا الذى كان يسرف فى تعذيب اليهود واضطهادهم : « ليس ثمة أكثر سطحية من الظن بأن آلام اليهود وعذابهم هى أساس الصهيونية » .

* * *

هذه هى المقدمات الروحية — واللاروحية — لقضية فلسطين أو إسرائيل — التى عرضت على الأمم المتحدة فى الثانى من أبريل سنة ١٩٤٧ أى فى الدورة الثانية من دورات حياتها . .

وقد أعلن أرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا فى خطاب له فى مجلس العموم البريطانى ألقاه فى السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٤٧ عن حوافز بريطانيا على عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة ، ولأهمية ما جاء بهذا الخطاب ننقل عنه ما يلى :

« لقد عجزت بريطانيا عن التوفيق بين السماح لليهود بغزو فلسطين وبين مراعاة صك الانتداب فى عدم الإضرار بمصالح سكانها الآخرين ، ولقد أصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض الذى حدد الهجرة لفلسطين ليوقفها فيما بعد ، وأقر المجلس

الموقر هذا الكتاب الذى أثار معارضة اليهود ، وتشدد العرب ، وإصرارهم على الاستقلال الناجز .

« ومما زاد فى تعقيد القضية أن أمريكا قد حشرت نفسها فيها ، وأخذ الرئيس ترومان يوالى تصريحاته عنها ، ولو وقف أمر هذا التدخل الأمريكى عند حد إدخال مائة ألف مهاجر يهودى إلى فلسطين لكان فى الإمكان معالجته ، ولكن الحديث يدور حول المجىء بالملايين ، وليس هذا من العدل والمساواة بين مصالح العرب ، أصحاب البلاد ، وبين اليهود الطارئين على فلسطين ؛ إلا أن بريطانيا لا تستطيع أن تفرض حلا نهائياً بالقوة ، لأنها دولة منتدبة ، ولذا فقد أصبح من واجبها أن ترفع الأمر إلى الأمم المتحدة ، لتقرر وتفرض الحل الذى تراه »

وفى الثامن والعشرين من أبريل انعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة واستمرت فى جلسات متوالية ، فى النظر فى قضية فلسطين حتى الخامس عشر من مايو ، إذ قررت فى هذا اليوم تأليف لجنة خاصة للتحقيق فى قضية فلسطين تضم ممثلى إحدى عشرة دولة هى : إيران ، بيرو ، السويد ، أورجواى ، هولندا ، الهند ، جواتيمالا ، يوغسلافيا ، تشيكوسلوفاكيا ، أستراليا ، كندا .

وانتقلت اللجنة إلى الشرق الأوسط ، فعقدت عدة اجتماعات فى القدس ، واستمعت إلى ممثلى الحكومة البريطانية والوكالة اليهودية ، ثم انتقلت إلى بعض العواصم العربية ، فاجتمعت برؤساء دولها ، وحكوماتها ، كما اجتمعت بالأمين العام للجامعة العربية ، ثم وضعت تقريراً قدمته إلى الجمعية العامة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ . وقد انقسم أعضاء اللجنة إلى فريقين يتكون من كندا وأستراليا وبيرو وتشيكوسلوفاكيا وجواتيمالا والسويد وأرجواى ، وقد قدم هذا الفريق مشروعاً سمى بمشروع الأكثرية ، كما قدم الفريق الثانى المكون من إيران والهند ويوغسلافيا ، مشروعاً سمى بمشروع الأقلية .

ولم يكن المشروعان معاً سوى جريمتين دوليتين ، أولهما جريمة غليظة صارخة ، والثانية أقل غلظة وأخف تحدياً للضمير الإنسانى ، ولكنها مع ذلك ليست سوى جريمة .

فقد قرر المشروع الأول تقسيم فلسطين إلى قسمين : القسم الأول خصص للعرب

وتبلغ مساحته ١٢ ألف كيلومتر مربع ، يسكنه ٦٦١ ألفاً منهم ٦٥٠ ألف عربى ، و ١١ ألف يهودى . بينما تبلغ مساحة القسم الثانى الذى خصص لليهود أكثر من ١٤ ألف كيلومتر مربع ، ويسكن هذا القسم ٩٩١ ألفاً منهم ٤٩٦ ألفاً من اليهود ، و ٤٩٥ ألفاً من العرب ، ويملك العرب ثلثى مساحة هذا القسم .

أما القدس فقد أفرد لها قسم ثالث ، اقترح أن يقام فيها نظام دولى خاص بها تتولى الأمم المتحدة الإشراف عليه عن طريق مجلس الوصاية بها .

أما تقرير الأقلية فيقترح قيام حكومتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، تتمتعان بالاستقلال الذاتى ، على أن تتألف منهما دولة اتحادية باسم دولة فلسطين ، ويتولى إدارة الشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها مجلس اتحادى يتولى انتخاب رئيس الدولة الاتحادية ويضع دستور الدولة ويعالج شئون الهجرة إلى المنطقة اليهودية .

والقدر المشترك من الجرم ، فى المشروعين ، هو اعتبار موجات الهجرة المصطنعة التى زادت من عدد اليهود فى فلسطين عملا قانونيًّا ، يمكن أن يقام على أساسه حل يرضى عنه ميثاق الأمم المتحدة ، ويقره . أى اعتبار العمل العدوانى ، أساساً لحق ، وهو ما قامت الأمم المتحدة لمنعه ، فالقهر والأعمال العنيفة ، واستعمال القوة ، كلها وسائل ينهى عنها ميثاق الأمم المتحدة ، وبالتالى لا تنشئ لمرتكبها حقاً ، ومثل هذه النظرة السلمية ، كانت تؤدى إلى الحل الوحيد ، هو اعتبار سكان فلسطين — رعايا دولة واحدة هى فلسطين ، وإجراء انتخابات ، يسمح لمن انقضى على وجوده فى فلسطين عشر سنوات متصلة ، أن يشترك فيها ، لانتخاب برلمان ، يقيم حكومة ، على أن توفر الأمم المتحدة لهذه الانتخابات الظروف الملائمة ، بندب قوة دولية ، تحل محل قوات الاحتلال البريطانى قبل جلائها ، وتتسلم منها سلطات الأمن وتضطلع بتبعاتها .

ولكن الجمعية العامة بدأت مهزلتها فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، فقررت إحالة تقرير اللجنة بشقيه إلى اللجنة السياسية الخاصة التى سمعت فى بدايتها مندوباً عربيًّا ، هو ممثل الهيئة العربية العليا ، ثم مندوباً يهوديًّا هو ممثل الوكالة اليهودية ، ثم تعاقب المتكلمون ، ولا يهمنا مما حدث سوى أن كلا من ممثلى الولايات المتحدة

والاتحاد السوفيتى ، أيد مشروع الأكثرية ، فبدا أن الشرق والغرب ، أى أن الرأسمالية والاستعمارية ، والاشتراكية والأممية ، كلاهما فى حلبة الأطماع التى أثارها تقسيم فلسطين نداً لصاحبه ، وأنه لا أمل لرعاية الحرية فى كنف أيهما إلا إذا فرقت بينهما المصالح ، فعندها فقط سيكسب الضعفاء . لقد كان كل من المعسكرين الغربى والشرقى ، فى تلك الأيام حريصاً على منافسة الآخر فى إظهار العطف على اليهود ، وكسب رضاهم . ولو أن موضوع اليهود ، وما لاقوه من اضطهاد منقطع الصلة بتقسيم أرض شعب آخر وتمزيقه .

وبدا أن مصير فلسطين قد ختم ، إذ أدركت بريطانيا أن غايتها من عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة ، وهو تقسيمها ، قد تحققت ، فقررت أن تدفع الحوادث دفعاً نحو هذا المصير بلا هوادة ، وألا تدع مجالا للتلكؤ ، فأعلنت على لسان مندوبها أنها عازمة على الجلاء فوراً .

ولذلك لم يبق أمل فى نجاح المشروع العربى الذى قدم ليعارض مشروع الأكثرية والأقلية ، وكان قوام هذا المشروع أن يستمر الاحتلال البريطانى فى فلسطين لمدة سنة ، تقوم فى خلالها حكومة مركزية واحدة ، تتولى إجراء انتخابات عامة لجمعية تأسيسية تقوم بوضع دستور ديموقراطى للبلاد بأكملها على أساس وحدتها . ولكن بريطانيا عادت فأكدت أن جلاءها عن فلسطين سيتم قبل أول أغسطس ، وأنها لا توافق بأية صورة من الصور على المساهمة فى تنفيذ أى مشروع . وقد رفض هذا المشروع العربى عند التصويت عليه فى اللجنة الخاصة إذ لم يظفر بتأييد سوى ١٢ دولة هى الدول العربية وأفغانستان وإيران وباكستان وتركيا (أى الدول الإسلامية) وكوبا وليبيريا ، ورفضته ٢٩ دولة فى مقدمتها الدولتان العظيمتان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وامتنعت ١٢ دولة فى مقدمتها بريطانيا التى كانت ترى أن كل ما تتمناه يتحقق بغير حاجة إلى صوتها .

وشرع رئيس اللجنة فى عرض مشروع الأكثرية — مشروع التقسيم — فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٧ — على اللجنة الخاصة التى أحيل إليها كما قلنا تقرير اللجنة — وراح مندوبو الدول العربية ، يحاولون فى استماتة أن يمنعوا صدور قرار من اللجنة بالموافقة عليه ، فدفعوا أولا بانعدام اختصاص الأمم المتحدة فى فرض

أى حل غير الاستقلال على فلسطين ، بغير رضا وموافقة أهلها ، وطلبوا إحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية للإفتاء فى هذا الاعتراض ، واقترع على هذا الدفع ففشل بطبيعة الحال بالأكثرية ، فقد كان الإجهاز على فلسطين يتم تحت مباركة الدولتين العظيمتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . وفى ظل هذا القران غير السعيد ، يصبح كل حرام حلالا ، وكل أمل فى استفتاء الحق والعدل ، سراباً . وقنع العرب ، وهم كالغريق الذى يتشبث فى بحره المتلاطم بقشة ، بأن تستشار محكمة العدل ، مجرد استشارة ، فلم يكن حظ هذا التعديل فى الاقتراح الأصيل ، بأسعد حظًّا من الاقتراح نفسه ، فقد منى بالفشل .

وتقرر تأجيل الاقتراع على المشروع إلى اليوم الثانى أى الخامس والعشرين من نوفمبر ، وفى هذا اليوم حصل مشروع الأكثرية على ٢٥ صوتاً ، مقابل ١٣ صوتاً ، وامتناع ١٧ ، وقد اطمأن العرب بعض الشىء لهذه النتيجة ، إذ أنه لابد لإقرار مشروع التقسيم أن يحصل على أغلبية ثلثى أعضاء الجمعية العامة ، فإذا جرت الأمور فى الجمعية العامة ، كما جرت فى اللجنة الخاصة ، فإن هذا المشروع لم يكن ليكتب له النجاح وانتقل المشروع إلى الجمعية العامة ، والنفوس متوجسة شرًّا ، واليهود لا يكفون عن بذل كل ما يملكون من قدرة على الاتصال والتأثير ، والولايات المتحدة تبارك عملهم ، وتؤيده ، وتتفانى فى خدمتهم وتسابقهم فى ذلك ، والاتحاد السوفيتى ، يترك الفرصة لهذه الجهود الآثمة واسعة . وسمعت الجمعية العامة من جديد خطب العرب ، وحججهم ، وزاد أمل العرب فى النجاح ، فقد كانت التقديرات الأولى ، تبشر بأن أغلبية الثلثين لن تتحقق . ولو حدث هذا لأثبتت الأمم المتحدة أنها ند للمهمة التى ألقيت على عاتقها ، وأنها قادرة على أن تكون مخلوقاً حيًّا ، يستقل بإرادته عن الدول الكبيرة : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا . كم كان جميلا أن يتردد من فوق منبر الأمم المتحدة كلام يتسق مع روح الميثاق ويطبقه ، كالكلام الذى قاله مندوب هايتى الذى أعلن أنه سيصوت ضد المشروع ، لأن فى المشروع تحدياً لميثاق الأمم المتحدة وللحقوق الدولية ، وككلام مندوب الفيلبين الذى قال إن حل أزمة يهود أوربا ، لا يكون على حساب عرب فلسطين . وككلام مندوب كوبا الذى قال إن الجمعية العمومية

لا تملك إصدار توصية تقسيم فلسطين التى لا تتم إلا بالقوة . وكان المفروض أن يتوج هذا المهرجان الدولى الذى ازدهرت فيه الفكرة الإنسانية كأجمل ما تكون ، بالتصويت فى نفس الليلة التى جرى فيها ، أى فى السادس والعشرين من نوفمبر ، ولو تم الاقتراع ليلتذاك ، لفشل مشروع التقسيم ، ولذلك اقترحت إحدى الدول المؤيدة للمشروع تأجيل التصويت ، فعارض العرب ذلك ، ولكن معارضتهم للأسف لم تنجح إذ تمت الموافقة على التأجيل ، وكان اليوم التالى ، هو يوم عيد الشكر عند أهل الولايات المتحدة ، وإن كان لا يعتبر عند الأمم المتحدة يوم عطلة ، ولكن رئيس الجمعية العامة هو (أرانا البرازيلى) مساهمة منه فى المناورة لحساب مشروع التقسيم ، أجل الجمعية العامة ليومين ، لتتسع فرصة المناورة لإسرائيل واللذين تمثل مصالحهم إسرائيل(١) .

ضغطت الولايات المتحدة خلال الثمانية والأربعين ساعة فى كل اتجاه ممكن ، لتحصل على أصوات مؤيدة للتقسيم ، فاعترضت على أوراق تمثيل مندوب سيام بدعوى أنها أوراق غير مكتملة قانوناً ، ذلك لأن مندوب سيام كان قد أعلن أمام اللجنة الخاصة أنه سيعارض فى المشروع ، واستدعى هارفى فايرستون رئيس مجلس إدارة شركة فايرستون التى تستغل حقول المطاط فى ليبيريا ، ليهدد حكومة ليبريا إن هى لم تعدل عن موقفها الذى أعلنه مندوبها كذلك فى اللجنة الخاصة ، وهبط ضغط شديد على حكومة الفيلبين الذى ألقى مندوبها خطاباً رائعاً ضد مشروع التقسيم ، حتى تسحب هذا المندوب ، وفعلا سحب وعاد إلى بلاده ، تاركاً مهمة تمثيلها لسفير الفلبين فى واشنطن . وساهم أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى فى حملة الضغط ؛ فأرسل ثمانية وعشرون منهم برقيات إلى مندوبى اثنتى عشرة دولة طالبين منهم تأييد مشروع التقسيم .

فلما عادت الجمعية العامة إلى الاجتماع فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، كان دفن فلسطين قد أصبح مقرراً ، وأن الباقى ليس سوى الاحتفال الجنائزى لهذا الدفن ، فإن الدولتين الكبيرتين ، صانعتى الأمم المتحدة ، الولايات

---

(١) قضايانا فى الأمم المتحدة لخيرى حماد .

المتحدة والاتحاد السوفيتى ، استطاعتا أن تظفرا لهذه الجريمة المروعة بثلاثة وثلاثين صوتاً من ثلاثة وثلاثين دولة أيدت المشروع ، فى وجه معارضة لثلاث عشرة دولة فقط وامتناع عشر دول . أما الدول المؤيدة فهى :

الولايات المتحدة ، فرنسا ، كندا ، أستراليا ، جنوب أفريقيا ، نيوزلنده ، فنزويلا ، بارجواى ، بوليفيا ، البرازيل ، أكوادور ، هايتى ، جواتيمالا ، جمهورية الدومينيكان ، نيكاراجوا ، بناما ، بيرو ، وبلجيكا ولوكسمبرج ، وهولنده ، والسويد والنرويج ، والدانمرك ، وليبيريا ، والاتحاد السوفيتى روسيا البيضاء ، وتشيكوسلوفاكيا ، وأواكرانيا وبولنده ، ثم الفلبين .

وقد كان من بين الدول التى صوتت مع التقسيم سبع دول صوتت ضده فى اللجنة الخاصة من يومين مما يحدد بجلاء النجاح الذى حققته الولايات المتحدة بالضغط على الدول التى تملك الضغط عليها ، إيماناً بالرأسمالية اليهودية ، المسيطرة على الولايات المتحدة وعلى غيرها ، بأن إفلات فرصة التقسيم ، سيملأ طريق الاستعمار بصعاب لا تذلل ، وسيمنح حركات التحرر فى كل العالم الأسيوى والأفريقى فرصاً لا تحد . وبهذا تكون الأمم المتحدة ، أسرع فى خيانة ميثاقها ، من عصبة الأمم .

وأدرك الناس ، أن حرباً طويلة ، كبدت البشرية عشرات الملايين من الأنفس ، وعشرات الملايين من المشوهين ، أهلكت مئات البلايين من الجنيهات ، لم تعلم الناس أن يلتزموا جانب الحق ، فى منازعاتهم الدولية ، ولا أن ينصفوا الضعفاء ، من الأقوياء . ونجم عن هذا ، أن انتقلت البشرية من أزمة إلى أزمة ، وزاد التسابق على التسلح ، واتسعت الهوة بين الشرق والغرب ، وأنتجت أنواع جديدة من أسلحة القتل الجماعى ، وبقى الناس حتى كتابة هذه السطور ، فى ظل الخوف من الحرب ، واستمرت محاولات نزع السلاح ، لوناً من العبث السمج ، وضرباً من المهاترة والدعاية التى تتقزز لها النفوس .

* * *

صدر إذن قرار التقسيم فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، مع أن أكبر الدول سكاناً ومساحة عارضته وهى الهند والباكستان ، ودولة كبرى أخرى

لم تقره لأنها لم تكن عضواً فى الأمم المتحدة ، ونعنى بها الصين ، وأعلنت بريطانيا التى امتنعت عن التصويت ، أنها ستنقذ القرار ، وكأنها تتصور بهذا أنها يمكن أن تخدع أحداً عن حقيقة نواياها ، وما حقيقة نواياها إلا فزعها الشديد من أن يكون للعرب فى هذه المنطقة ، كيان سليم متحد ، أما هذا القرار المشئوم الرقيم ١٢٨ (٢) فقد جرى نصه كالآتى :

« إن الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بعد أن عقدت دورة خاصة ، وبناء على طلب الدولة المنتدبة ، بريطانيا ، للبحث فى تأليف وتحديد اختصاص لجنة خاصة يعهد إليها تحضير اقتراح يساعد على حل المشكلة ، وبعد أن تلقت ودرست تقرير اللجنة الخاصة الذى تضمن عدة توصيات إجماعية من اللجنة ، ومشروع تقسيم مع اتحاد اقتصادى أقرته أغلبية أعضاء اللجنة ، تعتبر أن الوضع الراهن فى فلسطين ، من شأنه الإضرار بالعلاقات الودية بين الدول .

« وتأخذ علماً بالبيان الصادر عن الدولة المنتدبة ، الذى أعلنت فيه أنها تنوى الجلاء عن فلسطين قبل اليوم الأول من أغسطس سنة ١٩٤٨ ، وتوصى المملكة المتحدة بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين ، كما توصى جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة بتبنى مشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادى وتنفيذه على النحو التالى :

أولا : يجب على مجلس الأمن أن يتخذ الإجراءات أو التدابير الضرورية المنوه عنها فى المشروع للعمل على تنفيذه .

ثانياً : يقرر مجلس الأمن فى أثناء المرحلة الانتقالية ما إذا كانت الحالة فى فلسطين ، تنطوى على تهديد للسلم ، فإذا ما قرر أن مثل هذا التهديد قائم ، فإن عليه للمحافظة على السلم والأمن الدوليين ، أن ينفذ تفويض الجمعية العامة باتخاذ التدابير اللازمة ، وذلك بإعطاء الاختصاصات المنصوص عليها فى المادتين (٣٩ و ٤١) من الميثاق للجنة الخاصة المنتدبة من جمعية الأمم .

ثالثاً : على مجلس الأمن أن يعتبر كل محاولة ترمى إلى تغيير التسوية التى أمر بها هذا القرار عن طريق القوة ، تهديداً للسلام ، وخرقاً له ، وعملا عدوانياً بموجب المادة ٣٩ من الميثاق .

رابعاً : إبلاغ مجلس الوصاية بالمسئوليات الملقاة على عاتقه بموجب هذا المشروع .

وتدعو جميع سكان فلسطين إلى اتخاذ الخطوات التى يرونها ضرورية من جانبهم لتنفيذ هذه الخطة ، وتناشد جميع الحكومات والشعوب الامتناع عن القيام بأى عمل قد يعرقل ، أو يؤخر تنفيذ هذه التوصيات ، وتخول الأمين العام دفع نفقات أعضاء لجنة الأمم المتحدة وأجور سفرهم ، وفق ما يراه مناسباً فى الأوضاع الراهنة ، وأن يوفر لها العدد اللازم من الموظفين لتنفيذ الواجبات التى عهدت الجمعية العامة إليهم بتنفيذها » .

أما اللجنة التى ندبتها الجمعية العامة ، لتقوم على تنفيذ القرار رقم ١٨١ (٢) ، فقد كانت مكونة من ممثلى بوليفيا وتشيكوسلوفاكيا ، والدانمرك ، وبناما ، والفلبين .

ولعل أفضل تعليق على هذا القرار ، هو ما قاله مندوب كوبا ، الذى سبق أن أوردناه والذى جرى نصه :

« إن إصدار توصية بمقتضى المادتين العاشرة والحادية عشرة أمر مختلف كل الاختلاف عن تقرير خطة تؤثر فى سلامة أراضى شعب ومركزه القانونى والسياسى . إن هذه ليست توصية ، إذ التوصية يجوز رفضها ، أما الخطة المعروضة فذات طابع إلزامى واضح ، إذ يقضى أحد نصوصها بأن تعتبر أية محاولة لتغييرها تهديداً للسلام أو عملاعدوانياً تطبيقا للمادة التاسعة والثلاثين من الميثاق » .

* * *

ولسنا نحاول هنا أن ندرس مشكلة فلسطين ، ولكننا نحاول أن ندرس الأمم المتحدة فى التطبيق والعمل بوصفها أداة لحفظ السلم ، واوضع أسس حياة دولية جديدة .

وقد بينا أن الأمم المتحدة خانت ميثاقها ، إذ خضعت فى تقديراتها وقراراتها ، لاعتبارات سياسية بحتة ، منافية أصلا لميثاقها ، ومتحدية لمبادئه ، وقد تحقق كل ما توقعه الذين عارضوا القرار ، فقد اندلعت الحرب بين العرب واليهود ، واستمرت حالة الحرب بين الفريقين حتى اليوم ، واستمر الوضع الشاذ غير القانونى ، وغير

الإنسانى ، فى فلسطين ، بؤرة جراثيم قلق ، واضطراب دولى ، لم تنقطع عن تصدير جراثيمها وسمومها ، إلى كل المنطقة ، بل إلى كل العالم .

فإن الشرق العربى ، منذ ولدت الأمم المتحدة ، وهو واحد من أكثر مناطق العالم ، احتواء لأسباب الاضطراب الدولى ، وما قد يجر إليه من حروب . وقد قامت الحرب فعلا فى سنة ١٩٥٦ بسبب خلق إسرائيل فى هذه المنطقة ، وكادت تصبح هذه الحرب ، عالمية ، مما سنتناوله فيما يلى .

ولما كانت جمعية الأمم المتحدة قد ندبت لجنة خماسية من بوليفيا وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك وبناما والفلبين لتشرف على تنفيذ قرار التقسيم ، فإن هذه اللجنة حاولت أن تقوم بالمهمة التى ندبت لها ، ولكنها وجدت نفسها ، بين فريقين يتصارعان بالحديد والنار ، ولا يلتفتان إليها ، فأدركت بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتان أخذتا على عاتقهما تنفيذ التقسيم ، أن مرحلة جديدة من مراحل هذه الجريمة الدولية ، قد بدأت ، فأسرعتا إلى دعوة مجلس الأمن للانعقاد ، وقد انعقد فعلا المجلس وسمع شهادة رئيس اللجنة الذى أكد فيها استحالة العمل وسط العنف ، واقترح أحد علاجين فإما إرسال جيش دولى لتنفيذ التقسيم بالقوة أو العدول عن التقسيم نهائياً [1].

فتظاهرت الولايات المتحدة بأنها يئست من إمكان تنفيذ التقسيم ، وكانت كفة العرب وقتئذ فى حربهم مع اليهود راجحة ، وأعلن مندوبها فى التاسع عشر من فبراير سنة ١٩٤٨ أن حكومته لم تعد ترى التقسيم ممكناً وعملياً ، وأنها تقترح وضع فلسطين تحت الوصايا الدولية ، وأن يعاد عرض القضية على الأمم المتحدة ، وترى لذلك دعوة الفريقين إلى هدنة لتمكين الأمم المتحدة من معالجة الوضع على أسس جديدة . وقد كان اليهود فى أشد الحاجة إلى هذه الهدنة التى تقترحها الولايات المتحدة ، وفى الخامس من مارس سنة ١٩٤٨ قرر مجلس الأمن دعوة أعضائه الخمسة الدائمين للتشاور ، وتقديم التوصيات إلى مجلس الأمن فى عشرة أيام . وفى أول أبريل قرر المجلس دعوة الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية إلى إيفاد مندوبين عنهما إلى المجلس لعقد هدنة بين الفريقين ووقف أعمال العنف فوراً ، وأصدر المجلس

---

(١) قضايانا فى الامم المتحدة .

فى اليوم نفسه قراراً بناء على اقتراح أعضائه الدائمين بدعوة الجمعية العامة إلى الانعقاد فى السادس عشر من أبريل فى دورة خاصة وقد دامت هذه الدورة فعلا إلى الرابع عشر من مايو .

وقرر مجلس الأمن فى السابع عشر من أبريل قراراً بدعوة جميع المنظمات والأشخاص فى فلسطين إلى وقف أعمال العنف والإرهاب والتدمير والحيلولة دون وصول مسلحين أو قوات غير نظامية إلى البلاد ووقف استيراد أسلحة ، والتوقف عن أى نشاط سياسى حتى تتم إعادة النظر فى مستقبل البلاد السياسى والتعاون مع السلطات البريطانية المنتدبة فى المحافظة على القانون والنظام وتمكينه .

وأصدرت الجمعية العامة قرارات أخرى ، وأصدر المجلس قرارات كذلك ، حتى كان اليوم الرابع عشر من مايو وهو اليوم المقرر لانتهاء الانتداب ، انقطع كل حديث عن اقتراح الولايات المتحدة العدول عن التقسيم ، وإعادة النظر فى مستقبل فلسطين السياسى ، فإنه لم يكد يحل هذا اليوم حتى أعلنت إسرائيل ميلادها ، وأسرع ترومان قبل أن يتم هذا الإعلان ، بالاعتراف بإسرائيل كدولة . وترك العالم كله يتساءل عن مبرر دعوة مجلس الأمن للنظر فى الحالة التى سادت فلسطين بعد قرار الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، والتى تأكدت بفشل اللجنة الخماسية فى تنفيذ هذا القرار . . .

قامت الحرب فعلا فى الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٤٨ ؛ إذ دخلت الدول العربية بجيوشها إلى فلسطين ، فى ظل سحب متكاثفة من التآمر والخديعة ، وفى ظل حكومات عربية تخضع للنفوذ الأجنبى راضية ، أو تخضع له كارهة ، ولكنها لا تستطيع فى الحالتين ، أن تستقل عنه ، أو تنجو من أثره . وكانت الأمم المتحدة ترى هذا وتباركه ، لأنها هى فى ذاتها لم تكن بعد هيئة خالصة للسلام ، وحفظ الأمن ، وإنما كانت حلبة من حلبات الصراع الدولى .

ولسنا نود أن نتابع أدوار فاجعة فلسطين ، باعتبارها ، مظهراً ماديًّا صارخاً ، لفشل الأمم المتحدة ، وعجزها ؛ فهذا القدر الذى أوردناه كاف لإثبات هذا الفشل و بيانه.

وإنما نود أمرين ؛ الأمر الأول كيف دبر فشل الأمم المتحدة على يد العناصر التى لا تطيق قيامها ، ولا نجاح ميثاقها ، وقد أورد الأستاذ خيرى حماد فى كتابه

« قضايانا بالأمم المتحدة » أقوالا نقلها عن عدد من الساسة الأمريكيين ، ترينا كيف تسقط مؤسسة عالمية ، ضخمة كالأمم ، فى قبضة جماعة صغيرة من الساسة ، فتبدد الآمال البشرية وتتحطم ، كما أورد مثلها الأستاذ محمد على علوبة ، فى كتابه « فلسطين والضمير الإنسانى » وسننقل هذه المقتبسات فيما يلى ، ثم نناقش مشكلة قيام إسرائيل ، وما يقضى به ميثاق الأمم المتحدة لإنهاء هذه الدولة ، كأزمة من أزمات السلام العالمى .

* * *

قال ترومان فى مذكراته التى نشرتها مجلة لايف : أعتقد أن البيت الأبيض لم يتعرض فى أية لحظة من اللحظات فى تاريخه الطويل لما تعرضت له أنا من ضغط ودعاية فى ذلك الحين . ولقد أزعجنى وضايقنى ذلك الإصرار الذى بدا من عدد قليل من الزعماء الصهيونيين المتطرفين الذين تحفزهم الدوافع السياسية والذين لم يتورعوا عن التهديد السياسى » .

وقال سمنر ويلز ، مساعد روزفلت : لقد استخدم الموظفون الأمريكيون كل شكل من أشكال الضغط المباشر أو غير المباشر ، بعد تلقيهم الأوامر المباشرة من البيت الأبيض على تلك الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة من غير الدول الإسلامية ، والتى كانت حائرة بين معارضة التقسيم أو الامتناع عن تأييده ، وقد استخدم البيت الأبيض عدداً من الممثلين والوسطاء للتأكد من الحصول على الأغلبية اللازمة لنجاح المشروع » .

وقال جيمس فورستال وزير الدفاع الأسبق فى الولايات المتحدة : لقد خسرت أمريكا الكثير من مكانتها فى العالم العربى بسبب موقفها فى فلسطين ، ولا ريب فى أن الأساليب التى اتبعت بغرض الإكراه والضغط على الدول الأخرى فى الجمعية العامة كانت أقرب إلى الفضائح منها إلى أى شىء آخر » .

وقال لورنس سميث عضو الكونجرس الأمريكى فى خطاب ألقاه فى المجلس جاء فيه :

« دعنا نرجع إلى السجل ، يا سيدى الرئيس، ونرى ما حدث فى جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل الاقتراع على التقسيم . لقد كان المشروع بحاجة إلى أغلبية الثلثين لضمان النجاح . وتقرر إجراء الاقتراع مرتين ، ثم تأجل الاقتراع فى كلتا المرتين . وكان من الواضح أن التأجيل ضرورى لأن المشروع لم يكن لينال الأصوات اللازمة . ويقال من أوثق المصادر إنه فى غضون ذلك ، فرض ضغط هائل من الولايات المتحدة على ممثلى ثلاث دول صغيرة من الدول الأعضاء ، وكان هذا الضغط واقعاً من موظفين على أرفع مستوى ، فى واشنطن . أو لا يؤلف هذا القول تهمة خطيرة ؟ فماذا حدث عندما درست القضية لآخر مرة فى التاسع والعشرين من نوفمبر ؟ لقد توافرت الأصوات الحاسمة لنجاح المشروع ، بانضمام هايتى وليبيريا والفلبين إلى قائمة مؤيديه . وكانت أصوات هذه الدول الثلاث كافية لضمان أغلبية الثلثين ، بعد أن كانت قد اقترعت ضد المشروع . ولا ريب فى أن الضغط الذى فرضه على ممثلى هذه الدول الثلاث ، أعضاء وفدنا وموظفونا ، والمواطنون العاديون من أبناء الولايات المتحدة يؤلف سلوكاً مخزياً بالنسبة إليهم وإلينا فى وقت واحد »

وقال الشيخ فولبرايت اثناء مناقشة قرار يتعلق بفلسطين فى مجلس الشيوخ الأمريكى :

« إن هذا المشروع يعتبر بمثابة إكراه لأمريكا للوقوف إلى جانب أحد الفريقين فى النزاع العربى الإسرائيلى ، ويعود السبب الرئيسى فى تقديم هذا المشروع إلى وجود فئات تضغط فى الولايات المتحدة وهى تحاول أن تقحم النزاع العربى الإسرائيلى فى سياستنا الداخلية ، وفى مثل هذا الوضع الدولى الدقيق ، الذى يسود العالم يجد مائة وثمانون مليوناً من الأمريكيين أن سياسة بلادهم الخارجية واقعة تحت تأثير جماعات غير مسئولة تمثل الأقلية ، ولا يمكن للرئيس أن يسير بسياستنا فى الشرق الأوسط فى مثل هذه الظروف ولقد شهدنا فى السنوات الأخيرة نشوء منظمات ، لم تكرس نفسها لأمريكا ، وإنما للدول والجماعات الأجنبية . وقد تردى سير السياسة الخارجية الأمريكية بسبب هذه التطورات تردياً خطيراً . ولا ريب فى أن سياستنا الخارجية أكثر أهمية بالنسبة لأمننا القومى الشامل ، من أن تغدو أداة مسخرة فى أيدى أقليات يقوم رجال الكواليس من أبنائها بالوقوف أمام قاعات الكونجرس لحث أعضائه

على اتباع إجراءات ذات نفع للمصالح الخاصة ، ومؤدية إلى نتائج مفجعة للبلاد كلها » .

أما « دوجلاس ريد فقد قال ما ننقل منه ما يلى :

« لم تكن الدولة الصهيونية من أهداف الحرب الدولية الثانية ، ولم يعلن عنها عند تعبئة الشعوب للحرب ، ومع ذلك فإن هيئة دولية سميت باسم هيئة الأمم المتحدة سلمت أرض العرب المسالمين إلى غاصبيها من شرق أوربا ، وقدمت لهؤلاء الأخيرين الأموال والأسلحة والمجاهدين من أمريكا وروسيا ، وقد شكا وزير صهيونى من أن ما تطلبه عملية إنشاء دولة إسرائيل من نفقات بلغت مائة مليون من الجنيهات لم يقدم لها من الخارج سوى ٢٥ مليوناً فقط .

« وفى هذه القضية وحدها أجيز الاغتصاب ، والتعدى ، وتخلى العالم الغربى عن تعاليمه ومبادئه التى حارب من أجلها حربين عالميتين [١] ، ولم يعرف التاريخ فضيحة كهذه من قبل ، وعلى هذا النحو أثبتت هيئة الأمم المتحدة أنها منظمة أشد خطراً ، وأكثر ضرراً من عصبة الأمم القديمة ، فقد خلقت للعالم الغربى فى بلاد العرب مشكلة أكبر من مشكلة وسط أوربا .

« وهكذا بدأ الحلم الصهيونى خطواته الأولى ، منذ تصريح بلفور فى الحرب العالمية الأولى ، فحقق أول أغراضه بإنشاء الدولة الصهيونية فى الحرب العالمية الثانية .

« إليك الطريقة التى حقق بها الصهيونيون أطماعهم ، وتسلطوا بها على من بيدهم الأمر فى العالم ، وخاصة الولايات المتحدة .

« فى نهاية الحرب العالمية الثانية طالب الرئيس ترومان بهجرة مائة ألف يهودى إلى فلسطين على الرغم مما صرح به الرئيس المذكور فى خطابه للبرلمان سنة ١٩٤٧ من أن أمريكا لن ترضى عن ظلم شعب بغير إرادته ، وأنها سوف تدافع عن حق تقرير المصير . وبعد بضعة أشهر وافقت هيئة الأمم على تقسيم فلسطين وإعطاء النقب لليهود ، والجليل الغربى للعرب .

« وفى مارس سنة ١٩٤٨ حاول وكيل وزارة الخارجية مارشال إقناع الرئيس ترومان بخطر التقسيم على فلسطين ، وما قد يثيره القرار من حرب هناك . ولكنه لم يفلح ،

(١) هذا ما يقوله الكاتب الإنجليزى ، ونحن لا نوافق عليه فى قليل أو كثير ، فالحربان العالميتان ، كانتا صراعاً بواعثه أنانية صرفة ، ولا صلة له بمبادئ من أى نوع .

إذ أعلن الرئيس ترومان اعترافه قبل جلاء القوات البريطانيه عنها ، وكان ذلك الإعلان فى ١٤ من مايو سنة ١٩٤٨ . وكان الاعتراف مفاجأة لمندوب الولايات المتحدة فى اجتماع هيئة الأمم ، وقد استقال على الأثر مرشال ، خصوصاً بعد إعادة انتخاب ترومان . وقد نشبت الحرب فى فلسطين وقت انشغال بعثة أمريكية فى إجراء مفاوضات بين العرب واليهود ، واشتدت الحرب إثر إعلان ترومان اعترافه بدوله إسرائيل ، مما حدا بهيئة الأمم أن ترسل وسيطاً لإنهاء النزاع ودياً وهو الكونت برنادوت ، وما كاد الوسيط ينتهى إلى قراره بأن يعطى النقب لليهود ، والجليل الغربى للعرب ، وإلا فليترك النقب للعرب ، ويأخذ اليهود الجليل الغربى ، حتى قتل بأيدى عصابة إرهابية اسمها عصابة (شترن) . . وعلى الرغم من جسامة الجريمة ، وعظم شخصية الوسيط المقتول ، لم تتخذ إجراءات كافية لعقاب مرتكبيه ، بل استقبل عمدة نيويورك أحد أفراد العصابة المذكورة باحتفال رائع ، اشتركت فيه موسيقى البوليس .

« والنتيجة الطبيعية لنجاح الحركة الصهيونية حتى الآن هى تضخم آمال اليهود، واتساع أطماعهم . . فلن يكتفوا بعد الآن بما حصلوا عليه من رقعة ضيقة فى الأرض ، خصوصاً وقد دان لهم نفوذ قوى الحكم فى العالم أجمع ، وينظر اليهود إلى هيئة الأمم كأول خادم محقق لأغراضهم يتسلطون بها على باقى بقاع الأرض .

« وفى سنة ١٩٤٨ جاء فى جريدة (فلسطين بوست) على لسان الأستاذ هارولد لاسكى أن الطلقات فى فلسطين بعد ١٥ مايو ستكون أولى الطلقات فى سبيل الحرب العالمية الثالثة التى ستقضى على مدنيتنا الحديثة ، وهو عين ما قاله مارشال لترومان من قبل » .

وقد وصف لنا مستر هاتشسون فى كتابه الهدنة الضيقة Violent Truce كيف تخنق الصهيونية فى الولايات المتحدة كل رأى معارض لها فقال :

« على أن ثمة أمراً شغل بالى أكثر من غيره ، ذلك أن كثيرين من الأمريكان الذين حصلوا على معلومات مستقاة من مصادرها الأساسية عن مشكلة الشرق الأوسط يبدون إصراراً على عدم مناقشة ما حصلوا عليه من معرفة ، وعرضه خارج نطاق صلاتهم الشخصية ، ويدعى بعض هؤلاء أن الأندية غير الرسمية التى ينتمون إليها

تحرمهم فرصة التعبير عن آرائهم فى مشكلة فلسطين ، فإذا صح ما يدعونه كان هناك ما نخافة أكثر مما تصورنا أول الأمر ، فعلى حين تحبس الحقائق التى تتصل بالمشكلة الصهيونية العربية الإسرائيلية ، إذا بهؤلاء الذين يدافعون عن وجهة نظر إسرائيل يجدون الحرية المطلقة فى أن ينسقوا قصة محرفة !

« إن الرأى العام فى الولايات المتحدة هو الذى يوجه أعمال ممثلى حكوماتنا المنتخبة ، فإذا حبس الرأى العام فى الظلام ، فى صدد مشكلة ما ، فإنه لن تتاح له إلا فرصة ضئيلة للوصول إلى حل عادل لتلك لمشكلة »

وقد قص علينا ليليانتول فى كتابه (ثمن إسرائيل) أن وزراء فى حكومة ترومان ، ومنهم مستر باركلى وكيل ترومان نفسه ، كانوا يؤجرون أنفسهم للدعاية الصهيونية ، وكان لكل منهم سعر معروف ، فكان ما يتقاضاه باركلى هو ١٥٠٠ دولار للمحاضرة .

وخلاصة هذا كله ، أن إسرائيل هى ثمرة عنف واسع المدى ، عميق الجذور ، بعيد الأهداف ، وأنه عنف مادى ضارٍ ، يستعمل السلاح للتحطيم المباشر ، ويستعمل المال ، والمؤامرة ، لتحطيم غير مباشر لجميع القيم ، والأشخاص ، التى تعترض سبيله ، وأنه يستبيح كل وسيلة ، ويسير فى كل طريق ، ويستحل كل أداة ، ليفرض نفوذه ، ويبسط إرادته ، وينشر الرعب منه ، والطمع فيه ، وأنه يكمم الأفواه ، ويلجم الضمائر ، ويلقى الفزع فى القلوب ، وهو يستفحل ويشتد مع الأيام ، لأنه يضيف إلى كل قوته القديمة قوة يكسبها ، مع الأيام ، ولأنه يستزيد من أنصاره ، ويوسع فى شباكه ، ويفتن فى تجويد وسائله ، وإرهاف أسلحته .

والحق أن مواجهة مثل هذه القوة أمر مخيف ، والوقوف أمامها ، يزلزل النفوس ، لو أن القوة الضارية ، قادرة على أن تواجه القيم الروحية ، وتغلبها ، إذ لو أن الدنيا تحكم بمعايير المال والسلطة والنفوذ ، والدهاء والبراعة فى إدارة الرجال والدول ، لما قامت فكرة ، ولا انتشرت عقيدة ، ولبقى حكم الطغاة .

ولكن القوة المادية ، وإن توسلت بالعلم والفن ، وأتقنت ضروب الدعاية والاقناع ، تحمل فى تضاعيف بنائها أسباب فنائها ، فهى بقدر ما تخيف ، تصطنع الأعداء ، ولو جبنوا عن التصدى لها والوقوف أمامها أول الأمر ، بيد أنهم مع الزمن يستجمعون شجاعتهم ، ويوحدون صفوفهم ، ويقفون أمامها .

واليهودية الاستعمارية الرأسمالية ، هى داء اصطلت منه الإنسانية ، نيران

الحروب الضخمة ، والأزمات المستحكمة والفتن المستطيرة جيلا بعد جيل ، ولابد من القضاء عليه ، ليقوم للسلام قائمة ، ولتصبح الأمم المتحدة ، كما ينص ميثاقها ، أداة لحفظ الأمن ، ولتنمية العلاقات الدولية ، ولفض المشكلات بالمفاوضة والوساطة والتحكيم والتقاضى ، ولزيادة التبادل الفنى والثقافى والتجارى بين الأمم ، ولتقريب المسافة بين العقائد والأفكار ، وإتاحة الفرص لكل منها ، ليؤثر فى الآخر ، ويتأثر به ، ويعدل نفسه ، ويصحح خطأه ، ويخفف من غلواء تعصبه ، وليدرك أنه ليس خيراً محضاً ، وأن عقائد الآخرين ليست شرًّا محضاً ، وأن فى التبادل والتلاقى والتفاهم ، حياة أفضل وأوفر ، وأغنى .

وواجب مواجهة هذه الاستعمارية اليهودية ، والتضييق عليها ، ثم اقتلاع جذورها ، من جسم البشرية ، لتبرأ وتستقيم ، ملقى أولا على الأمم المتحدة . وثانياً على الأمة العربية .

ولكن الظروف الدولية ، عكست الأمور ، فجعلت هذا الواجب ، واجب الأمة العربية أولا ، ثم واجب الأمم المتحدة ثانياً . ذلك لأن الأمم المتحدة هى التى أوجدت إسرائيل ، وأتاحت لها فرصة الخروج إلى الحياة ، وذلك للظروف التى لابست ميلاد الأمم المتحدة نفسها ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية ، حرباً ضد هتلر ، وكان هتلر قد ضرب بجيوشه الضخمة كلاً من الاتحاد السوفيتى ، وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وهولندا والدانمرك والنرويج ، فاجتمعت دول الشرق والغرب ، عليه ، وأصبح بالنسبة لها كالشيطان ، وقد كان اليهود بعض ضحايا هتلر ، بغض النظر عما سببوه لألمانيا من متاعب ، وما أشاعوه فى بنائها واقتصادها وثقافتها من اضطراب ، فتسابق على إرضاء اليهود ، وتحقيق مطالبهم ، والعطف عليهم ، كل من المعسكرين ، وأحسنت الصهيونية الانتفاع بهذا الظرف ، واستطاعت بفضل ما اجتمع فى يد زعمائها وكبار رجالها الذين كمنوا خلف منصات الحكم ، واستتروا وراء كبار الشخصيات الأمريكية ، أن تدفع الأحداث فى الأمم المتحدة إلى الوجهة المؤسفة التى انتهيت إليها .

وقد كانت الأمم المتحدة عند ميلادها ، وقفاً على النفوذ الأمريكى وحده ، وكان الاتحاد السوفيتى ، ضعيف الشأن فيها ، حتى لقد اضطر إلى مقاطعة مجلس الأمن وقد مر بنا كيف استطاعت الولايات المتحدة أن تستصدر من الجمعية العامة أكثر

من قرار ، لتحدبه من سعة نفوذ مجلس الأمن ، وسلطاته . ولكن الأمور فى العالم ، وفى الأمم المتحدة قد تغيرت كثيراً . فالأمم المتحدة عند ميلادها لم تضم أكثر من خمسين دولة ، وهى الآن تضم أكثر من مائة دولة . وقد كان اللون الغالب فيها هو اللون الأبيض ، وكانت كفة الجبهة الأنجلو — أمريكية هى الراجحة . أما اليوم فقد تدفقت شعوب أفريقيا وآسيا تدفقاً متصلا على مقاعد الأمم المتحدة ، فغلب اللون الأسود والأسمر والأصفر ، وقد توج هذا بانتخاب آسيوى هو يوثانت ، سكرتيراً عاماً مؤقتاً ، ثم سكرتيراً عاماً فى أعقاب مصرع همرشولد فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٦١ بالكونغو .

ولم تقف التطورات عند هذا الحد ، فقد عقد مؤتمر باندونج فى سنة ١٩٥٥ ، وضم دول أفريقيا وآسيا ، فأصبح لهذا التكتل ، غير المتحيز ، وغير الطامع — معنى ودلالة . ثم انعقد مؤتمر دول عدم الانحياز فى بلغراد ، ثم مؤتمر دول الدار البيضاء ، ثم مؤتمر التضامن الإفريقى فى أديس أبابا ثم مؤتمر عدم الانحياز فى القاهرة ، فتغير لون الدنيا ، وزالت عنها الصبغة الأوربية الأمريكية ، ومالت شيئاً فشيئاً إلى الصبغة الأفريقية الآسيوية ، حتى يتم التعادل والتوازن مع الماضى .

وهذا كله يحدد واجب الدول العربية ، ويوضحه ، فإن هذه الدول ، تخطئ ، فى حق الأمم المتحدة ، وفى حق فلسطين ، وفى حق نفسها ، إذا هى لم تعرض قضية إسرائيل ، كاملة على الأمم المتحدة من جديد ، ولا يصح أن تطلب هذه الدول ، عند ذلك أقل من العدول عن قرار ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ القرار الرقيم ١٨١ (٢) .

ولست أزعم أن مثل هذا الطلب سيكون سهلا ، أو سيقع من نفوس أعضاء الأمم المتحدة موقعة الاستحسان أو القبول ، بل على النقيض من ذلك ، سيلقى هذا الطلب معارضة شديدة ، وقد يعترض عليه من حيث الشكل ، ولكن ذلك كله لا يصح أن يثنى عزمنا لن التقدم به والإصرار عليه ، فإن أكثر ما صدر من قرارات العامة ، وأكثر ما تم فى الحياة الدولية من تطورات خطيرة ، لقى فى طريقه الصعاب وبدا كأنه مستحيل التحقق ، ولكن السنين أخذت تزيد من فرص نجاحه ، وتضيق من أسباب فشله حتى كتب له النجاح ولعل المثلين الكبيرين اللذين يعرضان نفسيهما علينا أكثر من سواهما فى هذا الصدد ، هما مثل قضية الجزائر ،

وضم الصين الشعبية إلى الأمم المتحدة . ففرنسا كانت تعارض فى مجرد إدراج قضية الجزائر فى جدول أعمال الجمعية العامة ، باعتبار أن ثورة الجزائر هى تمرد داخلى على الحكومة الوطنية ، لأن الجزائر هى امتداد للأرض الفرنسية ، وقد بقيت قضية الجزائر مستبعدة من جدول الأعمال ، ولكنها كانت تكسب أنصاراً عاماً بعد عام ، وكان هذا التقدم المضطرد ضغطاً أدبيًّا هائلا على الحكومة الفرنسية ، وعلى الرأى العام الفرنسى .

أما انضمام الصين ، فقد أوشكت أن تكسب العدد الكافى من الأصوات ، ليتم هذا الانضمام ، على الرغم من المعارضة المستميتة من جانب الولايات المتحدة .

والحق أن الدول الأعضاء الجديدة فى الأمم المتحده فى أشد الحاجة لأن تعرف الأساس الروحى لمعارضة الدول العربية فى عضوية إسرائيل بالأمم ، والاعتراض على استمرار بقائها . فإن إسرائيل تبدو لكثير من هذه الدول ، فى ثوب الدولة المجاهدة التى تعمل للدفاع عن استقلالها ووجودها ، فى وجه معارضة ضارية ، ومقاطعة قاسية ، من جانب الدول العربية . وهى تحسن استغلال كونها دولة صغيرة ، تضم عدداً قليلا من السكان ، وتقوم على مساحة ضيقة ، فهذا المظهر المتواضع ، يكسب عطف الدول الصغيرة ، المماثلة ، فإذا عرضت إسرائيل عليهم صوراً من تقدمها المادى ، بحكم كونها امتداداً للحضارة الغربية ، وبفضل ما يجتمع على أرضها من خبرات اليهود المستوردين من أرقى دول الغرب ، بهرت الأعين ، وخلبت الألباب ، فإذا أيدت هذا كله ، وعززته بما تبذله للدول الآسيوية والأفريقية من معونات مالية ، وفنية ، وما تقدمه من منح دراسية ، وما تهيئه لرؤساء هذه الدول وشعوبها وزعمائها من حفاوة ، وضيافة ، ارتفعت حجتها وقويت ، وبدا العرب متجنين ، ومعتدين .

ويزداد ذلك وضوحاً فى يقين الشعوب الصغيرة ، عندما يسمعون أن إسرائيل تعرض الصلح ، وتمد يدها لتتعاون مع الدول العربية ، ولتعيش معها فى سلام .

فلابد إذن من أن يكون منبر الأمم المتحدة ، هو المكان الذى يشرح فيه معنى إسرائيل العدوانى ، وخطر السكوت على بقائها كدولة ، كسابقة لتحدى ميثاق الأمم المتحدة ، والدوس على نصوصه وأحكامه .

والمواصلة فى هذا الصدد ، عاماً بعد عام ، ودورة بعد دورة ، مع التطورات العالمية التى تتغير بها أساليب التفكير السياسى الدولى ، وتتعدل موازين القوى ، سيضفى أضواء عديدة على مشكلة الاستعمارية اليهودية ، وسعيها الدائب نحو الحرب ، وسيبرزها فى صورتها الحقيقية كمشكلة إنسانية ، وكمصدر أصيل من مصادر الخطر على أمن الشعوب وسلامهم ، وحسن علاقتهم بعضهم ببعض .

* * *

على أن قيام إسرائيل فى الشرق العربى ، ليس سوى موجة من موجات الاستعمار التى أغرقت الشرق جميعاً والشرق العربى ، خصوصاً . وقد كان الاستعمار ، مظهراً لغلبة أوربا وأمريكا ، على آسيا وأفريقيا ، وقد انحسرت هذه الموجة ، وبدأت يقظة آسيا وأفريقيا ، تصحح من أوضاع العالم وبنائه روحيًّا وماديًّا . والشرق العربى ينازل الاستعمار فى جولة أخيرة ، فقد أزيلت من أرض العرب أكثر من قاعدة من قواعد الاستعمار ، وألغيت أكثر من محالفة منه ، واختفت من مسرح السياسة العربية ، أكثر من شخصية تربت فى حجر الاستعمار ، ونشأت فى خدمته ، واختفت من الحياة العربية أكثر من عاهة روحية كانت تعوق تقدمهم ، واستعادتهم لقوتهم .

لقد خرج الإنجليز من مصر والأردن والعراق ، كما خرج الفرنسيون من الجزائر وتونس والمغرب ، بعد أن خرجوا من سوريا ولبنان ، وانتهت قواعد الاستعمار فى السويس والحبانية ، وبنزرت ، وستنتهى قواعدهم فى المرسى الكبير وفى العضم ومطار إدريس . . واختفى الملك فيصل وعبد الإله ونورى السعيد وجلوب ، ولا تزال حالة المخاض تهز العالم العربى ، لتخرج إلى النور ، أمة عربية أكثر شباباً ، وأشد عزماً ، وأعظم فى القتال إصراراً ، وأحرص على الوحدة ، وأقدر على التضحية . وهذا معناه ، أن جانباً من أعظم جوانب الإنسانية قد برئ من العلل ، وهو جانب كان دائماً مصدراً لتيارات عالمية من الفكر ، والعقيدة ، وهذا كله يؤذن بأن الأمم المتحدة ستلعب دورها الذى خلقت له ، وأن إسرائيل ستزول .

تأميم قناة السويس

فى ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٦ أممت مصر قناة السويس . .

وبتأميم قناة السويس أتيح للأمم المتحدة أن تلعب دوراً من أكبر أدوارها ، فهل أحسنت أداءه ، وهل استعادت به ، ما فقدته من اعتبار ، فى مشكلة فلسطين ؟ .

تلقى مجلس الأمن مذكرتين من الحكومتين البريطانية والفرنسية فى الثانى عشر من سبتمبر ، تشكوان فيه من تأميم القناة ، بدعوى أن عمل مصر ، يتضمن أن محاولة لإنهاء الإشراف الدولى على قناة السويس ، قد يهدد الملاحة فى القناة ، ويعرض الأمن والسلام فى حالة استمرار هذا الوضع ، للخطر .

ولكن فى المدة ما بين صدور قرار التأميم فى السادس والعشرين من يولية ، وتقدم بريطانيا وفرنسا بشكواهما إلى مجلس الأمن ، وقعت أحداث ، هى التى كيفت سير قضية التأميم فى الأمم المتحدة .

ولذلك فإن دراسة تلك الأحداث جزء لا يتجزء من دراسة القضية أمام الأمم المتحدة بقسميها : مجلس الأمن والجمعية العامة . والحق أن تأميم قناة السويس ، يعتبر من أخطر الموضوعات التى عرضت على هذه المؤسسة العالمية ، وقد حفلت بكل العناصر السياسية والقانونية والدبلوماسية ، وقد زاد من اتساع مدى هذه القضية ، وتزاحم العناصر المتباينة فيها ، أن زعيمى المعسكرين الكبيرين الشرقى والغربى ، اتفقتا هذه المرة ، كما اتفقتا فى مرة سابقة ، بشأن قضية إسرائيل . لكنهما هذه المرة اتفقتا على أن تؤيدا الحق ، وأن تتصديا لمعسكر الاستعمار القديم ، وأن تضيقا عليه الخناق : معسكر بريطانيا وفرنسا . وقد كان هذا التطور فى ذاته ، كسباً لحرية الشعوب ، ودعماً للأمم المتحدة بطريق مباشر ، ذلك لأنه لا ينتقص من قدر الأمم المتحدة ، ولا يضعف من نفوذها ، أو يعدمه ، إلا سيطرة الدول صاحبة النفوذ عليها واستئثارها بتوجيهها ، أو عرقلتها . ومن هنا ، كانت كل زحزحة لأصحاب النفوذ عن مكانهم فى صدر المجتمع الدولى ، إتاحة الفرصة للشعوب وللدول

الصغيرة . والمحكومة ، لترفع رأسها ، وتعلى صوتها ، وتمارس حقها .

ما كادت بريطانيا وفرنسا تسمعان بالتأميم ، حتى طار صوابهما كل مطار ، وإن كانتا بقيتا شاعرتين بأنهما أصحاب السيادة فى الموقف ، وأنهما قادرتان على إلحاق الهزيمة بمصر ، وحملها على الرضوخ لإرادتهما ، وكان أول رد فعل للدول الغرب الكبرى ، أن اجتمع وزراء خارجية الدول الثلاث دالاس (الولايات المتحدة) وكرستيان بينو (فرنسا) مع سلوين لويد (بريطانيا) فى لندن ، وأصدروا بياناً فى الثانى من أغسطس عارضوا فيه قرار التأميم ، بدعوى أن قناة السويس ذات صفة دولية ، وأن مصر وإن كانت تملك حق التأميم ، إلا أن قناة السويس تخرج من هذا الحق ، لصفتها الدولية ، وذهبوا إلى حد القول بأن فى الإجراء الذى اتخذته مصر ، انتهاكاً للحقوق الأساسية للإنسان ، وذلك بسبب إرغام موظفى القناة الأجانب على الاستمرار فى العمل فى القناة تحت التهديد بالسجن . واقترحوا ضماناً لقيام القناة بوظيفتها ، إنشاء إدارة للقناة تحت إشراف دولى ، ثم دعوا إلى مؤتمر دولى ، يعقد على وجه السرعة ، تدعى له الدول الموقعة على المعاهدة التى أبرمت فى سنة ١٨٨١ بالآستانة لضمان حيدة قناة السويس والدول الأخرى التى لها مصلحة حيوية فى استخدام القناة، وحددوا لعقد هذا المؤتمر فى لندن اليوم السادس عشر من أغسطس سنة ١٩٥٦ .

وكانت الدول الثلاث قد أعلنت تجميد جميع ما لمصر من أرصدة فى بريطانيا وقد بلغت ١١٢ مليوناً من الجنيهات ، وفى الولايات المتحدة ومقدارها ٦٠ مليوناً من الدولارات، وفعلت فرنسا مثلهما . وقد وجهت الدعوة لحضور المؤتمر إلى أربعة وعشرين دولة كانت مصر من بينها ، وكانت الدوائر الرسمية فى مصر بين رأيين أحدهما يرى تلبية الدعوة وحضور مؤتمر لندن ومواجهة المزاعم الاستعمارية فيه، ودحض جميع حججها ، وبذلك ينقلب الأمر على بريطانيا وحليفاتها ، ويتحول المؤتمر إلى منبر تعلى فيه مصر صوتها ، وتذيع على العالمين رأيها ، فضلا عما ستكسبه من إعجاب الرأى العام العالمى بشجاعتها إذ تنازل الأسد فى عرينه .

وكان الرأى الثانى يرفض قبول الدعوة من حيث المبدأ ، إذ أن قناة السويس تجرى على أرضنا ، وهى مرفق تديره شركة مصرية ، وتضعه فى خدمة العالم ،

دون أن يخرج عن ملكها ، ودعوة الدول الثلاث لمؤتمر دون التداول مع مصر ، وتحديد مكانه وزمانه مستقلين عنها ، مع أنه سيناقش أمر القناة المصرية،فيه من الافتيات ، ما لا يجوز السكوت عليه ، أو التجاوز عنه ، أو الموافقة على على حصوله .

ولقد أخذ بالرأى الثانى لحسن الحظ ، ورفضت مصر الدعوة ، وحذت اليونان حذوها ، فهبط عدد أعضاء المؤتمر إلى اثنتين وعشرين دولة ، كان من بينهم أربع دول وقفت فيما بعد مع حق مصر ، هى الهند وسيلان وأندونسيا والاتحاد السوفيتى .

ولم تكتف مصر برفض الدعوة ، ولكنها دعت إلى عقد مؤتمر يضم ٤٥ دولة مما يهمها أمر القناة بحكم كونها من الدول التجارية أو البحرية الكبرى ، ويدخل فى هذا العدد الدول التى وقعت على اتفاقية سنة ١٨٨٨ الخاصة بحياد القناة ، والدول التى ورثت الإمبراطوريات التى وقعت على تلك الاتفاقية .

ومضت بريطانيا وفرنسا فى اتخاذ الإجراءات التهديدية لمصر ، فقد قررت الحكومة البريطانية فى الثانى من أغسطس دعوة جزء من جنود الاحتياطى وضباطه ، وتحركت من بريطانيا بعض وحدات الجيش والبحرية والطيران ،وصدرت الأوامر للأسطول الفرنسى بالإبحار إلى جهة مجهولة .

ودارت مناقشات حول كل هذه التصرفات فى مجلس العموم ، فأساء النواب استقبال إيدن ، رئيس الوزراء ولما قال إنه يسعى لحل سلمى للمشكلة هتفوا ساخرين : أى صانع للسلام أنت !

وطاش صواب سلوين لويد وزير الخارجية فقال — وكأنه يهذى — إن استيلاء مصر على قناة السويس أعطى لبريطانيا الحق فى وقف تدفق مياه النيل من خزان أوين الذى يتحكم فى مياه النيل التى تحتاج إليها مصر .

وانعقد مؤتمر لندن ، وفى أول جلسة قدم دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة مشروعاً يقوم على إنشاء هيئة دولية لإدارة القناة ، على أن تنشأ هذه الهيئة بمقتضى معاهدة ، وقد قبل الأعضاء بطبيعة الحال هذا الاقتراح فيما عدا الاتحاد السوفيتى والهند وسيلان وأندونسيا .

والطريف فى الأمر أن المجلس بدأ بتقرير أنه لا يستطيع أن يصدر قرارات

ملزمة لأعضائه وانتهى بأنه لا يملك إصدار قرارات مطلقاً . وبعد كلام كثير ، وخطب طويلة ، انتهى المؤتمر بجلسة الثالث والعشرين من أغسطس إلى تأليف لجنة خماسية برياسة روبرت منزيس رئيس وزراء أستراليا ، وعضوية مندوبى الولايات المتحدة ، وإيران ، وأثيوبيا ، والسويد ، لتعرض على رئيس جمهورية مصر ، ما دار من مباحثات فى المؤتمر ، ولتقف على وجهة نظره . ووصلت اللجنة فى الثانى من سبتمبر وانتهت مهمتها فى التاسع من سبتمبر ، وبطبيعة الحال لم تحقق اللجنة شيئاً ، فقد كانت مصر قد انتهت إلى رأى لم يكن فى نيتها العدول عنه ، وهو أن التأميم من حقها ، وأن حرية الملاحة فى القناة ، وحسن سير العمل فيها ، من واجبات مصر التى ستبذل أقصى الجهد للقيام بهما .

وبدا للجميع أن المؤتمر لا يدرى ماذا يفعل ، ولا كيف ينفض ، فلما انعقد فى التاسع عشر من سبتمبر ، عرض عليه دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة فكرة جديدة ثبت فيما بعد أنها كانت لمجرد تلهية بريطانيا وفرنسا ، وتخفيف وطأة الغضب عليهما ، فقد اقترح دالاس عليهما إنشاء هيئة اسمها هيئة المنتفعين بقناة السويس ، الغاية منها تحصيل رسوم المرور ، وتزويد السفن بالمرشدين ، وإدارة عمليات القناة ، فإذا لم تتعاون مصر مع هذه الهيئة أو عاقت أعمالها فإن مصر تكون قد خرقت معاهدة سنة ١٨٨٨ ، واتفقت كلمة الدول الثلاث على أن ترسل الهيئة المقترحة سفينة إلى السويس ، وأخرى إلى بور سعيد ، فإذا منعت مصر مرورهما لجأت الدول إلى مجلس الأمن ، لغرض قيام هذه الهيئة على مصر بالقوة . . .

ولم يتفق الأعضاء على هذه الفكرة ، فتأجل المؤتمر إلى أول أكتوبر ، وفى هذا التاريخ ، التأم المؤتمر من جديد ، وقرر تكوين لجنة تنفيذية للهيئة المقترحة ، وعين لها سكرتير عام ، وانفض فى الرابع من أكتوبر ، ولم ينعقد ثانية لهذا الغرض ، ولم يأذن القدر لحسن الحظ ، لهذه الهيئة أن تولد . .

وقد استهجن فريق من أعضاء مجلس العموم فكرة هذه الهيئة فقال الفرد روبنز إن مشروع إنشاء هذه الهيئة الجديدة ليس سوى مجرد استفزاز وإنه غباوة أيضاً ، وحذرهم من أن مصر إذا صممت الدول الثلاث على إنشاء هذه الهيئة ستكون بفضل الأساليب الحديثة وأعمال الفدائيين على تعطيل الملاحة نهائياً فى القناة . وقال شنويل

وزير حربية بريطانيا السابق فى حكومة العمال ، إن بريطانيا إن فكرت فى الحرب فلا يمكن إلا أن تكون حكومة مجانين .

وقد دفع الرأى العام ممثلا فى الصحافة وفى البرلمان ، حكومة إيدن إلى عرض المشكلة على الأمم المتحدة ، إن كان يعتقد أن لبلاده حقاً فى الاعتراض على التأميم ، أو إن التأميم سيهدد الملاحة فى القناة ، فأعلن سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا أن بطء الإجراءات فى مجلس الأمن هو السبب فى عدم اللجوء إليه ، فى حين أن مشكلة القناة تتطلب حلاً عاجلا »

ولكن لم يكن بد أمام بريطانيا من عرض الأمر على مجلس الأمن فتقدمت هى وفرنسا إليه ، كما قلنا ، فى الثانى عشر من سبتمبر ، لتشكوا إليه مصر ، بينما شكت مصر فى ١٧ من سبتمبر إلى المجلس نفسه التدابير العسكرية التى تتخذها الدولتان الشاكيتان وهى تدابير مهددة للأمن وللسلام العالمى .

وأدمج المجلس الشكويين إحداهما فى الأخرى ، واستمرت المناقشات بين السادس والعشرين من سبتمبر حتى الثالث عشر من أكتوبر ، وقد عقدت خلال هذه الفترة سبع جلسات علنية وثلاث جلسات سرية وقد تناولت الخطب والمناقشات فى هذه الجلسات تاريخ القناة ، ووصفها القانونى ، ودورها الحيوى فى الحياة الاقتصادية ، كما تناولت التأميم وأسسه السياسة . وكما أقر مؤتمر لندن حق مصر فى التأميم ، فقد سلم مجلس الأمن بهذا الحق لمصر ، فقد أصبح التأميم إجراء معترفاً به ، وقد لجأت إليه كل الدول الكبرى المشتركة فى المناقشة ، ولم يكن عند هذه الدول من حجة ، يدفعون بها حق مصر فى التأميم ، سوى الادعاء بأن هناك الحق الدولى ، الذى لم يكن جائزاً لمصر المساس به .

وفى الثالث عشر من أكتوبر وافقت أغلبية أعضاء المجلس على مبادئ ستة ، وصى المجلس باتخاذها أساساً للوصول إلى حل سلمى لمشكلة القناة ، على أن تدور مفاوضات على أساس هذه المبادئ بين مصر وبريطانيا وفرنسا لتكفل للعالم الاطمئنان على حرية الملاحة فى القناة ، وهذه المبادئ هى :

١ ـــ حرية الملاحة فى القناة لجميع الدول دون تمييز صريح أو ضمنى .

٢ ـــ احترام سيادة مصر .

٣ — عزل إدارة القناة عن السياسة القومية لأية دولة .

٤ — تقرير طريقة تحديد الرسوم والمصاريف بالاتفاق مع مصر .

٥ — تحديد نسبة عادلة من الرسوم المحصلة لتحسين القناة .

٦ — فى حالة النزاع يجب حل الشئون المعلقة بين شركة القناة السابقة وبين الحكومة المصرية عن طريق هيئة للتحكيم تحدد مهمتها واختصاصها تحديداً واضحاً .

* * *

وقد جد خلال ذلك عنصر ذو أهمية كبيرة ، فقد أوعزت بريطانيا وفرنسا للمرشدين التابعين لها وللدول الغرب ، أن ينسحبوا فى الخامس عشر من سبتمبر ، وذلك بقصد تعطيل العمل فى القناة ، وإثبات عجز مصر عن إدارته ، وإظهار ما أسفر عنه تصرف مصر من نتائج ضارة لحقت بالتجارة العالمية والاقتصاد الدولى ، ولكن المرشدين توافدوا من الدول الصديقة وفى مقدمتها اليونان ويوغسلافيا والاتحاد السوفييتى ، وبذل المرشدون المصريون — على قلة عددهم — مجهودات مضنية ، ليستمر العمل فى هذا المرفق فى أعلى مستوياته ، لتسقط حجج الغرب ، وفساد دعاويه . وقد نجحت مصر فى ذلك نجاحاً نعده نقطة تحول هامة فى أزمة تأميم القناة .

وقد كان التحدى من جانب الغرب لمصر ، ولإدارتها ومرشديها وملاحيها ، خدمة أسديت لبلادنا ، من حيث لا يدرى الغرب ، فقد استثارت أحسن فضائلنا ، وأبرزت لنا فى صورة مادية ، واجبنا نحو العالم ، فقمنا بهذا الواجب ، ونحن سعداء به ، شاعرين بأننا حرمنا طويلا من شرف هذه الخدمة ، وأن الفرصة التى أتيحت لنا ، ستعوض علينا ما فاتنا ، فحرصنا على ألا تفوت بغير عمل يشرفنا ، ويكشف عن حقيقتنا .

وبينما نحن نمضى هكذا فى العمل المشرف العظيم ، مظهرين سماحة ، وسعة صدر ، ورغبة فى التفاهم ، كانت الدول العظيمة ، التى اعتبرت نفسها الوصية على الإنسانية ، وتمدينها ، غارقة فى مؤامرات مخزية ، بدا طرف منها فى مطالع الأزمة ، ثم ما زالت الأستار ترفع عنها شيئاً فشيئاً حتى بدت للناس أجمعين .

قبلت مصر المبادئ الستة التى قررها مجلس الأمن ، وتحدد اليوم التاسع والعشرون من أكتوبر سنة ١٩٥٦ للتفاوض بين مصر وبريطانيا وفرنسا ، كما تحددت (جنيف) مكاناً لهذا الاجتماع . تلقت مصر دعوة إلى هذا الاجتماع من همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة ، فأسرعت مصر بتلبيته أما بريطانيا وفرنسا ، فقد تلكأتا لأنهما كانتا تعلمان ، أن شيئاً آخر ، ينتظر مصر ، غير المفاوضة معها . فنى التاسع والعشرين من أكتوبر ، وهو نفس اليوم المحدد للمفاوضة شنت إسرائيل هجوماً على مصر . . فانتقلت المسئولية كاملة إلى مجلس الأمن ، وكانت الولايات المتحدة شاعرة مقدماً بفداحة النتائج التى يمكن أن تسفر عن هذا العدوان فى منطقة الشرق العربى ، وحماقة المجازفة الاستعمارية البريطانية الفرنسية التى اتخذت إسرائيل وسيلة لها . وعلى الرغم من شدة ارتباط دوائر المال والحكم بالدوائر الحاكمة فى إسرائيل ، إلا أن فرنسا وبريطانيا يمثلان الاستعمار الآفل ، المنتهى ، والولايات المتحدة تمثل عقلية جديدة فى الغرب ، تشعر معها بمسئوليات ، لا تشعر بها ، بريطانيا وفرنسا ، لأن هاتين الدولتين تمثلان الغنى الذى أفلس ، الذى يميل إلى المجازفة إذ ليس لديه ما يخاف عليه ، والذى تتسم قراراته بالرعونة والطيش لأن مرارة فشله ، تحبب له الانتقام ممن يحاولون التعرض له كأنداد له ، بعد أن كان هو السيد الآمر الناهى .

لهذا كله جزعت الولايات المتحدة من سوء مغبة العدوان الإسرائيلى ، وكان بطبيعة الحال ، شغلها الشاغل أن تدهور الموقف فى الشرق العربى ، يؤدى حتماً إلى خلق فرص ذهبية للدعاية السوفيتية ، كما يهيئ جواً مناسباً للصداقة العربية السوفيتية فأسرعت الولايات المتحدة ، بطلب عقد جلسة عاجلة أمام مجلس الأمن ، للنظر فى العدوان الإسرائيلى ، واتخاذ الخطوات اللازمة لوقف الهجوم على مصر . وعقد المجلس أربع جلسات متوالية بين الثلاثين من أكتوبر ، والأول من شهر نوفمبر . ولشدة اقتناع الولايات المتحدة بالاعتبارات التى أشرنا إليها ، خلا موقفها من الغموض ، واتسم بالصراحة ، بل وبالشدة ، تجاه إسرائيل ، فقد أعلن المندوب الأمريكى فى الجلسة الأولى أن حكومته ترى من واجب المجلس أن يقرر فى الحال ، أن إسرائيل اعتدت على مصر ، وأن حالة من الإخلال بالسلام قد وقعت ،

كما طلبت من المجلس أن يصدر أوامره فوراً بوقف الأعمال العسكرية ، وأن يوضح لإسرائيل فى وضوح ، وبلا أدنى غموض ، أن عليها أن تنسحب بقواتها فوراً إلى ما وراء خطوط الهدنة . ولا نحب أن نضيع وقت القارئ ، فى إثبات ما بررت به إسرائيل هجومها على مصر فى ذلك التاريخ بالضبط ، وبعد تأميم القناة ، فقد زعمت أن هجمات الفدائيين عليها من الأراضى المصرية ، هى من قبيل الغزو لها ، وأن مصر تنوى تحطيم إسرائيل وتدميرها ، لا إقلاقها وإزعاجها فحسب .

على أن سخافة ما قالته إسرائيل ، بدا شيئاً أكثر احتراماً من ترهات مندوب بريطانيا ، فقد جرؤ على القول فى جلسة المساء ، أن حكومته ترى أنه إذا لم توقف العمليات الحربية ، فإن حرية الملاحة فى قناة السويس ستتعرض للخطر ، وأن بريطانيا تقديراً منها لذلك ، قد اشتركت مع الحكومة الفرنسية ، فى توجيه إنذار للحكومتين المصرية والإسرائيلية ، تطلبان فيه منهما سحب قواتهما عشرة أميال بعيداً عن قناة السويس ، كما طلبت من مصر ، أن تسمح بصفة مؤقتة لقواتهما بأن تحتل مواضع على القناة تعتبر بمثابة مفاتيح القناة ، هى بالذات مدن بورسعيد والإسماعيلية والسويس . وأعلن مندوب بريطانيا فى نهاية كلامه ، أنه إذا — انقضت اثنتا عشرة ساعة دون أن تعلن مصر وإسرائيل موافقتهما على هذه الطلبات ، فإن القوات البريطانية والفرنسية ستتدخل فى المنطقة تدخلا عسكرياً مباشراً ، لتضمن تنفيذ هذه الطلبات » .

وقد كان مثل هذا القول الجرىء ، المتحدى لكل منطق ، كافياً ليقيم الدليل على أن مؤامرة قامت بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، بقصد تحقيق عدة أهداف : أولها إسقاط الحكم الوطنى القائم فى مصر ، والذى تحدى القوات الحاكمة للعالم ، والمتحكمة — فى حركات الأموال بين الدول والأسواق ، والتى رفضت تمويل مشروع السد العالى . وثانى هذه الأهداف ، إعادة القوات البريطانية والفرنسية إلى منطقة الشرق العربى ، بعد أن اضطرت إلى الانسحاب منها على دفعتين أولاهما فى سنة ١٩٤٨ ، إذا انسحبت القوات الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقيام الأمم المتحدة ، والثانية فى ١٣ من يونية سنة ١٩٥٦ إذا انسحبت القوات البريطانية بناء على اتفاقية الجلاء المبرمة سنة ١٩٥٤ . أما الهدف الثالث فهو إعلان استقلال

طرف الاستعمار الغربي الواقع فى الشاطئ الشرقي للأطلسي عن طرفه الواقع فى الشاطئ الغربي . ولكن شيئاً من هذه الأهداف لم يتحقق . فلا الحكم الوطنى سقط ، ولا القوات الفرنسية والبريطانية ، استطاعت أن تبقى طويلا فى منطقة الشرق العربي ، ولا بريطانيا وفرنسا ، استطاعتا أن تستقلا عن أمريكا ، بل إن اعتمادهما عليها ، فى فترة أزمة البترول التى حدثت فيما بعد زادت زيادة واضحة ، بل إنهما أصبحتا عالة على أمريكا ، وزادت ديونهما لها .

ولما كانت مدة الإنذار البريطانى الفرنسى ستنتهى فى صباح الحادى والثلاثين من أكتوبر ، فقد طلب مندوب مصر من مجلس الأمن أن يعقد جلسة مستعجلة فى ساعة متأخرة من تلك الليلة لبحث العمل العدوانى الذى ينطوى عليه الإنذار البريطانى الفرنسى بالتهديد باستعمال القوة ، واحتلال أراضيها . ولبى المجلس طلب مصر ، فانعقد فعلا فى تلك الليلة ، وبحث مشروع قرار مقدم من الولايات المتحدة يقضى بأن يطلب المجلس أولا إلى إسرائيل سحب قواتها فوراً إلى ما وراء خطوط الهدنة الأصلية ، وثانياً إلى جميع الدول الأعضاء الامتناع عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها فى المنطقة ، والكف عن تقديم أى عون إلى إسرائيل قبل إذعانها للقرار ، وثالثاً طلبت من الأمين العام للأمم المتحدة مواصلة إطلاع المجلس على مدى إذعان الدول الثلاث للقرار . وقد اقترح تعديل هذا المشروع ، بإضافة فقرة تؤدى إلى أن يكون طلب وقف إطلاق النار موجهاً إلى إسرائيل ومصر معاً ، وقد وافقت أمريكا على هذا التعديل . وقد اقترع على مشروع القرار بعد تعديله فنال سبعة أصوات ، واعترضت عليه بريطانيا وفرنسا ، ولما كان لهاتين الدولتين حق الاعتراض (الفيتو) فقد فشل هذا القرار .

وتقدم مندوب الاتحاد السوفيتى ، مقترحاً بأن يطلب المجلس إلى إسرائيل سحب قواتها فوراً إلى ما وراء خطوط الهدنة الأصيلة ، ولما اقترحت الصين أن يوجه إلى إسرائيل ومصر معاً طلب وقف إطلاق النار ، وافق مندوب الاتحاد السوفيتى ولم يكن هذا المشروع أسعد حظاً من سابقه فقد نال سبعة أصوات ، واعترضت عليه بريطانيـــا وفرنسا وعاد المجلس إلى الانعقاد بعد ظهر اليوم تظلله بسحابة كثيفة ، الأنباء التى جاءت ، بأن الطائرات البريطانية والفرنسية قد

شرعت فى غاراتها على مصر ، ولم يتردد المندوب البريطانى والفرنسى فى إعلان بأن الحكومة المصرية قد رفضت إنذارهما ، وأنهما تبعاً لذلك بادرتا إلى التدخل العسكرى بقصد حماية قناة السويس .

ولما تبين مندوب يوغسلافيا أن (فيتو) بريطانيا وفرنسا ، سيحول دون إصدار قرار من مجلس الأمن ينهى الهجوم المسلح البريطانى والفرنسى على مصر ، اقترح على المجلس أن يدعو الجمعية العامة إلى جلسة غير عادية تنعقد قبل أربع وعشرين ساعة ، انتفاعاً بالقرار الذى أصدرته الجمعية العامة ، والتى أجازت فيه التصدى للمنازعات والمواقف المهددة الأمن والسلام الدوليين والتى لا تتوافر فيها الأغلبية المطلوبة فى مجلس الأمن ، وهو القرار الذى سبق أن تناولناه بالكلام فى الفصل السابق ، والذى عرف (بالاتحاد من أجل السلام) ، وقد أقر المجلس هذا الاقتراح ، فانعقدت الجمعية العامة أول نوفمبر واستمرت منعقدة حتى العاشر منه . فقد أصدرت قراراً فى الثالث من نوفمبر حثت فيه جميع أطراف النزاع على وقف إطلاق النار كما حثت مصر وإسرائيل على الانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة ، كما أوصت جميع الدول الأعضاء بالامتناع عن أية أعمال قد تمنع أو تعرقل تنفيذ القرار .

ولكن قوات العدوان ، كانت تواصل عدوانها ، فإسرائيل كانت تتقدم فى منطقة سيناء ، بعد أن سحبت مصر قواتها منها ، حينما أدركت أن القوات البريطانية والفرنسية ، ستتدخل فى منطقة القناة ، وأنها ستطوق مع قوات إسرائيل ، القوات المصرية وتعزلها تماماً عن قاعدتها فى مصر ، إذ بدأت فى نفس الوقت القوات البريطانية والفرنسية عمليات نزولها فى منطقة بورسعيد .

وفى وسط هذه الأحداث المدلهمة الباعثة على الألم ، لمع فى أفق الشرق العربى ، وميض أمل عظيم ، عندما أعلن أن الشعب السورى قد دمر جزءاً كبيراً من أنابيب البترول التى تمر فى أرضه ، حاملة هذا العنصر الحيوى من عناصر الحياة إلى أوربا ، وقبل ذلك كانت قناة السويس قد سدت بالسفن التى أغرقت فيها ، والتى ظهر فيما بعد أنها بلغت أربعين سفينة ، وكان واضحاً أن تطهير القناة ، وإصلاح أنابيب البترول ، سيحتاج إلى شهور طويلة ، قد أحس غرب أوربا .

بشدة الصدمة الناشئة عن انقطاع بترول العرب عنه ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتوى بنار الأزمة الناشئة عن هذا الانقطاع .

ولو تأملنا موقف الشعب العربى ، من الحرب التى شنتها عليهم بريطانيا وفرنسا ، لظهر لنا كيف أنه التزم ما تقضى به قواعد عدم العنف ، فإن العرب لم يردوا على الحرب بالحرب ، وإنما منعوا عن المعتدين الوقود الذى يغذى آلة الحرب ، ويجعلها قادرة على الفتك والتدمير ، كما أنهم لجأوا فى الوقت نفسه إلى الضمير الإنسانى ، ممثلاً فى الرأى العام العالمى ، وإلى شعوب العالم وحكوماته ، مجتمعة فى الأمم المتحدة ، وهذه كلها وسائل الإنسان المتحضر ، ودرعه الذى يقيه من عنف وضراوة الإنسان المدجج بالسلاح ، والمعتز بالقوة ، واللذان يتيحان للأقوى ، أن يلتهم الأضعف ، والأكبر أن يحطم الأصغر ، والأغنى أن يسخر ويستغل الأفقر .

والحق أنها كانت معركة من أجمل معارك الإنسان ، وأحقها بالتخليد ، وأولاها بأن توحى للمفكرين والأدباء ، بخواطر كثيرة ، وأن تسجل نظماً ونثراً ، لتؤنس الإنسان ، فى وحشة كفاحه الجليل ، ضد عناصر التحكم ، وأسباب التخلف .

واصلت طائرات بريطانيا وفرنسا ، إسقاط القنابل فوق رأس أبناء الشعب المصرى فى القاهرة والإسكندرية ، كما واصلت وحدات الأسطول البريطانى ، وطائراته قصف مدينة بور سعيد وأهلها بأقوى المدافع ، وبقنابل أسراب الطائرات التى لم يخجل طائروها وقوادها من أن يقصفوها فى القرن العشرين ، وهى مدينة آمنة ، تكاد تكون عزلاء ، لمجرد أن حكومتها ، استعملت ما اعترفت حكومات المغيرين المعتدين أنفسهم بأنه حق مشروع .ليس فيه ما يخالف القانون الدولى ، ولا ميثاق الأمم المتحدة .

ولكن كسب مصر كان أعظم ، وكسب الإنسانية كلها ، كان أكبر . ذلك لأن الشعب المصرى لم يتخاذل ، ولم تلح منه حركة ، أو بادرة حركة تمرد أو سخط على حكومته ، وهو ما كان يؤمله المهاجمون المعتدون . فسجلنا انتصارنا الروحى ، وتفوقنا الأدبى عليهم ، وأثبتنا فى صحائف التاريخ ، أننا جديرون بأن نواجه القوة المتألبة والعادية من أجل هدف وعقيدة .

فى الجانب الثانى من العالم ، كانت الجمعية العامة ، تحاول إثبات وجودها ، وترويض وحوش المجتمع الإنسانى ، وتثبيت قواعد المجتمع الدولى الجديد ، وكان نضالا عظيماً بدوره ، يستحق التكريم ؛ فى الرابع من نوفمبر ، تقدمت كندا والهند بمشروعات لإنشاء قوة يوكل إليهاتنفيذ قرار الثانى من نفس الشهر القاضى بالانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة ، وعادت الجمعية العامة فى اليوم التالى (أى الخامس من نوفمبر) فاصدرت قراراً خاصًّا بتفاصيل إنشاء تلك القوة ، وقيادتها التى أسندت إلى الجنرال بيرنز . وفى نفس اليوم طلب الاتحاد السوفيتى إلى مجلس الأمن درس موقف بريطانيا وفرنسا وإسرائيل من تحدى موقف قرار الجمعية العامة الذى ألزم هذه الدول بالانسحاب ، مع اتخاذ الخطوات الفورية اللازمة لوقف العدوان على مصر ، ولكن مجلس الأمن لم يكن مكاناً صالحاً للدفاع عن حقوق مصر فى تلك الفترة ، ولا مانعاًمن مواصلة الحرب التى شنت عليها ، ولذلك لم يكن غريباً أن المجلس رفض مجرد إدراج هذا الطلب فى جدول أعماله . أما الجمعية العامة فقد قررت فى السابع من نوفمبر ، بعد أن استمعت تقرير الأمين العام عن الخطوات التى اتخذها لإنشاء قوة الأمم المتحدة ، ووافقت نهائيًّا على تكوينها ، ثم أصدرت قراراً مؤكداً لقراراتها السابقة بوقف إطلاق النار ، والانسحاب إلى ما وراء الحدود ، ويطالب من جديد بجلاء القوات البريطانية الفرنسية عن الأراضى المصرية فوراً ، وبانسحاب قوات إسرائيل إلى ما وراء خطوط الهدنة .

وفى العاشر من نوفمبر ، قررت الجمعية العامة غير العادية ، أن تضع فى جدول أعمال الجمعية العامة العادية التى كان مقرراً أن تنعقد فى الثانى عشر من الشهر موضوع العدوان على مصر ، بصفته موضوعاً ذا أولوية .

وفى جلسة الثالث والعشرين من الشهر سمعت الجمعية العامة تقريراً من الأمين العام عن تلكؤ بريطانيا وفرنسا فى تنفيذ قرار الجلاء ، وفى الرابع والعشرين من الشهر أكدت الجمعية العامة قراراتها السابقة ، وطالبت من جديد الدول المعتدية بسرعة الجلاء فوراً . . وقد بقيت بريطانيا وفرنسا تتلكآن حتى الثانى والعشرين من ديسمبر ، فجلتا عن مصر . . .

على أن إسرائيل بالغت فى تلكؤها ، فلم تتلق الأمم المتحدة ما يدل عن جلائها عن قطاع غزة إلا فى السابع من مارس سنة ١٩٥٧ ، وذلك بعد وصول قوات الأمم المتحدة التى أنشئت لتقف على الحدود بين مصر وإسرائيل ، وقد بلغت عدة هذه القوات فى أوائل سنة ١٩٥٧ نحو ستة آلاف رجل بين ضابط وجندى يمثلون عشر دول ، ولكن هذه القوة خفضت بعد ذلك إلى خمسة آلاف وأربعمائة يمثلون ثمانى دول . وقد كانت الدول المشتركة فى هذه القوة أولا هى البرازيل وكندا وكولومبيا والدانمرك وفنلنده والهند وإندونيسيا والنرويج والسويد ويوغسلافيا ؛ إلا أن كلا من فنلنده وإندونيسيا سحبت قواتها .

انتهى الأمر إذن أمام الأمم المتحدة بانسحاب بريطانيا وفرنسا من مصر ، ثم بانسحاب إسرائيل من غزة ، وقد تم هذا الانسحاب ، على الرغم من طول التلكؤ ، من جانب بريطانيا وفرنسا ، قبل أقل من شهرين فقد بدأ نزول القوات البريطانية فى الثانى من نوفمبر وجلت عن أرض مصر فى الثانى والعشرين من ديسمبر ، وقد كان أمل هذه القوات أن تبقى فى مصر طويلا ، وإن اضطرت إلى الجلاء ، فليس قبل أن يزول آخر أثر للروح الجديدة التى دبت فى الشرق العربى ، روح التمرد ضد الاستعمار ، وروح التطلع إلى الاستقلال الحقيقى وممارسة الحرية ممارسة فعلية ، والعزم على طرد كل نفوذ أجنبى ، أو رغبة فى التبعية ، من بلاد العرب أجمعين . ولكن هذا الأمل الكريه لم يتحقق ، فلا الإنجليز والفرنسيون استطاعوا البقاء ، ولا استطاعوا إلحاق الهزيمة بالروح الجديدة فى المنطقة ، بل إنها زادت قوة ، واشتعالا ، وعبرت عن قوتها الجديدة بمزيد من الصور والأشكال ، كان أولها ، عملية تدمير أنابيب الزيت ، وكان منها الوحدة المصرية السورية ، وإن كان قد قدر لهذه الوحدة أن تنفصم ، فقد انفصمت بعد أن تركت طابعها وآثارها على الحياة العربية ، وهو أمر سيكون له ما بعده قطعاً ، فى طريق الوحدة ، والتحرر والتقدم .

وقد كان تلكؤ البريطانيين والفرنسيين وإسرائيل ، سبباً فى خلق مظاهرة دولية تؤيد مصر ، وموقفها وتدمغ العدوان ، وتدعو إلى سرعة سحب قواته ، حتى بانت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى وحشة ، لا يؤيدها ولا يقف معها أحد من الدول ،

وليس هذا وحده . بالشيء القليل ، فقد كانت بريطانيا وفرنسا ، دولتين عظيمتين ، تسعى الدول فى كل محفل دولى ، لكسب رضاهما . ولم يكن فى الوسع فى أيام عصبة الأمم وما بعدها ، أن يصدر ضد هما قرار واحد ، ينتقد عملا من أعمالهما ولو من بعيد ، فلقد تغيرت الأيام حتى أصبحت قوات عدوانها تشيع عند جلائها من مصر ، وسط مظاهرة استهجان من المجتمع الدولى ، فإن ذلك التغير ، يشير بأن مزيداً من الحرية . ينتظر الإنسانية ، وإن من حق الدول الصغيرة والشعوب المغلوبة على أمرها . أن تطمع فى تحقق عالم أفضل .

* * *

على أن ما حدث خارج أروقة الأمم المتحدة كان جملة من الظواهر التى لم تشهدها الحياة الدولية من قبل ، وكانت هذه الظواهر جميعاً ذات دلالة واحدة ، هى أن الاستعمار لم يعد سيد الموقف ، وأن كلمته التى كانت فى الماضى القريب قانوناً أصبحت أشبه شيء بهذيان المحموم ، فالمنطق ينقصها ، والقوة تعوزها ، إذ لا أحد يذعن لها ، وهى لا تثير فى نفس أحد احتراماً ولا تقديراً .

ونعيد مرة أخرى أن مؤتمر لندن اجتمع وانفض دون أن يحقق شيئاً ، وأن أعضاء المؤتمر بعد أن كانوا يعتقدون أن مصر ستسعى إلى المؤتمر وتدافع عن نفسها أمامه ، ذهبوا هم إلى مصر ، وعرضوا عليها ما دار فى المؤتمر . وبعد أن كان المأمول عند الاستعماريين ، جعل المؤتمر محكمة تدين مصر وتحكم ضدها ، أقر المؤتمر حق مصر فى التأميم وتحول إلى منبر يقذف الحمم فى وجه الاستعمار ، ويندد به .

واضطرت بريطانيا وفرنسا لأول مرة أن تشكو دولة أخرى ، دولة كانت تعانى من نير الحكم البريطانى وامتيازات الفرنسيين إلى ما قبل هذه الشكوى بأيام لا تزيد عن ثلاثة شهور . ولم تجد ما تقوله الدولتان تأييداً لشكواهما إلا أن إسرائيل هجمت على مصر ، ولذلك فهما مضطرتان إلى ضرب مصر ، واحتلال أراضيها ، ووضع اليد على ثلاث مدن فى الجانب الشرقى منها ، وهو كلام لا معنى له ، ولا يفهم منه سوى أن الحيرة التى أحدقت ببريطانيا وفرنسا ، أذهلتهما عن كل شيء ، حتى عن احترام نفسيهما والبحث عن كلام يليق بالعقلاء . ومع ذلك فهاتان الدولتان لم تجدا فى مجلس الأمن ، ولا فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، من يقف معهما ، أو يلتمس

لهما المعاذير حتى الولايات المتحدة كانت ضدهما فى غير لبس ولا غموض . وقد كان نقل القضية من مجلس الأمن إلى الجمعية العامة كسباً لمبدأ حرية الشعوب ، إذ وجدت القضية فى هذا المجال الواسع ، فرصاً أكبر وأعظم ، فى تأييد مصر ، واستنكار مسلك بريطانيا وفرنسا وإسرائيل .

وجاء تدمير أنابيب البترول وانقطاعه عن أوربا ، وقناة السويس ، دليلا على أن الشعوب الصغيرة أصبحت تملك من وسائل الدفاع عن نفسها ، والتعبير عن إصرارها على حقها ، ما عدل صورة المجتمع الإنسانى فى أذهان الصغار والكبار معاً . فزاد أمل الصغار وثقتهم بأنفسهم ، وأعاد الكبار إلى صوابهم .

وانكشف ستر المؤامرة التى تلاقت عندها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، وأصبح قيام هذه المؤامرة ، حقيقة لا شك فيها .

وقد يكون من الخير أن نثبت هنا ما قالته جريدة الأوبزرفر البريطانية فى عددها الصادر فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٦ قبل أن تنفض الأزمة ، قالت الجريدة[١] :

« تدل التحريات فى العواصم المعنية بالأمر على أن التهمة الخاصة بالتآمر الأنجلو- فرنسى مع إسرائيل تؤيدها أدلة سابقة ، وما يتلو ذلك ليس حكم مؤرخ ، ولكنه حكم قائم على الأدلة التى بين أيدينا فى الوقت الحاضر » .

ومضت الجريدة تقول إن ما لديها من بيانات تقطع بأن رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها باعا أثناء الاجتماع الذى عقداه فى باريس فى السادس عشر من أكتوبر إلى سير أنطونى أيدن ومستر سلوين لويد خطة للتدخل كانا قد رسماها مع إسرائيل ، ثم قالت : « إن الألفة المطردة بين حكومتى فرنسا وإسرائيل استمرت فى ازديادها وتوثقها شهوراً قبل أن تظهر أزمة قناة السويس فى آخر يولية ، على أنه لوحظ فى أواخر أغسطس فى لندن وواشنطن أن الحكومة الفرنسية لم تعد تمدهما بمعلومات عن شحنات الأسلحة التى تصدرها لإسرائيل . وبعد ٣٠ من أغسطس اقتنعت المخابرات الأمريكية بأن فرنسا تمد إسرائيل بالأسلحة دون أى تحفظ ، وأبلغ مراسل التيمز فى تل أبيب أنه لم يمض وقت طويل على عودة السفير

---

(١) فى المعركة للمؤلف ص ١١٥ .

الفرنسى إلى إسرائيل من عطلة الصيف فى فرنسا ، حتى خطب رئيس وزراء إسرائيل بن جوريون فى جمهور من أعضاء المجلس العام لحزبه قائلا : « إن إسرائيل لن تلبث حتى يكون فى إمكانها الاعتماد على حليفة صادقة ، ولم يشك أحد فى أن رئيس الوزراء قد عنى فرنسا . واعتقد أنه فى سبتمبر عرضت إسرائيل على فرنسا فكرة شن هجوم مشترك على مصر ، وتقول مصادر وشنطن وباريس ، إنه خلال اجتماع مجلس الأمن فى نيويورك من ١٣ إلى ١٥ من أكتوبر وافقت فرنسا على تلك الفكرة مشترطة اشتراك بريطانيا .

ثم قالت الأوبزرفر « إن مستر سلوين لويد بعد عودته من نيويورك فى السادس عشر من أكتوبر حضر اجتماعاً قصيراً لمجلس الوزراء البريطانى ، وحضر هذا الاجتماع رئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية ، ثم سافر إلى باريس برفقة رئيس الوزراء ، ولكن ما حدث بالضبط فى ذلك الاجتماع لم يعرف قط ، ذلك لأن الوزراء الأربعة أخرجوا جميع مستشاريهم من غرفة الاجتماع ، والنتيجة التى توصلت إليها الولايات المتحدة هى أن الاتفاق بين موليه وبينو من جهة ، وإيدن وسلوين لويد من جهة أخرى ، قد تم فى هذا الاجتماع على الهجوم على مصر بالاشتراك مع إسرائيل ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد ممكناً للمراقبين فى أمريكا أن يكشفوا وحدهم أن شيئاً غير عادى يجرى العمل على إنجازه على قدم وساق ، بل إن كبار الموظفين البريطانيين أنفسهم وصغار الوزراء فى بريطانيا وفرنسا ، استولت عليهم الدهشة حينما تبينوا فيما بعد أن أسماءهم استبعدت من قوائم توزيع محاضر الاجتماعات والمذكرات السياسية .

« واستناداً إلى معلومات وثيقة بدأت القوات الفرنسية تتجمع فى منطقة مرسيليا — طولون بعد ١٦ من أكتوبر ، ويقال إنها ذاهبة إلى ما وراء البحار ، وطليت عرباتها بطلاء حرب الصحراء ، كما غادرت قاذفات القنابل النفاثة البريطانية ڤاليانت Valiant قواعدها إلى مالطة ، لأنها اشتركت فى الهجوم على مصر بمجرد انتهاء الإنذار البريطانى . وفى ٢٦ من أكتوبر وصل باريس عدد كبير من كبار ضباط إسرائيل ، وكشفت المخابرات الأمريكية ارتفاعاً ملحوظاً فى مستوى البرقيات الرسمية والرسائل اللاسلكية بين باريس وتل أبيب ولندن » .

وما قالته جريدة الأبزرفر فى حينه ، كررته لا صحف ، بل كتب ، وقد كانت هذه المؤامرة وكشفها ، كسباً ذا وجهين ، الوجه الأول ، هو ما يدل عليه اضطرار بريطانيا وفرنسا للتآمر مع إسرائيل، فإن ذلك الاضطرار يؤكد ضعف الدول الاستعمارية عندما تواجه أمة و دولة صغيرة ذات حق . فقد كان فى الماضى الإقدام على سحق دولة ، والتهامها ، عملا سهلا ، لا يحتاج إلا لمجرد دراسة الوقت المناسب لارتكابه ، أما اليوم فلابد من أن تتواطأ ثلاث دول ، وأن تسدل على تواطئها ستائر كثيفة حتى لا تضبط متلبسة به ، قبل إتمام الجريمة .

أما الوجه الثانى للكسب فهو أن الذى تولى فضح هذه المؤامرة والتنديد بها هى أجهزة الغرب ، فلم يعد العمل الاستعمارى عملاً تقره شعوب الغرب قاطبة كما كان الحل ، ولم تعد مقاومة هذه الأعمال المتحدية لميثاق الأمم المتحدة ، وللضمير العالمى ، وللروح السائدة للسلام ، مجرد صيحات فردية مؤقتة لا تلبث أن تضيع مع ضجيج الحياة ، وفى زحمتها ، بل إن هذه المقاومة كانت عملا ضخماً ، واسع النطاق ، شمل جهات عديدة فى لندن و باريس، وعواصم كثيرة جداً فى الغرب والشرق . فكان هذا كله دليلا على ميلاد روح تضامن الشعوب أمام قوى الشر ، القديمة .

على أن المكاسب الأدبية فى هذه المعركة كانت كثيرة جداً ، فقد أشرنا من قبل إلى أن الولايات المتحدة قد أغضبتها الحملة البريطانية الفرنسية الإسرائيلية لأسباب تتعلق بمصلحة الولايات المتحدة نفسها فى العالم كله ، وفى منطقة الشرق العربى على وجه خاص، وأياً كانت الأسباب الدافعة للولايات المتحدة للوقوف هذا الموقف فإنه كسب كبير أن تتطور الأمور إلى الحد الذى تخشى معه هذه الدولة الكبيرة سوء النتائج المترتبة على حماقة كتلك التى ارتكبتها بريطانيا وفرنسا عندما أقدمتا على هذه المجازفة الجالية من كل حكمة،والتى تحمل طابع قرن مضى . وقد كانت العبارة التى استعملها الرئيس إيزنهاور فى بيانه الذى وجهه إلى الشعب الأمريكى تأكيداً للروح الدولية الجديدة التى أعلنت عن نفسها فى معركة القناة ، ولذلك نرى تسجيل بعض ما جاء فى هذا البيان فيما يلى :

« سيظل الهدف الذى تكرسه حكومتكم ، هو أن تفعل كل ما فى وسعها ليبقى

هذا القتال محلياً ، ولكى ينتهى هذا النزاع ، وقد اتخذنا أول إجراء فى هذا المسعى أمس (٣٠ من أكتوبر) عندما ذهبنا إلى مجلس الأمن طالبين أن تعود قوات إسرائيل إلى بلادها ، وأن يوضع حد للأعمال العدوانية فى هذه المنطقة . ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به لأن بريطانيا وفرنسا قد استخدمتا ضده حق الفيتو ، ومع هذا فإن إجراءات الأمم لم تستنفد بعد ونحن نأمل ونعتزم أن يثار هذا الأمر أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وحيث لا محل لاستخدام حق الفيتو ؛ فإن رأى العالم يمكن الوصول إليه ليدعم هدفنا فى تحقيق نهاية عادلة لهذه المشكلة المؤلمة » .

ومرة أخرى نقول إنه لا يغض من قيمة هذا الكلام أن يساق لتفسيره أن إيزنهاور كان محنقاً لأن بريطانيا وفرنسا أخفيتا عنه مؤامرتهما ، وأنهما انتهزتا فرصة انشغاله فى انتخابات الرياسة التى كانت ستجرى فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ ليتما عملهما القبيح ، وقيل فوق هذا كله إن إيدن تدخل فى انتخابات الرياسة ، مؤيداً خصوم إيزنهاور ، الذى كان يؤخذ عليه عدم ميله للتعامل مع إيدن ، وعدم الموافقة على سياسة بريطانيا الخارجية .

وفى الخامس من نوفمبر ، وبعد أن صدر قرار الجمعية العامة بوقف القتال وانسحاب المعتدين إلى ما وراء خطوط الهدنة ، جاء الإنذار السوفيتى متوجاً لهذا الموقف الدولى ، فقد وجه بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى إلى كل من بريطانيا وفرنسا ، إنذاراً أعلن فيه تصميم الحكومة السوفيتية على استخدام القوة للقضاء على عدوانهما وقال فى إنذاره لهما إن بريطانيا وفرنسا قد تستهدفان لهجوم من دولة أقوى منهما كثيراً ، تستطيع أن تضربهما لا بالسفن والطائرات ، بل بالصواريخ الموجهة .

وهكذا أشرف العالم على حافة الحرب ، وبدا أن تأميم القناة ، تأزمت له الأمور العالمية ، وكان مثل هذا الإجراء فى الماضى مستحيل الوقوع ، وإن وقع ، فلا يستدعى لحله كل الذى حدث فى سنة ١٩٥٦ فالعالم تغير فعلا ، وخرج من إهاب العالم القديم ، عالم جديد ، بمعايير جديدة ، ونظرات للأمور جديدة ، وبعزم جديد ، وبروح جديدة ، وبأمل جديد . . .

وقد كان من المستحيل على دولة صغيرة ، أن تؤدب دولة كبيرة ، إذا ما خرجت

هذه الدولة عن حدودها التى تلزمها بها مبادئ القانون الدولى المتعارف عليها ، ولكن مصر والبلاد العربية استطاعت أن تؤدب بريطانيا وفرنسا ، لا أدبيًّا فقط ، ولكن ماديًّا أيضاً ، فقد لقى أهل بريطانيا ، وفرنسا ، ومعظم بلاد غرب أوربا عذاباً شديداً ، بسبب انقطاع البترول عنهم ، وتدهور احتياطى الدولار فى إنجلترا ، وزادت ديون أمريكا على غرب أوربا ، ولعل أبلغ ما يمكن ذكره هنا هو ما اعترف به ما كميلان رئيس وزراء بريطانيا الذىولى رياسة الوزارة بعد سقوط إيدن بسبب انهيار أعصابه ، وتألب الرأى العام فى بلده ضده ، لمجازفته الخرقاء فى السويس ، ثم فشله فيها .

قال ماكميلان أمام مجلس العموم البريطانى فى جلسة الرابع من ديسمبر سنة ١٩٥٦ إن بلاده تواجه كارثة اقتصادية ، فاحتياطى الذهب والدولارات فى منطقة الإسترلينى أصيبت خلال شهر نوفبر ، شهر الأزمة ، بأكبر هبوط أصابه منذ أكثر من عام ، إذ نقص هذا الاحتياطى ٢٧٩ مليون دولار ، مما جعل الرصيد الباقى ينخفض عن الحد الأدنى الذى يكفل سلامة مركز الجنيه الإسترلينى ، وأعلن أيضاً فى تلك الجلسة أن بريطانيا طلبت من الولايات المتحدة وكندا التنازل عن فوائد قروضهما من الدولارات عن شهرنوفبر ، وأنها قررت رفع الرسوم الجمركية على البنزين وغيره من زيوت الوقود الخفيفة ، وأن هذه الزيادة مؤقته ريثما تنتهى أزمة البترول ، ونبه الوزير البريطانى إلى أن الميزان التجارى البريطانى ، لابد وأن يتأثر تأثراً حادًّا بإغلاق قنـــاة السويس وتدمير أنابيب البترول العراقية التى تمر بالأراضى السورية .

ولم يكن الحال فى فرنسا ، وفى غيرها من بلاد غرب أوربا أحسن حالا من بريطانيا ، فقد قيد فيها استهلاك البترول والبنزين ، وانقطع عن مصانع فرنسا ثلثا ما كانت تستهلكه من البترول ، والذى كان يرد إليها من الشرق الأوسط . .

كل ذلك حدث فى أوربا صاحبة السيادة التى كانت تبسط ظلها وتنشر سلطانها على كل آسيا وأفريقيا ، أما فى مصر والبلاد العربية ، فعلى الرغم من أن الأعداء كانوا يدقون بابها ، بأيديهم الغليظة ، وعلى الرغم من غارات الطائرات ، واحتشاد قطع الأسطول الفرنسى والإنجليزى ، فإن الحياة مضت فى هذه البلاد

عادية ، لم يقيد فيها استهلاك شيء ، ولم ينقطع الناس خلال الأزمة عن نشاط كانوا يزاولونه أو طعام كانوا يتناولونه .

وقد نحتاج فى ختام هذا الفصل أن تعرف حصيلة هذه المجازفة الحمقاء ، وكالعادة لا نلتمس الحكم عليها عند المصريين أو العرب ، بل نلتمسه عند أهل أوربا لتكون الشهادة فوق الشبهة ، وإليك الحساب الختامى ، كما تحدد أرصدته أكبر صحف الغرب .

قالت النيويورك تيمز ، وهى أكبر جرائد الولايات المتحدة ، ثم أعظم جرائد العالم موالاة وتحيزاً لإسرائيل :

« إن المغامرة التى قامت بها بريطانيا وفرنسا كان مآلها الفشل الذريع ، لقد اضطرتا لسحب تأييدهما على حين غرة لإسرائيل ، فأصبحت فى عزلة أكثر إيحاشاً عن ذى قبل ، كما أنهما عرضتا سمعتهما وعلاقتهما الخارجية للامتهان ، فى حين ظل عبد الناصر عدوهما اللدود ، فى منصة الحكم وستزداد قوته ونفوذه فى الشرق الأوسط عما كان ، بينما اضمحل نفوذهما فى هذه المنطقة وتقلص .

وختمت الجريدة كلامها بقولها « إن مقامرة السويس قد انتهت بالإفلاس ، وبتراجع الإسرائيليين بعد أن أثاروا عليهم عداوة موسكو وسخط واشنطن ، إن هذه النهاية المخزية كان ممكناً أن تنقلب لصالح بريطانيا وفرنسا لو تكللت الحملة الإنجليزية الفرنسية بالنجاح السريع ، إذ ليس أنجح من النجاح ، وليس أفشل من الفشل »

وقالت جريدة شيكاجو تريبيون : « إذا كانت محكمة نورمبرج قد وضعت مبدأ دائماً لمعاقبة المعتدين فإن من بين من يستحق أن يقف فى قفص الاتهام سير أنطونى إيدن ، وسلوين لويد (وزير خارجية بريطانيا) ، وموليه رئيس وزراء (فرنسا) ، وبينو (وزير خارجية فرنسا) وبن جوريون ووزير خارجته »

وقالت جريدة فراى فولكس الهولندية »

« إن سلطة التصرف (فى الشرق الأوسط) قد خرجت تماماً من أيدى إنجلترا وفرنسا ، فمن الناحية العسكرية لم يحقق أدنى نجاح ، ومن الناحية السياسية فقدا آخر شيء من نفوذ لهما فى الشرق الأوسط » .

ولعل هذا الفصل يؤكد الإيمان الذى أراد هذا الكتاب أن يؤكده ، أن القوة بغير الحق لا يصيبها إلا الخسران ، وأن الحق حتى بغير القوة ، يحقق فى المدى البعيد ، الفوز المبين .

* * *

وبعد كتابة هذه السطور ، وإعداد الكتاب بصفة نهائية ، لتقديمه إلى المطبعة ، نشر فى أوربا وأمريكا أكثر من كتاب ، من أهمها كتاب هيرمان فاينر أستاذ العلوم السياسية فى جامعة شيكاجو ، المعنون « دلاس والسويس » Dulles over Suez — وكتاب — الكاتب الإسرائيلى ذوهار ultra secret ، والواقع أن هذين الكتابين ولا سيما أولهما ، وإن أثارا تعليقات كثيرة ، إلى الحد الذى رأت معه المعارضة فى مجلس العموم البريطانى أثارة موضوع حرب السويس فى المجلس من جديد ، إلا أنهما فى واقع الأمر لم يضيفا إلى الحقائق التى أثبتناها فما سبق شيئاً جديداً ، فالتآمر الذى أشرنا إلى حصوله من كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قبيل حرب السويس لم يعد أحد يشك فى حصوله ، فالدلائل الظاهرة التى أوردناها ، وما صدر عن مندوبى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ، قاطعة الدلالة على أن الحرب التى شنت على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، لم تقع إلا بتدبير سابق بين المعتدين الثلاثة ، وأن أدوارهم وزعت بينهم بترو وتدبر طويلين ، وهذا ما قاله (هرمان فاينر) فإنه سجل فى كتابه : أن اجتماعاً وقع بين سلوين لويد ودافيد بن جوريون كريستيان بينو فى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٩٥٦ أى قبل بدء الهجوم الإسرائيلى على مصر ببضعة أيام ، وإن مكان الاجتماع مبنى قائم فى مطار فيلا كوبلاى بفرنسا ، وهو لا يبعد كثيراً عن مدينة سفر ، وقد درست فى هذا الاجتماع خطة الهجوم . على مصر ، مما اضطر المجتمعين إلى دعوة بعض الرؤساء العسكريين لمناقشة الخطة وإبداء الرأى فيها .

وأثبت الكتابان أنه كانت هناك أكثر من خطة للهجوم على مصر ، منها واحدة ، وضعت وهدفها ضرب الإسكندرية وأطلق على هذه الخطة Musqeteer « موسكيتر » وكان بين هذه الخطط أيضاً ، ما وضع مع افتراض أن أمريكا ستشترك فى الحملة على مصر ، وقد سميت هذه الخطة باسم Nannicar أما الخطة

الأخيرة والتى نفذت فعلا والتى اقتصر العمل فيها على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فقد سبقها اتصالات بين باريس وتل أبيب، فقد تنقلت الوفود بينهما على أعلى مستوى، وكان وزير الحربية الفرنسية وقتذاك بورجيس مانورى ومدير مكتبه آبل توماس من أشد المتحمسين لتسليح إسرائيل، وقد أعطاها فعلا طائرات مستير ٤، بلغ عددها أولا ٢٤ طائرة، ثم زاد على مر الأيام، ثم قدراً كبيراً من المدافع والدبابات وقطع الغيار التى كانت تنقلها السفن الفرنسية والناقلات الضخمة . . . إلخ إلخ . .

ولكن ماذا كانت جدوى هذا كله ؟ !

مرة أخرى، قوة بغير حق، ضعيفة عزلاء، والحق بغير قوة، يزداد مع الأيام قوة، ويجرد المدججين بالسلاح من سلاحهم . . .

الكِتابُ الخامِسُ

السلام الدائم

الفصل الأول

نزع السلاح

وبعد هذا الطواف الطويل ، من عهد المسيح إلى الأمم المتحدة ، بعد حروب طاحنة ، وآمال فى السلام والسعادة عريضة ، هل جاز لنا أن نقول إنه قد آن للإنسانية أن تدنو من السلام الدائم ، الذى يحول الإنسان الضارى ، الذى يفقد خصائصه الروحية ، ويسلمها لخصائصه الحيوانية ، لدى الغضب ، إلى إنسان عاقل يضبط نفسه ، ويحول طاقته الغضبية إلى العمل النافع ، والجهد المثمر ، ويتذوق لذائذ الحياة التى تظلها الأخوة ، والتعاون ، وتحدو خطاها العلوم والفنون ، وتثريها وتغنيها ، خيرات التبادل بين الأمم والشعوب . .

هل آن لنا ، أن نضع جانباً السيف والمدفع ، لأنهما لا ينتجان شيئاً ، ولا يحققان هدفاً ، ولا يقضيان على شر ، ولا يهيئان مكاناً لخير ؟

هل آن لنا ، أن نفهم أن التطور الإنسانى ، هو تطور الأفكار التى فى العقول ، والمشاعر التى فى القلوب ، وأنه يسير غير عابئ بالحروب ، ولا بالحواجز ولا بالسدود . وأنه يعلو فوق نعرات الجنس ، واللون والدين . وأن من يؤمن بعقيدة ، فليبشر بها ، مخلصاً ، وليروج لها نشيطاً ، دون أن تساوره للحظة فكرة دفع فكرته بالحديد والنار ، فإن الأفكار التى تملأ الجو ، عزلاء ، أقوى من الأفكار التى تسير فى ركب الجيوش ، وزحف الجنود ، فالأولى هى التى تغزو وتفتح ، والثانية هى التى يستغلها الأقوياء لمطامع نفوسهم ، وتسخرها الدول ، لتبسط نفوذها وتعلى من سلطانها . .

لقد حاول الإنسان أن ينزع السلاح من الدول منذ قديم ، وكان الشرق كعادته موطن هذه الفكرة منذ ٦٠٠ سنة قبل الميلاد ، فقد اتفقت الدول الصينية التى حاربت بعضها بعضاً طويلا بوادى اليانج تسى على نزع السلاح ، فعاشت فى سلام قرناً أو يزيد .

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، وبعد الحرب العالمية الأولى كانت هناك محاولات لنزع السلاح ، ألمحنا بصورة إجمالية لها فى فصل سابق من هذا الكتاب ، وقد تكررت هذه المحاولات بعد الحرب العالمية الثانية وبعد قيام الأمم المتحدة ، وكان الواجب يقتضينا أن نسرد هذه المحاولات تفصيلا فهى جهود مبذولة لنزع السلاح ، تأميناً للسلام ، وموضوع هذا الكتاب هو السلام . ولكن الواقع أن هذه المحاولات لم تؤد إلى شيء ذى قيمة حتى أغسطس سنة ١٩٦٣ ، حينما أبرمت فى موسكو اتفاقية الحظر الجزئى للتجارب النووية بين الدول النووية الثلاثة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة والمملكة المتحدة بريطانيا ، وهو الحظر الذى يتناول التجارب التى تقع فوق سطح الأرض ، وفى الفضاء ، وتحت الماء ، دون التجارب التى تقع تحت سطح الأرض وذلك لأن العلماء فى الدول الثلاث اتفقت كلمتهم على أنه فى المقدور رصد التجارب التى تقع فى أى موقع من الأرض ، دون الحاجة إلى إجراء تفتيش محلى فى نفس الموقع الذى جرت فيه تلك التجارب ، هذا إذا كانت تلك التجارب فوق سطح الأرض أو فى الفضاء أو تحت الماء ، أما التجارب التى تجرى تحت سطح الأرض ، فلا سبيل إلى كشفها من بعيد ، فلابد من أن توجد داخل الدولة التى تجريها أداة للرقابة والتفتيش لتستطيع التأكد مما إذا كانت تجربة نووية قد وقعت ، فى هذه الدولة تحت سطح أرضها ، أو أن الهزة التى رصدتها أجهزة الرصد كانت ناتجة عن هزة طبيعية أرضية .

ولما كان الخلاف قد استحكم بين دول الغرب وبين الاتحاد السوفيتى حول موضوع الرقابة والتفتيش الداخلين اللذين صممت دول الغرب على وجوب اقترانهما بأى مشروع لنزع السلاح ، بينما رفضهما الاتحاد السوفيتى بحجة أن الغرب لا يريد نزع السلاح ولا البدء فيه ، وإنما يريد أن يبدأ بفرض جهاز تجسس على الاتحاد السوفيتى باسم نزع السلاح ، وأن تمسك الغرب بهذه الرقابة، ليس سوى حجة .

وعلى صخرة التفتيش تحطمت جميع محاولات نزع السلاح أو خفضه داخل الأمم المتحدة وخارجها منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فى سنة ١٩٤٥ حتى الآن ، ومن هنا كان من العبث متابعة المشروعات والمشروعات المضادة التى تقدم بها أحد المعسكرين لنزع السلاح وترتيب أدواره ومراحله وشروطه ، والمشروعات التى يرد بها

المعسكر الثانى على تلك المشروعات فهى أشبه شيء بالدوران فى حلقة مفرغة لا تنتهى .

ولكنا مع ذلك سنسجل التطورات الرئيسية فى هذا المجال ، حتى لا يخلو هذا الكتاب من إشارة شاملة لهذا الجهد ، فإنه أياً كانت نتيجته ، جدير بالتسجيل ، ودلالته لا تخفى على أحد . فلولا الميل الطبيعى عند البشر إلى تحقيق السلام وصيانته ، لما أحست الدولة الكبرى بضرورة الدخول فى مفاوضات لنزع السلاح ، ولولا شعورها بالخطر الذى يتهددها ، ويتهدد أبناءها وأموالها ومستقبلها ، لو بقى التنافس على صورته الحالية ، لما ضيعت ما ضيعت من الجهد والوقت ، ولما صرفت ما صرفت من السعى فى ميدان الدعاية لتبدو أنها المعسكر الراغب فى نزع السلاح ، وأن المعسكر المضاد هو المعوق دونه . ولقد بقيت الأمم المتحدة فى خلف صورة العمل من أجل نزع السلاح ، ثابتة لا يتغير موقفها ، ولا يخفت صوتها فى الإلحاح فى الدعوة إلى وجوب المفاوضة وبذل الجهد ، ومضاعفته ، فى سبيل تحقيق الغاية الإنسانية الكبرى : السلام .

وقد بدأ جهد الأمم المتحدة بإنشاء لجنتين تابعتين لها ؛ هما لجنة الطاقة الذرية ، وهى مكونة من أعضاء مجلس الأمن على أن يضاف إليهم كندا إذا لم تكن عضواً فى المجلس باعتبارها من أكبر الدول المنتجة لمادة اليورانيوم التى هى العنصر الأساسى لإنتاج الأسلحة الانشطارية .

كما تكونت لجنة للأسلحة العادية من عشرة أعضاء ؛ هى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلغاريا وإيرلندا وتشيكوسلوفاكيا وكندا ورومانيا .

ويلاحظ أن فيها من دول الشرق أربعة بينما يوجد فيها من دول الغرب ستة .

وكان أول المشروعات المقدمة للجنة الأولى هو المشروع الذى تقدمت به الولايات المتحدة ، وهو المعروف بمشروع باروخ ، ويقوم هذا المشروع على إنشاء هيئة دولية تملك وتحتكر كل اليورانيوم وتدير كل المعامل الذرية وتشرف على الأبحاث الذرية ، مع وعد من الولايات المتحدة بتحطيم كل أسلحتها الذرية . وكان متوقعاً بغير شك ، أن مثل هذا الاقتراح سيلقى رفض الاتحاد السوفيتى ، لأن الاتحاد السوفيتى كان فى ذلك الحين فى بداية أبحاثه الذرية ،

وكانت السيطرة الدولية ، ستحتفظ للولايات المتحدة ، بالتقدم فى هذه الأبحاث وتجعل الاتحاد السوفيتى تحت رحمة الغرب . ولذلك كان رده فى اليوم التالى؛ أن اقترح الاتفاق على حظر إنتاج الأسلحة الذرية واستخدامها ، ولم يشر بطبيعة الحال إلى اقتراح تحريم التجارب النووية لأنه كان فى أشد الحاجة إلى هذه التجارب لكى يلحق بالولايات المتحدة فى هذا المجال .

وبقيت اللجنتان لا تحققان نجاحاً ، ولا تخطوان إلى الأمام خطوة ، وقضى عليهما نهائياً حينما أعلن الاتحاد السوفيتى سنة فى ١٩٥٠ انسحابه من لجنة الأسلحة الذرية .

ولكن الجمعية العامة فى ١١ من يناير سنة ١٩٥٢ أوصت بإدماج اللجنتين إحداهما فى الأخرى، وقد تم الإدماج فعلا فى السادس من فبراير سنة ١٩٥٢ ، ثم تفرع عن اللجنة الجديدة الموحدة لجنة فرعية مكونة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا وكندا . ثم اجتمعت هذه اللجنة فى ١٣ من أبريل سنة ١٩٥٤ بنيويورك لبحث الإجراءات ثم اجتمعت فى لندن فى الحادى عشر من يونيه حيث تقدمت إليها بريطانيا وفرنسا بمشروع النقط الأساسية فيه هى :

أولا : يتكون المشروع من ثلاث مراحل .

ثانياً : المرحلة الأولى تجمد فيها المنظمات العسكرية الحالية حسب الحالة التى هى عليها ،فى اليوم الحادى والثلاثين من ديسمبر سنة ١٩٥٣ ، كما تجمد ميزانيات هذه الهيئات .

ثالثاً : فى المرحلة الثانية تخفض الأسلحة العادية إلى نصف ما كانت عليه فى ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٥٣
ثم يوقف إنتاج الأسلحة الذرية .

رابعاً : فى المرحلة التالية يلغى النصف الثانى من الأسلحة العادية ، ويحرم استعمال جميع الأسلحة الذرية والعادية ، وتحول الكميات الموجودة من الأسلحة العادية للمحافظة على أمن الدول الداخلى ، وللاستخدام السلمى .

خامساً : تخضع جميع خطوات هذا المشروع للتفتيش والرقابة الدقيقتين وذلك عن طريق جهاز دولى للرقابة، يكون من شأنه أن يعلن قبل اتخاذ أى خطوة أنه

استطاع أن يفرض رقابته فى الخطوة التى سبقتها .

ورد الاتحاد السوفيتى على هذا المشروع بمشروع معارض اقترح فيه :

أولا : التحريم العاجل لإنتاج الأسلحة الذرية .

ثانياً : تخفيض القوات المسلحة بما يعادل الثلث .

ثالثاً : حظر استخدام الأسلحة الذرية بلا قيد ولا شرط .

وفى جدول أعمال الدورة التاسعة أدرج موضوع « تقرير لجنة نزع السلاح عن تنظيم جميع القوات المسلحة وجميع الأسلحة وتحديدها وتخفيضها بصورة متوازنة » . كما أدرج موضوع اقترحه الاتحاد السوفيتى فى الثلاثين من سبتمبر عنوانه « عقد اتفاقية دولية خاصة بتخفيض الأسلحة وحظر الأسلحة الذرية والهيدروجينية وسواها من أسلحة التدمير الشامل » .

ثم تأتى المرحلة الثانية الهامة حينما تقدمت دول الغرب فى التاسع عشر من مارس باقتراح يتكون من النقط التالية :

أولا : يخفض عدد القوات المسلحة فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين بمليون ونصف مليون وتخفيض قوات فرنسا وبريطانيا إلى ٦٥٠ ألفاً .

ثانياً : تحديد المدة اللازمة لجميع المراحل الثلاثة المقترحة فى مشروع الحادى عشر من يونيه سنة ١٩٥٢ بثلاث سنوات .

ثالثاً : يشترط أن تكون جميع أجهزة الرقابة معدة ، وأن تكون جميع الدول مستعدة للتعاون معها .

وتأتى المرحلة التالية حينما قدم الاتحاد السوفيتى فى العاشر من مايو سنة ١٩٥٥ مشروعاً جديداً يتلخص فى :

أولا : قبل مشروع الغرب الذى يقترح التخفيض فى القوات المسلحة العادية إلى مليون ونصف مليون فى الدول الكبرى ، وإلى ٦٥٠ ألفاً فى فرنسا وإنجلترا ، بدلا من ثلث هذه القوات .

ثانياً : نزل الاتحاد السوفيتى عن اشتراطه عدم البدء فى أى تخفيض للقوات المسلحة العادية إلا مع تحريم إنتاج الأسلحة الذرية .

واستمر الجدل بين المعسكرين فى موضوع الرقابة ، فأبدى الاتحاد السوفيتى

تخوفه من عجز جهاز الرقابة من القيام بواجبه على وجه منتج لأن الدول لن تمكنه من الاطلاع على مصادرها الأساسية ، ولأن هذه الدول قادرة على إخفاء صناعة الأسلحة الذرية والهيدروجينية .

ثم لاحت فى الأفق فكرة تخصيص منطقة مجردة من الأسلحة النووية وخاضعة للتفتيش حينما اقترح إيدن رئيس وزراء بريطانيا ، أن تكون منطقة وسط أوربا هى المنطقة التى تجرى فيها أول تجربة من هذا النوع .

ولم يوفق المعسكران إلى شىء ذى قيمة ليحسم خلافهما ، فانفضت اجتماعات اللجنة الفرعية لنزع السلاح فى السابع من أكتوبر سنة ١٩٥٥ لتقدم تقريرها إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وإلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى الأربع الذى كان مزمعاً عقده فى جنيف توطئة لمؤتمر الأقطاب الذى كان سيعقد فى نفس العام .

وقد نبتت فى المشروعات التالية فكرة عقد مؤتمر من رجال العلم لتقرير ما إذا كانت الرقابة من الخارج تمكن من الوقوف بدقة على التجارب الذرية التى تجرى فى داخل حدود الدولة حتى تنفرج أزمة الرقابة التى تصمم عليها دول الغرب ، والتى يعتبرها الشرق سبيلا إلى التجسس عليه ، أو ذريعة ، للحيلولة دون نزع السلاح .

وحدث أن تقدمت الأبحاث الذرية السوفيتية ، فلم يعد تحريمها فى صدارة مشروعاتهم ، بل أصبح تدمير المخزون من الأسلحة الذرية هو الذى يحتل اهتمامهم ؛ لأن الولايات المتحدة بسبب سبقها فى الأبحاث الذرية استطاعت أن تكدس من هذه الأسلحة ما لم يتوافر عند السوفيت .

وبعد أن اقترح الغرب تخفيض القوات المسلحة العادية إلى مليون ونصف ، رأى أن هذا العدد لا يمكن للولايات المتحدة من الاحتفاظ بقواعدها فى الخارج فكفوا عن الحديث عن هذا التخفيض ، وكان الغرب فى بعض مشروعاته يربط بين مشروعات نزع السلاح ، وفض المشكلات السياسية القائمة بينه وبين الشرق ، باعتبار أن نزع السلاح ، يحتاج إلى جو تزدهر فيه الثقة ، وأن المنازعات بين المعسكرين تدعو كلا منهما إلى الشك فى الآخر ، والحرص على الاستزادة من

السلاح ، وكان هذا الربط عند الشرق ، وجهاً من وجوه المناورة السياسية ، التى يتوسل بها الغرب لإحباط مشروعات السلام ونزع السلاح .

وفى الثالث عشر من إبريل سنة ١٩٥٨ تقدمت الولايات المتحدة بمشروع جديد أهم ما فيه أنها اقترحت تخفيض القوات المسلحة العادية إلى مليونين ونصف المليون بدلا من المليون والنصف الذى اقترحهما المشروع البريطانى الفرنسى ، ثم اقتراح تبادل المعلومات فيما يتعلق بوضع وإنتاج المواد والأسلحة الذرية ، والحد من التجارب الذرية ، على أن ينظر فى إخضاعها للرقابة الدولية القائمة على أسس علمية ، وقد خلا هذا المشروع من اقتراح حظر التجارب الدولية ، ولا تحطيم الأسلحة الموجودة منها .

ونظرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الحادية عشر مسألة نزع السلاح فأحالتها إلى لجنتها السياسية التى ناقشتها فعلا فى الفترة ما بين ١٤ و ٢٥ من يناير سنة ١٩٥٧ ، ولا يمكن القول أن هذه المناقشات جاءت بجديد ، فالمشروعات والمشروعات المضادة استمر تبادلها بين المعسكرين دون إحراز أى تقدم يذكر .

وقد انتهى الجمود الذى أصاب اللجنة الفرعية بأن اقترح الاتحاد السوفييتى تصفية اللجنة الفرعية لنزع السلاح ، على أن تحل محلها وكالة لنزع السلاح ، تمثل الدول الأعضاء وقتذاك ، وكان عددهم فى سنة ١٩٥٧ عندما تقدم بهذا الاقتراح اثنتين وثمانين دولة ، ولما رفض هذا الاقتراح أعلن الاتحاد السوفيتى مقاطعته لهذه اللجنة الفرعية؛ لأنه مل تذبذب الغرب ، ولعدم التقدم فى عمل اللجنة ، ولأن الدول الشرقية فى اللجنة أقلية .

ولما توقفت اللجنة الفرعية لمقاطعة الاتحاد السوفيتى لها ، حل محلها تبادل المذكرات بين المعسكرين ، ولن نثقل على القارئ بذكر محتويات هذه المذكرات وتاريخها ، لأنها لم تتجاوز ما دار فى اللجنة من مشروعات ومشروعات مضادة يقال فيها تقريباً نفس الشيء مع تعديلات فى نسب التخفيض فى الجيوش وترتيب المراحل المختلفة ، ولكننا سنذكر على سبيل المثال مضمون بعض هذه المذكرات .

وقد حدث أن قرر حلف شمال الأطلسى توزيع الأسلحة الذرية والمخزون منها على دول الحلف لتكون فى المخازن الموجودة ، أخذ الاتحاد السوفيتى يرسل المذكرات

إلى الدول الغربية مشيراً إلى الخطر الناجم عن وجود أسلحة ذرية فى أوربا الغربية وعن خطر تسليح ألمانيا الغربية بأسلحة ذرية . ثم أعاد السوفيت الحديث فى موضوع خلق منطقة خالية منزوعة من السلاح فى وسط أوربا ، وقد كان المقترح أصلا أن تمتد هذه المنطقة إلى ٨٠٠ كيلومتر على جانبى الخط الفاصل لألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية ، فاقترح السوفيت توسيع هذه المنطقة بحيث تشمل ألمانيا كلها وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ثم تقدم راباكى وزير خارجية بولندامشروعاً مماثلا مع اقتراح نبذ استخدام الأسلحة الذرية وتحريم إجراء التجارب الذرية على الفور وعقد اتفاق عدم اعتداء بين دول حلف شمال الأطلنطى ودول حلف وارسو .

ثم أرسل ماكميلان مذكرة فى الثامن من يناير سنة ١٩٥٨ ، وقد اقترح عقد اجتماع من وزراء خارجية المعسكرين أو عقد اجتماع من الخبراء الفنيين لمعالجة مشكلات النزاع من الناحية العلمية ، ولتجنب المشكلات السياسية التى تثيرها المسائل السياسية ، وقد وافقت المذكرة على عقد مؤتمر للأقطاب على أن يسبقه تمهيد من وزراء الخارجية .

وحدثت خطوة ذات أهمية حينما أعلن السوفيت فى الحادى والثلاثين من مارس سنة ١٩٥٨ إيقاف التجارب الذرية وقفاً اختيارياً لمدة ستة أشهر ، ولكن الولايات المتحدة رفضت محاكاة السوفيت واقترحت مع بريطانيا عقد مؤتمر من العلماء لدراسة إمكان مراقبة التجارب الذرية من الخارج ، وتردد الاتحاد السوفيتى فى قبول الفكرة ولكنه لم يلبث أن وافق على الاشتراك فى مؤتمر العلماء الذى انعقد فعلا فى اليوم الأول من يولية ، وقد استمر يوالى جلساته حتى العشرين من أغسطس سنة ١٩٥٨ وقد حضر مندوب شخصى للأمين العام للأمم المتحدة هذا المؤتمر الذى اتفق أعضاؤه على أن يستأنف جلساته فى الحادى والثلاثين من أكتوبر من العام نفسه .

ولما انعقدت الدورة الثالثة عشرة للأمم المتحدة وناقشت موضوع نزع السلاح ، قدم الاتحاد السوفيتى فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٩٥٨ مذكرة اقترح فيها خفض القوات المسلحة ، وخفض الأسلحة التقليدية والميزانيات العسكرية ، وحظر استعمال الأسلحة الذرية والهيدروجينية ووقف التجارب الذرية والهيدروجينية ، وحظر

استخدام الفضاء الكونى فى أغراض عسكرية وإزالة القواعد الأجنبية الموجودة فى أقاليم وأقطار أخرى والتعاون الدولى فى دراسة الفضاء الكونى وإنشاء المراقبة الدولية، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع اعتداء مفاجئ وحظر حرب الدعاية . ثم قدم الاتحاد السوفيتى فى التاسع من أكتوبر مشروع قرار يناشد بمقتضاه الجمعية العامة الدول القائمة بتجارب أسلحة ذرية وهيدروجينية وقف هذه التجارب فوراً ، وأن تتفاوض بعضها مع بعض لعقد اتفاق لإنهاء هذه التجارب ؛ ثم عاد الاتحاد السوفيتى فى نفس اليوم ، وقدم مشروع قرار آخر يتضمن توحيد الجمعية العامة لحكومات الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة بخفض ميزانيتها العسكرية بما يتراوح ١٠ و ١٥ فى المائة ، ورصد أموالها التى ستتوافر بهذا التخفيض لمساعدة الأفكار المتخلفة اقتصادياً .

وتنافست الدول المختلفة فى تقديم مشروعات قرارات متعددة تدور حول التوصية بوقف التجارب الذرية والاتفاق على تدابير منع الاعتداء المفاجئ ، والأمل فى نجاح مؤتمر جنيف لوقف التجارب الذرية .

ثم عاد مؤتمر العلماء للانعقاد فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٥٨ بجنيف ، ولم يكد ينقضى على عقد المؤتمر ثلاثة أيام حتى أعلن الاتحاد السوفيتى أنه لاحظ أن الولايات المتحدة وبريطانيا قد ضاعفت برامج تجاربهما النووية ، فإنه بعد أن انفرد بوقف تجاربه اختيارياً فى ٣١ من مارس الماضى ، فإنه سيستأنف تجاربه بمثل عدد التفجيرات التى أجرتها بريطانيا والولايات المتحدة فردت الولايات المتحدة بمذكرة سجلت فيها على الاتحاد السوفيتى مواصلة تجاربه النووية على الرغم من بدء المفاوضات ، وأن الولايات المتحدة وبريطانيا لن يستأنفا التجارب النووية على الرغم من أنه لا يوجد أى قيد على حريتهما فى هذا الصدد . وفى هذا الجو ، بدأ المؤتمر أعماله .

وعدل الغرب موقفه قليلا فلم يشترط أن يكون وقف التجارب معلقاً على إجراءات نزع السلاح ، بأمل أن يتنازل الاتحاد السوفيتى عن شرطه إخضاع جهاز الرقابة الدولى لحق (الفيتو) ، وشرط أن يكون موظفو جهاز المراقبة من مواطنى الدولة التى تجرى المراقبة على أرضها .

وقد استطاع المؤتمر أن يفرغ من إعداد سبع عشرة مادة من مواد المعاهدة

التى كان مكلفاً وضعها وديباجة المعاهدة ، وكان المفروض أن تبلغ هذه المعاهدة خمساً وعشرين مادة وثلاثة ملاحق ، وقد كان من بين ما اصطدم به المؤتمر من عقبات هو أن الولايات المتحدة كانت ترى أن يكون موظفو الأمم المتحدة ضمن عداد الموظفين الذين يسمح لهم بالقيام بالمراقبة ، وحق الفيتو الذى كان يصمم السوفيت على استعماله ضد إجراءات التفتيش وعدد عمليات التفتيش التى كان السوفيت يطلبون تحديدها مقدماً بعدد معين فى السنة ، وكان الغرب يطلب أن يترك تحديد هذا العدد ، على ضوء عمليات التفجير المشكوك فى إجرائها .

وانعقدت الدورة الرابعة عشرة ، وعادت الدول تقدم مشروعات جديدة حول موضوع نزع السلاح لاتخرج فى معناها عن المشروعات التى عرضت فى الدورة السابقة ، ثم عاد مؤتمر جنيف للانعقاد فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ ، ولم يحرز المؤتمر شيئاً من النجاح فى تذليل النقط الثلاث التى أشرنا إليها ، فأعلن أيزنهاور فى السابع من مايو سنة ١٩٦٠ أن الولايات المتحدة ، وقد رأت أن المؤتمر لم يحرز نجاحاً مطلقاً لذا قررت استئناف تجاربها تحت الأرض ، فهدد السوفيت بأنهم سيوقفون المفاوضات إذا ما استأنف الأمريكيون تجاربهم ، ودار البحث فى المؤتمر فى عدد مرات التفتيش وعدد الموظفين الذين سيقومون به ، واقترح الاتحاد السوفيتى أن يكون عدد هؤلاء ثلاثة فى كل دولة . وفى ٢٧ من يولية اتفق الأطراف الثلاثة على إخضاع كل التجارب النووية لهيئة دولية ، وإن لم يتفقوا على حجم الانفجار الذى تشمله المعاهدة والذى يخضع لإشراف الهيئة المقترحة .

وفى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٠ اقترحت بريطانيا إقامة ١٨٠ مركزاً للرقابة منها عشرة على السفن وواحد وعشرون مركزاً داخل الأراضى السوفيتية ، واعترض السوفيت على هذا العدد ، وقال إنه كثير جداً بالنسبة لبلاده . ومع هذه الصعوبات استطاع المؤتمر حتى ١٧ من أكتوبر سنة ١٩٦٠ أن يفرغ من إعداد ١٧ مادة وملحقين ، وكانت انتخابات الرياسة فى الولايات المتحدة على الأبواب فأرجئ عمل المؤتمر فى ٥ من ديسمبر سنة ١٩٦٠ على أن يستأنف أعماله فى ٧ من فبراير سنة ١٩٦١ ، ثم طلبت الولايات المتحدة التأجيل إلى ٢١ من مارس لكى تتاح الفرصة للمتخصصين بعد انتخابات الرياسة للدراسة .

ولما استؤنفت المفاوضات فى ٢١ من مارس سنة ١٩٦١ بجنيف اقترح السوفيت أن تكون السيطرة على أبحاث الذرة لمجلس مؤلف من ثلاثة أعضاء ممثلين للشرق والغرب والدول المحايدة ، ورفض الغرب الاقتراح بحجة أنه سيجعل الفيتو من حق ثلاثة أطراف بدلا من طرفين ، ولأنه سيرفع الدول التى لا تملك أسلحة ذرية إلى مستوى الدول التى تملكها . وقدم الغرب مشروعاً مضاداً ، مؤداه أنه ينص فى المعاهدة على موافقة الغرب على السماح للعلماء السوفيت بتفتيش جميع الأجهزة الأمريكية التى تستخدم فى أبحاث الهزات الأرضية ، كما رحب الغرب بعرض السوفيت السماح لعلماء الغرب بالاشتراك فى جميع التفجيرات التجريبية .

ولكن فترات الصحو التى كان يمر بها مؤتمر جنيف ، لم تكن سوى فترات خداعة ، فإن الأمور فى المؤتمر لم تكن تلبث حتى تتأزم ، فقد بلغ عدد جلسات مؤتمر جنيف لوقف التجارب ٣٢٠ اجتماعاً دون الوصول إلى نتيجة .

وإذا كانت مباحثات وقف التجارب الذرية لم تحقق نجاحاً فإن مباحثات نزع السلاح لم تكن أسعد حظاً ، وقد ألفت الجمعية العامة فى دورتها الرابعة عشر لجنة جديدة لنزع السلاح أشرنا إليها فيما سلف من عشر دول ، هى فرنسا والاتحاد السوفيتى وإيطاليا وبلغاريا وإيرلندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وكندا والمملكة المتحدة.

ولعل الخطوة الجديرة بالتسجيل فى موضوع نزع السلاح ، هو الخطاب الذى ألقاه خروشوف فى هذه الدورة فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٥٩ ، والذى ضمنه ما سماه إعلاناً للحكومة السوفيتية عن نزع السلاح العام الكامل ، وقد تضمن خطابه برنامجاً لنزع السلاح العام الكامل يتألف من ثلاث مراحل ، ويرمى إلى تصفية جميع القوات المسلحة وجميع الأسلحة خلال أربع سنوات :

وفى المرحلة الأولى : يخفض كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية عدد قواتها المسلحة إلى مليون وسبعمائة ألف جندى ، فى حين تخفض بريطانيا وفرنسا عدد قواتها إلى ٦٥٠ ألف جندى ، وتخفض الأسلحة والمعدات العسكرية بحيث تتناسب مع المستوى المحدد للقوات المسلحة .

وفى المرحلة الثانية : تسرح القوات المسلحة الباقية وتزال القواعد العسكرية فى أقاليم الدول الأجنبية ويسرح الموظفون العسكريون الموجودون فى هذه القواعد .

وفى المرحلة الثالثة : تدمر جميع أنواع الأسلحة النووية والقذائف وتدمر معدات للقوات الجوية وتحظر وسائل الحرب الكيماوية والبكتريولوجية ، ويقضى عليها وتحظر الأبحاث والتحسينات العسكرية ، وتزال المنشآت العسكرية وشبه العسكرية وينهى التدريب العسكرى والخدمة العسكرية وشبه العسكرية . وتنشأ هيئة مراقبة دولية لها سلطة الرقابة والتفتيش ، وذلك حسب المرحلة التى يتم الوصول إليها فى البرنامج التدريجى لنزع السلاح . وعند إتمام نزع السلاح العام الكامل يكون لهيئة الرقابة حرية الانتقال إلى جميع موضوعات الرقابة ، كما يجوز لها وضع نظام للمراقبة الجوية والتصوير الجوى فوق أقاليم الدول ، ويعرض أى خرق لأحكام الاتفاق على مجلس الأمن أو الجمعية العامة للنظر فيها وفقاً لدائرة اختصاص كل منهما .

ثم أعلنت الحكومة السوفيتية أيضاً أنه إذا لم تكن الدول الغربية مستعدة للقيام بنزع السلاح العام الكامل فإنها ستوافق على نزع سلاح جزئى يقوم على الأسس الآتية :

١ — إنشاء منطقة أوربية للمراقبة والتفتيش مع خفض القوات الأجنبية .
٢ — إنشاء منطقة خالية من الأسلحة الذرية فى أوربا الوسطى .
٣ — إزالة القواعد العسكرية الموجودة فى أقاليم دولة أجنبية .
٤ — ميثاق عدم اعتداء بين الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى وحلف وارسو .
٥ — عقد اتفاق لمنع الاعتداء المفاجئ .

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ ألقى إيزنهاور رئيس الولايات المتحدة خطاباً فى الجمعية العامة يتلخص أهم ما فيه فيما يلى :

١ — دعا الاتحاد السوفيتى للاشتراك فى مباحثات تجرى فوراً لخفض التسلح يكون من شأنها إعدام جميع الأسلحة الذرية .
٢ — قيام الأمم المتحدة بالتفتيش للتحقق من أن مركبات الفضاء لا تطلق إلا لأغراض سلمية .
٣ — أعلن أن الولايات المتحدة مستعدة لقبول أى نظام فعال للتفتيش على الأسلحة ، على أساس ألا تحصل أية دولة بمقتضى هذا النظام على ميزة عسكرية وأن يسمح بالتفتيش على نزع السلاح .

٤ — واقترح :

(ا) ألا تكون الأجرام السماوية خاضعة لملكية دولة ما أو لأى ادعاء بحق السيادة .

(ب) الموافقة على ألا تستخدم دول العالم هذه الأجرام السماوية فى أى نشاط حربى .

(حـ) الموافقة على ألا تطلق أية دولة أسلحة للدمار الشامل إلى الفضاء الخارجى كى تتخذ مداراً حول الأرض أو لتصبح محطة جوية .

(د) التقدم ببرامج للتعاون الدولى فى سبيل استخدام الفضاء الخارجى فى أغراض سلمية بناءة تحت إشراف الأمم المتحدة .

وفى ٢٣ من سبتمبر ألقى خروشوف خطاباً يتضمن برنامجاً من ثلاث مراحل لنزع السلاح ، يحرم إنتاج الأسلحة النووية وتدمير الموجود منها ، وقدر لهذه المرحلة سنة أو ثمانية عشر شهراً . وفى هذه المرحلة أيضاً ترسل فرق تفتيش للجهات التى بها قواعد عسكرية فى أراض أجنبية للإشراف على تصفية تلك القوات .

ويحرم فى المرحلة الثانية صنع الأسلحة الكيماوية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل وتدمير المخزون منها وتخفيض القوات المسلحة والأسلحة .

وفى المرحلة الثالثة تتم تصفية القوات المسلحة كلها مع الاحتفاظ بقوات محدودة من الشرطة للمحافظة على الأمن .

وطالب خروشوف بضم الصين إلى مباحثات نزع السلاح . ثم اقترح فى السابع والعشرين من الشهر نفسه ضم الجمهورية العربية المتحدة وأندونيسيا وغانا والمكسيك إلى المؤتمر .

وخطب خروشوف بعد ذلك أكثر من مرة وخطب غيره ، وكان فى مقدمة الذين خطبوا الرئيس جمال عبد الناصر الذى قال إنه لابد من وجود مرحلة تمهيدية للتفاهم قبل الوصول إلى تفاصيل لمشكلة نزع السلاح ، وإنه يجب أن تشترك فى هذه المرحلة الدول غير المنحازة لتوسيع نطاق التشاور ووجود هذه الدول يعتبر مساهمة إيجابية فى مواجهة حدة التوتر، كما أن إجراء هذه المشاورات والاتصالات فى نطاق الأمم المتحدة هو بمثابة محاولة لوضع ضمان يمنع أى دولة من أن تنشط بعيداً

عن المجموعة الدولية ، وختم كلامه باقتراح اجتماع الزعيمين الأمريكى والسوفيتى وحدهما أو معهما من تراه الجمعية العامة من الحاضرين لكى يضعوا تحت إشراف الأمم المتحدة قواعد بدء المحاولة الجديدة لحل مشكلة نزع السلاح :

وكان أهم ما قاله ديفين بيكر رئيس وزراء كندا فى اقتراحه أن تتولى دولة محايدة رياسة مباحثات نزع السلاح ، باعتبار أن انضمام هذه الدولة إلى هذه المباحثات يشيع جواً من الثقة بين الشرق والغرب :

وفى خطاب — فى الثالث من أكتوبر ، قال خروشوف إنه لكى تستطيع الأمم المتحدة أن تعين على تحقيق السلام ونزع السلاح ، فلابد من إعادة تنظيم جهازها الإدارى بحيث تكون الأمانة العامة ممثلة لمصالح المجموعات الثلاث فى العالم ، أى الغرب والشرق والدول الحيادية ، وهو الاقتراح المسمى (بالترويكا) نسبة إلى عربة (الترويكا) الروسية التى يقودها ثلاثة جياد ، وفى العاشر من أكتوبر اقترح خروشوف أن تعقد الجمعية العامة دورة استثنائية فى شهر مارس أو أبريل من سنة ١٩٦١ تعقد فى جنيف أو موسكو أو لننجراد ويحضرها رؤساء الحكومات ، وقد رفض هذا الاقتراح بأغلبية ٦١ صوتاً ضد ثلاثة عشر صوتاً وامتناع ٢٥ صوتاً . كما رفض اقتراح آخر لخروشوف بمناقشة مشكلة نزع السلاح فى الجمعية العامة بدلا من اللجنة السياسية وذلك بأغلبية ٥٤ صوتاً ضد ١٣ وامتناع ٤٤ .

وفى ١٤ من أكتوبر قدمت دول الغرب اقتراحاً تهمنا فيه الإشارة إلى تهيئة عدد من الكتائب يتفق عليه لتأليف قوة بوليسية تعمل فى نطاق الأمم المتحدة ، فإن هذه الإشارات هى ، البشائر بأن نشوء عالم متحد ، تخدمه قوة أمن واحدة ، جنين يتخلق فى بطن الغيب ، وأن ما يقال اليوم ، كاقتراح ، سيشهده أبناؤنا أو أحفادنا غداً ، ويعيشون فى ظله ، وينعمون به ، ولا ينقص من قدر مثل هذه الاقتراحات أنها ترد فى مشروعات الدول الكبرى كوسيلة من وسائل الدعاية ، وأنها تبدو بعيدة عن التحقق ، وأن الصعاب فى طريق التفاهم بين المعسكرين الكبيرين جمة ، وأن تذليلها شاق ، فإن أكثر ما تحقق من أحلام الإنسانية فى دنيا العلم أو السياسة أو الاجتماع ، كان فى وقت من الأوقات حلماً بعيد المنال ، وكان اليأس ينتاب الإنسانية أحياناً ، حتى تكاد تنفض يدها منه ، ثم ماتلبث التطورات غير

الميئوس من حصولها ، تقع تباعاً ، وكأن زلزالاً مفاجئاً أصاب العالم ، ويخرج من هذه التطورات أمور أبعد مدى ، وأعظم أثراً من الأحلام التى ساورت المفكرين والدعاة والحالمين .

ومن هنا كانت المشروعات التى يقدمها معسكر من المعسكرين الكبيرين ، أو من الدول الصغيرة ، أو من دول عدم الانحياز ، والتى تتحدث عن إلغاء الجيوش ، والهيئات العسكرية ، وشبه العسكرية ، ومنع التدريب ، وتحطيم الأسلحة ، وتدمير مخازنها ، ومنع التجارب الذرية ، وتحويل وسائل نقل الأسلحة الذرية ، إلى الاستعمال السلمى ، والتعاون بين الدول فى أبحاث الفضاء ، بشائر المستقبل القريب ، فإن التطورات الواسعة المدى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تشمل العالم قديمه وحديثه ، والتى تدفع الدول القوية ، والدول الناشئة ، تسير نحو هذه الغاية ، وهى تسير نحوها بسرعة وإن بدت لنا نحن أبطأ مما نحتمل . وسنتناول فى فصل تال ، هذه التطورات بشئ من التفصيل .

الفصل الثانى

نحو عالم متحد

اللورد برتراند رسل عالم غربى ، ولد فى بريطانيا ، وعاش فيها ، وهو يميل بقلبه وعقله إلى أنظمة الغرب ، وإلى حضارته ، وإلى أساليب تفكيره ، ولكنه آخر الأمر عالم أصيل ، وقد أدرك ، بما أتيح له من معرفة واسعة فى علوم الرياضة والطبيعة ، أن مدى الدمار والخراب الذى سيشمل العالم كله ، لو قامت حرب نووية هيدروجينية ، فعبر عن فزعه من هذه النتيجة فى كتيب بعنوان هل ينجو الإنسان ؟ can man Survive وقد رأينا أن نختم كتابنا ، بتلخيص لهذا الكتيب وللاقتراحات التى وردت فيه ، لأنها تمثل حلم عالم فى مستقبل الإنسانية ، ولسنا نقره على كل مقترحاته ، ولكنا نثبتها ثم نعلق عليها ، لأنها النظام الكامل المقترح على أسس علمية من رجل صاحب مكانة عالمية معترف بها ، وليس حصوله على جائزة نوبل فى سنة ١٩٥٠ ، هى أهم عناصر هذه المكانة . إن فى حياته أشياء كثيرة تدعو إلى احترامه ، منها أنه فى سنة ١٩١٤ ، حاول أن يمنع اشتراك بلاده فى الحرب ، فحكم عليه بالسجن ستة أشهر ، ثم عاد يحاول بمظاهرة فى شوارع لندن أن يمنع بلاده من مواصلة التجارب الذرية ، فقبض عليه ، وحبس ثانية وهو على أبواب التسعين من عمره . ولا شك أن هذا جهاد يستحق الإعجاب والتقدير ، وإن كان يغض من هذا التقدير ، أن يستسلم مثل هذا الشيخ الجليل ، للدعاية الصهيونية ، فيصدق ما تروجه تلك الدعاية . على أن هذا لا يمنعنا لحظة من أن نورد تلخيصاً كاملا لرسالة برتراند رسل ، ثم التعليق عليها ، كما قلنا من قبل .

نثر رسل فى مواضع متعددة من رسالته الصغيرة حقائق علمية عن الإنسان وعن الذرة ، وعما تنفقه الدول فى سبيل التسليح ، وعن مخاطر الأبحاث الذرية ، وسنجمع هذه الحقائق بعضها إلى بعض .

وقد بدأ بتاريخ الإنسان ، وهو بعد فى أطوار بداوته الأولى ، فقال إن الإنسان كان يبدو ، وكأنه لن يكون قادراً على البقاء ، فقد كان أقل خبرة من القرد فى تسلق الأشجار ، وكان تسلق الأشجار هو الوسيلة للإفلات من هجوم الحيوانات

المفترسة ، ولم يكن عنده سلاح آخر يدفع به أذى تلك الحيوانات من ناب أو ظفر. ولكن كان عقله أقوى أسلحته ، وقد أثبتت التجربة ، أن هذا العقل قد زود الإنسان بما هو أنجع ، وأنفع من الأسلحة الفتاكة ، فقد اهتدى إلى النار ، وفضلا عما أفاده من النار ، فى إنضاج طعامه ، فقد استعان بها كوسيلة لحمايته من الوحوش بالليل ، إذ كان يوقدها على مدخل كهفه ، فتخيف تلك الوحوش ، وينام هو آمناً

على أن الذى سجل للإنسان انتصاره وتفوقه على الحيوانات ، التى تفوقه قوة وسرعة ، وتزيد من خطر عدوه ، كجنس ، هو اهتداؤه إلى الكتابة ، فبهذه الوسيلة استطاع أن ينقل الإنسان إلى الجيل الذى يأتى بعده خبرته وتجاريه ، فوفر على الأجيال الجديدة مشقة الدخول فى التجارب التى دخلتها الأجيال القديمة وعانت منها الكثير ، فأدى تراكم هذه المعرفة المتوارثة ، إلى التقدم بالإنسان والتفوق .

ولكن كفاح الإنسان الطويل الشاق ضد الحيوانات المفترسة ، التى اصطادها بفضل دهائه الذى هداه إلى صنع الحفر وتغطيتها بأغصان الشجر وأوراقها ، لتسقط فيها فريسة لا حول لها ثم إلى صنع الأقواس والسهام والحراب . هذا الكفاح ، ملأ الإنسان بشحنة هائلة ، من الخوف والترقب ، واستعداد مرهف لمواجهة المخاطر بالشجاعة الحاسمة ، فلما انتهى صراعه مع الحيوان ، ومع البيئة المليئة بالصعاب ، بقى تكوينه العاطفى القديم ، دون تكيف ، وأصبح فى حاجة إلى أهداف يسلط عليها ميله للصراع ، والخوف والحذر ، فسلط هذا كله على أخيه الإنسان ، ومن هنا كانت المقارنة بين الإنسان والنمل والنحل ، تكشف عن مدى تخلف الإنسان اجتماعياً عنها ، إذ ليس فى خلايا النمل والنحل مؤامرات ، كالتى أحبها الإنسان على مدى التاريخ ، وأنفق فيها الكثير من جهده ، ونتاج عقله ، وذكائه . فالإنسان قتل كثيراً من ملوكه وأمرائه ، وقتل ملوك الإنسان وأمراؤهم بعضهم بعضاً ، وجيشوا لذلك الجيوش ، ورسموا الخطط ، بينما لا يقتل النحل ملكاته إلا تطبيقاً لقانون الخلية وحدها ، وإذا دخلت نحلة غريبة إلى خلية معادية تقتل فوراً ، ولكن لا يقتتل أفراد الخلية الواحدة بعضهم مع بعض . ومع ذلك بقى النحل والنمل ، مع تقدمه الاجتماعى ، على حالته هذه آلاف السنين أو ملايينها ، بينما تطور الإنسان المتآمر ، الميال إلى

القتال ، والذى استبقى تكوينه العاطفى القديم ، وإن كان تطوره المادى أسبق وأعلى بكثير جداً من تطوره الروحى والاجتماعى .

ثم يقول رسل إن العالم الذى نعيش فيه ، قد انتهى إلى ما انتهى إليه الآن ، بسبب ستة آلاف من الحروب النظامية ، وإن تلك الحروب وإن كانت شراً فى ذاتها إلا أنها حملت بعض الخير ، فقد ترتب على الحروب التى شنتها الدولة الرومانية أن زاد عدد سكان أوربا الغربية ، كما أن كولمبس ورفاقه ، قد زادوا من سكان النصف الثانى من الكرة الأرضية ، وهو نصف كان مجهولا — زيادة عظيمة .

ولولا الحروب لما استطاعت الحكومات المركزية أن تفرض وجودها فى الهند والصين ، ولولا قيام تلك الحكومات المركزية ، لما زاد عدد سكان هاتين الدولتين الزيادة التى بلغتاها .

ثم انتقل رسل إلى الحديث عن القنبلة الذرية ، فقال إن العصر النووى بدأ بالنسبة للإنسان بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما فى السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ ، على أن بعض العلماء كانوا يعلمون قبل إسقاط هذه القنبلة ، فى ذلك التاريخ ، أن هذا السلاح ممكن أن يوجد . فقد كان وجود قوى متفجرة فى الذرات أمراً معروفاً ، منذ كشف (رز فورد) تركيب الذرة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا ، تعمل على إيجاد السلاح الذرى بعد بداية الحرب بقليل .

أما الذرة فتتكون من جسم صغير جداً هو النواة ، يحيط بها إلكترونات . وتعد ذرة الهيدروجين أبسط وأخف الذرات ، لأنها تتكون من إلكترون واحد ، والذرات الأخرى تتفاوت من حيث الوزن تبعاً لما فيها من الإلكترونات .

وقد كان اكتشاف الإشعاع ، هو أول ما عرفه الإنسان عما يدور داخل النواة ، فقد عرف أن سبب هذا الإشعاع ، هو خروج جزئيات من تلك النواة ، وقد عرف بعد ذلك أن النواة ، هى مخزن الطاقة ، ولكن لم يكن قد عرف أى سبيل لتحرير هذه الطاقة الهائلة المخزونة ، داخل النواة . ثم كشف طريق لهذا التحرير ، بفضل نظرية إينشتاين — ولتبسيط هذه الفكرة نقول إن ذرة الهليوم تتكون من أربع ذرات من هيدروجين ، وكان الطبيعى أن نتصور أن قوة ذرة الهليوم أربعة أضعاف ذرة الهيدروجين ، ولكن الواقع أن ذرة الهيدروجين لا تعطينا وحداً بالنسبة للهليوم ،

بل تعطينا واحداً زائد ٠٠٨ر، وإذا جمعنا أربع ذرات هيدروجين لعمل ذرة هليوم واحدة ، فإن هذه الزيادة تنفجر كطاقة ، ونفس النتيجة تحدث عندما تتحد عناصر أخف لتكون عناصر أثقل ، وهذا هو ما يسمى بالانصهار ، وهو ما استخدم فى صنع القنبلة الذرية . وقد استخدم فى صنع هذه القنبلة ، عنصر اليورانيوم ، واستخدم من اليورانيوم ؛ عنصر خاص هو المسمى (يو ٢٣٥) ، وخاصية اليورنيوم المميزة له ، أن عملية تقسيم الذرة فيه ، أيسر منها فى أى عنصر آخر ، وتقسيم الذرة فيه ، هو الذى يطلق الطاقة الحبيسة فيها ، فتحدث سلسلة من التفاعلات ، وتنتشر كأنها النار ، وإن كانت أسرع من النار ويقول رسل إن إلقاء القنبلة الذرية أثار الفزع ، ولكن لم تلبث القنبلة الهيدروجينية أن لحقت بها فى الطريق ، ويقول إن القنبلة الهيدروجينية أقوى ألف مرة من القنبلة الذرية .

والقول إن الاسم الذى تحمله القنبلة الهيدروجينية خطأ ، لأن قوة المواد المتفجرة لا تزال تؤخذ من اليورانيوم . والضرر الناجم عن تفجير القنبلة الذرية لا يحده المكان الذى يقع فيه الانفجار وحده ، فالإشعاعات الناتجة تتصاعد فى الهواء إلى علو شاهق ثم تنتشر فى أجواء الدنيا كلها ، ثم تعود فتهبط تدريجيًّا ، مسببة أمراضاً قاتلة للإنسان ؛ فهى تسمم الخضراوات واللحوم ، وقد اصطلح على تسمية هبوط الإشعاعات بما تحمله ، بالغبار الذرى .

وأشار اللورد رسل إلى تقديرات وزير الدفاع فى الولايات المتحدة للخسائر التى يمكن أن تصيب بلاده والاتحاد السوفيتى فيما لو قامت بينهما حرب ذرية ، فقال إن هذا الوزير قدر خسائر الولايات المتحدة بـ ١٦٠ مليون أمريكى ، وخسائر الأعداء بـ ٢٠٠ مليون روسى . وقد استجوبت لجنة فرعية من لجان الكونجرس اللفتنانت جنرال جيمس جافن James Gavin رئيس قسم البحوث بجيش الولايات المتحدة عن نسبة القتلى فى دول الشرق والغرب فيما لو فجرت قنابل ذرية على روسيا ، وكان اتجاه الريح عند تفجيرها إلى الجنوب الغربى . فأجاب القائد الأمريكى إنه إذا كان اتجاه الريح إلى الجنوب الغربى ، فإن معظم القتلى سيكونون من أبناء الاتحاد السوفيتى ، وإن كان من المحتمل أن يمتد نطاق القتل فيشمل أوربا

الغربية . فظهر من هذه الإجابة أن مسار القتل والموت فى حرب ذرية يتوقف على اتجاه الريح ، وأن المهاجم قد تصاب بلاده بمثل ما تصاب البلاد التى يقع ضدها الهجوم ، ولم تعجب هذه الإجابة السلطات الأمريكية ، فاضطهدت صاحبها .

وقد دحض رســل الرأى الذى أبداه (هرمان كان) فى كتاب له اقترح فيه على الولايات المتحدة أن تنفق فى سبيل الدفاع المدنى وإقامة خنادق عميقة لإيواء شعبها عند الغارات الذرية مبلغ ٣٠ بليوناً من الدولارات أى ٣٠ ألف مليون ، حتى يتسنى لأفراد هذا الشعب النجاة من ليل الكابوس المرعب ، ولكن اللورد رسل يتساءل كيف يعيش الناجون من هذه الكارثة الشاملة ، بعد خروجهم من المخابئ التى سيأوون إليها ، والحياة خارج الخنادق قد تعطل كل مرفق لها ، وتهدم كل مقوم من مقوماتها ، فالمواصلات تقطعت ، والمستشفيات هدمت ، ومجارى المياه تسممت ، والحقول أبيدت ؟ إن الذين ينجون من الموت فى الغارة الذرية ، سيحملون آثار صدمة هائلة مروعة يفقدون معها عقولهم ، وسيصبحون أشبه بالحطام الذى لا يصلح لشىء .

وقد أشار رسل بعد ذلك إلى ما جاء فى كتاب آخر تنبأ فيه كاتبه بأنه إذا كانت الحرب الذرية قد اتخذت ميدانها النصف الشمالى للكرة الأرضية فإمبراطورية العالم ، ستكون فى جنوب أفريقيا .

ومن الحقائق العلمية التى يسوقها أن الغبار الذرى يتكون من عناصر أهمها سترونتيوم ٩٠ ، وكاربون ١٤ ، وأن هذه العناصر مشعة ، فإذا حملتها الأمطار أو الرياح من طبقات الجو العليا ، أو إذا هبطت وحدها ، فإنها ستشيع الكوارث والمصائب ، ومنها لين العظام ، أو تشويه الجسم ، أو قتل خلاياه وإن الغبار الذرى يسبب مرض الليوكيميا (زيادة الكرات البيضاء فى الدم) ويسبب السرطان، ويؤثر على الجهاز التناسلى ، ويقول إن بعض المتهمين بدراسة آثار التفجيرات الذرية يؤكدون بأن ما وقع منها فى سنة ١٩٥٨ قد زاد من عدد الوفيات ، ومما يتصل بهذا الشأن ، ما قاله الخبير الأمريكى ستورفان من أن القنبلة الذرية التى فجرت ، سينتج عنها حتماً جيل هائل من المشوهين ، والبله والممسوخين فضلا عن اعتقاده

أن الإشعاعات الذرية قد شوهت فعلا نحو ١٨٠٠ من الأطفال الذين ولدوا فى عام ١٩٥٤ ، الذى أجريت فيه التجارب الذرية . وقد أعلن عالم أمريكى آخر هو Curt Stern ستيرن فى سنة ١٩٥٤ ذاتها ، أن كل إنسان فى العالم الآن يحتوى جسمه على كميات قليلة من الإشعاعات من أثر التفجيرات . ويقول رسل إن الخطر ليس قاصراً على الذين يصابون بآثار التفجيرات الذرية الآن ، بل إنه يتجاوزهم إلى أولادهم فإنهم يورثون الأجيال القادمة العيوب التى أصيبوا بها من هذه التجارب ، والتى لم تظهر عليهم هم .

ويندد رسل بنظرية الذين يؤمنون بالانتقام السريع، بمعنى أنه إذا وقع على الغرب هجوم ذرى ، فإن الغرب لا يلبث أن يرد عليه بهجوم أعنف وأوسع نطاما ، كما فعلت الولايات المتحدة، مع اليابان، رداً على هجوم (بيرل هاربر) فقال حينما يقع الهجوم والرد ، لن يبقى أحد فى المعسكرين، وستتحول الدنيا إلى خراب شامل ، والذى يجرى الآن، هو حماقة لا يمكن الدفاع عنها، فكل معسكر قد أقام شبكات رادار ، لرصد أية حركة تشير إلى بدء هجوم من المعسكر الآخر ، وهذه الحالة من التوجس والترقب ،مقلقه للنفوس وللأعصاب، وقد ينجم عنها هجوم لمجرد سوء التقدير أو التوهم ، أو انفلات الأعصاب ، وقد حدث بالفعل ، أن طار سرب من الإوز الروسى ،فرصدته آلات الرادار الأمريكى فى محطة جرينلند فأعطت إشارة الإنذار ، واتجهت الطائرات المحملة بالقذائف النووية ، إلى الاتحاد السوفيتى ، وقد ظن فى مرة أخرى أن القمر الصناعى هجوم روسى لولا أن تدخل جبل ثلجى قطع الاتصال ومنع الدمار ، ولكن كان ممكناً أن يتأخر هذا الكشف ولو قليلا فتقع الكارثة الماحقة ، وتقضى على جنس كامل ، على نفسه وحضارته . والأشياء التى تزيد من خطر الحرب غير المقصودة ، أن القمر الصناعى يمكن أن يبدو كقذيفة موجهة .

ويقول رسل إننا إذا تركنا التجارب النووية ، فإن آلات التدمير ستتطور تتطوراً رهيباً ، فإن القنبلة الهيدروجينية أفظع سلاح اخترع ، ولكنه سمع عن اختراع ، سمى (بآلة يوم القيامة) التى يمكن أن تدمر العالم فى لحظة . وقد تصنع أقمار صناعية تحمل قنابل هيدروجينية فإذا تم صنعها، فإن السماء ستملأ بأقمار

صناعية روسية وأمريكية ، وتطوف حول العالم فوق رءوسنا ، وكل منها يحمل أسباب خراب العالم كله ، فتصور كيف تكون حياة بهذه الصورة ؟

وأية أعصاب ستحتمل الاستمرار فى عالم انتهى إلى هذا الجنون ؟

وانتقل رسل بعد ذلك إلى صورة أخرى من صور الحرب الذرية الباردة ، أى إجراءات الوقاية من الهجوم المفاجئ من المعسكر المقابل ، فتحدث عن القواعد الأمريكية فى بريطانيا ، فتساءل : كم من أفراد الشعب البريطانى يعلم بمجرد العلم بأن فى كل قاعدة من هذه القواعد فرقة من الطيارين المدربين ، القادرين على أن يكونوا فى الجو ، فى دقيقة أو دقيقتين . وأن هذه الفرقة من الطيارين معزولة تماماً عن بقية المعسكر ، فلها مقصف خاص ، ودار سينما خاصة ، ولا يسمح لأى فرد فرد بالاتصال بأى من أعضاء هذه الفرقة ، الذين يعودون إلى بلادهم بعد شهر ، من وصولهم إلى بريطانيا ليحل محلهم غيرهم ، وهكذا . والغاية من إبقاء هؤلاء الطيارين الأكفاء معزولين ، ألا يعرف أحد من البريطانيين شيئاً عنهم ، وألا يتعرضوا بسبب اختلاطهم بغيرهم ، حتى من زملائهم الأمريكيين ، إلى دعاية مضادة للدعاية المسلطة عليهم .

وعاد رسل ليتحدث عن التقدم — إذا جاز استعمال مثل هذه الكلمة هنا — فى تطوير الأسلحة فنقل عن لينوس باولنج Pauleng أن أرخص أنواع القنابل القادرة على القتل الجماعى ، هى قنبلة الكوبالت ، وقد قال باولنج إنه يمكن بستة بلايين من الدولارات إنتاج ما يكفى من قنابل الكوبالت الكفيلة بتدمير العالم كله وهذا المبلغ هو فى الواقع جزء واحد من عشرين جزءاً من مجموع ما ينفق على التسلح فى العالم كل سنة لأن ما ينفقه العالم فى هذا السبيل هو ١٢٠ بليوناً من الدولارات ، وعاد رسل يشير إلى خطر احتمال انفجار الحرب خطأً بسبب حدوث خلل آلى فالآلات المستعملة فى عملية إطلاق القنابل معقدة جداً للدرجة تعدم ثقتنا فى إمكان رجوع كل الطائرات التى قامت للرد على هجوم متخيل ، ويكفى أن تعجز طائرة واحدة عن فهم الأمر الصادر لها بالرجوع ، ليهلك الجنس البشرى .

إن العالم ينفق على خلق هذه الحالة من الخطر ، المصحوبة بالتوجس والترقب والخوف ٦٦٦ ألف جنيه كل دقيقة ، لو أنفقت ، على إنتاج الغذاء مثلا لسدت

حاجة الملايين الذين يعيشون دون الحد الأدنى للتغذية الصحية .

أما الجانب السياسي من هذه الرسالة العظيمة ، فيمكن إجماله فيما يلي :

كان الباعث عند علماء الذرة فى الغرب على استحثاث جهودهم ، ومواصلتها هو هزيمة النازى ، ذلك لأن هؤلاء العلماء كانوا يعدون انتصار النازى كارثة مروعة . وقد كان الغرب بعلمائه وساسته يعتقد أن العلماء الألمان موشكون على صنع القنبلة الذرية ، وأنهم إذا وفقوا إلى ذلك قبل الغرب ، كان انتصارهم أكثر احتمالا ، ولكن عندما انتهت الحرب ، كشف علماء الغرب ، أن الألمان لم يكونوا قريبين من النجاح إلى الحد الذى تصوره الغرب من قبل .

والحقيقة الكبيرة التى يعلنها رسل ، أن علماء الغرب ، عندما تحققوا من إمكان صنع السلاح الذرى ، لم يكونوا راغبين فى استعماله ضد اليابانيين ، الذين كانوا على وشك التسليم ، باعتبار أن استعمال القنبلة الذرية ضدهم ، من قبيل نهج هتلر فى إلحاق الدمار بالأرض . وقد قدم العلماء بالفعل التماسات فى لهفة ، إلى الحكومة الأمريكية لتعدل عن استعمال القنبلة كسلاح ، والاكتفاء بتفجيرها فى الصحراء ، بعد إعلان ذلك على الملأ ، على أن تتولى حكومة عالمية سلطة النشاط النووى .

وما يقوله رسل عن هذه الالتماسات يثير انفعالا شديداً فى نفس الإنسان ، فإن تاريخ الإنسانية كان ممكناً أن يبرأ من وصمة استعمال هذا السلاح الرهيب ضد شعب من الشعوب ، مع تحقيق نفس الغاية ، ولكن ترومان وأمثاله كانوا على رأس الولايات المتحدة ، وقد كان شعور الإهانة بسبب هجمة بيرل هاربر ، لا يزال مشتعلا وكاوياً ، وكانوا أصغر من أن يقاوموا الرغبة البدائية الجافية للانتقام ، وكان الكبرياء الوطنى الزائف يصور لهم أن إبادة نحو مليون يابانى بقنبلتين ، تأديب كاف لشعب شرقى ، ومظاهرة رائعة تتبدى فيها عظمة الولايات المتحدة ، وتفوقها العلمى والصناعى . وهو بلاشك قصر نظر بالغ ، فإن قنبلتى هيروشيما ونجازاكى ، ليستا سوى أكبر جريمتين ارتكبتا فى خلال الحروب ، وإثمهما يبدو أكثر وضوحاً ، وأدعى إلى الاشمئزاز ، كلما تأملنا بروح متجردة فى الملابسات المحيطة بهما ، واتضح لنا أن إلقاء القنبلتين لم يعجل بتسليم اليابانيين . فقد كانوا

يتهيأون لهذا التسليم من قبل ، والعناصر التى لم تكن راغبة فى هذا التسليم ، أو راضية عنه ، استمرت تقاوم حتى بعد إلقاء القنبلتين كما مر بنا ، على أنه إذا كان يراد القضاء على روح العناد عند قلة من اليابانيين ، بغير خسائر ، فإن اقتراح علماء الغرب ، الذى أشار إليه رسل ، كان كفيلا بتحقيق ذلك ، إذ حسب اليابانيين ، وفى مقدمتهم بطبيعة الحال علماؤهم ، أن يعلموا أن أمريكا قد صنعت القنبلة الذرية ، وأنها فجرتها فى الصحراء ، بحضور عدد من العلماء الموثوق بأماناتهم ، حتى يراجعوا خطة العناد ، ويسلموا بالأمر الواقع . ولكن شاء الساسة الذين تربعوا على دست الحكم فى الولايات المتحدة فى ذلك العهد ، أن يثلموا شرف الإنسانية كله بالموافقة على هذا العمل الجهنمى الذى سيعلق بتاريخنا والذى لا نعرف كيف نبرأ منه ، ولا من آثاره حتى الآن .

ويشير رسل إلى أن سبعة من أقدر علماء الذرة قدموا التماساً إلى وزير الدولة للحرب فى سنة ١٩٤٥ ، وأن هذا التقرير عرف باسم (تقرير فرانك) ، وهو يصف هذا التقرير بأنه وثيقة لو ظفرت برضا السياسيين ما كان العالم يعيش فى رعب ، كما يعيش الآن . وقد قالوا فى هذا التقرير إنه لا يوجد سر علمى يمكن الاحتفاظ به إلى الأبد ، وإن الاتحاد السوفيتى ، لن يلبث حتى يقع على سر صنع القنبلة الذرية ، وإن هذا سيؤدى إلى سباق التسلح النووى ، وإن الولايات المتحدة إن لم تدرك فظاعة هذه القوى الجديدة ، فإنها ستفقد تأييد الشعوب ، وقد قدم العالم (بوهر) التماساً مماثلا صادراً من أعماق قلبه إلى روزفلت وتشرشل ، ولكن روزفلت لم يلتفت إليه ، ومات ، وهذا الالتماس الرائع ، ملقى على مكتب رئيس الولايات المتحدة مطوياً ، لم يقرأه أحد . ثم أصدر علماء الذرة الساخطون ، بعد هيروشيما ، مجلة شهرية سموها ، نشرة علماء الذرة .

ويقول بعد ذلك رسل إنه عرف يقيناً أن الاتحاد السوفيتى ، أصبح يملك القنبلة الذرية فى أغسطس سنة ١٩٤٩ أى بعد أربع سنوات كاملة من تاريخ إلقاء قنبلة هيروشيما وأقل من أربع سنوات من تاريخ تقديم تقرير (فرانك) الذى تنبأ بأن الروس سيكتشفون سر صنع القنبلة الذرية قريباً . وقد آلم ذلك زعماء الولايات المتحدة فبرروا لحاق الروس بهم ، بأن الجواسيس هم الذين باحوا بسر

هذا السلاح الرهيب للأعداء ، وقد نشأت بذلك فى الولايات المتحدة ، هذه الروح المؤسفة ، روح (المكارثية) .

وقد كان أجمل ما قاله رسل — وهو إنجليزى قح ، ومن صميم الأرستقراطية البريطانية — أن محادثات نزع السلاح التى تليت الحرب ، تدعو إلى السأم ، ولكن ليس من الإنصاف فى شىء أن نلقى تبعة فشلها على الاتحاد السوفييتى وحده ، وأضاف إلى ذلك أن الغرب قدم اقتراحات رائعة لنزع السلاح سنة ١٩٥٥ ، فقبلها الاتحاد السوفيتى على الفور ، ففزع الغرب من ذلك فزعاً شديداً لأنه لم يكن يتوقعه ، فسحب هذه المقترحات .

* * *

والتسابق على التسلح ، والإصرار على الاستمرار فيه ، عند رسل ، غاية الغباء ، وقد يكون الباعث عليه خوف كل معسكر من الآخر ، أو حب السلطة ، ولكنه يأبى أن يسلم بأن الحرب جزء من الطبيعة البشرية كما يأبى أن يسلم بأن الطبيعة البشرية غير قابلة للتغير والتكيف ، ويضرب المثل بالسويد التى لم تخض حرباً منذ سنة ١٨١٤ ، أى أنه انقضى على السويديين قرابة قرن ونصف قرن ، ولم يبد على أحد من السويديين الذين يعرفهم رسل ، أنهم يتعذبون ، لما يلاقونه من كبح جماح غريزة الحرب فى نفوسهم . ويقول إن المبارزة كانت عادة مألوفة لفض المنازعات ، وكانت محل الاحترام ، وكان التفكير فى إلغائها فى عهدها ، يبدو مصادرة للطبيعة البشرية ، ولكنها ألغيت ولم يعد أحد يشعر بأنه يحتاج إليها لتنفس عن غريزة المقاتلة .

ويقول رسل إن العالم لينوس باولنج ، قدم التماساً إلى الأمم المتحدة يطلب فيه وقف التجارب النووية وقد وقع على هذا الالتماس ٩٢٣٥ عالماً ، وقد قال العلماء فى هذا الالتماس إن كل تجربة تزيد من الإشعاعات فى أنحاء العالم ، وإن هذه الإشعاعات تسبب تلفاً لصحة البشر ، كما تؤثر على المواليد فى المستقبل ، على أنه طالما بقيت هذه الأسلحة فى أيدى ثلاث دول ، فإن الاتفاق على السيطرة عليها يبقى سهلا ، ولكن لو انتشرت ملكيتها بين دول أكثر ، فإن احتمال اندلاع الحرب ، بسبب قرار زعيم ، لا يهاب المسئولية ، يزداد قوة .

وقد أصدرت الهند كتاباً سنة ١٩٥٦ ، وأعادت طبعه سنة ١٩٥٨ عن التفجرات الذرية وأثرها ، وقد دبرت ضد هذا الكتاب مؤامرة صمت ، لأنه لا يخدم مصلحة أحد . ثم انعقد فى أغسطس سنة ١٩٥٥ اجتماع للاتحاد البرلمانى العالمى ، كان فيه أربعة يمثلون الاتحاد السوفيتى ، ولم يكن كل أعضاء هذا الاجتماع بنواب فى المجالس النيابية فى بلادهم ، بل كان فيهم الفيلسوف والعالم النفسانى ، أما هيئة المكتب فكانت من العلماء . وفى نهاية المناقشة أصدر المؤتمر قراراً أعلن فيه أنه من المحتمل استعمال الأسلحة النووية فى أية حرب تقع فى المستقبل ، وأن حرباً كهذه ستوقع بالإنسانية آلاماً لا حد لها ، ولذلك فإن المؤتمر يستحث الحكومات لتعلن وتؤكد فى غير غموض ، بأنها لن تتوسل بحرب عالمية ، لتحقيق أغراضها ، كما أن المؤتمر يطالب بمحاولة تطبيق آخر ما توصل إليه العلم كوسيلة لحل الخلافات الدولية .

ويقول رسل إنه حاول أن ينشئ تنظيماً هدفه إيجاد تعاون دولى بين العلماء الشيوعيين وغير الشيوعيين فى موضوع مكافحة التجارب النووية واستعمال الأسلحة الذرية ، وقد أعد (رسل) كبداية لهذا التنظيم نداء ، وقعه عدد كبير من العلماء ذوى المكانة الرفيعة فى بلادهم وفى العالم ، وقد أذاع هذا البيان فى مؤتمر صحفى دبرته (الأوبزفرر) وقد كان أجمل ما فى هذا البيان أن موقعيه قالوا إنهم يتحدثون إلى العالم ، لا بوصفهم أبناء شعب معين ، بل كأفراد من الجماعة الإنسانية . وقد كان العلماء الذين وقعوا على هذا النداء من أكبر علماء الرياضة وكان أكثرهم من الحاصلين على جائزة نوبل .

وقد نجح هذا التنظيم فى عقد مؤتمرات كبيرة ، إلى جانب مؤتمرات العلماء الصغيرة ، لتناقش المشكلات النفسية والاقتصادية ، وقد جاء فى قرارات مؤتمر فيينا الذى انعقد فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٨ الحقائق التالية :

أولا : الدفاع ضد الهجوم النووى صعب فى رأى علماء المؤتمر .

ثانياً : أن إلغاء الأسلحة النووية وتحطيم الموجود وحده لا يكفى لإبعاد شبح الحرب النووية . فإن المعرفة التى حصلت عليها البشرية كافيـــة لتعين أى دولة ترغب فى إنتاج هذا النوع من الأسلحة فى المستقبل . فلن يقف أمام استخدام

هذه الأسلحة إلا إبرام اتفاقات بعدم استخدامها .

ثالثاً : أن الحروب المحلية التى قد نستهين بها ، يمكن أن تؤدى إلى حروب عالمية ولذلك فلا بد من مقاومة نشوب حروب محلية ، بقدر ما نقاوم نشوب حرب عالمية .

وبعد عرض هذا الجانب من محاولات العلماء لمنع الكارثة المحتملة ، ختم رسل رسالة باقتراح الحل الذى يراه الضمان الوحيد لنجاة الإنسانية منها ، وهو اقتراح حكومة عالمية . وهو يرى أن قيام مثل هذه الحكومة لم يعد خيالا شاعرياً يساور المفكرين ، وإنما أصبح بسبب الخطر الذرى مشروعاً عمليا .

فإن بعض رجال الساسة أصبحوا يلوكونه ، وكأنهم يقبلونه ، وقد ساق (رسل) مثلا على ذلك ما قاله ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا بأنه يؤمل فى نزع سلاح شامل ، يتناول الأسلحة القديمة والحديثة ، التقليدية والنووية ، وأن تكون الهيئة المسيطرة على نزع السلاح فعالة وعالمية ، ولها سلطان يعلو حتى على سلطان كل الدول ، وأن تكون هيئة ذات قوة فعلية . ثم قال ماكميلان ، إنه إذا اعتبر هذا الاقتراح ، بمثابة تطوير للأمم المتحدة ، أو أية هيئة أخرى ، وجعلها حكومة عالمية ، فليكن ذلك فإن قيام حكومة عالمية ليس بالأمر البالغ السوء ؛ فإن حكومة كهذه هى السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية ، ولكن رسل لا يعتقد أن مجرد قيام حكومة عالمية كفيل بضمان السلام ، فقد تقوم هذه الحكومة معتمدة على جيوش تبرعت بها الدول ، ولكن ولاء هذه الجيوش لا يتجه إلى الحكومة العالمية ، بل يبقى لدولها التى كانت تتبعها أصلا ، وقد تتمرد على الحكومة العالمية لحساب دولها .

وكذلك لابد من وضع ضمانات دستورية لحماية الحكومة العالمية ذاتها ، ولضمان عملها ، وحسن أدائه ؛ وهو يرى أجزاء هذه الحكومة كأية حكومة محلية ، مكونة من :

أولا : سلطة تشريعية .

ثانياً : سلطة تنفيذية .

ثالثاً : جيش لا يقاوم .

ولما كان الجيش الذى لا يقاوم ، هو أصعب أجزاء الحكومة العالمية فقد بدأ به (رسل) ، فقال إنه يجب حتى — يتيسر إقامة هذا الجيش — تجريد جميع الدول من قواتها المسلحة ، والهبوط به إلى مستوى القوات البوليسية . ثم تخول الحكومة العالمية الحق فى أن تصنع الأسلحة فى أى بلد من البلاد التى تراها لازمة .

ولأن تجريد الدول من جيوشها قد تم توطئة لإنشاء جيش عالمى ، فإن هذا الجيش العالمى ، لن يكون كبيراً لأنه لن يجد عند أية دولة من الدول المقاومة التى تستدعى الاحتفاظ بقوة دولية ضخمة . . ولكن هذا لا ينفى الحاجة إلى الاحتياط ، ولذلك لا يجوز أن تتكون أية وحدة من وحدات الجيش العالمى ، من أفراد دولة واحدة ، بل يجب أن تكون خليطاً من قارات مختلفة بحيث تضم الوحدة الكبيرة ، أفريقيين ، وأوربيين ، وأسيويين . أما قيادة الجيش العالمى فيجب إسنادها إلى ضباط من الدول الصغيرة ، ثم لا يجب أن تغفل عيوننا عن مراقبة الدول بعد نزع السلاح ، فقد تعاود بعض الدول الرغبة فى التسلح خفية ، بقصد القيام بانقلاب وطنى ضد حكومة العالم .

أما السلطة التشريعية ، فتتكون من مجلسين ، أحدهما تمثل فيه الدول الكبيرة ، والصغيرة بعدد متساو من الممثلين ، حتى تتم المساواة بين هذه الدول ، ولا تطغى الدول الكبيرة على الصغيرة ، ومجلس يضم ممثلين عن الدول حسب عدد سكانها ، والقرارات يجب أن تصدر من المجلسين معاً .

ودستور الحكومة العالمية الذى ينظم هذه السلطات هو دستور (فدرالى) تحتفظ فى ظله الدول بسلطاتها المحلية ، وتتنازل فقط إلى الحكومة الأعلى ، حكومة العالم ، بشئون العلاقات الخارجية فيما بينها بعضها البعض .

ولكن لن تبقى الدول وحدات كثيرة كما هى الآن ، بل إن (رسل) يقترح إنشاء اتحادات كبيرة — فدرالية بدورها — على الوجه التالى :

١ — الصين .

٢ — الهند وسيلان .

٣ — اليابان وأندونيسيا .

٤ — العالم الإسلامى من باكستان إلى المغرب .

٥ — أفريقيا الاستوائية .

٦ — الاتحاد السوفيتى .

٧ — غرب أوربا : بريطانيا ، إيرلندا ، أستراليا ، نيوزيلندا .

٨ — الولايات المتحدة وكندا .

٩ — أمريكا اللاتينية .

وكما أن (رسل) يقترح أن يوجد دستور فدرالى ليحدد العلاقة بين هذه الاتحادات وحكومة العالم . فإنه يقترح كذلك تحرير دستور ليحدد العلاقة بين هذه الاتحادات والدول المكونة لها . وعلى الحكومة العالمية أن تؤيد حكومة الاتحاد فى كل إجراء تتخذه قبل دول الأعضاء فى الاتحاد ، وألا تتدخل فى الشئون الداخلية لهذه الدول الأعضاء ، ما لم ينتهك الدستور .

وبين رسل سلطات البرلمان العالمى ، فيقول إن أى اتفاقية لا يبرمها هذا البرلمان ، لا يمكن التعويل عليها . وللبرلمان الحق فى اقتراح تنقيح الاتفاقيات القائمة ، وفى الاعتراض على النظم التعليمية التى تثير النعرة الإقليمية .

وأخيراً يجب أن توجد سلطة تنفيذية مسئولة أمام البرلمان تتولى تنفيذ قراراته ، والإشراف على الجيش ، وتوقيع العقاب على أية دولة عضو ، عند خرق الدستور والخروج عليه . على أنه يجب إصدار قانون عالمى ، وإنشاء دولة عالمية ، لها فى الشئون العالمية ، السلطة التى للمحكمة المحلية داخل الوطن .

على أن نجاح هذه الحكومة العالمية مناطه نجاحها فى العمل على المساواة الاقتصادية ، فى مستويات المعيشة فى الأجزاء المختلفة فى العالم ، إذ ما دام اختلاف مستوى المعيشة بين الأمم قائماً ، فإن الضمان الكامل للسلام لن يتحقق ، فإن غنى بعض الدول ، وفقر الدول الأخرى يتيح للدول الأغنى دائماً فرص الضغط من جانب ، ودواعى الضعف والاستسلام فى جانب آخر .

وقد أفرد (رسل) بعد ذلك فصلا لمناقشة الصعاب التى تعترض طريق قيام حكومة عالمية ، والاعتراضات التى يثيرها خصامها .

وأول العقبات فى طريق هذه الحكومة ، فى رأى رسل ، هو النعرة الوطنية ،

فإن ذوبان دولة كبيرة ، فى بناء كبير ، ليس بالأمر السهل على الذين عاشوا يتغنون بالوطن ويباهون به ، لا سيما فيما يحسبون أن مقاديرهم ، ومقادير سواهم لن يتصرفوا هم فيها ، بل سيتصرف فيها آخرون . وقد يفقد بعض هؤلاء عقلهم إذا تصوروا مثلا أن جيشهم العزيز سيخضع لقيادة قائد روسى . لقد غزت الأجيال إعجابنا بالأبطال الفاتحين ، وعددناهم رجالا عظاماً ، جديرين بالاحترام ، إلى الحد أن رجال فكر كبايرون وهاينى ، استولى نابليون على إعجابهم .

أما العقبة الثانية فهو الخوف من تغلب نظام اقتصادى على نظام اقتصادى آخر فى ظل الحكومة العالمية ، فإن تنظيماً جديداً للعالم ، قد يخرج دولاً من معسكر إلى معسكر آخر ، وقد تكون الأغلبية فى صف نظام ضد نظام .

والاعتراض الثالث هو أن إنشاء حكومة عالمية قد تؤدى إلى انقلاب عسكرى ، تحكم فيه الدنيا كلها بدكتاتورية رجل واحد ، إذ ما يمنع قائد القوات العالمية ، وهو مطمئن إلى أن الدول قد جردت من سلاحها ، وأن القوة العسكرية الوحيدة الموجودة هى القوة الخاضعة لأوامره ، أن يفكر فى أن ينصب نفسه قائداً للحكومة العالمية ، وأن يفرض سلطانه على الناس أجمعين ،

ويختم (رسل) حديثه عن العقبات ، بعقبة (سيكولوجية) ، ويشرحها بقوله ، بأن الأطفال حينما يخشون خطراً يتهددهم ككلب مفترس يطيعون الأوامر ولكنهم حينما يأمنون، يصعب قيادهم ، والكبار كالصغار ، فإذا ما زال عن الأمم الخوف من الحرب ، فقد يصعب قيادهم ، ويتمردون على حكوماتهم .

* * *

ويرى (رسل) أنه لا يمكن أن تنشأ حكومة عالمية ، إلا إذا تهيأ لها الطريق ، وأول سبيل إلى ذلك هو تغيير جو المناقشة الدائرة بين الشرق والغرب ، فإن هذه المناقشات تدور فى جو مشحون بالعداوة التى تقود كل معسكر إلى التفكير فى تحقيق انتصار على الآخر ، ولو على حساب نجاح المفاوضات ، دون أن يفكر المعسكران فى الخطر الذى يهددهما معاً من استمرار التجارب الذرية وإنتاج الأسلحة ، ومن انتشار ملكية الأسلحة بين دول أخرى . وقد كانت المفاوضات

بينهما أول الأمر قائمة على أمل كبير ، لأن العلماء قالوا إن أية تجربة نووية يجريها معسكر ، يمكن للمعسكر الآخر كشفها ولكن الموقف تغير حينما أعلنت الولايات المتحدة ، أن التجارب النووية تحت الأرض لا يمكن كشفها ، ويعتبر (رسل) أن اقتراح السوفيت إسناد الرقابة إلى لجنة من ثلاثة مراقبين : أحدهم من الشرق والثانى من الغرب والثالث من الدول المحايدة ، اقتراح معقول على ألا يقوم هؤلاء بالمراقبة إلا عند ما تبلغ الأمور حد الأزمة .

ويجب أن يتبع ذلك خطوة تهيئة يكف الطرفان خلالها عن الدعاية العدائية ، وأن تبذل محاولات لإقامة علاقات ثقافية واسعة لتزول الفكرة العدائية التى يعتنقها كل معسكر تجاه الآخر ، والتى تظهر الفريق الآخر فى ثوب الوحش (المليودرامى) .

ويجب أن يزيد كل معسكر من معرفته بالمعسكر الآخر ، وأن تزداد إذاعة معلومات العلماء عن خطر الحرب الذرية . كما يجب إنشاء لجنة التوفيق وأن تقصرها على عدد قليل وليكن مثلا اثنى عشر : أربعة من الشرق وأربعة من الغرب وأربعة من المحايدين . وأن تعلن قرارات الأغلبية والأقلية ، مع بيان الأسباب . ويجب أن تقوم أعمال هذه اللجنة على مبادئ معينة أهمها خلوها من النصوص التى يراد بها الإيقاع بالطرف الآخر ، أو تنفيره من الاقتراح المعروض ، وبعبارة أخرى يجب أن تتسم أعمال اللجنة بالصراحة والصدق والإخلاص ، فغايتها يجب أن تكون التقريب بين المعسكرين ، وكسب ثقتهما ، وخلق هذه الثقة بينهما ، لا إتاحة الفرصة لإحداهما ليسجل انتصاراً على الآخر . ويقترح رسل أيضاً إزالة الخطوط الوهمية القائمة بين أجزاء الوطن الواحد ، ككوريا مثلا ، ولكنه لا يلبث حتى يقع فى خطأ يدل على نقص ثقافته السياسية ، أو عدم خلوه هو بالذات من الغرض ، فيعتبر ما بين إسرائيل والعرب ، كالخط الفاصل بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، وهو خطر يفصل بين أمة واحدة بفعل المنازعات العقيدية ، ولكن إسرائيل ، لم تكن موجودة منذ خمسة عشر عاماً وهى ليست جزءاً من الوطن العربى ، وانفصلت عنه ، بل هى عملية عدوانية ، متحدية لكل المبادئ التى يدعو إليها (رسل) أو التى يريد أن يقنعنا بأنه يدعو إليها عن إخلاص وصدق طوية ، ومع ذلك فإن السبيل إلى تقويم تفكير مثل هذا الداعى إلى السلام ليس رجمه بالطوب ، وإنما مناقشته فى

هدوء ، فإن حجة العرب القائمة على الإيمان بالسلام ، أقوى من الطوب والحجارة . ولعل أبلغ رد على قول رسل هذا فى شأن إسرائيل والعرب ، ما قاله بعد ذلك مباشرة من دعوته إلى ترك الأمم تقرر مصيرها ، فإن العرب يرحبون بأن يجرى استفتاء فى فلسطين القديمة تحت إشراف الأمم المتحدة ، وبين أهلها الذين خرجوا منها ، وبين أهلها الذين بقوا فيها ، بما فيهم اليهود الذين كانوا موجودين قبل سنة ١٩٤٨ ، حتى ولو لم يكونوا من مواليدها ، وهم يقبلون سلفاً نتيجة هذا الاستفتاء .

ثم يرى (رسل) أنه يجب أن تتم تقوية الأمم المتحدة فى فترة التحضير والتهيئة ، وسبيل هذه التقوية أن تفتح أبواب الأمم المتحدة كل دولة ترغب فى الانضمام إليها ، بما فيها الصين ، التى يعتبر أمر البت فى قبولها بالأمم المتحدة من المسائل العاجلة . ويعتقد أن فى ميثاق الأمم المتحدة عيوباً ، ليس أكبرها ، حق (الفيتو) وإن كان يسلم بأن إلغاء هذا الحق ، لا يتيسر ، فى ظل هذا العالم المدجج بالسلاح .

ويعلق (رسل) أملا على لجنة التوفيق التى يقترح تكوينها من ممثلى المعسكرين ، ومن المحايدين ، وأكثر هذا الأمل معلق على العنصر المحايد فى هذه اللجنة ، وهو يعتقد أنهم سيسيطرون على الميزان القائم بين الشرق والغرب ، ويؤمل فى أن ينصفوا كل معسكر من الآخر ، فيأخذون صف الشرق حيناً وصف الغرب حيناً ، حتى يكسبوا بذلك مقاماً يجعل لأحكامهم قيمة ، فيحسب المعسكران حسابهم ، ويفكر فيما سيحكمون به مقدماً ، بدلاً من الاندفاع إلى إلزامه فى الاقتراح ، والتسرع فى الرفض . وبهذا يخلق المحايدون ، وجهة نظر مجردة ، تختلف عن ما يقول به الشرق ، وبما يروجه الغرب : وجهة نظر قائمة على العدل ، ومصلحة الإنسانية جمعاء ، وخير السلام المأمول .

ولما كان أمل (رسل) عظيماً فى المحايدين ، وكان يرى أن دورهم فى صيانة السلام ، وبناء صرحه المتداعى ، وتمهيد الجو لخلقه ، هو الدور الرئيسى فقد كان طبيعياً أن يدعو بلاده ، أن تخرج من معسكر الغرب ، إلى معسكر المحايدين ، ولعله يؤمل من حيث لا يدرى ، بأن تتزعم بريطانيا معسكر المحايدين ، أو أن تلعب دوراً دولياً وهى فى هذا الصف أكبر من دورها الثانوى التابع الذى

تلعبه الآن تحت زعامة الولايات المتحدة ، وهو يقول بالنص : « إنه سيكون فى مقدور بريطانيا ، أن تعمل وتتصرف ، وهى فى صف المحايدين ، أكثر مما تستطيع وهى فى أحد المعسكرين » . وفى سبيل أن يتاح لبلاده أن تلعب هذا الدور الإنسانى العظيم ، لا يأبه بحجة القائلين بأن انسحاب بريطانيا من معسكر الغرب يقوى احتمالات الحرب .

الفصل الثالث

ختام

نحن ندنو دنواً شديداً من السلام، حتى ليخيل إلينا ، أننا لو مددنا يدنا نحوه ، لطالته ، ولكنه مع ذلك يبدو بعيــداً ، حتى ليغلبنا الوهم ، والتشاؤم ، بعض الوقت ، فنحسب أننا سنصبح يوماً على عالمنا يحترق ، ودنيانا تسلم نفسها لجنون التدمير والتخريب ، لا لأن أحد المعسكرين جرؤ على إشعال النار ، بل لأن سرب إوز ، أو قمراً صناعياً ، أو خطأ فنياً ، أو ضابطاً فقد عقله ، هو الذى أدى إلى إطلاق صاروخ ، يحمل قنبلة هدروجينية ، فردت عليه ، وبطريقة آلية ، وحدة تخريب فى الجانب الآخر وانتهى كل شىء . . .

فأين نحن من السلام ، أو النهاية ؟

إن المعسكرين الكبيرين ، فى حقيقة الأمر ، ضحية الوضع الذى انتهى إليه العالم ، بقدر ما هما المسئولان عن هذا الوضع ذاته . . .

لقد ورثنا أجيالا من سياسة المرآة والخداع ، والتظاهر بشىء ، وقصد غيره ، وقول جميل ، ونية خبيثة . فمن هنا ، كان كل من المعسكرين ، مضطراً إلى أن ينظر إلى ما يقترحه الآخر ، على أنه فخ ، يقصد به الإيقاع . وكان كل منهما معذوراً إذا تصور أنه إذا تجرد عن سلاحه ، فقد يكون العدو مخبئاً جزءاً من أسلحته أو منتوياً إنتاج بديل مما تحطم وألقى به من سلاح . فالطرفان يريدان أن يوقفا التجارب النووية ، وألا ينتجا سلاحاً نوويا جديداً ، وأن يحطما ما أنتجاه بالفعل ، وأن يتجردا من السلاح التقليدى ، بشرط ألا يكون ذلك سبباً فى أن يتميز أحدهما عن الآخر فى أية مرحلة من مراحل نزع السلاح ، فينقض فجأة على عدوه ، ويخضعه لإرادته ، ثم يفرض عليه مذهبه . وقد يكون أحد المعسكرين أصدق نية فى السلام من الآخر ، ولكن النتيجة النهائية أن كلا المعسكرين يخشى الآخر ويسىء الظن به ، ولسنا نرى بارقة أمل تلوح فى الأفق ، تبشر بأن فى الإمكان الاهتداء إلى حل ينزع السلاح تدريجيا من المعسكرين ، وكلاهما مطمئن

إلى أن السلاح الذى سيتخلى عنه ، لن يفتح عليه باباً ، يلجه العدو . .

فماذا يكون الحل ؟ هل نستسلم لليأس ؟

الواقع أننا لو بحثنا عن عناصر للحل فى العلاقات القائمة بين المعسكرين ، فإننا نضيع وقتنا ، وما نقوله ليس تشاؤماً ، بقدر ما هو استقراء لنتائج محاولات نزع السلاح ووقف التجارب الذرية التى أثبتنا مجملا لتاريخها وتطورها فى فصل سابق من هذا الكتاب ، وهى لا تورث القارئ إلا الصداع والدوار ، دون أن يخرج منها بشىء نافع .

إن عناصر التفاؤل ، تتحقق وتكثر خارج العلاقات بين المعسكر الشرقى والغربى ، وأول هذه العناصر ، هو موجة التحرر التى شملت عدداً كبيراً جداً من دول أفريقيا وآسيا ، وثانياً اتساع نطاق فكرة الحياد وعدم الانحياز ، وثالثاً ، تطور الأفكار والعلاقات بين كل معسكر على حدة .

أما تحرر عدد كبير من شعوب آسيا وأفريقيا ، فهو أكبر عوامل السلام ، وأكبر العقبات فى طريق الحرب . فقد كان الصراع ابتداء بين الدول القوية ، حول الدول الضعيفة التى يمكن الانقضاض عليها والاستيلاء على خيراتها ، واتخاذها أسواقاً لبضائعها ، ومصدراً واسعاً للمواد الخام الصناعية والزراعية معاً ، ثم اتخاذ أرضها قواعد حربية ، واتخاذ شبابها وقوداً للحروب . فلو لم تكن الهند والصين ، وبورما والملايو ، وأندونسيا ، ولو لم تكن الكونغو ، ونيجريا ، والسودان ، بكل ما فيها من خيرات مادية ، وثروات بشرية ، ومواقع ذات أهمية عسكرية ، فرائس وضحايا سهلة ، يمكن للدول القوية ، أن تنشب فيها أظافرها ، ثم تمتص دمها ، أكان يمكن أن يقوم للاستعمار ، قائمة ، وأن يتنافس من أجل الاستئثار بهذه المغانم الثمينة والأسلاب الدسمة ؟

فتحرر الأمم الغنية أصلا ، والتى تغطى من سطح الأرض مساحة واسعة ، وتضم من سكان البشرية ، عدداً هائلا ، واستعداد هذه الأمم للدفاع عن استقلالها ، والذود عن كل ما فيها من ثروات ومحاصيل وخيرات ، والعمل عن الإفادة منها ، بالأساليب والطرق العلمية الحديثة وتنظيم استقلالها ، سيعلم الدول التى درجت على العيش بالتطفل على أموال الغير ، وخيراتهم ، كيف تقنع بما أعطاها الله ،

وبالتعاون مع عباد الله ، على رفع مستوى معيشة أبنائها ، وتعويدهم على احترام أبناء هذه الأمم ، والتعامل معهم على قدم المساواة .

وبهذا ستفقد الحرب عنصراً من أهم عناصرها ، فالتنافس على الأسواق ، وعلى المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية ، لن يكون هدفاً من أهداف الصراع بين الدول الكبرى ، وسيتناقص مع الأيام كباعث على الحرب .

وليس معنى هذا الكلام أن الدول الصناعية الكبيرة سواء كانت من دول الغرب أو الشرق ، ستقنع بأسواقها الداخلية ، وأنها ستكف عن التفكير فيما وراء حدودها ، للبحث عن مصادر للمواد الخام ، وعن أسواق للسلع المصنوعة ، ولكنها لن تستطيع أن تفكر بالأسلوب القديم ، أسلوب التسلل إلى داخل الدولة الفريسة ، ثم اصطناع أيد أو إمداد ، وحادث على الحدود ، أو فى الداخل، ثم زحف مسلح ، ثم إقامة حكومة عميلة ، فإن هذا الأسلوب ، لم يعد مثمراً ، فهو أشبه شيء بلبس ملابس القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، فى شوارع لندن وباريس وموسكو هذه الأيام . انتهى هذا الأسلوب ، أو كاد ينتهى .

والحق أنه يجب التحفظ فى القول بأنه كاد ينتهى ، إذ لا تزال بقية من آثار تطبيق هذا الأسلوب فالدول الكبرى تحاول ، وتنجح أحياناً ، فى قلب حكومة فى أمريكا الجنوبية مثلا أو الشرق الأوسط أو الأقصى وتقيم حكومة جديدة .

ولكن عمر مثل هذه الحكومات التى تأتى ثمرة للتدخل الأجنبي البحت لا يطول عادة ، فالشعب يستعيد سلطته بعد حين ، ولو بعد صراع شاق .

وعلى أية حال ، فهذه الصور البغيضة من التبعية التامة لدولة قوية متحكمة تفرض سلطانها ، تكاد تختفى، ومن هنا كانت الأسلاب الثمينة ، التى تثير شراهة الذئاب المتنافسة، قد اختفت، وباختفائها ، خفت شراهة تلك الذئاب، والثابت أن الانقطاع الطويل عن ممارسة الجريمة، يهيئ فرصاً ممتازة لإصلاح معتادى الإجرام.

فالمجتمع الذى كان توازنه قد اختل ، وأصبح كل الثقل فيه فى جانب واحد ، ابتدأت موازينه تعتدل ، وفى السنوات الأخيرة زاد اتجاهه نحو الاعتدال ، وأصبح للدول الصغيرة — الصغيرة من حيث النفوذ أو القوة الاقتصادية — وزن فى الحياة الدولية ، وأخذ هذا الوزن يزداد بسرعة ، فلم يعد الأقوياء وحدهم فى هذا العالم ،

ولم يعد شعورهم بأنهم أصحاب الكلمة الأخيرة فيه ، وأنهم يملكون إصدار الأوامر ، وأن على الآخرين إطاعتها ، ولهذا كله دوره الأساسى فى خلق جو السلام ، فليس ثمة جو أصلح لأن يفقس فيه إله الحرب ويبيض ، من الجو الذى تسود فيه العالم دولة أو دولتان كبيرتان ، إذ أن الشعور بالقوة والتفرد والسلطة ، يغرى دائماً بالعدوان .

ولعل تجربة الدولتين الاستعماريتين التقليديتين فى معركة السويس بعد تأميم قناة السويس ، يعطينا صورة صادقة لما أصبحت عليه الحالة الدولية فى العهد الذى نعيش فيه ، فقد كانت بريطانيا وفرنسا قد رتبتا نفسيهما على أن يتما عملية السويس فى أيام قليلة على أن يكون انتصارهما العسكرى المرتقب ، توطئة لتغيير نظام الحكم فى مصر ، ثم إقامة حكم موال لهما ، يكون عنواناً على عودة النفوذ الفرنسى البريطانى إلى سابق عهده فى المنطقة . وكانت كل الأمور من الناحية المادية توحى بأن هذه الخطة يمكن تنفيذها فبريطانيا وفرنسا — مهما كان الضعف الذى أصاب قوتهما الحربية ومكانتهما السياسية — من أقوى الدول عسكرياً بعد السوفيت وأمريكا واجتماعهما سوياً على دولة لم تكن قد استقلت إلا منذ ثلاثة أشهر ، كفيل بأن يجعل محاولتهما أقرب ما تكون من النجاح مادياً — على الأقل فى مراحلها الأولى ، وفى جانبها العسكرى البحت — ولكن هاتين الدولتين ، رأتا نفسيهما أمام قوى تكاد تكون بالنسبة لهما ، ولتجاربهما الطويلة فى فهم الشعوب ، وغزوها ، كالقوى غير المنظورة . فقد كانت الأساطيل تحت إمرتهما ، والجيوش معبئة ، وقد نزل بعضها إلى أرض مصر فعلا ، ومع ذلك فقد عجزتا عن أن تخطوا خطوة واحدة بعد النقطة التى وصلتا إليها عند قرية الكاب قبل الإسماعيلية . فقد وجدتا الشعب المصرى صامداً لا يعبأ بغاراتهما الجوية المتصلة العنيفة ، ولا بإنذاراتهما المتكررة وإذاعاتهما المسمومة ، فقد كان الهدوء يسود مدن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان ، وكان الجميع منصرفين إلى أعمالهم ، كأن شيئاً لم يحدث . وكانت معسكرات التطوع فى الوقت تستقبل الشبان ، وحداناً وزرافات . ولم يكن هذا العنصر بالشىء المألوف للدول الاستعمارية ، فقد كان مجرد التلويح بالحرب ، فى الماضى ، هو ثلاثة أرباع المعركة من وجهة النظر لتلك الدول الاستعمارية ،

أما الربع الباقى ، فتقوم به بعض طلقات المدافع ، واضطرابات داخلية ، وطبقة على رأسها ملك أو أمير أو شيخ مستعد أن يسلم البضاعة للغزاة والفاتحين .

إذن ، وجد فى الحياة الدولية شيء جديد ، يقف فى وجه الاستعمار القديم ، ويسد عليه طريقه المألوف ، فلا فائدة إذن من تدبير الخطط ، للاستيلاء على أرض شعب أو على قطعة من هذه الأرض ، ومن هنا لن يقوم بين الدول صراعها القديم الذى كانت تجرُّ به الدنيا كلها إلى أتون متقد من المطامع والمعارك .

فالروح القومية ، والوطنية المستبسلة ، هى التى وقفت فى وجه الاستعمار ، وقلمت أظفاره ، ثم أقنعته بعدم جدوى خططه وأساليبه القديمة . وهذه الروح القومية تزداد صلابة ، وتأصلا ، وتزداد معرفة لأرض المعركة ، وفهماً لأسلحتها ، وقدرة على المناورة والمداورة ثم الهجوم . . .

وما يحدث فى أكثر من مكان فى آسيا وأفريقيا ، وما حدث فى السنين العشر الأخر ، يثبت أن الروح القومية ، والاتجاه الوطنى ، يكتسح كل ما بناه الاستعمار فى ثلاثة قرون أو أربعة .

ولذلك من حق (الوطنية) علينا كمذهب أن نقر لها بما فعلته فى سبيل التحرر الإنسانى ، وتمهيد الطريق إلى السلام العالمى .

فالروح الوطنية هى التى هزمت النزعة القيصرية والإمبراطورية حينما أرادت أن تخمد الثورة الفرنسية ، وأن تقضى عليها داخل حدود فرنسا ، فالفرنسيون أحسوا أن أرض بلادهم تناديهم للدفاع عنها ، وكان نشيد (المرسييز) ، يعد تعبيراً عن هذا الإحساس ، فقد تنادوا بها : أيها المواطنون ، إلى السلاح ، فقد جاء يوم المجد والفخار !

وبهذه الروح الوطنية ، استطاعوا أن يوقظوا شعوباً كانت قد أسلمت نفسها لسطوة الإمبراطور كهولندا ، وبلجيكا وإيطاليا . وقد سرت هذه النزعة الوطنية ، سريان النار فى الهشيم فى طول أوربا وعرضها ، فدالت القيصريات والإمبراطوريات ، والبقية الباقية من آثار إنكار الحقوق الوطنية ، وتحديها كان السبب المباشر فى الحرب العالمية الأولى ، وكان له نصيب فى إشعال نار الحرب العالمية الثانية .

وكما وقفت (الوطنية) حائلا فى وجه الاستبداد القيصرى والإمبراطورى، المؤمن بالسيف والنار، وبالحرب والمدفع، فى أعقاب الثورة الفرنسية، وقفت هذه (الوطنية) الجليلة الباهرة فى وجه نابليون ابن الثورة الفرنسية، وأداتها، الذى خانها، واستولى عليها لحسابه الخاص، فقد هزم فى حربين قوميتين هزيمة أزالت عنه هالة الرجل الذى لا يغلب. غلب، أو أثخن جراحاً فى أسبانيا، فى حروب العصابات الوطنية هناك سنة ١٨٠٨، وعاد فهزم فى سهول روسيا حينما أراد أن يقتحم على الروس بيتهم فى سنة ١٨١٢. ولو كان الذين حاربوا نابليون فى استرلتز وفينا وغيرها من قياصرة النمسا والمجر وبروسيا والروسيا، قد حاربوه باسم الوطنية، ودفاعاً عنها، واحتماء بها، لما ظفر نابليون بالمجد الذى ناله، ولكانت الخيبة من نصيبه، كما كانت نصيبه حينما أراد أن يثبت أقدامه فى مصر، متمسحاً فى الإسلام، زاعماً أنه جاء ليحرر مصر من المماليك.

ولقد سهل على الاستعمار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن يستولى على مساحات واسعة فى آسيا وأفريقيا، لا بفضل تفوقه العلمى، فحسب، بل بفضل تفكك الروح الوطنية، أو انعدامها فى إمبراطورية واسعة كالهند، وفى مناطق لا حد لها كأفريقيا، ولكن وجوده هناك، وثقافته التى نشرها، على الرغم منه، واتصال الشرق بالغرب، قد أيقظت أهل آسيا وأفريقيا، فعادت إليه الروح الوطنية شيئاً فشيئاً، ولما دارت المعارك بين القوى الوطنية الأسيوية والأفريقية الحديثة، وبين القوى الاستعمارية كانت رهيبة ودامية وبدت كأنما لن تسفر عن شىء، ولكنها على المدى الطويل، أثبتت أن النصر للروح الوطنية، وأن القوة المدججة بالسلاح، والعنف المدمر المخرب العاصف، لا شىء، أمام القوى الوادعة المؤمنة بالحق، المصممة على استخلاصه، التى تقبل التضحية وتدفع ثمنها..

ولقد بلغ هذا التطور أقصى مداه، فى العقد الخامس من القرن العشرين الذى نعيشه، فقد كانت الأمم المتحدة منظمة لخمسين دولة، نصفها تقريباً من أوربا، ومن سنة ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٦٣ بلغ عدد أعضاء الأمم المتحدة مائة وعشر دول، أكثر من نصفها من أسيا وأفريقيا، وأكثر من ثلثها من الدول الصغيرة إذا ضممنا دول أمريكا الجنوبية:

وهذه الدول جميعاً لا خوف منها على السلام ، بل إن وجودها فى الأمم المتحدة ، بعد استقلالها وتحررها ، هو الضمان الأكبر للسلام ، فهى قد عانت من سيطرة الدول القوية ، ولا تزال ندوب الماضى وآثاره السيئة واضحة فى حياتها ، وكيانها . وهى مشغولة ، ومستغرقة فى بناء نفسها ، وتعويض ما فاتها ، وليس لديها فائض من القوة ، ولا من المال ، ولا من الاهتمام ، لتصرفه على الفتح أو الغزو ، وهى فى الوقت نفسه لن تسيغ حرباً جديدة ، ولن تؤيد المعتدين ، إلا منساقة أو مضغوطاً عليها ، ودواعى الضغط تقل يوماً بعد يوم ، وستنعدم بعد حين .

وقد يستوقف القارئ أننا نتحدث عن الروح الوطنية ، ومذهب الوطنية ، برضا أو حماسة . فالدعوة إلى السلام ، تتسق مع الروح العالمية ، والدعوة إليها ، لا مع الروح الوطنيه ، والمذهب الوطنى . وهو حق ، ولكن ما من مذهب ، يستطيع أن يهيئ الجو للسلام ، ويعبد له الطريق ، أكثر من المذهب الوطنى . فقد قلنا إن الدول الكبرى ، لم يكن يغريها بالعدوان على الغير ، وبالتوسع ، إلا ضعف القوميات ، ولكنها لو وجدت قوميات حية ، مستعدة للدفاع عن نفسها ، وشاكية السلاح ، لما توسعت ولما قامت الحروب الاستعمارية الواسعة النطاق ، ولما وجد هذا الفارق الهائل بين الدول القوية ، وبين الدول الضعيفة . فلو كانت الهند ، قومية صلبة ، ذات حكومة مركزية ، كما هى الآن ، أو لو كانت الصين متحدة لما التهمتهما الدول الاستعمارية ، وعاشت عليهما قروناً ، ثم راحت بعد ذلك ، تعربد شرقاً وغرباً ، لا تحسب حساباً لأحد .

فإذا تصورنا العالم المتحد ، مكوناً من وحدات ، متساوية السيادة ، ومتحابة ، ومتعاونة ، فليس ثمة وحدة أكثر طبيعة من الوحدة الوطنية ، التى تطوى تحتها غالباً جماعة متجانسة ذوقاً ، ومشرباً ، تتكلم لغة واحدة ، وتربطها أحداث تاريخ واحد ، وتتغذى بثقافة واحدة ، ذات ينابيع وأصول واحدة ، مما يجعل تعامل أفرادها وتعاونهم ، سهلا ميسوراً ، ومحبباً إلى أنفسهم . فإذا خلت وحدتهم من عوامل الاصطناع ، وخلت من دواعى العدوان على الغير ، أصبح من الممكن أن تندمج هذه الوحدة ، فى وحدة أكبر منها ، كالوحدة الإقليمية ، وأمكن أن تندمج وتذوب هذه الوحدات الإقليمية فى النطاق العالمى الشامل .

وإذا أخذنا العرب مثلا ، فالطريق الأمثل لهم أن يشمل أوطانهم الحالية إطار الوحدة العربية ، ثم تكون الوحدة العربية لبنة فى الوحدة العالمية . ولكن لا يتصور أحد ، أنه إذا وجدت الدولة العربية الواحدة ، أن تنهض بالشئون الداخلية لمصر والسودان والجزائر إلى آخر الدول العربية الحالية ، وأن تلغى وجود مصر أو العراق ، فإن محاولة هذا عبث لا طائل تحته ، ولا نفع منه ، إنما الأفضل منه ، إزالة الحواجز من أى نوع كان ، بين هذه الوحدات ، وفتح الأبواب بينها ، لتتلاقى وتتفاعل وتندمج ، حتى ينشأ منها مع الزمن وطن واحد فى إطار دولة واحدة ، فإن لم يتم الاندماج التام ، وبقيت هذه الوحدات كالولايات الصغيرة فى الدولة الكبيرة ، لم يخسر العرب شيئاً ، ما دامت أمورهم الكبرى فى السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم ، تديرها الدولة الكبرى ، بروح الوحدة الكاملة الشاملة .

وقد أثبتت التجربة أن كل محاولة لقمع الروح الوطنية ، باءت بالفشل ، فقد رأيت بنفسى فى جميع البلاد الاشتراكية فى شرق أوربا ، روحاً وطنية متأججة تعبر عن نفسها ، زهواً بكل ما هو وطنى ، سواء كان قديماً أو حديثاً ، شيئاً أو شخصاً أو عملا . ورأيت بنفسى هذا الشعور عند الروس بروسيا القديمة والحديثة معاً . وقد ثبت أن ستالين أمر برفع صور ماركس ولنين من ثكنات الجيش الأحمر ووضع بدلاً منها صور قادة روسـيا القدامى ، مثل « إسكندر نيفسكى » . وليس فى هذا ما يعيب ، ولكن على أن نفهم أن الرغبة الجامحة عند الإنجليز والفرنسيين وعند أية دولة استعمارية فى القديم أو الحديث من رومة إلى إسبانيا والبرتغال وهولندة إلى الغزو والفتح ، وبسط النفوذ على العالم ، ليس مرده الوطنية ، ولا حب الوطن ، وإنما الباعث عليه طمع طبقة فى هذه الدول جميعاً جعلت حكم العالم والسيطرة عليه ، هدفها الثابت ، وحشدت من أجله كل قوة ، وجمعت لتحقيقه كل وسيلة . فالوطنية المعتدية ، المتسلطة ، انحراف فى هذه الفضيلة ، لا نحسب إن العالم الذى نعيش فيه سيسمح به ، أو سيتسامح معه .

فالوطنية ، والروح القومية ، واتساع نطاقهما ، هما مصباحان مضيئان فى الطريق إلى السلام ، وضمانات من ضماناته .

* * *

العنصر الثانى من عناصر التفاؤل ، هو التطور الذى ترتب على نشوء هذه القوميات المتحررة الجديدة التى شغلت أكثر المسرح العالمى ، والتى احتلت مقاعدها فى الأمم المتحدة . أعنى به ، كتلة الحياد وعدم الانحياز .

وقد أصبحت هذه الكتلة ، عنصراً حقيقياً من عناصر السلام ، فخروشوف ، ضمن كثيراً من مقترحاته لنزع السلاح ، ما يدل على اعتماده على دول الحياد ، بل إنه اقترح تعديل جهاز أمانة الأمم المتحدة بحيث يكون لدول الحياد ثلث هذا الجهاز .

وقد اعتمد نفس هذا الاعتماد (رسل)، وهو يشرح مقترحاته لبناء السلام؛ فالحياد فى رأى (رسل) عنصر أساسى لإقامة النظام الذى يمكن أن يبنى لنا قواعد السلام، ثم يتبناها ويحافظ عليها . بل إن (رسل) ذهب إلى أبعد ذلك؛ فدعا بلاده إلى ترك معسكر الغرب ، للانضمام إلى معسكر المحايدين ، إذا جاز لنا أن نسمى جبهة المحايدين بمعسكر .

والحق أن تزايد عدد الدول المتحررة حديثاً كان يؤدى بطبيعة الحال ، إلى نشوء جماعة جديدة من الدول لا ترى أن لها مصلحة فى التحيز للغرب ضد الشرق ، أو للشرق ضد الغرب ، بل ترى مصلحة العالم كله فى التوفيق بين المعسكرين معاً. بل إن مصلحتها ، أن تنظر إلى العالم ككل ، وإلى مصلحة أولاده كأبناء عائلة واحدة، وأن تنصرف ، بأسرع ما تستطيع ، وبأقوى ما تملك من الجهد الإنسانى ، إلى مواجهة المشكلات الأساسية للبشر وهى مواجهة الجوع الذى يعانى منه الملايين ، وسوء أحوال المعيشة السائدة فى أكثر بقاع الدنيا، وموجة الاضطراب الروحى والنفسى التى تسود المجتمعات المتحضرة ، وتفشى الجريمة والتحلل والانحراف والخوف فيها .

وقد دأبت فى مصر ، جماعة إلى الدعوة إلى الحياد منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وقد كان إيمانها الدافع لها إلى هذه الدعوة ، ذا أساسين؛ أولهما وطنى ، وقوامه أن مصلحة مصر فى أن تلزم الحياد ، وثانيهما إنسانى ، ومؤداه أن اتساع نطاق الفكرة الحيادية ، يزيد من فرص السلام ، ويقلل من احتمالات الحرب .

ولقد أثبتت الأيام أن هؤلاء أصابوا فيما توقعوه وأنهم أحسنوا التكهن بما ستأتى به تطورات السياسة العالمية .

فالدول الحيادية والدول المتحررة ، ما كادت تستقل عن النفوذ الأجنبى ، حتى اجتمعت فيما بينها وأصبحت قوة يحسب لها حساب كبير ، وأخذ تأثير أفكارها ، وما تروج له ، يتسع نطاقه .

وقد كانت البذور التى نشأت منها الكتلة المتحررة ، هى الكتلة الآسيوية الأفريقية التى نشأت فى ردهات الأمم المتحدة وأروقتها كمجرد تنظيم ، لتنسيق مواقف أعضاء هذه الدولة من الموضوعات المختلفة المعروضة على الأمم المتحدة ، وقد كان عدد أعضاء هذه الكتلة فى البداية ست عشرة دولة آسيوية وأفريقية ، وقد ظهر تضامنها ، ووحدتها ، عندما نظرت قضايا سوريا ولبنان ومصر وفلسطين والصومال وليبيا والمغرب العربى .

ولكن هذه البداية الصغيرة انتهت بانعقاد مؤتمر باندونج فى الأسبوع الثالث من أبريل لعام ١٩٥٥ فى مدينة باندونج بدعوة من دول المؤتمر الخمس وهى بورما والهند وأندونسيا وباكستان وسيلان ، وقد ضم هذا المؤتمر ممثلى تسع وعشرين دولة آسيوية وأفريقية يؤلف سكانها ثلاثة أخماس سكان العالم .

وليس مؤتمر باندونج ، واحداً من المؤتمرات العالمية ، التى تعقد منها فى السنة الواحدة ، مؤتمرات بل إن بداية هذا التطور الهائل الذى نجم عن نشوء دول متحررة كانت قد رزحت طويلا تحت أثقال الاستعمار ، فلما أزاحته عن كاهلها ، خرجت ، لتحرر باقى العالم من هذا الكابوس الرهيب ، ولتقيم دنيا جديدة ، وقد أحس الغرب بمعنى هذا المؤتمر ، وأثره ، وعلق عليه الأهمية التى يستحقها ، ودرس موقعه على ضوء مداولات هذا المؤتمر ، وقرارته . وليس من غايتنا هنا ، أن نتحدث عن هذا المؤتمر طويلا ، وإنما نحن نذكره كعلامة كبيرة على طريق غاية فى الجدة .

وقد بدأت الفكرة فى عقد المؤتمر ، فى نطاق ضيق ، إذ بدأت بدعوة الدول الآتية فقط :

١ — أثيوبيا ٢ — أفغانستان ٣ — الأردن ٤ — العراق ٥ — العربية السعودية

٦ ــ الفلبين ٧ ــ الهند ٨ ــ اليمن ٩ ــ أندونسيا ١٠ ــ إيران ١١ ــ باكستان ١٢ ــ بورما ١٣ ــ تايلاند ١٤ ــ سوريا ١٥ ــ سيلان ١٦ ــ لبنان ١٧ــ ليبريا ١٨ ــ مصر .

ولكن أضيفت إليها فيما بعد .

١ ــ ساحل الذهب ٢ ــ السودان ٣ ــ إيران ٤ ــ اليابان ٥ ــ تركيا ٦ ــ فيتنام الشمالية ٧ ــ فيتنام الجنوبية ٨ــ لاوس ٩ــ الصين ١٠ ــ نيبال ١١ ــ ليبيا .

وقد كان للمؤتمر أربعة أهداف منها هدفان خاصان بالسعى لتوطيد الثقة ودعم التعاون بين البلاد الآسيوية والأفريقية لكى توضح معالم المصالح المشتركة بينها وتزيد التبادل فيما بينها ولكى تؤسس وتمكن أواصر الود وحسن الجوار ، وبحث المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للدول الآسيوية الأفريقية وعلاقاتها بعضها ببعض والعمل المشترك للتقدم الاقتصادى .

أما الهدفان الأخيران فهما بحث القضايا التى تعنى الشعوب الآسيوية والأفريقية ، وخاصة قضايا السيادة القومية ومكافحة التمييز العنصرى والاستعمار ، ثم تحديد وضع آسيا وأفريقيا وشعوبهما فى عالم اليوم ، وبيـــان دورهما فى خدمة السلم والتعاون العالميين .

ولعل أفضل ما نسوقه فى بيان أثر هذا المؤتمر ، ما جاء فى الكتاب الذى أصدرته جامعة الدول العربية عنه ، فقد جاء فى الصفحة ٨ من هذا الكتاب :

« الحق أن هذا المؤتمر قد أحدث تغييراً فى جو العلاقات الآسيوية والأفريقية ، وأن الآراء التى تبودلت فى جلسات المؤتمر ولجانه ، والمحادثات الخاصة التى جرت خارج المؤتمر ، كانت عظيمة الأثر فى تأليف الصداقات ، وفى القضاء على روح الشك وعدم الثقة التى سادت العلاقات بين دول هذه المنطقة من العالم ، الموحدة مجداً ثم نكسة واستعماراً فى الماضى ، نهضة وتوثباً فى الحاضر ، وطموحاً وأملا فى المستقبل .

ثم قال :

« لقد ضاعفت بعض الدول الأجنبية من نشاطها فى ميدان التدخل فى شئوننا وتشديد القبضة الاستعمارية على بعض مناطقنا ، واحتدم النزاع بين بعض بلاد

المؤتمر على مواطن خلاف قديمة ، وظهرت محاولات للنيل من وحدتنا .

« لكن هذه المظاهر المضادة لم تطمس من الحقيقة الكبرى شيئاً ، ولم تستطع الظلال الباهتة أن تغشى النور الساطع ، بل يبدو أن العالم بدأ يجيب داعى مؤتمر باندونج ، وبقى أن تدوم إجابته ، وأن يمضى قدماً إلى أقصى سبيل الرشاد .

« لقد عمدت روسيا إلى التقرب من المعسكر المعادى لها ، وزار زعماء السوفيت تيتو ، وأعلن زعيم يوغسلافيا إثر الزيارة أنهم غيروا أفكارهم القديمة ، واقتنعوا بأن العالم لا يمكن أن يحكمه نظام واحد ، وأن اختلاف الآراء لا يدعو إلى التقاتل والتناحر . ودعت روسيا شاه إيران لزيارتها ، وأعلن إيدن قبول بولجانين وخرشوف زيارة إنجلترا فى الربيع القادم .

« وزار نهرو روسيا والصين ويوغسلافيا ، وترددت فى البلاغات الرسمية الصادرة إثر زيارته عبارات المعايشة السلمية والتعاون الدولى والسلام العالمى وسائر مبادئ مؤتمر باندونج .

« لقد رفع الستار الحديدى ، أو ما كان يسمى كذلك ، فى مؤتمر باندونج ، إذ أعلن شوان لاى ، أن هذا الستار خرافة ، ودعا ممثلى الدول الآسيوية والأفريقية إلى زيارة بلاده حتى يروا بلاداً كسائر بلاد العالم . لكن الناس جميعاً كانت أنباء هذا « الستار » تتواتر بينهم ، ومن قبل باندونج لم نر زعماء روسيا وبلاد الكتلة الشرقية ، ولم تتقدم روسيا والصين الشعبية بمثل هذه الدعوة فلعل ذلك أن يكون بداية عهد جديد فى تاريخ الإنسانية .

« وأعلن شوان لاى فى باندونج إستعداده للتفاوض مع أمريكا حول فرموزا ، واجتمع سفيرا الصين والولايات المتحدة الأمريكية فى أول أغسطس الحالى بجنيف ، وأعلنت الصين قبيل الاجتماع الإفراج عن الطيارين الأمريكيين المعتقلين منذ الحرب الكورية ، وأبدى شوان لاى استعداده للاجتماع بدالاس »

قد يكون مبالغة فى تقدير أثر باندونج أن ننسب إليه كل هذه التطورات العظيمة ، ولكنه بلا شك ، كان علامة من علامات هذا التطور العظيم ، ثم كان فى الوقت نفسه ، كشفاً عن القوى الجديدة فى العالم ، وكان درساً للدول الكبرى ، وإنذاراً خفياً لها جميعاً ، بأن السلطة المادية والروحية ، والسيادة العقلية والأدبية التى كانت

لأوربا ، ولوليدتها أمريكا ، قد بدأت تتقلص ، وأن أبناء الحضارات القديمة بدأوا يتحركون ، ويحركون معهم شعوباً ، تركت طويلا ، وراء ستار حديدى فعلى ، حجب عنها النور ، وحجبها عن العمل والمساهمة الجادة .

وقد يكون مما يعين على فهم مدى أهم مؤتمر باندونج ، أن ندرك حدود أهمية البلاد التى اشتركت فيه من الناحية الاقتصادية وحدها ، فقد بلغ عدد سكان تلك البلاد ١٣١٠ من الملايين أى أكثر من نصف سكان العالم ، وهى تنتج الجزء الأكبر من البترول والقطن الخام والمطاط ، ويعتبر الفحم والحديد الموجود فى بعض بلادها ، من أكبر الكميات الموجودة فى العالم ، ومما يكمل هذه المعلومات أن حظ هذه الدول فى التجارة العالمية لا يتجاوز ١٠٪ من الواردات ، و ٨٪ من الصادرات ، بل إن صادرات وواردات الدول الأعضاء بين بعضها البعض ٢٢٪ من صادرات المنطقة و ٣٠٪ من وارداتها .

وقد كان من أهم التعليقات على مؤتمر باندونج وتعليقاته ما قاله همرشلد سكرتير الأمم المتحدة إذ صرح : « لأن مؤتمر باندونج قد أظهر التعاون الوثيق بين الشعوب التى اشتركت فيه من أجل أهداف الأمم المتحدة ومبادئها »

ولقد أثبت مؤتمر باندونج أنه فعلا الصفحة الأولى من كتاب جديد فقد تلاه مؤتمر الدول غير المنحازة فى بلغراد سنة ١٩٦١ ، ثم مؤتمر التضامن الأفريقى فى أديس أبابا سنة ١٩٦٣ ثم مؤتمر دول عدم الانحياز فى القاهرة سنة ١٩٦٤ ، وقد أثبت الأفريقيون أنهم يتناولون شؤونهم ، على وجه جاد ، إذ أن مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر وبين الحبشة والصومال ، لم يتصد لتسويتها بطريقة سلمية إلا دول أفريقية .

فلسنا إذن مبالغين إذا قلنا إن تحرر الشعوب من الاستعمار ، وتجمعها ، سيؤدى إلى خلق جو مناسب ، يستنشق فيه السلام ، هواء أنقى ، ويصبح بفضله أكثر قدرة على الثبات أولا ، ثم التقدم ثانياً .

* * *

وقد ترتب على تغير بناء العالم ، ونشوء قوى جديدة فيه ، إلى تغير عظيم داخل المعسكرين الكبيرين : معسكر الشرق والغرب .

ولقد كان إعلان صنع الروسيا للقنبلة الذرية فى سنة ١٩٤٩ إعلاناً للمعسكرين بأنه لا سبيل إلى تلاحمهما . وقد كان لهذه الحقيقة أكبر الأثر فى تطور المعسكرين ؛ فقد طرأ عليهما بسببها تطور عقلى ومادى فى داخلهما ، وفى طبيعة العلاقات بينهما ، وفى طبيعة العلاقات بين الدول المنضمة إلى كل معسكر . وقد كان من هذه التطورات ، ما هو سيء ، وكان منها ما هو طيب ، ولكنها جميعاً ، انتهت إلى أنها أصبحت فى خدمة السلام ، دون الحرب .

وقد كان من أكبر التطورات العالمية التى وقعت ، هى وفاة ستالين ، فى الساعة التاسعة والدقيقة ٥٠ من مساء الخامس من مارس سنة ١٩٥٩ وقد ارتبط اسم ستالين بالاتحاد السوفيتى ، وبتحقيق الاشتراكية ، فى هذه الدولة الضخمة ، منذ وفاة لنين فى الساعة السابعة والربع من مساء ٢١ من يناير سنة ١٩٢٤ ، بل إن اسمه ارتبط بالاتحاد السوفيتى ، و بتحقيق الاشتراكية فيه ، منذ ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ . إلا أنه قد تفرد بعد وفاة الزعيم الأول للاتحاد السوفيتى ، ومؤسسه ومنشئه ، وقد زادت مع الأيام سلطته ، و برزت شخصيته ، ثم اتضحت معالمها الدولية شيئاً فشيئاً حتى كان الغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى فى الحادى والعشرين من يونيه ١٩٤١ .

ولقد نجح ستالين ، فى إرساء دعائم الدولة الستالينيه — نعم ، هذا هو ما حققه ستالين بالضبط . لقد أقام دولته ، صحيح أنه خاض معركة المزارع الجماعية التى كبدت بلاده من الضحايا أكثر مما تكبدته فى الحرب العالمية الثانية ، على حد قوله هو نفسه ، لتشرشل . وخاض معركة الصناعات الثقيلة ، ونجح فى المعركتين كما نجح فى إعداد بلاده وتهيئتها لمواجهة الحرب العالمية الثانية ثم قادها طوال هذه السنين الثقيلة الرهيبة ، حتى دخلت جيوشه إلى برلين نفسها ، ثم انبسط نفوذها على شرق أوربا : بولندا ، والمجر ، ورومانيا و بلغاريا ، وألبانيا ثم يوغسلافيا ، والجزء الشرقى من ألمانيا بما فيها شرق برلين . . .

وقد يكون مما فعله إقامة الاشتراكية فى روسيا ، ودعمها ، وتعميقها ، ولكن كان هذا جانباً مما فعله ، ولكن الجانب الأصيل ، أنه أقام دولة ستالينية ، يدين كل من فيها ، بل كل ما فيها ، لشخصه ، فلا يتحرك شيء ، ولا شخص ، ولا يجرى

فيها عمل ، ولا قول ، ولا تنبت فى أرضها فكرة ولا رأى ، ولا يوضع فيها نظام أو دستور ، ولا تظهر فيها كفاية أو تختفى إلا وكان ذلك تحقيقاً لإرادة ستالين ، أو تعبيراً عنها . ولقد وصل ستالين إلى هذه الغاية خلال بحر من دماء أنصاره والمؤمنين بالاشتراكية ، والمحاربين تحت لوائها ، والمضحين فى سبيلها . فلم يكن المعيار فى العهد الستاليني ، للبقاء أو الموت ، للولاء للعقيدة ، وإنما كان الولاء للزعيم . ولم يكن ستالين فى رأينا ، فى هذا ، شيئاً جديداً ، فقد كان رئيس دولة وكانت له موهبة هائلة فى الإدارة والزعامة ، وكانت ثقته بنفسه لا حدود لها ، وإيمانه بأنه هو الاشتراكية ، والاتحاد السوفيتى ، وأن المساس به ، ومعارضته ، والتفكير بعيداً عنه ، معناه التمرد على الاشتراكية ، والتآمر على الاتحاد السوفيتى ، وقد كان رؤساء الدول الأقوياء ، على هذا المنوال فى جميع حقب التاريخ . وهم بعد ذلك يتفاوتون فى المواهب الشخصية ، والقدرة على الإدارة وإخضاع الرعايا لهم ، ثم الأهداف التى يسعون لها ويعملون من أجلها .

وإذا كان العالم الخارجى لم يسمع من قبل ، بتفاصيل ما كان يجرى داخل الاتحاد السوفيتى ، سوى ما أذيع خلال فترة الحكم الستاليني ، من أنباء المحاكمات العجيبة التى كانت تعقد ويساق لها زعماء الدولة والحزب فيعترفون جميعاً بجرائمهم ، ثم تنزل بهم عقوبة الموت ، إلا أن الجميع كانوا يحسون أن الأمور لا يمكن أن تكون طبيعية فى ظل هذا الحكم ذى السلطات المركزية والمتمركزة التى لم يشهد التاريخ اجتماع مثيل لها فى يد حاكم .

فلما انعقد المؤتمر العشرون ، وانفجرت الحقيقة على لسان خروشوف ، تأكد ما كان الناس يظنونه ظنًّا ويستنتجونه استنتاجاً ، والحق أن خطبة خروشوف ، وما ضمنه إياها من هجوم على إرهاب ستالين ، وعلى عبادة الزعيم خلال حكمه الطويل ، والأخطاء التى تورط فيها ، وهو يجر فيها بلاده ، والآثار البشعة التى ترتبت على أسلوب حكمه فى أخلاق الناس ، وإدارة البلاد ، لتعتبر وثيقة من الوثائق الإنسانية ذات الأهمية البالغة ، فأن يرجم أتباع زعيم زعيمهم ، ويكشفوا عيوبه ، أيا كان الباعث ، على ذلك ، لهو كسب للسلام ، ما دامت نقيصة هذا الزعيم الكبرى أنه جعل من نفسه فى بلاده إلهاً ، وأنه ألزم رعاياه الخضوع

الذليل له ، وكتم أراءهم ، وحبس كل نازعة من نوازع التحرر فى نفوسهم .

فإن الأمم لا يمكن أن تتهيأ للحروب ، إلا فى ظل قادة يتعشقون أنفسهم ، ويفرضون عبادة أشخاصهم على الناس . ولا يمكن أن تنشأ علاقات طبيعية بين الأمم ، وعلى رأس بعض الأمم القوية ، رجال من طراز ستالين ، لذلك كانت وفاته ثم خطبة خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب السوفيتى ، وقرارات هذا المؤتمر ، تطورات عظيمة الأهمية فى تاريخ السلام ، وحسن العلاقات بين الشعوب .

وما قاله خروشوف فى خطبته ، قاله الكاتب السوفيتى الكبير إيليا أهرنبورج فى مقاله الذى نشر فى مايو سنة ١٩٦٢ تحت عنوان « الناس ، والسنون ، والحياة » فى مجلة (نوفى مير) أى (السلام الجديد) وعلى الرغم من أن اقتباس هذا المقال أو فقرات منه ، مما لا يقتضيه كثيراً سياق مقالنا ، إلا أن إيراد بعض معانيه ، قد يتبين ما نعنيه من أن التحول عن أسلوب الحكم الستالينى فى الاتحاد السوفيتى ، مما يعين فعلا على تبديد التوتر فى المجال الدولى ، وينشئ فرصاً لتلاقى الأمم ، أكثر مما يبعثه حكم كاتم للأنفاس فى دولة تضم أكثر من مائتى مليون شخص ، وتلعب دوراً أساسياً فى الحياة الدولية . وخلاصة مقال أهرنبورج أنه عاد فى سنة ١٩٣٧ من بلدة فالنسيا ، بعيداً عن موسكو ، وأنه لما عاد إلى العاصمة استقبلته زوجته على المحطة ، وركبا سوياً سيارة أجرة إلى العمارة التى تقع بها الشقه التى يقيمان فيها ، فلما أخذا المصعد الكهربى ، قرأ تحذيراً مكتوباً فى المصعد أنه لا يجوز التخلص من الكتب فى المراحيض ، وأن كل من يضبط متلبساً بهذا الفعل، سيحاكم. فسأل زوجته بسذاجة عن معنى هذا التحذير ، فالتفتت زوجته إلى عاملة المصعد ، وبدلاً من أن تجيب على سؤاله قالت له: إنى سعيدة جداً بعودتك »

فلما دخلا إلى شقتهما ، بادر أهرنبورج بإعادة السؤال على زوجته فما كان منها إلا أنها قالت له : « أنت لا تدرى شيئاً مما يقع هنا » وإلى منتصف الليل ، راحت زوجته تروى له أنباء الضحايا ، ورددت على أسماعه قائمة طويلة لأسماء أشخاص ، كانت تقول بعد اسم كل منهم فقط « أخذ » وأضافت أن الزوجات يؤخذون عادة مع الأزواج ، أما الأطفال ، فيرسلون إلى دار حضانة . ثم نصحته

زوجته بألا يسأل عن هذه الأمور ، وإذا صادفه من يتحدث عنها ، فالخير ألا يسترسل معه فى الحديث بشأنها . وفى الصباح الثانى ذهب أهرنبورج إلى مقر جريدة أزفستيا حيث يعمل ، فلم يقع نظره على وجه واحد ، من الوجوه التى كان يعرفها أو يألفها ، ويقول إنه على الرغم « من أننى نصحت بألا أسأل عن زملائى الغائبين ، فقد سألت عنهم كل من لقيته هناك ، والذين جرؤوا على الإجابة ، شملتهم رعشة ، والآخرون اكتفوا بالتلويح بأيديهم ، والفريق الثالث ، أسرع بالابتعاد عنى » .

وحدث أن سافر إيليا أهرنبورج إلى مؤتمر الكتّاب فى مدينة تبليس ، فوجد فى مقعد الرياسة (بريا) وسمع كثيراً من الخطباء يوجهون إلى (بريا) هذا عبارات المديح والثناء وكان الجميع يصفقون تحية له إذا ذكر اسمه ، بينما كان (بريا) يرد على هذا ، بابتسامة رضا . وكان على الجميع أن يصفقوا ، كلما ذكر اسم ستالين ، أما إذا حدث أن ذكر اسمه فى آخر خطبة أحد الخطباء كان الحاضرون يهبون واقفين .

وقد سأل أهرنبورج جاره « من هو بريا » ؟ فأجابه الجار : « إنه رجل عظيم » وقد لقى أهرنبورج فى هذا المؤتمر ، عدداً غير قليل من الكتّاب الذين كان يعرفهم من قبل جيداً ، ولكنه لم يفكر فى أن يحدث أحداً فى صدد هذا الذى يجرى ، لأنه كان يعتقد أنه لا جدوى من هذا الحديث ، وقد كان شاقاً عليه ، أن يجمع شتات نفسه ، أمام هذه المظاهر المقززة من الملق والخوف ، وقد أحس أن أعضاء المؤتمر يودون أن يدخلوا البهجة إلى ضيوف المؤتمر ، وأن ضيوف المؤتمر كانوا يحاولون بدورهم التخفيف عن الداعين إليه ، ولكن الجميع ، لم يستطيعوا إلا أن يغرقوا فى الصمت .

وعاد الكاتب إلى موسكو ، بعد أن انفض المؤتمر ، فغلبه شعور نُنقل فيما يلى وصفه بحروفه :

« فى تاريخ الأمم ، أيام ، لا يمكن أن يدرك الناس ما حدث فيها ، من وصف الواصفين ، إذ لا بد لمن يريد أن يعرف ماذا جرى خلالها ، أن يعيش بنفسه فيها ..

« لقد كنت إبان تلك الأيام ، عاجزاً عن أن أمسك القلم . ولقد اقترحت على

رياسة التحرير مراراً ، أن أكتب عن المحاكمات التى كانت تعقد فى تلك الفترة ، وأن أقارن بين الطابور الخامس فى أسبانيا ، بهؤلاء الذين يواجهون المحاكمات ، والذين نعتوا بأنهم أعداء الشعب . فأجبت بأنى لا أستطيع ، ولن أستطيع الكتابة عن شيء لا أدرى حقيقته » ؛ وحسب القارئ أن يطالع هذه السطور ، ليدرك أى دنيا كانت هذه الدنيا التى أنشأها ستالين ، وأى تطور أن يهاجم هذا الأسلوب الذى أقامها ، وأن يسمح للكتاب بأن يصوروه ، وللخطباء أن يلعنوه .

ولكن للأسف أن أعلان صنع الاتحاد السوفيتى للقنبلة الذرية فى سنة ١٩٤٩ كان مبرراً لقيام إرهاب من نوع آخر فى الولايات المتحدة ، فقد ظهر على مسرح السياسة العالمية ، (مكارثى) بطل (المكارثية) القبيحة ، التى طاردت الكثيرين من الأبرياء وأصحاب الفكر الحر ، والدعاة إلى السلام ، باسم محاربة الشيوعية فى الولايات المتحدة ، وتسللها إلى أجهزة الحكم فيها .

فقد تولى حكام الولايات المتحدة فزع شديد ، لمجرد علمهم بأنهم لم يعودوا أصحاب القنبلة الذرية الوحيدين فى العالم ، وأن هناك من يستطيع أن يهدد بلادهم ومصانعهم بالتدمير الشامل ، كما كانوا يستطيعون أن يهددوا العالم كله ويخضعوه لأمرهم ، بسبب استئثارهم بالعلم الذرى ، وتفردهم بتملك الأسلحة الذرية .

وقد كان مبرر موجة هذا الارهاب المقيت عند الذين نظموه ، وتولوه ، وأشاعوا الرعب به فى النفوس ، هو أن الاتحاد السوفيتى لم يتوصل إلى كشف سر صنع القنبلة الذرية إلا عن طريق جواسيسه فى الولايات المتحدة ، وأن هؤلاء الجواسيس لم ينجحوا فى مهتهم هذه ، إلا بفضل علاقاتهم بأفراد يحتلون مناصب فى دوائر الحكومة وشركاتها ، وأنه لا سبيل لمنع الخطر عن البلاد إلا بمطاردتهم ، والكشف عنهم . وقد روى (رسل) فى رسالته التى لخصناها فى الفصل السابق أن من الأسئلة التى كانت توجه إلى المشتبه فيهم لنشاطهم الشيوعى سؤالاً هذا نصه « هل حدث أن تعرفت على نفر من الشيوعيين عندما كنت طالباً فى الجامعة منذ ثلاثين عاماً » ؟ وإذا كان (مكارثى) قد مات ، فإن (رسل) لا يعتقد أن (المكارثية) فى الولايات المتحدة قد ماتت بموته بدليل أنه حكم فى سنة ١٩٦١ على (سيت سيجر) بالسجن فى تهمة وجود علاقات بينه وبين الشيوعيين أو منظمات شيوعية .

ومع ذلك فإن شعور الجميع بأن هناك أكثر من دولة تملك الأسلحة الذرية ، هو الذى تكفل بإعادة كثير من العقول المنحرفة إلى صوابها .

ومع وجود هذه الدول الشابة ، المنطلقة إلى حياة خالية مما عرفته وكابدته من ظلم ، وحرمان ، ومذ أن جرت بقية التطورات الداعية إلى التفاؤل .

فإن موت ستالين لم يكن هو وحده الذى قضى على الستالينية ، فى الاتحاد السوفيتى ، ولم تكن كراهية النظام الستاليني وحده هى التى حفزت خروشوف على ان يلقى ببيانه التاريخى فى مؤتمر الحزب الشيوعى العشرين ، بل إن وراء هذا كله ، عوامل أكبر وأقوى .

كان أقوى هذه العوامل ، وتتويجها ، هو أن الاتحاد السوفيتى ، صنع القنبلة الذرية ، فأصبح نداً للولايات المتحدة ، بل إنه أصبح قادراً على أن يسبقها ، كما سبقها فعلا فى صنع الصواريخ ، فلم تعد ثمة حاجة للتحوط الشديد والخوف من أن يقتحم الأعداء مرة أخرى ، الباب على أهل الاتحاد السوفيتى ، كما فعل الغزاة النازيون .

وبسيادة شعور الطمأنينة على الشعب السوفيتى ، لم يعد ممكناً إخضاع هذا الشعب للقيود الهائلة التى احتملها بصبر وبشجاعة خلال فترة تثبيت الاشتراكية ، والدفاع عن روسيا كوطن فى وجه الغزو الخارجى . والحق أن الاتحاد السوفيتى ولد فى ظل تهديد مستمر بهذا الغزو ، فإنه لم تكد تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، حتى قررت بريطانيا ممثلة فى شخص تشرشل أن تعد فرقاً لغزو روسيا ، وفعلا أرسلت فى الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٨ فرق الحلفاء فى منطقة البحر الأسود أى فى جنوب روسيا ، توطئة للزحف إلى الشمال . وفى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر نفسه ، اجتمع الروس البيض فى رومانيا لبحث أمور الغزو ، وفى الثالث عشر من ديسمبر دعا « كليمنصو » رئيس وزراء فرنسا ، إلى فرض حجر صحى ، حول روسيا ، منعاً لانتشار جراثيم الشيوعية منها إلى الخارج ، وفى نفس الوقت ، جاء زحف أبيض آخر من ناحية الشرق ، واضطرت جيوش روسيا إلى الانسحاب عند (فايتكا) وأرسل لتيفينوف ، إلى ولسن رئيس الولايات المتحدة يطلب إليه التدخل لإقرار السلام .

وقد وصف فيشر الحروب التى واجهتها روسيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بما يلى :

« واجهت الشيوعية الروسية فى مستهل حياتها شراً عظيما داهماً ، هو أندلاع لظى حرب أهليه تؤيدها دول الحلفاء وشريكاتها ، وكان وازع الحلفاء إبقاء روسيا فى الحرب ضد ألمانيا ، بمد يد المعونة إلى العناصر الروسية التى كانت لا تزال راغبة فى حفظ العهود التى عقدتها حكومة القيصر معهم . فباتت الحكومة البولشفية هدفاً للهجوم من كل صوب ؛ من ناحية سيبريا ، ومن البحر الأسود ، ومن أركانجل ومورمنسلك ، ومن استونيا ، وأكرهت على الوقوف موقف الدفاع ، فى الشرق اكتسح الجنرال كلشاك سيبريا ، وفى الجنوب زحف دنيكين »

وبعد ذلك كان قيام الحكم النازى منطوياً على خطر دائم ومجاور للاتحاد السوفيتى ، فقد كانت الفلسفة النازية تعد الشيوعية خطراً داهمًا يهدد الإنسانية وثقافتها وتقاليدها الرفيعة ، وكانت الفلسفة الشيوعية تعد الحكم النازى « قمة الرأسمالية وأشد صورها الإمبريالية ضراوة »

ولذلك كان فى وسع ستالين باسم دفع هذا الخطر والاستعداد لمقاومته أن يقدم فى سنة ١٩٣٦ اثنين من أكبر رفقاء لنين فى الكفاح إلى المحكمة ، وهما زينوفييف وكانيين ، وأن يصدر ضدهما حكماً بالموت دون أن يشفع لهما كونهما قد آلفا مع ستالين فى سنة ١٩٢٤ عقب وفاة لنين الحكومة التى أدارت البلاد .

وباسم دفع هذا الخطر ذاته استطاع ستالين أن يقدم للمحاكمة — السرية هذه المرة ، المارشال تكهاشفسكى رئيس هيئة أركان الجيش مع سبعة من كبار القواد الروس ، وأن يحكم عليهم جميعاً بالموت ثم باسم دفع هذا الخطر ، قبض بعد ذلك على مئات الألوف من المدنيين والعسكريين ، وأن يقدمهم إلى محاكمات تنتهى إلى الحكم بالموت وتنفيذه فوراً . عدا ألوف آخرون أبعدوا ، ونفوا ، وسجنوا ، وعذبوا وأهيلت على رءوسهم أقبح التهم ، ولحق شرفهم أكبر الوصمات .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية ، وتحقق قيام خطر ، استطاع ستالين باسم دفع هذا الخطر ، أن يقدم على أضخم الأمور ، وأغربها ، وأبعدها عن التصور ، وعن منطق الفلسفة الشيوعية ، والمذهب الماركسى .

وفى ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٣٩ أبرم ستالين مع هتلر ألد أعداء الشيوعية ، وزعيم النازية أكثر صور الرأسمالية والامبريالية ضراوة معاهدة عدم اعتداء . وقد كان المبرر لذلك أنه جمع مستشاريه السياسيين والعسكريين رسألهم عن المدة اللازمة لإعداد الجيش الأحمر بحيث يكون كفئاً لمواجهة عدوان نازى ، فقدروا له هذه المدة بثلاث أو أربع سنوات ، فعقد العزم على أن يخدع هتلر ، ويبدى له صداقة زائفة تمكنه من كسب هذه المدة ، ولكن هتلر ، كان أكثر منه دهاء ، ففاجأه بالهجوم بعد أن اطمأن إلى مظاهر الود التى أبداها الزعيم النازى إلى حد أنه أرسل فى عيد ميلاد ستالين الستين برقية تمنى له فيها وللشعب السوفيتى الصديق الرفاهية والرخاء .

وباسم دفع هذا الخطر ، اخترقت الجيوش السوفيتية — والسوفيت هو زعيم الداعين إلى السلام — حدود بولندا بدعوى أنه يحرر بلاد روسيا وأوكرانيا الغربية من ربقة البولنديين ، وباسم دفع هذا الخطر ، استولى على بسارابيا ، ثم حصل على امتيازات إقليمية من دول البلطيق ، كما انتزع من لتفيا ولتوانيا فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ الحق فى مرابطة « حامية عسكرية روسية » ثم انتهى به الأمر إلى إعلان الحرب على فنلندا الصغيرة ، التى استبسلت فى الدفاع عن نفسها حتى مارس سنة ١٩٤٠ بعد أن أبدت خلال أربعة شهور ، صوراً من البطولة ، أثارت إعجاب الجميع .

لكن هذا الخطر زال بعد أن بدا تفوق الاتحاد السوفيتى ، أو على الأقل تساويه ، مع الولايات المتحدة فى الأسلحة الذرية ، أما الأسلحة العادية ، فليس يخاف على أحد أن جحافل الاتحاد السوفيتى قادرة على اكتساح أوربا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فى أسابيع قليلة حسب رأى الخبراء العسكريين ، لا سيما أن ألمانيا ، ليست موحدة من جهة ، ولا مسلحة من جهة أخرى ؛ بزوال هذا الخطر ، لم تعد هناك ا لحجة ، التى قبل بفضلها الشعب السوفيتى أن ينزل من حرياته مما نزل عنه فى الماضى ، وأن يحتمل ما احتمل من تضحيات ، وقد نشأت فى عهد ما بعد الحرب أجيال غير أجيال ما بعد الثورة فى سنة ١٩١٧ ، وهذه الأجيال تلقت العلم فى المدارس ، وفى الجامعات ، بأعداد ضخمة ، وأصبحت أكثر

تنوراً ، وأوسع ثقافة ، من جموع الشعب التى كان يقودها لنين رستالين ، ولذلك فإن ما صرح به خروشوف من أن الثورة لا تسير ببطن خالية ، وأن المذاهب لا تغنى عن طبق جيد من (الجلاش) ، ليس فى الواقع سوى ما تطلبه هذه الأجيال الجديدة ، بعد طول الحرمان والتضحية وإنكار الذات ، من حياة أكثر رغداً ، يتوفر لها فيها المسكن الطيب ، والملبس المناسب ، ووسائل الترفيه الممتعة وفرصاً أوسع لإبداء الرأى والمناقشة بحرية وبلا خوف .

لقد قامت سياسة العهد الستالينى على الخوف من الغزو من الخارج ، والخوف من مقاومة الفلاحين لسياسة الزراعة الجماعية ، وخوف الحكومة نفسها وعلى رأسها ستالين من مؤامرات حقيقية ووهمية من زعماء الحزب ، ومن دسائس الرأسمالية ، ثم الخوف من الحرب العالمية القادمة حتى وقعت ، وقد زالت كل أو أكثر هذه المبررات بعد أن أصبح الاتحاد السوفيتى ، قوة عسكرية تقليدية وذرية من الطبقة الأولى ، وبعد أن أحاطت نفسها بنطاق من الحماية وضمانات الأمن شرقاً وغرباً ، ببسط نفوذها الروحى والمادى معاً على كل شرق أوربا . ولذلك فإن سياسة الخوف أصبحت بلا معنى ، وأبناء الاتحاد السوفيتى ، لم يعد الخوف شعارهم ، إن شعارهم هو القيام بالتزامات الزعامة لعالم اشتراكى فسيح ومزدهر ، ويطمع فى مزيد من الازدهار والتقدم والحرية الحقيقية .

وهذا كله ليس بالتطور القليل الشأن ، فى عالم يبحث عن أسباب الطمأنينة ، ويطمح إلى السلام . فإنه ليس ثمة شيء يعدى مثل الخوف ، فإن إنساناً خائفاً واحداً وسط جماعة كبيرة ، قادر على أن يبدل أمنها اضطراباً وسكينتها قلقاً . فإذا كان الاتحاد السوفيتى ومن حوله قد استشعروا الأمن ، فإن شعورهم هذا كفيل بأن ينشر عدوى الطمأنينة والثقة . والحق أن خروشوف قد قام برسالة الدعوة إلى التعايش السلمى ، وخرج من عزلة ستالين القاسية المتجهمة ، وراح يذرع الاتحاد السوفيتى ، جيئة وذهاباً ، وخرج من الاتحاد السوفيتى ، يزور بلاد الكتلة الشرقية المرة بعد المرة ثم ذهب إلى بريطانيا ، على وجه قيل بعده بأنه دعى نفسه بنفسه إلى هذه الزيارة ، وإذا كان بعض خصومه قالوا ذلك للغض أو النيل منه ، فنحن نراه جديراً بالشكر والتهنئة على ذلك ، وقد أتبع ذلك بزيارته للولايات

المتحدة ثم للأمم المتحدة ونحن نكتب هذه السطور ، وأنباء زيارته لمصر تملأ الصحف المصرية ، وقد بدأ ذلك كله، بزيارته ليوغسلافيا ، لحل أزمة الخصومة التى فرضها ستالين على تلك الدولة . . .

أما فى المعسكر الغربى ، فقد حدث تطور أو تطورات كثيرة ذات شأن كبير .

فقد انتهت سياسة حافة الهاوية التى كانت يدعو إليها (دلاس) ، وأدركت الولايات المتحدة قيمة الحياد ، وعظم دور الكتلة الحيادية ، وبعد أن كان الحياد، فى نظر البيت الأبيض مساوياً للعداوة ، تغيرت هذه النظرة حتى فى عهد (إيزنهاور) وأصبح الحياديون جديرين بالاحترام، وأصبح التعامل معهم والاعتماد عليهم، شيئاً معقولا ومقبولا فى الوقت نفسه .

وقد حدث فى عهد (أيزنهاور) عمل جليل جداً ، خلال أزمة السويس ، فقد وقف (دلاس) و (أيزنهاور) فى حزم وثبات ضد حماقة إيدن وجى موليه ، ولقيت سياسة العنف والعدوان ، من الامتهان ، والهزء والتحقير ، ما قذف بإيدن من قمة مجده إلى هاوية النسيان والفشل ، ودفع العالم بأسره ، هذه السياسة فى إصرار واقتناع .

ثم جاء عهد (كيندى) بروح جديدة فى الداخل وفى الخارج معاً ، فوقف فى صف الزنوج ، وفى وجه التفرقة العنصرية ، وسافر إلى فيينا لمقابلة (خروشوف) وإن لم تثمر هذه المقابلة كثيراً ، إلا أن اللقاء بين الزعيمين تم فى جو من المودة والتلطف ، فأشاع بغير شك ، روحاً جديدة . ثم تم الاتفاق على إقامة خط مباشر بين الكرملين والبيت الأبيض ، وهو فى ذاته ، رمز جميل ، ثم كان الاتفاق على الحظر الجزئى للتجارب الذرية التى شمل كل هذه التجارب فيما عدا ما يجرى منها تحت الأرض . ونحن نكتب هذه السطور ، أعلن الحظر الاختيارى الذى فرضه على نفسه الاتحاد السوفيتى وقبلته الولايات المتحدة ، ففرضته بالمثل على نفسها ، فى إنتاج اليورانيوم ، والبلوتنيوم ، وقد جارتهما فى هذا الحظر بريطانيا .

هذا ما حدث من تطورات رئيسية داخل المعسكرين أنفسهما، أما ما حدث

من تغير على علاقات أعضاء كل معسكر ببـــاقى الأعضاء فليس أقل قدراً ، ولا أصغر شأناً ، فى بعث التفاؤل ، فإن هذه القيادة الصارمة التى كانت مفروضة على كل معسكر على حدة قد اختفت ، فلم تعد الولايات المتحدة هى الزعيمة التى تقوم بدور الأب ، تنفق على أفراد الأسرة ، وتعالج مرضاها ، وتربت على خد الطيبين ، وتصفع الأشـــقياء ، وتلزم كل واحد حده . فقد شفيت أوربا مما أصيبت به من أدواء بعد الحرب العالمية الأولى : أدواء الفقر والخراب والمجاعة ، وأنقـــذتها فعلا بلايين دولارات من المساعدات الأمريكية ، ووقفت أوربا على قدميها ، ولم تدخل فقط مرحلة النقاهة ، بل حظيت بالشفاء التام ، وأصبحت أكثر رخاء فى بعض الظروف من الولايات المتحدة نفسها ، فالمانيا وإيطاليا ، لا تعانى ما يعانه ميزان المدفوعات الأمريكى من عجز ، وارتفع احتياطى الذهب فى كلتيهما ، ونجحت السياسة الاقتصادية ، فى فرنسا ، وبدأت فكرة السوق الأوربية ، ومنطقة التجارة الحرة ، كمظهرين من مظاهر الرغبة فى الاستقلال عن الولايات المتحدة ، والإيمان بمزايا التعاون ، وبأن المنازعات الأوربية التى كانت قائمة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، هى ماض بعيد ، لا يمكن ان يتكرر فى العهد الذرى ، ومع قيام هذه الكتل الضخمة ، كتلة الاتحاد السوفيتى ، ثم الصين ، ثم الولايات المتحدة ، بزعامتها على أمريكا الجنوبية .

وما لبث هذا كله أن عبر عن نفسه بصراحة ووضوح فى عالم السياسة الدولية ففرنسا وألمانيا ، حاولتا أن يزيد ارتباطهما ، ورفضت فرنسا ، أن تسمح لبريطانيا حتى بأن تشترك فى السوق الأوربية بتهمة ارتباطها الشديد بالولايات المتحدة ، كأن هذا الارتباط قد أصبح تهمة . وذهبت فرنسا بزعامة ديجول إلى مدى أبعد من ذلك بكثير ، فقد تمرد علناً على زعامة الولايات المتحدة ، وأعلن أنه يجب أن يكون له سلاحه الذرى الخاص خشية أن تتخلى الولايات المتحدة عن أوربا لمصالحها الخاصة ، فتترك أوربا أمام الاتحاد السوفيتى ، مكشوفة بلا وقاية ذرية . وأصبح لفرنسا سياسة مستقلة تعلنها فى الشرق الأقصى ، وخطة تحاول تنفيذها للتودد إلى دول أمريكا الجنوبية التى كانت معتبرة حكراً للولايات المتحدة منذ أعلن تصريح منرو فى مطلع القرن التاسع عشر .

ولقد أتاح لفرنسا هذه المرونة فى الحركة ، أنها تحررت من القيد الثقيل الذى كان يربط قدمها ، ويشل حركتها ، ويصمها فى المجال الدولى، وأعنى به حرب الجزائر الحمقاء الخرقاء ، فقد كان ديجول شجاعاً ، وبعيد النظر معاً ، حينما تحمل المسئولية التاريخية ، مسئولية إنهاء هذه الحرب ، والاعتراف باستقلال الجزائر ، فأسدى لبلاده يداً لا تنسى ، ووفر عليها المال والدم والجهد ، وصان سمعتها ، وقد توج ديجول سياسته الاستقلالية هذه باعترافه بالصين الشعبية، واقتراح توحيد وتحييد فيتنام بقسميها الشمالى والجنوبى .

ولقد كانت بريطانيا — بدرجة أقل — على خلاف مع الولايات المتحدة ، ومن أظهر صور خلافهما اعتراف بريطانيا بالصين الشعبيه ، موقفها من كوبا ورفضها الامتناع عن الاتجار معها ، ومن إصرارها على عدم الاعتراف بحكومة اليمن الجمهورية ، التى اعترفت بها الولايات المتحدة .

أما المعسكر الشرقى ، فقد بقى أكثر اتحاداً حتى دب الخلاف فى السنين الثلاثة الأخيرة بين الصين الشعبيه ، وبين الاتحاد السوفيتى ، بصدد سياسة خروشوف القائمة على التعايش السلمى ، وبذل المعونة الفنية والعسكرية للدول المحايدة ، خصوصاً ما كان منها وثيق الارتباط بالغرب ، كالهند والاتفاقية الجزيئة على نزع السلاح .

وهذا النزاع يشتد ويتفاقم ويتسع نطاقه .

وقد تسأل فى هذه المظاهر ، ما دواعى التنازع ؟

لسنا نفرح لمجرد أن المعسكرات ، يدب بداخلها الخلاف ، من قبيل الشماتة بها ، بل إن هذا الخلاف سواء كان نابعاً عن تباين لوجهات النظر بسبب اختلاف المصالح ، أو بسبب فهم العقائد أو تفسيرها ، دليل على شعور المعسكرين ، بأن الحال لا يدعو إلى حالة (الضبط والربط) الشديد الذى تقتضيه ظروف الخطر الحال أو المتوقع .

فمثل هذا الخلاف لا يقع إلا لأن المعسكرين يشعران بأن الأمور تسمح للأشقاء أن يختلفوا ، وهذه هى الظاهرة التى نسجلها ، ونبتهج بها .

وهذه تدعو إلى الابتهاج أيضاً ، لأن الحواجز العنيفة المفروضة بين معسكر وآخر ، تؤدى إلى التصلب ، والتصلب يؤدى إلى إساءة الظن ، والتوجس ، والاتهام،

والاستعداد للمقاتلة . أما الجو الذى تتنفس فيه الآراء المختلفة ، ويتناقش فيه الأصدقاء والأعداء علناً ، وبأعلى الصوت ، على مشهد من العالم بأسره ، فهو جو ، يعرض الأفكار ، ويمحصها ، ويكون رأياً عاماً مستنيراً ، ومدركاً لحقائق الموقف الدولى ، ومستعداً لتأييد الفكرة الصائبة . وهـــذه صورة من صور الحالة الطبيعية التى نتمنى أن تصل إليها العلاقات بين الأمم : كل منها يفكر كما يريد ، ويعبر عما يخامره من رأى — ويبديه — بالصورة التى تعجبه ، فينقده الآخرون أو يؤيدونه ، وهكذا ، نعيش كأسرة ، لا كقطعان الوحوش ، يزأر الواحد منا فى جانب من هذه المعمورة ليخيف الأخرين وهو خائف .

والحقيقة الثالثة أو الرابعة التى يمكن أن تذكر كعلامة من علامات تحسن الموقف الدولى الداعية إلى التفاؤل والثقة بالمستقبل ، ما تركه كل معسكر فى الآخر من أثر . فالاشتراكية لم تعد فى أى مكان من الأرض رجساً من عمل الشيطان ، فليست هناك حكومة ترفض إطلاقاً ، وبصفة عامة ، تدخل الحكومة بصورة من الصور ، لتوجيه الاقتصاد . فالمعسكر الرأسمالى ، بضرائبه المتصاعدة وتأميناته الاجتماعية المختلفة ، أصبح أقرب إلى الفكرة الاشتراكية اليوم منه عشر مرات مما كان منذ ثلاثين أو أربعين سنة .

وكثير من أساليب الرأسمالية فى الإدارة ، والتنظيم ، هى هدف الدول الاشتراكية الذى ترجو أن تصل إلى تطبيقه ، لرفع كفاية مصانعها الإنتاجية ، والإسراع بتنفيذ برامج التنمية الاقتصادية ، وليس ذلك سوى تطبيق جديد ، لمبدأ اجتماعى وتاريخى ، جرى تطبيقه فى جميع الحقب والأجيال ، فما من نظام ألا ويترك أثراً ، فى النظام الذى يناظره ، ولو كانا من طبيعتين مختلفتين فى الأساس النظرى ، أو الأصل التاريخى . فليس هناك دين استطاع أن يحمى نفسه من النظريات والعقائد والأفكار السائدة فى الأديان الأخرى ، فحتى الأديان تقترض من بعضها البعض ، وتقرض بعضها البعض ، على مدى الأجيال والسنين ، بل إن الأديان التى تقوم على تجريد فكرة (الله) ، لم تستطع أن تحمى طقوسها المتأخرة من التسلل الوثنى ، وطقوس الوثنيين .

فالاشتراكية المفروض عليها الحجر الصحى ، حطمت هذا الحجر الصحى ، وانسابت فى طول العالم وعرضه ، وسلم بها المعسكر الرأسمالى ، كعقيدة تناقش .

والرأسمالية ، لم يعد ممكناً أن تبقى على ضراوتها التى كانت عليها منذ قرن ، والتى بقيت آثار منها كثيرة إلى اليوم ، لا سيما بعد أن فقدت أكبر أولادها ، ونعنى بها الاستعمار الإمبراطورى الذى أسلم أنفاسه الأخيرة فى حرب الجزائر ، والذى لابد أن يفقد جثمانه قبل سنة ١٩٧٠ .

* * *

ولكن هل معنى ذلك أن كل شىء على ما يرام . وأن السلام استتب وأن أسباب الحروب انتهت ؟ إننا لم نقل هذا ، ولا يمكن أن نقوله .

فاحتمالات الحرب قائمة ، بل احتمالات الدمار تحلق فوق رءوسنا ، إن لم تكن قصداً فخطأ كما مر بنا فى موضع آخر من هذا الكتاب .

وإذا لم تقم الحرب الذرية فيمكن أن تقوم الحروب التقليدية ، كالحرب الكورية مثلا وحرب السويس ، ويمكن أن تكون هذه الحرب جزئية نسبيًّا ، ومع ذلك تترك آثارها السيئة فى اقتصاد العالم ، وفى أمنه . وقد قال الجنرال بيدل سمث بحق فى كتابه (ثلاث سنوات فى موسكو) إنه من الممكن اعتبار الأسلحة الذرية ممنوعة ، كما اعتبرت الغازات الخانقة، وتكتفى الدول بحل مشكلاتها الإقليمية والمذهبية بالأسلحة التقليديه[1] ويبقى العالم مشحوناً بأسباب الكراهية والقطيعة ، وتبقى التجارة الدولية ، مشلولة ، بسبب قيام المعسكرات الدولية المختلفة ، وتبقى فيها قيود النقد والحصص ، وغيرها من الأساليب غير العادية ، التى تلجأ إليها الدول بسبب التوتر والقطيعة التى تسود العالم . . .

فما العمل ؟

العمل أنه لا بد أن ننشط جميع وسائل الدعوة إلى السلام ودعمه وصيانته .

وقد آن للأديان أن تلعب دورها الذى تخلت عنه ، فتحمل ممثلوها ، والداعون إليها ، أكبر الأوزار . . .

إن الأديان هى أوسع الدعوات ، إلى العالمية والإنسانية المتحدة .

والدول الثلاث التى أنتجت الأسلحة الذرية وأصبحت تملكها ، هى دول

---

(١) قال ولتر بيدل سمث ما نصه : فى خلال الحرب العالمية الماضية، لم يستخدم الألمان قط الغازات على الرغم من أنهم كانوا يملكون نوعاً منه يفوق ما نمتلكه نحن أضعافاً مضاعفة .

مسيحية ، والمسيحية ، كما رأينا لا تقبل الحرب فى أية صورة من الصور ، ولا لأى سبب من الأسباب . فليس عند المسيحيين حروب مشروعة ، ولا عادلة . والحروب فى المسيحية شر دائماً ، فهل نطمع فى أن يدرك بطاركة ومطارنة المسيحية من جميع المذاهب ، المسيحية فى أصلها الحقيقى ؟ وهل يمكن أن تتحول منابر الكنائس الكاثوليكية ، والبروتستانية والإرثوذكسية ، إلى مدارس لتعليم الناس المسيحية فى أصلها الأصيل ، بلا تحفظ ولا احتياط .

وهل آن لدعوة الراعى الصالح الذى نطق بها ، على الجبل ، أن تدوى فى الآذان ، فى ثورتها . وهل نطمع فى أن يدرك المسيحيون أن دورهم هو فى إقامة رأى عالم ضخم كامل القوى يدعو إلى إلقاء الأسلحة فى الحرب دفعة واحدة ، وعدم إنتاجها مرة أخرى ، أيًّا كان نوعها . . .

إن هذا ليس بالمستحيل ، وإن بدا خيالاً ، فأثر الكنيسة فى أوربا وأمريكا ضخم وعميق ، وإن كان اليوم أضعف مما كان ، بسبب التنازلات التى قامت بها الكنيسة للسياسة وللحكومات .

إن المسيحية يجب أن تكون فوق المذاهب الوطنية ، أى التى تسمى وطنية زوراً وبهتاناً — وفوق الطمع فى نشر نفوذ الكنيسة فى أفريقيا وآسيا ، فإن هذا الجهد ، ثبت أنه ضائع ، أو كالضائع ، وكان أفضل منه ، وأعظم ، وأبقى ، أن تكون الكنيسة فى صف هذه الأمم ، لتتحرر من ربقة الاستعمار ، ولتحتفظ بأحسن ما عندها ، لا لتكون مجالاً لنشر الكاثوليكية أو البروتستانية أو نشر اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية ، أو الألمانية . . .

إننا نطالب الكنيسة المسيحية ، بأن تنشر مسيحية المسيح ، لا مسيحية أوربا ، الطامعة فى النفوذ السياسى ، وفى التوسع الإقليمى ، وفى السيادة على فقراء آسيا وأفريقيا .

وإذا كنت ألح فى توجيه الدعوة إلى الكنيسة المسيحية ، فليس ذلك بقصد إغفال رجال الدين الإسلامى ، من هذه الدعوة . فالدين الإسلامى ، منذ قرون ، لم يعد عند الشعوب التى تدين به ، سلاحاً تشهره ، ولم يخوضوا حرباً ، ولم يدعوا إلى حرب ، وليس عندهم سلاح ذرى ، وقد أبت الدول الأوربية إلا أن تقيم

الشر فى جانب من بلاد المسلمين ، وأن تؤيده وتدعمه ذلك هو إسرائيل ، ثم تطلب منهم أن يهادنوه ويقبلوه ، على خلاف ما يدعو إليه المسيح نفسه .

ومع ذلك ، فإن الدعوة إلى رجال الدين ، ليست سوى الروح الإنسانية ، وليعلموا الناس أن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنهم لآدم ، وأنهم ما خلقوا إلا ليتعارفوا وأن السلاح ليس هو الذى يقى الأمم من عدوان المعتدين ، وإنما أسلوب العيش الذى يعيشونه ، ومدى أدائهم لالتزامات الحياة ، التى تتطلب جهداً متجدداً ، وسعياً متصلا ، وحركة دائبة .

هذه الدعوة موجهة إلى كل رجل دين فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتحت لواء أية عقيدة .

* * *

وإذا بدا أن عقد الأمل على ارتفاع رجال الأديان إلى المستوى المطلوب ، وأداءهم التزاماتهم ، فى حيوية ونشاط ، وشجاعة مثابرة ، هو تطوح مع الخيال .

فليس أمامنا إلا أن ندعو إلى أنه لابد من تنشيط الاتصال بين الدول فى ميادين الفكر والفن والرياضة والاقتصاد . وإلزام كل دولة — تحت إشراف الأمم المتحده — بأن تترجم إلى لغتها كل عام قدراً من مؤلفات الدول الأخرى ، ولا سيما الدول التى تخالفها فى العقيدة السياسية — مما تختاره هيئة اليونسكو ، وتعتبره خالياً من الدعاية المذهبية ، وإن كان كفيلا بعرض وجهة نظر الكاتب والمجتمع الذى ينتمى إليه ، أو يصور هذا المجتمع ، كما يجب أن تلزم كل دولة أن تعرض على نطاق واسع عدداً من الأفلام المنتجة فى الدول الأخرى التى تراها هيئة اليونسكو ، حسنة الإنتاج ، وجيدة الصنع ، وخالية مما يؤذى الشباب أو الأطفال . ويجب أن تعقد مؤتمرات سنوية تضم ممثلى المعسكرين ، والدول المحايدة من علماء الاقتصاد ، والسياسة والتاريخ ، ورجال الفن ، والدين ، ليعرضوا حلولهم لمشكلات العالم الأساسية : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ويجب أن تتولى الأمم المتحدة ، جمع هذه المحاضرات ، وطبعها باللغات المختلفة .

ويجب أن تقام إلى جانب الأمم المتحدة التى يحضرها الممثلون السياسيون ، أمم متحدة تنعقد كل عام فى عاصمة من عواصم العالم ، توفد إليه كل أمة وفداً يضم

مدير أكبر جامعاتها ، ورئيس أكبر محكمة فيها ، وأكبر أدبائها سناً ، واثنين أو ثلاثة يمثلون المذاهب الدينية فيها ، ورئيس الأكاديمية العالمية، والأكاديمية الأدبية فيها ، أو ما يماثلهما، ويعرض على هذه الهيئة ، نفس جداول أعمال الأمم المتحده ليصدروا فيها قراراتهم الاستشارية .

ويجب أن تشرف الأمم المتحدة على عملية تبادل الطلاب بين دول المعسكر الكبرى على نطاق واسع ، بحيث يقيم فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا طلاب من المعسكر الشيوعى بالاتحاد السوفيتى ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر مثلا ؛ على أن يحدث العكس كذلك على أن تتولى هيئة اليونسكو ، وضع برنامج ثقافى اجتماعى لهؤلاء الطلاب بحيث يتيح لهم أن يروا صور الحياة فى البلاد التى يزورونها فيها ، ليكونوا لأنفسهم فكرة خالية من أثر الدعاية ، ويجب أن تصدر الأمم المتحدة جريدة يومية فى عواصم العالم كله ، تتولى نشر الأخبار الحقيقية لكل ما يجرى فى العالم ، وتنشر يومياً مقالات لكبار كتاب المعسكرين الواحدة جنب الأخرى .

يجب أن يكون هناك عيد للإنسانية كلها تختاره الأمم المتحدة ، تعطل فيه المصالح ، والمدارس ، ويخصص للخطابة فى الميادين العامة ، والمعابد ، ويدور فيها من الكلام حول السلام ويوجه إلى الإنسانية ، بحيث يبدأ الاجتماع بخطاب مندوب الأمم المتحدة ، ثم سفراء المعسكرين وممثلو الدول المحايدة ، ثم رئيس حكومة الدولة . وفى جملة ، يجب أن ننقذ الإنسانية من أكبر حماقة ارتكبتها ، وهى حماقة التعصب والحروب لتعيش ، كما يجب أن يعيش الناس ، فإننا لم نبدأ بعد حياة إنسانية . . .

فهل يمكن أن يصبح الناس أناساً . . أنا أعتقد ولعل هذا الكتاب ، قد نقل إلى نفسك هذا الاعتقاد .

* * *

لكن ليس ثمة جدال فى أن الهدف من كل هذه الجهود ، هو أن تقوم فى العالم حكومة واحدة . والحق أن شعور العالم بوحدته ، يزداد يوماً بعد يوم . فالطائرات التى تلغى المسافات إلغاء ، والتى تسبق سرعة الصوت ، جعلت من دنيانا بيتاً واحداً لأسرة واحدة . ولولا هذه الحرب اللعينة ، الحرب الباردة ، ولولا قيود النقد التى تفرضها ظروف الدول النامية ، ولولا البلايين التى تنفق على الحرب ، لأصبح

تنقل أبناء آدم ، بين حجرات هذا العالم ، أمراً ممتعاً وسهلاً ونافعاً .

على أن الواحد منا ، وهو في بيته ، يستطيع أن يقفز من موسكو إلى طوكيو ، ومن طوكيو إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى واشنطن عن طريق هذا الجهاز السحرى جهاز الراديو ، فيسمع فى دقائق العالم كله يتكلم ، ويخطب ويشرح ، وينثر فكاهاته ، ويحل مشكلاته ، ويتهكم على الغير ، وعلى نفسه ، ويسخر من مفارقات الحياة وسخافاتها . . وغداً ، سينافس التليفزيون ، بفضل الأقمار الصناعية و (التلستار) زميله الراديو ، فى تهيئة هذه المأدبة العالمية المستمرة من الفكر والفن والفكاهة والترفيه بدرجاته الرفيعة والوضيعة ، فيصبح الإنسان فى بيته ، مشرفاً على العالم كله ، ومتصلا به . وقد استحالت جريدتنا اليومية ، منذ زمن بعيد جريدة عالمية ، فأحداث أبعد نقطة عنا ، قد تثير اهتمامنا ، وفضولنا ، بأكثر مما تثيره أحداث أقرب حى من أحياء المدينة التى نعيش فيها ، لا فرق فى هذا بين الأحداث الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية .

ولقد أكدت رحلات الفضاء شعورنا بأننا أبناء كوكب واحد ، وأصبح شعورنا بأننا على أبواب مشروعات عالمية ، نقف فيها مع غيرنا من الأمم والدول ، جبهة واحدة ، تجاه العوالم والكواكب الأخرى ، فى أقل القليل من محاولات قابلة للإنضاج الذى يتكامل يوماً بعد يوم .

فحكومة العالم المشترك ، هى بلا شك الخاتمة القريبة ، لهذه الخطوات التى تتابعت ، وتلاحقت وتزايدت سرعتها أخيراً .

وأمام هذه الحكومة أعباء كثيرة أهمها جميعاً ، عبء إطعام هذه العائلة الضخمة، العائلة الإنسانية ؛ فإن أخطر ما يتهددنا هو الجوع . فنحن نتزايد بكثرة ، وما لدينا من طعام لا يكفينا اليوم ، فماذا يصيبنا لو استمر تزايدنا ، واستمرت حماقتنا فى تبديد أموالنا وجهودنا ، فى الاستعداد للحرب ؟

وقد دلت إحصائيات الأمم المتحدة أن سكان الأرض لم يكن يتجاوز عددهم سنة ١٦٠٠ ، اربعمائة مليون ، فأصبحوا فى سنة ١٨٠٠ ، بعد قرنين ، ٨٠٠ مليونا ، فلما بلغنا أول القرن العشرين حتى تضاعف عددنا أى أصبحنا ١٦٠٠ مليونا ولكن سرعة العجلة زادت ، لأننا لم نكد نبلغ نصف القرن العشرين حتى أصبح

تعداد أسرتنا العالمية ثلاثة آلاف . فالأوبئة والمجاعات التى كانت تقف حائلا فى وجه زيادتنا المتدفقة المندفعة قد خفت حدتها ، وقل وقوعها بسبب التقدم الصحى ، والمنتظر أننا لن نبلغ نهاية القرن العشرين، حتى نكون قد بلغنا ستة آلاف ونصف أو سبعة آلاف مليون فم ، تحتاج ما تأكله .

فإذا بقينا على ما نحن عليه اليوم ، من حيث إنتاجنا الزراعى ، ومن حيث سوء توزيع ما ننتجه ، فإن عالمنا ، سيكون عالم الجياع الذين ينتظرون لحظة الانقضاض على الذين اختصوا أنفسهم بالشبع ، ومعنى ذلك أن السلام الذى نرنو إليه ، سيبقى بعيداً . فقد دلت إحصائيات الأمم المتحدة أيضاً أن أمريكا الشمالية مثلا تنتج من الإنتاج العالمى الزراعى ما نسبته إلى الإنتاج العالمى ٢٧٪ بينما لا يزيد عدد سكانها منسوباً إلى سكان الأرض أجمعين عن ٧٪ ، بينما ينتج سكان الشرق الأقصى ٢٧٪ أيضاً ، فى حين يبلغ عدد سكانهم ٥٣٪ من سكان الدنيا ومن جهة أخرى يبلغ متوسط دخل الفرد من سكان الولايات المتحدة ٢١٦٤ دولاراً فى السنة ،ويبلغ دخل الفرد فى الهند ٦٠ دولاراً .

وتقول إحصائيات الأمم المتحدة كذلك أن المساحة القابلة للزراعة فى أرض الدنيا لا تتجاوز ١٤٠٠ مليون هكتار ، وهذه المساحة لا تمثل سوى عشر المساحة التى يمكن زراعتها ، إذ فى المقدور الارتفاع بهذه المساحة إلى ١٣,٥٣١ مليون هكتاراً . ومع ذلك فإن البليون ونصف البليون من الهكتارات القابلة للزراعة فى أرض دنيانا ليست منزرعة كلها ، فإننا لم نزرع منها بعد سوى ٩٠٠ مليون هكتار .

فحكومة العالم أمامها عمل كبير تقوم به ، وجهد كبير تبذله ، فى سبيل منع شبح الجوع من الظهور أمامنا ، وتهديدنا ، وتعكير صفو حياتنا .

وليس ضرورياً ، حينما تقوم حكومة العالم ، أن تتوحد مذاهبنا الاجتماعية ، وأن تصبح أوطاننا متشابهة ، تقول الشيء الواحد ، وتفكر بعقل واحد ، بل إن الذى ننتظره ونتوقعه أنه حينما يصبح التفكير عملا ذهنياً ، مباحاً ، فى عالم ، لا يستطيع فيه معسكر مهاجمة معسكر آخر ، أن تتسابق العقول ، والأذهان ، على عرض نتاجها خالياً من مما يعيبها الآن من آثار الكبت والمراءاة ، والتظاهر الكاذب . وستتنافس المذاهب المختلفة ، والمفكرون على اختلاف مذاهبهم ، فى كسب الناس ،

كما يتنافس الكتاب داخل المذهب الواحد ، على كسب الأنصار والقراء ، والمعجبين .

هذا هو العالم الذى نحلم به ، وندعو إليه ، ونعمل له .

* * *

إننا حينما ندعو إلى نبذ العنف ، فى كل مظاهر حياتنا العامة والخاصة ، وكوسيلة لحل مشكلاتنا الدولية السياسية ، يقول الناس إن هذه الدعوة ، مخالفة لطبيعة البشر ، فهل صحيح أن البشر مطبوعون على العنف ، لا يستطيعون التخلص منه ؟

لقد أورد (رسل) مثل السويديين الذين لم يخوضوا حرباً منذ مائة وخمسين عاماً ، ولا يبدو عليهم ، أن صبرهم نفد لطول ما ساد على بلادهم من سلام ، والحق أن حياة السلام فى حاجة إلى تدريب وترويض ، وتربية ، بعد كل الذى خاضته الإنسانية من حروب ، وما تجرعته من سموم الدعوة إليها ، والاستعداد لخوضها ، ولقد حاولنا أن نحصى كل ما أنفقته الدول منذ عرف الناس الدول ، فى إعداد الجيوش ، وتدريبها ، وتسليحها ، وإطعامها ونقلها ، وما صرفه الخطباء والكتاب والقراء ، من الإشارة لحروب ، وأبطال الحروب ووصف المعـــارك ، لأدركنا أننا نظلم السلام ، والنفس البشرية ، إذا نحن طلبنا أن تغلب قوى السلام ، قوى الحرب فى يوم وليلة ، وإذا طلبنا من النفس البشرية ، أن تثوب للسلام ، وأن تنفر من الحرب ، دون أن نبذل فى سبيل ذلك جزءاً من مليون من الجهد والمال والوقت الذى أنفقناه ، على مر القرون والأجيال ، فى الدعوة المضادة . . .

إن تكريس جزء صغير من ميزانيات الحروب فى الدول الكبرى وحدها ، للدعوه إلى السلام ، المكتوبة والمسموعة والاستحثاث الجهود نحو تحقيقه ، كفيل بأن يمهد الطريق واسعاً فسيحاً للسلام ، ويفتح الباب فى وجه من يميلون إلى التشاؤم ، ويسيئون الظن بالإنسان ، ومن يكتنزون الثروات بفضل الحروب ومن التهيؤ لها . .

إن السلام نبات كأى نبات سواه ، يحتاج إلى من يبذر البذر ، ومن يقيه ويرويه ، ويرعاه . . .

فليجند كلٌّ منا نفسه ، ولو لأيام فى السنة ، أو لدقائق فى اليوم ، ليرعى هذا النبات الجميل ، حتى ننعم بأريجه المعطر ، ونفرح بصورته الباهرة .

مراجع الكتاب

أولا : كتب عربية

القرآن الكريم

الكتاب المقدس : العهد القديم – العهد الجديد .

موسوعات تفسير القرآن : الطبرى ، الجلالين ، النسفى . . . إلخ

تفسير القرآن لفريد وجدى ، وحمزة ، وبرانق ، وعلوان . . . إلخ

السيرة الحلبية — لعلى بن برهان الدين الحلبي

سيرة ابن هشام — لأبى محمد عبدالملك بن هشام

محمد — للدكتور محمد حسين هيكل

الأحوال الشخصية لغير المسلمين — للأستاذ حلمى بطرس

تاريخ الأقباط — للأستاذ زكى شنودة

العدالة الاجتماعية فى الإسلام — للأستاذ سيد قطب

نحو عالم جديد — للأستاذ راشد البراوى

اشبنجلر — للدكتور عبد الرحمن بدوى

مذكرات فى السياسة المصرية (جزءان) — للدكتور محمد حسين هيكل

الأمم المتحدة — للدكتور زكى هاشم

فلسطين والضمير العالمى — للأستاذ محمد على علوبة

قضايا فى الأمم المتحدة — للأستاذ خيرى حماد

هذا الشرق العربى — للمؤلف

فى المعركة — للمؤلف

المهاتما غاندى — للمؤلف

ثانياً : كتب أجنبية معربة

تاريخ أوربا فى العصر الحديث	لهربرت فيشر ترجمة وديع الضبع ونجيب هاشم .
موجز تاريخ العالم	ده . ج. ويد . ترجمة عبدالعزيز جاويد
لمحات من تاريخ العالم	لجواهر لال نهرو وترجمة لجنة من أساتذة جامعيين
آسيا والسيطرة الغربية	بقلم ل . م . بانيكار ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد
غاندى القديس	بقلم فيشر ترجمة السيدة صوفى عبد الله
قنبلة هيروشيما	بقلم جون هيرسى ترجمة الأستاذ حسن محمود
قابيل أين أخوك هابيل ؟	بقلم هانز هيرلن ترجمةالأستاذين أحمد عبد القادر وعادل القبانى
مذكرات الإمبراطور غليوم	بقلم الإمبراطور ولهلم الثانى ترجمة الأستاذمحب الدين الخطيب
محادثات مع ستالين	بقلم ميلونان دى جيلاس ترجمة دار مجلة شعر بيروت

ثالثاً : مراجع أجنبية

The Son of Man — *By Emil Ludwig*
Tolstoy his life and work — *By Derrick Leon*
Tolstoy Essays and Letters — *By Aymler Maude*

Life of Tolstoy — *By Aymler Maude*

Mahatma Ghandi — *By Romand Rolland*

Life of Ghandi — *By himself*

Ghandi The Holy Man — *By René Fullop Miller*

Discovery of India — *By Lawaherlal Nehru*

Indepence and after — *By Jawaherlal Nehru*

What does Ghandi Want — *By T.A. Raman*

Freedom's Battle — *By Mahatma Ghandi*

Woodro Wilson and American Leberalism — *By E.M. Hugh - Jones*

The Roots of National Socialism — *By Rohan D.O. Butler*

My Struggle — *By Adolf Hitler*

My Part in Germany's Fight — *By Joseph Gœbbles*

The World of Yesterday — *By Stefan Zweig*

The Life of Benitto Mussolini — *By Marghertta Sarfatti*

Mussolini Red and Black — *By Armando Borgi*

Fascism What and Why ?

History of the Fascist Movement — *By E. Yolke*

Talks with Mussolini — *By Emil Ludwig*

Hitler's War — *By Hugh Dalton*

Blackmail or War — *By Genvieve Tabouis*

Mussolini's Roman Empire — *By G.T. Garrat*

German Soviet Relations — *By E.H. Carr*

What Price Israel — *By Lilienthall*

The Violent Truce — *By Hutcheson*

Zionism and Palestine — *By Ronald Storrs*

The Private Life of Josif Stalin — *By Bernard Hutton Lack Fishman*

History of Modern Europe — *By Dennis Richard*

Can Man Survive ? — *By Bertrands)*

كتب للمؤلف

تراجم

(١) المهاتما غاندى
(٢) محمد عليه السلام
(٣) محمد الثائر الأعظم
(٤) ديفليرا
(٥) موسولينى
(٦) مصطفى كامل

مسرحيات

(٧) دموع إبليس
(٨) أخلاق للبيع وعشر شخصيات تحاكم مؤلفاً (مسرحيتان)
(٩) إله رغم أنفه (خمس مسرحيات قصيرة)
(١٠) شقة للإيجار

ذكريات سياسية

(١١) قبيل الفجر
(١٢) الملك والثوار فى عربة
(١٣) فى المعركة

فى التاريخ السياسى

(١٤) أخى المواطن
(١٥) هذا الشرق العربى

في القصص

(١٦) محام صغير
(١٧) أسطورة حب (مجموعة قصص)
(١٨) شافع وناقع

متنوعات

(١٩) حقائق وأحلام

الفهرست

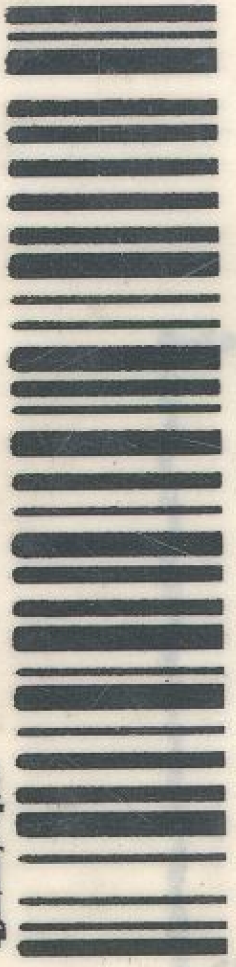
تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب مشكلة الحرب والسلام ، أقدم مشكلات الإنسان وأعقدها ، بأسلوب الأديب ، ومنهج العالم ؛ فهو لا يثقل على القارئ بأسماء المعارك والمواقع ، وتفاصيل المعاهدات والمحالفات ، ولكنه يستخلص منها حقائقها الكبرى ، ومعانيها الباقية ، ويرسم فى سرعة وحرارة جهاد الرسل والأنبياء ، والأدباء والعلماء ، لإنهاء حماقة الحرب ، كل ذلك بأسلوب ينبض إيماناً بالسلام ، ويفيض ثقة بالإنسان . وهو يدور خلف كل معركة ومعاهدة ليكشف عن أزمة العلاقات الإنسانية التى تؤدى دائماً إلى الصراع بين أبناء البشر ، ويردها إلى أسبابها ، فى تحليل تتوالى حلقاته ، وتتصل نتائجه بمقدماته .

وقد احتفل الكتاب بصفة خاصة بالجانب الفكرى لمشكلة الحرب والسلام ، فبسط جميع المذاهب التى أعانت على خلق جو صالح للسلام ، والتى أدت إلى نشوب الحروب ، فتحدث عن تولستوى وغاندى ورسل وولسون ، كما تحدث عن النازية والفاشية وهتلر وموسولينى ، وتناول عصبة الأمم والأمم المتحدة ، ورسم لنا صورة مروعة لآثار الحروب ، وويلاتها على مر الحقب والعصور ، وتوج هذا كله بمأساة هيروشيما ونجازاكى ، ثم ختم حديثه بفصل عن مستقبل السلام ، وضماناته ؛ وهو عرض شامل لأحداث السياسة الهامة ، وشخصياتها الكبرى فى أيامنا التى نحياها الآن .

وفى جملة ، إن الكتاب يعد مرجعاً لأهم مشكلات الإنسان فى العصر الحديث ، ارتفع به كاتبه إلى قضايا الفكر ، فألقى عليها أضواء باهرة .



١٢٠ قرشاً ج . ع . م .	١٢٠٠ فلس فى العراق والأردن	١٦٨٠ فرنكاً فى المغرب
٩٦٠ ق . ل	١٢٠٠ فلس فى الكويت	١٤,٨ ريالا سعودياً
١٢٠٠ ق . س	١٤٤٠ مليماً فى تونس	٢٤ شلناً } فى البلاد
١٢٠٠ مليم فى ليبيا والسودان	١٦٨٠ فرنكاً فى الجزائر	٣,٤٤ دولارات } الأخرى